

مَجْمَعُ الْبَيِّنَاتِ وَفَقْصِ الْقُرْآنِ

تَأليف
أَمِيرِ الْإِسْلَامِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَضْلِ بْنِ الْحُسَيْنِ
الطَّبْرِيِّ

طبعة جديدة مُنقَّحة

الطبعة
للتحقيق والطباعة
والنشر والتوزيع
دار السلام
بيروت - لبنان

jabir.abbas@yahoo.com

مَجْمَعُ الْبَيِّنَاتِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



مَجْمَعُ الْبَيِّنَاتِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ

أَمِيرُ الْإِسْلَامِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَضْلُ بْنُ الْحُسَيْنِ الطَّبْرَسِيُّ

طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنْقَحَةٌ

الجزء الخامس

دار المرتضى
بيروت

DAR AL-MORTADA

Printing –Publishing –Distributing
Lebanon –Beirut
P O Box: 155/25 Ghobiery
Tel –Fax: 009611840392
E-mail:mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

دار المرتضى

طباعة ,نشر ,توزيع
لبنان -بيروت , ص.ب : ٢٥/١٥٥ الغبيري
هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
E-mail:mortada14@hotmail.com

الطبعة الأولى
1427 هجرية
2006 ميلادية

جميع حقوق الطبع والانتساب محفوظة
ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة طباعة
أو ترجمة الكتاب أو جزء منه إلا بإذن
خطي من المؤلف والناشر

سُورَةُ التَّوْبَةِ

هي مدينة كلها، وقال بعضهم: غير آيتين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة. نزلت سنة تسع من الهجرة، وفتحت مكة سنة ثمان، وحج رسول الله ﷺ حجة الوداع سنة عشر، وقال قتادة ومجاهد: وهي آخر ما نزلت على النبي ﷺ بالمدينة.

● عدد آياتها: هي مائة وتسع وعشرون آية، كوفي، وثلاثون، في الباقيين.

● اختلافها: ثلاث آيات: ﴿بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بصري ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: شامي ﴿وَعَادُ وَنَمُودُ﴾: حجازي.

● أسماؤها عشرة: سورة (البراءة): سميت بذلك، لأنها مفتوحة بها، ونزلت بإظهار البراءة من الكفار.

(التوبة): سميت بذلك، لكثرة ما فيها من التوبة، كقوله: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾، ﴿فَإِنْ يَتُوبَا بِكَ خَيْرًا لَّكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾.

(الفاضحة): عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس، سورة التوبة، فقال: تلك الفاضحة، ما زال ينزل حتى خشينا ألا يبقى منهم أحد إلا ذكر، وسميت بذلك لأنها فضحت المنافقين بإظهار نفاقهم.

(المبعثرة): عن ابن عباس أيضاً، سماها بذلك لأنها تبعثر عن أسرار المنافقين، أي، تبحث عنها.

(المقشقة): عن ابن عباس: سماها بذلك لأنها تبرىء من آمن بها من النفاق والشرك، لما فيها من الدعاء إلى الإخلاص. وفي الحديث كان يقال لسورتي: ﴿قُلْ يَكْفُرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ المقشقتان، سميتا بذلك لأنهما تبرئان من الشرك والنفاق، يقال: قشقه إذا برأه، وتقشقش المريض من علته: إذا أفاق وبرىء منها.

(البحوث): عن أبي أيوب الأنصاري: سماها بذلك لأنها تتضمن ذكر المنافقين والبحث عن سرائرهم.

(المدمدة): عن سفيان بن عيينة، أي: المهلكة، ومنه قوله: ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾.

(الحافرة): عن الحسن، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسترونه.

(المثيرة): عن قتادة، لأنها أثارت مخازيهم ومقابحهم.

(سورة العذاب): عن حذيفة بن اليمان، لأنها نزلت بعذاب الكفار، وروى عاصم عن زر بن حبیش، عن حذيفة قال: يسمونها سورة التوبة، وهي سورة العذاب، فهذه عشرة أسماء.

● فضلها: أبي بن كعب، عن النبي ﷺ، قال: «من قرأ سورة الأنفال والبراءة، فأنا شفيع له». الخبر بتمامه، وقد مضى ذكره مع ما في معناه في أول سورة الأنفال، وقد روي عن

سورة التوبة

أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: الأنفال والبراءة واحد، وروي ذلك عن سعيد بن المسيب. وروي الثعلبي بإسناده عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: ما نزل عليّ القرآن إلا آية آية، وحرّفاً حرفاً، خلا سورة (البراءة)، و(قل هو الله أحد)، فإنهما نزلتا عليّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة، كل يقول: يا محمد استوص بنسبة الله خيراً.

علة ترك التسمية، في أولها قراءة وكتابة: للعلماء والمفسرين فيه أقوال:

أحدها: أنها ضمت إلى الأنفال بالمقاربة، فصارتا كسورة واحدة، إذ الأولى في ذكر العهود، والثانية في رفع العهود، عن أبي بن كعب.

وثانيها: أنه لم ينزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس سورة البراءة، لأن بسم الله للأمان والرحمة، ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف، عن علي عليه السلام، وسفيان بن عيينة، واختاره أبو العباس المبرد.

وثالثها: ما روي عن ابن عباس أنه قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى البراءة، وهي من المثني، وإلى الأنفال، وهي من المثنائي، فجعلتموهما في السبع الطوال، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم فقال: كان النبي ﷺ تنزل عليه الآيات، فيدعو بعض من يكتب له، فيقول له: ضع هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل من القرآن بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننا أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين أنها منها، فوضعناها في السبع الطوال، ولم نكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وكانتا تدعيان: القريتين.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة الأنفال بإيجاب البراءة عن الكفار، افتتح هذه السورة بأنه تعالى ورسوله بريئان منهم، كما أمر المسلمين بالبراءة منهم، فقال:

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلَمُوا ۚ أَتُكْرَمُونَ عِزِّ مُعْجِزِ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝﴾ .

● **اللغة:** معنى البراءة: انقطاع العصمة، يقال: برأ يبرأ براءة، وتبرأ تبرؤاً، وأبرأ إبراء. والسيح: السير على مهل، يقال: ساح يسيح سيحاً وسياحة وسيوحاً وسيحاناً. والإعجاز: إيجاد العجز، والعجز ضد القدرة عند من أثبتته معنى. والإخزاء: الإذلال بما فيه الفضيحة والعار. والخزي: النكال الفاضح.

● **الإعراب:** ﴿بَرَاءَةٌ﴾: ترتفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: هذه الآيات براءة. ويحتمل أن يكون مبتدأ وخبره في الظرف، وهو قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾ وجاز أن يكون المبتدأ نكرة، لأنها موصوفة، والأول أجود، لأنه يدل على حضور المدرك، كما تقول لمن تراه حاضراً: حسن والله، أي: هذا حسن.

● **المعنى:** ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه براءة من الله. ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: انقطاع للعصمة،

ورفع للأمان، وخروج من العهود. ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ وللمسلمين، والمعنى: تبرؤوا ممن كان بينكم وبينهم عهد من المشركين، فإن الله ورسوله بريثان منهم، قال الزجاج معناه: قد برىء الله ورسوله من إعطائهم العهود، والوفاء لهم بهما، إذ نكثوا، وإذا قيل: كيف يجوز أن ينقض النبي ﷺ العهد؟ فالقول فيه: أنه يجوز أن ينقض ذلك على أحد ثلاثة أوجه:

إما أن يكون العهد مشروطاً بأن يبقى إلى أن يرفعه الله تعالى بوحى.

وإما أن يكون قد ظهر من المشركين خيانة ونقض، فأمر الله سبحانه بأن ينبذ إليهم عهدهم.

وإما أن يكون مؤجلاً إلى مدة، فتتقضي المدة، ويتنقض العهد.

وقد وردت الرواية بأن النبي ﷺ شرط عليهم ما ذكرناه، وروي أيضاً أن المشركين كانوا قد نقضوا العهد أو همؤا بذلك، فأمره الله سبحانه أن ينقض عهدهم. ثم خاطب الله سبحانه المشركين فقال: ﴿فَيَسْجُرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سيروا في الأرض على وجه المهمل، وتصرفوا في حوائجكم آمنين من السيف ﴿أربعة أشهر﴾، فإذا انقضت هذه المدة ولم تسلموا، انقطعت العصمة عن دمائكم وأموالكم. ﴿وَأَعْلَمُوا أَكْثَرَ غَيْرِ مُعْجِزِ اللَّهِ﴾ أي: غير فائتين عن الله كما يفوت ما يعجز عنه، لأنكم حيث كنتم في سلطان الله وملكه. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يُخَذِّرُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مذلهم ومهينهم.

واختلف في هذه الأشهر الأربعة، فقيل: كان ابتداءها يوم النحر إلى العاشر من شهر ربيع الآخر، عن مجاهد ومحمد بن كعب القرظي، وهو المروي عن أبي عبد الله ﷺ.

وقيل: إنما ابتداء أجلهم الأشهر الأربعة من أول شوال إلى آخر المحرم، لأن هذه الآية نزلت في شوال، عن ابن عباس، والزهرى. قال الفراء: كانت المدة إلى آخر المحرم، لأنه كان فيهم من كانت مدته خمسين ليلة، وهو من لم يكن له عهد من النبي ﷺ، فجعل الله له ذلك.

وقيل: إن من كان له عهد من النبي ﷺ أكثر من أربعة أشهر، حُطَّ إلى الأربعة الأشهر، ومن كان له عهد أقل منها، رفع إليها، عن الحسن، وابن إسحاق، قيل: كان ابتداء الأشهر الأربعة يوم النحر، لعشرين من ذي القعدة إلى عشرين من شهر ربيع الأول، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت، ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة، وفيها حجة الوداع، وكان سبب ذلك النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، على ما سيأتي بيانه إن شاء تعالى، عن الجبائي.

● **القصة:** أجمع المفسرون ونقله الأخبار أنه لما نزلت (البراءة) دفعها رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، ثم أخذها منه، ودفعها إلى علي بن أبي طالب ﷺ، واختلفوا في تفصيل ذلك: فقيل: إنه بعته، وأمره أن يقرأ عشر آيات من أول هذه السورة، وأن ينبذ إلى كل ذي عهد عهده، ثم بعث علياً خلفه ليأخذها ويقرأها على الناس، فخرج على ناقة رسول الله ﷺ العضاء، حتى أدرك أبا بكر بذى الحليفة، فأخذها منه.

سورة التوبة

وقيل: إن أبا بكر رجع فقال: هل نزل في شيء؟ فقال ﷺ: لا، إلا خيراً، ولكن لا يؤذى عني إلا أنا، أو رجل مني.

وقيل: إنه قرأ عليّ (البراءة) على الناس، وكان أبو بكر أميراً على الموسم، عن الحسن وقتادة.

وقيل: إنه ﷺ أخذها من أبي بكر قبل الخروج، ودفعها إلى عليّ عليه السلام، وقال: لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني، عن عروة بن الزبير وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة. وروى أصحابنا أن النبي ﷺ ولاه أيضاً الموسم، وأنه حين أخذ البراءة من أبي بكر، رجع أبو بكر.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن سماك بن حرب، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ بعث بـ (البراءة) مع أبي بكر إلى أهل مكة، فلما بلغ ذا الحليفة بعث إليه فردّه، وقال: لا يذهب بهذا إلا رجل من أهل بيتي، فبعث علياً عليه السلام. (وروى الشعبي، عن محرز بن أبي هريرة، عن أبي هريرة قال؛ كنت أنادي مع عليّ حين أذن المشركين. فكان إذا صَحِلَ صوته^(١) فيما ينادي، دعوت مكانه، قال: فقلت: يا أبت، أي شيء كنتم تقولون؟ قال: كنا نقول: لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عريان، ولا يدخل البيت إلا مؤمن، ومن كانت بينه وبين رسول الله ﷺ مدة، فإن أجله إلى أربعة أشهر، فإذا انقضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله.

وروى عاصم بن حميد، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: خطب عليّ عليه السلام الناس، واختلط سيفه فقال: لا يطوفنّ بالبيت عريان، ولا يحجّن البيت مشرك، ومن كانت له مدة فهو إلى مدته، ومن لم يكن له مدة، فمدته أربعة أشهر، وكان خطب يوم النحر، وكانت عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر، وقال: يوم النحر يوم الحج الأكبر. وذكر أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن زيد بن نفع قال: سألنا علياً عليه السلام: بأي شيء بعثت في ذي الحجة؟ قال: بعثت بأربعة: لا يدخل الكعبة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مؤمن وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر.

وروى أنه عليه السلام قام عند جمرة العقبة وقال: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم، بألا يدخل البيت كافر، ولا يحج البيت مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فله عهده إلى أربعة أشهر، ومن لا عهد له فله مدة بقية الأشهر الحرم، وقرأ عليهم سورة (البراءة).

وقيل: قرأ عليهم ثلاث عشرة آية من أول البراءة، وروى أنه عليه السلام لما نادى فيهم: أن الله بريء من المشركين أي من كل مشرك، قال المشركون: نحن نتبرأ من عهدك وعهد ابن عمك.

(١) صحل صوته: يَخْ وخن.

ثم لما كانت السنة المقبلة، وهي سنة عشر، حج النبي ﷺ حجة الوداع، وقفل^(١) إلى المدينة ومكث بقية ذي الحجة الحرام، والمحرم، وصفر، ولبالي من شهر ربيع الأول، حتى لحق بالله عز وجل.



قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ قُلْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

● **القراءة:** قرأ يعقوب برواية روح وزيد: ﴿ورسوله﴾ بالنصب، وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحق وعيسى بن عمرو. وقرأ سائر القراء: ﴿ورسوله﴾ بالرفع. وفي الشواذ قراءة عكرمة وعطا: ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُمْ﴾ بالضاد المعجمة.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿ورسوله﴾ بالرفع، فإنه على الابتداء، وخبره محذوف ويدل عليه ما تقدمه، وتقديره ورسوله أيضاً بريء منهم. ويجوز أن يكون معطوفاً على المضمرة في ﴿بريء﴾ وحسن العطف عليه، وإن كان غير مؤكد، لأن قوله: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قام مقام التوكيد، وذكر سبويه وجهاً ثالثاً: وهو أن يكون معطوفاً على موضع ﴿أَنْ﴾ وهذا وهم منه، لأن ﴿أَنْ﴾ المفتوحة مع ما بعدها في تأويل المصدر، فقد تغيرت عن حكم المبتدأ، وصارت في حكم ليت ولعل وكان، في إحداثها معنى يفارق المبتدأ، فكما لا يجوز العطف على مواضعهن، فكذا لا يجوز العطف على موضع أن، وإنما يجوز العطف على موضع إن المكسورة، كما قال الشاعر:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب^(٢)

ولعل سبويه توهم أنها مكسورة، فحمل على موضعها، فقد قرأ في الشواذ: ﴿إن الله بريء﴾ بالكسر، فلعله تأول على هذه القراءة، ومن نصب عطفه على اسم الله تعالى، وعلى هذا فيكون خبره محذوفاً أيضاً. ومن قرأ ﴿لم ينقصوكم﴾ فمعناه: لم ينقصوا أموركم وعهودكم.

● **اللغة:** الأذان: الأعلام، يقال: أذنته بكذا فأذن، أي أعلمته فعلم، وقيل: إن أصله من النداء الذي يسمع بالأذن، ومعناه: أوقعه في أذنه، وتأذن بمعنى آذن، كما يقال: تيقن وأيقن. والمدة والزمان والحين نظائر، وأصله من مدت الشيء مداً، فكأنه زمان طويل الفسحة، والمدة عند المتكلمين: اسم للمعدود من حركات الفلك وهو محدث.

(١) أي رجع.

(٢) قائله ضابي بن الحارث البرجمي قالها حين حسبه عثمان بالمدينة لجرم اقترفه. وقيار: اسم فرس وقيل غلامه.

● **الإعراب:** وأذان؛ عطف على براءة - عن الزجاج. وقيل: إن تقديره: عليكم أذان، لأن فيه معنى الأمر، فيكون مبتدأ وخبره محذوف - عن علي بن عيسى، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ﴾ على حذف الباء، كأنه قال: بأن الله، وعلى الوجهين الأولين يكون موضع ﴿أَنَّ﴾ نصباً على أنه مفعول له، وقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ في موضع نصب على الاستثناء، وبشر: معطوف على معنى الأذان، أي أذن وبشر - عن أبي مسلم.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه أنه يجب إعلام المشركين ببراءة منهم، لئلا ينسبوا المسلمين إلى الغدر، فقال: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ معناه: وإعلام وفيه معنى الأمر، أي أذنوا الناس، يعني أهل العهد، وقيل: المراد بالناس المؤمن والمشرک، لأن الكل داخلون في هذا الإعلام، وقوله: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ أي للناس، يقال: هذا إعلام لك وإليك ﴿يَوْمَ الْحُجِّ الْأَكْبَرِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يوم عرفة - عن عمر وسعيد بن المسيب وعطاء وطاووس ومجاهد وروى ذلك عن علي عليه السلام، ورواه المسور بن مخزومة عن النبي ﷺ. قال عطاء: الحج الأكبر: الذي فيه الوقوف، والحج الأصغر: الذي ليس فيه وقوف، وهو العمرة.

وثانيها: أنه يوم النحر، عن علي، وابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وابن زيد، والنخعي، ومجاهد، والشعبي، والسدي، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام، ورواه ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ. قال الحسن: وسمي الحج الأكبر، لأنه حج فيه المشركون والمسلمون، ولم يحج بعدها مشرك.

وثالثها: أنه جميع أيام الحج، عن مجاهد أيضاً وسفيان، فمعناه: أيام الحج كلها، كما يقال: يوم الجمل، ويوم صفين، ويوم بعث^(١)، يراد به: الحين والزمان، لأن كل حرب من هذه الحروب دامت أياماً.

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي من عهد المشركين فحذف المضاف. ﴿وَرَسُولُهُ﴾ معناه: ورسوله أيضاً بريء منه. وقيل: إن البراءة الأولى لنقض العهد، والبراءة الثانية لقطع الموالاة والإحسان، فليس بتكرار. ﴿فَإِنْ بُنِيتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ معناه: فإن تبتم في هذه المدة أيها المشركون، ورجعتم عن الشرك إلى توحيد الله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإقامة على الشرك، لأنكم تنجون به من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمان، وصبرتم على الكفر ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي لا تعجزونه عن تعذيبكم، ولا تفوتون بأنفسكم من أن يحل بكم عذابه في الدنيا، وفي هذا إعلام بأن الإمهال ليس بعجز، وإنما هو لإظهار الحجة

(١) قال القلقشندي: يوم بعث كان بين الأوس والخزرج «إنتهى» وقيل: سمي بذلك، لأن الأوس طلبوا من الخزرج أن يوفقوا الحرب، فطلب الخزرج منهم رهائن، فبعثوا لهم بأربعين غلاماً منهم، ففرقهم الخزرج في دورهم. وقال الحموي: بعث موضع في نواحي المدينة، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية.

والمصلحة، ثم أوعدهم بعذاب الآخرة فقال: ﴿وَنَشِيرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آيِسٍ﴾ أي أخبرهم مكان البشارة بعذاب موجه، وهو عذاب النار في الآخرة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال القراء: استثنى الله تعالى من براءته وبراءة رسوله من المشركين قوماً من بني كنانة، وبني ضمرة، كان قد بقي من أجلهم تسعة أشهر، أمر بإتمامها لهم لأنهم لم يظاهروا على المؤمنين، ولم ينقضوا عهد رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس: عني به كل من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد قبل (براءة)، وينبغي أن يكون ابن عباس أراد بذلك من كان بينه وبينه عقد هدنة، ولم يتعرض له بعداوة، ولا ظاهر عليه عدواً، لأن النبي ﷺ صالح أهل هجر، وأهل البحرين، وإيلة، ودومة الجندل، وله عهود بالصلح والجزية، ولم ينبذ إليهم بنقض عهد، ولا حاربهم بعد، وكانوا أهل ذمة إلى أن مضى لسبيله ﷺ، ووفى لهم بذلك من بعده ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصْكُمْ شَيْئاً﴾ معناه: لم ينقصوكم من شروط العهد شيئاً، وقيل معناه: لم يضرركم شيئاً ﴿وَلَمْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي لم يعاونوا عليكم أيها المؤمنون ﴿أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَمَّا إِلَى اللَّهِ عَاهَدُهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ﴾ أي إلى انقضاء مدتهم التي وقعت المعاهدة بينكم إليها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ لنقض العهود.



قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُفْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦).

● اللغة: الانسلاخ. خروج الشيء مما لابس، وأصله من سلخ الشاة، وهو نزع الجلد عنها. وسلخنا شهر كذا نسلخه سلخاً وسلوخاً. والحصر: المنع من الخروج عن محيط. والحصر، والحبس، والأسر، نظائر. والمرصد: الطريق، ومثله المرقب والمربأ، ورصده يرضده رصداً.

● الإعراب: قال أبو الحسن الأخفش: قوله: ﴿كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ المعنى: على كل مرصد، فحذفت (على) وأنشد:

نُغَالِي اللَّحْمَ لِلْأَضْيَافِ نِيًّا وَنُرْخِصُهُ إِذَا نَضَجَ الْقُدُورُ^(١)

المعنى: نغالي باللحم، فحذفت الباء، قال الزجاج: ﴿كل مرصد﴾ ظرف، كقولك: ذهب مذهباً، وذهبت طريقاً، وذهبت كل طريق.

(١) الني: اللحم لم ينضج، وأصله نيء، فترك الهمز، وقلب ياءً. يقول نشتر اللحم غالباً، ثم نبذله، ونطعمه، إن نضج في قدرونا.

سورة التوبة

قال أبو علي: لا يحتاج في هذا إلى تقدير (على)، إذا كان المرصد اسماً للمكان، كما أنك إذا قلت: ذهبت مذهباً، ودخلت مدخلاً، إذا جعلت المذهب والمدخل اسمين للمكان لم يحتج إلى (على)، ولا إلى تقدير حرف جر، إلا أن أبا الحسن ذهب إلى أن المرصد اسم للطريق، وإذا كان اسماً للطريق كان مخصوصاً، وإذا كان مخصوصاً، وجب ألا يصل الفعل، الذي لا يتعدى إليه إلا بحرف جر، نحو: قعدت على الطريق، إلا أن يجيء في ذلك اتساع، نحو ما حكاه سيويه، من قولهم: ذهبت الشام، ودخلت البيت.

وقد غلط أبو إسحاق الزجاج في قوله: ﴿كل مرصد﴾ ظرف، كقولك: ذهبت مذهباً، وذهبت طريقاً، في أن جعل الطريق ظرفاً كالمذهب، وليس الطريق بظرف، لأنه مكان مخصوص.

وقد نص سيويه على اختصاصه، ألا ترى أنه حمل قول ساعدة:

لَدُنْ بِهِزُ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقُ الشَّعْلُبُ^(١)

على أنه قد حذف منه الحرف اتساعاً، كما حذف من ذهبت الشام، وإذا أثبت ذلك فالمرصد مثله أيضاً في الاختصاص، وألا يكون ظرفاً إذا كان اسماً للطريق.

وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ فأعراه أنه مرفوع بفعل مضمر الذي ظهر تفسيره، المعنى: وإن استجارك أحد. قال الزجاج: ومن زعم أنه يرفع أحداً بالابتداء، فقد أخطأ، لأن إن الجزاء لا يتخطى ما يرفع بالابتداء، ويعمل فيما بعده، فلو أظهرت المستقبل، لقلت: إن أحد يقيم أكرمه، ولا يجوز: إن أحد يقيم زيد يقيم، لا يجوز أن يرفع زيد بفعل مضمر الذي ظهر تفسيره، ويجزم، وإنما جاز في (إن)، لأن (إن) يلزمها الفعل، وجواب الجزاء يكون بالفعل وغيره، ولا يجوز أن تضمّر وتجزم بعد المبتدأ، لأنك تقول هاهنا: إن تأتني فزيد يقوم، فالموضع موضع ابتداء.

قال أبو علي: اعلم أن جواب الشرط وإن كان بغير الفعل، فالأصل فيه الفعل، والفاء، وإذا واقعان موقع الفعل، بدلالة أنَّ قوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ على قراءة من قرأ بالجزم، فمحمول على الموضع من قوله: ﴿فَكَلَّا هَآذِي لَمْ﴾ وأما قول أبي إسحاق: لا يجوز أن تضمّر وتجزم بعد المبتدأ، ولعمري إنه لا يجوز أن يضمّر الفعل، فيرفع الاسم الذي يرتفع بالابتداء بالفعل المضمر، في نحو قولك: إن تأتني فزيد يقوم، لأن الجزم لا يقع بعد المبتدأ، ولكن لا يمنع أن يقع الجزم بعد الفاعل في الجزاء، كما يقع في الشرط، لأن الجزاء موضع فعل، كما أن الشرط موضع فعل، فالمسألة التي منع أبو إسحاق إجازتها جائزة لا إشكال في جوازها، وهي قوله: إن يقيم أحد زيد يقيم.

وقد نص سيويه على إجازة ذلك. قال الزجاج: وإنما يجوز الفصل في باب إن، لأن إن أمّ الجزاء، ولا يزول عنه إلى غيره، فأما أخواتها فلا يجوز ذلك فيها إلا في الشعر، قال:

(١) رمح لدن لين المهزة. وعسل الثعلب: مضى مسرعاً واضطرب في عدوه وهز رأسه يصف الشاعر رمحه باللدونة. قال في اللسان ويروى «لذ».

فَمَتَىٰ وَاعْلَمُوا يَتَّبِعُهُمُ الْيَوْمَ ۖ وَتُعْصَفُ أَعْيُنُ السَّاعِي ۚ (١)

● **المعنى:** ثم بين سبحانه الحكم في المشركين بعد انقضاء المدة، فقال: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ قيل: هي الأشهر الحرم المعروفة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب ثلاثة سرد وواحد فرد، عن جماعة. وقيل: هي الأشهر الأربعة التي حرم القتال فيها، وجعل الله للمشركين أن يسيحوا في الأرض آمنين، على ما ذكرناه من اختلاف المفسرين فيها.

وعلى هذا فمنهم من قال: معناه فإذا انسلخ الأشهر بالنسلاخ المحرم، لأن المشركين من كان منهم لهم عهد أمهلوا أربعة أشهر من حين نزلت البراءة، ونزلت في شوال، ومن لا عهد لهم فأجلهم من يوم نزول النداء، وهو يوم عرفة، أو يوم النحر، إلى تمام الأشهر الحرم، وهي بقية ذي الحجة والمحرم كله، فيكون ذلك خمسين يوماً، فإذا انقضت هذه الخمسون يوماً، انقضى الأجلان، وحل قتالهم، سواء كان لهم عهد خاص أو عام.

ومنهم من قال: معناه إذا انسلخ الأشهر الأربعة، التي هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر، إذ حرماً فيها دماء المشركين، وجعلنا لهم أن يسيحوا فيها آمنين.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي فضعوا السيف فيهم حيث كانوا في الأشهر الحرم وغيرها، في الحل أو في الحرم، وهذا ناسخ لكل آية وردت في الصلح والإعراض عنهم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: فخذوا المشركين حيث وجدتموهم، واقتلوه. وقيل: ليس فيه تقديم وتأخير، وتقديره: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، أو خذوهم واحبسوهم على وجه التخيير في اعتبار الأصلح من الأمرين. وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ معناه: واحبسوهم واسترقوهم، أو فادوهم بمال. وقيل: وامنعوهم دخول مكة، والتصرف في بلاد الإسلام.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي بكل طريق. وبكل مكان تظنون أنهم يمرون فيه، وضيقوا المسالك عليهم لتمكنوا من أخذهم. وقوله ﴿لَهُمْ﴾ معناه: لقتلهم وأسره. ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي رجعوا من الكفر وانقادوا للشرع ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي قبلوا إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لأن عصمة الدم لا تقف على إقامة الصلاة وأداء الزكاة، فثبت أن المراد به القول. ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي دعوهم ينصرفون في بلاد الإسلام، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم. وقيل معناه: فخلوا سبيلهم إلى البيت، أي دعوهم يحجوا معكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. واستدلوا بهذه الآية على أن من ترك الصلاة متعمداً يجب قتله، لأن الله تعالى أوجب الامتناع من قتل المشركين بشرط أن يتوبوا ويقيموا الصلاة، فإذا لم يقيموها وجب قتلهم. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ معناه: وإن طلب أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم، منك الأمان من القتل، بعد الأشهر الأربعة، ليسمع دعوتك واحتجاجك عليه

(١) الواغل: الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه إليه: يصف قومه بالجدود.

سورة التوبة

بالقرآن، فأمنه وبين له ما يريد، وأمهله حتى يسمع كلام الله ويتدبره. وإنما خصّ كلام الله لأن معظم الأدلة فيه. ﴿ثُمَّ أُتِلَّ لَهُ مَا مَنَّمُ﴾ معناه: فإن دخل في الإسلام نال خير الدارين، وإن لم يدخل في الإسلام فلا تقتله، فتكون قد غدرت به، ولكن أوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله. ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك الأمان لهم بأنهم قوم لا يعلمون الإيمان والدلائل، فأمنهم حتى يسمعون، ويتدبروا، ويعلموا.

وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال: المعارف ضرورية.

وفي الآية دلالة على أن المتلو والمسموع كلام الله، لأن الشرع والعرف جعلوا الحكاية معين المحكي، يقال: هذا كلام سيبويه، وشعر امرئ القيس. ومن ظن أن الحكاية تفارق المحكي لأجل هذا الظاهر فقد غلط، لأن المراد ما ذكرناه.



قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨).

● **القراءة:** في الشواذ قراءة عكرمة: ﴿إيلاً﴾ بياء بعد الهمزة.

● **الحجة:** يمكن أن يكون أراد: إلا كقراءة الجماعة، إلا أنه أبدل اللام الأولى ياء، لثقل الإدغام ولكسر الهمزة، كما قالوا: دينار، وقيراط، والأصل: دينار وقراط، لقولهم: دنانير وقراريط، وقد جاء مع التضعيف وحده، قال:

يا ليتما أئنا شالت نعامتها أيما إلى جنة، أيما إلى نار^(١)

● **اللغة:** الظهور: العلو بالغلبة، وأصله خروج الشيء إلى حيث يصح أن يدرك. الرقبة، والانتظار، والمراقبة، والمراعاة، والمحافظة، نظائر. والرقيب: الحافظ. والإل: العهد، مأخوذ من الأليل وهو البريق، يقال: أل يؤل ألا إذا لمع. والآلة: الحرية للمعانها. وأذن مؤللة: مشبهة للحرية في تحديدها، قال الشاعر:

وجذناهم كاذباً إلهم وذو الآل والعهد لا يكذب

والإل: القرابة، قال حسان:

لعمرك إن إلك من قريش كإل السقب من رأل النعام^(٢)

(١) قائله نحيث الخدري يهجو أمه، وكان شريراً أو عاقاً لها. وشالت: من شالت الناقة ذنبها أي: رفعته. والنعام: باطن القدم. وذلك كناية عن موتها.

(٢) السقب: ولد الناقة ساعة يولد. والرأل: ولد النعام. يقول: ان قرابتك من قريش كقرابة ولد الناقة لرأل النعام أي لست منهم في نسب.

● **المعنى:** لما أمر سبحانه بنبد العهد إلى المشركين، بين أن العلة في ذلك ما ظهر منهم من الغدر، وأمر بإتمام العهد لمن استقام على الأمر، فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ أي: كيف يكون لهؤلاء عهد صحيح مع إضمارهم الغدر والنكث! وهذا يكون على التعجب، أو على الجحد، ويدل عليه ما روي أن في قراءة عبد الله: كيف يكون عهد عند الله ولا ذمة، فأدخل الكلام ﴿لَا﴾ لأن معنى الأول جحد، أي: لا يكون لهم عهد. وقيل معناه: كيف يأمر الله ورسوله بالكف عن دماء المشركين، ثم استثنى سبحانه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي فإن لهم عهداً عند الله، لأنهم لم يضمروا الغدر بك، والخيانة لك.

واختلف في هؤلاء من هم، فقيل: هم قريش، عن ابن عباس. وقيل: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية، فلم يستقيموا ونقضوا العهد بأن أعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر، يختارون أمرهم، إما أن يسلموا، وإما أن يلحقوا بأي بلاد شاؤوا، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر، عن قتادة وابن زيد. وقيل: هم من قبائل بكر: بنو خزيمة، وبنو مدلج، وبنو ضمرة، وبنو الدئل، وهم الذين كانوا قد دخلوا عهد قريش يوم الحديبية إلى المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نقضها إلا قريش، وبنو الدئل من بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن له نقض إلى مدته، وهذا القول أقرب إلى الصواب. لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد، وبعد فتح مكة.

﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ معناه: فما استقاموا لكم على العهد، أي: ما داموا باقين معكم على الطريقة المستقيمة، فكونوا معهم كذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ للنكث والغدر ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: هاهنا حذف، وتقديره: كيف يكون لهم عهد؟ وكيف لا تقتلونهم؟ وإنما حذفه لأن ما قبله من قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ يدل على ذلك، ومثله قول الشاعر يرثي أخاً له قد مات:

وخبَّرْتُماني أنما الموت بالقُرى فكيف وهاتا هَضْبَةٌ وقليبٌ^(١)!

أي: فكيف مات، وليس بقرية؟ ومثله قول الحطيئة؟

فكيف ولم أعلمهم حذلوكم على مُعْظَمٍ، ولا أديمكم قذوا^(٢)

أي: وكيف تلوموني على مدح قوم، وتذمونهم؟ فاستغنى عن ذكر ذلك، لأنه جرى في القصيدة ما يدل على ما أضمره، ومعناه: كيف يكون لهؤلاء عهد عند الله وعند رسوله، وهم بحالٍ إن يظهروا عليكم، ويظفروا بكم، ويغلبوكم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي لا يحفظوا، ولا يراعوا فيكم قرابة ولا عهداً، والإل: القرابة، عن ابن عباس والضحاك. والعهد، عن

(١) قائله كعب بن سعد الغنوي. والهضبة: الجبل. الراية.

(٢) حذل حدلاً وحدولاً: جار وظلم. وفي التبيان: «حذلوكم» بمعجمتين. «وقد الأديم» قيل ههنا كناية عن هتك

سورة التوبة

مجاهد، والسدي، والجوار، عن الحسن. والحلف، عن قتادة. واليمين، عن أبي عبيدة. وقيل: إن الإل اسم الله تعالى، عن مجاهد. وروي أن أبا بكر قرأ عليه كلام مسيلمة فقال: لم يخرج هذا من إل، فأين يذهب بكم؟ ومن قال: إن الإل هو العهد، قال: جمع بينه وبين الذمة وإن كان بمعناه، لاختلاف معنى اللفظين، كما قال: «وألفى قولها كذباً وميناً» وقال: «متى أدن منه ينأ عني، ويبعد».

﴿يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: يتكلمون بكلام الموالين لكم لترضوا عنهم، وتأبى قلوبهم إلا العداوة، والغدر، ونقض العهد. ﴿وَكَثُرَهُمْ فَتَسُفُونَ﴾ أي متمردون في الكفر والشرك، عن ابن الإخشيد. وقال الجبائي: أراد: كلهم فاسقون، لكنه وضع الخصوص موضع العموم. وقال القاضي: معناه أكثرهم خارجون عن طريق الوفاء بالعهد، وأراد بذلك رؤساءهم.



قوله تعالى: ﴿أَشْرَوْا بِتَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فِصَادًا عَنْ سَبِيلِهِ إِنْهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩) لَا يَرْجُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآلِيَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ لَكُنَّا أَيْمَنُهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنْهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ كَانُوا فِيهَا يَخْشَوْنَ أَنْ تُخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة والشام: «أَيْمَةَ الْكُفْرِ» بهزتين، وقرأ الباقون: «أَيْمَةَ» بهمزة واحدة وياء بعدها. وقرأ ابن عامر: «لا إيمان» بكسر الهمزة، ورواه ابن عقدة بإسناده، عن عريف بن الوضاح الجعفي، عن جعفر بن محمد عليه السلام، والباقون بفتحها.

● **الحجة:** قال أبو علي: أئمة أصله أفعل، واحداً إمام، فإذا جمعته على أفعل، ففيه همزة هي فاء الفعل، ويزيد عليها همزة أفعل الزائدة، فتجتمع همزتان، واجتماع الهمزتين في كلمة لا يستعمل بحقيقتهما. قال الزجاج: أصله أئمة، ولكن الميمين لما اجتمعتا أدغمت الأولى في الثانية، وألقيت حركتها على الهمزة، فصارت أئمة، فأبدل النحويون من الهمزة المكسورة الياء، قال: ومن قال هذا أَوْمٌ من هذا^(١)، كان أصله أُمٌ، فجعلها واواً مفتوحة، كما قالوا في جمع آدم أودام.

قال أبو علي: ومن جمع بين الهمزتين في «أَيْمَةَ»، فحجته أن سيبويه قال: زعموا أن ابن أبي إسحاق، كان يحقق الهمزتين في أناس معه، وقد يتكلم ببعضه العرب، وهو رديء.

ووجهه من القياس أن تقول: إن الهمزة حرف من حروف الحلق كالعين وغيره، وقد جمع بينهما في نحو: كعاعة، وكَعَّ يَكْعُ، فكما جاز اجتماع العينين، جاز اجتماع الهمزتين.

قال علي بن عيسى: إنما جاز اجتماع الهمزتين هنا، لثلا يجتمع على الكلمة تغييران، الإدغام والقلب، مع خفة التحقيق، لأجل ما بعده من السكون، وعلى هذا تقول: هذا أَمٌّ من هذا، بهمزتين. قال: وإنما قلبت الهمزة من «أئمة»^(١) دون حركة ما قبلها، لأن الحركة إنما نقلت من الميم إلى الهمزة لبيان زنة الكلمة، فلو ذهبت بقلبها على ما قبلها لكنت مناقضاً للغرض فيها.

وأما قوله: «لَا أَيْدَنَ لَهُمْ» فمن فتح الهمزة قال: هو أشبه بالموضع، فقد قال: نكثوا إيمانهم. ومن كسرهما، جعله مصدر آمنته إيماناً، خلاف خوْفته، ولا يريد مصدراً من الذي هو صدق، فيكون تكراراً لدلالة ما تقدم من قوله: «فَقَتِّلُوا آيَةَ الْكُفْرِ» على أن أهل الكفر لا إيمان لهم.

● **اللغة:** الأيمان: جمع يمين وهو القسم. والطعن: الاعتماد بالعيب، وأصله الطعن بالرمح. والإمام: هو المتقدم للاتباع، فالإمام في الخير مهتد هادٍ، وفي الشر ضالٌ مضل. والهمم: مقارنة الفعل بالعزم من غير إيقاع له، وقد دُمُوا بهذا الهمم، ففيه دليل على العزم، وقد يستعمل الهمم على مقارنة العزم. والبدء: فعل الشيء من قبل غيره، وهو فعل الشيء أولاً. والمرة: فعل لم يتكرر، وهي الفعلة من المر. والمرة والدفعة، والكرة، نظائر.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه خصال القوم فقال: «أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ» ومعناه: أعرضوا عن دين الله، وصدّوا الناس عنه بشيء يسير نالوه من الدنيا. وأصل الاشتراء: استبدال ما كان من المتاع بالثمن، ونقيضه البيع: وهو العقد على تسليم المتاع بالثمن. ومعنى الفاء هنا، أن اشتراءهم هذا أذاهم إلى الصد عن الإسلام، وهذا ورد في قوم من العرب، جمعهم أبو سفيان على طعامه ليستميلهم على عداوة ﷺ، عن مجاهد. وقيل: ورد في اليهود الذين كانوا يأخذون الرشا من العوام على الحكم بالباطل، عن الجبائي. «إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أي: بشئ العمل عملهم «لَا يَرْجُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً» سبق معناه. والفائدة في الإعادة أن الأول في صفة الناقضين للعهد، والثاني في صفة الذين اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً. وقيل: إنما كرر للتأكيد. «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» أي: المجاوزون الحد في الكفر والطغيان.

«إِنْ تَابُوا» أي ندموا على ما كان منهم من الشرك، وعزموا على ترك العود إليه، وقبلوا الإسلام «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ» أي: قبلوهما وأدوهما عند لزومهما، «فَلَحَظْنَاكُمْ فِي الْآيَاتِ» أي فهم إخوانكم في الدين، فعاملوهم معاملة إخوانكم من المؤمنين. «وَنَقُصِّلُ الْآيَاتِ»

سورة التوبة

أي نبينها ونميزها بخاصة لكل واحدة منها تتميز بها من غيرها، حتى يظهر مدلولها على أتم ما يكون من الظهور فيها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ويتبينونه، دون الجهال الذين لا يتفكرون.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أي: نقضوا ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: عهودهم، وما حلفوا عليه ﴿مِنَ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: من بعد أن عقدوه ﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه وقدحوا فيه ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفَرِ﴾ أي: رؤساء الكفر والضلالة، وخصهم بالأمر بقتالهم، لأنهم يضلون أتباعهم. قال الحسن: وأراد به جماعة الكفار، وكل كافر إمام لنفسه في الكفر، ولغيره في الدعاء إليه. وقال ابن عباس وقتادة: أراد به رؤساء قريش، مثل الحرث بن هشام، وأبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد، وكان حذيفة بن اليمان يقول: لم يأت أهل هذه الآية بعد. وقال مجاهد: هم أهل فارس والروم. وقرأ علي عليه السلام هذه الآية يوم البصرة، ثم قال: أما والله! لقد عهد إلي رسول الله ﷺ وقال لي: يا علي، لتقاتلن الفئة الناكثة، والفئة الباغية، والفئة المارقة! ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ من قرأ بفتح الهمزة فمعناه: أنهم لا يحفظون العهد واليمين، كما يقال: فلان لا عهد له، أي لا وفاء له بالعهد، ومن قرأ بالكسر فمعناه: لا تؤمنوهم بعد نكثهم العهد، ويحتمل أن يكون معناه أنهم إذا آمنوا إنساناً لا يقون به، ويحتمل أن يكون معناه أنهم إذا آمنوا إنساناً لا يقون به، ويحتمل أن يكون معناه أنهم إذا آمنوا إنساناً لا يقون به، وإنا نفاها من بعد، لأنهم لم يفوا بها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْا﴾ معناه: قاتلوهم لينتَهُوا عن الكفر، فإنهم لا ينتهون عنه بدون القتال. وقيل معناه: ليكن قصدكم في قتالهم، انتهؤهم عن الشرك.

فإن قيل: كيف نفي بقوله: ﴿لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ ما أثبتته بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَيْمَانَهُمْ﴾؟ قيل له: إن الأيمان التي أثبتتها، هي ما حلفوا بها، وعقدوا عليها. وإنما نفاها من بعد، لأنهم لم يفوا بها، ولم يتمسكوا بموجبها.

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾، الألف للاستفهام، والمراد به التحضيض والإيجاب، ومعناه: هلا تقاتلونهم وقد نقضوا عهودهم التي عقدوها. واختلف في هؤلاء، فقيل: هم اليهود الذين نقضوا العهد وخرجوا مع الأحزاب، وهموا بإخراج الرسول من المدينة، كما أخرجه المشركون من مكة، عن الجبائي والقاضي.

وقيل: هم مشركو قريش وأهل مكة ﴿وَهُمْ بَدَّؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: بدءوكم بنقض العهد، عن ابن إسحاق والجبائي.

وقيل: بدءوكم بقتال حلفاء النبي ﷺ من خزاعة، عن الزجاج.

وقيل: بدءوكم بالقتال يوم بدر، وقالوا حين سلم العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً ومن معه.

﴿أَخْشَوْهُمْ﴾ أي: أتخافون أن ينالكم من قتالهم مكروه؟ لفظه استفهام والمراد به تشجيع المؤمنين، وفي ذلك غاية الفصاحة، لأنه جمع بين التقريع والتشجيع. ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ المعنى: لا تخشوهم ولا تتركوا قتالهم، خوفاً على أنفسكم منهم، فإنه سبحانه أحق أن تخافوا عقابه في ترك أمره بقتالهم، إن كنتم مصدقين بعقاب الله وثوابه، أي: إن كنتم مؤمنين فخشية الله أحق بكم من خشية غيره، والله أعلم وأحكم.



قوله تعالى: ﴿فَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

● القراءة: في الشواذ قراءة الأعرج، وابن أبي إسحاق، وعيسى الثقفي، وعمرو بن عبيد: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ بالنصب، ورويت عن أبي عمرو أيضاً.

● الحجة: قال ابن جني: إذا نصب فالتوبة داخله في جواب الشرط، وإذا رفع فهو استئناف، وتقديره في النصب: إن تقاتلوهم تكن هذه الأشياء كلها التي أحدها التوبة من الله على من يشاء.

والوجه في قراءة الجماعة على الاستئناف، لأنه تم الكلام على قوله: ﴿وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ثم استأنف فقال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ لأن التوبة منه سبحانه على من يشاء ليست مسببة عن قتالهم.

● المعنى: ثم أكد سبحانه ما تقدم، بأن أمر المسلمين بقتالهم، وبشرهم بالنصر والظفر عليهم، فقال: ﴿فَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلاً وأسراً ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أي ويذلهم ﴿وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويعنكم أيها المؤمنون عليهم، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: صدور بني خزاعة، الذين بيّت عليهم بنو بكر، عن مجاهد والسدي، لأنهم كانوا حلفاء النبي ﷺ ﴿وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ معناه: ويكون ذلك النصر شفاء لقلوب المؤمنين، التي امتلأت غيظاً لكثرة ما نالهم من الأذى من جهتهم، ثم استأنف سبحانه فقال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ويقبل توبة من تاب منهم مع فرط تعذيبهم، رحمة وفضلاً ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم: بتوبتهم إذا تابوا، حكيم في أمرهم بقتالهم إذا نكثوا قبل أن يتوبوا ويرجعوا، لأن أفعاله كلها صواب وحكمة، وفي هذا دلالة على نبوة نبينا ﷺ، لأنه وافق خبر المخبر.

● النظم: والوجه في اتصال قوله: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ بما قبله شيثان:

أحدهما: البشارة بأن فيهم من يتوب ويرجع عن الكفر إلى الإيمان.

والآخر: بيان أنه ليس في قتالهم اقتطاع لأحد منهم عن التوبة.



سورة التوبة

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١١).

● **اللغة:** الحسبان: قوة المعنى في النفس من غير قطع، وهو مشتق من الحساب لدخوله فيما يحتسب به. والترك: ضد ينافي الفعل المبتدأ في محل القدرة عليه، ويستعمل بمعنى ألا يفعل، كقوله: ﴿وَتَرْكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصَرُونَ﴾. والوليعة: الدخيلة في القوم من غيرهم. والبطانة، مثله. وليعة الرجل: من يختص بدخيلة أمره دون الناس، الواحد والجمع فيه سواء، وكل شيء دخل في شيء ليس منه فهو وليعة، قال طرفة:

فإن القوافي يتلججن موالجاً تضايقُ عنه أن تولجهُ الإبرُ

● **الإعراب:** أم: حرف عطف يعطف به الاستفهام، و ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: معطوف على ما تقدم من قوله ﴿أَلَا تَتْلُونَ﴾ وهو من الاستفهام المعترض في وسط الكلام، فجعل بأم ليفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ لما يفعل نفي الفعل مع تقريب لوقوعه، ولم يفعل نفي الفعل بعد إطماع في وقوعه.

● **المعنى:** ثم نبه سبحانه على جلالة موقع الجهاد، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ ومعناه: أظننتم أيها المؤمنون أن تتركوا من دون أن تكلفوا الجهاد في سبيل الله مع الإخلاص ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ معناه: ولما يظهر ما علم الله منكم، فذكر نفي العلم والمراد نفي المعلوم، تأكيداً للنفي، وإلا فإن الله عز اسمه عالم بما يكون قبل أن كان، وبما لا يكون لو كان، كيف كان يكون. وتقديره: أظننتم أن تتركوا ولم تجاهدوا؟ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أي ولم يعلم الله الذين لم يتخذوا سوى الله، وسوى رسوله، والمؤمنين، بطانة وأولياء يوالونهم، ويفشون إليهم أسرارهم وقال الجبائي: هو أن يكونوا منافقين، وهو قول الحسن. وفي هذا دلالة على تحريم موالاة الكفار والفساق والإلف بهم. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: عليم بأعمالكم، فيجازيكم عليها.

● **النظم:** وجه اتصال هذه الآية بما قبلها، أنه لما تقدم الأمر بالقتال، عطف عليه بهذا الشرط، وهو الإخلاص في الجهاد على وجه قطع العصمة، ليظهر الظفر ويستحق الثواب.



قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨).

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة وابن كثير: ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ على الواحد، وهو قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد. والباقون: ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾.

● **الحجة:** حجة من أفرد أنه عنى به المسجد الحرام، وحجة من جمع أنه عنى به المسجد الحرام وغيره من المساجد، ويحتمل أن يكون أراد المسجد الحرام، وإنما جمع لأن كل موضع منه مسجد يسجد عليه، فتكون القراءتان بمعنى.

● **اللغة:** الأصل في المسجد: هو موضع السجود في العرف، ويعبر به عن البيت المهيأ لصلاة الجماعة فيه. والعمارة: أن يجدد منه ما استرم من الأبنية، ومنه اعتمر إذا زار، لأنه يجدد بالزيارة ما استرم من الحال.

● **المعنى:** لما أمر الله سبحانه بقتال المشركين، وقطع العصمة والموالة عنهم، أمر بمنعهم عن المساجد، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ معناه: لا ينبغي للمشركين أن يكونوا قواماً على عمارة مساجد الله ومتولين لأمرها، وينبغي أن يعمرها المسلمون. وقيل: إن المراد بذلك المسجد الحرام خاصة. وقيل: هي عامة في جميع المساجد ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ أي: حال شهادتهم على أنفسهم بالكفر، أو مع شهادتهم واختلف في العمارة للمسجد.

ف قيل: هي بدخوله ونزوله، كما يقال: فلان يَغْمُرُ مجلس فلان إذا أكثر غشيانه، لأن المسجد تكون عمارته بطاعة الله وعبادته. وقيل: هي باستصلاحه، ورم ما استرم منه، لأنه إنما يعمر للعبادة، عن الجبائي. وقيل: هي بأن يكونوا من أهله، أي لا ينبغي أن يترك المشركون فيكونوا أهل المسجد الحرام، عن الحسن.

واختلف في شهادتهم على أنفسهم بالكفر، كيف هي؟

ف قيل: هي أن النصراني يُسأل، ما أنت؟ فيقول: أنا نصراني، واليهودي يقول: أنا يهودي، وكذلك المشرك إذا سئل، ما دينك؟ يقول مشرك، لا يقولها أحد غير العرب، عن السدي.

وقيل: معناه أن كلامهم يدل على كفرهم، كما يقال: كلام فلان يدل على بطلان دعواه، عن الحسن.

وقيل: هي قولهم: (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك).

وقيل: شهادتهم سجودهم لأصنامهم، مع إقرارهم بأنها مخلوقة، عن ابن عباس. ومعناه: أنهم يشهدون على أنفسهم بأفعالهم وأحوالهم، ومن أظهر شيئاً وبيّنه يقال: قد شهد به.

﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ التي هي من جنس الطاعة من المؤمنين، أي: بطلت لأنهم أوقعوها على الوجه الذي لا يستحق لأجله الثواب عليها عند الله ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أي: مقيمون مؤبدون.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ لفظه إنما لإثبات المذكور ونفي ما عداه، فمعناه: لا يعمر مساجد الله بزيارتها، وإقامة العبادات فيها، أو ببناؤها ورم المسترم منها إلا ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَآلِئِهِ الْآخِرِ﴾ أي من أقر بوحدانية الله، واعترف بالقيامة ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ بحدودها ﴿وَأَتَى

سورة التوبة

الرَّكُوعَ أَي: أعطاهما إن وجبت عليه إلى مستحقها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أَي: لم يخف سوى الله أحداً من المخلوقين، وهذا راجع إلى قوله: ﴿اتَّخِذُوهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُمْ﴾ أَي: إن خشيتموهم فقد ساويتموهم في الإشراك، كما قال: ﴿فَلَمَّا كَبِىَ عَلَيْهِمُ الْغَبَالُ إِذَا فِئْتٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الآية ﴿فَقَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إلى الجنة ونيل ثوابها، لأن عسى من الله واجبة، عن ابن عباس والحسن، وفي ذكر الصلاة والزكاة وغير ذلك، بعد ذكر الإيمان بالله، دلالة على أن الإيمان لا يتناول أفعال الجوارح، إذ لو تناولها لما جاز عطف ما دخل فيه عليه. ومن قال: إن المراد فيه التفصيل وزيادة البيان، فقد ترك الظاهر.



قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٩) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠) ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (٢١) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢).

● **القراءة:** في قراءة محمد بن علي الباقر عليه السلام وابن الزبير وأبي وجرة السواري وأبي جعفر السعدي القاري ﴿أَجَعَلْتُمْ سُقَاةَ الْحَاجِّ وَعَمَرَهُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وقرأ الضحاك: ﴿سُقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ بالضم ﴿وَعَمَرَهُ الْمَسْجِدَ﴾.

● **الحجة:** أما سقاة: فهو جمع ساق. وعَمَرَة. جمع عامر. وأما سُقَايَة: فقد قال ابن جني فيه نظر، ووجهه أن يكون جمعاً جاء على فعال، كعرق وعراق، ورخل ورخال^(١)، وظئر وظؤار، وتوم وتؤام، وبريء وبراء، وإنسان وأناس، ثم أنت كما يؤنث من الجموع أشياء، نحو: حجارة وعبورة^(٢)، وكأن من عدل عن قراءة الجماعة ﴿سُقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ﴾ إلى هذا، إنما هرب من أن يقابل الحدث بالجوهر، وذلك أن من آمن جوهر، وسقاية وعمارة مصدران، فلا بد إذن من حذف المضاف، أي: أجعلتم هذين الفعلين كفعل من آمن بالله، فلما رأى أنه لا بد من حذف المضاف، قرأ: سُقَاة وعمرة، على ما مضى.

● **اللغة:** السقاية: آلة تتخذ لسقي الماء، والسقاية: مصدر كالسقي أيضاً. وقيل: إنهم كانوا يسقون الحجاج الماء والشراب، ويبت البئر سقاية أيضاً. والبشارة: الدلالة على ما يظهر به السرور في بشرة الوجه، كما يقال: بشرته أبشره بشري. ورضوان: هو معنى يستحق بالإحسان، ويدعو إلى الحمد على ما كان، ورضاد سخط العصيان. والنعيم: مشتق من النعمة، وهي اللين. فأما النعمة: بكسر النون، فهي منفعة يستحق بها الشكر، لأنها كنعمة العيش. وأبدأ:

(١) الرخل: الأنثى من أولاد الضأن.

(٢) عبورة جمع العير: الحمار وحشياً، أو أهلياً، وقد غلب على الوحشي.

لِلزَّمانِ الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ غَيْرِ آخَرٍ، كَمَا أَنَّ قَطَّ لِلْمَاضِي. يُقَالُ: مَا رَأَيْتَهُ قَطَّ، وَلَا أَرَاهُ أَبَدًا، وَجَمَعَ الْأَبَدُ: أَبَادَ وَأَبُودَ. يُقَالُ: لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَدَ الْأَبِيدِ، وَأَبَدَ الْآبِدِينَ. وَتَأَبَّدَ الْمَنْزِلُ: أَتَى عَلَيْهِ الْأَبَدُ. وَالْأَوَابِدُ: الْوَحْشُ، سَمِيَتْ بِذَلِكَ لَطُولَ أَعْمَارِهَا. وَقِيلَ: لَمْ يَمِتْ وَحْشِي حَتْفَ أَنْفِهِ، وَإِنَّمَا يَمُوتُ بِآفَةٍ. وَالْآبِدَةُ: الدَّاهِيَةُ.

● **النزول:** قيل: إنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، والعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن شيبه، وذلك أنهم افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت ويدي مفتاحه، ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي عليه السلام: ما أدري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، عن الحسن، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي. وقيل: إن علياً عليه السلام قال للعباس: يا عم! ألا تهاجر، وألا تلحق برسول الله؟ فقال: أأست في أفضل من الهجرة أعمر المسجد الحرام، وأسقي حاج بيت الله؟ فنزلت: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾، عن ابن سيرين، ومرة الهمداني.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني، بإسناده عن ابن بريدة، عن أبيه، قال: بينا شيبه والعباس يتفاخران إذ مر بهما علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد: سقاية الحاج. وقال شيبه: أوتيت عمارة المسجد الحرام، فقال علي عليه السلام: استحييت لكما، فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا! فقالا: وما أوتيت يا علي؟ قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى أمتما بالله ورسوله! فقام العباس مغضباً يجر ذيله حتى دخل على رسول الله ﷺ وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به علي؟ فقال: ادعوا لي علياً، فدُعي له، فقال: ما حملك على ما استقبلت به عمك؟ فقال: يا رسول الله! صدمته بالحق، فمن شاء فليغضب، ومن شاء فليرض، فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد! إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول أتل عليهم: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآيات. فقال العباس: إنا قد رضينا ثلاث مرات.

وفي تفسير أبي حمزة، أن العباس لما أسر يوم بدر، أقبل عليه أناس من المهاجرين والأنصار فعيروه بالكفر وقطيعة الرحم، فقال: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ قالوا: وهل لكم من محاسن؟ قال: نعم، والله لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفك العاني^(١). فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا﴾ إلى آخر الآيات.

● **المعنى:** ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ هذا استفهام معناه الإنكار، أي: لا تجعلوا، وفيه حذف يدلُّ الكلام عليه، وتقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله، حتى يكون مقابلة الشخص بالشخص، أو يكون تقديره: أجعلتم السقاية والعمارة كإيمان من آمن بالله؟ حتى تكون مقابلة الفعل بالفعل. وسقاية الحاج: سقيهم الشراب. قال الحسن: وكان نبيذ زبيب، يسقون الحاج في الموسم، بين الله

(١) العاني: الأسير، وكل من ذل، واستكان، وخضع.

سورة التوبة

سبحانه أنه لا يقابل هذه الأشياء بالإيمان بالله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وبالجهد في سبيل الله ﴿وَبِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ﴾ فإنه لا مساواة بين الأمرين ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ في الفضل والثواب. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يهدي إليه من كان عارفاً به، فاعلاً لطاعته، مجتنباً لمعصيته.

ثم ابتدأ سبحانه فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدّقوا واعترفوا بوحداية الله، ﴿وَهَاجَرُوا﴾ أو طأنهم التي هي دار الكفر إلى دار الإسلام، ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: تحملوا المشاق في ملاقات أعداء الدين ﴿يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَغْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ من غيرهم من المؤمنين الذين لم يفعلوا هذه الأشياء، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي الظافرون بالبغيه. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ﴾ وبما بين في كتبه من الثواب الموعود على الجهاد ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ في الآخرة، ﴿وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمٌ مُقِيمٌ﴾ أي: دائم لا يزول ولا ينقطع. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: دائمين فيها مع كون النعيم مقيماً لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ﴾ أي جزاء على العمل ﴿عَظِيمٌ﴾ أي: كثير متضاعف لا يبلغه نعمة غيره من الخلق.



قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣) قل إن كان آباءكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترنتموها وبحرّة تخشون كسادها ومسكنٌ ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فترَبُّصوا حتّى يأفك الله أمره والله لا يهدي القومَ الفاسقين ﴿١٤﴾ .

● **القراءة:** قرأ أبو بكر عن عاصم: «وعشيرتكم» على الجمع. والباقون: ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ على التوحيد.

● **الحجة:** من أفرد: فلأن العشيرة يقع على الجمع، وقال أبو الحسن: العرب لا تجمع العشيرة عشيرات، وإنما تقول: عشائر، ومن جمع فلأن كل واحد من المخاطبين له عشيرة.

● **اللغة:** الاستحباب: طلب المحبة، ويجوز أن يكون استحب: بمعنى أحب، كما أن استحباب يكون بمعنى أجب، فيكون كأنه طلب محبة فوق له. والعشيرة: الجماعة ترجع إلى عقد واحد، كالعشرة، ومنه المعاشرة. والإقتراف: اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره، من قرّفت القرحة إذا قشرتها، والقرف: القشر. والتربص: التثبت في الشيء حتى يجيء وقته. والتربص، والتثبت، والتنظر، والتوقف، نظائر، ونقيضه: التعجل.

● **النزول:** روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام، أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حيث كتب إلى قريش يخبرهم بخبر النبي ﷺ لما أراد فتح مكة.

● **المعنى:** ثم نهى الله سبحانه المؤمنين عن موالاة الكافرين، وإن كانوا في النسب الأقربين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا في أمر الدين، فأما في أمر الدنيا فلا بأس بمجالستهم ومعاشرتهم، لقوله سبحانه: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس: لما أمر الله تعالى المؤمنين بالهجرة، وأرادوا الهجرة، فمنهم من تعلقت به زوجته، ومنهم من تعلق به أبواه وأولاده، فكانوا يمنعونهم من الهجرة، فيتركون الهجرة لأجلهم، فبين سبحانه أن أمر الدين مقدم على النسب، وإذا وجب قطع قرابة الأبوين فالأجنبي أولى ﴿إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي: إن اختاروا الكفر وآثروه على الإيمان. قال الحسن: من تولى المشرك فهو مشرك، وهذا إذا كان راضياً بشركه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَمِنْكُمْ﴾ فترك طاعة الله لأجلهم، وأطلعهم على أسرار المسلمين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ نفوسهم والباخسون حقها من الثواب، لأنهم وضعوا الموالاة في غير موضعها، لأن موضعها أهل الإيمان.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ الذين ولدوكم ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الذي ولدتموهم، وهم الأولاد الذكور ﴿وِإِخْوَانُكُمْ﴾ في النسب ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ اللاتي عقدتم عليهن عقدة النكاح ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي وأقاربكم ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها واقتطعتموها وجمعتموها ﴿وَبُيُوتٌ كَسَادَتْهَا﴾ أي تخشون أنها تكسد إذا اشتغلتكم بطاعة الله تعالى والجهاد ﴿وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي مساكن اخترتموها لأنفسكم، ويعجبكم المقام فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي أثر في نفوسكم، وأقرب إلى قلوبكم ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: من طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ أي ومن الجهاد في سبيل الله ﴿فَقَرَّبُوا﴾ أي انتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ أي بحكمه فيكم. وقيل: بعقوبتكم على اختياركم هذه الأشياء على الجهاد وطاعة الله، إما عاجلاً، وإما أجلاً، وفيه وعيد شديد، عن الحسن، والجبائي. وقيل: بفتح مكة، عن مجاهد. وقال بعضهم: وهذا لا يصح، لأن سورة (البراءة) نزلت بعد فتح مكة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ مضى تفسيره.



قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْهَتُمْ فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٢٥) ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٧).

● **اللغة:** الموطن: الموضع الذي يقيم فيه صاحبه، وهو مفعول من الوطن، واستوطن بالمكان: إذا اتخذ وطناً. وحين: اسم واد بين مكة والطائف. والإعجاب: السرور بما يتعجب منه. والعجب: السرور بالنفس. والرحب: السعة في المكان، وضده الضيق. وقولهم مرحباً: معناه آتيت سعة. والسكينة: الطمأنينة والأمنة، وهي فعيلة من السكون، قال الشاعر:

لله قبرٌ عالها، ماذا أجزُّ لقد أجزُّ سكينه ووقارا^(١)

والجنود: الجموع التي تصلح للحروب.

● الإعراب: مواطن: لا ينصرف، لأنه جمع ليس على مثال الأحاد. ويوم حنين: أي

وفي يوم حنين، عطف على مواطن أي: ونصركم في يوم حنين، وإنما صرف حنيناً لأنه اسم لمذكر، وهو واد، ولو ترك صرفه على أنه اسم للبقعة لجاز، قال الشاعر:

نصروا نبيهم وشدوا أزرهم بحنين يوم تواكل الأبطال^(٢)

وما في قوله: ﴿يَمَّا رَحِبَتْ﴾، مصدرية، أي برحبها وسعتها.

● المعنى: لما تقدم أمر المؤمنين بالقتال، ذكرهم بعده بما أتاهم من النصر حالاً بعد

حال، فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ اللام للقسم، فكأنه سبحانه أقسم بأنه نصر المؤمنين، أي أعانهم على أعدائهم في مواضع كثيرة، على ضعفهم، وقلة عددهم، حتاً لهم على الانقطاع إليه، ومفارقة الأهلين والأقربين في طاعته.

وورد عن الصادقين عليه السلام أنهم قالوا: كانت المواطن ثمانين موطناً، وروي أن المتوكل اشتكى شكاية شديدة، فنذر أن يتصدق بمال كثير إن شفاه الله، فلما عوفي سأل العلماء عن حد المال الكثير، فاختلفت أقوالهم، فأشير عليه أن يسأل أبا الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى عليه السلام، وقد كان حبسه^(٣) في داره، فأمر أن يكتب إليه، فكتب: يتصدق بثمانين درهماً، ثم سأله عن العلة في ذلك، فقرأ هذه الآية، وقال: عددنا تلك المواطن، فبلغت ثمانين موطناً.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي وفي يوم حنين ﴿إِذْ أَعْيَجَتَكُمْ فِرْيَتُكُمْ﴾ أي سرتكم وصرتهم معجبين بكثرتكم. قال قتادة: وكان سبب انهزام المسلمين يوم حنين أن بعضهم قال حين رأى كثرة المسلمين: لن نغلب اليوم عن قلة! فانهزموا بعد ساعة، وكانوا اثني عشر ألفاً. وقيل: إنهم كانوا عشرة آلاف. وقيل: ثمانية آلاف. والأول أصح وأكثر في الرواية ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ أي فلم يدفع عنكم كثرتكم سوءاً ﴿وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ يَمَّا رَحِبَتْ﴾ أي برحبها، والباء بمعنى مع، والمعنى ضاقت عليكم الأرض مع سعتها، كما يقال: أخرج بنا إلى موضع كذا، أي معنا، والمراد: لم تجدوا من الأرض موضعاً للفرار إليه ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ أي وليتم عن عدوكم منهزمين، وتقديره: وليتموهم أدباركم وانهزمتهم.

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي رحمته التي تسكن إليها النفس، ويزول معها الخوف ﴿عَلَى

(١) عال الشيء فلاناً: غلبه وثقل عليه. وفي التبيان «غالها» بالغين المعجمة: ومعناه أهلكها. وأجن بمعنى ستر.

(٢) قائله حسان بن ثابت، وفي الديوان، واللسان، ومعجم البلدان: «أزره» مكان «أزرهم» وهو الظاهر. وتواكل الأبطال أي: ضعفهم واتكأهم على غيرهم.

(٣) وفي نسخة مخطوطة «وقد كان حينئذ».

رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿ حِينَ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ وَقَاتَلُوهُمْ. وَقِيلَ: عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ ثَبَتُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ: عَلِيٍّ وَالْعَبَّاسِ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مَزَاحِمٍ، وَرَوَى الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ فَضَالٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا أَنَّهُ قَالَ: السَّكِينَةُ رِيحٌ مِنَ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ طَيِّبَةً، لَهَا صُورَةٌ كَصُورَةِ وَجْهِ الْإِنْسَانِ، فَتَكُونُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ. أَوْرَدَهُ الْعِيَّاشِيُّ مُسْنَدًا. ﴿وَأَنْزَلَ جُودًا لَوْ تَرَوْهَا﴾ أَرَادَ بِهِ جُنُودًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَقِيلَ: إِنْ الْمَلَائِكَةُ نَزَلُوا يَوْمَ حَنْيْنٍ بِتَقْوِيَةِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَشْجِيعِهِمْ، وَلَمْ يَبَاشِرُوا الْقِتَالَ يَوْمَئِذٍ، وَلَمْ يَقَاتِلُوا إِلَّا يَوْمَ بَدْرٍ خَاصَّةً، عَنِ الْجَبَائِي. ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالْقَتْلِ، وَالْأَسْرِ، وَسَلْبِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أَيِ ذَلِكَ الْعَذَابِ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾: ذَكَرَ سُبْحَانَهُ ﴿ثُمَّ﴾ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعٍ مُتَقَارِبَةٍ:

الأول: ﴿ثُمَّ وَلَيْسَ مَذِيرِينَ﴾ عَطَفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْفِعْلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

والثاني: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ عَطَفَ عَلَى ﴿وَلَيْسَ مَذِيرِينَ﴾.

والثالث: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ عَطَفَ عَلَى ﴿أَنْزَلَ﴾، وَإِنَّمَا حَسَنَ عَطَفَ الْمُسْتَقْبَلِ عَلَى الْمَاضِي لِأَنَّهُ يَشَاكِلُهُ، فَإِنَّ الْأَوَّلَ تَذْكِيرٌ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَالثَّانِي وَعْدٌ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَالْمَعْنَى: ثُمَّ يَقْبَلُ اللَّهُ تَوْبَةَ مَنْ تَابَ عَنِ الشَّرْكِ، وَرَجَعَ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ، وَنَدِمَ عَلَى مَا فَعَلَ مِنَ الْقَبِيحِ.

ويجوز أن يريد: ثُمَّ يَقْبَلُ اللَّهُ تَوْبَةَ مَنْ انْهَزَمَ مِنْ بَعْدِ هَزِيمَتِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ: يَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ عَنْ إِعْجَابِهِمْ بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا عُلِقَ بِالمَشِيئَةِ لِأَنَّ قَبُولَ التَّوْبَةِ تَفْضِيلٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا عَلَى مَا قَالَه أَهْلُ الْوَعِيدِ لَمَا جَازَ تَعْلِيْقُهُ بِالمَشِيئَةِ، كَمَا لَا يَجُوزُ تَعْلِيْقُ الثَّوَابِ عَلَى الطَّاعَةِ بِالمَشِيئَةِ، وَمَنْ خَالَفَ فِي ذَلِكَ قَالَ: إِنَّمَا عُلِقَ بِالمَشِيئَةِ لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ لُطْفٌ يَصْلَحُ بِهِ وَيَتُوبُ وَيُؤْمِنُ عِنْدَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا لُطْفَ لَهُ مِنْهُ ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ أَيِ سِتَارٍ لِلذَّنُوبِ ﴿رَجِيمٌ﴾ بَعَادَهُ.

● **القصة:** ذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ وَأَصْحَابُ السِّيَرِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ، خَرَجَ مِنْهَا مُتَوَجِّهًا إِلَى حَنْيْنٍ، لِقِتَالِ هَوَازِنَ وَثَقِيفَ، فِي آخِرِ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَوْ فِي شَوَالٍ مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَقَدْ اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ هَوَازِنَ إِلَى مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ النَّصْرِيِّ، وَسَاقُوا مَعَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَذُرَارِيَهُمْ، وَنَزَلُوا بِأَوْطَاسٍ^(١). وَقَالَ: وَكَانَ دَرِيدُ بْنُ الصَّمَةِ فِي الْقَوْمِ، وَكَانَ رَئِيسَ جُشَمٍ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ مِنَ الْكِبَرِ، فَقَالَ: بِأَيِّ وَادٍ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: بِأَوْطَاسٍ قَالَ: نَعَمْ مَجَالُ الْخَيْلِ، لَا حَزَنٌ ضَرَسَ وَلَا سَهْلٌ دَهَسَ^(٢)، مَا لِي أَسْمَعُ رِغَاءَ الْبَعِيرِ، وَنَهِيْقَ الْحَمِيرِ، وَخَوَارِ الْبَقَرِ، وَنَغَاةَ الشَّاةِ، وَبِكَاةَ الصَّبْيَانِ؟ فَقَالُوا: إِنَّ مَالِكََ بْنَ عَوْفٍ سَاقَ مَعَ النَّاسِ أَبْنَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، لِيُقَاتِلَ كُلُّ مِنْهُمْ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَقَالَ: دَرِيدُ رَاعِي ضَأْنٍ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، ثُمَّ

(١) أَوْطَاسٍ: وَادٍ بِدِيَارِ هَوَازِنَ، جَنُوبِي مَكَّةَ بِنَحْوِ ثَلَاثِ مَرَاحِلَ، وَهِيَ مِنَ النَّوَادِرِ الَّتِي جَاءَ بِهِيَ الْجَمْعُ الْوَاحِدُ.

(٢) الْحَزَنُ - بِالْفَتْحِ: الْمَكَانُ الْغَلِيظُ الْخَشَنُ. وَالضَّرْسُ: الْأَكْمَةُ الْخَشَنَةُ الْغَلِيظَةُ الْخَشَنُ كَأَنَّهَا مُضْرَسَةٌ. وَالْدَهْسُ: مَا سَهْلٌ وَلَانَ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَمْ يَبْلُغْ أَنْ يَكُونَ رَمْلًا.

سورة التوبة

قال: ائتوني بمالك. فلما جاءه قال: يا مالك! إنك أصبحت رئيس قومك، وهذا يوم له ما بعده، ردّ قومك إلى عليا بلادهم والحق الرجال على متون الخيل، فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه وفرسه، فإن كانت لك لحق بك من ورائك، وإن كانت عليك، لا تكون فُضِّخت في أهلك وعيالك، فقال له مالك: إنك قد كبرت وذهب علمك وعقلك.

وعقد رسول الله ﷺ لواءه الأكبر، ودفعه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكل من دخل مكة براية أمره أن يحملها، وخرج بعد أن أقام بمكة خمسة عشر يوماً، وبعث إلى صفوان بن أمية، فاستعار منه مائة درع، فقال صفوان: عارية أم غصب؟ فقال ﷺ: عارية مضمونة، مؤداة. فأعاره صفوان مائة درع، وخرج معه، وخرج من مسلمة الفتح ألفاً رجلاً. وكان ﷺ دخل مكة في عشرة آلاف رجل، وخرج منها في اثني عشر ألفاً. وبعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه، فأنتهى إلى مالك بن عوف وهو يقول لقومه: ليصير كل رجل منكم أهله وماله خلف ظهره، واكسروا جفون سيوفكم، واكنموا في شعاب هذا الوادي، وفي الشجر، فإذا كان في غيبش^(١) الصبح فاحملوا حملة رجل واحد، فهدوا القوم، فإن محمداً لم يلق أحداً يحسن الحرب. ولما صلى رسول الله ﷺ بأصحابه الغداة، انحدر في وادي حنين، فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحية، وانهزمت بنو سليم، وكانوا على المقدمة، وانهزم ما وراءهم، وخلق الله تعالى بينهم وبين عدوهم لإعجابهم بكثرتهم، وبقي علي رضي الله عنه ومعه الراية يقاتلهم في نفر قليل. ومر المنهزمون برسول الله ﷺ لا يلبون على شيء، وكان العباس بن عبد المطلب أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ، والفضل عن يمينه، وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب عن يساره، ونوفل بن الحرث، وربيع بن الحرث، في تسعة من بني هاشم، وعاشرهم أيمن بن أم أيمن. وقتل يومئذ، وفي ذلك يقول العباس:

نَصَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْحَرْبِ تِسْعَةً، وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدْ فَرَّ عَنْهُ فَأَقْشَعُوا^(٢)
وقولي إذا ما الفضلُ كَرَّ بسيفه عَلَى الْقَوْمِ أُخْرَى يَا بُنَيَّ لِيرْجَعُوا^(٣)
وعاشِرُنَا لَأَقَى الْحِمَامَ بِنَفْسِهِ لَمَّا نَالَهُ فِي اللَّهِ لَا يَتَوَجَّعُ^(٤)

ولما رأى رسول الله ﷺ هزيمة القوم عنه، قال للعباس، وكان جمهورياً صيئاً: اصعد هذا الظرب^(٥)، فناد: يا معشر المهاجرين والأنصار! يا أصحاب سورة البقرة! يا أهل بيعة الشجرة! إلى أين تفرون؟! هذا رسول الله. فلما سمع المسلمون صوت العباس تراجعوا، وقالوا: لبيك لبيك. وتبادر الأنصار خاصة، وقاتلوا المشركين حتى قال رسول الله ﷺ: الآن حمي الوطيس. «أنا النبي لا أكذب، أنا ابن عبد المطلب».

(١) الغيبش: ظلمة آخر الليل. وقيل: هو مما يلي الصبح.

(٢) اقشعوا: تفرقوا.

(٣) أي: اضرب ضربة أخرى يرج القوم على أدبارهم.

(٤) الحمام: الموت.

(٥) الظرب: التل الصغير.

ونزل النصر من عند الله تعالى، وانهمزت هوازن هزيمة قبيحة، فمروا في كل وجه، ولم يزل المسلمون في آثارهم. ومر مالك بن عوف فدخل حصن الطائف، وقتل منهم زهاء مائة رجل، وأغنم الله المسلمين أموالهم ونساءهم، وأمر رسول الله بالذرياري والأموال أن تحدر إلى الجعرانة، وولي على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعي، ومضى ﷺ في أثر القوم، فوافى الطائف في طلب مالك بن عوف، فحاصر أهل الطائف بقية الشهر. فلما دخل ذو القعدة، انصرف وأتى الجعرانية، وقسم بها غنائم حنين وأوطاس.

قال سعيد بن المسيب: حدثني رجل كان في المشركين، يوم حنين، قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله لم يقفوا لنا حلب شاة، فلما كشفناهم، جعلنا نسوقهم حتى إذ انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء، يعني رسول الله، فتلقنا رجال بيض الوجوه، فقالوا لنا: شأهت الوجوه، ارجعوا. فرجعنا، وركبوا أكتافنا فكانوا إياها، يعني الملائكة.

قال الزهري: وبلغني أن شيبه بن عثمان قال: استدبرت رسول الله ﷺ يوم حنين، وأنا أريد أن أقتله بطلحه بن عثمان، وعثمان بن طلحه، وكنا قد قتلنا يوم أحد، فأطلع الله رسوله على ما في نفسي، فالتفت إليّ وضرب في صدري، وقال: أعينك بالله يا شيبه! فأرعدت فرائصي، فنظرت إليه وهو أحب إليّ من سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنك رسول الله، وأن الله أطلعك على ما في نفسي. وقسم رسول الله الغنائم بالجعرانة، وكان معه من سبي هوازن ستة آلاف من الذرياري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يدري عدته.

قال أبو سعيد الخدري: قسم رسول الله ﷺ للمتألفين من قريش ومن سائر العرب ما قسم، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير، فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار، قد وجدوا عليك في قسمك هذه الغنائم في قومك، وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء! فقال ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ فقال: ما أنا إلا امرؤ من قومي. فقال رسول الله فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة. فجمعهم، فخرج رسول الله، فقام فيهم خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال:

يا معشر الأنصار! أولم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ فقالوا: وما نقول؟ وبماذا نجيبك؟ المنّ لله ولرسوله. فقال رسول الله: أما والله لو شتتم لقتلتم فصدقتم: جئتنا طريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك، وخائفاً فأمناك، ومخذولاً فنصرناك. فقالوا: المنّ لله ولرسوله. فقال رسول الله ﷺ: وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار. في لعاعة^(١) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعر، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده! لو أن الناس سلكوا شعباً، وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار. ولولا الهجرة لكنت

(١) اللعاعة: مقلّة خضراء ناعمة، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

سورة التوبة

امراءً من الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسماً، ثم تفرقوا.

وقال أنس بن مالك: وكان رسول الله ﷺ أمر منادياً، فنادى يوم أوطاس: ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن، ولا غير الحبالى حتى يستبرأن بحبضة، ثم أقبلت وفود هوازن، وقدمت على رسول الله ﷺ بالجعرانة مسلمين، فقام خطيبهم وقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر من السبايا خالاتك، وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، فلو أنا ملكنا ابن أبي شمر، أو النعمان بن المنذر^(١)، ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك، رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت خير الكفولين، ثم أنشد أبياتاً. فقال ﷺ: أي الأمرين أحب إليكم: السبي أو الأموال؟ قالوا: يا رسول الله! خيرتنا بين الحسب وبين الأموال، والحسب أحب إلينا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير. فقال رسول الله ﷺ: أما الذي لبني هاشم فهو لكم، وسوف أكلّم لكم المسلمين وأشفع لكم، فكلموهم وأظهروا إسلامكم. فلما صلى رسول الله ﷺ الهاجرة، قاموا فتكلموا، فقال النبي ﷺ: قد رددت الذي لبني هاشم والذي بيدي عليهم، فمن أحب منكم أن يعطى غير مكروه فليفعل، ومن كره أن يعطى فليأخذ الفداء، وعليّ فداؤهم، فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم إلا قليلاً من الناس، سألوا الفداء، وأرسل رسول الله ﷺ إلى مالك بن عوف، وقال: إن جئتني مسلماً رددت إليك أهلك ومالك، ولك عندي مائة ناقة، فخرج إليه من الطائف، فرد عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، واستعمله على من أسلم من قومه.



قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٨).

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن السميع: «أنجاس» على الجمع، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «وإن خفتم عائلة».

● **الحجة:** قال ابن جني: هذا من المصادر التي جاءت على فاعلة، كالعاقبة، والعافية، واللاعية..

● **اللغة:** كل مستقذر نجس، يقال: رجل نجس، وامرأة نجس، وقوم نجس، لأنه مصدر. وإذا استعملت هذه اللفظة مع الرجس، قيل: رجس نجس. بكسر النون - والعيلة: الفقر، تقول: عال يعيل: إذا افتقر، قال الشاعر:

وما يدري الفقير: متى غناه وما يدري الغني: متى يعيل

● **المعنى:** لما تقدم النهي عن ولاية المشركين، أزال سبحانه ولايتهم عن المسجد الحرام، وحظر عليهم دخوله، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ﴾ معناه: إن

(١) وابن أبي شمر هو الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام من العرب والنعمان بن منذر ملك العراق من العرب.

الكافرين أنجاس ﴿فَلَا يَقْرَءُوا أَلْكِحَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أي فامنعوهم عن المسجد الحرام. وقيل: المراد به منعهم من دخول الحرم عن عطا قال: والحرم كله مسجد وقبلة، والعام الذي أشار إليه هو سنة تسع، الذي نادى فيه علي عليه السلام بالبراءة، وقال: لا يحُجَّن بعد هذا العام مشرك، وقيل: المراد به منعهم من دخول المسجد الحرام على طريق الولاية للموسم والعمرة. وقيل: منعوا من الدخول أصلاً في المسجد، ومنعوا من حضور الموسم، ودخول الحرم، عن الجبائي.

واختلف في نجاسة الكافر، فقال قوم من الفقهاء: إن الكافر نجس العين، وظاهر الآية يدل على ذلك، وروي عن عمر بن عبدالعزيز أنه كتب: امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية. وعن الحسن قال: لا تصافحوا المشركين، فمن صافحهم فليتوضأ. وهذا يوافق ما يذهب إليه أصحابنا، من أن من صافح الكافر، وبده رطبة، وجب أن يغسل يده، وإن كانت أيديهما يابستين مسحهما بالحناء.

وقال آخرون: إنما سماهم الله نجساً لخبث اعتقادهم وأفعالهم وأقوالهم، وأجازوا للذمي دخول المساجد، قالوا: إنما يمنعون من دخول مكة للحج. قال قتادة: سماهم نجساً لأنهم يجنبون ولا يغتسلون، ويحدثون ولا يتوضؤون، فمنعوا من دخول المسجد، لأن الجنب لا يجوز له دخول المسجد.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي فقراً وحاجة، وكانوا قد خافوا انقطاع المتاجر بمنع المشركين عن دخول الحرم ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ أي: فسوف يغنيكم الله من جهة أخرى، إن شاء أن يغنيكم، بأن يرغب الناس من أهل الآفاق، في حمل الميرة إليكم، رحمة منه ونعمة عليكم. قال مقاتل: أسلم أهل نجد وصنعاء وجرش من اليمن، وحملوا الطعام إلى مكة، على ظهور الإبل والدواب، وكفاهم الله تعالى ما كانوا يتخوفون. وقيل: معناه يغنيكم بالجزية المأخوذة من أهل الكتاب. وقيل: بالمطر والنبات. وقيل: بإباحة الغنائم.

وإذا سئل عن معنى المشيئة في قوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ فالقول فيه: إن الله تعالى قد علم أن منهم من يبقى إلى وقت فتح البلاد، واغتنام أموال الأكاسرة، فيستغني، ومنهم من لا يبقى إلى ذلك الوقت، فلهذا علقه بالمشيئة.

وقيل: إنما علقه بالمشيئة ليرغب الإنسان إلى الله تعالى في طلب الغنى منه، وليعلم أن الغنى لا يكون بالاجتهاد. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بالمصالح وتدبير العباد وبكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يأمر وينهى.



قوله تعالى: ﴿فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

● **اللغة:** الدين في الأصل: الطاعة، قال زهير:

لئن حللت بجو^(١) في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فذاك
والجزية: فغلة من جزى يجزي، مثل الفغدة والجلسة، وهي عطية مخصوصة جزاء لهم
على تمسكهم بالكفر، عقوبة لهم، عن علي بن عيسى. والصغار: الذل والنكال: الذي يصغر
قدر صاحبه، يقال: صغر يصغر صغاراً فهو صاغر.

● **الإعراب:** ﴿عَنْ يَدٍ﴾: في موضع نصب على الحال، أي: نقداً، كما يقال: باعه يداً بيد.

● **النزول:** قيل: هذه الآية نزلت حين أمر رسول الله ﷺ بحرب الروم، فغزا بعد
نزولها غزوة تبوك، عن مجاهد. وقيل: هي على العموم.

● **المعنى:** ثم بين الله سبحانه، أن من الكفار من يجوز تبقيته بالجزية، فقال: ﴿قَتِلُوا
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: الذين لا يعترفون بتوحيد الله، ولا يقرون
بالبعث والنشور. وهذا يدل على صحة ما يذهب أصحابنا إليه، من أنه لا يجوز أن يكون في
جملة الكفار من هو عارف بالله، وإن أقر باللسان، وإنما يكونون معتقدين لذلك اعتقاداً ليس
بعلم، لأنه صريح في أن أهل الكتاب الذين يؤخذ منهم الجزية، لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

ومن قال: إنه يجوز أن يكونوا عارفين بالله، قال: إن الآية خرجت مخرج الذم لهم، لأنهم
بمنزلة من لا يقربه في عظم الجرم. قال الجبائي: لأنهم يضيفون إليه ما لا يليق به، فكأنهم لا
يعرفونه، وإنما جمعت هذه الأوصاف لهم، ولم يذكروا بالكفار من أهل الكتاب، للتحريض على
قتالهم، لما هم عليه من صفات الذم التي توجب البراءة منهم والعداوة لهم. ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ﴾ موسى وعيسى ﷺ من كتمان نعت محمد ﷺ. وقيل: يعني ما حرمه محمد ﷺ.

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ وقيل: الحق ههنا هو الله تعالى، أي دين الله والعمل بما في
التوراة، من اتباع نبينا عليه الصلاة والسلام. وقيل: الحق هو الله، ودينه الإسلام، عن قتادة.
وقيل: معناه ولا يطيعون الله طاعة أهل الإسلام، عن أبي عبيدة. وقيل: معناه لا يعترفون
بالإسلام الذي هو الدين الحق.

﴿مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وصف الذين ذكرهم بأنهم من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى،
وقال أصحابنا: إن المجوس حكمهم حكم اليهود، والنصارى ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ أي نقداً
من يده إلى يد من يدفعه إليه من غير نائب، كما يقال: كلمته فماً بضم. وقيل معناه: عن قدرة لكم
عليهم وقهر لهم، كما يقال: كان اليد لفلان. وقيل: يدلكم عليهم، ونعمة تسدونها إليهم، بقبول
الجزية منهم ﴿وَهُمْ صَاحِبُونَ﴾ أي ذليلون مقهورون، يجرون إلى الموضع الذي يقبض منهم فيه
بالعنف، حتى يؤدوها. وقيل: هو أن يعطوا الجزية قائمين، والآخذ جالس، عن عكرمة.



(١) الجو: الأرض المطمئنة. واسم اليمامة، وجواب الشرط في قوله «لئن حللت» في شعر بعده وهو: لبأيتنك مني
منطق قذع * باق كما دنس القبطية الودك، ومنطق قذع: فاحش.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُولَفَكُونُوا ۖ﴾ (٢٥) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُهُمْ إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٦﴾ ۝

● **القراءة:** قرأ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وسهل: «عزير» منوناً. والباقون: «عزير» ابن الله» بغير تنوين. وقرأ عاصم وحده: «يضاهئون» بالهمزة. وقرأ الباكون: «يضاهون» بغير الهمزة.

● **الحجة:** قال أبو علي: من نون «عزيراً» جعله مبتدأ، وجعل «ابناً» خبره، وإذا كان كذلك فلا بد من إثبات التنوين في حال السعة والاختيار، لأن عزيراً ونحوه ينصرف، عجمياً كان أو عربياً، وأما من حذف التنوين، فإنه حذفه على وجهين:

أحدهما: أنه جعل الصفة والموصوف بمنزلة اسم واحد، كما جعلهما كذلك في قوله: لا رجل ظريف، وحذف التنوين، ولم يحرك لالتقاء الساكنين، كما يحرك في زيد العاقل، لأن الساكنين كأنهما التقيا في تضاعيف كلمة واحدة، فحذف الأول منهما، ولم يحرك لكثرة الاستعمال. ولا يجوز إثبات التنوين في هذا الباب إذا كان صفة وإن كان الأصل، لأنهم جعلوه من الأصول المرفوضة، كما أن إظهار الأول من المثلين في نحو: ظنوا، لا يجوز في الكلام، فإذا كانا بمنزلة اسم مفرد، والمفرد لا يكون جملة مستقلة بنفسها مفيدة في هذا النحو، فلا بد من إضمار جزء آخر يقدر انضمامه إليه ليتم جملة، ويجعله الظاهر، إما مبتدأ أو خبر مبتدأ، فيكون التقدير: صاحبنا، أو نسيبنا، أو نبينا عزير ابن الله، إن قدرت المضمرة المبتدأ. وإن قدرت بعكس ذلك جاز. فهذا أحد الوجهين.

والوجه الآخر: ألا تجعلهما اسماً واحداً، ولكن يجعل الأول من الاسمين المبتدأ، والآخر الخبر، فيكون المعنى فيه على هذا، كالمعنى في إثبات التنوين، وتكون القراءة متفتحتين، إلا إنك حذف التنوين لالتقاء الساكنين. وعلى هذا ما يروى من قراءة بعضهم ﴿أَحَكُّ اللَّهُ الْأَصَكُّ﴾ فحذف التنوين لالتقاء الساكنين، وقد جاء ذلك في الشعر كثيراً، قال الشاعر:

حَمِيدُ الَّذِي أَمَجَّ دَارُهُ أَخُو الْخَمْرِ ذُو الشَّيْبَةِ الْأَصْلَعُ^(١)

وقال: «وَحَاتِمُ الطَّائِي وَهَابُ الْمِثْي»^(٢)

فأما ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ فقد قال الزجاج: أصل المضاهاة المشابهة، والأكثر ترك الهمزة. واشتقاقه من قولهم: امرأة ضهياء، وهي التي لا يثبت لها ثدي. وقيل: هي التي لا تحيض.

(١) قائله حميد الامجي، وقبله «شربت المدام فلم أقلع * وعوتبت فيها فلم أسمع» وأمج: موضع بين مكة والمدينة.

(٢) وقبله «حيدة خالي ولقيط وُغلي» قائلته امرأة من بني عقيل، تفخر بأخوالها من اليمن.

سورة التوبة

ومعناها: أنها قد أشبهت الرجال في أنه لا ثدي لها، وكذلك إذا لم تحض. وضيها: فعلاء، الهمزة زائدة كما زيدت في شمال، وغرقىء البيض، ولا نعلم الهمزة زيدت غير أول إلا في هذه الأشياء. ويجوز أن يكون «فَغِيلًا» وإن كانت بنية ليس لها في الكلام نظير. قال أبو الحسن: ليس قوله: «يضاهئون» من امرأة ضيها، لأن هذه الهمزة زائدة غير أصلية، وليس بفَعِيل لأنه لو كان إياه لكان مكسور الصدر، وإنما أدخله في هذا ما رame من اشتقاق «يُضَاهَوْنَ»، وقد يجوز أن تجيء الكلمة من غير مشتقة، وذلك أكثر من أن يحصى.

● **اللغة:** الحبر: العالم الذي صنعتته تحبير المعاني بحسن البيان عنها، وهو الحبر والحبر بفتح الحاء وكسرها. والرهبان: جمع الراهب، وهو الخاشي الذي يظهر عليه لباس الخشية، وقد كثر استعماله على متسكي النصارى.

● **المعنى:** ثم حكى الله سبحانه عن اليهود والنصارى أقوالهم الشنيعة، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾. وقال ابن عباس: القائل لذلك جماعة منهم، جاءوا إلى النبي ﷺ، منهم سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وشأس بن قيس، ومالك بن الضيف، فقالوا ذلك. قيل: وإنما قال ذلك جماعة منهم من قبل، وقد انقرضوا، وإن عزيزاً أُملى التوراة من ظهر قلبه، وقد علمه جبرائيل عليه السلام، فقالوا: إنه ابن الله، إلا أن الله تعالى أضاف ذلك إلى جميعهم، وإن كانوا لا يقولون ذلك اليوم، كما يقال: إن الخوارج يقولون بتعذيب أطفال المشركين، وإنما يقوله الأزارقة منهم خاصة^(١)، ويدل على أن هذا مذهب اليهود، أنهم لم ينكروا ذلك لما سمعوا هذه الآية، مع شدة حرصهم على تكذيب الرسول ﷺ.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ معناه: أنهم اخترعوا ذلك القول بأفواههم، لم يأتهم به كتاب ولا رسول، وليس عليه حجة، ولا برهان، ولا له صحة. وقيل: إنه لم يذكر القول مقروناً بالأفواه، إلا إذا كان ذلك القول زوراً، كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. ﴿يُضَاهَوْنَ﴾: يشابهون، عن ابن عباس. وقيل: يوافقون، عن الحسن ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني عباد الأوثان في عبادتهم اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، عن ابن عباس، ومجاهد، والفراء. وقيل: في عبادتهم الملائكة، وقولهم إنهم بنات الله ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي: ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقالت النصارى: المسيح ابن الله، كما قالت اليهود: عزيز ابن الله، عن قتادة والسدي. وقيل: شبه كفرهم بكفر الذين مضوا من الأمم الكافرة، عن الحسن ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي لعنهم الله، عن ابن عباس. قال ابن الأباري: المقاتلة أصلها من القتل، فإذا أخبر عن الله، بها كانت بمعنى اللعنة، لأن من لعنه الله، فهو بمنزلة المقتول الهالك. ﴿أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الإفك الذي هو الكذب؟ فكأنه قال: لأي داع مالوا إلى ذلك القول؟

﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ أي: علماءهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ أي: عبادهم ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

(١) قال الجوهرى: الأزارقة: صنف من الخوارج تنسب إلى نافع بن الأزرق.

روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا: أما والله! ما صاموا ولا صلوا، ولكنهم أحلوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالاً، فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون.

وروى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: يا عدي، اطرح هذا الوثن من عنقك! قال: فطرحت، ثم انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة البراءة هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرَفَعْنَهُمْ أَزْيَابًا﴾ حتى فرغ منها، فقلت له: إنا لسنا نعبدكم! فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ قال: فقلت بلى، قال: فتلك عبادتهم.

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذوا المسيح إلهاً من دون الله ﴿وَمَا أُمُورًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي معبوداً واحداً هو الله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا تحق العبادة إلا له، ولا يستحق العبادة سواه ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيهاً له ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن شركهم، وعمّا يقولونه، وعمّا لا يليق به.



قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِّمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢٢) **هو** الَّذِينَ أَرْسَلَ رَسُولُهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٢٣).

● **اللغة:** الإطفاء: إذهاب نور النار، ثم استعمل في إذهاب كل نور. والأفواه: جمع فم وأصله فوه، فحذفت الهاء وأبدلت من الواو ميم، لأنه حرف صحيح من مخرج الواو مشاكل لها. والإباء: الامتناع مما طلب من المعنى. قال الشاعر: «وإن أرادوا ظلمنا أئينا» أي منعنا من الظلم.

● **الإعراب:** قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُتِّمَّ نُورُهُ﴾ إنما دخلت ﴿إِلَّا﴾، لأن في «أبيت» ضرباً من الجحد، تقول: أبيت أن أفعل كذا، فيكون معناه: لم أفعل كذا، قال الشاعر:

وهل لي أم غيرها إن تَرَكْتُهَا أبى الله إلا أن أكون لها ابناً

قال الزجاج: في الآية حذف، تقديره: يأبى الله كل شيء إلا إتمام نوره، قال: ولا يكون الإيجاب جحداً، ولو جاز ذلك على أن يكون فيه طرف من الجحد لجاز: كرهت إلا أخاك، مثل: أبيتُ إلا أن أبيت، الحذف مستعمل معها.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى أنهم ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ وهو القرآن والإسلام، عن أكثر المفسرين. وقيل: نور الله الدلالة والبرهان، لأنهم يُهْتَدَى بهما كما يُهْتَدَى بالأنوار، عن الجبائي. قال: ولما سُمي سبحانه الحجج والبراهين أنواراً سُمي معارضتهم لذلك إطفاء، ثم قال: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لأن الإطفاء يكون بالأفواه، وهو النفخ، وهذا من عجيب البيان، مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم، لأن الفم يؤثر

سورة التوبة

في الأنوار الضعيفة دون الأقباس العظيمة.

﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُخَيَّرَ نَوْرُهُ﴾ معناه: ويمنع الله إلا أن يظهر أمر القرآن، وأمر الإسلام، وحجته على التمام. وأصل الإباء: المنع والامتناع دون الكراهية على ما ادعته المجبرة، ولهذا تقول العرب: فلان يأبى الضيم، وهو أبى الضيم، ولا مدحة في كراهية الضيم، لأنه يستوي فيه القوي والضعيف، وإنما المدحة في الامتناع أو المنع منه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: على كره من الكافرين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمداً وحمله الرسالات التي يؤديها إلى أمته ﴿وَالْهَدَى﴾ أي بالحجج، والبيّنات، والدلائل، والبراهين ﴿وَوَيِّنَ الْحَقَّ﴾ وهو الإسلام، وما تضمنه من الشرائع التي يستحق عليها الجزاء بالثواب، وكل دين سواه باطل يستحق به العقاب ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ معناه: ليعلى دين الإسلام على جميع الأديان، بالحجة، والغلبة، والقهر لها، حتى لا يبقى على وجه الأرض دين إلا مغلوباً، ولا يغلب أحد أهل الإسلام بالحجة، وهم يغلبون أهل سائر الأديان بالحجة. وأما الظهور بالغلبة، فهو أن كل طائفة من المسلمين قد غلبوا في ناحية من نواحي أهل الشرك، ولحقهم قهر من جهتهم.

وقيل: أراد عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أهل دين إلا أسلم، أو أدى الجزية، عن الضحاك. وقال أبو جعفر عليه السلام: إن ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد، فلا يبقى أحد إلا أقر بمحمد، وهو قول السدي.

وقال الكلبي: لا يبقى دين إلا ظهر عليه الإسلام، وسيكون ذلك ولم يكن بعد، ولا تقوم الساعة حتى يكون ذلك. وقال المقداد بن الأسود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر، ولا وبر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام، إما بعز عزيز، وإما بذل ذليل. إما يعزهم فيجعلهم الله من أهله فيعزوا به، وإما يذلهم فيدينوا له.

وقيل: إن الهاء في ﴿يُظْهِرُ﴾ عائدة إلى الرسول ﷺ، أي: ليعلمه الله الأديان كلها حتى لا يخفى عليه شيء منها عن ابن عباس. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أي: وإن كرهوا هذا الدين فإن الله يظهره رغماً لهم.



قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَاْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

● **اللغة:** الكنز في الأصل: هو الشيء الذي جمع بعضه إلى بعض، ويقال للشيء المجتمع: مكتنز، وناقَة كِنَازُ اللحم: مجتمعة. قال نفطويه: سمي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى، وسميت الفضة فضة لأنها تنفض، أي تتفرق فلا تبقى، وحسبك بالاسمين دلالة على

فنائهما. والإحماء: جعل الشيء حاراً في الإحساس، وهو فوق الإسخان، وضده التبريد. يقال: حَمِي يَحْمِي حَمًى، وأحماءه: غيره. والكي: إلصاق الشيء الحار بالعضو من البدن.

● الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ موضع نصب، لأنه معطوف على اسم إن، ويكون المعنى: وإن الذين يكتُمون الذهب والفضة ولا يأكلونها، ويجوز أن يكون رفعاً على الاستئناف، وذكر في قوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا﴾ وجوه:

أحدها: أنه أراد لا ينفقون الكنوز، فرجع الضمير إلى ما دل عليه الكلام.

والثاني: أنه لما ذكر الذهب والفضة دل على الأموال، فكأنه قال: ولا ينفقون الأموال.

والثالث: أن الذهب مؤنث، وهو جمع واحد: ذهبة، وهذا الجمع الذي ليس بينه وبين واحد إلا الهاء يذكر ويؤنث، ثم لما اجتمعا في التأنيث، وكان كل واحد منهما يؤخذ عن صاحبه في الزكاة على قول جمهور العلماء، جعلهما كالشيء الواحد، ورد الضمير إليهما بلفظ التأنيث.

والرابع: أنه اكتفى بأحدهما عن الآخر للإيجاز، ورد الضمير إلى الفضة، لأنها أقرب إليه، كما قال حسان:

إن شرخ الشباب، والشعر الأسود ما لم يُعاص كان جنونا^(١)

● المعنى: ثم بين سبحانه حال الأحرار والرهبان، فقال: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْكَفْلِ﴾ أي يأخذون الرشى على الحكم، عن الحسن، والجبائي. وأكل المال بالباطل: تملكه من الجهات التي يحرم منها أخذه، إلا أنه لما كان معظم التصرف والتملك للأكل، وضع الأكل موضع ذلك. وقيل إن معناه: يأكلون متاع أموال الناس من الطعام، فكأنهم يأكلون الأموال لأنها ثمن المأكول، كما قال الشاعر:

دِرِّ الْأَكْلِينَ الْمَاءَ لَوْمًا، فما أرى ينالون خيراً بعد أكلهم الماء

أي: ثمن الماء. ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعون غيرهم عن اتباع الإسلام الذي هو سبيل الله التي دعاهم إلى سلوكها، وعن اتباع محمد ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يجمعون المال ولا يؤدون زكاته، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مال لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً، وكل مال أدت زكاته، فليس بكنز، وإن كان مدفوناً في الأرض». وبه قال ابن عباس، والحسن، والشعبي، والسدي، قال الجبائي: وهو إجماع. وروي عن علي عليه السلام: ما زاد على أربعة آلاف فهو كنز، أدى زكاته أو لم يؤد، وما دونها فهو نفقة.

وتقدير الآية: والذين يكتُمون الذهب ولا ينفقونه في سبيل الله، ويكتُمون الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فحذف المعطوف من الأول لدلالة الثاني عليه، كما حذف المفعول في الثاني لدلالة الأول عليه في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وتقديره: والذاكرات الله.

(١) شرخ الشباب: أوله وقوته ونضارته، وقوله: «ما لم يعاص» أي: ما لم يعص.

سورة التوبة

وأكثر المفسرين على أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ﴾ على الاستئناف، وأن المراد بذلك مانعو الزكاة من هذه الأمة. وقيل: إنه معطوف على ما قبله، والأولى أن يكون محمولاً على العموم في الفريقين ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أخبرهم بعذاب موجه، وروى سالم بن أبي الجعد أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: تبا للذهب تبا للفضة - يكررها ثلاثاً - فشق ذلك على أصحابه، فسأله عمر فقال: يا رسول الله! أي المال نتخذ؟ فقال: لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه.

﴿يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوقد على الكنوز، أو على الذهب والفضة في نار جهنم حتى تصير ناراً ﴿فَتَكْوَى بِهَا﴾ أي بتلك الكنوز المحماة، والأموال التي منعوا حق الله فيها بأعيانها ﴿جَاهَهُمْ وَجُودُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وإنما خص هذه الأعضاء، لأنها معظم البدن، وكان أبو ذر الغفاري يقول: بشر الكانزين بكَيِّ في الجباه وكَيِّ في الجنب وكَيِّ في الظهر، حتى يلتقي الحرُّ في أجوافهم. وفي هذا المعنى الذي أشار إليه أبو ذر، خصت هذه المواضع بالكَيِّ، لأن داخلها جوف، بخلاف اليد والرجل. وقيل: إنما خصت هذه المواضع بالعذاب، لأن الجبهة محل الوسم لظهورها، والجنب محل الألم، والظهر محل الحدود. وقيل: لأن الجبهة محل السجود، فلم تقم فيه بحقه، والجنب يقابل القلب الذي لم يخلص في معتقه، والظهر محمل الأوزار. قال: يحملون أوزارهم على ظهورهم، عن الماوردي. وقيل: لأن صاحب المال إذا رأى الفقير قبض جبهته، وزوى عينيه، وطوى عنه كشحه وولاه ظهره عن أبي بكر الوراق.

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي يقال لهم في حال الكَيِّ أو بعده: هذا جزاء ما كنزتم، وجمعت المال، ولم تؤدوا حق الله عنها، وجعلتموها ذخيرة لأنفسكم ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ أي: فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تكنزون، أي تجمعون وتمنعون حق الله منه، فحذف للدلالة الكلام عليه.

وقال رسول الله ﷺ: «ما من عبد له مال ولا يؤدِّي زكاته إلا جمع يوم القيامة صفائح يُحْمَى عليها في نار جهنم، فتكوى به جبهته، وجنباه، وظهره، حتى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار» أورده مسلم بن الحجاج في الصحيح.

وروى ثوبان عن النبي ﷺ قال: «من ترك كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع، له زبيبتان^(١) يتبعه ويقول: ويلك، ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركت بعدك، فلا يزال يتبعه حتى يُلْقِمه يده فيقصمها، ثم يتبعه سائر جسده».

وروى الثعلبي بإسناده عن الأعمش، عن المعمر بن سويد، عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في ظل الكعبة، فلما رآني قد أقبلت قال: هم الأخسرون ورب الكعبة! هم

(١) زبيبتان: نقطتان سوداوان فوق عيني الحية.

الأخسرون ورب الكعبة! قال: فدخلني غمٌ وجعلت أتنفس، وقلت: هذا شيءٌ حدث في! قال: قلت: من هم فذاك أبي وأمي؟ قال: الأكثرون، إلا مَنْ قال بالمال في عباد الله هكذا وهكذا، عن يمينه، وشماله، ومن خلفه، وقليلٌ ما هم. وروي عن أبي ذر أنه قال: من ترك بيضاء أو حمراء كوي به يوم القيامة.



قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: ﴿اثنا عشر﴾، و﴿أحد عشر﴾، و﴿تسعة عشر﴾، بسكون العين. والباقون: بفتحها.

● **الحجة:** الوجه في ذلك، أن الاسمين لما جعلاً كالاسم الواحد، وبني الأول منهما لأنه كصدر الاسم، والثاني منهما لتضمنه معنى واو العطف، جعل تسكين أول الثاني دليلاً على أنهما قد صاراً كالاسم الواحد.

اللغة والإعراب: ﴿كَافَّةً﴾: بمعنى الإحاطة، مأخوذ من كافة الشيء، وهي حرفه، وإذا انتهى الشيء إلى ذلك كف عن الزيادة، وأصل الكف: المنع، ومنه المكفوف، وهو الممنوع البصر، وكافة نصب على المصدر، ولا يدخل عليها الألف واللام، لأنه من المصادر التي لا تنصرف، لوقوعه موقع معاً وجميعاً، بمعنى المصدر الذي في موضع الحال المؤكدة، فهو في لزوم النكرة نظير أجمعين في لزوم المعرفة، هذا قول الفراء.

وقال الزجاج: كافة تنصب على الحال، وهو مصدر على فاعله، كالعافية والعاقبة، وهو في موضع، قاتلوا المشركين محيطين بهم، باعتقاد مقاتلتهم، ولا يثنى ولا يجمع، فلا يقال: قاتلوهم كافات، ولا كافين، كما أنك إذا قلت: قاتلوهم عامة، لم تثن ولم تجمع، وكذلك خاصة، هذا مذهب النحويين.

● **المعنى:** لما ذكر الله سبحانه وعيد الظالم لنفسه، بكنز المال، من غير إخراج الزكاة، وغيرها من حقوق الله منه، اقتضى ذلك أن يذكر النهي عن مثل حاله، وهو الظلم في الأشهر الحرم، الذي يؤدي إلى مثل حاله أو شر منه في المنقلب، فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أي عدد شهور السنة في حكم الله وتقديره: اثنا عشر شهراً. وإنما تعبد الله المسلمين أن يجعلوا سنينهم على اثني عشر شهراً، ليوافق ذلك عدد الأهلة ومنازل القمر، دون ما دان به أهل الكتاب. والشهر: مأخوذ من شهرة الأمر، لحاجة الناس إليه في معاملاتهم، ومحل ديونهم، وحجهم، وصومهم، وغير ذلك من مصالحهم المتعلقة بالشهور. وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ معناه: فيما كتب الله في اللوح المحفوظ، وفي الكتب المنزلة على أنبيائه. وقيل:

سورة التوبة

في القرآن. وقيل: في حكمه وقضائه، عن أبي مسلم. وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متصل بقوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ والعامل فيهما الاستقرار. وإنما قال ذلك لأنه يوم خلق السموات والأرض، أجرى فيها الشمس والقمر، وبمسيرهما تكون الشهور والأيام، وبهما تعرف الشهور. ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي من هذه الاثني عشر شهراً، أربعة أشهر حرم، ثلاثة منها سرد، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وواحد فرد وهو رجب. ومعنى حُرُم: أنه يغُظَم انتهاك المحارم فيها أكثر مما يعظم في غيرها، وكانت العرب تعظمها، حتى لو أن رجلاً لقي قاتل أبيه فيها لم يهجه لحرمتها.

وإنما جعل الله تعالى بعض هذه الشهور أعظم حرمة من بعض لما علم من المصلحة في الكف عن الظلم فيها، لعظم منزلتها، ولأنه ربما أدى ذلك إلى ترك الظلم أصلاً، لانطفاء النائرة، وانكسار الحمية في تلك المدة، فإن الأشياء تجر إلى أشكالها.

وشهور السنة: المحرم: سمي بذلك لتحريم القتال فيه، وصفر: سمي بذلك لأن مكة تصفر من الناس فيه، أي: تخلو. وقيل لأنه وقع وباء فيه فاصفرت وجوههم. وقال أبو عبيدة: سمي بذلك لأنه صَفِرَتْ فيه أوطابهم عن اللبن^(١). وشهرا ربيع: سميا بذلك لإنبات الأرض وإمراعها فيهما. وقيل: لارتباع القوم، أي إقامتهم. وجماديان: سميتا بذلك، لجمود الماء فيهما. ورجب: سمي بذلك لأنهم كانوا يُرْجَبُونَهُ أي يعظمونه، يقال: رَجَبْتُهُ وَرَجَبْتُهُ - بالتخفيف والتشديد - قال الكمي:

وَلَا غَيْرَهُمْ أَبْغَى لِنَفْسِي جُنَّةً وَلَا غَيْرُهُمْ مِمَّنْ أَجَلُّ وَأَزْجَبُ

وقيل: سمي بذلك لترك القتال فيه، من قولهم: رجل أَرَجَب، إذا كان أقطع لا يمكنه العمل. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: إن في الجنة نهراً يقال له رجب، ماؤه أشد بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل، من صام يوماً من رجب، شرب منه. وشعبان: سمي بذلك لتشعب القبائل فيه، عن أبي عمرو. وروى زياد بن ميمون أن النبي ﷺ قال: إنما سمي شعبان لأنه يُشَعَّبُ فيه خيرٌ كثيرٌ لرمضان. وشهر رمضان: سمي بذلك لأنه يُزْمَضُ الذنوب، وقيل: سمي بذلك لشدة الحر، وقيل: إن رمضان من أسماء الله. وشوال: سمي بذلك لأن القبائل كانت تشول فيه، أي تبرح عن أمكنتها. وقيل: لشولان النوق أذنانها فيه. وذو القعدة: سمي بذلك لعودهم فيه عن القتال: وذو الحجة: لقضاء الحج فيه.

﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ﴾ أي ذلك الحساب المستقيم الصحيح، لا ما كانت العرب تفعله من النسيء، ومنه قوله: الكيس من دان نفسه، أي حاسبها. وسمي الحساب ديناً لوجوب الدوام عليه ولزومه، كلزوم الدين وتعبد به فهو اللازم. ﴿فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ﴾ أي في هذه الشهور كلها، عن ابن عباس. وقيل: في هذه الأشهر الحرم الأربعة، عن قتادة، واختاره الفراء، قال: لأنه لو أراد الاثني عشر شهراً لقال: فيها ﴿أَنفَسَكُمْ﴾ بترك أوامر الله وارتكاب نواهيه، وإذا عاد الضمير إلى

(١) الوطب: سقاء اللبن وهو جلد الجذع فما فوقه. وصفر الوطب عن اللبن أي: خلا.

جميع الشهور، فإنه يكون نهياً عن الظلم في جميع العمر، وإذا عاد إلى الأشهر الحرم، ففائدة التخصيص أن الطاعة فيها أعظم ثواباً، والمعصية أعظم عقاباً، وذلك حكم الله في جميع الأوقات الشريفة، والبقاع المقدسة.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي قاتلوهم جميعاً مؤتلفين غير مختلفين ﴿كَمَا بَقُلْتُمْ﴾ أي: جميعاً كذلك، فتكون ﴿كَافَّةً﴾ حالاً من المسلمين، ويجوز أن تكون حالاً من المشركين، أي قاتلو المشركين جميعاً ولا تمسكوا منهم بعهد ولا ذمة، إلا من كان من أهل الجزية وأعطاهما عن صغار، والظاهر هو الأول. وقيل: معناه قاتلوهم خلفاً بعد سلف، كما أنه يخلف بعضهم بعضاً في قتالكم، عن الأصم.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالنصرة والولاية، وفي هذه الآية دلالة على أن الاعتبار في السنين بالشهور القمرية لا بالشمسية، والأحكام الشرعية معلقة بها، وذلك لما علم الله سبحانه فيه من المصلحة، ولسهولة معرفة ذلك على الخاص والعام.



قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

● القراءة: قرأ أبو جعفر: «النسيء» بالتشديد من غير همزة، وقرأ جعفر بن محمد رحمهما الله، والزهري: «النسي» مخففاً في وزن الهدي بغير همز، وروي مثل ذلك أيضاً عن شبل عن ابن كثير، والباقون: «النسيء» بالمد والهمز. وقرأ: «يُضَلُّ» بضم الياء، وفتح الضاد أهل الكوفة غير أبي بكر، وقرأ: «يُضِلُّ» بضم الياء، وكسر الضاد أوقية، من طريق ابن مقسم عن أبي عمرو ورويس عن يعقوب، والباقون: «يُضِلُّ» بفتح الياء وكسر الضاد.

● الحجة: قال أبو علي: «النسيء» مصدر كالنذير والنكير وعذير الحي، ولا يجوز أن يكون فعلاً بمعنى مفعول، كما قاله بعض الناس، لأنه إن حمل على ذلك كان معناه: إنما المؤخر زيادة في الكفر، والمؤخر الشهر، وليس الشهر نفسه بزيادة في الكفر، وإنما الزيادة في الكفر، تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ليست له تلك الحرمة. فأما نفس الشهر، فلا.

وأما ما روي من «النسي» بالياء، فذلك يكون على إبدال الياء من الهمزة، ولا أعلمها لغة في التأخير، كما أن أرجيت لغة في أرجأت.

وما روي من «النسي» بتشديد الياء، فعلى تخفيف الهمزة، وليس هذا القلب مثل القلب في النسي بالياء، لأن «النسي» بتشديد الياء على وزن فعيل تخفيف قياسي، كما أن مقروءة في مقروءة تخفيف قياسي، وليس النسيء كذلك. وذكر ابن جني فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون أراد النسيء، ثم خفف، بأن أبدلت الهمزة كما قال الشاعر:

أهبي التراب فوقه إهباباً^(١)

أراد إهباء.

والثاني: أن يكون فعلاً من نسيت، لأن الشيء إذا أخر فكأنه نسي.

والثالث: وفيه الصيغة، أن يكون أراد النسيء على فعيل، ثم خفف وأدغم فصار النسيء، ثم قصر فعيلًا بحذف يائه فصار نسي، ثم أسكن عين فعل فصار نسي، كما قيل في سميح سفتح، وفي رطيب رطب، وفي جديب جذب.

فأما قوله: ﴿يُضِلُّ﴾ فليس في يُضِلُّ إشكال ولا في يضلُّ، لأن المضلَّ لغيره، ضالُّ بفعله إضلال غيره، أما يضلُّ: فالمعنى فيه أن كبراءهم وأشرفهم يضلونهم بحملهم على هذا التأخير في الشهور. وقرئ في الشواذ: ﴿يَضَلُّ﴾ بفتح الياء والضاد، وهذه لغة، أعني: ضَلَّلت أضلُّ.

● **اللغة:** قال أبو زيد: نسأت الإبل في ظمئها يوماً أو يومين أو أكثر من ذلك، والمصدر النسيء، يقال: نسأت الإبل عن الحوض أنساها نساءً، إذا أخرتها عنه والمواطاة: الموافقة يقال: واطأ في الشعر إذا قال بيتين على قافية واحدة، وأوطأ مثله.

● **المعنى:** لما قدَّم سبحانه ذكر السنة والشهر، عقبه بذكر ما كانوا يفعلونه من النسيء، فقال: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يعني تأخير الأشهر الحرم عما رتبها الله سبحانه عليه، وكانت العرب تحرم الشهور الأربعة، وذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم وإسماعيل، وهم كانوا أصحاب غارات وحروب، فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزوا فيها^(٢)، فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى سفر فيحرمونه، ويستحلون المحرم، فيمكثون بذلك زماناً، ثم يؤول التحريم إلى المحرم، ولا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة. قال ابن عباس: ومعنى قوله ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾: أنهم كانوا أحلوا ما حرم الله، وحرّموا ما أحل الله.

قال الفراء: والذي كان يقوم به رجل من كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة، وكان رئيس الموسم، فيقول: أنا الذي لا أعاب، ولا أخاب، ولا يرد لي قضاء! فيقولون: نعم صدقت، أنسئنا شهراً، أو أخر عنا حرمة المحرم، واجعلها في صفر، وأحل المحرم، فيفعل ذلك. والذي كان ينسأها حين جاء الإسلام، جُنادة بن عوف بن أمية الكناني.

قال ابن عباس: وأول من سنَّ النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف.

وقال أبو مسلم بن أسلم: بل رجل من بني كنانة يقال له: القلمس، كان يقول: إني قد نسأت المحرم العام، وهما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا فجعلناهما محرمين، قال شاعرهم: «وما ناسئ الشهر القلمس».

(١) أهبي الغبار: أثاره.

(٢) وفي بعض النسخ «لا يغيرون فيها».

وقال الكميت:

ونحن الناسئون على معدّ شهور الحلّ نجعلها حراماً

وقال مجاهد: كان المشركون يحجون في كل شهر عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور حتى وافقت الحجة التي قبل حجة الوداع في ذي القعدة، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل حجة الوداع، فوافقت في ذي الحجة، فذلك حين قال النبي ﷺ، وذكر في خطبته: «ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان» أراد ﷺ: الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها، وعاد الحج إلى ذي الحجة، وبطل النسيء.

﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يضل بهذا النسيء الذين كفروا. ومن قرأ بضم الياء فمعناه: يضلون به غيرهم، وإضلالهم أنهم فعلوا ذلك ليحللوا للناس الأشهر الحرم، التي حرم الله القتال فيها وأوجب الحج في بعضها، فيستحلون ترك الحج في الوقت الذي هو واجب فيه، ويوجبونه في الوقت الذي لا يجب فيه، وجوزوا ذلك عليهم حتى ضلوا باتباعهم. ﴿يُحِلُّونَ عَمَّا وَبَحَرْتُمْ عَمَّا أَيَّ يَجْعَلُونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ حِلًّا إِذَا احتاجوا إلى القتال فيه، ويجعلون الشهر الحلال حراماً، ويقولون شهر بشهر، وإذا لم يحتاجوا إلى القتال لم يفعلوا ذلك ﴿لِيُؤْطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ معناه: أنهم لم يحلوا شهراً من الحرم، إلا حرموا مكانه شهراً من الحلال، ولم يحرموا شهراً من الحلال، إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرم، ليكون موافقه في العدد، وذلك المواطاة ﴿زَيْنَ لَهُمْ سَوْءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: زينت لهم أنفسهم، أو زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، عن الحسن. وقيل معناه: استحسنا ذلك بهوهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ مر تفسيره.



قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

● **اللغة:** النفرة: الخروج إلى الشيء لأمر هيّج عليه، ومنه: نفور الدابة، يقال: نفرت الدابة نفوراً، ونفر إلى الثغر نفراً ونفيراً. والتناقل: تعاطي إظهار ثقل النفس، ومثله التباطؤ، وضده التسرع. والمتاع: الانتفاع بما يظهر للحواس، ومنه قولهم: تمتع بالرياض والمناظر الحسان، ويقال للأشياء التي لها أثمان: متاع تشبيهاً به. والاستبدال: جعل أحد الشيئين بدل الآخر، مع الطلب له.

سورة التوبة

● الإعراب: اناقلتم: إفاعلتم، وأصله تفاعلتم، أدغمت التاء في التاء لمناسبتها لها، ثم أدخلت ألف الوصل ليتمكن الابتداء بها، ومثله: إذأركوا، واتابع في قول الشاعر:

تولي الضجيع إذا ما اشتاقها خَصِيراً عذب المذاق إذا ما أتباع القُبل^(١)

● النزول: قالوا: لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف، أمر بالجهاد لغزوة الروم، وذلك في زمان إدراك الثمار، فأحبوا المقام في المسكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال، وكان عليه الصلاة والسلام قلما خرج في غزوة إلا كنى عنها، وورى بغيرها، إلا غزوة تبوك، لبعد شقتها وكثرة العدو ليتأهب الناس، فأخبرهم بالذي يريد، فلما علم الله سبحانه تناقل الناس، أنزل الآية.

● المعنى: ثم عاتب سبحانه المؤمنين في التناقل عن الجهاد، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ أي إذا دعاكم رسول الله ﷺ وقال لكم: ﴿أَفِرُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي اخرجوا إلى مجاهدة المشركين، وهو ههنا غزوة تبوك - عن الحسن ومجاهد ﴿أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تناقلتم وملتم إلى الإقامة في الأرض التي أنتم عليها. قال الجبائي: هذا الاستبطاء مخصوص بنفر من المؤمنين، لأن جميعهم لم يتناقلوا عن الجهاد، فهو عموم أريد به الخصوص بدليل ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ هذا استفهام يراد به الإنكار، ومعناه: آثرتم الحياة الدنيا الفانية، على الحياة في الآخرة الباقية في النعيم الدائم؟ ﴿فَمَا مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي فما فوائد الدنيا ومقاصدها في فوائد الآخرة ومقاصدها إلا قليل، لانقطاع هذه ودوام تلك، ثم عقبه سبحانه بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ومعناه: إلا تخرجوا إلى القتال الذي دعاكم إليه الرسول، وتقعدهوا عنه يعذبكم الله عذاباً أليماً مؤلماً في الآخرة. وقيل: في الدنيا ﴿وَسَتَبَدِّلَ﴾ بكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ لا يتخلفون عن الجهاد. قيل: هم أبناء فارس، عن سعيد بن جبیر. وقيل: هم أهل اليمن، عن أبي روق. وقيل هم الذين أسلموا بعد نزول هذه الآية، عن الجبائي ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي ولا تضروا الله بهذا القعود شيئاً، لأنه غني لنفسه لا يحتاج إلى شيء، عن الحسن، وأبي علي. وقيل معناه: ولا تضروا الرسول شيئاً، لأن الله عصمه من جميع الناس، وينصره بالملائكة أو بقوم آخرين من المؤمنين. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو القادر على الاستبدال بكم، وعلى غير ذلك من الأشياء. قال الزجاج: وهذا وعيد شديد في التخلف عن الجهاد.



قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ .

(١) أوليته خير أي: أعطيت. والخصر: البارد. وأراد منه ريقها. والقُبل: جمع القبلة.

● **القراءة:** قرأ يعقوب وحده: ﴿كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ بالنصب. والباقون: بالرفع.

● **الحجة:** من نصب عطفه على قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّقُوتَ﴾ وجعل ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَالِبَةُ﴾. ومن رفع استأنف وهو أبلغ، لأنه يفيد أن كلمة الله هي العليا في كل حال.

● **الإعراب:** ﴿ثَانِيَانِ﴾ نصب على الحال، وللعرب في هذا مذهبان:

أحدهما: قولهم: هذا ثاني اثنين، وثالث ثلاثة، ورابع أربعة، وخامس خمسة، أي أحد اثنين، وأحد ثلاثة، وأحد أربعة، وأحد خمسة.

والآخر: قولهم: ثالث اثنين، وخامس أربعة بمعنى: أنه ثلث اثنين، وخمس أربعة، فالأول إضافة حقيقية محضة، والثاني إضافة غير محضة، إذ هو في تقدير الانفصال. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضع أحد الزمانين في موضع الآخر لتقاربهما.

● **المعنى:** ثم أعلمهم الله سبحانه أنهم إن تركوا نصرة رسوله لم يضره ذلك شيئاً، كما لم يضره قلة ناصريه حين كان بمكة وهم به الكفار، فتولى الله نصره، فقال: ﴿إِلَّا نَضْرِبُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ﴾ معناه: إن لم تنصروا النبي ﷺ على قتال العدو، فقد فعل الله به النصر ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة فخرج يريد المدينة ﴿ثَانِيَانِ﴾ يعني أنه كان هو وأبو بكر ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ ليس معهما ثالث، أي وهو أحد اثنين، ومعناه: فقد نصره الله منفرداً من كل شيء إلا من أبي بكر، والغار: الثقب العظيم في الجبل، وأراد به هنا غار ثور، وهو جبل بمكة ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ أي إذ يقول الرسول لأبي بكر ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ أي لا تخف ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ يريد أنه مطلع علينا عالم بحالنا، فهو يحفظنا وينصرنا.

قال الزهري: لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار، أرسل الله زوجاً من حمام حتى باضا في أسفل الثقب، والعنكبوت حتى تنسج بيتاً، فلما جاء سراقه بن مالك في طلبهما، فرأى ببض الحمام وبيت العنكبوت، قال: لو دخله أحد لانكسر البيض، وتفسخ بيت العنكبوت، فانصرف، وقال النبي ﷺ: اللهم أعم أبصارهم! فعميت أبصارهم عن دخوله، وجعلوا يضربون يميناً وشمالاً حول الغار، وقال أبو بكر: لو نظروا إلى أقدامهم لرأونا.

وروى علي بن إبراهيم بن هاشم قال: كان رجل من خزاعة فيهم، يقال له: أبو كرز، فما زال يقفو أثر رسول الله ﷺ حتى وقف بهم على باب الغار، فقال لهم: هذه قدم محمد ﷺ، هي والله أخت القدم التي في المقام، وقال: هذه قدم أبي قحافة أو ابنه، وقال: ما جازوا هذا المكان، إما أن يكونوا قد صعدوا في السماء، أو دخلوا في الأرض، وجاء فارس من الملائكة في صورة الإنس، فوقف على باب الغار وهو يقول لهم: اطلبوه في هذه الشعاب فليس ههنا، وكانت العنكبوت نسجت على باب الغار، ونزل رجل من قريش فبال على باب الغار، فقال أبو بكر: قد أبصرونا يا رسول الله، فقال ﷺ: لو أبصرونا ما استقبلونا بعوراتهم. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ﴾ يعني على محمد ﷺ، أي ألقى في قلبه ما سكن به،

سورة التوبة

وعلم أنهم غير واصلين إليه، عن الزجاج ﴿وَأَيَّدُوا﴾ أي قوّاه ونصره ﴿يَجْتَوِدُ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي: بملائكة يضربون وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه، عن الزجاج. وقيل معناه: قواه بملائكة يدعون الله تعالى له، عن ابن عباس. وقيل معناه: وأعانه بالملائكة يوم بدر، وأخبر الله سبحانه أنه صرف عنه كيد أعدائه وهو في الغار، ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر، عن مجاهد، والكلبي.

وقال بعضهم: يجوز أن تكون الهاء التي في ﴿عَلَيْهِ﴾ راجعة إلى أبي بكر، وهذا بعيد، لأن الضمائر قبل هذا وبعده تعود إلى النبي ﷺ بلا خلاف، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا نَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وفي قوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَهُ﴾ وقوله: ﴿لِصَّحْبِهِ﴾ وقوله فيما بعده: ﴿وَأَيَّدُوا﴾ فكيف يتخللها ضمير عائد إلى غيره؟ هذا وقد قال سبحانه في هذه السورة: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ مَكِّيَّتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال في سورة الفتح: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد ذكرت الشيعة في تخصيص النبي ﷺ في هذه الآية بالسكينة كلاماً، رأينا الإضراب عن ذكره أخرى، لثلا ينسبنا ناسب إلى شيء.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ معناه: أن الله سبحانه جعل كلمتهم نازلة دنية، وأراد به أنه سفلى وعيدهم للنبي ﷺ، وتخويفهم إياه، وأبطله بأن نصره عليهم، فعبر عن ذلك بأنه جعل كلمتهم السفلى لا أنه خلق كلمتهم ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي هي المرتفعة المنصورة بغير جعل جاعل، لأنها لا يجوز أن تدعو إلى خلاف الحكمة. وقيل: إن كلمة الكفار كلمة الشرك، وكلمة الله هي كلمة التوحيد، وهي قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فمعناه: جعل كلمة الكفار السفلى بأن جعلهم أذلة أسفلين، وأعلى كلمة الله بأن أعز الإسلام والمسلمين ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في انتقامه من أهل الشرك ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره.



قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبِعُوكُمْ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٩٣).

● القراءة: في الشواذ قراءة الأعمش: ﴿لو استطعنا﴾ بضم الواو، وقد مضى الكلام فيه في أوائل سورة البقرة.

● اللغة: القاصد: السهل المقصد عن غير طول، لأنه مما يقصد لسهولة، وسمي العدل قصداً، لأنه مما ينبغي أن يقصد. والشقة: القطعة من الأرض التي يشق ركوبها على صاحبها لبعدها، ويحتمل أن يكون من الشق الذي هو الناحية من الجبل، ويحتمل أن يكون من المشقة.

والشقة: السفر والمسافة، وقريش يضمون الشين، وقيس يكسرونها، وقريش يضمون العين من «بعدت» وقيس يكسرونها.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه بالجهاد، وبيّن تأكيد وجوبه على العباد، فقال: ﴿أُفِرُّوْا﴾ أي اخرجوا إلى الغزو ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي شباباً وشيوخاً، عن الحسن ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وغيرهم. وقيل: نشاطاً وغير نشاط، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: مشاغيل وغير مشاغيل، عن الحكم. وقيل: أغنياء وفقراء، عن أبي صالح. وقيل: أراد بالخفاف أهل العسرة من المال وقلة العيال، وبالثقال أهل الميسرة في المال وكثرة العيال، عن الفراء. وقيل معناه: ركباناً ومشاة، عن أبي عمرو، وعطية العوفي. وقيل: ذا صنعة وغير ذي صنعة، عن ابن زيد. وقيل: عزاباً ومتأهلين، عن يمان. والوجه أن يحمل على الجميع، فيقال: معناه اخرجوا إلى الجهاد خفّ عليكم أو شقّ على أي حال كنتم، لأن أحوال الإنسان لا تخلو من أحد هذه الأشياء.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وهذا يدل على أن الجهاد بالنفس والمال واجب على من استطاع بهما، ومن لم يستطع على الوجهين، فعليه أن يجاهد بما استطاع. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ معناه: أن الخروج والجهاد بالنفس والمال خير لكم من التثاقل وترك الجهاد إلى مباح ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله عز اسمه صادق في وعده ووعيده. وقيل: معناه إن كنتم تعلمون الخير في الجملة فاعلموا أن هذا خير. قال السدي: لما نزلت هذه الآية اشتد شأنها على الناس، فنسخها الله تعالى بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ الآية.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ معناه: لو كان ما دعوتهم إليه غنيمة حاضرة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي قريباً هيناً. وقيل: قاصداً، أي ذا قصد، نحو تامر ولا بن^(١)، عن المبرد. وقيل: سهلاً متوسطاً غير شاق ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ طمعاً في المال ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾ أي: المسافة، يعني غزوة تبوك، أمروا فيها بالخروج إلى الشام ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ معناه: أن هؤلاء سيعتذرون إليك في قعودهم عن الجهاد، ويحلفون لو استطعنا وقدّرنا وتمكنا من الخروج لخرجنا معكم، ثم أخبر سبحانه أنهم ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بما أسروهم من الشرك. وقيل: باليمين الكاذبة، والعدر الباطل، لما يستحقون عليها من العقاب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في هذا الاعتذار والحلف.

وفي هذه دلالة على صحة نبوة نبينا ﷺ، إذ أخبر أنهم سيحلفون قبل وقوعه فحلفوا، وكان مخبره على ما أخبر به، وفيه أيضاً دلالة واضحة على أن القدرة قبل الفعل، لأن هؤلاء لا يخلو، إما أن يكونوا مستطيعين الخروج قادرين عليه ولم يخرجوا، أو لم يكونوا قادرين عليه، وإنما حلفوا لو أنهم قدروا في المستقبل لخرجوا، فإن كان الأول فقد ثبت أن القدرة قبل الفعل، وإن كان الثاني فقد كذبهم الله تعالى في ذلك، وبين أنه لو فعل لهم الاستطاعة لما خرجوا.

(١) أي ذو تمر، وذو لبن.

سورة التوبة

وفي ذلك أيضاً وجوب تقدم القدرة على المقدور، فإن حملوا الاستطاعة على وجود الآلة وعدة السفر، فقد تركوا الظاهر من غير ضرورة، فإن حقيقة الاستطاعة القدرة، على أنه لو كان عدم الآلة والعدة عذراً في التأخر، فعدم القدرة أصلاً أخرى وأولى أن يكون عذراً فيه.

ثم خاطب النبي ﷺ، بما فيه بعض العتاب في إذنه لمن استأذنه في التأخر عن الخروج معه إلى تبوك، فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ في التخلف عنك. قال قتادة، وعمر بن ميمون: اثنان فعلمهما النبي ﷺ لم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسارى، فعاتبه الله كما تسمعون، وهذا من لطيف المعاتبه، بدأه بالعفو قبل العتاب.

وهل كان هذا الإذن قبيحاً أم لا؟ قال الجبائي: كان قبيحاً ووقع صغيراً، لأنه لا يقال في المباح، لم فعلته؟ وهذا غير صحيح، لأنه يجوز أن يقال فيما غيره أفضل منه، لم فعلته، كما يقول القائل لغيره إذا رآه يعاتب أخاً له: لم عاتبته وكلمته بما يشق عليه؟ وإن كان يجوز له معاتبته بما يشق عليه. وكيف يكون إذنه لهم قبيحاً، وقد قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾. وقيل: معناه أدام الله لك العفو، لم أذنت لهؤلاء في الخروج، لأنهم استأذنوا فيه تملقاً، ولو خرجوا لأرادوا الخبال والفساد، ولم يعلم النبي ﷺ ذلك من سريرتهم، عن أبي مسلم.

﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَقَلَّ الْكَذِبِينَ﴾ أي: حتى تعرف من له العذر منهم في التخلف، ومن لا عذر له، فيكون إذنك لمن أذنت له على علم. قال ابن عباس: وذلك أن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المنافقين يومئذ. وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام إنما خيرهم بين الظعن والإقامة، متوعداً لهم، ولم يأذن، فاغتنم القوم ذلك. وفي هذا إخبار من الله سبحانه أنه كان الأولى أن يلزمهم الخروج معه، حتى إذا لم يخرجوا، أظهر نفاقهم، لأنه متى أذن لهم ثم تأخروا، لم يعلم النفاق كان تأخرهم أم لغيره وكان الذين استأذنوه منافقين، ومنهم جد بن قيس، ومعتب بن قشير، وهما من الأنصار.



قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤) ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٢٥).

● **المعنى:** ثم بين سبحانه حال المؤمنين والمنافقين في الاستئذان، فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي لا يطلب منك الإذن في القعود عن الجهاد معك بالمعاذير الفاسدة. وقيل معناه: لا يستأذنك في الخروج، لأنه مستغن عنه بدعائك إلى ذلك، بل يتأهب له، عن أبي مسلم. ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ والمعنى في أن يجاهدوا؛ فحذف في فافضى الفعل ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾ قال ابن عباس: هذا تعيين للمنافقين حين استأذنوه في القعود عن الجهاد، وعذر للمؤمنين في قوله: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ والمعنى: أنه لم يخرجهم من صفة المتقين إلا لأنه علم أنهم ليسوا منهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ في التأخر عن الجهاد والتخلف عن القتال معك. وقيل: في الخروج، لأن المنافق إنما يستأذنك في الخروج تملقاً، ولا يتأهب كما يتأهب المؤمنون، عن أبي مسلم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: لا يصدقون به ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: بالبعث والنشور ﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: اضطربت وشكت ﴿فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ﴾ فهم في شكهم يذهبون ويرجعون، والتردد: هو التصرف بالذهاب والرجوع مرات متقاربة، مثل التحير. وأراد به المنافقين، أي يتوقعون الإذن لشكهم في دين الله، وفيما وعد المجاهدين، ولو أنهم كانوا مخلصين لوثقوا بالنصر وبثواب الله، فبادروا إلى الجهاد ولم يستأذنوك فيه.



قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ نِيَعَاتِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧) ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨).

● **اللغة:** العدة، والأهبة، والآلة، نظائر. والانبعاث: الانطلاق بسرعة في الأمر، وفلان لا ينبعث في الحاجة، أي ليس له نفاذ فيها. والتثبيط: التوقيف عن الأمر بالتزهد فيه، ومثله التريث. والخبال: الفساد، والخبال: الموت، والخبال: الاضطراب في الرأي. والخبل، بسكون الباء وفتحها: الجنون. والخبل: فساد الأعضاء، قال:

أَبْنِي لُبَيْئِي لَسْتُ بِبِيدٍ إِلَّا يَدًا مَخْبُولَةَ الْعَضُدِ^(١)

والإيضاع: الإسراع في السير، قال امرؤ القيس:

أَرَانَا مُوْضِعِينَ لِحْتَمٍ غَيْبٍ، وَتُسَحَّرُ بِالطَّعَامِ، وَبِالشَّرَابِ^(٢)

وربما قالوا للراكب: وضع بغير ألف، ووضعت الناقة تضع وضعاً ووضوعاً، وأوضعتها إيضاعاً، قال:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَّغٌ أَخْبَ فِيهَا وَأَضَغُ^(٣)

خلالكم، أي: بينكم، مشتق من التخلل. وفي الحديث: تراضوا بين الصفوف لا يتخللکم

(١) لبيئى: اسم ابنة إبليس واسم ابنة لقيس.

(٢) قوله موضعين أي: مسرعين، ويريد بقوله لحتم غيب: الموت. والسحر: الغداء. يقول: لنسرع إلى الموت، وقد غيب عنا وقته، ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب.

(٣) قائله دريد بن صمة قاله في (وقعة حنين). والجذع: الشاب. والخب والوضع: ضربان من السير.

سورة التوبة

الشياطين كأنها بَنَاتُ حَذَفٍ^(١). والتقليب: تصريف الشيء بجعل أعلاه أسفله، ورجل حَوْلْ قُلْب: كأنه يُقَلِّبُ الآراء في الأمور ويحوِّلها.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء المنافقين، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ مع النبي ﷺ، نصرة له، أو رغبة في جهاد الكفار، كما أراد المؤمنون ذلك، ﴿لَأَعَدُّوا لَكُمْ عُدَّةً﴾ أي لاستعدوا للخروج عدة، وهي ما يعد لأمر يحدث قبل وقوعه. والمراد: لأخذوا أهبة الحرب، من الكراع والسلاح، لأن إمارة من أراد أمراً أن يتأهب له قبل حدوثه. ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ معناه: ولكن كره الله خروجهم إلى الغزو، لعلهم أنهم لو خرجوا لكانوا يمشون بالنميمة بين المسلمين، وكانوا عيوناً للمشركين، وكان الضرر في خروجهم أكثر من الفائدة ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ عن الخروج الذي عزموا عليه، لا عن الخروج الذي أمرهم به، لأن الأول كفر، والثاني طاعة، لا ينبغي أن يقال: كيف كره انبعاثهم بعدما أمر به في الآية الأولى؟ لأنه إنما أمر بذلك على وجه الذب عن الدين، ونية الجهاد، وكره ذلك على نية التضريب والفساد، فقد كره غير ما أمر به. ومعنى ثَبَّطَهُمْ: بَطَّأَ بِهِمْ، وخَذَّلَهُمْ لما يعلم منهم من الفساد. ﴿وَقِيلَ أَفَعَصَوُا مَعَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي وقيل لهم: اقعِدُوا مع النساء والصبيان، ويحتمل أن يكون القائلون لهم ذلك، أصحابهم الذين نهوهم عن الخروج مع النبي ﷺ للجهاد. ويحتمل أن يكون ذلك من كلام النبي ﷺ لهم، على وجه التهديد والوعيد، لا على وجه الإذن. ويجوز أن يكون أيضاً على وجه الإذن لهم في القعود الذي عاتبه الله تعالى عليه، إذ كان الأولى ألا يأذن لهم ليظهر للناس نفاقهم.

قال أبو مسلم: هذا يدل على أن الاستئذان كان في الخروج، وأن الإذن من النبي ﷺ لهم كان في الخروج، لأنه إذا كره الله سبحانه خروجهم وأراد قعودهم، وأذن النبي ﷺ في قعودهم، فلا عتب عليه، ولكنهم استأذنوا في الخروج تملقاً وإرادة للفساد، فأذن النبي ﷺ لهم فيه ولم يعلم ضمائرهم، فعلم الله تعالى ذلك من نياتهم، ومنعهم من الخروج إذ كره خروجهم.

ثم بين سبحانه وجه الحكمة في كراهية انبعاثهم، وتثبيطهم عن الخروج، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ معناه: لو خرج هؤلاء المنافقون معكم إلى الجهاد، ما زادوكم بخروجهم إلا شراً وفساداً. وقيل: غدرًا ومكرًا، عن الضحاك. وقيل: يريد عجزاً وجبنًا، عن ابن عباس أي: إنهم كانوا يجبنونكم عن لقاء العدو بتحويل الأمر عليكم ﴿وَلَا وَضَعُوا خَلْقَكُمْ﴾ أي: لأسرعوا في الدخول بينكم، بالتضريب، والإفساد، والنميمة، يريد: ولسعوا فيما بينكم بالتفريق بين المسلمين. ويكون تقديره: ولأعدوا الإبل وسطكم. وقيل: معناه لأوضعوا إبلهم خلالكم، يتخلل الراكب الرجلين حتى يدخل بينهما فيقول ما لا ينبغي.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ بَعَدُوا الْإِبِلَ وسطكم، ومعنى ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ يَبْغُونَ لَكُمْ أو فيكم، أي يطلبون لكم المحنة باختلاف الكلمة والفرقة وقيل: معناه يَبْغُونَكُمْ أن تكونوا مشركين ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الشرك، عن الحسن. وقيل معناه: يخوفونكم بالعدو، ويخبرونكم منهزمون، وأن عدوكم

(١) الحذف: الغنم الصغار الحجازية.

سيظهر عليكم، عن الضحاك **﴿وَفِيكُمْ سَعْنُونَ لَكُمْ﴾** أي وفيكم عيون للمنافقين، ينقلون إليهم ما يسمعون منكم، عن مجاهد وابن زيد، وقيل معناه: وفيكم قائلون منهم عند سماع قولهم، يريد ضعفة المسلمين، عن قتادة وابن إسحاق وجماعة **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾** أي بهؤلاء المنافقين الذين ظلموا أنفسهم، لما أضمرنا عليه من الفساد، منهم عبد الله بن أبي، وجد بن قيس، وأوس بن قبيط.

ثم أقسم الله سبحانه فقال: **﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾** الفتنة: اسم يقع على كل سوء وشر، والمعنى: لقد طلب هؤلاء المنافقون في اختلاف كلمتكم، وتشيت أهوائكم، وافتراق آرائكم، من قبل غزوة تبوك، أي في يوم أحد، حين انصرف عبد الله بن أبي بأصحابه، وخذل النبي ﷺ، فصرف الله سبحانه عن المسلمين فتنهم. وقيل: أراد بالفتنة صرف الناس عن الإيمان وإلقاء الشبهة إلى ضعفاء المسلمين، عن الحسن. وقيل: أراد بالفتنة الفتك بالنبي في غزوة تبوك ليلة العقبة، وكانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا على الشبهة ليفتكوا بالنبي ﷺ، عن سعيد بن جبير، وابن جريج **﴿وَقَالُوا لَكَ الْأُمُورُ﴾** أي احتالوا في توهين أمرك، وإيقاع الاختلاف بين المؤمنين وفي قتل كل ما أمكنهم فيه فلم يقدروا عليه. وقيل: إنهم كانوا يريدون في كيد وجهاً من التدبير، فإذا لم يتم ذلك فيه، تركوه وطلبوا المكيدة في غيره، فهذا تقليب الأمور، عن أبي مسلم **﴿حَقُّ جَاءَ الْحَقُّ﴾** معناه حتى جاء النصر والظفر الذي وعده الله به **﴿وَوَهَبَ أَمْرُ اللَّهِ﴾** أي دينه وهو الإسلام على الكفار على رغمهم **﴿وَهُمْ كَرِهُونُ﴾** أي في حال كراهيتهم لذلك، فهي جملة في موضع الحال.



قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكُولُ أَتَذَن لِّي وَلَا تَفْتَنِّي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩) إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنًا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَضُونَ (٥٢)﴾.

● **القراءة:** القراءة المشهورة: **﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾** وقرأ طلحة بن مصرف: **﴿قُلْ هَلْ يُصِيبَنَا﴾** وكذلك هو في مصحف ابن مسعود.

● **النزول:** قيل: إن رسول الله ﷺ، لما استنفر الناس إلى تبوك، قال: انفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر^(١). فقام جد بن قيس، أخو بني سلمة من بني الخزرج، فقال: يا رسول

(١) قال الجزري: وفي الحديث «اغزوا تغنموا بنات الأصفر» يعني الروم، لأن أباهم الأول كان أصفر اللون، وهو روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم.

سورة التوبة

الله! إئذن لي ولا تفتني ببنات الأصفر، فإني أخاف أن أفتتن بهن. فقال: قد أذنت لك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُولُ أَقْدَنَ لِي﴾ الآيات، عن ابن عباس، ومجاهد. فلما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: لبني سلمة: من سيدكم؟ قالوا: جد بن قيس، غير أنه بخيل جبان! فقال ﷺ: وأي داء أدوى من البخل، بل سيدكم الفتى الأبيض الجعد، بشر بن البراء بن المعرور، فقال في ذلك حسان بن ثابت:

وقال رسول الله، والقول لاحق بمن قال مئنا: من تَعُدُّون سيِّدا؟
فقلنا له: جدُّ بن قيس على الذي نُبْخِله فينا، وإن كان أنكدا
فقال: وأي الداء أدوى من الذي رميتم به «جدا» وإن كان أمجدا
وسودُّ بُشْرُ بنُ البراء لجوده وحقُّ لبشر ذي النداء أن يسودا
إذا ما أتاه الوفدُ أنهب ماله وقال: خذوه إنه عائدٌ غدا

● المعنى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن المنافقين ﴿مَّنْ يَكْفُولُ أَقْدَنَ لِي﴾ في القعود عن الجهاد ﴿وَلَا تَفْتِنِي﴾ ببنات الأصفر، عن ابن عباس، ومجاهد. قال الفراء: سميت الروم أصفر، لأن حبشياً غلب على ناحية الروم، وكان له بنات قد أخذن من بياض الروم، وسواد الحبشة، فكن صفراً لغساً^(١). وقيل: معناه لا تؤثمني، أي: لا توقعني في الإثم بالعصيان لمخالفة أمرك بالخروج إلى الجهاد، وذلك غير متيسر لي، عن الحسن، وقتادة، والجبائي، والزجاج ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ معناه: ألا في العصيان والكفر وقعوا، بمخالفتهم أمرك في الخروج والجهاد. وقيل: معناه لا تعذبني بتكليف الخروج في شدة الحر. ألا قد سقطوا في حر أعظم من ذلك، وهو حر نار جهنم، عن أبي مسلم، ويدل عليه قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾. ﴿وَلَا يَكْفُرُ لَكُمْ جِهَنَّمَ﴾ أي ستحيط بهم فلا مخلص لهم منها.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسَبِّحْهُنَّ﴾ هذا خطاب من الله سبحانه للنبي ﷺ، ومعناه: إن تنلك نعمة من الله، وفتح وغنيمة يحزن المنافقون ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ معناه: وإن تصيبك شدة، ونكبة، وآفة في النفس أو المال، ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلِ﴾ أي: أخذنا حذرنا، واحترزنا بالقعود من قبل هذه المصيبة - عن مجاهد. ومعناه: أخذنا أمرنا من مواضع الهلكة، فسَلِمْنَا مما وقعوا فيه ﴿وَيَكْفُرُوا بِهِمْ فَارْجِعْ﴾ أي: رجعوا إلى بيوتهم فرحين بما أصاب المؤمنين من الشدة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: كل ما يصيبنا من خير أو شر، فهو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ في أمرنا، وليس على ما يظنون ويتوهمون من إهمالنا، من غير أن يرجع أمرنا إلى تدبير، عن الحسن. وقيل: معناه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا في القرآن، من النصر الذي وعدنا، وأنا نظفر بالأعداء فتكون النصره حسنى لنا، أو نقتل فتكون الشهادة حسنى لنا أيضاً، أي: فقد كتب الله لنا ما يصيبنا، وعلمنا ما لنا فيه من الحظ، عن الزجاج والجبائي ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: هو مالكننا ونحن عبيده. وقيل: هو ولينا وناصرنا، يحفظنا وينصرنا، ويتولى

(١) أي يضرب لونهن إلى السواد.

حياطتنا، ودفع الضرر عنا. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين بالتوكل عليه، والرضا بتدبيره وتقديره: فليتوكل على الله المؤمنون.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ معناه: هل تنتظرون لنا إلا إحدى الخصلتين الحميدتين، والنعمتين العظيمتين: إما الغلبة والغنيمة في العاجل، وإما الشهادة مع الثواب الدائم في الآجل، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وغيرهم، وهل وإن كان حرف للاستفهام، فمعناه هنا التقرير بالتبرص المؤدي صاحبه إلى كل ما يكرهه من خيبته وفوز خصمه، ومن هلاكه ونجاة خصمه، ومن شقوته وسعادة خصمه ﴿وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ﴾ أي: ونحن نتوقع بكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّتٍ مِنْهُ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي: يوقع الله بكم عذاباً من عنده يهلككم به، أو بأن ينصرنا عليكم فيقتلكم بأيدينا ﴿فَرْتَبِصُوا﴾ صورته صورة الأمر، والمراد به التهديد، كقوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ لأنه لو كان أمراً لهم لكانوا في تربصهم بالمؤمنين القتل، مطيعين الله ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ أي: منتظرون إما الشهادة والجنة، وإما الغنيمة والأجر لنا. وإما البقاء في الذل والخزي، وإما الموت أو القتل مع المصير إلى النار لكم، وهذه الآية تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وقيل: معناه فتربصوا هلاكنا، فإننا متربصون هلاككم، وقيل: تربصوا مواعيد الشيطان في إبطال دين الله، ونحن متربصون مواعيد الله في إظهار دينه، ونصرة نبيه، واستئصال مخالفه.



قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾.

● القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿أَنْ يُقَبَّلَ﴾ بالياء، والباقون: بالتاء.

● الحجة: وجه القراءة بالتاء: أن الفعل مسند إلى مؤنث في اللفظ، ووجه الياء: أن التانيث ليس بحقيقي، فجاز أن يذكر، كما جاء: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾.

● اللغة: الطوع: الانقياد بإرادة لم يحمل عليها، والكره: فعل الشيء بكرهية حمل عليها. والمنع: أمر يصاد الفعل وينافيه، وهو على وجهين: منع أن يفعل، ومنع أن يفعل به، فهؤلاء منعوا من أن يفعل بهم قبول نفقتهم. والزهق: الخروج بصعوبة، وأصله الهلاك، وكل هالك زاهق، زهق يزهد زهوفاً، والزاهق من الدواب: السمين الشديد السمن، لأنه هالك بثقل بدنه في السير، والكر، والفر، وزهق فلان بين أيدي القوم: إذا ذهب سابقاً لهم حتى يهلك منهم. والإعجاب: السرور بما يتعجب منه، يقال: أعجبني حديثه، أي: سرتني.

سورة التوبة

● الإعراب: ﴿أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ لفظ أمر، ومعناه معنى الشرط والجزاء، المعنى: إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم، ومثله من الشعر قول كثير:

أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومةٌ لدينا ولا مقليةٌ إن تقلت^(١)
فلم يأمرها بالإساءة، ولكن أعلمها إن أساءت أو أحسنت فهو على عهدنا، فكأنه قال: إن أحسنت أو أسأت فلا تلامي.

قال الزجاج: فإن قال قائل: كيف يكون الأمر في معنى الخبر؟ قيل له: إذا كان في الكلام دليل عليه جاز، كما يكون لفظ الخبر في معنى الأمر والدعاء، كقولك: غفر الله لزيد ورحمه الله، ومعناه: اللهم اغفر له وارحمه، وقوله: ﴿أَنْ تَقْبَلَ﴾ في موضع نصب، وتقديره: من أن تقبل. و ﴿أَنْهَزْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ في موضع رفع، المعنى: ما منعهم من قبول نفقاتهم إلا كفرهم، ويجوز أن يكون التقدير: وما منعهم الله منه إلا لأنهم كفروا.

● المعنى: ثم بين سبحانه أن هؤلاء المنافقين لا ينتفعون بما ينفقونه مع إقامتهم على الكفر، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: طائعين أو مكرهين ﴿لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ معناه: وإنما لم يتقبل منكم لأنكم كنتم متمردين على طاعة الله، والله سبحانه إنما يتقبل من المؤمنين المخلصين. ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهَزَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: وما يمنع هؤلاء المنافقين أن يثابوا على نفقاتهم إلا كفرهم بالله وبرسوله، وذلك مما يحبط الأعمال، ويمنع من استحقاق الثواب عليها ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي: متناقلين، والمعنى: لم يؤدوها على الوجه الذي أمروا أن يؤدوها على ذلك الوجه ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ لذلك، لأنهم إنما يصلون وينفقون للرياء والتستر بالإسلام، لا لابتغاء مرضاة الله تعالى. وفي هذا دلالة على أن الكفار مخاطبون بالشرائع، لأنه سبحانه ذمهم على ترك الصلاة والزكاة، ولولا وجوبها عليهم لم يذموا بتركها.

﴿فَلَا تُمْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد جميع المؤمنين. وقيل: يريد لا تعجبك أيها السامع، أي: لا يأخذ بقلبك ما تراه من كثرة أموال هؤلاء المنافقين، وكثرة أولادهم، ولا تنظر إليهم بعين الإعجاب ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قد ذكر في معناه وجوه:

أحدها: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا، أي لا يسرك أموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، عن ابن عباس، وقتادة، فيكون الظرف على هذا متعلقًا بأموالهم وأولادهم، ومثله قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَ إِلَيْهِمْ تَوَلَّى غَتَمٌ فَأَنْظَرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ والتقدير: فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم.

(١) القلا: بغض. وتقل أي تبغض. وفي الشعر التفات من الخطاب إلى الغيبة.

وثانيها: أن معناه: إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا بالتشديد عليهم في التكليف، وأمرهم بالإنفاق في الزكاة والغزو، فيؤذونها على كره منهم ومشقة، إذ لا يرجون به ثواباً في الآخرة، فيكون ذلك عذاباً لهم، عن الحسن، والبلخي.

وثالثها: أن معناه: إنما يريد الله ليعذبهم بحفظها والمصائب فيها، مع حرمان المنفعة بها، عن ابن زيد.

ورابعها: أن معناه: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا، أي: بسبي الأولاد، وغنيمة الأموال، عند تمكن المؤمنين من أخذها وغنمها، فيتحسرون عليها، فيكون ذلك جزاء على كفرهم، عن الجبائي.

وخامسها: أن المراد: يعذبهم بجمعها، وحفظها، وحبها، والبخل بها، والحزن عليها، وكل هذا عذاب، وكذلك خروجهم عنها بالموت، لأنهم يفارقونها ولا يدرون إلى ماذا يصيرون، واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى أن، ويحتمل أن يكون لام العاقبة، والتقدير: إنما يريد الله أن يملي لهم فيها ليعذبهم. ﴿وَتَزَهَّقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي تهلك وتذهب بالموت ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال، أي حال كونهم كافرين، والإرادة تعلقت بزهوq أنفسهم لا بالكفر، وهذا كما تقول: أريد أن أضربه وهو عاص، فالإرادة تعلقت بالضرب لا بالعصيان.



قوله تعالى: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ يعقوب وسهل: «أو مدخلا» بفتح الميم، وسكون الدال، وهو قراءة ابن أبي إسحاق، والحسن. والباقون: «مدخلا» وفي الشواذ قراءة مسلمة بن محارب: «مدخلا» بضم الميم وسكون الدال، وقراءة الأعرج: «مدخلا» بتشديد الدال والخاء، وقراءة أنس: «وهم يجمزون» رواه الأعمش عنه.

● **الحجة:** أما قوله: «مدخلا» في القراءة المشهورة فأصله: مدتخلا، لكن التاء تبدل بعد الدال دالاً، لأن التاء مهموسة، والدال مهجورة، والتاء والدال من مكان واحد، فكان الكلام من وجه واحد أخف. ومن قرأ «مدخلا»، فهو من دخل يدخل مدخلا. ومن قرأ «مدخلا»، فهو من أدخلته مدخلا، قال:

الحمد لله مُمَسَّانَا وَمُصَبِّحَنَا بِالْخَيْرِ صَبَّحْنَا رَبِّي وَمَسَّانَا

ومن قرأ «مدخلا»، بتشديد الدال والخاء، جعله متدخلا، ثم أدغم التاء في الدال. وفي رواية الأعمش أنه سمع أنساً يقرأ: «يَجْمَزُونَ» فقال: وما يجمزون؟ قال: يجمزون، ويجمحون، ويشدون، واحد.

سورة التوبة

● **اللغة:** الفرق: انزعاج النفس بتوقع الضرر، وأصله من مفارقة الأموال حال الانزعاج. والملجأ: الموضع الذي يتحصن فيه، ومثله المعقل والموئل والمعتصم والمعتمد. والمغارات: جمع مغارة مفعلة، من غار الشيء في الشيء يغور إذا دخل منه في موضع يستره. والغار: النقب في الجبل. والمدخل: المسلك الذي يتدسس بالدخول فيه، وهو مفتعل. والجماح: مضيي المار مسرعاً على وجهه لا يرده شيء عنه، وقيل: هو المشي بين الشيتين، قال مهلهل: لقد جمحتُ جماحاً في دمائهم حتى رأيت ذري أحسابهم خمدوا والجموح: الراكب هواه، قال:

خلعت عذارى جامحاً ما يرُدني عن البيض أمثال الدُمي زَجِرُ زاجِر^(١)

● **المعنى:** ثم أظهر سبحانه سرّاً من أسرار القوم، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ أي يقسم هؤلاء المنافقون إنهم لمن جملتكم أيها المؤمنون، أي مؤمنون أمثالكم ﴿وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ﴾ أي ليسوا مؤمنين بالله، كما أنتم كذلك ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي يخافون القتل والأسر إن لم يظهروا الإيمان ﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأٌ﴾ أي لو يجد هؤلاء المنافقون حراً، عن ابن عباس. وقيل: حصناً، عن قتادة ﴿أَوْ مَعْدَنَةٍ﴾ أي غيرانا في الجبال، عن ابن عباس. وقيل: سراديب، عن عطاء ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ أي موضع دخول يأوون إليه، عن الضحاك. وقيل: نفقاً كنفق اليربوع، عن ابن زيد. وقيل: أسراباً في الأرض، عن ابن عباس، وأبي جعفر عليه السلام. وقيل: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ، عن الحسن ﴿لَوْ لَوْا إِلَيْهِ﴾ أي لعدلوا إليه. وقيل: لأعرضوا عنكم إليه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون في الذهاب إليه. ومعنى الآية: إنهم من خبت دخلتهم، وسوء سريرتهم، وحرصهم على إظهار ما في نفوسهم من النفاق والكفر، لو أصابوا شيئاً من هذه الأشياء لآووا إليه، ليجاهروا بما يضمرونه وأعرضوا عنك.



قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩).

● **القراءة:** قرأ يعقوب: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بضم الميم، وهي قراءة الحسن والأعرج. والباقون: بكسر الميم.

● **اللغة:** يقال: لمزت الرجل ألمزه وألمزه، إذا عبته، وكذلك همزته، قال الشاعر: إذا لقيتك تُبدي لي مُكاشرةً وإن تغيّبت كنت الهامز اللُمزة^(٢)

(١) العذار: ما سال من اللجام على خذ الفرس، ويقال للشباب المنهمك في العي: خلع عذاره أي: اتبع هواه وما يبالي بشيء كالفرس بلا لجام. والذمي جمع الدمية: الصورة ويكنى بها عن المرأة.

(٢) كاشره: ضحك في وجهه. وباسطه.

وقيل: الهمز: العيب، بكسر العين وغمزها: أي: يكسر عينه^(١) إذا غاب، واللمز: العيب على وجه المسارة، وقيل لأعرابي: أتهمز الفأرة؟ قال: الهر يهمزها، فأوقع الهمز على الأكل، والهمز كاللمز.

● **النزول:** عن أبي سعيد الخدري قال: بينا رسول الله ﷺ يقسم قسماً، وقال ابن عباس: كانت غنائم هوازن يوم حنين، إذ جاءه ابن أبي ذي الخويصرة التميمي، وهو حرقوص بن زهير أصل الخوارج، فقال: اعدل يا رسول الله! فقال: ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: يا رسول الله، إنذن لي فأضرب عنقه! فقال النبي ﷺ: دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فيُنظر في قُذْذه، فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظر في رصافه^(٢)، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصله، فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفُزْتُ والدم، آيتهم رجل أسود في إحدى ثدييه، أو قال في إحدى يديه، مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تُدْرِر، يخرجون على فترة من الناس. وفي حديث آخر: فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكُفِّرُ﴾ الآية. قال أبو سعيد الخدري: أشهد أنني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علياً عليه السلام حين قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ، رواه الثعلبي بإسناده في تفسيره.

وقال الكلبي: نزلت في ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ﴾، وهم المنافقون، قال رجل منهم يقال له ابن الجواظ: لم يقسم بالسوية، فأنزل الله الآية.

وقال الحسن: أتاه رجل وهو يقسم فقال: ألسنت تزعم أن الله تعالى أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء والمساكين؟ قال: بلى، قال: فما لك تضعها في رعاة الغنم؟ قال: إن نبي الله موسى عليه السلام كان راعي غنم، فلما ولَّى الرجل قال عليه السلام: احذروا هذا. وقال ابن زيد: قال المنافقون: ما يعطيها محمد إلا من أحب، ولا يؤثر بها إلا هواه، فنزلت الآية.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عنهم، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَّن يَكُفِّرُ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يعيبك ويطعن عليك في أمر الصدقات ﴿فَإِنْ أَغْطَوْا مِنْهَا﴾ أي: من تلك الصدقات ﴿رَضُوا﴾ وأقروا بالعدل ﴿وَلِنْ لَّمْ يَعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون ويعيبون، وقال أبو عبد الله عليه السلام: أهل هذه الآية أكثر من ثلثي الناس ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ معناه: ولو أن هؤلاء المنافقين الذين طلبوا منك الصدقات، وعابوك بها، رضوا بما أعطاهم الله ورسوله ﴿وَقَالُوا﴾ مع ذلك ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كفانا الله، أو كافينا الله ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيعطينا الله من فضله وإنعامه، ويعطينا رسوله مثل ذلك، وقالوا ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ في أن يوسع علينا من فضله فيغنيننا عن أموال الناس. وقيل: يعني

(١) وفي نسخة مطبوعة «يكسر عليه».

(٢) القذذ: ريش السهم. والرصاف: العقب الذي يلوى على مدخل النصل.

سورة التوبة

راغبون إليه فيما يعطينا من الثواب، ويصرف عنا من العذاب، وجواب لو محذوف، وتقديره: لكان خيراً لهم، وأعود عليهم، وحذف الجواب في مثل هذا الموضع أبلغ على ما تقدم بيانه.



قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

● **الإعراب:** قال الزجاج: ﴿فَرِيضَةً﴾ منصوب على التوكيد، لأن قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ﴾ لهؤلاء كقولك: فرض الله الصدقات لهؤلاء.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه لمن الصدقات، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ ومعناه: ليست الصدقات التي هي زكاة الأموال إلا لهؤلاء. واختلف في الفرق بين الفقير والمسكين على قولين:

أحدهما: أنهما صنف واحد، وإنما ذكر الصنفان تأكيداً للأمر، وهو قول أبي علي الجبائي، وإليه ذهب أبو يوسف ومحمد، فقالا فيمن قال ثلث مالي للفقراء والمساكين وفلان، إن لفلان نصف الثلث، ونصفه الآخر للفقراء والمساكين، لأنهما صنف واحد.

والآخر: وهو قول الأكثرين: أنهما صنفان، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة، فإنه قال في المسألة المذكورة: إن لفلان ثلث الثلث، وثلثي الثلث للفقراء والمساكين.

ثم اختلف هؤلاء على أقوال: فقليل: إن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل، والمسكين الذي يسأل، عن ابن عباس والحسن والزهري ومجاهد، ذهبوا إلى أن المسكين مشتق من المسكنة بالمسألة، وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام. وقيل: إن الفقير الذي يسأل، والمسكين الذي لا يسأل. وجاء في الحديث ما يدل على ذلك، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ليس المسكين الذي يرده الأكلة والأكلتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنياً فيغنيه. ولا يسأل الناس شيئاً، ولا يفتن به فيتصدق عليه. وقيل: الفقير هو الزَّيْمُ المحتاج، والمسكين هو الصحيح المحتاج، عن قتادة. وقيل: الفقراء المهاجرون، والمساكين غير المهاجرين، عن الضحاك، وإبراهيم.

ثم اختلفوا من وجه آخر، فقليل: إن الفقير أسوأ حالاً من المسكين، فإن الفقير هو الذي لا شيء له، والمسكين الذي له بلغة من العيش لا تكفيه، وإليه ذهب الشافعي وابن الأنباري، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّائِغَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ وبأن الفقير مشتق من فقار الظهر، فكان الحاجة قد كسرت فقار ظهره. وقيل: إن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، فإن الفقير الذي له بلغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له، وهو قول أبي حنيفة، والقتيبي، وابن دريد، وأئمة اللغة، وأنشد يونس:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يُشْرِكْ له سبب^(١)
فسماه فقيراً وجعل له حلوبة.

وأجابوا عن السفينة: بأنها كانت مشتركة بين جماعة، ولكل واحد منهم الشيء اليسير،
وأيضاً فإنه يجوز أن يكون سماهم: مساكين، على وجه الرحمة، كما جاء في الحديث: «مساكين
أهل النار» وقال الشاعر:

مساكين أهل الحب حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر
وقيل: إنهم كانوا يعملون عليها فأضيفت إليهم. ﴿وَالْعَمِلَيْنَ عَلَيْهَا﴾ يعني سعاة الزكاة
وجباتها ﴿وَالْمَوْلَفَةَ فَلُوْهُمْ﴾ وكان هؤلاء قوماً من الأشراف في زمن النبي ﷺ، وكان يعطيهم
سهماً من الزكاة ليتألفهم به على الإسلام، ويستعين بهم على قتال العدو. ثم اختلف في هذا
السهم، هل هو ثابت بعد النبي أم لا؟ فقل: هو ثابت في كل زمان، عن الشافعي، واختاره
الجبائي، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، إلا أنه قال: من شرطه أن يكون هناك إمام عادل
يتألفهم على ذلك به. وقيل: إن ذلك كان خاصاً على عهد رسول الله ﷺ، ثم سقط بعده،
لأن الله سبحانه أعز الإسلام وقهر الشرك، عن الحسن والشعبي، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه.
﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يعني في فك الرقاب من العتق، وأراد به المكاتبين. وأجاز أصحابنا أن
يُشْتَرَى منه عبد مؤمن إذا كان في شدة ويعتق، ويكون ولاؤه لأرباب الزكاة، وهو قول ابن عباس
والحسن، ومالك.

﴿وَالْفَرَمِينَ﴾ وهم الذين ركبهم الديون في غير معصية ولا إسراف، يقضي عنهم الديون.
﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو الجهاد بلا خلاف، ويدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح
المسلمين، وهو قول ابن عمر وعطاء، وهو اختيار البلخي، وجعفر بن مبشر، قالوا: يبني منه
المساجد والقناطر وغير ذلك.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع به، يعطى من الزكاة وإن كان غنياً في بلده ذا يسار،
وإنما سمي ابن السبيل للزومه الطريق، فنسب إليه، كما قال الشاعر:

أنا ابن الحرب ربّنتني وليداً إلى أن شبت واكتهلّت لداتي^(٢)

وقيل: هو الضعيف، عن قتادة ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: مقدرة واجبة قدرها الله وحمها
﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بحاجة خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض عليهم وأوجب من إخراج الصدقات وغير ذلك.



(١) قائله الراعي يمدح عبد الملك بن مروان، ويشكر إليه سعاته. وفي نسخة مخطوطة كنسخة التبيان «أنا الفقير». والحلوبة: الناقة التي تحلب، ويقال: حلوبة فلان وفق عياله أي: لها لبن قدر كفايتهم لا فضل فيه. والسبد: كناية عن القليل.

(٢) الوليد: المولود حين يولد. ولدت جمع اللدة، الترب: وهو الذي ولد معك، أو تربى معك.

سورة التوبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

● القراءة: قرأ عاصم في رواية الأعمش والبرجمي عن أبي بكر: ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بالضم والتنوين فيهما، وهو قراءة الحسن وقتادة وعيسى بن عمر وغيرهم، وقرأ الباقر: ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بالإضافة. وقرأ نافع: ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ﴾ ساكنة الذال في كل القرآن. وقرأ حمزة وحده: ﴿ورحمة للذين آمنوا﴾ بالجر. والباقر: ﴿ورحمة﴾ بالرفع.

● الحجة: قال أبو علي: أذن في الآية إذا خفت أو ثقلت فإنه يجوز أن يطلق على الجملة، وإن كانت عبارة عن جارحة منها، كما قال الخليل في التاب من الإبل، إنه سميت به لمكان التاب البازل، فسميت الجملة كلها به. وقالوا للرئيس: هو عين القوم، وللربينة^(١) هو عينهم، ويجوز فيه شيء آخر، وهو أن الاسم يجري عليه كالوصف له، لوجود معنى ذلك الاسم فيه، كقول جرير:

تبدو فُتُبدِي جمالاً زانه خَفَرٌ إذا ترارات السود العناكيب^(٢)

فأجرى العناكيب وصفاً عليهن، يريد أنهن من الحقارة والدمامة كالعناكيب، وقال آخر:

فلولا الله والمهر المفدَى، لأبت وأنت غربال الإهاب^(٣)

فجعله غربالاً لكثرة الخروق فيه من آثار الطعن، وكذلك قوله: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أجرى على الجملة اسم الجارحة، لما أراد به من كثرة استعماله لها في الإصغاء بها. ويجوز أن يكون فعلاً من أذن يأذن أذناً إذا استمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذَنْتَ لِرَبِّهَا﴾ أي استمعت، وقوله: ﴿أَشْذَنَ لِي﴾ أي استمع لي، وفي الحديث: ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن فعلى هذا يكون معناه: أنه كثير الاستماع، مثل أنف وسجج. قال أبو زيد: رجل أذن إذا كان يصدق بكل ما يسمع. وقوله: ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بالإضافة وهو الأثر في القراءة، فمعناه: إنه أذن خير أي: مستمع خير وصلاح لكم، ومصغ إليه لا مستمع شر فساد.

من قرأ: ﴿أذن خير لكم﴾ قال الزجاج معناه: من يستمع منكم فيكون قريباً منكم، قابلاً للعذر، خير لكم. قال أبو علي: ومن رفع ﴿ورحمة﴾ كان المعنى: هو أذن خير لكم ورحمة، جعله الرحمة لكثرة هذا المعنى فيه، وعلى هذا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ويجوز أن

(١) الربينة: الطليعة، وهو الذي ينظر للقوم لثلا يدهمهم عدو، والتأنيث باعتبار العين.

(٢) الخفر: شدة الحيا.

(٣) الأوب: الرجوع والإهاب: الجلد.

يقدّر حذف المضاف من المصدر وأما الجر في ﴿رَحْمَةً﴾ فعلى العطف على ﴿خير﴾، كأنه أذن خيرٍ ورحمة. فإن قلت: أفيكون أذن رحمة؟ فإن هذا لا يمتنع، لأن الأذن في معنى مستمع في الأقوال الثلاثة التي تقدمت، فكأنه مستمع رحمة، فجاز هذا كما جاز مستمع خير، ألا ترى أن الرحمة من الخير. فإن قلت: فهلا استغنى بشمول الخير للرحمة وغيرها عن تقدير عطف الرحمة عليه؟ فالقول فيه: أن ذلك لا يمتنع كما لا يمتنع ﴿أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ثم خصّ فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ وإن كان قوله: ﴿خَلَقَ﴾ يعم الإنسان وغيره، فكذلك الرحمة إذا كانت من الخير لم يمتنع أن تعطف، فتخصص الرحمة بالذكر من ضروب الخير، لغلبة من ذلك في وصفه وكثرته، كما خصص الإنسان بالذكر، وإن كان الخلق قد عمّه وغيره، والبعد بين الجار وما عطف عليه لا يمنع من العطف، ألا ترى أن من قرأ: ﴿وَقِيلَ يَكْرَبُ﴾ إنما يحمله على: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وعلم قيله.

● **اللغة:** الفرق بين الأحق والأصلح: أن الأحق قد يكون من غير صفات الفعل، كقولك: زيد أحق بالمال، والأصلح لا يقع هذا الموقع، لأنه من صفات الفعل، وتقول: الله أحق بأن يطاع، ولا تقول أصلح. والمحادة: مجاوزة الحد بالمشاقة، وهي والمخالفة، والمجانبة، والمعاداة، نظائر، وأصله المنع. والمحادة: ما يعتري الإنسان من النزق، لأنه يمنعه من الواجب، والخزي: الهوان وما يستحي منه.

● **الإعراب:** ﴿أَذْنٌ خَيْرٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ومن لم يصف جعل خيراً صفة لأذن، واللام في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ على حد اللام في قوله: ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾ أو على المعنى، لأن معنى يؤمن: يصدق، فعدي باللام، كما عدي مصدقاً به في نحو قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقيل: إنما دخلت اللام للفرق بين إيمان التصديق، وإيمان الأمان.

قوله: ﴿فَأَنْتَ لَمْ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ يحتمل أن يكون العامل في «أن» أحد أمرين، إما أن يكون على تقدير حذف الجار، على معنى: فلأن له نار جهنم، أو فبأن له نار جهنم، وإما أن يكون أعاد أن الأولى على التكرير للتوكيد بسبب طول الكلام، عن الزجاج.

وأقول: إن هذا، على مذهب أبي الحسن، وأبي علي الفارسي، يرتفع قوله: ﴿فَأَنْتَ لَمْ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ بظرف مضمّر محذوف من هذا الموضع لطول الكلام، وتقديره: فله أن له نار جهنم، والمعنى: فله وجوب نار جهنم، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: فأمره أو شأنه أن له نار جهنم. ولا يجوز أن يرتفع بفعل مضمّر، لأن الفعل لا يقع بعد الفاء في جواب الشرط، وإنما يدخل الفاء في جواب الشرط، إذا كان مبتدأ، أو خبراً، أو جملة فعلية غير خبرية، نحو قوله: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ﴾ هذا مذهب سيبويه. قال الزجاج: ولو قرئ: ﴿فَإِنَّ لَهُ بِكسر الهمزة على وجه الاستئناف لكان جائزاً، فيكون كقولك: فله نار جهنم، غير أنه لم يقرأ به أحد.

● **النزول:** قيل: نزلت في جماعة من المنافقين، منهم الجلاس بن سويد، وشأس بن قيس، ومخشى بن حمير، ورفاعة بن عبد المنذر، وغيرهم، قالوا ما لا ينبغي، فقال رجل منهم: لا تفعلوا، فإنا نخاف أن يبلغ محمداً ما تقولون، فيوقع بنا، فقال الجلاس: بل نقول ما

سورة التوبة

شئنا، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإن محمداً أذن سامعة، فأنزل الله الآية. وقيل: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: نبتل بن الحرث، وكان رجلاً أدلم، أحمر العينين، أسفع الخدين^(١)، مشوه الخلقة، وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى المنافقين، فقبل له: لا تفعل. فقال: إنما محمد أذن، من حدثه شيئاً صدقه، نقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث، عن محمد بن إسحاق، وغيره. وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ الآية، قيل: إنها نزلت في رهط من المنافقين، تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ من تبوك، أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم من تخلفهم، ويعتلون ويحلفون، فنزلت الآية، عن مقاتل، والكلبي. وقيل: في جلاس بن سويد وغيره من المنافقين، قالوا: لئن كان ما يقوم محمد حقاً، فنحن شر من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له: عامر بن قيس، فقال: والله! إن ما يقول محمد حق، وأنتم شر من الحمير، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فدعاهم فسألهم فحلفوا أن عامراً كذاب، فنزلت الآية، عن قتادة والسدي.

● **المعنى:** ثم رجع سبحانه إلى ذكر المنافقين، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ والأذى قد يكون بالفعل، وقد يكون بالقول، وهو هنا بالقول. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنٌ﴾ معناه: أنه يستمع إلى ما يقال له ويصغي إليه ويقبله ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَذْنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: هو أذن خير، يستمع إلى ما هو خير لكم، وهو الوحي. وقيل معناه: هو يسمع الخير ويعمل به، ومن قرأ: ﴿أَذْنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فمعناه: قل كونه أذنأً أصلح لكم، لأنه يقبل عذرهم ويستمع إليكم، ولو لم يقبل عذرهم لكان شراً لكم، فكيف تعيبنه بما هو خير لكم وأصلح؟ ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: أنه لا يضره كونه أذنأً، فإنه أذن خير فلا يقبل إلا الخبر الصادق من الله، ويصدق المؤمنين أيضاً فيما يخبرونه، ويقبل منهم، دون المنافقين عن ابن عباس. فإيمانه للمؤمنين تصديقه لهم على هذا القول. وقيل: يؤمن للمؤمنين، أي: يؤمنهم فيما يلقي إليهم من الأمان، ولا يؤمن للمنافقين، بل يكونون على خوف وإن حلفوا ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: وهو رحمة لهم، لأنهم إنما نالوا الإيمان بهديته ودعائه إياهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ أخبر سبحانه أن هؤلاء المنافقين يقسمون بالله، إن الذي بلغكم عنهم باطل، اعتذاراً إليكم، وطلباً لمرضاتكم ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ أي: والله ورسوله أحق وأولى بأن يطلبوا مرضاتهما ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بالله، مقرين بنبوته نبيه محمد ﷺ، وتقديره: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه، فحذف للتخفيف وللدلالة الكلام عليه، قال الشاعر:

نحن بما عندنا، وأنت بما عندك راضٍ، والرأي مختلفٌ

والمعنى: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راضٍ.

(١) الأسفع: أسود اللون إلى حمرة.

ثم قال سبحانه على وجه التقريع والتوبيخ لهؤلاء المنافقين: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي: وما يعلموا ﴿أَنَّهُمْ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: من تجاوز حدود الله، التي أمر المكلفين ألا يتجاوزوها، وإنما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ لمن لا يعلم، على وجه الاستبطاء لهم، والتخلف عن علمه، أي: هلا علموا بعد أن مكنوا من علمه. وقيل: هو أمر بالعلم، أي: يجب أن يعلموا بهذا الخبر والدلائل. وقيل: معناه ألم يخبرهم النبي ﷺ بذلك، عن الجبائي ﴿فَأَن لَّمْ تَأْرَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾ أي: دائماً ﴿ذَلِكَ الْخَزْيُ﴾ أي: الهوان والذل ﴿الْعَظِيمُ﴾.



قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزَيُّوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ لَا تَعْزِدُوهُمْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

● القراءة: قرأ عاصم: ﴿إِنْ نَعَفَ وَنَعَذَّبَ﴾ فيهما بالنون ﴿طَائِفَةٌ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون: ﴿أَنْ يَعَفَ﴾ بالياء وضمها وفتح الفاء. ﴿تُعَذِّبُ﴾ بالتاء وضمها. ﴿طَائِفَةٌ﴾ بالرفع.

● الحجة: قال أبو علي: حجة من قرأ: ﴿إِنْ نَعَفَ﴾ قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ ومن قرأ: ﴿أَنْ يَعَفَ﴾ فالمعنى معنى نعف. وأما ﴿تُعَذِّبُ﴾ بالتاء، فلأن الفعل في اللفظ مسند إلى مؤنث ظاهر.

● اللغة: الحذر: إعداد ما ينفي الضرر، ورجل حذر متيقظ متحرز، ورجل حذريان: كثير الحذر، شديد الفزع. والمنافق: الذي يظهر الإيمان خلاف ما يبطنه من الكفر، مشتق من نافقاء اليربوع، لأنه يخفي باباً ويظهر باباً، ليكون إذا أتى من أحدهما، خرج من الآخر. والخوض: دخول القدم فيما كان مائعاً من الماء والطين، ثم كثر حتى استعمل في غيره. واللعب: فعل ما فيه سقوط المنزلة لتعجل اللذة، كفعل الصبي، ولذلك قالوا: مُلَاعِبُ الْأُسْنَةِ، أي: إنه لشجاعته يقدم على الأسنة، كفعل الصبي الذي لا يفكر في عاقبة أمره. والاعتذار: إظهار ما يقتضي العذر. والإجرام: الانقطاع عن الحق إلى الباطل، يقال: جَرَمَ الثَّمَرُ، إذا صرمه، وتجرمت السنة تصرمت.

● النزول: قيل: نزلت في اثني عشر رجلاً وقفوا على العقبة، ليفتكوا برسول الله ﷺ عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بذلك، وأمره أن يرسل إليهم، ويضرب وجوه رواحلهم، وعمار كان يقود دابة رسول الله ﷺ، وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى نجاهم. فلما نزل قال لحذيفة: مَنْ عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً. فقال رسول الله ﷺ: إنه فلان وفلان حتى عددهم كلهم، فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، عن ابن كيسان.

سورة التوبة

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام مثله، إلا أنه قال: ائتمروا بينهم ليقتلوه، وقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: إنا كنا نخوض ونلعب، وإن لم يظن نقتله.

وقيل: إن جماعة من المنافقين قالوا في غزوة تبوك: يظن هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات! فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فقال: احبسوا عليّ الركب. فدعاهم، فقال لهم: قلتم كذا وكذا؟ فقالوا: يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب، وحلفوا على ذلك، فنزلت الآية: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾ الخ، عن الحسن، وقتادة.

وقيل: كان ذلك عند منصرفه من غزوة تبوك إلى المدينة، وكان بين يديه أربعة نفر أو ثلاثة، يستهزئون ويضحكون، واحدهم يضحك ولا يتكلم، فنزل جبريل وأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فدعا عمار بن ياسر، وقال: إن هؤلاء يستهزؤون بي وبالقرآن، أخبرني جبرائيل بذلك، ولئن سألتهم ليقولن: كنا نتحدث بحديث الركب، فاتبعهم عمار وقال لهم: ممّ تضحكون؟ قالوا: نتحدث بحديث الركب. فقال عمار: صدق الله ورسوله، احترقتم أحرقتكم الله، فأقبلوا إلى النبي ﷺ يعتذرون، فأنزل الله تعالى الآيات، عن الكلبي، وعلي بن إبراهيم، وأبي حمزة.

وقيل: إن رجلاً قال في غزوة تبوك: ما رأيت أكذب لساناً، ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء - يعني رسول الله وأصحابه - فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، وأراد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك، فجاء وقد سبقه الوحي. فجاء الرجل معتذراً، وقال: إنما كنا نخوض ونلعب، ففيه نزلت الآية، عن ابن عمر وزيد بن أسلم ومحمد بن كعب.

وقيل: إن رجلاً من المنافقين قال: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا، وما يدرية ما الغيب؟ فنزلت الآية، عن مجاهد. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي رهطه، عن الضحاك.

● المعنى: ثم أخبر سبحانه عنهم، فقال: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه إخبار بأنهم يخافون أن تفشوا سرائرهم، ويحذرون ذلك، عن الحسن، ومجاهد، والجبائي، وأكثر المفسرين. والمعنى: أنهم يحذرون من أن ينزل الله عليهم، أي: على النبي والمؤمنين سورة تخبر عما في قلوبهم من النفاق والشرك، وقد قيل: إن ذلك الحذر إنما أظهره على وجه الاستهزاء، لا على سبيل التصديق، لأنهم حين رأوا رسول الله ﷺ ينطق في كل شيء عن الوحي، قال بعضهم لبعض: احذروا أن ينزل وحي فيكم، يتناجون بذلك ويضحكون، عن أبي مسلم. وقيل: إنهم كانوا يقولون القول فيما بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا، عن مجاهد.

والثاني: هذا اللفظ لفظه الخبر ومعناه الأمر، فهو كقولك: ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة، تخبرهم بما في قلوبهم من النفاق، وحسن ذلك لأن موضع الكلام على التهديد. ﴿قُلْ أَنتَهَزُوا﴾ معناه: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: استهزئوا، أي: اطلبوا الهزء، وهو

وعيد بلفظ الأمر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي: مظهر ما تحذرون من ظهوره، والمعنى: أن الله يبين لنبيه باطن حالكم ونفاقكم ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ عن طعنهم في الدين، واستهزائهم بالنبي ﷺ وبالمسلمين ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، واللام للتأكيد والقسم، ومعناه لقالوا كنا نخوض خوض الركب في الطريق، لا على طريق الجد، ولكن على طريق اللعب واللهو، فكان عذرهم أشد من جرمهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَيُّ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ أي: حججه وبياناته وكتابه ﴿وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المنافقين: ﴿لَا تَعْدُوا﴾ بالمعاذير الكاذبة ﴿فَدَكَّرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي فإنكم بما فعلتموه قد كفرتم، بعد أن كنتم مظهرين الإيمان، الذي يحكم لمن أظهره بأنه مؤمن، ولا يجوز أن يكونوا مؤمنين على الحقيقة مستحقين للثواب، ثم يرتدون على ما تقرر بالدليل، وذكر في غير هذا الموضع، أن المؤمن لا يجوز أن يكفر. ﴿إِنْ نَقَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: كافرين مصرين على النفاق، هذا إخبار منه سبحانه، أنه إن عفا عن قوم منهم إذا تابوا، يعذب طائفة أخرى لم يتوبوا، وأقاموا على النفاق. والطائفة: اسم للجماعة على الحقيقة، لأنه اسم لما يطيف بغيره ويحيط به، وقد سمي الواحد طائفة، على معنى أنها نفس طائفة، وقد ورد القرآن بذلك في قوله: ﴿وَلَشَهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد ورد في الآثار عن أئمتنا ﷺ: إن أقل من يحذر عذابهما واحد من المؤمنين فصاعداً. وروى أن هاتين الطائفتين كانوا ثلاثة نفر، فهزأ اثنان وضحك واحد، وهو الذي تاب من نفاقه، واسمه: مخشى بن حمير، فعفا الله عنه.



قوله تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٧) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتُ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ مُقِيمٌ ﴿١٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَدُوا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٠﴾.

- اللغة: الاستمتاع: طلب المتعة، وهي فعل ما فيه اللذة من المأكل والمشرب والمناجح. والخلاف: النصيب. سواء كان عاجلاً أو آجلاً، وقال الزجاج: النصيب الذي هو عند صاحبه وافر الحظ. والمؤتفكات: جمع مؤتفكة، قد اتفكت بهم الأرض، أي: انقلبت.
- الإعراب: موضع الكاف من قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ نصب، أي: وعدكم الله

على الكفر به، كما وعد الذين من قبلكم، والكافي في قوله: ﴿كَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ و ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ نصب بأنه صفة لمصدر محذوف، وتقديره: استمتعتم استمتاعاً مثل استمتاعهم، وخضتم خوضاً مثل خوضهم، قال جامع العلوم النحوي البصير: كالذي خاضوا، تقديره: على قياس قول سيبويه، كالذي خاضوا فيه، فحذف «في» فصار كالذي خاضوه، ثم حذف الهاء، وهو على قول يونس والأخفش: الذي مصدر، والتقدير: كالخوض الذي خاضوا فيه، ومثل هذا اختلافهم في قوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ على قول سيبويه تقديره: يبشر الله به، وعلى قول يونس والأخفش: ذلك تبشير الله عباده.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أحوال أهل النفاق، فقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي بعضهم من جملة بعض، وبعضهم مضاف إلى بعض، في الاجتماع على النفاق والشرك، كما تقول: أنا من فلان وفلان مني، أي أمرنا واحد وكلمتنا واحدة. وقيل: معناه بعضهم على دين بعض، عن الكلبي. وقيل: بعضهم من بعض على لحوق مقت الله بهم جميعاً، عن أبي مسلم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ أي: بالشرك والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي عن الأفعال الحسنة التي أمر الله بها وحث عليها ﴿وَيَقِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يمسكون أموالهم عن إنفاقها في طاعة الله ومرضاته، عن الحسن، وقادة. وقيل: معناه يمسكون أيديهم عن الجهاد في سبيل الله، عن الجبائي ﴿تَسْأَلُوا اللَّهَ فَتَسِيئُهُمْ﴾ أي تركوا طاعته فتركهم في النار، وترك رحمتهم وإثابتهم، عن الأصم. وقيل: معناه جعلوا الله كالمنسي، حيث لم يتفكروا في أن لهم صناعاً يثيبهم ويعاقبهم، ليمنعهم ذلك عن الكفر والأفعال القبيحة، فجعلهم سبحانه في حكم المنسي عن الثواب، وذكر ذلك لازدواج الكلام، لأن النسيان لا يجوز عليه تعالى. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله، وعن طاعته. وقيل: الفاسقون المترددون في الشرك.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أخبر سبحانه أنه وعد الذين يظهرون الإسلام، ويطنون الكفر، النار، وكذلك الكفار، وإنما فصل النفاق من الكفر وإن كان النفاق كفراً، ليبين الوعيد على كل واحد من الصنفين ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين فيها ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ معناه: نار جهنم والعقاب فيها كفاية ذنوبهم، كما يقول: عذبتك حسب ما فعلت، وحسب فلان ما نزل به، أي: ذلك على قدر فعله ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من جنته وخيره ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم لا يزول. ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: وعدكم على النفاق والاستهزاء، كما وعد الذين من قبلكم من الكفار، الذين فعلوا مثل فعلكم، عن الزجاج، والجبائي. وقيل: معناه فعلكم كفعل الذين من قبلكم من كفار الأمم الخالية ﴿كَانُوا أَشَدَّ وَبْشاً مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ في أبدانهم ﴿وَأَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَدًا﴾ فلم ينفعهم ذلك شيئاً، وحل بهم عذاب الله تعالى ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ أي: بنصيبهم وحظهم من الدنيا، بأن صرفوها في شهواتهم المحرمة عليهم، وفيما نهاهم الله عنه ثم أهلكوا ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ أي: فاستمتعتم أنتم أيضاً بحظكم في الدنيا، كما استمتعوا هم ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: وخضتم في الكفر والاستهزاء بالمؤمنين كما خاض الأولون ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي تقع طاعة

من المؤمنين، مثل الإنفاق في وجوه الخير، وصلة الرحم وغيرها ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ إذ لم يستحقوا عليها ثواباً في الآخرة، ولا تعظيماً وتبجيلاً في الدنيا، لكفرهم وشركهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا أنفسهم وأهلكوها بفعل المعاصي المؤدية إلى الهلاك.

ووردت الرواية عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل، شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال: والذي نفسي بيده! لتتبعنهم، حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه، وروي مثل ذلك عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم، ذراعاً بذراع، وشبراً بشبر، وباعاً بباع، حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله: كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب؟ قال: فهل الناس إلا هم؟

وقال عبد الله بن مسعود: أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل، سمتاً وهدياً^(١)، تتبعون عملهم حذو القذة بالقذة^(٢)، غير أنني لا أدري أتعبدون العجل أم لا.

وقال حذيفة: المنافقون الذين فيكم اليوم، شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، قلنا: وكيف؟ قال: أولئك كانوا يخفون نفاقهم، وهؤلاء أعلنوه. أورد ذلك جميعاً الثعلبي في تفسيره.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ أي: ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين وصفهم ﴿يَسَاءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: خبر من كان قبلهم ﴿قَوْمٌ نُوْحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ ذكر سبحانه الأمم الماضية، والقرون السالفة، وأنه سبحانه أهلكها ودمر عليها، لتكذيبها رسلها، لثلاث يأمنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، فأهلك سبحانه قوم نوح بالغرق، وعاداً قوم هود بالريح الصرصر، وثمود قوم صالح بالرجفة، وقوم إبراهيم بسلب النعمة وهلاك نمrod، وأصحاب مدين وهي البلدة التي فيها قوم شعيب بعذاب يوم الظلة، وقيل: إن مدين اسم نسبت البلد إليه، وقد مر ذكره. ﴿وَالْمُؤَنِّكَاتِ﴾ أي المنقلبات، وهي ثلاث قرى كان فيها قوم لوط، ولذلك جمعها بالآلف والتاء، عن الحسن، وقتادة. وقال في موضع آخر: ﴿وَالْمُؤَنِّكَاتِ أَهْوَى﴾ فجاء بها على طريق الجنس، أهلكهم الله بالخسف، وقلب المدينة عليهم ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والمعجزات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: ما يظلمهم الله بإهلاكهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ولكن عاقبهم باستحقاق، إذ كذبوا رسل الله كما فعلتم، فأهلكهم بكفرهم وعصيانهم.



(١) السمت: الهيئة. والهدي: السيرة والطريقة.

(٢) القذة: ريش السهم. قال ابن الأثير في معنى الحديث: يضرب مثلاً للشيثين يستويان، ولا يتفاوتان.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾ يَأْتِيهَا النَّارُ الْجَهَنَّمُ أَكْفَارًا وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

● اللغة: عدن، والإقامة، والخلود، نظائر، ومنه المعدن، قال الأعشى:

فإن يستضيفوا إلى حكمه يُضافوا إلى راجح قد عدن^(١)

والرضوان: مصدر رضي يرضى رضاً ورضواناً. والجهاد: ممارسة الأمر الشاق، وأصله من الجهد.

● المعنى: لما ذكر الله تعالى المنافقين، ووصفهم بقبيح خصالهم، اقتضت الحكمة أن يذكر المؤمنين، ويصفهم بضد أوصافهم، ليتصل الكلام بما قبله، اتصال النقيض بالنقيض، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: بعضهم أنصار بعض، يلزم كل واحد منهم نصرة صاحبه وموالاته، حتى إن المرأة تهيب أسباب السفر لزوجها إذا خرج، وتحفظ غيبة زوجها، وهم يد واحدة على من سواهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما أوجب الله فعله، أو رغب فيه عقلاً أو شريعاً ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما نهى الله عن فعله وزهد فيه، عقلاً أو شريعاً. ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يداومون على فعل الصلاة، وإخراج الزكاة من أموالهم ووضعها حيث أمر الله تعالى بوضعها فيه، ويمثلون طاعة الله ورسوله، ويتبعون إرادتهما ورضاهما ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: الذين هذه صفتهم يرحمهم الله في الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: قادر على الرحمة والعذاب، واضع كل واحد منهما موضعه، وفي الآية دلالة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الأعيان، لأنه جعلهما من صفات جميع المؤمنين، ولم يخص قوماً منهم دون قوم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أشجارها الأنهار والماء فيها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ﴾ يطيب العيش فيها، بناها الله تعالى من اللآلئ والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر، لا أذى فيها ولا وصب^(٢) ولا نصب، عن الحسن ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي: في جنات إقامة وخلد. وقيل: في بطنان الجنة، أي: وسطها، عن ابن مسعود. وقيل: هي مدينة في الجنة، وفيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم، والجنان حولها،

(١) وفي اللسان: يضافوا إلى عادل قد وزن، واستضاف إلى فلان: لجأ إليه، وأضاف إليه: مال ودنا.

(٢) الوصب: المرض، والتعب، والوجع الدائم.

عن الضحاك. وقيل: إن عدناً أعلى درجة في الجنة، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها، وهي مغطاة من يوم خلقها الله عز وجل، حتى ينزلها أهلها، الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله، وفيها قصور الدر واليواقيت والذهب، فتهب ريح طيبة من تحت العرش، فتدخل عليهم كثران المسك الأبيض، عن مقاتل، والكلبي. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: عدن دار الله التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيين والصديقين والشهداء، يقول الله عز وجل: طوبى لمن دخلك ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ رفع على الابتداء، أي ورضا الله تعالى عنهم أكبر من ذلك كله. قال الجبائي: إنما صار الرضوان أكبر من الثواب، لأنه لا يوجد شيء منه إلا بالرضوان، وهو الداعي إليه، الموجب له. وقال الحسن: لأن ما يصل إلى القلب من السرور برضوان الله أكبر من جميع ذلك، وإنما رفع رضوان لأنه استأنفه للتعظيم، كما يقول القائل أعطيتك ووصلتك، ثم يقول: وحسن رأيي فيك، ورضاي عنك خير من جميع ذلك ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك النعيم الذي وصفت، هو النجاح العظيم الذي لا شيء أعظم منه.

ثم أمر سبحانه بالجهاد، فقال: ﴿يَتَأَيَّأَ النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ﴾ بالسيف والقتال، ﴿وَالْمُتَّقِينَ﴾ واختلّفوا في كيفية جهاد المنافقين، فقيل: إن جهادهم باللسان والوعظ والتخويف، عن الجبائي. وقيل: جهادهم بإقامة الحدود عليهم، وكان نصيبهم من الحدود أكثر. وقيل: هو بالأنواع الثلاثة بحسب الإمكان، يريد باليد، فإن لم يستطع باللسان، فإن لم يستطع بالقلب، فإن لم يقدر فليكفرهم في وجوههم^(١)، عن ابن مسعود. وروي في قراءة أهل البيت: جاهد الكفار بالمنافقين، قالوا: لأن النبي ﷺ لم يكن يقاتل المنافقين، وإنما كان يتألفهم، لأن المنافقين لا يظهرون الكفر، وعلم الله تعالى بكفرهم لا يبيح قتلهم، إذا كانوا يظهرون الإيمان ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ ومعناه: وأسمعهم الكلام الغليظ الشديد ولا ترق عليهم ﴿وَمَا أَوْفَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: منزلهم ومقامهم ومسكنهم جهنم، يريد مأوى الفريقين ﴿وَيَسِّرَ الْمَصِيرَ﴾ أي: بسس المرجع والمأوى.



قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٦﴾﴾ .

● **اللغة:** الهم: مقارنة الفعل بتقليبه في النفس، تقول: همّ بالشيء يهم همًا، وليس الهم من العزم في شيء، إلا أن يبلغ نهاية القوة في النفس. والنيل: لحوق الأمر، يقال: نال ما انتهى أو تمنى، أي: أدركه، ونقم منه شيئاً، أي: أنكر، قال:

سورة التوبة

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يَخْلِمُونَ إن عَضِبُوا
والفضل: الزيادة في الخير على مقدار ما. وأما التفضل فهو الزيادة من الخير، الذي كان
للقادر عليه أن يفعله، وألا يفعله.

● النزول: اختلف في من نزلت فيه هذه الآية،

ف قيل: إن رسول الله ﷺ كان جالساً في ظل شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر
إليكم بعيني الشيطان. فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: علام
تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا. فأنزل الله هذه
الآية، عن ابن عباس.

وقيل: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض،
سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين. فنقل ذلك حذيفة إلى رسول الله ﷺ،
فقال لهم: ما هذا الذي بلغني عنكم؟ فحلفوا بالله ما قالوا شيئاً من ذلك، عن الضحاك.

وقيل: نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات
يوم بتبوك وذكر المنافقين، فسماهم رجساً، وعابهم، فقال الجلاس: والله لئن كان محمد صادقاً
فيما يقول، فنحن شر من الحمير! فسمعه عامر بن قيس، فقال: أجل، والله! إن محمداً
لصادق، وأنتم شر من الحمير! فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه عامر بن قيس
فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب يا رسول الله. فأمرهما رسول الله أن يحلفا عند
المنبر، فقام الجلاس عند المنبر، فحلف بالله ما قال، ثم قام عامر فحلف بالله لقد قاله. ثم
قال: اللهم أنزل على نبيك الصادق ميثاً الصدق. فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: آمين. فنزل
جبرائيل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية، حتى بلغ: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا بِكَ خَيْرًا مِّمَّا كَانَا﴾ فقام الجلاس
فقال: يا رسول الله! أسمع الله قد عرض عليّ التوبة، صدق عامر بن قيس فيما قال لك، لقد
قلته، وأنا أستغفر الله، وأتوب إليه. فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه، عن الكلبي، ومحمد بن
إسحاق، ومجاهد.

وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول حين قال: لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجنَّ
الأعرّ منها الأذل، عن قتادة.

وقيل: نزلت في أهل العقبة، فإنهم ائتمروا في أن يغتالوا رسول الله ﷺ في عقبة عند
مرجعهم من تبوك، وأرادوا أن يقطعوا أنساع^(١) راحلته، ثم ينخسوا به، فأطلع الله تعالى على ذلك،
وكان من جملة معجزاته، لأنه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلا بوحي من الله تعالى. فسار رسول
الله ﷺ في العقبة، وعمار وحذيفة معه، أحدهما يقود ناقته، والآخر يسوقها، وأمر الناس كلهم
بسلوك بطن الوادي. وكان الذين هموا بقتله اثني عشر رجلاً، أو خمسة عشر رجلاً على الخلاف

(١) الانساع جمع النّسج: جبل طويل تشد به الرحال.

فيه، عرفهم رسول الله ﷺ وسماهم بأسمائهم واحداً واحداً، عن الزجاج، والواقدي، والكلبي.
والقصة مشروحة في كتاب الواقدي، وقال الباقر عليه السلام: كانت ثمانية منهم من قريش، وأربعة من العرب.

● **المعنى:** ثم أظهر سبحانه أسرار المنافقين، فقال: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ ما قالوا يعني أنهم حلفوا كاذبين ما قالوا ما حكي عنهم. ثم حقق عليهم ذلك، وأقسم سبحانه بأنهم قالوا ذلك، لأن اللام في ﴿وَلَقَدْ قَالُوا﴾ لام القسم و﴿كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ كل كلمة فيها جحد لنعم الله تعالى، وكانوا يطعنون في الإسلام ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي: بعد إظهار إسلامهم، يعني ظهر كفرهم بعد أن كان باطناً.

﴿وَهُمْ أَوْفَاءُ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم هموا بقتل النبي ﷺ ليلة العقبة، والتنفير بناقته، عن الكلبي ومجاهد، وغيرهما.
وثانيها: أنهم هموا بإخراج الرسول من المدينة، فلم يبلغوا ذلك، عن قتادة والسدي.

وثالثها: أنهم هموا بالفساد والتضريب بين أصحابه، ولم ينالوا ذلك، عن الجبائي.

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ معناه: أنهم عملوا بضد الواجب، فجعلوا موضع شكر النعمة أن نقموها، وبيانه أنهم نقموا فيما ليس بموضع للنقمة، فإنه لم يكن للمسلمين ذنب ينقمونه منهم، بل الله تعالى أباح لهم الغنائم، وأغناهم بذلك، فقابلوا النعمة بالكفران، وكان من حقهم أن يقابلوها بالشكر. وقد مر هذا المعنى عند قوله: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونَ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية في سورة المائدة. وإنما لم يقل: من فضلها، لأنه لا يجمع بين اسم الله واسم غيره في الكناية، تعظيماً لله، ولذلك قال النبي ﷺ لمن سمعه يقول: «من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى، ومن عصاهما فقد غوى»: بش خطيب القوم أنت! فقال: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قل: ومن يعص الله ورسوله، وهكذا القول في قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ وقيل: إنما لم يقل: من فضلها، لأن فضل الله سبحانه منه، وفضل رسول الله من فضل الله.

﴿فَإِنْ يَتُوبَا بِكَ خَيْرًا لَّهُمَا﴾ أي: فإن يتب هؤلاء المنافقون، ويرجعوا إلى الحق، يكن ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة، فإنهم ينالون بذلك رضا الله ورسوله والجنة ﴿وَلَنْ يَتُوبَا﴾ أي: يعرضوا عن الرجوع إلى الحق، وسلوك الطريق المستقيم ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بما ينالهم من الحسرة، والغم، وسوء الذكر ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بعذاب النار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليس لهم في الأرض ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي محب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم، ويدفع عنهم عذاب الله.



قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ

﴿٧٦﴾ فَأَعْقِبَهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ .

● **اللغة:** المعاهدة: هي أن تقول: علي عهد الله لأفعلن كذا، فإنه يكون بذلك قد عقد على نفسه وجوب ما ذكره، لأن الله تعالى قد حكم بذلك، وقدّر وجوبه عليه في الشرع. والبخل: منع السائل لشدة الإعطاء، ثم صار في الشرع لمنع الواجب، لأن من منع الزكاة فهو بخيل. قال الرماني: لا يجوز أن يكون البخل منع الواجب لمشقة الإعطاء، كما قال زهير:

إن البخيل ملومٌ حيث كان ولـ كُنَّ الجواد على عِلاتِهِ هَرَمٌ^(١)

قال: لأنه يلزم على ذلك أن يكون الجود، هو بذل الواجب من غير مشقة الإعطاء، وكان من قضى ديناً عليه يكون جواداً، لأنه أدى الواجب من غير مشقة، وإنما قال زهير ما قاله، لأن البخل صفة نقص. قال: ومن منع ما لا يضره بذله ولا ينفعه منعه، مما تدعو إليه الحكمة، فهو بخيل، لأنه لا يقع المنع على هذه الصفة إلا لشدة في النفس، وإن لم يرجع إلى ضرر، إذ الشدة من غير ضرر معقولة، كما يصفون الجوزة بأنها لثيمة لأجل الشدة. وأعقبه، وأورثه، وأداه: نظائر، وقد يكون أعقبه بمعنى جازاه، قال النابغة:

فمن أطاع فأعقبه بطاعته كما أطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم، ولا تقعد على ضمّد^(٢)

والنجوى: الكلام الخفي، يقال: ناجيته وتناجوا وانتجوا، وفلان نجى فلان، والجمع أنجية، قال:

إني إذا ما القوم كانوا أنجية واضطرب القوم اضطراب الأرشية^(٣)
وأصله: من النجوى وهو البعد، كأن المتناجين قد تباعدا من غيرهما. وقيل: هو من النجوة، أي: المكان المرتفع الذي لا يصل إليه السيل، فكأنهما رفعا حديثهما إلى حيث لا يصل إليه غيرهما.

● **الإعراب:** معنى ﴿لَمَّا﴾، معنى إذا. لأن ﴿لَمَّا﴾ الغالب عليها الجزاء، وهي اسم يقع في جواب متى، يقال: متى كان كذا؟ فيقول السامع: لما كان كذا، ولما ولولا يكونان لَمَّا مضى، بخلاف إن وإذا، فإنهما لما يستقبل، إلا أن لولا على تقدير نفي وجوب الثاني لانتفاء الأول،

(١) قوله علاته أي: على كل حال. وهرم: صاحب زهير، وهو هرم بن سنان بن أبي حارثة المري، من بني مرة بن عوف.

(٢) الظلوم: الظالم، والضمّد: الحقد أي: عاقبه بمقدار يتنبه منه، لا بمقدار شفاء الغيظ، والحدق.

(٣) قائله سحيم بن وثيل اليربوعي. والأرشية جمع الرشاء: الحبل عموماً، أو حبل الدلو، وخبر إن في بيت بعده، وهو قوله «هناك أوصيني ولا تومي بيه».

ولمّا: يدل على وقوع الثاني لوقوع الأول. ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ المفعول الثاني محذوف، تقديره: فلما آتاهم ما تمنوه من فضله ﴿لِنَصَّدَّقَنَّ﴾ أصله: لتصدقنّ أدغمت التاء في الصاد.

● **النزول:** قيل: نزلت في ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار، فقال للنبي ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالا، فقال: يا ثعلبة! قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه، أما لك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده! لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا، والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه! فقال ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالا. قال: فاتخذ غنماً فمتم كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، ثم كثرت ثمنوا حتى تباعد عن المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول الله ﷺ إليه المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل وقال: ما هذه إلا أخت الجزية! فقال رسول الله ﷺ: يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! وأنزل الله الآيات، عن أبي أمامة الباهلي، وروى ذلك مرفوعاً.

وقيل: إن ثعلبة أتى مجلساً من الأنصار فأشهدهم، فقال: لئن أتاني الله من فضله تصدقت منه، وآتيت كل ذي حق حقه، ووصلت منه القرابة. فابتلاه الله، فمات ابن عم له، فورثه مالا، ولم يف بما قال. فنزلت الآيات، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة.

وقيل: نزلت في ثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، وهما من بني عمرو بن عوف، قالوا: لئن رزقنا الله مالا لنصدقنّ. فلما رزقهما الله المال، بخلا به، عن الحسن، ومجاهد.

وقيل: نزلت في رجال من المنافقين، نبتل بن الحارث، وجدّ بن قيس، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، عن الضحاك.

وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، كان له مال بالشام فأبطأ عليه، وجهد لذلك جهداً شديداً، فحلف لئن أتاه الله ذلك المال، ليصدقنّ، فأتاه الله تعالى ذلك فلم يفعل، عن الكلبي.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عنهم فقال: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من جملة المنافقين الذين تقدّم ذكرهم ﴿مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَكُمْ لِكَيْتُمْ أَتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لئن أعطانا من رزقه ﴿لِنَصَّدَّقَنَّ﴾ أي: لتصدقنّ على الفقراء ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بإنفاقه في طاعة الله، وصلة الرحم، ومؤاساة أهل الحاجة ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: أعطاهم ما اقترحوه، ورزقهم ما تمنوه من الأموال ﴿يَخْلُوا بِهِ﴾ أي: شحت نفوسهم عن الوفاء بالعهد ومنعوا حق الله منه ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن فعل ما أمرهم الله به ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن دين الله تعالى ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فأورثهم بخلهم بما أوجبوا الله تعالى على أنفسهم النفاق في قلوبهم، وأداهم إلى ذلك، عن الحسن. كأنهم حصلوا على النفاق بسبب البخل، وهذا كمن يقول لابنه: أعقبك صحبة فلان ترك التعلم. وقيل: معناه أعقبهم الله بذلك حرمان التوبة، كما حرم إبليس، عن مجاهد. وأراد بذلك: أنه دلنا على أنه لا يتوب، كما دلنا من حال إبليس على أنه لا يتوب، لأنه سلب عنه قدرة التوبة ﴿إِلَّا يَوْرَ يَلْقَوْنَ﴾ أي: يلقون جزاء البخل. فذكر البخل وأراد به

جزاء كقوله سبحانه: ﴿أَعْمَلْتُمْ كُرْهًا أَمْ حَتَّىٰ إِلَيْكُمْ آتَيْنَا الْبُرْهَانَ﴾ وعلى القول الثاني فمعناه: إلى يوم يلقون الله، أي: اليوم الذي لا يملك فيه النفع والضرر، إلا الله تعالى. وهذا إخبار من الله تعالى عن هؤلاء المنافقين، أنهم يموتون على النفاق، وكان ذلك معجزة للنبي ﷺ، لأنه خرج مخبره على وفق خبره ﴿يَمَّا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بين سبحانه أن هذا إنما أصابهم بفعلهم السيئ، وهو إخلافهم الوعد وكذبهم. ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ أي: ما يخفون في أنفسهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يتناجون به بينهم. وهذا استفهام يراد به التوبيخ، والمعنى: أنه يجب عليهم أن يعملوا ذلك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ جمع غيب: وهو كل ما غاب عن الإحساس، ومعناه: يعلم كل ما غاب عن العباد، وعن إدراكهم من موجود أو معدوم من كل وجه يصح أن يعلم منه، لأن علام صيغة مبالغة. وفي قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، دلالة على أن بعض المعاصي قد تدعو إلى بعض، لأنهم لما تهاونوا بأداء هذا الحق، دعاهم ذلك إلى الثبات على النفاق إلى الممات، وكذلك يدعو بعض الطاعات إلى بعض، وعلى ذلك ترتيب الشرائع، وفيه دلالة على أن الإخلاف والخيانة والكذب من أخلاق أهل النفاق، وقد صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: للمنافق ثلاث علامات: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان.



قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٨)
 اسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠).

● **اللغة: المطَّوِّعُ:** أصله المتطوع، أدغمت التاء في الطاء لأنها من مخرجها، والطاء أفضل منها بالاستعلاء والإطباق. والتطوع: كل فعل يُستحق المدح بفعله، ولا يستحق الذم بتركه، ونظيره النافلة والفضيلة. والجهد والجهد بمعنى: وهو الحمل على النفس بما يشق، وقيل: بينهما فرق، فالجهد بالفتح في العمل، وبالضم في القوة، عن الشعبي، وقيل: الجهد بالفتح المشقة، وبالضم الطاعة، عن القتيبي.

● **الإعراب:** يجوز أن يكون موضع ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ جراً، بأن يكون بدلاً من الهاء والميم في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ ويحتمل أن يكون رفعا على الابتداء، وخبره ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وهذا أولى، وقوله: ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ من صلة ﴿يَلْمِزُونَ﴾ ولا يكون من صلة ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ لأنه فصل بينهما. قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ عطف على ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾.

● **المعنى:** ثم وصفهم الله بصفة أخرى، فقال: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين بالصدقة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويطعنون عليهم في الصدقات ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾

إِلَّا جُهْدُهُمْ أَي: ويعيرون الذين لا يجدون إلا طاعتهم فيتصدقون بالقليل. قيل: أتاه عبد الرحمن بن عوف بصرة من دراهم تملأ الكف، وأتاه عقبه بن زيد الحارثي بصاع من تمر، وقال: يا رسول الله! عملت في النخل بصاعين، فصاعاً تركته لأهلي، وصاعاً أقرضته ربي. وجاء زيد بن أسلم بصدقة، فقال معتب بن قشير، وعبد الله بن نبتل: إن عبد الرحمن رجل يحب الريا ويبغى الذكر بذلك، وإن الله غني عن الصاع من التمر، فعبأوا المكث بالرياء، والمقل بالإقلال. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أَي: فيستهزؤون منهم ﴿سَخَرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أَي: جازأهم جزاء سخريتهم حيث صاروا إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي: موجه مؤلم. وروي عن النبي ﷺ أنه سئل، فقيل: يا رسول الله! أي: الصدقات أفضل؟ قال: جهد المقل^(١).

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ صيغته صيغة الأمر، والمراد به المبالغة في الأياس من المغفرة، بأنه لو طلبها طلب المأمور بها، أو تركها ترك المنهي عنها، لكان ذلك سواء في أن الله تعالى لا يفعلها، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ الوجه في تعليق الاستغفار بسبعين مرة المبالغة لا العدد المخصوص، ويجري ذلك مجرى قول القائل: لو قلت لي ألف مرة ما قبلت، والمراد: أنني لا أقبل منك، فكذلك الآية، والمراد بذلك فيها: نفي الغفران جملة.

وقيل: إن العرب تبالغ بالسبعة والسبعين، ولهذا قيل للأسد: السبع، لأنهم تأولوا فيه لقوته أنها ضوعفت له سبع مرات. وأما ما ورد أن النبي ﷺ قال والله لأزيدن عن السبعين، فإنه خبر واحد لا يعول عليه، ولا يتضمن أن النبي ﷺ يستغفر للكفار، وذلك غير جائز بالإجماع. وقد روي أنه قال: لو علمت أنه لو زدت على السبعين مرة غفر لهم لفعلت.

ويحتمل أن يكون النبي ﷺ يرجو أن يكون لهم لطف يصلحون به، فعزم على الاستغفار لهم. فلما بين الله عز اسمه أنه ليس لهم لطف ترك ذلك. ويحتمل أن يكون قد استغفر لهم قبل أن يعلم بكفرهم ونفاقهم. ويحتمل أن يكون قد استغفر لهم قبل أن يُخبر بأن الكافر لا يغفر له، أو قبل أن يُمنع منه.

ويجوز أن يكون استغفاره لهم واقعاً بشرط التوبة من الكفر، فمنعه الله منه وأخبره بأنهم لا يؤمنون أبداً فلا فائدة في الاستغفار لهم، والله أعلم بحقيقة الأمر. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ معناه: أن حرمان المغفرة لهم بكفرهم بالله ورسوله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ مرّ معناه.



(١) أي قدر ما يحتمله حال القليل المال. قاله الجزري في (النهاية).

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا نَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لِّلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿٨٣﴾﴾ .

● **اللغة:** المخلف: المتروك خلف من مضى، ومثله المؤخر عن مضى. والفرح: ضد الغم، وهو لذة في القلب بنيل المشتى، ومثله السرور. وقال البصريون من المعتزلة: إن السرور والغم يرجعان إلى الاعتقاد، فالسرور: اعتقاد وصول منفعة إليه في المستقبل، أو دفع ضرر عنه مزنون أو معلوم، والغم: اعتقاد وصول ضرر إليه في المستقبل، أو فوت منفعة عنه، وإليه ذهب المرتضى قدس الله روحه. والخلاف: مصدر خالفته مخالفة وخلافاً، وزعم أبو عبيدة أن معناه: بغد، وأنشد:

عَقَبَ الرِّبْعُ خِلَافَهُمْ، فَكَأَنَّمَا بَسَطَ الشَّوَابُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرًا

والشواطب: النساء يقدن الأديم بعد ما يقدرنه. والخالف: كل من تأخر عن الشاخص، والمتخلف بمعناه. والضحك: حال تفشع وانبساط، يظهر في وجه الإنسان عن تعجب مع فرح. والبكاء: حال تقبض يظهر عن غم في الوجه، مع جري الدموع على الخد.

● **الإعراب:** خلاف نصب على المصدر بمعنى المفعول له، إذا جعلته بمعنى المخالفة، وإذا جعلته بمعنى خلف، فهو نصب على الظرف. ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾: إنما سكنت لام الأمر ولم تسكن لام الإضافة، لأنها تؤذن بعملها للجر المناسب لها، فلذلك ألزمت الحركة، مع أن العوامل في الأسماء أقوى من العوامل في الأفعال. ﴿جَزَاءً﴾: نصب على المصدر، أي يجزون جزاء على أفعالهم التي اكتسبوها.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه أن جماعة من المنافقين الذين خلفهم النبي ﷺ، ولم يخرجهم معه إلى تبوك^(١)، استأذنوه في التأخر فأذن لهم، فرحوا بقعودهم، فقال: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بقعودهم عن الجهاد ﴿خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: بعده. وقيل: معناه لمخالفهم النبي ﷺ ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ظاهر المعنى ﴿وَقَالُوا﴾ أي قالوا للمسلمين ليصدوهم عن الغزو ﴿لَا نَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: لا تخرجوا إلى الغزو سراعاً في هذا الحر. وقيل بل: معناه قال بعضهم لبعض ذلك، طلباً للراحة والدعة، وعدولاً عن تحمل المشاق في طاعة، الله ومرضاته. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي وجبت لهم بالتخلف عن أمر الله تعالى ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ من هذا الحر، فهي أولى بالاحتراز والحذر عنها، إذ لا يعتد بهذا الحر في جنب ذلك الحر ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أوامر الله، تعالى ووعده ووعيده ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ هذا تهديد لهم في صورة الأمر، أي: فليضحك هؤلاء المنافقون في الدنيا قليلاً،

لأن ذلك يفني وإن دام إلى الموت، ولأن الضحك في الدنيا قليل لكثرة أحزانها وهمومها، وليبكوا كثيراً في الآخرة، لأن ذلك يوم مقداره خمسون ألف سنة، وهم فيه يبكون، فصار بكاءهم كثيراً. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق والتخلف بغير عذر عن الجهاد. قال ابن عباس: إن أهل النفاق ليكون في النار عمر الدنيا، فلا يرقأ لهم دمع، ولا يكتحلون بنوم. وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ يا محمد، أي: فإن رذك الله من غزوتك هذه وسفرك هذا ﴿إِلَى مَلَأَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين الذين تخلفوا عنك وعن الخروج معك ﴿فَأَسْتَدْرِكُ لِّلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ إلى غزوة ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ ثم بيّن سبحانه سبب ذلك فقال: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: عن غزوة تبوك ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ في كل غزوة.

واختلف في المراد بالخالفين، فقليل معناه: مع النساء والصبيان، عن الحسن، والضحاك. وقيل: مع الرجال الذين تخلفوا من غير عذر، عن ابن عباس. وقيل: مع المخالفين، قال الفراء: يقال: عبد خالف وصاحب خالف إذا كان مخالفاً. وقيل: مع الخساسة والأدنياء، يقال فلان خالفه أهله إذا كان أدونهم. وقيل: مع أهل الفساد من قولهم: خلف الرجل على أهله يخلف خلوفاً إذا فسد. ونبذ خالف، أي فاسد. وخلف فم الصائم: إذا تغيرت ريحه. وقيل: مع المرضى والزمنى وكل من تأخر لنقص، عن الجبائي.



قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآثُورٌ وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨٤) وَلَا تَجْعَلْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَدَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥).

● **الإعراب:** ﴿مَاتَ﴾ جملة في موضع جر صفة «لأحد» وتقديره على أحد ميت منهم، و ﴿أَبَدًا﴾ منصوب لأنه ظرف لقوله: ﴿تُصَلِّ﴾ وإنما كسر إن من قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ وإن كان في موضع التعليل، لتحقيق الإخبار بأنهم على الصفة التي ذكرها.

● **المعنى:** ثم نهى سبحانه نبيه ﷺ عن الصلاة عليهم، فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ يا محمد ﴿عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: على المنافقين ﴿مَاتَ أَبَدًا﴾ أي: بعد موته، فإنه ﷺ كان يصلي عليهم، ويجري عليهم أحكام المسلمين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ أي: لا تقف على قبره للدعاء، فإنه ﷺ كان إذا صلى على ميت يقف على قبره ساعة، ويدعو له، فنهاه الله تعالى عن الصلاة على المنافقين، والوقوف على قبورهم، والدعاء لهم. ثم بيّن سبحانه سبب الأمرين فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآثُورٌ وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فما صلى رسول الله ﷺ بعد ذلك على منافق، حتى قبض.

وفي هذه الآية دلالة على أن القيام على القبر للدعاء، عبادة مشروعة، ولولا ذلك لم

سورة التوبة

يخص سبحانه بالنهي عنه الكافر، وروي أنه ﷺ صلى على عبد الله بن أبيّ، وألبسه قميصه، قبل أن ينهى عن الصلاة على المنافقين، عن ابن عباس، وجابر، وقتادة. وقيل: إنه ﷺ أراد أن يصلي عليه فأخذ جبرائيل بثوبه، وتلا عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية، عن أنس، والحسن. وروي أنه قيل لرسول الله: لم وجهت بقميصك إليه يكفن فيه، وهو كافر؟ فقال: إن قميصي لن تغني عنه من الله شيئاً، وإنني أؤمل من الله أن يدخل بهذا السبب في الإسلام خلق كثير. فروي أنه أسلم ألف من الخزرج، لما رأوه يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ، ذكره الزجاج، قال: والأكثر في الرواية أنه لم يصل عليه.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به الأمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ بما يلحقهم فيها من المصائب والغموم، وبما يأخذها منهم المسلمون على وجه الغنيمة، وبما يشق عليهم من إخراجها في الزكاة، والإنفاق في سبيل الله، مع اعتقادهم بطلان الإسلام فيشد عليهم، فيكون ذلك عذاباً لهم ﴿وَنَزَهَقَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: تهلك بالموت ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: في حال كفرهم. وقد مضى تفسير مثل هذه الآية، وإنما كرر للتذكير في موطنين، مع بعد أحدهما عن الآخر، ويجوز أن تكون الآيتان في فريقين من المنافقين، فيكون كما يقول القائل: لا تعجبك حال زيد، ولا تعجبك حال عمرو، عن الجبائي.



قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَن ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ (٨٧) لَكِنَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩).

● اللغة: قال الزجاج: الخوالف: النساء لتخلفهن عن الجهاد، ويجوز أن يكون جمع خالفة في الرجال، والخالف والخالفة: الذي هو غير نجيب، ولم يأت في فاعل، فواعل، صفة إلا في حرفين، قالوا: فارس وفوارس، وهالك وهوالك، والطبع والختم: بمعنى واحد، والخيرات: المنافع التي تسكن النفس إليها وترتاح لها، من النساء الحسان وغيرهن من نعيم الجنان، واحداً خيرة، قال الشاعر:

ولقد طعنن مجامع الرِّبَلات رِبَلاتٍ هند خيرة المَلَكات^(١)

وقال المبرد: الخيرات: الجوارى الفاضلات، جمع خيرة. وقيل: يجوز أن يكون خيرة بالتشديد فخففت نحو هين وهين. والإعداد: جعل الشيء مهيباً لغيره، وأصله من العدد، لأنه قد عدد الله جميع ما يحتاج إلى تقديمه له من الأمور، ومثله اتخاذ الأعتاد.

(١) الربلات جمع الريلة: كل لحمة غليظة وقيل هي باطن الفخذ.

● **الإعراب:** ﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾: في موضع نصب، بحذف حرف الجر، على تقدير: بأن آمنوا، أي بالإيمان، ولا يجوز الحذف مع صريح المصدر.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه تمام أخبار المنافقين، فقال: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن على محمد ﷺ ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: بأن آمنوا، وهو خطاب للمؤمنين وأمر لهم، بأن يدوموا على الإيمان، ويتمسكوا به في مستقبل الأوقات، ويدخل فيه المنافق، ويتناوله الأمر، بأن يستأنف الإيمان، ويترك النفاق ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد معه، فكأنه قال: آمنوا أنتم، وادعوا إلى الإيمان غيركم ﴿أَسْتَدْنُكَ﴾ أي طلب الإذن منك في القعود ﴿أَوَّلُوا الطَّوْلُ﴾ أي: أولوا المال والقدرة والغنى، عن ابن عباس، وغيره ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين. ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾ أي: دعنا ﴿نَكُنْ مَعَ الْقَائِدِينَ﴾ أي: المتخلفين عن الجهاد، من النساء والصبيان، وإنما لحق هؤلاء الذم لأنهم أقوى على الجهاد و ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي رضوا لنفوسهم أن يقعدوا مع النساء والصبيان والمرضى والمقعدين و ﴿وَطَمِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ذكرنا معنى الطمع فيما تقدم، قال الحسن: هؤلاء قوم قد بلغوا الحد الذي من بلغه مات قلبه ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أوامر الله ونواهيها، ولا يتدبرون الأدلة.

ثم مدح النبي ﷺ والمؤمنين، فقال سبحانه: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامِنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ ينفقونها في سبيل الله ومرضاته ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ يقاتلون الكفار، ثم أخبر سبحانه عما أعد لهم من الجزاء على انقيادهم لله ورسوله فقال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ من الجنة ونعيمها. وقيل: الخيرات: المنافع والمدح والتعظيم في الدنيا، والثواب والجنة في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الظافرون بالوصول إلى البغية ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: هيأ وخلق لهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مضى تفسيره في غير موضع ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والفوز النجاة من الهلكة إلى حال النعمة، وسميت المهلكة مفازة، تفاؤلاً لها بالنجاة، وإنما وصفه بالتعظيم، لأنه حاصل على وجه الدوام، وبالإعزاز والإجلال والإكرام.



قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٠).

● **القراءة:** قرأ يعقوب وقيية: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ بسكون العين وتخفيف الذا، وهي قراءة ابن عباس، والضحاك، ومجاهد. والباقون: بفتح العين وتشديد الذا.

● **الحجة:** من قرأ بالتخفيف أراد: الذين يأتون بالعدر، ومن قرأ بالتشديد احتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون المراد المعتذرون، كان لهم عذر أو لم يكن، وإنما أدمغ التاء في الذا لقرب مخرجهما.

والثاني: أنه أراد المقصرون من التعذير، فالمعذر المقصّر، الذي يريك أنه معذور ولا عذر له، والمعذر: المبالغ الذي له عذر، والمعتذر: يقال لمن له عذر ولمن لا عذر له، قال لبيد:

«ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر»

أي: أتى بعذر.

● **المعنى:** لما تقدم حديث المخلفين، صنف الله تعالى الأعراب منهم صنفين، فقال سبحانه: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أي: المقصرون الذين يعتذرون وليس لهم عذر، عن أكثر المفسرين. وقيل: هم المعتذرون الذين لهم عذر، وهم نفر من بني غفار، عن ابن عباس قال: ويدل عليه قوله: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فعطف الكاذبين عليهم، فدل ذلك على أن الأولين في اعتذارهم صادقون. وقيل معناه: الذين يتصورون بصورة أهل العذر، وليسوا كذلك ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلف، عن الجبائي ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعت طائفة من المنافقين، من غير أن اعتذروا، وهم الذين كذبوا فيما كانوا يظهرونه من الإيمان ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال أبو عمرو بن العلاء في هذه الآية: كلا الفريقين كان مسيئا، جاء قوم فعذروا، وجنح آخرون ففعدوا، يريد أن قوماً تكلفوا عذراً بالباطل، وتخلف آخرون من غير تكلف عذر، وإظهار علة، جرأة على الله ورسوله.



قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لِيْتَخِمُ لَهُمْ مَا أَحَدٌ مَّا آخِزَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ .

● **اللغة:** النصح: إخلاص العمل من الغش. والحمل: إعطاء المركوب من فرس، أو بعير، أو غير ذلك. تقول: حمله، يحمله، حملاً. إذا أعطاه ما يُحمل عليه، قال:

ألا فتى عنده خُفَّان يحملني عليهما، إنني شيخٌ على سفرٍ
والفيض: الجري عن امتلاء، من قولهم: فاض الإناء بما فيه. والحزن: ألم في القلب بفوت أمر، مأخوذ من حزن الأرض، وهي الأرض الغليظة المسلك.

● **الإعراب:** ﴿حَزَنًا﴾: نصب لأنه مفعول له، أي: سيكون للحزن. ﴿أَلَّا يَجِدُوا﴾ منصوب بأن، وموضع أن ﴿لا يجدوا﴾ نصب، تقديره: لأن لا يجدوا، حذف الجار، فوصل الفعل.

● **النزول:** قيل: إن الآية الأولى نزلت في عبد الله بن زائدة، وهو ابن أم مكتوم، وكان ضرير البصر، جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله! إنني شيخ ضرير، خفيف الحال،

نحيف الجسم، وليس لي قائد، فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي ﷺ، فأُنزل الله الآية، عن الضحاك. وقيل: نزلت في عائذ بن عمرو وأصحابه، عن قتادة.

والآية الثانية نزلت في البكائين، وهم سبعة نفر منهم: عبد الرحمن بن كعب، وعتبة بن زيد، وعمرو بن غنمة، وهؤلاء من بني النجار، وسالم بن عمير، وهرم بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن عوف، وعبد الله بن معقل، من مزينة، جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! احملنا، فإنه ليس لنا ما نخرج عليه. فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، عن أبي حمزة الثمالي. وقيل: نزلت في سبعة نفر من قبائل شتى، أتوا النبي ﷺ، فقالوا له: احملنا على الخفاف، والبغال، عن محمد بن كعب، وابن إسحاق. وقيل: كانوا جماعة من مزينة، عن مجاهد. وقيل: كانوا سبعة من فقراء الأنصار، فلما بكوا حمل عثمان منهم رجلين، والعباس بن عبد المطلب رجلين، ويامين بن كعب النضري ثلاثة، عن الواقدي، قال: وكان الناس بتبوك مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً، منهم عشرة آلاف فارس.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أهل العذر، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ وهم الذين قوتهم ناقصة بالزمانة والعجز، عن ابن عباس. وقيل: هم الذين لا يقدرُونَ على الخروج ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ وهم أصحاب العلل المانعة من الخروج ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ﴾ يعني من ليست معه نفقة الخروج وآلة السفر ﴿حَرْجٌ﴾ أي: ضيق وجناح في التخلف، وترك الخروج مع رسول الله ﷺ ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بأن يخلصوا العمل من الغش. ثم قال سبحانه: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ليس على من فعل الحسن الجميل، في التخلف عن الجهاد طريق للتقريع في الدنيا، والعذاب في الآخرة. وقيل: هو عام في كل محسن، والإحسان هو إيصال النفع إلى الغير، لينتفع به مع تعريه من وجوه القبح، ويصح أن يحسن الإنسان إلى نفسه، ويحمد على ذلك، وهو إذا فعل الأفعال الجميلة التي يستحق بها المدح والثواب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: سائر على ذوي الأعدار بقبول العذر منهم ﴿رَجِيمٌ﴾ بهم لا يلزمهم ما فوق طاقتهم.

ثم عطف عليه فقال: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: ولا على الذين إذا جاءوك، يسألونك مركباً يركبونه، فيخرجون معك إلى الجهاد، إذ ليس معهم من الأموال والظهور ما يمكنهم الخروج به في سبيل الله ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لا أجد مركباً يركبونه، ولا ما أسوي به أمركم ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: رجعوا عنك وأعينهم تسيل بالدمع، لحزنهم ألا يجدوا ما يركبونه من الدواب، وينفقونه في الطريق، ليخرجوا معكم، ولحرصهم على الخروج، المعنى: وليس على هؤلاء أيضاً حرج في التخلف عن الجهاد، وليس عليهم سبيل للذم والعقاب.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ والطريق بالعقاب والحرَج ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَزِدُّوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ أي: يطلبون الإذن منك يا محمد في المقام، وهم مع ذلك أغنياء، متمكنون من الجهاد في سبيل الله ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ من النساء والصبيان، ومن لا حراك به ﴿وَوَلَّيَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قد تقدم بيانه.

سورة التوبة

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِنَرِضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

● النزول: قيل: نزلت الآيات في جذ بن قيس، ومعتب بن قشير، وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً، ولما قدم النبي ﷺ المدينة، راجعاً من تبوك، قال: لا تجالسوهم، ولا تكلموهم، عن ابن عباس. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي، حلف للنبي ﷺ أن لا يتخلف عنه بعدها، وطلب إلى النبي ﷺ أن يرضى عنه، عن مقاتل.

● المعنى: ثم أخبر الله سبحانه عن هؤلاء القوم الذين تأخروا عن الخروج مع النبي ﷺ، فقال: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ من تأخرهم عنكم بالأباطيل والكذب ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إذا انصرفتم إلى المدينة من غزوة تبوك ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لسنا نصدقكم على ما تقولون ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أخبرنا الله وأعلمنا من أخباركم، وحقيقة أمركم، ما علمنا به كذبكم. وقيل: إنه أراد به قوله سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِكَرْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ الآية. ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيعلم الله فيما بعد، ورسوله عملكم، هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ وقيل: معناه سيعلم الله أعمالكم وعزائمكم في المستقبل، ويظهر ذلك لرسوله، فيعلمه الرسول بإعلامه إياه، فيصير كالشيء المرئي، لأن أظهر ما يكون الشيء أن يكون مرئياً، كما علم ذلك في الماضي، فأعلم به الرسول ﴿ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ترجعون بعد الموت إلى الله سبحانه، الذي يعلم ما غاب وما حضر، وما يخفى عليه السر والعلانية ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يخبركم بأعمالكم كلها حسننها وقيحها، فيجازيكم عليها أجمع.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ أي: سيقسم هؤلاء المنافقون والمتخلفون، فيما يعتذرون به إليكم أيها المؤمنون ﴿إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أنهم إنما تخلفوا لعذر ﴿لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: لتصفحوا عن جرمهم، ولا توبخوهم، ولا تعنفوهم. ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ والمؤمنين، فقال: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: إعرض رد وإنكار، وتكذيب ومقت. ثم بين عن سبب الإعراض فقال: ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ أي: نجس، ومعناه: أنهم كالشيء المتنن، الذي يجب الاجتناب عنه، فاجتنبوهم كما تجتنب الأنجاس ﴿وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم ومآلهم ومستقرهم جهنم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: مكافأة على ما كانوا يكسبون من المعاصي ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِنَرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: طلباً لمرضاتكم عنهم أيها المؤمنون ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ لجهلكم بحالهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين من طاعته إلى معصيته، لعلمه بحالهم، ومعناه: أنه لا ينفعهم رضاؤكم عنهم، مع سخط الله عليهم، وارتفاع رضاه عنهم، وإنما قال سبحانه ذلك، لئلا يتوهم أنه إذا

رضي المؤمنون فقد رضي الله، والمراد بذلك أنه إذا كان الله لا يرضى عنهم، فينبغي لكم أيضاً ألا ترضوا عنهم.

وفي هذا دلالة على أن من طلب بفعله رضا الناس، ولم يطلب رضا الله سبحانه فإن الله يسخط الناس عليه، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: من التمس رضا الله بسخط الناس، رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس.



قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٧) **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٨) **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِيذِلَّهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٩٩).****

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرة السوء﴾ بضم السين، هنا وفي سورة الفتح مثله. والباقون: بفتح السين. وقرأ ورش، وإسماعيل، عن نافع: ﴿قربة﴾ بضم الراء. والباقون: ﴿قربة﴾ بسكون الراء.

● **الحجة:** قال أبو علي: الدائرة لا تخلو: إما أن تكون صفة، أو بمنزلة العاقبة والعافية، والصفة أكثر في الكلام، فينبغي أن يحمل عليها، فالمعنى عليها، أنها خلة تحيط بالإنسان، حتى لا يكون له منها مخلص، وأضيفت إلى السوء أو إلى السوء على الوجهين، على وجه التأكيد، والزيادة في التبيين، ولو لم تضاف لعلم هذا المعنى منها، كما أن نحو قوله: شمس النهار، كذلك. والسوء: الرداءة والفساد، وهو خلاف الصدق الذي في قولك ثوب صدق، وليس الصدق من صدق اللسان، كما أن السوء ليس من سؤته في المعنى، وإن كان اللفظ واحداً، يدل ذلك على أنك أضفته إلى ما لا يجوز عليه الصدق والكذب في الأخبار. وأما دائرة السوء بالضممة، فكقولك: دائرة الهزيمة، ودائرة البلاء، فاجتماعا في جواز إضافة الدائرة إليهما، من حيث أريد بكل واحد منهما، الرداءة والفساد. فمن قال دائرة السوء، فتقديره: الإضافة إلى الرداءة والفساد، ومن قال دائرة السوء، فتقديره: دائرة الضرر والمكروه، من قولهم: سؤته مساءة ومسائية، والمعنيان متقاربان، قال أبو الحسن: دائرة السوء، كما تقول: رجل السوء، وأنشد:

وكنْتُ كذَّابَ السَّوْءِ لَمَّا رَأَى دَمًا بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدَّمِ^(١)

(١) قاله الفرزدق يذمُّ صاحبه بالجفاء فإن الذئاب (على حكي عن الدميري) إن اجتمعت على إنسان، وأدمى الإنسان واحداً منها، وثب الباكون على المدمى فمزقوه، وتركوا الإنسان.

سورة التوبة

وأما قوله: ﴿قُرْبَةً﴾ فالأصل حركة الراء، والإسكان للتخفيف، كما في الرسل، والكتب، والأذن، والطنب. وأما «قربات» فينبغي أن يثقل، لأنه إذا ثقل ما أصله التخفيف، نحو الظلمات والغرفات، فإن تَقَرَّ الحركة الثانية في الكلمة الواحدة أجدر ومثل قولهم: قُرْبَةٌ وَقُرْبَةٌ، يُسْرَةٌ وَيُسْرَةٌ هَذَنَةٌ وَهَذَنَةٌ، حكاه محمد بن زيد.

● **اللغة:** رجل عربي: إذا كان من العرب، وإن سكن البلاد، ورجل أعرابي: إذا كان ساكناً في البادية. والعرب صنفان: عدنانية وقحطانية، والفضل للعدنانية برسول الله ﷺ وأجدر: مأخوذ من جَذَر الحائط، بسكون الدال، وهو أصله وأساسه. والمغرم: الغرم، وهو نزول نائبة بالمال من غير خيانة، وأصله لزوم الأمر، ومنه قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: لازماً، وحب غرام: أي لازم. والغريم: يقال لكل واحد من المتدائنين، للزوم أحدهما الآخر. وَغَرَمْتُهُ كَذَا أي: ألزمته إياه في ماله. والتريص: الانتظار، ومنه التريص بالطعام لزيادة الأسعار، وأصله: التمسك بالشيء لعاقبة. والدوائر: جمع دائرة، هي من حوادث الدهر، وقيل: الحال المنقلبة عن النعمة إلى البلية، والدائرة: الدولة. والقربة: هي طلب الثواب والكرامة من الله تعالى بحسن الطاعة.

● **الإعراب:** ﴿أَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا﴾ أن في موضع نصب، لأن الباء محذوفة، والمعنى: أجدر بترك العلم، تقول: أنت جدير أن تفعل، وجدير بأن تفعل، أي: هذا الفعل ميسر لك. وإذا حذفت الباء لم يصلح إلا بأن، وإن أثبت الباء صلح بأن وغيرها، تقول: أنت جدير بأن تقوم، وجدير بالقيام، وإنما صلح مع أن الحذف، لأن أن يدل على الاستقبال، فكانها عوض من المحذوف. ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ عطف على قوله: ﴿مَا يُنفِقُ﴾ وموضعه نصب، وتقديره: ويتخذ النفقة وصلوات الرسول، وقيل: ﴿صَلَوَاتُ﴾ معطوف على ﴿قُرْبَتِ﴾ على معنى يطلبون بالإنفاق قربة الله وصلوات الرسول، عن الجبائي.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر المنافقين، بين سبحانه أن الأعراب منهم، أشد في ذلك وأكثر جهلاً، فقال: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ يريد الأعراب الذين كانوا حول المدينة، وإنما كان كفرهم أشد، لأنهم أقسى وأجفى من أهل المدن، وهم أيضاً أبعد من سماع التنزيل، وإنذار الرسل، عن الزجاج. ومعناه: أن سكان البوادي إذا كانوا كفاراً أو منافقين، فهم أشد كفراً من أهل الحضر، لبعدهم عن مواضع العلم، واستماع الحجج، ومشاهدة المعجزات، وبركات الوحي ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: وهم أحرى وأولى بألا يعلموا حدود الله، في الفرائض والسنن والحلال والحرام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يحكم به عليهم.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي: ومن منافقي الأعراب من يعد ما ينفق في الجهاد، وفي سبيل الخير مغرمًا لحقه، لأنه لا يرجو به ثواباً ﴿وَيَنْتَظِرُ يَكْرُ الدَّوَابِّ﴾ أي وينتظر بكم الدوائر، أي: صروف الزمان، وحوادث الأيام، والعواقب المذمومة. قال الزجاج، والفراء: كانوا يتربصون بهم الموت أو القتل، فكانوا ينتظرون موت النبي ﷺ، ليرجعوا إلى

دين المشركين، وأكثر ما يستعمل الدائرة في زوال النعمة إلى الشدة، والعافية إلى البلاء، ويقولون: كانت الدائرة عليهم، وكانت الدائرة لهم. ثم رد سبحانه ذلك عليهم، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: على هؤلاء المنافقين دائرة البلاء، يعني أن ما ينتظرون بكم هؤلاء حق بهم، وهم المغلوبون أبداً ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم، لا يخفى عليه شيء من حالاتهم، ثم بين سبحانه: من الأعراب المؤمنين، فقال:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ومنهم من يرجع إلى سلامة الاعتقاد، في التصديق بالله وبالقِيامة والجنة والنار ﴿وَيَتَّخِذُوا مَا يُفْنَىٰ قُرْبَىٰ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: ويريد بنفقتهم في الجهاد، وغير ذلك من أعمال البر. قربات: جمع قربة، وهي الطاعة، أي طاعات عند الله، وتعظيم أمره، ورعاية حقه، وقيل: معناه يتقرب إلى الله بإنفاقه، ويطلب بذلك ثوابه ورضاه. ﴿وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: دعاؤه بالخير والبركة، عن قتادة. وقيل: استغفاره، عن ابن عباس والحسن، ومعناه: أنه يرغب في دعاء النبي ﷺ ﴿أَلَا إِنَّا قُرْبَىٰ لَهُمْ﴾ معناه: ألا إن صلوات الرسول قربة لهم، تقربهم إلى ثواب الله، ويجوز أن يكون المعنى: أن نفقتهم قربة لهم إلى الله ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ هذا وعد منه سبحانه، بأن يرحمهم ويدخلهم الجنة، وفيه مبالغة بأن الرحمة غمرتهم ووسعتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بأهل طاعته، وهما من ألفاظ المبالغة في الوصف بالمغفرة والرحمة.



قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣٠).

● **القراءة:** قرأ يعقوب: ﴿والأنصار﴾ بالرفع، وهي قراءة عمر بن الخطاب والحسن وقتادة، والقراءة المشهورة: ﴿والأَنْصَارُ﴾ بالجر. وقرأ ابن كثير وحده: ﴿من تحتها﴾ بزيادة من، وكذلك هو في مصاحف مكة، وقرأ الباقون: ﴿تحتها﴾ بغير ﴿من﴾ وعليه سائر المصاحف، والمعنى واحد.

● **الحجة:** من قرأ بالرفع عطفه على قوله: ﴿السابقون﴾ ومن قرأ بالجر عطفه على ﴿الْمُهَاجِرِينَ﴾. وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ فيجوز أن يكون معطوفاً على ﴿الأنصار﴾ في رفعه وجره، ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿السابقون﴾ وأن يكون معطوفاً على ﴿الأنصار﴾ أولى لقربه منه.

● **الإعراب:** السابقون: مبتدأ، والأولون: صفة، من المهاجرين: تبين لهم، والذين اتبعوهم: إن حملته على ﴿السابقون﴾ كان مرفوعاً، وإن حملته على ﴿الأنصار﴾ كان مجروراً، وخبر الأسماء كلها ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾: عطف على ﴿رَضِيَ﴾ فالوقف على قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

سورة التوبة

● **النزول:** قيل: نزلت هذه الآية فيمن صلى إلى القبلتين، عن سعيد بن المسيب، والحسن، وابن سيرين، وقتادة. وقيل: نزلت فيمن بايع بيعة الرضوان، وهي بيعة الحديبية، عن الشعبي، قال: ومن أسلم بعد ذلك وهاجر، فليس من المهاجرين الأولين. وقيل: هم أهل بدر، عن عطاء بن رباح. وقيل: هم الذين أسلموا قبل الهجرة، عن الجبائي.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر المنافقين والكفار، عقبه سبحانه بذكر السابقين إلى الإيمان، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أي: السابقون إلى الإيمان، وإلى الطاعات، وإنما مدحهم بالسبق، لأن السابق إلى الشيء يتبعه غيره، فيكون متبوعاً، وغيره تابع له، فهو إمام فيه، وداع له إلى الخير بسبقه إليه، وكذلك من سبق إلى الشر، يكون أسوأ حالاً لهذه العلة. ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وإلى الحيشة ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ أي: ومن الأنصار الذين سبقوا نظراءهم من أهل المدينة إلى الإسلام، ومن قرأ ﴿الْأَنْصَارِ﴾ بالرفع، لم يجعلهم من السابقين، وجعل السبق للمهاجرين خاصة ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَلْحَقُونَ﴾ أي: بأفعال الخير، والدخول في الإسلام بعدهم، وسلوك منهاجهم، ويدخل في ذلك، من يجيء بعدهم إلى يوم القيامة.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أخبر سبحانه أنه رضي عنهم أفعالهم، ورضوا عن الله سبحانه، لما أجزل لهم من الثواب على طاعاتهم، وإيمانهم به، ويقينهم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي يبقون ببقاء الله منعمين. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الفلاح العظيم الذي يصغر في جنبه كل نعيم. وفي هذه الآية دلالة على فضل السابقين، ومزيتهم على غيرهم، لما لحقهم من أنواع المشقة في نصرة الدين، فمنها: مفارقة العشائر والأقربين، ومنها: مباينة المألوف من الدين، ومنها: نصرة الإسلام مع قلة العدد وكثرة العدو، ومنها: السبق إلى الإيمان والدعاء إليه.

واختلف في أول من أسلم من المهاجرين، فقيل: إن أول من آمن خديجة بنت خويلد، ثم علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو قول ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وأنس، وزيد بن أرقم، ومجاهد، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم. قال أنس: بُعث النبي ﷺ يوم الاثنين، وصلى علي عليه السلام وأسلم يوم الثلاثاء، وقال مجاهد وابن إسحاق: إنه أسلم وهو ابن عشر سنين، وكان مع رسول الله ﷺ، أخذه من أبي طالب وضمه إلى نفسه، يربيه في حجره، وكان معه حتى بعث نبياً، وقال الكلبي: إنه أسلم وله تسع سنين، وقيل: اثنتا عشرة سنة، عن أبي الأسود. قال السيد أبو طالب الهروي: وهو الصحيح.

وفي تفسير الثعلبي روى إسماعيل بن إياس بن عفيف، عن أبيه، عن جده عفيف قال: كنت امرأة تاجراً، فقدمت مكة أيام الحج، فنزلت على العباس بن عبد المطلب وكان العباس لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر فيبيعه أيام الموسم، فبينما أنا والعباس بمنى، إذ جاء رجل شاب حين حلت الشمس في السماء، فرمى ببصره إلى السماء، ثم استقبل الكعبة، فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلام، فقام عن يمينه، فلم يلبث أن جاءت امرأة، فقامت خلفهما، فركع الشاب، فركع الغلام والمرأة، فخرّ الشاب ساجداً، فسجدا معه، فرفع الشاب،

فرغ الغلام والمرأة، فقلت: يا عباس! أمر عظيم! فقال: أمر عظيم! فقلت: ويحك، ما هذا؟ فقال: هذا ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذا الغلام علي بن أبي طالب، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد وزوجة محمد، تابعا على دينه. وأيم الله! ما على ظهر الأرض كلها أحد على هذا الدين غير هؤلاء! فقال عفيف الكندي بعدما سلم ورسخ الإسلام في قلبه: يا ليتني كنت رابعاً.

وروي أن أبا طالب قال لعلي عليه السلام: أي بني! ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال: يا أبا، آمنت بالله ورسوله، وصدقته فيما جاء به، وصليت معه لله. فقال له: إن محمداً ﷺ، لا يدعو إلا إلى خير فالزمه.

وروى عبد الله بن موسى، عن العلاء بن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عبادة بن عبد الله قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كذاب مفتر، صليت قبل الناس بسبع سنين.

وفي مسند السيد أبي طالب الهروي، مرفوعاً إلى أبي أيوب، عن النبي ﷺ قال: صلت الملائكة عليّ، وعلى عليّ، سبع سنين، وذلك أنه لم يصل فيها أحد غيري وغيره.

وقيل: إن أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر، عن إبراهيم النخعي. وقيل: أول من أسلم بعدها زيد بن حارثة، عن الزهري، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير. وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني، بإسناده مرفوعاً إلى عبد الرحمن بن عوف، في قوله سبحانه: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ قال: هم عشرة من قريش، أولهم إسلاماً علي بن أبي طالب عليه السلام.



قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٢﴾﴾

● **اللغة:** حول الشيء: المحيط به، من حال يحول إذا دار بالانقلاب، ومنه الحول للسنّة، والمحالّة لأنها تدور في المحور. والمرد: أصله الملاسة، ومنه: صرح مُمَرَّد، أي مملس، والأمرد: الذي لا شعر على وجهه، والمرداء: الرملة التي لا تنبت شيئاً، ذكره علي بن عيسى. وقيل: أصله الظهور. والمارد: الذي ظهر شره. وشجرة مرداء، إذا تساقط ورقها فظهرت عيدانها. ورجل أمرد، لظهور مكان الشعر منه، عن ابن عرفة. ومَرَد الرجل يَمَرُد مروداً، إذا عتا، وخرج من الطاعة واعياً خبثاً، ومنه شيطان مارد ومريد. وفي المثل: «تمرد مارد وعز الأبلق» وهما حصنان.

● **الإعراب:** ﴿وَمِمَّنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا﴾ أي: قوم مردوا، فحذف الموصوف، ويجوز أن يكون التقدير: ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق، ففصل بين الصفة والموصوف

سورة التوبة

بالظرف. ﴿وَأَخْرَجُوا مَعُطُوفًا﴾ معطوف على قوله: ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَّفِقُونَ﴾ وكذلك ﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُونَ﴾ وإن شئت قدرت: ومنهم آخرون.

● **المعنى:** ثم عاد الكلام إلى ذكر المنافقين، فقال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ وهم الذين يسكنون البدو، إذا كانوا مطبوعين على العربية ﴿مُتَّفِقُونَ﴾ يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر. وقيل: إنهم جبهة، ومزينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، وكانت منازلهم حول المدينة ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضاً منافقون، وإنما حذف لدلالة الأول عليه ﴿مَرَدُّوْا عَلَى الْفَقَاقِ﴾ أي مرنوا على النفاق وتجزؤوا عليه، عن الفراء. وقيل: معناه أقاموا عليه لم يتوبوا منه، كما تاب غيرهم، عن ابن زيد، وأبان بن تغلب. وقيل: معناه لجؤا فيه وأبوا غيره، عن ابن إسحاق. وقيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: وممن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة أيضاً مثل ذلك، عن الزجاج ﴿لَا تَعْلَمُوهُمْ﴾ يا محمد، أي: لا تعرفهم ﴿تَحْنُ تَعْلَمُهُمْ﴾ أي: نعرفهم ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إن معناه: نعذبهم في الدنيا بالفضيحة، فإن النبي ﷺ ذكر رجالاً منهم، وأخرجهم من المسجد يوم الجمعة في خطبته، وقال: أخرجوا فإنكم منافقون. ويعذبهم في القبر، عن ابن عباس، والسدي، والكلبي.

وقيل: مرة في الدنيا بالسبي والقتل، ومرة في الآخرة بعذاب القبر، عن مجاهد. وروى حصيف عنه: عذبوا بالجوع مرتين.

وقيل: إحداهما أخذ الزكاة منهم، والأخرى عذاب القبر، عن الحسن.

وقيل: إحداهما غيظهم من أهل الإسلام، والأخرى عذاب القبر، عن ابن إسحاق.

وقيل: إن الأولى ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والأخرى عذاب القبر.

وقيل: إن الأولى إقامة الحدود عليهم، والأخرى عذاب القبر، عن ابن عباس.

وكل ذلك محتمل، غير أنا نعلم أن المرتين معاً قبل أن يردوا إلى عذاب النار. ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي يرجعون يوم القيامة إلى عذاب مؤبد في النار.

﴿وَأَخْرَجُوا مَعُطُوفًا بِذُنُوبِهِمْ﴾ يعني من أهل المدينة، أو من الأعراب آخرون أقرؤا بذنوبهم،

وليس براجع إلى المنافقين، والاعتراف: الإقرار بالشيء عن معرفة ﴿خَطَّوْا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرًا سَيِّئًا﴾ يعني أنهم يفعلون أفعالاً جميلة، ويفعلون أفعالاً سيئة قبيحة، والتقدير: وعملاً آخر سيئاً ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال المفسرون: عسى من الله واجبة، وإنما قال ﴿عَسَىٰ﴾ حتى يكونوا بين طمع وإشفاق، فيكون ذلك أبعد من الاتكال على العفو إهمال التوبة، وفي هذا دلالة على بطلان القول احباط، لأنه لو صح الإحباط لكان أحد العاملين إذا طرأ على الآخر أحبطه وأبطله، فلم يجتمعا، فلا يكون لقوله ﴿خَطَّوْا﴾ معنى. وقال بعض التابعين: ما في القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه الآية.

وقد يستعمل لفظ الخلط في الجمع من غير امتزاج، يقال: خلط الدراهم والدنانير، وقيل: إنه يجري مجرى قولهم: استوى الماء والخشبة، أي مع الخشبة، وقيل: إن خلط بالتخفيف في الخير، وخلط بالتشديد في الشر ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا تعليل لقبول التوبة من العصاة، أي: لأنه غفور رحيم.

● **النزول:** قال أبو حمزة الثمالي: بلغنا أنهم ثلاثة نفر من الأنصار، أبو لبابة بن عبد المنذر، وثعلبة بن وديعة، وأوس بن حذام، تخلفوا عن رسول الله ﷺ، عند مخرجه إلى تبوك، فلما بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلف عن نبيه، أيقنوا بالهلاك، وأوثقوا أنفسهم بسواري^(١) المسجد، فلم يزالوا كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ، فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ يحلهم، وقال رسول الله ﷺ: وأنا أقسم لا أكون أول من حلهم إلا أن أؤمر فيهم بأمر، فلما نزل: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عمد رسول الله ﷺ إليهم فحلهم، فانطلقوا فجاءوا بأموالهم إلى رسول الله، فقالوا: هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فخذها وتصدق بها عنا، قال عليه الصلاة والسلام: ما أمرت فيها، فنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآيات. وقيل: إنهم كانوا عشرة رهط، منهم أبو لبابة، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقيل: كانوا ثمانية، منهم أبو لبابة، وهلال، وكردم، وأبو قيس، عن سعيد بن جبير، وزيد بن أسلم. وقيل: كانوا سبعة، عن قتادة. وقيل: كانوا خمسة.

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: أنها نزلت في أبي لبابة، ولم يذكر غيره معه، وسبب نزولها فيه ما جرى منه في بني قريظة، حين قال: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح، وبه قال مجاهد. وقيل: نزلت فيه خاصة حين تأخر عن النبي ﷺ، في غزوة تبوك، فربط نفسه بسارية على ما تقدم ذكره، عن الزهري، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله! إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله! قال: يجزيك يا أبا لبابة الثلث. وفي جميع الأقوال، أخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم، وترك الثلثين، لأن الله تعالى قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ولم يقل: خذ أموالهم.



قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٣) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْعَلِيِّ وَالشَّهَدَةِ فَيُنْشَرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤).

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: ﴿أن صلاتك﴾ وفي هود: ﴿أصلاتك﴾ على التوحيد، وقرأ الباقون: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ ﴿أَصْلَاتَكَ﴾ على الجمع.

● **الحجة:** قال أبو علي: الصلاة في اللغة: الدعاء، قال الأعشى في الخمر:

وقابلها الريح في دُئها وصلى على دُئها، وارتسم^(١)

فكان معنى: ﴿وَصَلَّى عَلَيْهِمْ﴾: أدع لهم، فإن دعاءك لهم، تسكن إليه نفوسهم وتطيب به، فأما قولهم: صلى الله على رسوله وملائكته، فلا يقال فيه: إنه دعاء لهم من الله تعالى، كما لا يقال في نحو: ﴿وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ﴾، ونحوه أنه دعاء عليهم، ولكن المعنى فيه: أن هؤلاء ممن يستحق عندكم أن يقال فيهم هذا النحو من الكلام، وكذلك قوله: ﴿بَلْ عَجَبْتَ﴾ ويُسَخِرُونَ فيمن ضم الياء، وهذا مذهب سيبويه، فإذا كانت الصلاة مصدراً، وقع على الجمع والمفرد على لفظ واحد كصوت الحمير، فإذا اختلف جاز أن يجمع لاختلاف ضروبه، كما قال: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصَوَاتِ﴾.

فأما من زعم أن الصلاة أولى، لأن الصلاة للكثرة، والصلوات للقليل، فلم يكن قوله متجهاً، لأن الجمع بالتاء قد يقع على الكثير، كما يقع على القليل، كقوله: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الْمُصْطَفِينَ وَالْمُصْطَفَاتِ﴾ فقد يقع هذا الجمع على الكثير، كما يقع على القليل.

● **الإعراب:** قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إنما ارتفع لأحد أمرين: إما أن يكون صفة لصدقة، ويكون التاء للتأنيث، ويكون قوله: ﴿بِهَا﴾ للتبيين، ويكون التقدير: صدقة مطهرة. وإما أن يكون التاء خطاباً للنبي ﷺ، والتقدير: فإنك تطهرهم بها، فتكون صفة لصدقة أيضاً ويكون الضمير في ﴿بِهَا﴾ للصدقة الموصوفة. وأما ﴿وَتَزَكِّيهِمْ﴾ فلا يكون إلا للخطاب، وقيل: إن ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ يجوز أن يكون على الاستئناف، وحمله على الاتصال أولى.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه النبي ﷺ، وأمره بأخذ الصدقة من أموالهم، تطهيراً لهم، وتكفيراً لسيئاتهم، فقال: ﴿خُذْ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أدخل ﴿مِنْ﴾ للتبعية، لأنه لم يجب أن يصدق بالجميع، وإنما قال: من أموالهم، ولم يقل: من مالهم، حتى يشتمل على أجناس المال كلها، وهذا يدل على وجوب الأخذ من سائر أموال المسلمين لاستوائهم في أحكام الدين، إلا ما خصه الدليل. ﴿مَدَقَّةً﴾ قيل: أراد بها الأمر بأن يأخذ الصدقة من أموال هؤلاء التائبين، تشديداً للتكليف، وليست بالصدقة المفروضة، بل هي على سبيل الكفارة للذنوب التي أصابوها، عن الحسن، وغيره. وقيل: أراد بها الزكاة المفروضة، عن الجبائي، وأكثر أهل التفسير، وهو الظاهر، لأن حمله على الخصوص بغير دليل، لا وجه له، فيكون أمراً بأن يأخذ من المالكين للنصاب الزكاة من الورق إذا بلغ مائتي درهم، ومن الذهب إذا بلغ عشرين مثقالاً، ومن الإبل إذا بلغت خمساً، ومن البقر إذا بلغت ثلاثين، ومن الغنم إذا بلغت أربعين، ومن الغلات والثمار إذا بلغت خمسة أو ستة. ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتَزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ معناه: تطهرهم تلك الصدقة عن دنس الذنوب، وتزكئهم أنت بها، أي تنسبهم إلى الزكاة، وتدعو لهم بما يصيرون به أذكاء. وقيل: معناه

(١) الدن: راقود أصغر من الحب. وارتسم الرجل: كبر ودعا.

تطهرهم أنت وتزكيهم أنت بها، فيكون كلا الفعلين مضافاً إلى النبي ﷺ. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ هذا أمر من الله تعالى للنبي ﷺ، أن يدعو لمن يأخذ منه الصدقة، ومعناه: ادع لهم بقبول صدقاتهم، كما يقول الداعي: أجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت. وروي عن النبي، أنه كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل عليهم. وقال عبد الله بن أبي أوفى، وكان من أصحاب الشجرة، فأتاه ابن أبي أوفى بصدقة، فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى، أورده البخاري، ومسلم في الصحيح. ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: إن دعواتك مما تسكن نفوسهم إليه. وقيل: رحمة لهم، عن ابن عباس. وقيل: وقار وطمأنينة لهم أن الله قد قبل منهم، عن قتادة، والكلبي. وقيل: تثبيت لهم، عن أبي عبيدة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع دعائك لهم ويعلم ما يكون منهم في الصدقات.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ استفهام يراد به التنبيه على ما يجب أن يعلم، فالمخاطب إذا رجع إلى نفسه وفكر فيما نُبِّه عليه، علم وجوبه، وإنما وجب أن يعلم أن الله يقبل التوبة، لأنه إذا علم ذلك كان ذلك داعياً له إلى فعل التوبة، والتمسك بها، والمصارعة إليها. وما هذه صورته يجب العلم به، ليحصل به الفوز بالشواب والخلاص من العقاب، والسبب فيه: أنهم لما سألوا النبي ﷺ أن يأخذ من أموالهم ما يكون كفارة لذنوبهم، امتنع من ذلك انتظاراً لإذن من الله سبحانه فيه، فبين الله أنه ليس بقبول التوبة إلى النبي ﷺ، وأن ذلك إلى الله عز اسمه، فإنه الذي يقبلها ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يتقبلها ويضمن الجزاء عليها، قال الجبائي: جعل الله أخذ النبي والمؤمنين للصدقات أخذاً من الله، على وجه التشبيه والمجاز من حيث كان بأمره، وقد ورد الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: إن الصدقة تقع في يد الله، قبل أن تصل إلى يد السائل. والمراد بذلك أنها تنزل هذا التنزيل، ترغيباً للعباد في فعلها، وذاك يرجع إلى تضمن الجزاء عليها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ عطف على ما قبله، ولذلك فتح ﴿وَأَنَّ﴾، وقد مر تفسيره.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسَيْرِي اللَّهُ عَلَيْكُمْ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا أمر من الله سبحانه لنبيه أن يقول للمكلفين: اعملوا ما أمركم الله به، عمل من يعلم أنه مجازي على فعله، فإن الله سيرى عملكم، وإنما أدخل سين الاستقبال لأن ما لم يحدث لا يتعلق به الرؤية، فكأنه قال: كل ما تعملونه يراه الله تعالى. وقيل: أراد بالرؤية هاهنا العلم الذي هو المعرفة، ولذلك عدها إلى مفعول واحد، أي يعلم الله ذلك فيجازيكم عليه، ويراه رسوله، أي: يعلمه فيشهد لكم بذلك عند الله تعالى، ويراه المؤمنون، قيل: أراد بالمؤمنين الشهداء، وقيل: أراد بهم الملائكة الذين هم الحفظة الذين يكتبون الأعمال، وروى أصحابنا أن أعمال الأمة تعرض على النبي ﷺ في كل اثنين وخميس فيعرفها، وكذلك تعرض على أئمة الهدى ﷺ فيعرفونها، وهم المعنيون بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وإنما قال: سيرى الله، مع أنه سبحانه عالم بالأشياء قبل وجودها، لأن المراد بذلك أنه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة، وكونه عالماً بأنها ستوجد هو كونه عالماً بوجودها إذا وجدت، لا يتجدد حال له بذلك ﴿وَسَرُّدُونَ إِلَىٰ آلِ الْعَبِّ وَالْهَنْدِ﴾ أي:

سترجعون إلى الله الذي يعلم السر والعلانية ﴿فَيَنْتَقِمُ﴾ أي يخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويجازيكم عليه.



قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٦).

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر: «مرجون» بغير همز. والباقون: «مُرْجَاونَ» بالهمز.

● **الحجة:** قال الأزهري: الإرجاء يهمز ولا يهمز، أرجأت الأمر وأرجيته أخرته، وأرجأت الحامل: دنت لأن يخرج ولدها، فهي مرجىء ومرجئة، وأرجت بغير همز أيضاً.

● **النزول:** قال مجاهد، وقتادة: نزلت الآية في هلال بن أمية الواقفي، ومراة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهم من الأوس والخزرج، وكان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه، وإنما تخلف توانياً عن الاستعداد حتى فاته المسير، وانصرف رسول الله ﷺ، فقال: والله ما لي من عذر، ولم يعتذر إليه بالكذب، فقال عليه الصلاة والسلام: صدقت، فمُرَّ حتى يقضي الله فيك. وجاء الآخران فقالا مثل ذلك وصدقا. فنهى رسول الله ﷺ عن مكالمتهم، وأمر نساءهم باعتزالهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فأقاموا على ذلك خمسين ليلة، وبني كعب خيمة على سلع^(١) يكون فيها وحده، وقال في ذلك:

أبعد دُور بني القئين الكرام، وما شادوا عليّ، بنيْتُ البيت من سَعَف^(٢)

ثم نزلت التوبة عليهم بعد الخمسين في الليل، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ الآية. فأصبح المسلمون يبتدرونهم ويبشرونهم، قال كعب: فجئت إلى رسول الله في المسجد، وكان عليه الصلاة والسلام إذا سر يستبشر، كأن وجهه فلقه قمر، فقال لي ووجهه يبرق من السرور: أبشر بخير يوم طلع عليك شرقه منذ ولدتك أمك! قال كعب: فقلت: أمن عند الله أم من عندك يا رسول الله؟ فقال: من عند الله، وتصدق كعب بثلاث ماله شكراً لله على توبته.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما قبله من قوله: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ فقال: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: مؤخرون موقوفون لما يرد من أمر الله تعالى فيهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ لفظة إما لوقوع أحد الشئينين، والله سبحانه عالم بما يصير إليه أمرهم، ولكنه سبحانه خاطب العباد بما عندهم، ومعناه: ولكن كان أمرهم عندكم على هذا، أي: على الخوف والرجاء، وهذا يدل على صحة مذهبا في جواز العفو عن العصاة، لأنه سبحانه بين أن قوماً من العصاة يكون أمرهم إلى الله تعالى، إن شاء عذبهم، وإن شاء قبل توبتهم فعفا عنهم، ويدل أيضاً على أن قبول التوبة تفضل من الله سبحانه، لأنه لو كان واجباً لما جاز تعليقه

(٢) شاد البناء: رفعه. والسعف: جريد النخل.

(١) السلع: جبل بالمدينة.

بالمشيئة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يؤول إليه حالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم.



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٧٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا لَا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ بغير واو، والباقون: بالواو. وقرأ نافع، وابن عامر ﴿أُسِّسَ﴾ بضم الالف ﴿بنيانه﴾ بالرفع في الموضعين. وقرأ الباقون: ﴿أُسَّسَ بنيانه﴾ فيهما. وفي الشواذ قراءة نصر بن عاصم: ﴿أُسَّسَ بنيانه﴾ على وزن فُعْلُ فُعْلُ. وقراءة نصر بن علي: ﴿أَسَاسُ بنيانه﴾. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وحماد، ويحيى، عن أبي بكر، وخلف: ﴿جُرْفٍ﴾ بالتحفيف. والباقون: ﴿جُرْفٍ﴾ بالثقل. وقرأ يعقوب، وسهل: ﴿إِلَى أَنْ﴾ على أنه حرف الجر، وهو قراءة الحسن، وقتادة، والجحدري، وجماعة، ورواه البرقي عن أبي عبد الله، وقرأ الباقون: ﴿إِلَّا﴾ مشددة اللام. وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، وحمزة، وحفص، وسهل، ورويس، عن يعقوب: ﴿تَقَطَّعَ﴾ بفتح التاء والتشديد، وقرأ روح: ﴿تَقَطَّعَ﴾ بضم التاء مخففاً، وقرأ الباقون: ﴿تَقَطَّعَ﴾ بضم التاء مشدداً.

● **الحجة:** من أثبت الواو في ﴿الَّذِينَ﴾ عطفه على ما تقدم، والتقدير: ومنهم الذين اتخذوا مسجداً، ومن حذف الواو ابتدأ الكلام وأضمر الخبر بعده، كما أضمر في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْكَرِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْبَائِغِ﴾، والمعنى فيه: ينتقم منهم أو يعذبهم ونحو ذلك. وحسن الحذف في الموضعين لطول الكلام بالمبتدأ وصلته، ويجوز أن يكون على أن تضمّر «ومنهم»، فيكون تقديره: ومنهم الذين اتخذوا، كما أضمرت الحرف مع الفعل في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي فيقال لهم: أكفرتم، ولا يجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من قوله: ﴿وَالْآخَرُونَ مُرْجُونَ﴾ لأن المرجئين لأمر الله غير الذين اتخذوا مسجداً ضاراً، فلا يجوز أن يبدلوا منهم.

ومن قرأ: ﴿أُسِّسَ بُيُوتُهُ﴾ بنى الفعل للفاعل، كما أضاف البنيان إليه في قوله: ﴿بُيُوتُهُ﴾ فالمصدر مضاف إلى الفاعل، والباقي والمؤسس واحد. ومن بنى الفعل للمفعول به، لم يبعد أن يكون في المعنى كالأول، لأنه إذا أسس بنيانه فيولي ذلك غيره بأمره كان كبنائه هو له. فاما من قرأ: ﴿أُسَّسَ بنيانه﴾ بالرفع في الموضعين وأساس بنيانه بالإضافة، فإنهما بمعنى واحد، وجمع الأس: أساس، كقفل وأقفال، وجمع الأساس: أساس وأسس. وأما الجُرف

سورة التوبة

فالأصل فيه ضم العين، والإسكان تخفيف، ومثله: الشُّغْل والشُّغْل، والطَّنْب والطَّنْب. ومن قرأ: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ فمعناه: تبلى وتتقطع بالبلى، أي لا تتلج قلوبهم بالإيمان أبداً^(١). ومن قرأ: ﴿تَقَطَّعَ﴾ بضم التاء، فهو في المعنى مثل الأول، إلا أن الفعل أضيف إلى القطع المبلي للقلوب بالموت. وفي الأول أسند إلى القلوب لما كانت هي البالية، وهذا مثل: مات زيد، وسقط الحائط، ونحو ذلك، مما أسند فيه الفعل إلى من حدث فيه، وإن لم يكن منه، وتَقَطَّعَ يسند الفعل فيه إلى المقطع المبلى، وإن لم يذكر في اللفظ، فأسند الفعل الذي هو لغیر القلوب في الحقيقة إلى القلوب. ومن قرأ: ﴿إِلَى أَنْ تَقَطَّعَ﴾ فإنه جعله على الغاية، وزعموا أن في حرف: إلى حتى الممات، وهذا يدل على أنهم يموتون على نفاقهم، فإذا ماتوا عرفوا بالموت ما كانوا تركوه من الإيمان، وأخذوا به من الكفر.

● **اللغة:** الضرار: هو طلب الضرر ومحاولته، كما أن الشقاق محاولة ما يشق، يقال: ضاره مضارة وضراراً. والإرصاد: الارتقاب، تقول: رَصَدَهُ يرصده رصداً، وأرصد له إرصاداً. قال الكسائي: رصده: رقبته، وأرصدته: أعدته. والبنيان: مصدر، قال أبو علي: وهو جمع على حد: شعيرة وشعير، لأنهم قالوا: بنيانة في الواحد، قال أوس:

كبنيانة القرى موضع رحلها، وأثار نسعينها من الدف أبلت^(٢)

وجاء بناء المصدر على هذا المثال في غير هذا الحرف، نحو: الغفران، وليس بنيان جمع بناء، لأن فُغْلاناً إذا كان جمعاً نحو كُثبان، وقُضبان، لم تلحقه تاء التأنيث وقال أبو زيد: يقال: بنيت أبني بنيّاً وبنياناً وبناء وبنية، وجمعها البنى، قال:

بنى السماء فسواها ببُنْيَتِهَا، ولم تُمَدَّ بأطناب، ولا عمَدٍ

فالبناء والبنية مصدران، ومن ثمَّ قوبل به الفراش في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ فالبناء لما كان رفعاً للمبني، قوبل به الفراش الذي هو خلاف البناء. والتقوى: خصلة من الطاعة، يحترز بها من العقوبة. والتقوى: صفة مدح لا تطلق إلا على مستحق الثواب. وواو تقوى مبدلة من الياء لأنها من وقيت، وإنما أبدلت للفرق بين الاسم والصفة في الأبنية مثل: خزيا. وشفا جرف: الشيء وشفيره. وجرفه: نهايته في المساحة، ويشنى شفوان. وجرف الوادي: جانبه الذي ينحفر بالماء أصله، وهو من الجرف. والاجتراف: هو اقتلاع الشيء من أصله. وهار الجرف يهور هوراً فهو هائر وتهوّر وانهار، ويقال أيضاً: هار يهار، وهار أصله هائر، وهو من المقلوب، كما يقال: لاث الشيء به إذا دار، فهو لاث، والأصل لاث، وكما قالوا: شاكي السلاح، أي شائك، قال:

فَتَعَرَّفُونِي إِنِّي أَنَا ذَاكُمُ شَاكٍ سِلَاحِي فِي الْحَوَادِثِ مُعْلَمٌ

(١) تلجت نفسه بالشيء: اطمأنت.

(٢) القرى: مجرى الماء. والنسع: جبل عريض طويل تشد به الرحال. والدف: الجنب من كل شيء.

وكما قال العجاج:

(لَا تُبْهِ الْأَشْيَاءَ وَالْعُبْرِيُّ^(١))

أي مطيف. وقال أبو علي: والهمزة في هائر منقلبة عن الواو، لأنهم قالوا: تهوّر البناء، إذا تساقط وتداعى. وفي الحديث: سار الليلة حتى انهار الليل، ثم سار حتى تهوّر. فهذا في الليل كالمثل، والتشبيه بالبناء. والانهيال والانهيال يتقاربان في المعنى، كما يتقاربان في اللفظ.

● الإعراب: قد ذكرنا إعراب قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ في الحجة، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ كما تقول: والذي يدعوك إلى الغي فلا تسمع الدعاء، وتقديره: فلا تسمع دعاءه، وكذلك التقدير في الآية: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، فحذف الضمير للاختصار. ويجوز أن يكون خبر ﴿الَّذِينَ﴾ قوله: ﴿أَقَمْنَ أَسْكَ بُيُوتَهُنَّ﴾ أي أقمن أسس بنيانهن من هؤلاء، أم من أسس من الذين اتخذوا. ضراراً: منصوب على أنه مفعول له، وكذلك ما بعد. والمعنى: اتخذوه للضرار والكفر والتفريق والإرصاد، فلما حذف اللام أفضى الفعل، فنصب. ويجوز أن يكون مصدراً محمولاً على المعنى، لأن اتخذهم المسجد على غير التقوى معناه: ضاروا به ضراراً. ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ دخلت ﴿مِنْ﴾ في الزمان والأصل منذ ومذ، هذا الأكثر استعمالاً في الزمان، ومن، جائز دخولها أيضاً، لأنها الأصل في ابتداء الغاية والتبعيض، ومنه قول زهير:

لَمَنْ الدِّيارُ بِقُتَّةِ الْحَجَرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حَجَجٍ، وَمِنْ شَهْرٍ^(٢)

ويروى: من دهر، وقد قيل: إن المعنى: من مرّ حجج ومن مرّ شهر. و﴿أَنْ تَقُومَ﴾ في موضع نصب، أي أحقّ بأن تقوم فيه، وفيه منصوب الموضع بقوله: ﴿تَقُومَ﴾ وفيه من قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ في موضع رفع، لأنه خبر مبتدأ مقدم عليه، والمبتدأ ﴿رِجَالٌ﴾ ولا يجوز أن يكون مرفوع الموضع بكونه وصفاً لمسجد، بل هو على الاستئناف، والوقف التام على قوله: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ ثم استأنف الكلام فقيل: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ وإنما قلنا ذلك، لأنك لو جعلت الظرف الذي هو ﴿فِيهِ﴾ وصفاً ﴿لِمَسْجِدٍ﴾ لكانت فصلت بين النكرة وصفتها، بالخبر الذي هو ﴿أَحَقُّ﴾. وقوله: ﴿أَقَمْنَ أَسْكَ بُيُوتَهُنَّ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ قال أبو علي: القول فيه: أنه يجوز أن تكون المعادلة وقعت بين البانين، ويجوز أن يكون بين البانين، فإذا عادل بين البانين، كان المعنى: المؤسس بنيانه متقياً خيراً، أم المؤسس بنيانه غير متق، لأن قوله: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ﴾ يدل على أن بانيه غير متق لله تعالى، ولا خاش له، ويجوز أن يقدر حذف المضاف كأنه قال: أَبْنَاءُ مَنْ أَسَّسَ بَنِيانَهُ مَتَقِيًّا خَيْرٌ، أم بَنَاءُ مَنْ أَسَّسَ بَنِيانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ وَالبنيان مصدر أوقع على المبنى، مثل: الخلق إذا

(١) الأشياء: صغار النخل. والعبري: السدر.

(٢) قنة الحجر: موضع. وأقوين أي: أقفرن من أقوت الدار: خلت من ساكنيها. وحجج جمع حجة: السنة. وفي

شرح الأشموني «أقوين مذ حجج ومذ دهر» ولمحمد محيي الدين في شرحه كلام طويل فراجع ج ٣: ٣٠٩ - ٣١١.

سورة التوبة

عنيت به المخلوق، وضرب الأمير إذا عنيت به المضروب، وكذلك: نسج اليمن. يدلك على ذلك أنه لا يخلو من أن يراد به اسم الحدث أو اسم العين، فلا يجوز أن يكون الحدث، لأنه إنما يؤسس المبني الذي هو عين، ويبين ذلك أيضاً قوله: ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ﴾ والحدث لا يعلو شفا جرف، والجار في قوله: ﴿عَلَى تَقَوَّى مِنْكَ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: أضمن أسس بنيانه متقياً، خيراً، أم من أسس بنيانه غير متق، أو معاقباً على بنيانه. وفاعل أنهار: البنيان، أي: أنهار البنيان بالباني في نار جهنم، لأنه معصية وفعل لما كرهه الله تعالى من الضرار، والكفر، والتفريق بين المؤمنين. ومن أمال «هار» فقد أحسن لما في الرأ من التكرير، فكأنك لفظت براءين مكسورتين، وبحسب كثرة الكسرات تحسن الإمالة، ومن لم يمل فلأن ترك الإمالة هو الأصل. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ موضع ﴿أَنْ تَقَطَّعَ﴾ نصب تقديره: إلا على تقطع قلوبهم، غير أن حرف الإضافة يحذف مع أن، ولا يحذف مع المصدر، ومعنى ﴿إِلَّا﴾ ههنا: (حتى)، لأنه استثناء من الزمان المستقبل، والاستثناء منه منته إليه، فاجتمعت مع (حتى) في هذا الموضع على هذا المعنى.

● **النزول:** قال المفسرون: إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم وصلى فيه، فحسدهم جماعة من المنافقين، من بني غنم بن عوف، فقالوا: نبني مسجداً فنصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد، وكانوا اثني عشر رجلاً، وقيل: خمسة عشر رجلاً، منهم ثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، ونبئل بن الحرث، فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، فلما فرغوا منه، أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا وتدعو بالبركة، فقال ﷺ: إني على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله، فصلينا لكم فيه. فلما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك نزلت عليه الآية في شأن المسجد.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه جماعة أخرى من المنافقين، بنوا مسجداً للتفريق بين المسلمين وطلب الغوائل للمؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ والمسجد: موضع السجود في الأصل، وصار بالعرف اسماً لبقعة مخصوصة بنيت للصلاة فالاسم عرفي فيه معنى اللغة ﴿مُزَارًا﴾ أي: مضارة، يعني الضرر بأهل مسجد قباء، أو مسجد الرسول ﷺ، ليقل الجمع فيه ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: وإقامة الكفر فيه. وقيل: أراد أنه كان اتخاذهم ذلك كفراً بالله. وقيل: ليكفروا فيه بالظن على رسول الله ﷺ والإسلام.

﴿وَتَقَرَّبًا بِبَيْتِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لاختلاف الكلمة، وإبطال الإلفة وتفريق الناس عن رسول الله ﷺ. ﴿وَارْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي أرصدوا ذلك المسجد واتخذوه وأعدوه لأبي عامر الراهب، وهو الذي حارب الله ورسوله من قبل. وكان من قصته: أنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح، فلما قدم النبي ﷺ المدينة، حسده وحزب عليه الأحزاب، ثم هرب بعد فتح مكة إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف، لحق بالشام وخرج إلى

الروم، وتنصر وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة الذي قتل مع النبي ﷺ يوم أحد، وكان جنباً فغسلته الملائكة، وسمى رسول الله ﷺ أبا عامر: الفاسق. وكان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدوا، وابنوا مسجداً، فإني أذهب إلى قيصر، وآتي من عنده بجنود، وأخرج محمداً من المدينة، فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر، فمات قبل أن يبلغ ملك الروم:

﴿وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ معناه: أن هؤلاء يحلفون كاذبين ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الفعل الحسن، من التوسعة على أهل الضعف والعدة من المسلمين، فأطلع الله نبيه على فساد طويتهم^(١)، وخبث سريرتهم، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وكفى لمن يشهد الله سبحانه بكذبه خزيًا، فوجه رسول الله ﷺ عند قدومه من تبوك، عاصم بن عوف العجلاني، ومالك بن الدخشم، وكان مالك من بني عمرو بن عوف، فقال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدما وحرّقا. وروي أنه بعث عمار بن ياسر ووحشياً، فحرّقا، وأمر بأن يتخذ كناسة يلقي فيها الجيف.

ثم نهى الله سبحانه أن يقوم في هذا المسجد، فقال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصل فيه أبداً، يقال: فلان يقوم بالليل، أي: يصلي. ثم أقسم فقال: ﴿لَمَسْجِدٍ﴾ أي والله لمسجد ﴿أَسِسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ أي: بني أصله على تقوى الله وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي: منذ أول يوم وضع أساسه، عن المبرد ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي: أولى بأن تصلي فيه.

واختلف في هذا المسجد، ف قيل: هو مسجد قباء، عن ابن عباس، والحسن، وعروة بن الزبير.

وقيل: هو مسجد رسول الله ﷺ، عن زيد بن ثابت، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، ورَوَى هو عن النبي ﷺ قال: هو مسجدي هذا. وقيل: هو كل مسجد بني للإسلام وأريد به وجه الله، عن أبي مسلم.

ثم وصف المسجد وأهله فقال: ﴿فِيهِ﴾ أي: في هذا المسجد الذي أسس على التقوى ﴿رِجَالٌ يَحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ أي: يحبون أن يصلوا الله تعالى متطهرين بأبلغ الطهارة. وقيل: يحبون أن يتطهروا من الذنوب، عن الحسن. وقيل: يحبون أن يتطهروا بالماء عن الغائط والبول، وهو المروي عن السيدين الباقر والصادق ﷺ. وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأهل قباء: ماذا تفعلون في طهركم، فإن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء؟ قالوا: نغسل أثر الغائط، فقال: أنزل الله فيكم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ أي المتطهرين.

ثم قرر سبحانه الفرق بين المسجدين فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْئٍ هَارٍ﴾ قد مضى بيانه، والمراد أن الله تعالى شبه بنيانهم على نار جهنم، بالبناء على جانب نهر هذا صفته، فكما أن من بني على جانب هذا النهر

سورة التوبة

فإنه ينهار بناؤه في الماء ولا يثبت، فكذلك بناء هؤلاء ينهار ويسقط في نار جهنم، يعني أنه لا يستوي عمل المتقي وعمل المنافق، فإن عمل المؤمن المتقي ثابت مستقيم مبني على أصل صحيح ثابت، وعمل المنافق ليس بثابت، وهو واهٍ ساقط. والألف في قوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ ألف استفهام يراد به الإنكار ههنا. وليس معنى ﴿خَيْرٌ﴾ في الآية أفضل، بل هو كما يقال: هذا خير وهذا شر، وقال الشاعر:

والخيرُ والشرُّ: مقرونانِ في قرآنٍ فالخيرُ متَّبَعٌ والشرُّ محذورٌ

وأما قوله: ﴿وَأَعْكُلُوا الْخَرِبَ﴾ فإن معناه: وافعلوا الأفضل، وقوله: ﴿فَأَنهَارَ بَيْتِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوقعه ذلك البناء في نار جهنم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰلِغِينَ﴾ مر بيانه. وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: رأيت المسجد الذي بنى ضراراً يخرج منه الدخان ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لا يزال بناء المبنى الذي بنوه شكاً في قلوبهم، فيما كان من إظهار إسلامهم وثباتاً على النفاق. وقيل: إن معناه، حزازة في قلوبهم، وقيل: حسرة في قلوبهم يترددون فيها. ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: إلا أن يموتوا، والمراد بالآية: أنهم لا ينزعون عن الخطيئة ولا يتوبون حتى يموتوا على نفاقهم وكفرهم، فإذا ماتوا عرفوا بالموت ما كانوا تركوه من الإيمان، وأخذوا به من الكفر. وقيل معناه: إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفریطهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بنيتهم في بناء مسجد الضرار ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره بنقضه، والمنع من الصلاة فيه.

[illegible]

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿فَيُقْتَلُونَ﴾ بضم الياء ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ بفتح الياء. والباقون: ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ بفتح الياء ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ بضمها. وفي قراءة أبيّ، وعبد الله بن مسعود، والأعمش: ﴿التَّائِبِينَ الْعَاكِدِينَ﴾ بالياء إلى آخرها، وروي ذلك عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليه السلام.

● **الحجة:** قال أبو علي: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فقدم الفعل المسند إلى الفاعل، فلأنهم يقتلون أولاً في سبيل الله، ويقتلون ولا يقتلون، إذا قُتلوا، ومن قدم الفعل المسند إلى المفعول به، جاز أن يكون في المعنى مثل الأول، لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم، فإن لم

يَقْدَرُ فِيهِ التَّقْدِيمُ، كَانَ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿يَقْتُلُونَ﴾ بعد قوله: ﴿يُقْتَلُونَ﴾ بَقَتْلٍ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ بعد قَتْلٍ مَنْ قُتِلَ.

وأما الرفع في قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ﴾ فعلى القطع والاستئناف، أي هم التائبون، ويكون على المدح، وقيل: إنه رفع على الابتداء، وخبره محذوف بعد قوله: ﴿وَالْحَنِيفُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي: لهم الجنة أيضاً، عن الزجاج. وقيل: إنه رفع على البدل من الضمير في ﴿يُقْتَلُونَ﴾ أي يقاتل التائبون. وأما ﴿التَّائِبِينَ وَالْعَابِدِينَ﴾ فيحتمل أن يكون جرّاً، وأن يكون نصباً، أما الجر فعلى أن يكون وصفاً للمؤمنين، أي: من المؤمنين التائبين، وأما النصب فعلى إضمار فعل بمعنى المدح، كأنه قال: أعني وأمدح التائبين.

● **اللغة:** السائح: من ساح في الأرض يسيح سيحاً، إذا استمر في الذهاب، ومنه السيح: الماء الجاري، ومن ذلك يسمى الصائم سائحاً، لاستمراره على الطاعة في ترك المشتبه.

● **الإعراب:** ﴿وَعِدَّا﴾ نصب على المصدر، لأن قوله: ﴿أَشْتَرَى﴾ يدل على أنه وعد، ومثله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ أَلَدَىٰ آفَنَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ و ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَىٰ فَطَرَ النَّاسِ عَلَيْهَا﴾.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر المؤمنين والمنافقين، عقب سبحانه بالترغيب في الجهاد، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ حقيقة الاشتراء لا تجوز على الله تعالى، لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملكه، وهو عز اسمه مالك الأشياء كلها، لكنه مثل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ في أنه ذكر لفظ الشراء والقرض تلطفاً، لتأكيد الجزاء، ولما كان سبحانه ضمن الثواب على نفسه عبّر عن ذلك بالاشتراء، وجعل الثواب ثمناً والطاعات مثمناً، على ضرب من المجاز، وأخبر أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم، يبذلونها في الجهاد في سبيل الله، وأموالهم أيضاً ينفقونها ابتغاء مرضاة الله، على أن يكون في مقابلة ذلك الجنة. وروى عن الأعمش أنه قرأ: بالجنة، وهي قراءة عمر بن الخطاب. والجهاد قد يكون بالسيف، وقد يكون باللسان، وربما كان جهاد اللسان أبلغ، لأن سبيل الله دينه، والدعاء إلى الدين يكون أولاً باللسان، والسيف تابع له، ولأن إقامة الدليل على صحة المدلول أولى، وإيضاح الحق وبيانه أخرى، وذلك لا يكون إلا باللسان، وقد قال النبي ﷺ: «يا علي! لأن يهدي الله على يدك نسمة، خير مما طلعت عليه الشمس».

وإنما ذكر سبحانه شراء النفس والمال، لأن العبادات على ضربين: بدنية ومالية، ولا ثالث لهما. ويروى أن الله سبحانه تاجر المؤمنين، فأغلى لهم الثمن، فجعل ثمنهم الجنة، وكان الصادق عليه السلام يقول: أياً من ليست له همة! إنه ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها. وأنشد الأصمعي للصادق عليه السلام:

أَتَأْمَنُ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةِ رَبِّهَا فَلَيْسَ لَهَا فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ ثَمَنٌ
بِهَا نَشْتَرِي الْجَنَاتِ، إِنَّ أَنَا بِغَتْهَا بِشَيْءٍ سِوَاهَا، إِنَّ ذَلِكُمْ غَبْنٌ
إِذَا ذَهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيَا أَصْبَتْهَا فَقَدْ ذَهَبَتْ الدُّنْيَا، وَقَدْ ذَهَبَ الثَّمَنُ
﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلْغَرَضِ الَّذِي لِأَجْلِهِ اشْتَرَاهُمْ الْمُشْرِكِينَ

سورة التوبة

﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: ويقتلهم المشركون، يعني أن الجنة عوض عن جهادهم، سواء قُتلوا أو قُتلوا. ومن قرأ: ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾: فهو المختار عن الحسن، لأنه يكون تسليم النفس إلى المشتري أقرب، والبائع إنما يستحق الثمن بتسليم المبيع ﴿وَعَدَا عَلَيْكَ حَقًّا﴾ معناه: إن إيجاب الجنة لهم وعد على الله حق لا شك فيه، وتقديره: وعدهم الله الجنة على نفسه وعداً حقاً، أي: صدقاً واجباً لا خلف فيه ﴿فِى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾ وهذا يدل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال ووعدوا عليه الجنة، عن الزجاج ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ معناه: لا أحد أوفى بعهد من الله، لأنه يفي ولا يخلف بحال ﴿فَأَسْتَبِشِرُوا بِالَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فافرحوا بهذه المبايعة حتى ترى آثار السرور في وجوهكم بسبب هذه المبايعة، لأنكم بعتم الشيء من مالكم وأخذتم ثمنه، ولأنكم بعتم فانياً بباقي، وزائلاً بدائم. ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك الشراء والبيع الظفر الكبير الذي لا يقاربه شيء. ثم وصف الله سبحانه المؤمنين الذين اشترى منهم الأنفس والأموال، بأوصاف، فقال: ﴿التَّائِبِينَ﴾ أي: الراجعون إلى طاعة الله والمنقطعون إليه، النادمون على ما فعلوه من القبائح ﴿الْمُكِيدُونَ﴾ أي: الذين يعبدون الله وحده، ويتذللون له بطاعته في أوامره ونواهيه. وقيل: هم الذين أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم، فعبدوا الله في السراء والضراء، عن الحسن، وقادة ﴿الْمُكِيدُونَ﴾ أي: الذين يحمدون الله على كل حال، عن الحسن. وقيل: هم الشاكرون لنعم الله على وجه الإخلاص له ﴿السَّائِحُونَ﴾ أي الصائمون، عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد.

وروي مرفوعاً عن النبي ﷺ أنه قال: سياحة أُمّتي الصيام. وقيل: هم الذين يسيحون في الأرض فيعتبرون بعجائب الله تعالى. وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض لطلبه، عن عكرمة ﴿الزَّكَاةَ وَالسَّجْدَةَ﴾ أي: المؤدبون للصلاة المفروضة، التي فيها الركوع والسجود ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ الْفَاسِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أدخل الواو هنا لأن الأمر بالمعروف يتضمن النهي عن المنكر، فكأنهما شيء واحد، ولأنه قرن النهي عن المنكر بالأمر بالمعروف في أكثر المواضع، فأدخل الواو ليدل على المقارنة.

﴿الْمُحْفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي: والقائمون بطاعة الله، عن ابن عباس، يعني الذين يؤدبون فرائض الله وأوامره ويجتنبون نواهيه، لأن حدود الله أوامره ونواهيه، وإنما أدخل الواو لأنه جاء وهو أقرب إلى المعطوف ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا أمر للنبي ﷺ أن يبشر المصدقين بالله، المعترفين بنبوته، بالثواب الجزيل والمنزلة الرفيعة، خاصة إذا جمعوا هذه الأوصاف.

وقد روى أصحابنا أن هذه صفات الأئمة المعصومين ﷺ، لأنه لا يكاد يجمع هذه الأوصاف على تمامها وكمالها غيرهم، ولقي الزهري علي بن الحسين ﷺ في طريق الحج، فقال له: تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت إلى الحج. والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْكُمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، فقال ﷺ له: أتم الآية الأخرى ﴿التَّائِبِينَ الْمُكِيدُونَ﴾ إلى آخرها، ثم قال: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣) وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) .

● **اللغة:** أصل الأواه من التأوه، وهو التوجع والتحزن، يقال: تأوه تأوهاً وأوه تأويهاً، قال المثقب العبدى:

إذا ما قمتُ أرخلها بليل تأوه أمه الرجل الحزين^(١)
ولو جاء منه فعل متصرف، لكان آه يؤوه أوهاً، مثل قال يقول قولاً، والعرب تقول: أوه من كذا، بكسر الواو، وتسكين الهاء، قال:

فأوه بذكرها إذا ما ذكرتها، ومن بعد أرض دونها، وسماء
والعامة تقول: أوه، وفيه خمس لغات: أوه، بسكون الواو وكسر الهاء، وأو، وآه بالتونين، وأوه، وأوه.

● **المعنى:** ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ معناه: ليس للنبي والمؤمنين أن يطلبوا المغفرة للمشركين الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر، والذين لا يوحدونه ولا يقرّون بإلهيته ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ أي: ولو كان الذين يطلبون لهم المغفرة أقرب الناس إليهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: من بعد أن علموا أنهم كفار، مستحقون للخلود في النار. وفي تفسير الحسن: إن المسلمين قالوا للنبي ﷺ: ألا تستغفر لأبائنا الذين ماتوا في الجاهلية؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية، وبين أنه لا ينبغي لنبي ولا مؤمن أن يدعو لكافر ويستغفر له، وقوله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ﴾ أبلغ من أن يقول: لا ينبغي للنبي، لأنه بدل على قبحه، وأن الحكمة تمنع منه، ولو قال: لا ينبغي، لم يدل على أن الحكمة تمنع منه، وإنما كان يدل على أنه لا ينبغي أن يختاره، ومعناه: لم يجعل الله في دينه ولا في حكمه أن يستغفروا للمشركين، ولو دعتهم رقة القرابة، وشفقة الرحم إلى الاستغفار لهم، بعدما ظهر أن لهم عذاباً عظيماً.

ثم بيّن سبحانه الوجه في استغفار إبراهيم لأبيه، مع كونه كافراً، سواء كان أباه الذي ولده، أو جده لأمه، أو عمه على ما رواه أصحابنا، فقال: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أي: لم يكن استغفاره له إلا صادراً عن موعدة وعدها إياه. واختلف في صاحب هذه الموعدة: هل هو إبراهيم أو أبوه؟

ف قيل: إن الموعدة كانت من الأب، وعد بها إبراهيم أنه يؤمن إن استغفر له، فاستغفر له لذلك ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ ولا يفى بما وعد ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وترك الدعاء له، وهو المروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. إلا أنهم قالوا: إنما تبين عداوته لما مات على كفره.

(١) وفي اللسان: قيل: ويروى 'تهوه هامة الرجل الحزين'. وتأوه أصله تتأوه، وقيل: إنه وضع الاسم موضع المصدر، أي: تأوه تأوهاً والرجل.

سورة التوبة

وقيل: إن الموعدة كانت من إبراهيم، قال لأبيه: إني أستغفر لك ما دمت حياً، وكان يستغفر له مقيداً بشرط الإيمان، فلما آيس من إيمانه تبرأ منه. وهذا يوافق قراءة الحسن: إلا عن موعدة وعدّها أباه، بالباء، ويقويه قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي دعاء كثير الدعاء والبكاء، عن ابن عباس، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: الأواه: الرحيم بعباد الله، عن الحسن، وقتادة. وقيل: هو الذي إذا ذكر النار قال أوه، عن كعب. وقيل: الأواه: المؤمن بلغة الحبشة، عن ابن عباس. وقيل: الأواه: الموقن المستيقن، عن مجاهد وعكرمة. وقيل: الأواه: العفيف، عن النخعي. وقيل: هو الراجع عن كل ما يكره الله عز وجل، عن عطاء. وقيل: هو الخاشع المتضرع، رواه عبد الله بن شداد عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: هو المسيح الكثير الذكر لله سبحانه، عن عقبة بن عامر. وقيل: هو المتأوه شفقاً وفرقاً، المتضرع يقيناً بالإجابة ولزوماً للطاعة، عن أبي عبيدة.

وقال الزجاج: وقد انتظم قول أبي عبيدة أكثر ما روي في الأواه ﴿حَلِيمٌ﴾ يقال: بلغ من حلم إبراهيم عليه السلام أن رجلاً قد أذاه وشمته، فقال له: هداك الله. وقيل: الحليم السيد، عن ابن عباس. وأصله أنه الصبور على الأذى، الصفوح عن الذنب.

● **النظم:** لما تقدم ذكر الكفار والمنافقين، والمنع من موالاتهم والصلاة عليهم والقيام على قبرهم للدعاء لهم، نهي عن الدعاء لهم بعد موتهم. ولما نهى الله النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين، ذكر قصة إبراهيم وعذره في الاستغفار لأبيه، وأما قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ فإنما اتصل بما قبله بأنه إذا كان له صفة الرأفة والرحمة يكون في دعائه أخلص، وعلى خلاص أقربائه من العذاب أحرص، ومع ذلك تبرأ منه لما يشس من فلاحه.



قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٥) **إِنَّ اللَّهَ لَمَوْلَاكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١١٦).**

● **النزول:** قيل: مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، فقال المسلمون: يا رسول الله! إخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض، ما منزلتهم؟ فنزل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ الآية، عن الحسن.

● **المعنى:** ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ أي وما كان الله ليحكم بضلالة قوم بعدما حكم بهديتهم ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ من الأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية، فلا يتقون، فعند ذلك يحكم بضلاتهم. وقيل: وما كان الله ليعذب قوماً، فيضلهم عن الثواب والكرامة وطريق الجنة، بعد إذ هداهم ودعاهم إلى الإيمان، حتى يبين لهم ما يستحقون به الثواب والعقاب، عن الطاعة والمعصية. وقيل: لما نسخ بعض الشرائع وقد غاب

أناس وهم يعملون بالأمر الأول، إذ لم يعلموا بالأمر الثاني، مثل تحويل القبلة وغير ذلك، وقد مات الأولون على الحكم الأول، سئل النبي ﷺ عن ذلك، فأنزل الله الآية، وبين أنه لا يعذب هؤلاء على التوجه إلى القبلة الأولى حتى يسمعوها بالنسخ، ولا يعملوا بالناسخ، فحينئذ يعذبهم، عن الكلبي ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمٌ﴾ يعلم جميع المعلومات حتى لا يشذ شيء منها عنه لكونه عالماً لنفسه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَوْلَى الْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْضِ﴾ لذلك اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير ﴿يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ﴾ أي: يحيي الجماد ويميت الحيوان ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ليس لكم سواه حافظ يحفظكم، وولي يتولى أمركم، ولا ناصر ينصركم ويدفع العذاب عنكم.

● **النظم:** وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها، أن الله سبحانه لما حرم على المؤمنين أن يستغفروا للمشركين، بين سبحانه أنه لا يأخذهم بذلك إلا بعد أن يدلهم على تحريمه، عن مجاهد ووجه اتصال الآية الثانية بما قبلها، الحضيض على ما تقدم ذكره من جهاد المشركين، ملوكهم وغير ملوكهم، لأنهم عبيد من له ملك السموات والأرض، يأمرهم بما يشاء، ويدبرهم على ما يشاء، عن علي بن عيسى.



قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨﴾ .

● **القراءة:** قرأ حمزة، وحفص، عن عاصم: ﴿يَزِيغُ﴾ بالياء، وهي قراءة الأعمش، والباقون: ﴿تَزِيغُ﴾ بالتاء، والقراءة المشهورة: ﴿الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ وقرأ علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وأبو جعفر محمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وأبو عبد الرحمن السلمي: ﴿خَالَفُوا﴾ وقرأ عكرمة وزر بن حبيش وعمرو بن عبيد ﴿خَلَفُوا﴾ بفتح الخاء واللام خفيفة.

● **الحجة:** قال أبو علي: يجوز أن يكون فاعل، ﴿كَادَ﴾ أحد ثلاثة أشياء:

الأول: أن تضمّر فيها القصة والحديث، ويكون ﴿تَزِيغُ﴾ الخبر، وجاز ذلك فيها، وإن كان الأصل في إضمار القصة إنما هو في الابتداء، لأن الخبر لازم لكاد فأشبهه العوامل الداخلة على الابتداء للزوم الخبر له، قال: ولا يجوز ذلك في ﴿عَسَى﴾ لأن عسى قد يكون فاعله المفرد في كثير من الأمر فلا يلزمه الخبر، كقوله: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ فإذا كان كذلك، لم يحتمل الضمير الذي يحتمله كاد، كما لم يحتمله سائر الأفعال التي تستند إلى فاعليها مما لا يدخل على المبتدأ.

سورة التوبة

والثاني: أن يضمّر في ﴿كَادَ﴾ ذكرٌ مما تقدم، لما كان النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار قبيلًا واحدًا وفريقًا واحدًا، جاز أن يضمّر في ﴿كَادَ﴾ ما دل عليه ما تقدم ذكره، من القبيل والحزب والفريق ونحو ذلك من الأسماء المفردة الدالة على الجمع، وقال: منهم فحمله على المعنى، مثل قوله: ﴿ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثم قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فكذلك فاعل كاد على هذا الوجه.

والثالث: أن يكون فاعل كاد القلوب، وتقديره: من بعدما كاد قلوب فريق منهم تزيف، ولكنه قدم تزيف كما تقدم خبر كاد، وجاز تقديمه وإن كان فيه ذكر من القلوب، ولم يمتنع من حيث يمتنع الإضمار قبل الذكر، لما كان النية به التأخير، كما لم يمتنع ضرب غلامه زيد، لما كان التقدير به التأخير.

فأما من قرأ: ﴿يَزِيعُ﴾ بالياء، فيجوز أن يكون قد ذهب إلى أن في كاد ضمير الحديث، فيرتفع قلوب بيزيع، فذكر وإن كان فاعله مؤنثًا، لتقدم الفعل. ومن قرأ: ﴿تَزِيعُ﴾ بالتاء، جاز أن يكون ذهب إلى أن القلوب مرتفعة بكاد، وجاز أن يكون الفعل المسند إلى القصة، أو الحديث، يؤنث، إذا كان في الجملة التي يفسرها مؤنث، كقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجاز تأنيث هي التي هي ضمير القصة لذكر الأبصار المؤنثة في الجملة التي هي التفسير، فكذلك يؤنث الذي في كاد لذكر المؤنث في الجملة المفسرة، فتقول: كادت، وتدغم التاء التي هي علامة التأنيث في تاء تزيع، وتزيع على هذا للقلوب، وهي مرتفعة به، ويجوز إلحاق التاء بكاد من وجه آخر، وهي أن ترفع قلوب فريق بكاد، فتلحقه علامة التأنيث من حيث كان مسنداً إلى مؤنث، ومن قرأ: ﴿خَلَفُوا﴾ فتأويله: أقاموا ولم يبرحوا، ومن قرأ: ﴿خَالَفُوا﴾ فمعناه عائد إلى ذلك، لأنهم إذا خالفوهم، فأقاموا فقد خلفوا هناك.

● **اللغة:** الزيع: ميل القلب عن الحق، ومنه قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وزاغت الشمس إذا مالت، وزاغ عن الطريق جاز وعدل. والتخليف: تأخير الشيء عن مضي، فأما تأخير الشيء عنك في المكان فليس بتخليف، وهو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه، يقال: خلفه، أي: جعله خلفه فهو مخلف. ورُحِبَتِ البلاد: إذا اتسعت. والرُحْب: السعة، ومنه مرحباً وأهلاً، أي: رُحِبَتِ بلادك وأهلت. والضيق: ضد السعة. والظن هنا بمعنى اليقين، كما في قول دريد بن الصمة:

فقلتُ لهم ظنُّوا بألفي مدجج سرائهم في الفارسي المُسرَد^(١)

● **النزول:** نزلت الآية الأولى في غزاة تبوك، وما لحق المسلمين فيها من العسرة، حتى همّ قوم بالرجوع، ثم تداركهم لطف الله سبحانه. قال الحسن: كان العشرة من المسلمين

(١) المدجج: اللابس السلاح. والسراة: الأسد. وسراة القوم: سادتهم. والمسرَد: الدرع. وقد مر في ج ١ أيضاً.

يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم، يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم الشعير المسوس، والتمر المدود، والإهالة السنخة^(١)، وكان نفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه فيمصها، ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك، حتى يأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة.

قالوا: وكان أبو خيثمة عبد الله بن خيثمة تخلف إلى أن مضى من مسير رسول الله ﷺ عشرة أيام، ثم دخل يوماً على امرأتين له، في يوم حار في عريشين لهما، قد ربتاهما، وبردتا الماء، وهياتا له الطعام، فقام على العريشين وقال: سبحان الله! رسول الله، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، في الفتح والريح والحر والقر، يحمل سلاحه على عاتقه، وأبو خيثمة في ظلال باردة وطعام مهياً وامرأتين حسناوين، ما هذا بالتصّف! ثم قال: والله لا أكلّم واحدة منكما كلمة، ولا أدخل عريشاً حتى ألحق بالنبي ﷺ، فأناخ ناضحه واشتدّ عليه وتزود وارتحل، وامرأته تكلمانه، ولا يكلمهما، ثم سار حتى إذا دنا من تبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق. فقال النبي ﷺ: كن أبا خيثمة أولى لك. فلما دنا قال الناس: هذا أبو خيثمة يا رسول الله. فأناخ راحلته، وسلم على رسول الله ﷺ. فقال ﷺ: أولى لك. فحدثه الحديث، فقال له خيراً، ودعا له، وهو الذي زاغ قلبه للمقام، ثم ثبته الله.

وأما الآية الثانية: فإنها نزلت في شأن كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجوا معه، لا عن نفاق، ولكن عن توان، ثم ندموا. فلما قدم النبي ﷺ المدينة، جاءوا إليه واعتذروا، فلم يكلمهم النبي ﷺ، وتقدم إلى المسلمين بألا يكلمهم أحد منهم، فهجروهم الناس حتى الصبيان، وجاءت نساؤهم إلى رسول الله ﷺ فقلن له: يا رسول الله! نعتزلهم؟ فقال: لا، ولكن لا يقربوكن. فضاقت عليهم المدينة، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولا يكلمونهم، فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد منهم، فهلا نتهاجر نحن أيضاً! ففترقوا ولم يجتمع منهم اثنان، وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرعون إلى الله تعالى، ويتوبون إليه، فقبل الله تعالى توبتهم، وأنزل فيهم هذه الآية.

● المعنى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أقسم الله تعالى في هذه الآية، لأن لام ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، بأنه سبحانه قبل توبتهم وطاعتهم، وإنما ذكر اسم النبي ﷺ مفتاحاً للكلام، وتحسيناً له، ولأنه سبب توبتهم، وإلا فلم يكن منه ما يوجب التوبة، وقد روي عن الرضا علي بن موسى ﷺ أنه قرأ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾. ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في الخروج معه إلى تبوك ﴿فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾ وهي صعوبة الأمر، قال جابر:

(١) ساس الطعام: وقع فيه السوس، وهو دود يأكل الحب. والمدود: الطعام الذي صار فيه الدود، وكل شيء من الأدهان مما يؤتد به إهالة. وقيل: الدسم الجامد. والسنخة: المتغيرة الريح.

يعني: عسرة الزاد، وعسرة الظهر، وعسرة الماء، والمراد بساعة العسرة، وقت العسرة، لأن الساعة تقع على كل زمان، وقال عمر بن الخطاب: أصابنا حر شديد وعطش، فأمر الله سبحانه السماء، بدعاء النبي ﷺ، فعشنا بذلك ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ عن الجهاد فهموا بالانصراف من غزاتهم من غير أمر، فعصمهم الله تعالى من ذلك، حتى مضوا مع النبي ﷺ ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ من بعد ذلك الزيغ، ولم يرد بالزيغ هاهنا الزيغ عن الإيمان ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهَوْا وَرَجِعُوا﴾ تداركهم برحمته، والرأفة أعظم من الرحمة.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ قال مجاهد: معناه: خلفوا عن قبول التوبة، بعد قبول توبة من قبل توبتهم من المنافقين، كما قال سبحانه فيما مضى: ﴿وَأَخْرَجُوا مَرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يَعْزِبُ عَنْهُمُ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾. وقال الحسن، وقتادة: معناه: خلفوا عن غزوة تبوك لما تخلفوا هم. وأما قراءة أهل البيت (عليهم السلام): ﴿خَالَفُوا﴾ فإنهم قالوا: لو كانوا خلفوا لما توجه عليهم العتب، ولكنهم خالفوا. ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها، و ﴿مَّا﴾ هاهنا مصدرية ومعناه: ضاقت عليهم الأرض مع اتساعها، وهذه صفة من بلغ غاية الندم، حتى كأنه لا يجد لنفسه مذهباً، وذلك بأن النبي أمر الناس ألا يجالسوهم، ولا يكلموهم، كما مر ذكره، لأنه كان نزلت توبة الناس، ولم تنزل توبتهم، ولم يكن ذلك على معنى رد توبتهم، لأنهم كانوا مأمورين بالتوبة، ولا يجوز في الحكمة، رد توبة من يتوب في وقت التوبة، لكن الله سبحانه أراد بذلك تشديد المحنة عليهم في تأخير إنزال توبتهم، وأراد بذلك استصلاحهم، واستصلاح غيرهم، لئلا يعودوا إلى مثله. ﴿وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هذه عبارة عن المبالغة في الغم، حتى كأنهم لم يجدوا لأنفسهم موضعاً يخفونها فيه. وقيل: معنى ضيق أنفسهم: ضيق صدورهم بالهم الذي حصل فيها ﴿وَوَظَنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي: وأيقنوا أنه لا يعصمهم من الله موضع يعتصمون به ويلجأون إليه غيره تعالى، ومعناه: علموا أنه لا معتصم من الله إلا به، وأن لا ينجيهم من عذاب الله إلا التوبة.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي: ثم سهل الله عليهم التوبة حتى تابوا. وقيل: ليتوبوا، أي ليعودوا إلى حالتهم الأولى قبل المعصية. وقيل: معناه ثم تاب على الثلاثة، وأنزل توبتهم على نبيه ﷺ، ليتوب المؤمنون من ذنوبهم، لعلمهم بأن الله سبحانه قابل التوبة. قال الحسن: أما والله ما سفكوا من دم، ولا أخذوا من مال، ولا قطعوا من رحم، ولكن المسلمين تسارعوا في الشخوص مع رسول الله ﷺ، وتخلف هؤلاء، وكان أحدهم تخلف بسبب ضيعة له، والآخر لأهله، والآخر طلباً للراحة، ثم ندموا وتابوا، فقبل الله توبتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾: أي الكثير القبول للتوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده.

● **النظم:** اتصلت الآية الأولى بقوله: ﴿الَّذِينَ﴾ الآية. أثنى الله سبحانه عليهم هناك، وبين في هذه الآية قبول توبتهم ورضاه عنهم باتباعهم للنبي ﷺ في ساعة العسرة، عن أبي مسلم. وقيل: إنه سبحانه لما ذكر أن له ملك السموات والأرض، ولا ناصر لأحد دونه، بين عقيقه رحمته بالمؤمنين، ورأفته بهم، في قبول توبتهم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ .

● القراءة: في مصحف عبد الله، وقراءة ابن عباس: ﴿مِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام .

● اللغة: الصادق: هو القائل بالحق العامل به، لأنه صفة مدح، ولا يطلق إلا على من يستحق المدح على صدقه.

● المعنى: ثم خاطب الله سبحانه المؤمنين المصدقين بالله المقرين بنبوة نبيه ﷺ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتقوا معاصي الله واجتنبوها ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ الذين يصدقون في أخبارهم ولا يكذبون، ومعناه: كونوا على مذهب من يستعمل الصدق في أقواله وأفعاله، وصاحبوهم ورافقوهم، كقولك: أنا مع فلان في هذه المسألة، أي اقتدي به فيها. وقد وصف الله الصادقين في سورة البقرة، بقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلٰهَ مَنَّ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فأمر سبحانه بالاقتداء بهؤلاء الصادقين المتقين. وقيل: المراد بالصادقين هم الذين ذكرهم الله في كتابه، وهو قوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا ءَعٰهُدُوا ٱللّٰهُ عَلَيْهِ فِئْتَهُمْ مِّنْ قَضٰى نَحْبُهُ﴾ يعني، حمزة ابن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ يعني، علي بن أبي طالب عليه السلام .

وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ مع علي وأصحابه.

وروى جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ قال: مع آل محمد ﷺ . وقيل: مع النبيين والصدّيقين في الجنة، بالعمل الصالح في الدنيا، عن الضحاك. وقيل: مع محمد ﷺ وأصحابه، عن نافع. وقيل: مع الذين صدقت نياتهم، واستقامت قلوبهم وأعمالهم، وخرجوا مع رسول الله ﷺ، ولم يتخلفوا عنه، عن ابن عباس. وقيل: إن معنى ﴿مَعَ﴾ هنا معنى ﴿مِنْ﴾ فكانه أمر بالكون من جملة الصادقين وبعضه قراءة من قرأ: ﴿مِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ والمعنيان متقاربان هنا، لأن ﴿مَعَ﴾ للمصاحبة، و ﴿مِنْ﴾ للتبعية، فإذا كان من جملتهم فهو معهم وبعضهم، وقال ابن مسعود: لا يصلح من الكذب جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجز له، أقرأوا إن شئتم هذه الآية، هل ترون في الكذب رخصة؟



قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢١﴾ .

سورة التوبة

● **اللغة:** الرغبة: طلب المنفعة، يقال: رغب فيه، إذا طلب المنفعة به، ورغب عنه، إذا طلب المنفعة بتركه. والظما: شدة العطش. والنصب: التعب، ومثله الوصب، قال النابغة: كليني لهم يا أُنَيْمَةُ ناصباً وليل أقاسيه بطيء الكواكب^(١) والمخمصة: المجاعة، وأصله ضمور البطن للمجاعة. ورجل خميص البطن، وامرأة خُمصانة: ضامرة البطن. والموطىء: الأرض. والغيط: انتقاض الطبع بما يرى مما يسوءه، يقال: غاظه يغيطه.

● **المعنى:** لما قص الله سبحانه قصة الذين تأخروا عن الخروج مع النبي ﷺ إلى غزوة تبوك، ثم اعتذارهم عن ذلك وتوبتهم منه، وأنه قبل توبة من ندم على ما كان منه لرأفته بهم، ورحمته عليهم، ذكر عقيب ذلك على وجه التوبيخ لهم، والإزرار على ما كانوا فعلوه، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ظَاهِرَهُ خَبِرَ، وَمَعْنَاهُ نَهَى، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ﴾ أَي: مَا كَانَ يَجُوزُ، وَمَا كَانَ يَحِلُّ لِأَهْلِ مَدِينَةِ الرَّسُولِ، وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ سُكَّانِ الْبُوَادِي أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْهُ فِي غَزَاةِ تَبُوكَ وَغَيْرِهَا بِغَيْرِ عَذْرِ. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ مَزِينَةٌ، وَجَهَنَّةٌ، وَأَشْجَعُ، وَغَفَّارُ، وَأَسْلَمُ، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أَي: مَا كَانَ يَجُوزُ لَهُمْ وَلِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ يَطْلُبُوا نَفْعَ نَفْسِهِمْ بِتَوَقُّفِهِمْ عَنْ نَفْعِهِ، وَهَذِهِ فَرِيضَةٌ أَلْزَمَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا، لِحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْهُدَى الَّذِي اهْتَدَوْا بِهِ، وَخَرَجُوا مِنْ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَلَا يَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْخَفْضِ وَالِدَعَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ فِي الْحَرِّ وَالْمَشَقَّةِ. يُقَالُ: رَغِبْتُ بِنَفْسِي عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، أَي تَرَفَعْتُ عَنْهُ، بَلْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَقَايَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ. ﴿ذَلِكَ﴾ أَي ذَلِكَ النَّهْيُ لَهُمْ، وَالزَّجْرُ عَنْ التَّخَلُّفِ ﴿يَأْتَهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ﴾ أَي: عَطَشٌ ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أَي: وَلَا تَعَبٌ فِي أَبْدَانِهِمْ ﴿وَلَا تَحَمُّصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: وَلَا مَجَاعَةٌ، وَهِيَ شِدَّةُ الْجُوعِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﴿وَلَا يَطْعَمُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أَي: لَا يَضَعُونَ أَفْدَانَهُمْ مَوْضِعًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَطَوُّهُمْ إِيَّاهُ، يَعْنِي دَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَغِيظُهُ وَيَغْضِبُهُ أَنْ يَطَأَ غَيْرَهُ مَوْضِعَهُ ﴿وَلَا يَتَأَلَّوْنَ مِنْ عَذَابٍ نِئَالًا﴾ أَي: وَلَا يَصِيبُونَ مِنَ الْمَشْرُكِينَ أَمْرًا، مِنْ قَتْلِ أَوْ جِرَاحَةٍ أَوْ مَالٍ أَوْ أَمْرٍ يَغْمَهُمْ وَيَغِيظُهُمْ ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ يَوْمَ عَمَلٍ صَحْبَحٌ﴾ وَطَاعَةٌ رَفِيعَةٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَي: الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الْأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ، الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا الْمَدْحَ وَالثَوَابَ، وَفِي هَذَا تَحْرِيزٌ عَلَى الْجِهَادِ وَأَعْمَالِ الْخَيْرِ ﴿وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أَي: وَلَا يَنْفَقُونَ فِي الْجِهَادِ وَلَا فِي غَيْرِهِ، مِنْ سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ نَفَقَةً قَلِيلَةً وَلَا كَثِيرَةً، يَرِيدُونَ بِذَلِكَ إِعْزَازَ دِينِ اللَّهِ، وَنَفْعَ الْمُسْلِمِينَ وَالتَّقَرُّبَ بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أَي: وَلَا يَجَاوِزُونَ وَادِيًا ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ﴾ ثَوَابٌ ذَلِكَ ﴿يَجْزِيهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: يَكْتُبُ طَاعَتَهُمْ لِيَجْزِيَهُمْ عَلَيْهَا بِقَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ حَتَّى يَصِيرَ الثَّوَابُ أَحْسَنَ وَأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِمْ. وَقِيلَ: إِنَّ الْأَحْسَنَ مِنْ صِفَةِ فَعْلِهِمْ، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ عَلَى وَجْهِهِ: وَاجِبٌ،

ومندوب، ومباح، وإنما يجازي على الواجب والمندوب دون المباح، فيقع الجزاء على أحسن الأعمال. وقيل: معناه ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون. قال ابن عباس: يرضيهم بالثواب ويدخلهم الجنة بغير حساب. والآيتان تدلان على وجوب الجهاد مع رسول الله ﷺ، وحظر التخلف عنه.

وقد اختلف في ذلك فقيل: المراد بذلك جميع من دعاه النبي ﷺ إلى الجهاد، وهو الصحيح. وقيل: المراد به أهل المدينة ومن حولها من الأعراب.

ثم اختلف فيه من وجه آخر، فقيل: إنه خاص في النبي ﷺ، ليس لأحد أن يتخلف عنه في الجهاد إلا لعذر. فأما غيره من الأئمة فيجوز التخلف عنه، عن قتادة. وقيل: إن ذلك لأول هذه الأمة وآخرها، من المجاهدين في سبيل الله، عن الأوزاعي، وابن المبارك. وقيل: إن هذا كان في ابتداء الإسلام وفي أهله قلة، فأما الآن وقد كثر الإسلام وأهله فإنه منسوخ بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَآفَّةً﴾ الآية، عن ابن زيد، وهذا هو الأقوى، لأنه لا خلاف أن الجهاد من فرض الكفايات، فلو لزم كل أحد لصار من فروض الأعيان.



قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّیَتَفَقَّهُوا فِي الدِّینِ وَلِیُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَتَلِیْلُوا إِلَيْكَ بَلَوْتُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِیَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَءَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ یَقُولُ أَيْتُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ۖ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِیْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥).

● اللغة: التفقه: تعلم الفقه، والفقه: العلم بالشياء. وفي حديث سلمان أنه قال لامرأة: فقهت، أي: علمت وفهمت، فأما فقهت، بضم القاف، فمعناه: صارت فقيهة. وقد اختلف في العرف بعلم الأحكام الشرعية، فيقال لكل عالم بها: فقيه. وقيل: الفقه: فهم المعاني المستنبطة، ولذلك لا يقال: الله سبحانه فقيه. والحدز: تجنب الشيء بما فيه من المضرة. قال الزجاج: غِلْظَةٌ وَغِلْظَةٌ، ثلاث لغات. قال أبو الحسن: قراءة الناس بالكسر وهي العربية. والمراد بالمرض في الآية الشك، فإنه فساد في القلب يحتاج إلى العلاج، كما أن الفساد في البدن يحتاج إلى مداواة، ومرض القلب أعزل، وعلاجه أعسر، ودواءه أعز، وأطباؤه أقل.

● الإعراب: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ بمعنى هلا نفر، وهي للتحضيض إذا دخلت على الفعل، فإذا دخلت على الاسم، فمعناها: امتناع الشيء لأجل وجود غيره ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ أي ليتفقه باقوهم، لأنه إذا نفر طائفة منهم تفقه من بقي منهم، وإن شئت فمعناه: ليتفقه كلهم، لأن من نفر منهم إذا رجع استعلم ممن بقي، فصار كلهم فقهاء ﴿وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال، وكذلك قوله: ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

● **النزول:** قيل: كان رسول الله ﷺ إذا خرج غازياً لم يتخلف عنه إلا المنافقون والمعدرون، فلما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين، وبين نفاقهم في غزوة تبوك، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن غزاة يغزوها رسول الله ﷺ ولا سرية أبداً، فلما أمر رسول الله ﷺ بالسرايا إلى الغزو، نفر المسلمون جميعاً، وتركوا رسول الله ﷺ وحده، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا﴾ الآية، عن ابن عباس في رواية الكلبي. وقيل: إنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً وخصباً، ودعوا مَنْ وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس: وما نراكم إلا وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً، وأقبلوا كلهم من البداية، حتى دخلوا على النبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، عن مجاهد.

● **المعنى:** لما تقدم الترغيب في الجهاد، بأبلغ أسباب الترغيب، وتأنيب من تخلف عنه، بأبلغ أسباب التأنيب، بين في هذه الآية موضع الرخصة، في تأخر من تأخر عنه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَفَّةً﴾ وهذا نفي معناه النهي، أي: ليس للمؤمنين أن يسفروا ويخرجوا إلى الجهاد بأجمعهم، ويتركوا النبي ﷺ فريداً وحيداً. وقيل: معناه ليس عليهم أن يسفروا كلهم من بلادهم إلى النبي ﷺ ليتعلموا الدين ويضيعوا ما وراءهم، ويخلوا ديارهم، عن الجبائي. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أن معناه: فهلا خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعة، وبقي مع النبي ﷺ جماعة، ليتفقهوا في الدين، يعني الفرقة القاعدين، يتعلمون القرآن والسنن والفرائض والأحكام، فإذا رجعت السرايا، وقد نزل بعدهم قرآن، وتعلمه القاعدون، قالوا لهم إذا رجعوا إليهم: إن الله قد أنزل بعدكم على نبيكم قرآنًا وقد تعلمناه. فتعلمه السرايا، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي وليعلموهم القرآن، ويخوفوهم به، إذا رجعوا إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فلا يعملون بخلافه، عن ابن عباس في رواية الوالبي، وقتادة، والضحاك. وقال الباقر (عليه السلام): كان هذا حين كثر الناس، فأمرهم الله أن تنفر منهم طائفة، وتقيم طائفة للتفقه وأن يكون الغزو ثوباً.

وثانيها: إن التفقه والإنذار يرجعان إلى الفرقة النافرة، وحشها الله تعالى على التفقه، لترجع إلى المتخلفة فتحذرهما. ومعنى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ليتبصروا ويتيقنوا، بما يريهم الله من الظهور على المشركين، ونصرة الدين، ولينذروا قومهم من الكفار، إذا رجعوا إليهم من الجهاد. فيخبروهم بنصر الله النبي، والمؤمنين، ويخبروهم أنهم لا يدان لهم بقتال النبي والمؤمنين ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أن يقاتلوا النبي ﷺ، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار، عن الحسن، وأبي مسلم، قال أبو مسلم: اجتمع للنافرة ثواب الجهاد، والتفقه في الدين، وإنذار قومهم.

وثالثها: إن التفقه راجع إلى النافرة، والتقدير: ما كان لجميع المؤمنين أن يسفروا إلى النبي ﷺ ويخلوا ديارهم، ولكن لينفر إليه من كل ناحية طائفة، لتسمع كلامه، وتتعلم الدين

منه، ثم ترجع إلى قومها، فتبين لهم ذلك وتنذرهم، عن الجبائي. قال: والمراد بالنفر هنا: الخروج لطلب العلم، وإنما سمي ذلك نفراً، لما فيه من مجاهدة أعداء الدين. قال القاضي أبو عاصم: وفي هذا دليل على اختصاص الغربة بالتفقه، وأن الإنسان يتفقه في الغربة ما لا يمكنه ذلك في الوطن.

ثم بيّن سبحانه ما يجب تقديمه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي قاتلوا من قرب منكم من الكفار، الأقرب منهم فالأقرب، في النسب والدار. وقال الحسن: كان هذا قبل الأمر بقتال المشركين كافة. وقال غيره: هذا الحكم قائم الآن، لأنه لا ينبغي لأهل كل بلد أن يخرجوا إلى قتال الأبعد، ويدعوا الأقرب والأدنى، لأن ذلك يؤدي إلى الضرر، وربما يمنعهم ذلك عن المضي في وجهتهم، إلا أن يكون بينهم وبين الأقرب موادة، فلا بأس حينئذ بمجاوزة الأقرب إلى الأبعد، على ما يراه المتولي لأمر المسلمين. ولو قال سبحانه: قاتلوا الأبعد فالأبعد، لكان لا يصح، لأنه لا حدّ للأبعد يُبتدأ منه كما للأقرب، وفي هذا دلالة على أنه يجب على أهل كل ثغر الدفاع عن أنفسهم إذا خافوا على بيضة الإسلام، وإن لم يكن هناك إمام عادل.

وقال ابن عباس: أمروا أن يقاتلوا الأدنى فالأدنى من عدوهم، مثل قريضة، والنضير، وخيبر، وفدك. وقال ابن عمر: إنهم الروم لأنهم سكان الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق. وكان الحسن إذا سئل عن قتال الروم والترك والديلم، تلا هذه الآية: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: شجاعة، عن ابن عباس. وقيل: شدة، عن مجاهد. وقيل: صبراً على الجهاد، عن الحسن. والمعنى: وليحسوا منكم بضد اللين، وخلاف الرقة، وهو العنف والشدة ليكون زجراً لهم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك، أي: معينهم وناصرهم، ومن كان الله ناصرهم لم يغلبه أحد، فأما إذا نصره سبحانه بالحجة، فإنه يجوز أن يغلب بالحرب، لضرب من المحنة، وشدة التكليف. ثم عاد الكلام إلى ذكر المنافقين، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ في القرآن ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ على وجه الإنكار، أي: يقول بعضهم لبعض ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِيَ﴾ السورة ﴿إِيمَانًا﴾ وقيل: معناه يقول المنافقون للمؤمنين الذين في إيمانهم ضعف: أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ أي يقيناً وبصيرة. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ معناه: فأما المؤمنون المخلصون فزادتهم تصديقاً بالفرائض، مع إيمانهم بالله، عن ابن عباس. ووجه زيادة الإيمان، أنهم كانوا مؤمنين بما قد نزل من قبل، وآمنوا بما أنزل الآن ﴿وَمَنْ يَسْتَبْشِرْ﴾ أي: يسرون ويبشر بعضهم بعضاً، قد تهللت وجوههم وفرحوا بنزولها ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ﴾ أي: شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: نفاقاً وكفراً إلى نفاقهم وكفرهم، لأنهم يشكون في هذه السورة، كما شكوا فيما تقدمها من السور، فذلك هو الزيادة، وسمي الكفر رجساً على وجه الذم له، وأنه يجب تجنبه كما يجب تجنب الأرجاس، وأضاف الزيادة إلى

السورة لأنهم يزدادون عندها رجساً، ومثله: كفى بالسلامة داءً، وقول الشاعر:

(وحسبك داء أن تصح وتسلما)

﴿وَمَا تَأْوَىٰ لَهُمْ كُفْرُهُمْ﴾ أي: وأداهم شكهم فيما أنزل الله تعالى من السور، إلى أن ماتوا على كفرهم، وأبوا شر مآب.



قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩).

● **القراءة:** قرأ: ﴿أَوَلَا تَرَوْنَ﴾ بالتاء، حمزة، ويعقوب، وهي قراءة أبي. والقراءة المشهورة ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بضم الفاء، وقرأ ابن عباس، وابن علي، وابن محيصن، والزهري: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بفتح الفاء، وقيل: إنها قراءة فاطمة عليها السلام.

● **الحجة:** من قرأ بالتاء، فهو خطاب للمؤمنين. ومن قرأ بالياء، فهو تقرير للمنافقين، بالإعراض عما يجب ألا يعرضوا عنه من التوبة، والإقلاع عما هم عليه من النفاق. ومن قرأ: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بفتح الفاء، فمعناه: من أشرفكم ومن خياركم. يقال: هذا أنفُسُ المتاع، أي: أجوده وخياره، واشتقاقه من النفس، وهي أشرف ما في الإنسان.

● **اللغة:** العزيز: الشديد، والعزیز في صفات الله تعالى معناه: المنيع القادر الذي لا يتعذر عليه فعل ما يريده. والعزة: امتناع الشيء بما يتعذر معه ما يحاول منه، وهو على ثلاثة أوجه: امتناع الشيء بالقدرة، أو بالقلّة، أو بالصعوبة. والعنت: لقاء الشدة، والأذى الذي يضيق به الصدر. وعنت الدابة يعنت عنتاً: إذا حدث في قوائها كسر بعد جبر لا يمكنها معه الجري، فكأنه شق عليها الجري. وأكمة عنت: شاقة المصعد. وحسبي الله: أي: كافي الله، وهو من الحساب، لأنه تعالى يعطي بحسب الكفاية التي تغني عن غيره، ويزيد من نعمه ما لا يبلغ إلى حد ونهاية، إذ نعمه دائمة، ومنه متواترة متظاهرة. والتوكل: تفويض الأمر إلى الله على الثقة، بحسن تدبيره وكفائته.

● **الإعراب:** ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾: الواو للعطف، دخلت عليها همزة الاستفهام. ويحتمل الرؤية أن تكون المتعدية إلى مفعولين، وأن تكون من رؤية العين. فإذا كانت المتعدية إلى

المفعولين يسدُّ أنَّ مسدهما، وإن كانت من رؤية العين يكون أبلغ. ﴿مَا عَشْتُمْ﴾: ما مصدرية، وتقديره: عزيز عليه عنتكم، فهو في موضع رفع بعزیز، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة في موضع الحال، وتقديره: حسبي الله مستحقاً لإخلاص العبادة، والإقرار بالوحدانية. وجرَّ القراء كلهم ﴿العظيم﴾ على أنه صفة العرش، ولو قرئ بالرفع على أن يكون صفة لرب العرش، لجاز.

● **المعنى:** ثم نبّه سبحانه على إعراض المنافقين عن النظر، والتدبر لما ينبغي أن ينظروا ويتدبروا فيه، فقال: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: أولاً يعلم هؤلاء المنافقون. وقيل: معناه أولاً يبصرون ﴿أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ﴾ أي: يمتحنون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ أي: دفعة أو دفعتين بالأمراض والأوجاع، وهي روائد الموت ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ أي: لا يرجعون عن كفرهم ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: لا يتذكرون نعم الله عليهم. وقيل: يمتحنون بالجهاد مع رسول الله ﷺ، وما يرون من نصره الله رسوله، وما ينال أعداؤه من القتل والسبي، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: بالقحط والجوع، عن مجاهد. وقيل: بهتك أستارهم، وما يظهر من خبث سرائرهم، عن مقاتل. وقيل: بالبلاء والجلاء، ومنع القطر وذهاب الثمار، عن الضحاك.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ معناه: وإذا أنزلت سورة من القرآن وهم حضور عند النبي ﷺ، كرهوا ما يسمعون، ونظر بعضهم إلى بعض، نظراً يؤمنون به ﴿هَلْ يَرَىٰكُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ وإنما يفعلون ذلك لأنهم منافقون يحذرون أن يعلم بهم، فكانهم يقول بعضهم لبعض: هل يراكم من أحد؟ ثم يقومون فيصرفون، وإنما يفعلون ذلك، مخافة أن تنزل آية تفضحهم، وكانوا لا يقولون ذلك بألسنتهم، ولكن ينظرون نظر من يقول لغيره ذلك القول، فكانه يقول ذلك. وقيل: معناه أن المنافقين كان ينظر بعضهم إلى بعض نظر تعنت وطعن في القرآن، ثم يقولون: هل يرانا أحد من المسلمين؟ فإذا تحقق لهم أنه لا يراهم أحد من المسلمين بالغوا فيه، وإن علموا أنه يراهم واحد منهم كفوا عنه ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ أي: انصرفوا عن المجلس. وقيل: انصرفوا عن الإيمان به ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الفوائد التي يستفيدونها المؤمنون والسرور بها، وحرّموا الاستبشار بتلك الحال. وقيل: معناه صرف الله قلوبهم عن رحمته وثوابه، عقوبة لهم على انصرافهم عن الإيمان بالقرآن، وعن مجلس النبي ﷺ. وقيل: إنه على وجه الدعاء عليهم، أي خذلهم الله باستحقاقهم ذلك، ودعاء الله على عباده وعيد لهم، وإخبار بلحاق العذاب بهم، عن أبي مسلم ﴿يَأْتِيَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: ذلك بسبب أنهم لا يفقهون مراد الله بخطابه، لأنهم لا ينظرون فيه.

ثم خاطب الله سبحانه جميع الخلق، وأكد خطابه بالقسم، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ عنى بالرسول محمداً ﷺ، أي: جاءكم رسول من جنسكم من البشر، ثم من العرب، ثم من بني إسماعيل، عن السدي. وقيل: إن الخطاب للعرب، وليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ، وله فيهم نسب، عن ابن عباس. وقيل: معناه أنه من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، عن الصادق عليه السلام. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال:

سورة التوبة

ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام. وإنما من الله عليهم بكونه منهم، لأنهم إذا عرفوا مولده ومنشأه، وشاهدوه صغيراً وكبيراً، وعرفوا حاله في صدقه وأمانته، ولم يعثروا على شيء يوجب نقصاً فيه، فبالحري أن يكونوا أقرب إلى القبول منه، والانقياد له.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ معناه: شديد عليه عنتكم، أي ما يلحقكم من الضرر، بترك الإيمان. وقيل معناه: شديد عليه ما أئتمتم، عن الكلبي، والضحاك. وقيل: ما أغنتكم وضرركم، عن القتيبي. وقيل: ما هلكتم عليه عن ابن الأنباري ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: حريص على من لم يؤمن أن يؤمن، عن الحسن، وقتادة.

﴿يَا الْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قيل: هما واحد، والرفاة شدة الرحمة. وقيل: رؤوف بالمطيعين منهم، رحيم بالمذنبين. وقيل: رؤوف بأقربائه، رحيم بأوليائه، رؤوف لمن رآه، رحيم بمن لم يره. وقال بعض السلف: لم يجمع الله سبحانه لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا للنبي ﷺ، فإنه قال: بالمؤمنين رؤوف رحيم، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي ذهبوا عن الحق واتباع الرسول، وما يأمرهم به، وأعرضوا عن قبوله. وقيل: معناه فإن تولوا عنك وعن الإقرار بنبوتك.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: كافي الله، فإنه القادر على كل شيء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وبه وثقت، وعليه اعتمدت، وأموري إليه فوضت ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ خص العرش بالذكر تفخيماً لشأنه، ولأنه إذا كان رب العرش مع عظمه، كان رب ما دونه من العظم. وقيل: إن العرش عبارة عن الملك والسلطان، فمعناه: رب الملك العظيم في السموات والأرض، عن أبي مسلم. وقيل: إن هذه الآية آخر آية نزلت من السماء، وآخر سورة كاملة نزلت سورة البراءة. وقال قتادة: آخر القرآن عهداً بالسماء هاتان الآيتان: خاتمة براءة.

سُورَةُ يُونُسَ

هي مكية في قول الأكثرين، وروي عن ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة. ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى آخرهن. وقال ابن المبارك: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ الآية، فإنها نزلت في اليهود بالمدينة.

● **عدد آياتها:** مائة وتسع آيات عند الجميع، غير الشامي فإنه يقول: وعشر آيات. اختلافها: ثلاث آيات: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾. ﴿وَشَفَاءً لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ شامي ﴿مَنْ الشَّاكِرِينَ﴾ غير الشامي.

● **فضلها:** أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعدد من غرق مع فرعون، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال من قرأ سورة يونس في كل شهرين أو ثلاثة، لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين، وكان يوم القيامة من المقربين.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سورة البراءة بذكر الرسول، افتتح هذه السورة بذكره، وما أنزل عليه من القرآن، فقال:

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ .

● **القراءة:** ﴿الرَّ﴾ بإمالة الراء: أبو عمرو، وأهل الكوفة، غير عاصم، إلا يحيى^(١)، وقرأ الباقون: بالتفخيم. وقرأ ﴿لَسِحْرٌ﴾ بالالف: ابن كثير، وأهل الكوفة، وقرأ الباقون: ﴿لَسِحْرٌ﴾ بكسر السين وبغير ألف.

● **الحجة:** قال أبو علي: من أمال فقال رايا، فلأنها أسماء لما تلفظ بها، من الأصوات المنقطعة في مخارج الحروف، كما أن غاق اسم للصوت، الذي يصوته الغراب، فجازت الإمالة فيها من حيث كان اسماً، ولم تكن كالحروف التي يمتنع فيها الإمالة، نحو: ما، ولا، وما أشبههما من الحروف.

فإن قلت: إن الأسماء لا تكون على حرفين، أحدهما حرف لين، وإنما يكون على هذه الصفة الحروف، نحو: ما، ولا، فالقول: أن هذه الأسماء لا يمتنع أن تكون على حرفين، أحدهما حرف لين، لأن التنوين لا يلحقها، فيؤمن، لامتناع التنوين من اللحاق بها، أن تبقى على حرف واحد، فإذا أمن ذلك لم يمتنع أن يكون الاسم على حرفين، أحدهما حرف لين، ألا ترى أنهم قد قالوا: هذا شاة، فجاء على حرفين، أحدهما حرف لين، لما أمن لحاق التنوين

(١) أي إلا في رواية يحيى عن عاصم، فإن في روايته عنه أمال أيضاً بخلاف رواية غيره عن عاصم.

له، لاتصال علامة التأنيث به، وكذلك قوله: رأيت رجلاً ذا مال، لاتصال المضاف إليه به، وكذلك قولهم: كسرت فازيد.

قال: ويدل على قول من قال: ﴿لَسِحْرٌ﴾ قوله سبحانه: ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ ويدل على ﴿سِحْرٍ﴾ قوله: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ وقد تقدم قوله: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ فمن قرأ ﴿سِحْرٍ﴾ أراد الرجل، ومن قرأ ﴿سِحْرٌ﴾ أراد: الذي أوجي سحر.

● اللغة: الآية: العلامة التي تنبئ عن مقطع الكلام من جهة مخصوصة، والقرآن: مفصل بالآيات، مضمن بالحكم النافية للشبهات ﴿الْحَكِيمِ﴾ ههنا بمعنى المحكم، فاعيل بمعنى مفعول، قال الأعشى:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة قد قلثها ليُقال: مَنْ ذا قالها^(١)
وأشد أبو عبيدة لأبي ذؤيب:

يُوَاعِدُنِي عُكَاظٌ لِنَنْزِلِنِهِ وَلَمْ يُشْعَرْ إِذَا أَنِّي خَلِيفُ^(٢)

أي: مخلف من أخلفته الوعد. وقيل: هو بمعنى الحاكم، ودليله قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قال الأزهري: القَدَمُ: الشيء الذي تُقدمه قدامك، ليكون عدة لك حتى تُقدم عليه. وقيل: القَدَمُ المقدم، كالنقض والقبض، قال ابن الأعرابي: القَدَمُ المتقدم في الشرف، وقال العجاج:

ذَلْ بَنُو الْعَوَّامِ عَنْ آلِ الْحَكَمِ وَتَرَكُوا الْمُلْكَ لِمُلْكِ ذِي قَدَمٍ

وقال الأزهري: فلان يمشي اليَقْدُمِيَّةَ والتَقْدُمِيَّةَ، إذا تقدم في الشرف. وقال أبو عبيدة، والكسائي: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قَدَمٌ ويقال: لفلان قدم في الإسلام، وهو مؤنث، يقال: قدم حسنة. قال حسان:

لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ، وَخَلَقْنَا لِأَوْلِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ^(٣)
وقال ذو الرمة:

لكم قَدَمٌ لَا يَنْكُرُ النَّاسُ أَنَّهَا مَعَ الْحَسَبِ الْعَادِي طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ^(٤)

● الإعراب: أضيفت ﴿ءَايَتٌ﴾ إلى ﴿الْكِتَابِ﴾ لأنها أبعاد الكتاب، كما أن سوره أبعاضه و ﴿أَن أَوْحَيْنَا﴾ في موضع رفع بأنه اسم كان و ﴿عَجَبًا﴾ خبره. واللام في قوله: ﴿النَّاسِ﴾، يتعلق بمحذوف، كان صفة لعجب، فلما تقدم صار حالاً، كقوله:

«لعزة موحشاً طلل قديم»

(١) يعني قصيدة غريبة محكمة.

(٢) وفي اللسان «ترا عدنا الريق * لننزله ولم تشعرا».

(٣) وفي ديوانه «لنا القدم الأولى» ولعله الظاهر.

(٤) العادي: الشيء القديم تنسب إلى عاد. وطم الماء كثر وغلب.

وإن شئت كان ظرفاً لكان، و ﴿أَنْ أُنْذِرَ﴾ في موضع نصب، تقديره: أوحينا بأن أنذر، فحذف الجار، فوصل الفعل ﴿أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ كذلك موضعه نصب بقوله: ﴿وَيُشِيرُ﴾، ولو قرئ: إن لهم، بالكسر، لكان جائزاً، لأن البشارة في معنى القول، إلا أنه لم يقرأ به، وأضيف ﴿قَدَمٌ﴾ إلى ﴿صِدْقٍ﴾ كما يقال: مسجد الجامع.

● المعنى: قد مضى الكلام في معاني الحروف المعجمة، المذكورة في أوائل السور من قبل ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ معناه: إن الآيات التي جرى ذكرها، أو الآيات التي أنزلت على محمد ﷺ، هي آيات القرآن المحكم من الباطل، الممنوع من الفساد، لا كذب فيه ولا اختلاف.

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه السور آيات الكتاب الحكيم، أي: اللوح المحفوظ، وسماه محكماً لأنه ناطق بالحكمة.

وقيل: لأنه جمع العلوم والحكمة.

وقيل: إنما وصف الكتاب بالحكيم لأنه دليل على الحق، كالناطق بالحكمة، ولأنه يؤدي إلى المعرفة التي تميز بها طريق الهلاك من طريق النجاة ﴿أَكَاَنَّ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ هذه ألف استفهام المراد به الإنكار. وقيل: إن المراد بالناس هنا أهل مكة، قالوا: نعجب أن الله سبحانه لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، والتقدير: أكان إيحائنا إلى رجل من الناس بأن ينذرهم عجباً؟ ومعناه: لماذا تعجبون أن أوحينا إلى رجل منهم؟ وليس هذا موضع التعجب، بل هو الذي كان يجب فعله عند كل العقلاء، فإن الله تعالى لما أكمل لعباده عقولهم، وكلفهم معرفته، وأداء شكره، وعلم أنهم لا يصلحون ولا يقومون بذلك إلا بداع يدعوهم إليه، ومنبه ينبههم عليه، وجب في الحكمة أن يفعل ذلك. ثم بين سبحانه الوجه الذي لأجله بعث، وما الذي أوحى إليه، فقال: ﴿أَنْ أُنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي: أخبرهم بالعذاب وخوفهم به ﴿وَيُشِيرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عرفهم ما فيه الشرف والخلود في نعيم الجنة، على وجه الإكرام والإجلال، لصالح الأعمال. وقيل: ﴿أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ أي: أجراً حسناً، ومنزلة رفيعة، بما قدموا من أعمالهم، عن ابن عباس. وروي عنه أيضاً: أن المعنى سبقت لهم السعادة في الذكر الأول، ويؤيده قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ الآية. وقيل: هو تقديم الله تعالى إياهم في البعث يوم القيامة، بيانه قوله عليه الصلاة والسلام: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة. وقيل: إن القدم اسم للحسنى من العبد. واليد اسم للحسنى من السيد، للفرق بين السيد والعبد. وقيل: إن معنى قدم صدق: شفاعة محمد ﷺ لهم يوم القيامة، عن أبي سعيد الخدري، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام. ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّا هَذَا كَسْبٌ مُبِينٌ﴾ يعنون النبي، أي قالوا: هذا ساحر مظهر للسحر وما أتى به سحر بين، على اختلاف القراءتين، والسحر فعل يخفي وجه الحيلة فيه، حتى يتوهم أنه معجز، وهذا يدل على عجزهم عن معارضة القرآن، ولذلك عدلوا إلى وصفه بالسحر.

سورة يونس

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر المدني: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ﴾ بفتح الهمزة، وهو قراءة الأعمش، والباقون بكسرها.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿إِنَّهُ﴾ فتقديره؛ وعد الله حقاً، لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده، أي: من قدر على هذا الأمر العظيم فإنه غني عن إخلاف الوعد، وإن شئت كان تقديره: وعد الله وعداً حقاً أنه يبدأ الخلق، فيكون في محل نصب بالفعل الناصب لقوله: ﴿وَعَدَ﴾ قال ابن جني: ولا يجوز أن يكون ﴿إِنَّهُ﴾ منصوبة الموضع بنفس ﴿وَعَدَ﴾ لأنه قد وصف بقوله: ﴿حَقًّا﴾ والصفة إذا جرت على موصوفها أذنت بتمامه، وانقضاء أجرائه، ولا يكون تاماً إذا كان ما بعد الصفة من صلته. فأما قول الحطية:

أَزَمَعْتُ يَأْساً مُبِيناً مِنْ نَوَالِكُمْ (١) ولن ترى طارداً للحر كاللياس

فإن قوله: من نوالكم، ليس من صلة يأس، بل يتعلق بفعل يدل عليه قوله: يأساً مبيناً، فكأنه قال فيما بعد: يئست من نوالكم، وقال الفراء: من فتح جعله مفعول ﴿حَقًّا﴾ كما في قول الشاعر:

أَحَقًّا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ زَائِراً بُشِينَةً، أَوْ يَلْقَى الثَّرِيّاً رَقِيبُهَا (٢)

● **اللغة:** القِسط: العدل، ومنه: القسط: النصيب، والقسط بفتح القاف: الجور، والقسط بفتح القاف والسين: اعوجاج في الرجلين. ﴿وَالْحَمِيمُ﴾ الماء الذي أسخن بالنار أشد إسخان، قال المرقش الأصغر:

فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهَا مِقْطَرَةٌ فِيهَا كِبَاءٌ مُعَدٌّ، وَحَمِيمٌ (٣)

● **الإعراب:** ﴿جَمِيعًا﴾: نصب على الحال. ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾: منصوب على المصدر، لأن قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ معناه: الوعد بالرجوع و﴿حَقًّا﴾: منصوب على أحق ذلك حقاً، عن الزجاج، وأضيف المصدر في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ إلى الفاعل لما لم يذكر الفعل، كما في قول كعب بن زهير:

(١) أزمع الأمر: ثبت عليه. والنوال: العطاء.

(٢) رقيب الثريا من النجوم: الإكليل، فإذا طلعت الثريا عشاء غاب الإكليل، وبالعكس. ورقيب النجم: الذي يغيب بطلوعه. وبشينة: اسم امرأة.

(٣) الكباء: ضرب من العود الذي يتبخر به. وفي اللسان كبا «كل عشاء لها مقطرة * ذات كباء معد وحميم».

تسعى الوشاة جنابيتها^(١)، وقيلهم إنيك يا ابن أبي سلمى لمقتول

أي: ويقولون قيلهم.

● **المعنى:** ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ﴾ أي: خالقكم ومنشئكم، ومالك تدبيركم وتصريفكم من أمره ونهيه، والذي يجب عليكم عبادته ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: اخترعهما وأنشأهما، على ما فيهما من عجائب الصنعة، وبدائع الحكمة ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بلا زيادة ونقصان، مع قدرته على إنشائهما دفعة واحدة، والوجه فيه: أن في ذلك مصلحة للملائكة، وعبرة لهم ولغيرهم، إذا أخبروا عن ذلك، وكذلك تصريف الإنسان حالاً بعد حال، وإخراج الثمار والأزهار شيئاً بعد شيء، مع قدرته على ذلك في أقل من لمح البصر، لأن ذلك أبعد من توهم الاتفاق فيه.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ مر تفسيره في سورة الأعراف.

وقيل: إن العرش المذكور هنا هو السموات والأرض، لأنهن من بنائه، والعرش: البناء. وأما العرش المعظم الذي تعبد الله سبحانه الملائكة بالحفوف به، والإعظام له، وعناه بقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ فهو غير هذا. وقيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ هنا بمعنى الواو، وقيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ دخل على التدبير، وتقديره: أي: ثم استوى عليه، بإنشاء التدبير من جهته، كما يستوي الملك على سرير ملكه بالاستيلاء على تدبيره، فإن تدبير الأمور كلها ينزل من عند العرش، ولهذا ترفع الأيدي في دعاء الحوائج نحو العرش.

﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يقدره وينفذه على وجهه، ويرتبه على مراتبه، على إحكام عواقبه، وهو مأخوذ من الدبور ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَهُ﴾ إنما قال هذا وإن لم يجر ذكر للشفعاء، لأن الكفار كانوا يقولون: الأصنام شفعاؤنا عند الله، فبين سبحانه أن الشفيع إنما يشفع عنده إذا أذن له في الشفاعة، وإذا كانت الأصنام لا تعقل، فكيف تكون شافعة مع أنه لا يشفع عنده أحد من الملائكة والنبين إلا بإذنه وأمره ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: إن الموصوف بهذه الصفات هو إلهكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده، لأنه لا إله لكم سواه، ولا يستحق هذه الصفات غيره، ولا تعبدوا الأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ حثهم سبحانه على التذكر والتفكير فيما أخبرهم به، وعلى تعرف صحته ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ المرجع يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون بمعنى المصدر الذي هو الرجوع.

والآخر: أن يكون بمعنى موضع الرجوع، أي: إليه موضع رجوعكم يكون إذا شاء.

﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: وعد الله تعالى ذلك عباده، وعداً حقاً صدقاً ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: يبتدىء الخلق ابتداءً، ثم يعيدهم بعد موتهم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ليؤتيهم جزاء أعمالهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئاً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) قيل يعني حوالى المعشوقة.

لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿١٠﴾ أي: ماء حار، قد انتهى حره في النار ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجيع ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: جزاء على كفرهم.

● **النظم:** وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه قال: ﴿أَكَاَنَّ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ قالوا: وكيف لا نعجب ولا علم لنا بالمرسل؟ فقال: ﴿إِنِّي رَبِّكُمْ اللَّهُ﴾ ويجوز أن يكون على أنه لما قال: أكان للناس عجباً؟ وكان هذا حكماً على الله سبحانه، فكأنه قال: أفتحكمون عليه وهو ربكم. قال الأصم: ويحتمل أن يكون هذا ابتداء خطاب للخلق جميعاً، احتج الله بها على عباده، بما بين من بدائع صنعه في السموات والأرض وفي أنفسهم.



قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾
إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة، وابن كثير، وحفص، والعجلي: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالياء، والباقون: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالنون.

● **الحجة:** من قرأ بالياء، فلأنه تقدم ذكر الله سبحانه، فأضمره في الفعل، ومن قرأ بالنون، فمثل قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا﴾.

● **اللغة:** الجعل: إيجاد ما به يكون الشيء على صفة لم يكن عليها. والضياء: يجوز أن يكون جمع ضوء، كسوط وسياط، وحوض وحياض، ويجوز أن يكون مصدر ضاء بضوء ضياء وضوءاً، مثل: عاذ يعوذ عياداً وعوذاً، وقام يقوم قياماً، وعلى أي الوجهين كان فالمضاف محذوف، وتقديره: جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور ويكون جعل النور والضياء لكثرة ذلك فيهما. والاختلاف: ذهب كل واحد من الشيتين في غير جهة الآخر، فاختلاف الليل والنهار ذهب أحدهما في جهة الضياء، والآخر في جهة الظلام. والليل: عبارة عن وقت غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني. وليل وليلة مثل تمر وتمرّة. والنهار: عبارة عن اتساع الضياء من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس. والنهار واليوم بمعنى واحد، إلا أن في النهار فائدة اتساع الضياء.

● **المعنى:** ثم زاد سبحانه في الاحتجاج للتوحيد، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ بالنهار ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ بالليل، والضياء أبلغ في كشف الظلمات من النور، وفيه صفة زائدة على النور ﴿وَقَدَرُ مَنَازِلَ﴾ أي: وقدّر القمر منازل معلومة ﴿لِّتَعْلَمُوا﴾ به وبمنازله ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ وأول الشهر وآخره، وانقضاء كل سنة وكميتها، وجعل الشمس والقمر آيتين من آيات الله تعالى، وفيهما أعظم الدلالة على وحدانيته تعالى من وجوه كثيرة، منها: خلقهما وخلق الضياء والنور فيهما، ودورانهما، وقربهما، وبعدهما، ومشارقهما، ومغاربهما،

وكسوفهما، وفي بث الشمس الشعاع في العالم، وتأثيرها في الحر والبرد، وإخراج النبات وطبخ الثمار، وفي تمام القمر وسط الشهر، ونقصانه في الطرفين، ليطمئز أول الشهر وآخره من الوسط، كل واحد من ذلك نعمة عظيمة من الله سبحانه على خلقه، ولذلك قال: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لأن في ذلك منافع للخلق في دينهم ودنياهم، ودلائل على وحدانية الله وقدرته، وكونه عالماً لم يزل ولا يزال. ﴿تَقْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نشرحها ونبينها آية آية ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيعطون كل آية حظها من التأمل والتدبر.

وقيل: إن المعنى في قوله: ﴿وَقَدَّرُوا مَنَازِلَ﴾ الثنية، أي: قدر الشمس والقمر منازل، غير أنه وحده للإيجاز، اكتفاء بالمعلوم، كما مر ذكر أمثاله فيما تقدم، وكما في قول الشاعر:

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ، وَوَالِدِي بَرِيئاً، وَمِنْ حَوْلِ الطُّوِيِّ رَمَانِي^(١)

فإن الشمس تقطع المنازل في كل سنة، والقمر يقطعها في كل شهر، وإنما يتم الحساب، وتعلم الشهور والسنون، والشتاء والصيف بمقاديرهما، ومجاريهما في تدويرهما.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: فعله فيهما على ما تقتضيه الحكمة في السماوات، من الأفلاك والكواكب السيارة وغير السيارة، وفي الأرض من الحيوان، والنبات، والجماد، وأنواع الأرزاق والنعم ﴿لَا تَسْتَبْطِئُ﴾ أي: حججاً ودلالات على وحدانية الله ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ معاصي الله، ويخافون عقابه، وخصهم بالذكر لاختصاصهم بالانتفاع بها.



قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرُجُ دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠).

● القراءة: في الشواذ، قراءة ابن محيصن، ويعقوب: ﴿إن الحمد لله﴾.

● الحجة: وهذه القراءة تدل على أن قراءة الجماعة: ﴿إن الحمد لله﴾ إنما هو على أن ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، كما في قوله:

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى، وينتعل
فيكون على تقدير أنه الحمد لله، ولا يجوز أن تكون ﴿أن﴾ هنا زائدة، كما زيدت في

قوله:

(١) الشعر في جامع الشواهد وقد مر في ج ١: بمعناه أيضاً.

ويوماً تُوافينا بوجهٍ مقسّمٍ كأن ظبيةً تعطو إلى وارق السّلم^(١)

● **اللغة:** الغفلة والسهو من النظائر، وهو ذهاب المعنى عن النفس، ونقيضه اليقظة. والدعوى: قول يُدعى به إلى أمر. والتحية: التكرمة بالحال الجليّة، ولذلك يسمون المُلك: التحية، قال:

من كل ما نال الفتى قد نلتَه إلا التحية^(٢)

وهو مأخوذ من قولهم: أحياك الله حياة طيبة.

● **المعنى:** ثم إنه سبحانه أوعد الغافلين عن الأدلة المتقدمة، المكذبين بالمعاد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لقاء جزائنا، ومعناه: لا يطمعون في ثوابنا، وأضافه إلى نفسه تعظيماً له، ويحتمل أن يكون المعنى: لا يخافون عقابه، كما يكون الرجاء بمعنى الخوف، كما في قول الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت ثوب عواسل^(٣)

جعل سبحانه ملاقة ما لا يقدر عليه إلا هو، ملاقة له، كما جعل إتيان ملائكته إتياناً له في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ تفخيماً للأمر ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: متعوا بها، واختاروها، فلا يعملون إلا لها، ولا يجتهدون إلا لأجلها مع سرعة فنائها، ولا يرجون ما وراءها ﴿وَأَطَاعُوا أَمْرًا﴾ أي: وسكنوا إلى الدنيا بأنفسهم، وركنوا إليها بقلوبهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ أي: ذاهبون عن تأملها، فلا يعتبرون بها ﴿أُولَئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ﴾ أي: مستقرهم النار ﴿وَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي.

ثم وعد سبحانه المؤمنين بعدما أوعد الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدّقوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: وأضافوا إلى ذلك الأعمال الصالحة ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ إلى الجنة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي: تجري بين أيديهم الأنهار، وهم يرونها من علو، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ رَبّاً سَرِيّاً﴾ ومعلوم أنه لم يجعل السري الذي هو الجدول تحتها، وهي قاعدة عليه، وإنما أراد أنه جعله بين يديها.

وقيل: معناه من تحت بساتينهم، وأسبرتهم، وقصورهم، عن الجبائي.

(١) قائله باعث بن صريم الشكري، وقيل هو لكعب بن أرقم الشكري. يصف امرأة حسنة الوجه، فشبّهها بظبية مخصبة. والمقسم: بمعنى المحسن. ويقال: رجل مقسم الوجه أي: جميل كله. والعاطية: التي تتناول أطراف الشجر مرتعية. والوارق: المورق. والسلم: شجر.

(٢) قائله زهير بن جناب الكلبي، وقبلة: «وتركتكم أولاد سادات زنادكم ورية» وفي الشعر كلام طويل، ذكره في (اللسان) في مادة «حيا» فراجع.

(٣) لم يرج أي: لم يخف، ولم يبال. وخالفها أي: دخل عليها وأخذ عسلها. ويروى فحالفها بالمهملة. وهو بمعنى لزمها. والنوب: النحل وقد مرّ ج ٢ أيضاً.

وقوله: ﴿يَا يَسْرُورُ﴾ يعني به جزاء على إيمانهم ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا﴾ أي: دعاء المؤمنين في الجنة وذكرهم فيها، أن يقولوا ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ يقولون ذلك لا على وجه العبادة، لأنه ليس هناك تكليف، بل يلتذون بالتسبيح.

وقيل: إنهم إذا مرَّ بهم الطير في الهواء يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم، فيأتيهم الطير فيقع مشوياً بين أيديهم، وإذا قضا منه الشهوة، قالوا: الحمد لله رب العالمين، فيطير الطير حياً كما كان. فيكون مفتتح كلامهم في كل شيء التسبيح، ومختتم كلامهم التحميد، فيكون التسبيح في الجنة بدل التسمية في الدنيا، عن ابن جريج ﴿وَقَرَّبَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: تحيتهم من الله سبحانه في الجنة سلام.

وقيل معناه: تحية بعضهم لبعض فيها، أو تحية الملائكة لهم فيها، يقولون: سلام عليكم، أي: سلمتم من الآفات والمكاره التي ابتلي بها أهل النار. وقد ذكرنا معنى قوله: ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَاهُمْ إِلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وليس المراد أن ذلك يكون آخر كلامهم، حتى لا يتكلموا بعده بشيء، بل المراد أنهم يجعلون هذا آخر كلامهم في كل ما ذكروه، عن الحسن، والجبائي.



قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢).

● القراءة: قرأ ابن عامر، ويعقوب: ﴿لَفُضِيَ﴾ بفتح القاف ﴿أَجْلَهُمْ﴾ منصوب، والباقون: ﴿لَفُضِيَ﴾ على ما لم يسم فاعله ﴿أَجْلَهُمْ﴾ بالرفع.

● الحجة: قال أبو علي: اللام في قوله: ﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ﴾ جواب ﴿لو﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ والمعنى، والله أعلم،: ولو يعجل الله للناس دعاء الشر، أي: ما يدعون به من الشر على أنفسهم في حال ضجر أو بطر، استعجاله إياهم بدعاء الخير، فأضاف المصدر إلى المفعول فحذف الفاعل، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ في حذف ضمير الفاعل، والتقدير: ولو يعجل الله للناس الشر استعجالاً مثل استعجالهم بالخير، لقضي إليهم أجلهم. قال أبو عبيدة: لقضي إليهم أجلهم، معناه: لفرغ من أجلهم، وأنشد لأبي ذؤيب:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ، أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تَبَعُ^(١)

ومثل ما أنشده قول الآخر:

(١) وفي اللسان مادة تبع: «وعليهما ماذيتان قضاهما».

قَضَيْتَ أَمْوَرًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِقُ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفْتَقِ (١)

والمعنى: لفرغ من أجلهم ومدتهم المضروبة للحياة. وإذا انتهت مدتهم المضروبة للحياة هلكوا، وهذا قريب من قوله: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. وقالوا للميت: مُقْضَى، كأنه قُضِيَ إذا مات، وقُضِيَ فَعَلَ. التقدير: استوفى أجله وفرغ منه، قال ذو الرمة:

إذا الشَّخْصُ فِيهَا هَزَّهُ الْآلُ، أَغْمَضَتْ عَلَيْهِ كِإِغْمَاضِ الْمُقْضَى هُجُولُهَا (٢)

المعنى: أغمضت هجول هذه البلاد على الشخص الذي فيها، فلم يُرَ لفرقه في الآل، كإغماض المقضى وهو الميت، وأما ما يتعلق به الجار من قوله: ﴿لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ فكانه لما كان معنى قضى فرغ، وكان قولهم: فرغ يتعدى بهذا الحرف في قوله:

أَلَا نَقَدْ فَرَّغْتَ إِلَى نُمَيْرٍ فَهَذَا حِينَ صَرْتُ لَهُمْ عَذَابًا

وفي التنزيل: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَيْنِ﴾ أمكن أن يكون الفعل يعدى باللام، كما يعدى بإلى وباللام في قوله: ﴿بِأَنَّ رَيْكَ أَوْحَى لَهَا﴾ فلما كان معنى قضى فرغ، تعلق بها إلى كذلك تعلق بقضى.

وجه قراءة ابن عامر: ﴿لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ على إسناد الفعل إلى الفاعل، أن الذكر قد تقدم في قوله: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ فقال: لقضى على هذا، ومن حجته في ذلك قوله ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فهذا الأجل الذي في هذه الآية، هو الأجل المضروب للمحيا، كما أن الأجل في قوله: ﴿لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ كذلك، فكما أسند الفعل في الأجل المضروب للحياة إلى الفاعل في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ عند الجميع، كذلك أسنده ابن عامر في قوله: ﴿لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ إلى الفاعل، ولم يسنده إلى الفعل المبني للمفعول، ويدل على أن الأجل في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ أجل المحيا أن قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أجل البعث، يبين ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي: أنتم أيها المشركون تشكون في البعث.

ومن قرأ: لقضي، فبنى الفعل للمفعول به، فلأنه في المعنى مثل قول من بنى الفعل للفاعل.

● الإعراب: قوله: ﴿لِجَنبِهِ﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: دعانا منبطحاً لجنبه، أو دعانا قائماً، ويجوز أن يكون تقديره: إذا مسَّ الإنسان الضر لجنبه، أو مسَّه قاعداً، أو مسَّه قائماً، دعانا، وموضع الكاف من ﴿كَذَلِكَ﴾ نصب على مفعول ما لم يسم فاعله، أي زينٌ للمسرفين عملهم مثل ذلك.

● المعنى: ثم عاد الكلام إلى ذكر المائلين إلى الدنيا، المطمئنين إليها، الغافلين عن الآخرة، فقال: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ أي: إجابة دعوتهم في الشر، إذا دعوا به على

(١) غادره: تركه. والبوائق جمع الباققة. الداهية. وفي اللسان «موانج» وهو معناه أيضاً. والأكمام جمع الكم - بالكسر

- وعاء الطلع، وغطاء النور. وبالفارسية «غلاف شكوفه».

(٢) الآل: السراب. والهجول جمع الهجل: المطمئن من الأرض.

أنفسهم وأهاليهم، عند الغيظ والضجر، واستعجلوه، مثل قول الإنسان: رفعني الله من بينكم، وقوله لولده: اللهم العنه ولا تبارك فيه. ﴿أَسْتَعْجِلُهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي: كما يعجل لهم إجابة الدعوة بالخير إذا استعجلوها ﴿لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ﴾ أي: لفرغ من إهلاكهم، ولكن الله تعالى لا يعجل لهم الهلاك، بل يمهلهم حتى يتوبوا، وقيل: معناه ولو يعجل الله للناس العقاب الذي استحقوه بالمعاصي، كما يستعجلون هم خير الدنيا، وربما أجيئوا إلى ما سألوه إذا اقتضت المصلحة ذلك، لَفَتُوا، لأن بنية الإنسان في الدنيا لا تحتل عقاب الآخرة، بل لا تحتل ما دونه، والله سبحانه يوصله إليهم في وقته. وسمي العقاب شراً من جهة المشقة والأذى الذي فيه، وفائدته: أنه لو تعجلت العقاب لزال التكليف، ولا يزول التكليف إلا بالموت، وإذا عولجوا بالموت لم يبق أحد.

﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: فندع الذين لا يخافون البعث والحساب يتحIRON في كفرهم، وعدولهم عن الحق إلى الباطل، وتمردهم في الظلم. والعمه: شدة الحيرة. ثم أخبر سبحانه عن قلة صبر الإنسان على الضرر والشدائد، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ أي: المشقة والبلاء، والمحنة من محن الدنيا ﴿دَعَاكَ لِجُنُبِهِ﴾ أي: دعانا لكشفه مضطجعاً ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي: على أي حال كان عليها، واجتهد في الدعاء وسؤال العافية، وليس غرضه بذلك نيل ثواب الآخرة، وإنما غرضه زوال ما هو فيه من الألم والشدة. وقيل: إن تقديره: وإذا مس الإنسان الضر مضطجعاً، أو قاعداً، أو قائماً، دعانا لكشفه، وفيه تقديم وتأخير.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ أي: فلما أزلنا عنه ذلك الضرر، ووهبنا له العافية ﴿مَرَّ﴾ أي: استمر على طريقته الأولى، معرضاً عن شكرنا ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ أي: كأن لم يدعنا قط لكشف ضره، ولم يسألنا إزالة الألم عنه ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: كما زين لهم الشيطان وأقرانهم الغواية ترك الدعاء عند الرخاء، زين للمسرفين، أي للمشركين عملهم، عن الحسن. ويحتمل أن يكون زين المسرفون بعضهم لبعض، وإن لم يصف التزيين إليهم، فهو كقولهم: فلان معجب بنفسه.

وقد حث الله سبحانه بهذه الآية الذين منحوا الرخاء بعد الشدة، والعافية بعد البلية على أن يتذكروا حسن صنع الله إليهم، وجزيل نعمته عليهم، ويشكروه على ذلك، ويسألوه إدامة ذلك لديهم، ونبه بذلك على وجوب الصبر عند المحنة، احتساباً للأجر، وابتغاء للثواب والذخر.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

● اللغة: القرون: جمع قرن، وهو أهل كل عصر، سموا بذلك لمقارنة بعضهم لبعض، ومنه: قرن الشاة لمقارنته آخر يازاته. والقرن بكسر القاف: هو المقاوم لقرينه في الشدة.

● **الإعراب:** موضع ﴿كَيْفَ﴾ نصب بقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وتقديره: لننظر أخيراً تعملون أم شراً؟ ولا يجوز أن يكون معمول ﴿ننظر﴾، لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيما بعده.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عما نزل بالأمم الماضية من المثالات، وحذر هذه الأمة عن مثل مصارعهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ بأنواع العذاب ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بأن أشركوا وعصوا ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة، والدلالات الواضحة. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ هذا إخبار بأن هذه الأمم إنما أهلكوا لما كانوا في المعلوم أنهم لو بقوا لم يكونوا يؤمنون بالرسول الذين أتوهم، والكتب التي جاءوهم بها، واستدل أبو علي الجبائي بهذا على أن تيقية الكافر واجبة، إذا كان المعلوم من حاله أنه يؤمن فيما بعد ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كذلك نعذب القوم المشركين في المستقبل، إذا لم يؤمنوا بعد قيام الحجة عليهم، وعلمنا أنهم لا يؤمنون ولا يصلحون.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ يا أمة محمد ﴿خَلْقًا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد القرون التي أهلكناها، ومعناه: أسكناكم الأرض خلفهم ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لنرى عملكم، أين يقع من عمل أولئك؟ أتقتدون بهم فتستحقون من العقاب مثل ما استحقوه، أم تؤمنون فتستحقون الثواب؟ وإنما قال: ﴿لِنَنْظُرَ﴾، ليدل على أنه سبحانه يعامل العبد معاملة المختبر الذي لا يعلم الشيء، فيجازيه على ما يظهر منه، دون ما قد علم الله بفعله، مظهرة في العدل، والنظر في الحقيقة لا يجوز على الله تعالى، لأنه إنما يكون بالقلب، وهو التفكير. وبالعين، وهو قلب الحدة نحو المرئي التماساً لرؤيته، مع سلامة الحاسة، وأحد هذين لا يجوز عليه سبحانه، وإنما يستعمل ذلك في صفاته على وجه المجاز والاتساع، فإن النظر إنما هو لطلب العلم، وهو سبحانه يعامل عباده معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم، ليجازيهم بحسبه.



قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِشُرَاحٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلُهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَنِيعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

● **القراءة:** في رواية أبي ربيعة، عن البزي، عن ابن كثير: ﴿وَلَا ذَرَأَتُمْ﴾ فجعلها لاماً دخلت على ﴿أَدْرِكُكُمْ﴾. وأما في ﴿أَدْرِكُكُمْ﴾ و ﴿أَدْرِكُكُمْ﴾ في جميع القرآن أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف. وروي في الشواذ، عن ابن عباس، والحسن: ﴿ولا أدريكم به﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: حكى سيبويه: دريته ودرئت به، والأكثر في الاستعمال بالياء، ويبين ذلك قوله: ﴿وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ﴾ ولو جاء على اللغة الأخرى لكان: ﴿ولا أدراكموه﴾،

وقال: الذرية كالفضة والشعرة، وهي مصادر يراد بها ضروب من العلم، أما الدَّرية، فكالهداية والدلالة، فكان الدَّرية الثاني، والتعمُّل لعلم الشيء، وعلى هذا المعنى ما تصرف من هذه الكلمة، أنشد أبو زيد:

فإنَّ غزالك الذي كنت تَدري إذا شئت ليثٌ خادِرٌ بين أشبُل^(١)

وتدري، أي تَحْتَل، ومنه: الدَّريَّة في قول أكثر الناس: الخُثْل الذي يستتر به الصائد من الوحش، كأنه يَحْتَل به. وداريت الرجل: لايتته وخاتلته، وإذا كان الحرف على هذا، فالداري في وصف القديم سبحانه لا يسوغ. فأما قول الراجز:

(لا هُمَّ لا أدري وأنت الدَّاري)^(٢)

فلا يكون حجة في جواز ذلك، لأنه استجاز ذلك لما تقدم من قوله: لا أدري، كما جاز: ﴿مَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾، و﴿إِنْ تَسَحَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَحَّرُ مِنْكُمْ﴾ وأيضاً فإن الأعراب يذكرون أشياء يمتنع جوازها، كما قالوا:

لا هُمَّ إن كنت الذي بعهدي ولم تُغيِّرْكَ الأمورُ بعدي
وقال الآخر:

«لو خافك الله عليه حرمة»^(٣)

فأما الهمزة على ما حكى عن الحسن وغيره، فلا وجه له، لأن الدرع: الدفع. قال ابن جني: يجوز أن يكون لها وجه، وإن كان فيه ضعف صنعة، وهو أن يكون أراد، ولا أدريتكم به، ثم قلبت الياء ألفاً لانفتاح ما قبلها، وإن كانت ساكنة، كقولهم في يئأس يائس، وفي يئس يئس. وقال قطرب: إن لغة عقيل في أعطيتك أن يقولوا أعطاتك، ثم همز الألف على لغة من قال في الباز البأز، وفي العالم والخاتم والنابل، العالم والخاتم والنابل، ومن قرأ: ﴿وَلَا تُذِرْكُم بِهِ﴾ فمعناه: ولأعلمكم الله تعالى به، فيكون نفيًا للتلاوة، وإثباتًا للعلم، وعلى قراءة الجماعة: يكون نفيًا للأمرين جميعاً.

● **اللغة:** التلقاء: جهة مقابلة الشيء، إلا أنه قد يستعمل ظرفاً، فيقال: هو تلقاءه، كما يقال: هو حذاءه، وقبالتة، وتجاهه، وإزاءه. والعُمُر بفتح العين، وسكون الميم، والعُمُر بضمهما: البقاء. وإذا استعمل في القسم، فالفتح لا غير.

● **النزول:** قيل: نزلت في خمسة نفر: عبد الله بن أمية المخزومي، والوليد بن مغيرة، ومكرز بن حفص، وعمر بن عبد الله بن أبي قيس العامري، والعاص بن عامر بن هاشم، قالوا

(١) الأشبل جمع الشبل. ولد الأسد.

(٢) وبعده «كل امرئ منك على مقدار».

(٣) والشاهد في إسناد التغير إلى الله تعالى في البيت الأول، والخوف إليه في الشعر الثاني، فليس كل ما قاله العرب متبعاً، بل هو حجة في ما يتعلق باللغة.

للنبي ﷺ: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى، ومناة وهبل، وليس فيه عيبها ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ تكلم به من تلقاء نفسك، عن مقاتل.

وقيل: نزلت في المستهزئين، قالوا: يا محمد! ائت بقرآن غير هذا فيه ما نسلكه، عن الكلبي.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن مشركي قريش، فقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ المنزل في القرآن ﴿يَكْسِبُ﴾ أي: واضحات في الحلال والحرام، وسائر الشرائع، وهي نصب على الحال ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث والنشور، فلا يخشون عقابنا، ولا يطمعون في ثوابنا ﴿أَتَيْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ الذي تتلوه علينا ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فاجعله على خلاف ما تقرؤه، والفرق بينهما: أن الإتيان بغيره قد يكون معه، وتبديله لا يكون إلا برفعه، وقيل: معنى قوله بدله: غير أحكامه من الحلال أو الحرام، أرادوا بذلك زوال الحظر عنهم، وسقوط الأمر منهم، وأن يخلي بينهم وبين ما يريدونه ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَكُمْ مِنْ رِبِّكُمْ نَفْسًا﴾ أي: من جهة نفسي، وناحية نفسي، ولأنه معجز فلا أقدر على الإتيان بمثله ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: ما أتبع إلا إذا أوحى إلي ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في اتباع غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة، ومن استدل بهذه الآية على أن نسخ القرآن بالسنة لا يجوز، فقد أبعد، لأنه إذا نسخ القرآن بالسنة، وما يقوله النبي ﷺ، فإنما يقوله بالوحي من الله، فلم ينسخ القرآن، ولم يبدله من قبل نفسه، بل يكون تبديله من قبل الله تعالى، ولكن لا يكون قرآنًا، ويؤيد ذلك قوله: ﴿وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْوَحْيِ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن عليكم، بأن كان لا ينزله عليّ ﴿وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم الله به، بالألا ينزله عليّ، فلا أقرؤه عليكم، فلا تعلمونه ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: فقد سكنت وأقمت بينكم دهرًا طويلاً من قبل إنزال القرآن، فلم أقرأه عليكم، فلا تعلمونه، ولا ادعيت نبوة حتى أكرمني الله تعالى بها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتفكرون فيه بعقولكم، فتعلموا أن المصلحة فيما أنزله الله تعالى دون ما تقرؤونه.

قال علي بن عيسى: العقل هو العلم الذي يمكن به الاستدلال بالشاهد على الغائب، والناس يتفاضلون فيه بالأمر المتفاوت، فبعضهم أعقل من بعض، إذا كان أقدر على الاستدلال من بعض ﴿كَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن اخترع على الله ﴿كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: المشركون، عن الحسن. فإن قيل: أليس من ادعى الربوبية أعظم ظلماً من المدعي للنبوة؟ قلنا: إن المراد بقوله: ﴿مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ من كفر بالله تعالى، فقد دخل فيه من ادعى الربوبية وغيره من أنواع الكفار، فكأنه قال: لا أحد أظلم من الكافر.



قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيهِمْ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

● **القراءة:** قرأ: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالتاء أهل الكوفة غير عاصم، وكذلك في (النحل) في موضعين، وفي (الروم)، والباقيون كل ذلك بالياء.

● **الحجة:** من قرأ بالتاء، فلقوله ﴿أَتُنْبِئُونَ اللَّهَ﴾ ومن قرأ بالياء، احتمل وجهين:

أحدهما: على قل: كأنه قيل له قل أنت سبحانه وتعالى عما يشركون.
والوجه الآخر: أن يكون هو سبحانه نزه نفسه عما أقروه، فقال ذلك.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار، فقال: ﴿وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: ويعبد هؤلاء المشركون الأصنام، التي لا تضرهم إن تركوا عبادتها، ولا تنفعهم إن عبدوها: فإن قيل: كيف ذمهم على عبادة الصنم الذي لا ينفع ولا يضر، مع أنه لو نفع وضر، لكان لا يجوز أيضاً عبادة؟ قلنا: عبادة من لا يقدر على أصول النعم، وإن قدر على النفع والضر إذا كان قبيحاً، فمن لا يقدر على النفع والضر أصلاً من الجماد، تكون عبادة أقيح وأشنع، فلذلك خصه بالذكر.

﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا: إنا نعبد هذه الأصنام لتشفع لنا عند الله، وإن الله أذن لنا في عبادتها، وإنه سيسفّعها فينا في الآخرة، وتوهموا أن عبادتها أشد في تعظيم الله سبحانه من قصده تعالى بالعبادة، فجمعوا بين قبيح القول، وقبيح الفعل، وقبيح التوهم. وقيل معناه: هؤلاء شفعاؤنا في الدنيا لإصلاح معاشها، عن الحسن قال: لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث، بدلالة قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾.

﴿قُلْ أَتُنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَشْكُرُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم على وجه الإلزام: أتخبرون الله بما لا يعلم من حسن عبادة الأصنام وكونها شافعة، لأن ذلك لو كان صحيحاً لكان تعالى به عالماً، ففي نفي علمه بذلك نفي المعلوم، ومعناه: أنه ليس في السماوات ولا في الأرض إله غير الله، ولا أحد يشفع لكم يوم القيامة. وقيل: معناه أتخبرون الله بشريك أو شفيع لا يعلم شيئاً؟ كما قال: ﴿وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكذلك وصفهم بأنهم لا يعلمون في السموات والأرض شيئاً ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله تعالى عن أن يكون له شريك في استحقاق العبادة. ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾، فيه أقوال:

أحدها: إن الناس كانوا جميعاً على الحق، وعلى دين واحد، فاختلّفوا في الدين الذي كانوا مجتمعين عليه، ثم قيل: إنهم اختلفوا على عهد آدم عليه السلام وولده، عن عباس، والسدي، ومجاهد، والجبائي، وأبي مسلم. ومتى اختلفوا؟ قيل: عند قتل أحد ابنه أخاه. وقيل: اختلفوا بعد موت

سورة يونس

آدم ﷺ، لأنهم كانوا على شرع واحد، ودين واحد إلى زمن نوح، وكانوا عشرة قرون، ثم اختلفوا، عن أبي روق. وقيل: كانوا على ملة الإسلام، من لدن إبراهيم ﷺ، إلى أن غيّر عمرو بن لحي، وهو أول من غيّر دين إبراهيم، وعبد الصنم في العرب، عن عطاء. ويدل على صحة هذه الأقوال، قراءة عبد الله: ﴿ما كان الناس إلا أمة واحدة على هدى فاختلّفوا عنه﴾.

وثانيها: إنّ الناس كانوا أمة واحدة، مجتمعة على الشرك والكفر، عن ابن عباس، والحسن، والكلبي، وجماعة، ثم اختلف هؤلاء، فقيل: كانت أمة كافرة على عهد إبراهيم، ثم اختلفوا فتنفروا، فمنهم مؤمن، ومنهم كافر، عن الكلبي. وقيل: كانت كذلك منذ وفاة آدم ﷺ إلى زمن نوح، عن الحسن. وقيل: أراد به العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ، فإنهم كانوا مشركين إلى أن بعث النبي ﷺ، فأمن به قوم، وبقي آخرون على الشرك، وسئل عليّ ﷺ عن هذا، فقيل: كيف يجوز أن يطبق أهل عصر على الكفر حتى لا يوجد مؤمن يشهد عليهم، والله تعالى يقول: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَأُجِيبُوا عَنْ ذَلِكَ: بأنه يجوز أن يكون أهل كل عصر وإن لم يخل من مؤمنين يشهدون عليهم، وربما يقلون في عصر، وإنما يتبع الاسم الأعم، وعلى هذا يقال: دار الإسلام، ودار الكفر. وفي تفسير الحسن: ما كان الناس إلى مبعث نوح ﷺ إلا ملة واحدة كافرة إلا الخاصة، فإن الأرض لا تخلو من أن يكون لله تعالى فيها حجة.

وثالثها: إنّ الناس خلقوا على فترة الإسلام، ثم اختلفوا في الأديان.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ من أنه لا يعاجل العصاة بالعقوبة، إنعاماً عليهم في الثاني بهم ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فصل بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بأن يهلك العصاة، وينجي المؤمنين، لكنه أخرهم إلى يوم القيامة، تفضلاً منه إليهم، وزيادة في الإنعام عليهم، ثم حكي سبحانه عن هؤلاء الكفار، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: هلا أنزل على محمد آية من ربه، تضطر الخلق إلى المعرفة بصدقه، فلا يحتاجون معها إلى النظر والاستدلال، ولم يطلبوا معجزة تدل على صدقه، لأنه ﷺ قد أتاهم بالمعجزات الدالة على نبوته، وإنما لم يجبههم الله إلى ما التمسوه، لأن التكليف يمنع من الاضطرار إلى المعرفة، فإن الغرض بالتكليف التعريض للثواب، ولو كانت المعرفة ضرورة لما استحقوا ثواباً، فكيف وكان يكون ذلك ناقضاً للغرض. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ معناه: فقل يا محمد: إن الذي يعلم الغيب، ويعلم مصالح الأمور قبل كونها هو الله، العالم لنفسه، يعلم الأشياء قبل كونها، وبعد كونها، لا تخفى عليه خافية، يعلم ما في إنزاله صلاح فينزله، ويعلم ما ليس في إنزاله صلاح فلا ينزله، ولذلك لا يفعل الآية التي اقترحوها في هذا الوقت، لما في ذلك من حسن تدبيره ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ أي فانتظروا عقاب الله تعالى، بالقهر والقتل في الدنيا، والعقاب في الآخرة ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لأن الله تعالى وعدني النصرة عليكم، وقيل: معناه فانتظروا إذلال الكافرين، فإني منتظر إعزاز المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَافَ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ روح، وزيد، عن يعقوب، وسهل: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ بالياء، والباقون: بالتاء. وقرأ: ﴿يُنْشِرُكُمْ﴾ بالنون والشين، من النشر، أبو جعفر، وابن عامر، والباقون: ﴿يُسَيِّرُكَ﴾ بالسین والياء، من التسيير. وقرأ حفص وحده: ﴿متاع﴾ بالنصب، والباقون: بالرفع.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ بالياء، فلقوله: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ ومن قرأ بالتاء فللخطاب، أي: قل لهم يا محمد: إن رسل الله يكتبون ما تمكرون. ومن قرأ: ﴿يُسَيِّرُكَ﴾ بقرينه قوله: ﴿فَاتَّشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا﴾ وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ويقال: سار الدابة وسرته، وسيرته قال: «فلا تجزعن من سنة أنت سیرتها»^(١).

وقال لبيد:

فبنيان حرب أن تبوء بحربة وقد يقبل الضيم الدليل المسير

ومن قرأ: ﴿يُنْشِرُكُمْ﴾ فحجته قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَشَاءَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ والبت: التفريق والنشر في المعنى، وأما ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فقد قال الزجاج: من رفع فعلى وجهين:

أحدهما: أن يكون متاع الحياة الدنيا خبراً، لقوله: ﴿بَغْيِكُمْ﴾.

والآخر: أن يكون خبر المبتدأ: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ و ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ﴾ على إضمار هو. ومن نصب فعلى المصدر، أي: تتمتعون متاع الحياة الدنيا. قال أبو علي قوله: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يحتمل تأويلين:

أحدهما: أن يكون متعلقاً بالمصدر، لأن فعله يتعدى بهذا الحرف، ألا ترى إلى قوله: ﴿بَغْيَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ ثم بغى عليه وإذا كان الجار من صلة المصدر كان الخبر متاع الحياة الدنيا، فيكون معناه: بغى بعضكم على بعض متاع الحياة في الدنيا. وليس مما يقرب إلى الله، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف، فيكون خبراً للمصدر، وفيه ذكر يعود إليه، فيكون كقولك: الصلاة في المسجد، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، ومفعوله محذوفاً، والمعنى: إنما بغى

(١) قائله خالد ابن اخت أبي ذؤيب وبعده: «فأول راض سنة من يسيرها».

بعضكم على بعض بما يدل على أنفسكم، ويكون كقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ومن نصب احتمال النصب وجهين:

أحدهما: أن يكون ﴿عَلَى﴾ من صلة المصدر، ويكون الناصب لمتاع هو المصدر الذي هو البغي، ويكون خبر المبتدأ محذوفاً، وحسن حذفه لطول الكلام، ولأن بغيكم يدل على تبغون، فيحسن الحذف لذلك، وهذا الخبر لو أظهرته لكان يكون: مكروه، أو مذموم، أو منهي عنه، ونحو ذلك.

والآخر: أن يكون ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ خبر المبتدأ، فيكون ﴿متاع﴾ منصوباً على وجهين: أحدهما: تمتعون متاعاً، فيدل انتصاب المصدر عليه.

والآخر: أن يضمّر تبغون، لأن ما يجري مجرى ذكره قد تقدم، كأنه لو أظهره لكان تبغون متاع الحياة الدنيا، فيكون مفعولاً له، ولا يجوز أن يتعلق المصدر بالمصدر في قوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ﴾ فقد جعلت ﴿عَلَى﴾ خبراً لقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ﴾ لفصلك بين الصلة والموصول.

● اللغة: التسيير: التحريك في جهة تمتد كالسير الممدود. والبر: الأرض الواسعة التي تقطع من بلد إلى بلد، ومنه: البرُّ لاتساع الخير به. والبحر: مستقر الماء الواسع، حتى لا يرى من وسطه حافته^(١). والفلك: السفن، وسميت فلكاً لدورانها في الماء، وأصله الدور، ومنه: فلكة المغزل، وتفلكٌ ثدي الجارية: إذا استدار، والفلك يكون جمعاً وواحداً، وهو ههنا جمع والعاصف: الريح الشديد، وعصفت الريح فهي عاصف وعاصفة، قال:

حتى إذا عصفت ريح مزغزعةً فيها قطارٌ، ورعد صوته زَجَل^(٢)

● الإعراب: جواب إذا الأولى في إذا الثانية، وإنما جعل إذا جواباً لكونها بمعنى الجملة، لما فيها من معنى المفاجأة، وهي ظرف مكان، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَصْبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ومعناه: إن تصبهم سيئة قنطوا، وإذا أذقنا الناس رحمة مكروا، وجرين بهم ابتداء الكلام خطاب، وبعد ذلك إخبار عن غائب، لأن كل من أقام الغائب مقام من يخاطبه، جاز له أن يرده إلى الغائب، قال كثير:

أسيثي بنا أو أحسيني لا ملومةً لدينا، ولا مقليةً إن ثقلت^(٣)
وقال عترة:

شطت مزار العاشقين فأصبحت عسراً عليّ طلابك ابنة مخرم^(٤)

(١) أي جانباه.

(٢) قطار ككتاب جمع القطر - بالفتح - : المطر.

(٣) مضى البيت بمعناه في هذا الجزء.

(٤) هذا على رواية أبي عبيدة، لكن في رواية الزوزني والخطيب، ومعلقته، هكذا: «حلت بأرض الزائرين فأصبت عسراً. انتهى» شطت أي: جاوزت. والزائر على رواية الزوزني: بمعنى العدو، من زار الأسد. شبه توعدهم وتهدهم بزر الأسد.

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَجْنَحْتُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ المعنى: فلما أنجاهم بغوا.

● المعنى: ثم أخبر سبحانه عن ذمهم فعالهم، فقال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ يريد بالناس الكفار، فهو عموم يراد به الخصوص ﴿وَمِنْ بَعْدِ ضَرَحٍ مَسَّتْهُمْ﴾ أي: راحة ورخاء بعد شدة وبلاء، وحقيقة الذوق فيما له طعم يوجد، إنما يكون طعمه بالفم، وإنما قال: أذقناهم الرحمة على طريق المبالغة، لشدة إدراك الحاسة إياها ﴿وَإِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: فهم يحتالون لدفع آياتنا بكل ما يجدون السبيل إليه، من شبهة، أو تخليط في مناظرة، أو غير ذلك من الأمور الفاسدة، وقال مجاهد: مكرهم استهزاؤهم، وتكذيبهم. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أقدر جزاء على المكر، ومعناه: أن ما يأتيهم من العقاب أسرع مما أتوه من المكر، أي: أوقع في حقه. وقيل: إن مكره سبحانه إنزاله العقوبة بهم من حيث لا يشعرون. ﴿إِن رُّسُلَنَا﴾ يعني الملائكة الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي: ما تدبرون من سوء التدبير، وفي هذا غاية الزجر والتهديد من وجهين:

أحدهما: أنه يحفظ مكرهم.

والآخر: أنه أقدر على جزائهم، وأسرع فيه.

ثم امتن الله سبحانه على خلقه، بأن عدّد نعمه التي يفعلها بهم في كل حال، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يمكنكم من المسير في البر والبحر، بما هيأ لكم من آلات السير، وهي خلق الدواب وتسخيرها لكم، لتركبوها في البر، وتحملوا عليها أثقالكم، وهيأ السفن في البحر، وإرسال الرياح المختلفة، التي تجري بالسفن في الجهات المختلفة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ خصّ الخطاب براكب البحر، أي: إذا كنتم راكبي السفن في البحر ﴿وَجَرَيْنَ يَمِينٍ﴾ أي: وجرت السفن بالناس لما ركبوها، عدل عن الخطاب إلى الإخبار عن الغائب، تصرفاً في الكلام على أنه يجوز أن يكون خطاباً لمن كان في تلك الحال، وإخباراً لغيرهم من الناس ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: بريح لينة يستطيعونها.

﴿وَقَرَحُوا فِيهَا﴾ أي: سراً بتلك الريح، لأنها تبلغهم مقصودهم، عن أبي مسلم. وقيل: فرحوا بالسفينة، حيث حملتهم وأمتعتهم ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: جاءت السفينة ريح عاصف، شديدة الهبوب الهائلة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البحر، والموج اضطراب البحر، ومعناه: وجاء راكبي البحر الأمواج العظيمة من جميع الوجوه.

﴿وَقَلَّبُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: أيقنوا أنهم دنوا من الهلاك. وقيل: غلب على ظنهم أنهم سيهلكون لما أحاط بهم من الأمواج ﴿دَعَوْا اللَّهَ﴾ عند هذه الشدائد والأحوال، والتجأوا إليه ليكشف ذلك عنهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: على وجه الإخلاص في الاعتقاد، ولم يذكروا الأوثان والأصنام، لعلمهم بأنها لا تنفعهم ههنا شيئاً، وقالوا: ﴿لَئِنْ أَجَبْتَنَا﴾ يا رب ﴿بِمِنْ هَذِهِ الشَّدةِ﴾ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: من جملة من يشكرك على نعمك، وقوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ جواب قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ وقوله: ﴿دَعَوْا اللَّهَ﴾ جواب قوله: ﴿وَقَلَّبُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿فَلَمَّا أَجْنَحْتُمْ﴾ أي: خلّصهم الله تعالى من تلك المحن ﴿وَإِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يعملون فيها بالمعاصي والفساد، ويستغلون بالظلم على الأنبياء وعلى المسلمين.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: بغى بعضكم على بعض، وما ينالونه به، متاع في الدنيا، وإنما تاتونه لحبكم العاجلة، وإيثارها على ما يقرب إلى الله تعالى من الطاعات، وقد مرَّ بيانه قبل. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نخبركم بأعمالكم، لأننا أثبتناها عليكم، وهي كلمة تهديد ووعيد.

● **النظم:** قيل: إنما اتصل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ﴾ الآية، بما قبله، لأنه تفسير لبعض ما أجمل في الآية المتقدمة، التي هي قوله: ﴿وَإِذَا أَدْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾، عن أبي مسلم. وقيل: إنه يتصل بما تقدم في السورة من دلائل التوحيد، فكانه قال: إلهكم الذي جعل الشمس ضياءً، والقمر نوراً، وهو الذي يسيركم.



قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطَرَّتْ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ .

● **القراءة:** في الشواذ، قراءة الأعرج، والشعبي، وأبي العالية، ونصر بن عاصم، والحسن: بخلاف ﴿وَأَزْيَنْتَ﴾، وقراءة أبي عثمان: ﴿وَأَزْيَأَنْتَ﴾.

● **الحجة:** أما ﴿أَزْيَنْتَ﴾، فأصله: تزَيَّنتَ، فأدغمت التاء في الزاي، وسكنت الزاي، فاجتلبت لها ألف الوصل. وأما ﴿أَزْيَنْتَ﴾: فإنه على أفعلت، أي: جاءت بالزينة. وأزَيَّنت أجود في العربية، لأن أَزْيَنْتَ الأجود فيه أَزَانْتَ، مثل: أقال وأباع. وأما أَزْيَأَنْتَ: فوزنه أفعألْتُ، وأصله أَزْيَأَنْتَ، مثل: اذهأمت، واسوأدت، إلا إنه كره التقاء الساكنين، فحركت الألف، فانقلبت همزة، كقول كثير:

وللأرض أماً سودها فتَجَلَّلَتْ بياضاً، وأما بياضها فاذهأمت^(١)

● **اللغة:** الزخرف: كمال حسن الشيء، ويقال: زخرفته، أي: حسنته، ومنه زخرفت الجنة لأهلها، أي: زينت بأحسن الألوان، وغني بالمكان: أقام به، والمغاني: المنازل. قال النابغة: غَنَيْتَ بذلك إذ هم لك جيرة^(٢) منها بعطف رسالة وتودد

والدعاء: طلب الفعل بما يقع لأجله، والداعي إلى الفعل خلاف الصارف عنه، والفرق بين الدعاء والأمر: أن في الأمر ترغيباً في الفعل، وزجراً عن تركه، وله صيغة تنبيه عنه، والدعاء ليس كذلك، وكلاهما طلب. وأيضاً: فإن الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الأمر في الرتبة، والدعاء يقتضي أن يكون فوقه.

● **المعنى:** لما تقدم ما يوجب الترغيب في الآخرة، والتزهيد في الدنيا، عقبه سبحانه بذكر صفة الدارين، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: صفة الحياة الدنيا، أو شبه الحياة الدنيا في سرعة فنائها وزوالها ﴿كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو المطر ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي: بذلك المطر ﴿تَبَاتُ الْأَرْضُ﴾ لأن المطر يدخل في خلل النبات فيختلط به. وقيل معناه: فاختلط بسببه بعض النبات ببعض، فاختلط ما يأكل الناس بما يأكل الأنعام، وما يقتات بما يتفكه.

ثم فصل ذلك فقال ﴿يَمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالحبوب، والشمار، والبقول ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ كالحشيش، وسائر أنواع المراعي. وقد قيل: في المشبه والمشبّه في الآية أقوال:

أحدها: أنه تعالى شبه الحياة الدنيا بالماء، فيما يكون به من الانتفاع ثم الانقطاع.

وثانيها: أنه شبهها بالنبات على ما وصفه، من الاغترار به، ثم المصير إلى الزوال، عن الجبائي، وأبي مسلم.

وثالثها: أنه تعالى شبه الحياة الدنيا بحياة مقدرة على هذه الأوصاف.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: حسنها وبهجتها بأنواع الألوان، وأجناس النبات، وغير ذلك ﴿وَأَزْيَنْتَ﴾ أي: تزينت في عين رائيها ﴿وَوَلَّيْتَ أَهْلَهَا﴾ أي: مالكتها ﴿أَنَّهُمْ قَدْ رُزِقُوا عَلَيْهَا﴾ أي: على الانتفاع بها، ومعناه: بلغت المبلغ الذي ظن أهلها أنهم يحصدونها، ويقدرّون على غلتها أو إدامتها ﴿أَتُنْهَئُكُمْ عَنْهَا﴾ أي: أتاها عذابنا من بَرَدٍ أو بَرَدٍ، وقيل: معناه أتاها حكمنا وقضاؤنا بإهلاكها وإتلافها ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي: محصودة، ومعناه: مقطوعة مقلوعة، ذاهبة يابسة ﴿كَأَن لَّمْ تَقَعْ بِالْأَمْنِ﴾ أي: كأن لم تقم على تلك الصفة بالأمس، ومعناه: كأن لم تكن، ولم توجد من قبل ﴿كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ﴾ أي: مثل ذلك نميز الآيات لقوم يتفكرون فيها، فيعتبرون بها. ولما بين سبحانه أن الدنيا تنقطع وتفتنى بالموت، كما يفنى هذا النبات بفنون الآفات، ونبه على التوقع لزوالها، والتحرز عن الاغترار بأحوالها، رغب عقيه في الآخرة، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ قيل: إن السلام هو الله تعالى، فإن الله تعالى يدعو إلى داره، وداره الجنة، عن الحسن، وقتادة. وقيل: دار السلام الدار التي يسلم فيها من الآفات، عن الجبائي. والسلام والسلامة واحد، مثل الرضاع والرضاعة، قال:

تُحَيَّا بِالسَّلَامَةِ أُمُّ بَكْرٍ وهل لك بعد رهطك من سلام؟

وقيل: سميت الجنة دار السلام، لأن أهلها يسلم بعضهم على بعض، والملائكة تسلم عليهم، ويسلم ربهم عليهم، فلا يسمعون إلا سلاماً، ولا يرون إلا سلاماً، ويعضده قوله: ﴿يَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ وما أشبهه ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قيل: يهدي من يشاء إلى الإيمان والدين الحق، بالتوفيق والتيسير والإلطف. وقال الجبائي: يريد به نصب الأدلة لجميع المكلفين، دون الأطفال والمجانين. وقيل: معناه يهدي من يشاء في الآخرة إلى طريق الجنة، الذي يسلكه المؤمنون، ويعدل عنه الكافرون إلى النار.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُحْسَنَاتٍ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧).

● القراءة: قرأ ابن كثير، والكسائي، ويعقوب، وسهل: ﴿قِطْعًا﴾ ساكنة الطاء. والباقون: ﴿قِطْعًا﴾ بفتحها.

● الحجة: القطع: جمع قطعة من الليل. والقطع: الجزء من الليل الذي فيه ظلمة.

● اللغة: الرهق: لحاق الأمر، ومنه: راهق الغلام إذا لحق بالرجال، ورهقه في الحرب: أدركه، قال الأزهري: الرهق اسم من الإرهاق، وهو أن يحمل الإنسان على ما لا يطيقه، ومنه: سارهقه صعوداً. والكسب: اجتلاب النفع والجزاء والمكافأة. والقترة: الغبار، والفترة: الغبرة، والقتار: الدخان، ومنه: الإقتار في المعيشة.

● الإعراب: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ في ارتفاعه وجهان:

أحدهما: أن يكون مبتدأ وخبره بمثلها على زيادة الباء، في قول أبي الحسن، لأنه وجد في مكان آخر: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِّثْلَهَا﴾ ويجوز أن تكون الباء متعلقة بخبر محذوف، تقديره: جزاء سيئة كائن بمثلها، كما تقول: إنما أنا بك، وأمري بيدك، وما أشبه ذلك.

والآخر: أن يكون فاعلاً بإضمار فعل تقديره استقر لهم جزاء سيئة بمثلها، ثم حذف استقر، فبقي لهم جزاء سيئة بمثلها، ثم حذف لهم لدلالة الكلام على أن هذا مستقر لهم، ويجوز أن يكون جزاء سيئة مبتدأ والخبر محذوف، تقديره لهم جزاء سيئة بمثلها، أو جزاء سيئة بمثلها كائن، هذا قد أجاز أبو الفتح. وقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ عطف على ﴿كَسَبُوا﴾ وجاز أن يفصل بينهما بقوله: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ لأنه من الاعتراض الذي يبين الأول، ويسدده ويثبتته. ﴿مُظْلِمًا﴾ قال أبو علي: إن أجرته على قطع ساكنة الطاء فيحتمل نصبه على وجهين:

أحدهما: أن يكون صفة لقطع، على قياس قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ وصفت الكتاب بالمفرد، بعدما وصفته بالجملة، وأجرته على النكرة.

والآخر: أن يكون حالاً من الذكر الذي في الظرف، يعني قوله: ﴿مِّنَ اللَّيْلِ﴾.

وإن أجرته على (قطع)، مفتوحة الطاء، لم يكن صفة له، ولا حالاً من الذكر الذي في قوله: من الليل، ولكن يكون حالاً من الليل، والعامل في الحال ما يتعلق به من الليل، وهو الفعل المختزل، ومثل ذلك في إرادة الوصف بالسواد، قول الشاعر:

ودويّة مثل السماء اعتسفتها وقد صبغ الليل الحصى بسواد^(١)

أي: سودتها الظلمة، وقال غيره: يجوز أن يكون مظلماً صفة لقطع، على قول الشاعر:

(١) الدوية: المفازة. واعتسفت الطريق: ركبته على غير هداية، ولا دراية.

لو أَنَّ مِدْحَةً حَيٌّ تُنْشِرُنْ أَحَدًا أَخِيَا أَبَاكَنْ، يَا لَيْلَى، الْأُمَادِيحُ
 ● **المعنى:** ثم بيّن سبحانه أهل دار السلام، فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِهِمْ﴾ ومعناه: للذين أحسنوا العمل، وأطاعوا الله تعالى في الدنيا، جزاء لهم على ذلك، الحالة الحسنى، والمنزلة الحسنى، وهي الحالة الجامعة للذات والنعيم على أكمل ما يكون، وأفضل ما يمكن، وهو تأنيث الأحسن ﴿وَزِيَادَةً﴾، ذكر في ذلك وجوه:

أحدها: إن الحسنى: الثواب المستحق. والزيادة: التفضل على قدر المستحق على طاعاتهم من الثواب، وهي المضاعفة المذكورة في قوله: ﴿فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَلِهَا﴾، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة.

وثانيها: الزيادة: هي أن ما أعطاهم الله تعالى من النعم في الدنيا، لا يحاسبهم بها في الآخرة، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

وثالثها: أن الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة، لها أربعة أبواب، عن علي عليه السلام، وقيل: الزيادة ما يأتيهم في كل وقت من فضل الله مجدداً.

ورابعها: أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى، وروي ذلك عن أبي بكر، وأبي موسى الأشعري، وغيرهما، وقد بيّن الله سبحانه الزيادة في موضع آخر بقوله: ﴿لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾. ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا يلحق وجوههم سواد، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: غبار ولا ذلة: أي هوان. وقيل: كآبة وكسوف، عن قتادة. وروي الفضيل بن يسار، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ما من عين ترفقت بمائها، إلا حرم الله ذلك الجسد على النار، فإن فاضت من خشية الله، لم يرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلة.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مر معناه. ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: اكتسبوها وارتكبوها ﴿جَزَاءً سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾ أي: لهم جزاء كل سيئة بمثلها، يعني: يجزون بمثل أعمالهم، أي: قدر ما يستحق عليها من غير زيادة، لأن الزيادة على قدر المستحق من العقاب ظلم، وليس كذلك الزيادة على قدر المستحق من الثواب، لأن ذلك تفضل يحسن فعله ابتداء، فالمثل هنا مقدار المستحق من غير زيادة ولا نقصان.

﴿وَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: يلحقهم هوان وذل، لأن العقاب يقارنه الإهانة والإذلال ﴿مَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ﴾ أي: ما لهم من حافظ ومانع يدفع عقاب الله عنهم ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: كأنما ألبست وجوههم ظلمة الليل، والمراد وصف وجوههم بالسواد، كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ الْفَيْكَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ﴾. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ظاهر المراد.



قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن

كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلٍ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ: ﴿تَبْلُوا﴾ بالناء أهل الكوفة، غير عاصم، وروح، وزيد، عن يعقوب، والباقون: ﴿تَبْلُوا﴾ بالباء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ ﴿تَبْلُوا﴾ فمعناه: تختبر، من قولهم: البلاء ثم الشئ، أي: الاختبار للمثنى عليه ينبغي أن يكون قبل الشئ، ليكون الشئ عن علم بقدر ما يوجبه، ومعنى اختبارها ما أسلفت: أنه إن قدم خيراً أو شراً جوزي عليه، كما قال: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ إلى آخره. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ وغير ذلك من الآي. ومن قرأ: ﴿تَبْلُوا﴾ فإنه من التلاوة التي هي القراءة، دليله قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَفْرَوْنَ كِتَابَهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ ويكون تلو: تتبع، من قولهم: تلا الفريضة النفل، إذا أتبعها النفل، قال:

على ظهر عادي كأن أرومه رجال يُتْلُونَ الصلاة قيام^(١)

فيكون المعنى: تتبع كل نفس ما أسلفت من حسنة أو سيئة، قال:

قد جعلت ذلوي تستتليني ولا أجبُ تبَع القرين
أي تستتبني من ثقلها.

● **اللغة:** التنزيل: التفريق، مأخوذة من قولهم: زلْتُ الشيء عن مكانه أزيله وزيلته للكثرة من هذا، إذا نحيت عن مكانه، وزايلت فلاناً، إذا فارقت. ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المكان، وهو ظرف، فهنا للقرين، وهنالك للبعيد، وهنالك لما بينهما، قال زهير:

هنالك إن يُستخَبَلوا المال يُخْبِلُوا وإن يُسألوا يُعْطُوا، وإن ييسروا يَغْلُوا^(٢)

والإسلاف: تقديم أمر لما بعده، فمن أسلف الطاعة لله، جوزي بالشواب، ومن أسلف المعصية جوزي بالعقاب.

● **الإعراب:** ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال ﴿مَكَانَكُمْ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الأمر، والمعنى: انتظروا مكانكم حتى يفصل بينكم، والعرب تتوعد فتقول: مكانك وانتظرنِي، وهي كلمة جرت على الوعيد.

وأقول: إن الصحيح عند المحققين أن مكانك ودونك من أسماء الأفعال، فيكون مكانكم ههنا اسماً لإلزاموا مبنياً على الفتح، وليس بمنصوب نصب الظروف، و ﴿وَكُمْ﴾ لا محل له من الإعراب، إذ هو حرف الخطاب ﴿وَأَنْتُمْ﴾ رفع تأكيد للضمير في ﴿مَكَانَكُمْ﴾ ﴿وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ عطف

(١) العادي: الشيء القديم نسب إلى عاد. والأروم: الأعلام. وقيل: هي قبور عاد.

(٢) الإخبال: أن يعطى الرجل البعير أو الناقة ليركبها، ويجتز ويرها، ويتفع بالإنها، ثم يردها. والإستخبال: الاستعارة. وقوله «يسروا» من اليسر، وهو القمار. و«يغلو» أي يأتون بجزور سمين، أو أنهم أي: يكثرُوا. يصف قومًا بالجوهر.

عليه، وهذا كما تقول: في قولهم: عليك زيدا، إن الكاف حرف الخطاب لا محل له من الإعراب، وعلى ههنا اسم للفعل وليس بحرف.

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ قال الزجاج: ﴿شَهِيدًا﴾ منصوب على التمييز إن شئت، وإن شئت على الحال. ﴿إِنْ كُنَّا﴾ إن بمنزلة ما النفي، أي: ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين، قاله الزجاج.

وأقول: الصحيح أن ﴿إِنْ﴾ هذه: هي المخففة من الثقيلة، وإذا كانت مخففة من الثقيلة، يلزمها اللام لِيُفَرَّقَ بينها وبين النافية، والتقدير: إنا كنا عن عبادتكم غافلين و﴿هُنَالِكَ﴾ منصوب بتبلو، إلا أنه غير متمكن، واللام زائدة كسرت لالتقاء الساكنين.

● **المعنى:** ولما تقدم ذكر الجزاء، بين سبحانه وقت الجزاء، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَعًا﴾ أي: نحشر الخلق أجمعين، أي: نجمعهم من كل أوب إلى الموقف ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ في عبادتهم مع الله غيره، وفي أموالهم، فقالوا: هذا لله وهذا لشركائنا ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ أي: اثبتوا والزموا مكانكم أنتم مع شركائكم، يعني الأوثان، فقد صحبتهم في الدنيا، فاصحبهم في المحشر. وقيل: معناه اثبتوا حتى تسألوا، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾. ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فميزنا وفرقنا بينهم في المسألة، فسألنا المشركين على حدة: لم عبدتم الأصنام؟ وسألنا الأصنام على حدة: لم عبدتم؟ وبأي سبب عبدتم؟ وهذا سؤال تقريع وتبكيت، عن الحسن، ومثله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنْتُ﴾ وقيل: معناه فزيلنا بينهم وبين الأوثان، فتراهم منهم الشركاء، وانقطعت أسبابهم ﴿وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: يحييهم الله وينطقهم، فقالوا: ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون، عن مجاهد. وقيل: إن شركاءهم من كانوا يعبدونهم من الشياطين. وقيل: هم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، وفي كيفية جحدهم لعبادتهم إياه قولان:

أحدهما: إنهم يقولون ذلك على وجه إهانتهم بالرد عليهم، أي: ما اعتدنا بذلك لكم.

والآخر: إن المراد أنكم لم تعبدونا بأمرنا ودعائنا، ولم يرد أنهم لم يعبدوهم أصلاً، لأن ذلك كذب لا يجوز أن يقع في الآخرة، لكونهم ملجئين إلى ترك القبيح، عن الجبائي، وهذه الآية نظير قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَتَّبِعُوا﴾ الآية.

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي فاصلاً للحكم ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أيها المشركون ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ مر معناه، وهذا إذا كان المراد به الملائكة، فإنهم عما ادَّعَوْهُ غافلون، لأنهم لم يشعروا بذلك، ولا أمروا به؛ وإن كان المراد الأصنام، فلم يكن لها حس ولا علم، وهذا غاية في إلزام الحجة، حيث اختاروا للعبادة من لم يدعم إليها، ولم يشعر بها ﴿هُنَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: في ذلك المكان، وفي تلك الحال، وفي ذلك الوقت تُجَرَّبُ وتعلم كل نفس ما قدمت من خير أو شر، وترى جزاءه. وعلى القراءة بالتاء، معناه: تقرأ كل نفس جزاء عملها، وجزاء ما قدمته. ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: وردوا إلى جزاء الله، وإلى الموضع الذي لا يملك أحد فيه الحكم إلا الله، الذي هو مالكهم، وسيدهم وخالقهم، و﴿الْحَقُّ﴾ صفة لله تعالى، وهو القديم الدائم الذي لا يفنى، وما سواه بيطل، وقيل: ﴿الْحَقُّ﴾ هو

الذي يكون معنى اللفظ حاصلًا له على الحقيقة، فالله جل جلاله هو الحق، لأن معنى الإلهية حاصل له على الحقيقة ﴿وَمَدَّ عَنْهُمْ مَآ كَانُوا يَقْتِرُونَ﴾ أي: بطل وهلك عنهم ما كانوا يدعون، بافترائهم من الشركاء مع الله تعالى.



قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ إِلَهٌ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ رَيْبُكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر: ﴿كَلِمَتِ﴾ ههنا، وفي آخرها على الجمع، وكذلك في سورة المؤمن، والباقون على التوحيد.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ على التوحيد احتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون جعل ما أوعده به الفاسقون كلمة، وإن كانت في الحقيقة كلمات، لأنهم قد يسمون القصيدة كلمة، والخطبة كلمة.

والآخر: أن تكون ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ التي يراد بها الجنس قد أوقعت على بعض الجنس، كما أوقع اسم الجنس على بعضه في قوله: ﴿وَلَنُكَوِّنَنَّ لَهُمْ فِئَةً مُّصِيبِينَ وَنَبْلِيْلُ﴾ وقول الشاعر: «ببطن شريان يعوي عنده الذيب»^(١)

فأما من جمع، فإنه جعل الكلم التي توعدوا بها كل واحدة منها كلمة، ثم جمع فقال: كلمات، وكلاهما وجه.

● **الإعراب:** ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ الكاف في موضع نصب، أي: مثل أفعالهم جازاهم ربك، وقوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ أي: حقيق عليهم أنهم لا يؤمنون، ويجوز أن يكون على تقدير: حقت عليهم الكلمة، لأنهم لا يؤمنون، وتكون الكلمة ما وعدوا به من العقاب.

● **المعنى:** ثم قرر سبحانه أدلة التوحيد والبعث عليهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ أي: من يخلق لكم الأزواق ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ بإنزال المطر والغيث ومن ﴿الْأَرْضِ﴾ بإخراج النبات وأنواع الثمار، والرزق في اللغة هو العطاء الجاري، يقال: رزق السلطان الجند، إلا أن كل رزق فإن الله هو الرزاق به، لأنه لو لم يطلقه على يد ذلك الإنسان لم يجيء منه شيء، فلا يطلق اسم الرزاق إلا على الله تعالى، ويقيد في غيره، كما لا يطلق

(١) قاله جنوب أخت عمرو ذي الكلب ترثي أخاها، وقبله:

أبلغ هذيلًا، وأبلغ من يبلغها عني حديثًا، وبعض القول تكذيب
وشريان - بالكسر - موضع بعينه، أو واد.

اسم الرب إلا عليه، ويقيد في غيره، فيقال: رب الدار، ورب الضيعة، ولا يجوز أن يخلق الله حيواناً يريد تَبْقِيَّتَهُ إلا ويرزقه، لأنه إذا أراد بقاءه فلا بد له من الغذاء. ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ معناه: أم من يملك أن يعطيكم الأسماع والأبصار، فيقويها وينورها، ولو شاء لسلب نورها وحسها.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ قيل: معناه ومن يخرج الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان.

وقيل: معناه أم من يملك أن يعطيكم الأسماع والأبصار، فيقويها وينورها، ولو شاء لسلب نورها وحسها ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ قيل: معناه ومن يخرج الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان.

وقيل: معناه ومن يخرج الحيوان من بطن أمه إذا ماتت أمه، ويخرج غير التام، ولا البالغ حد الكمال من الحي. وقيل: معناه ومن يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي: ومن الذي يدبر جميع الأمور، في السماء والأرض على ما توجبه الحكمة ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: فسيعترفون بأن الله تعالى يفعل هذه الأشياء وأن الأصنام لا تقدر عليها.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَنْفَقُونَ﴾ أي: فقل لهم عند اعترافهم بذلك: أفلا تنفقون عقابه في عبادة الأصنام؟ وفي الآية دلالة على التوحيد، وعلى حسن المحاجة في الدين، لأنه سبحانه حاجٌّ به المشركين. وفيها دلالة على أنهم كانوا يقرون بالخالق، وإن كانوا مشركين، فإن جمهور العقلاء يقرون بالصانع، سوى جماعة قليلة من ملحدة الفلاسفة. ومن أقر بالصانع على هذا صنفان: موحد يعتقد أن الصانع واحد، لا يستحق العبادة غيره، ومشارك وهم ضريان: فضرب جعلوا لله شريكاً في ملكه، يضاده وينائوه، وهم الثنوية والمجوس، ثم اختلفوا: فمنهم يثبت لله شريكاً قديماً كالمانوية، ومنهم من يثبت شريكاً محدثاً كالمجوس، وضرب آخر لا يجعل لله تعالى شريكاً في حكمه وملكه، ولكن يجعل له شريكاً في العبادة، يكون متوسطاً بينه وبين الصانع، وهم أصحاب المتوسطات.

ثم اختلفوا: فمنهم من جعل الوسائط من الأجسام العلوية، كالنجوم والشمس والقمر، ومنهم من جعل المتوسط من الأجسام السفلية، كالأصنام ونحوها، تعالى الله عما يقول الزائغون عن سبيله علواً كبيراً. ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ ذلك إشارة إلى اسم الله تعالى الذي وصفه في الآية الأولى بأنه الذي يرزق الخلق، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، والكاف والميم للمخاطبين، وهم جميع الخلق، أخبر سبحانه أن الذي يفعل هذه الأشياء ﴿رَبِّكُمْ أَلَمْ يَخْلُقْ﴾ الذي خلقكم، ومعبودكم الذي له معني الإلهية، ويحق له العبادة دون غيره من الأصنام والأوثان.

﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَيِّ إِلَّا الْفُلْكَ﴾ استفهام يراد به التقرير على موضع الحجة، إذ لا يجد المجيب محيداً عن الإقرار به، إلا بذكر ما لا يلتفت إليه، والمراد به: ليس بعد الذهاب عن الحق إلا الوقوع في الضلال، لأنه ليس بينهما واسطة، فإذا ثبت أن عبادته هو الحق، ثبت أن عبادة ما سواه باطل وضلال ﴿فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ أي: فكيف تعدلون عن عبادته، مع وضوح الدلالة على أنه لا معبود سواه. ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: أن

الوعيد من الله تعالى للكفار بالنار في الصحة كالقول بأنه ليس بعد الحق إلا الضلال. وقيل: إن معناه، مثل انصرافهم عن الإيمان، وجبت العقوبة لهم، أي جازاهم ربهم بمثل ما فعلوا من الانصراف، وهذا في قوم علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون، ومعناه: سبق علم ربك في هؤلاء أنهم لا يؤمنون. وقيل: معنى قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) أي: لأنهم لا يؤمنون، أي: وجبت العقوبة عليهم لذلك.



قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنَّ تَوَفَّكَونَ﴾^(٢٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٢٥) وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٢٦).

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، غير عاصم: ﴿أمن لا يهدي﴾ ساكنة الهاء خفيفة الدال، وقرأ أهل المدينة، غير ورش: ﴿يَهْدِي﴾ ساكنة الهاء مشددة الدال، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وروح، وزيد، عن يعقوب: ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الباء والهاء وتشديد الدال، إلا أن أبا عمرو أشار إلى فتحة الهاء من غير إشباع، وقرأ عاصم، غير حماد، ويحيى، ورويس، عن يعقوب: ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الباء وكسر الهاء وتشديد الدال، وقرأ حماد، ويحيى، عن أبي بكر، عن عاصم: ﴿يَهْدِي﴾ بكسر الباء والهاء والتشديد.

● **الحجة:** قوله: ﴿يَهْدِي وَيَهْدِي وَيَهْدِي وَيَهْدِي﴾، أصل جميعها يهتدي، يفتعل وإن اختلفت ألفاظها، أدغموا التاء في الدال لمقاربتها لها، فإنهما من حيز واحد. ثم اختلفوا في تحريك الهاء، فمن قرأ: ﴿يَهْدِي﴾ ألقى حركة الحرف المدغم وهو التاء على الهاء. ومن قرأ ﴿يَهْدِي﴾ بكسر الهاء، فإنه حرك الهاء بالكسر لالتقاء الساكنين، ومن سكن الهاء جمع بين الساكنين، ومن أشم الهاء ولم يسكن فالإشمام في حكم التحريك. ومن كسر الباء مع الهاء أتبع ما بعدها من الكسرة، وهو رديء لثقل الكسر في الباء.

● **الإعراب:** قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ما: مبتدأ، ولكم خبره، وكيف: منصوب بقوله: ﴿تحكمون﴾. ﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يجوز أن يكون قوله: شيئاً، مفعول يغني، ويجوز أن يكون في موضع مصدر، أي: لا يغني من الحق غناء، وكذا قيل في قوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ قالوا: هو مفعول تجزي، وقالوا: هو مصدر أي: جزاء، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ قالوا: هو مفعول تشركوا، وقالوا: هو مصدر أي: لا تشركوا به إشراكاً، وكذلك قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

● **المعنى:** ثم احتج سبحانه عليهم في التوحيد باحتجاج آخر فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ أي: هل من هذه الأصنام التي جعلتموها شركاء لله في العبادة، وقيل الذين جعلتموهم شركاء في أموالكم، كما قال: ﴿وَهَكَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾، من يبدء الخلق بالإنشاء بعد أن لم يكن وهو النشأة الأولى، ثم يعيده في النشأة الثانية ﴿قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ معناه فإن قالوا: ليس من شركائنا من يقدر عليه، أو سكتوا، فقل أنت لهم: هو الذي ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ بأن ينشئه على غير مثال ثم يفنيه، ثم يعيده يوم القيامة. ﴿فَأَنذَرْتُكَ نَارَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: كيف تصرفون عن الحق، وتقلبون عن الإيمان.

ثم استأنف الحجاج فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي: هل من هذه الأصنام من يهدي الناس إلى الرشd، وما فيه الصلاح والنجاة، والخير بدلالة نصبها، وحجة يظهرها؟ فلا بد من أن يجيبوا: بلا ﴿قُلْ﴾ أنت لهم هو الذي ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ إلى طريق الرشاد. يقال: هَدَيْتُ إِلَى الْحَقِّ، وَهَدَيْتُ لِلْحَقِّ، بمعنى واحد ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ معناه: أفمن يهدي غيره إلى طريق التوحيد والرشd ﴿أَحَقُّ أَنْ يُنْفَخَ﴾ أمره ونهيهِ ﴿أَمَّنْ لَا يَهْدِي﴾ أحداً ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ أو لا يهتدي هو إلا أن يهدي، والأصنام لا تهتدي ولا تهدي أحداً وإن هُديت لأنها موات من حجارة ونحوها، ولكن الكلام نزل على أنها إن هُديت اهتدت، لأنهم لما اتخذوها آلهة عبر عنها كما يعبر عن يعقل، ووصفت بصفة من يعقل، وإن لم يكن في الحقيقة كذلك، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَغِيثُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثَالِكُمْ﴾ وإنما هُنَّ موات. ألا ترى أنه قال: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْجُبُوا لَكُمْ أَلَهُمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا﴾ الآية، وكذلك قوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ فأجري عليه اللفظ كما يجري على من يعلم، وعلى هذا فقلوه: ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ إلا بمنزلة حتى، فكأنه قال: أمن لا يهتدي حتى يهدي، أم من لا يعلم حتى يُعلم، ومن لا يستدل على شيء حتى يُدَلَّ عليه، وإن كان لو دُلَّ أو عُلِّم لم يستدل ولم يعلم، ولو هُدي لم يهتد، بين الله سبحانه بذلك جهلهم، وقلة تمييزهم، في تسويتهم من لا يعلم ولا يقدر، بالله القادر والعالم.

وقال البلخي: لا يهدي ولا يهتدي بمعنى واحد، يقال: هديته فهدي، أي اهتدى. وقيل: إن المراد بذلك الملائكة والجن، لأنهم يهتدون إذا هُدُوا. وقيل: المراد به الرؤساء والمضلون، الذين يدعون إلى الكفر. وقيل: إن المعنى في قوله: ﴿لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ لا يتحرك إلا أن يُحْرَك، ولا ينتقل إلا أن ينقل، كقول الشاعر:

«حَيْثُ تَهْدِي سَاقَهُ قَدُمُهُ»^(١)

أي يحمل. وقيل معناه: إلا أن يركب الله فيه آلة التمييز والهداية، ويرزقه فهماً وعقلاً، فإن هُدي حيثُ اهتدى.

(١) قائله طرفه، وهذا عجز بيت قبله «الفتى عقل يعيش به».

﴿فَمَا لَكَ﴾ قال الزجاج: هذا كلام تام، كأنه قال: أي شيء لكم في عبادة من لا يضر ولا ينفع ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا تعجيب من حالهم، أي كيف تقضون بأن هذه الأصنام آلهة وأنها تستحق العبادة؟ وقيل: كيف تحكمون لأنفسكم بما لا توجهه الحجة، ولا تشهد بصحته الأدلة ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ليس يتبع أكثر هؤلاء الكفار إلا ظناً، الظن الذي لا يجدي شيئاً، من تقليد آبائهم ورؤسائهم ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَىٰ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ لأن الحق إنما ينتفع به من علمه حقاً، وعرفه معرفة صحيحة، والظن يكون فيه تجويز أن يكون المظنون على خلاف ما ظن، فلا يكون مثل العلم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من عبادة غير الله تعالى فيجازيهم عليه، وفيه ضرب من التهديد.



قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنِيقُهُ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٣٠).

● اللغة: ﴿الْقُرْآنُ﴾: عبارة عن هذا الكلام الذي هو في أعلى طبقات البلاغة، مع حسن النظام والجزالة. والتفصيل، والتقسيم، والتمييز، نظائر، وضده التلبيس والتخليط. والسورة: جملة منزلة محيطة بآيات الله، كإحاطة سور البناء بالبناء. والاستطاعة: حالة للحي تنطاع بها الجوارح للفعل، وهي مأخوذة من الطوع. والقدرة مأخوذة من القدر، فهي معنى يمكن أن يوجد بها الفعل وألا يوجد، لتقصير قدره عن ذلك المعنى.

● الإعراب: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: لأن يفترى، ويجوز أن يكون المعنى: ما كان هذا القرآن افتراء، فيكون مصدراً في موضع نصب، بأنه خبر كان و﴿تَصْدِيقُ﴾ عطف عليه، أي: ولكن كان تصديق الذي بين يديه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أم هذه هي المنقطعة، وتقديره: بل يقولون ﴿وَكَيْفَ﴾: في موضع نصب، على أنه خبر كان.

● المعنى: ثم ردَّ الله سبحانه على الكفار قولهم: إئت بقرآن غير هذا أو بدله، وقولهم: إن النبي افتري هذا القرآن، فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ﴾ أي: افتراء ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فأقام أن مع الفعل مقام المصدر، بل هو وحي من الله ومتلقى منه ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، كما قال في موضع آخر: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهذه شهادة من الله بأن القرآن صدق وشاهد لما تقدم، من التوراة والإنجيل والزرور، بأنها حق، ومن وجه آخر: هو شاهد لها من حيث إنه مصداق لها على ما تقدمت البشارة به فيها. وقيل: معناه تصديق الذي بين يديه في المستقبل، من البعث والنشور والحساب والجزاء ﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي: تبين المعاني المجملة في القرآن، من الحلال، والحرام، والأحكام الشرعية. وقيل: معناه وبيان الأدلة التي تحتاجون

إليها في أمور دينكم ﴿لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لا شك فيه أنه نازل من عند الله، وأنه معجز لا يقدر أحد على مثله، وهذا غاية في التحدي.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾: هذا تقرير على موضع الحجة بعد مضي حجة أخرى، وتقديره: بل يقولون افترى هذا؟ فالزعمهم على الأصل الفاسد إمكان أن يأتوا بمثله و ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فَأَتَوْا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي مثله في البلاغة، لأنكم من أهل لسانه، فلو قدر على ذلك لقدرتم أنتم أيضاً عليه، فإذا عجزتم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من كلام البشر، وأنه منزل من عند الله عز اسمه. وقيل: ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، أي: بسورة مثل سورة منه، وقال ﴿مِثْلِهِ﴾ لأنه إنما التمس من هذا شبه الجنس ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: وادعوا من قدرتم عليه من دون الله، واستعينوا به للمعاضدة على المعارضة بسورة مثله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن هذا القرآن مفترى من دون الله وهذا أيضاً غاية في التحدي والتعجيز.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أي: بما كذبوا ولم يعلموه من جميع وجوهه، لأن في القرآن ما يعلم المراد منه بدليل، ويحتاج إلى الفكر فيه، والرجوع إلى الرسول في معرفة مراده، وذلك مثل المتشابه، فالكفار لما لم يعرفوا المراد بظاهره كذبوا به. وقيل: معناه بل كذبوا بما لم يحيطوا علماً بكيفية نظمه وترتيبه، وهذا كما أن الناس يعرفون ألفاظ الشعر، والخطب، ومعانيها، ولا يمكنهم إبداعها، لجهلهم بنظمها وترتيبها. قال الحسن: معناه: بل كذبوا بالقرآن من غير علم ببطلانه. وقيل: معناه بل كذبوا بما في القرآن من الجنة والنار، والبعث والنشور، والثواب والعقاب. ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: لم يأتهم بعد حقيقة ما وعد في الكتاب، مما يؤول إليه أمرهم من العقوبة. وقيل: معناه أن في القرآن أشياء لا يعلمونها هم، ولا يمكنهم معرفتها إلا بالرجوع إلى النبي ﷺ، فلم يرجعوا إليه وكذبوا به، فلم يأتهم تفسيره وتأويله. فيكون معنى الآية: بل كذبوا بما لم يدركوا علمه من القرآن، ولم يأتهم تفسيره، ولو راجعوا فيه رسول الله ﷺ لعلموه.

وروي عن أبي عبيد الله عليه السلام أنه قال: إن الله خص هذه الأمة بأيتين من كتابه: ألا يقولوا إلا ما يعلمون، وألا يردوا ما لا يعلمون، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الآية، وقرأ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ الآية. وقيل: إن من هنا أخذ أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «الناس أعداء ما جهلوا»، وأخذ قوله: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، من قوله عز وجل: ﴿فَأَقْرَضَ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْخِيزَةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ﴾ وأخذ قوله: «تكلّموا تُعرّفوا»، من قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم السالفة رسلها ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: كما كان عاقبة أولئك الهلاك، كذلك يكون عاقبة هؤلاء. ثم أخبر سبحانه أن من جملة هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن، ونسبوه إلى الافتراء، من سيؤمن به في المستقبل، ويصدق بأنه من عند الله، ومنهم من يموت على كفره، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وأراد سبحانه أنه إنما لا يهلكهم في الحال

لما علم في تبقيتهم من الصلاح. وقيل: معناه ومنهم من يؤمن بالقرآن في نفسه ويعلم صحته، إلا أنه يعاند ويظهر من نفسه خلاف ما يعلمه، ومنهم من هو شاك فيه، فكأنه قال: ومنهم معاندون، ومنهم شاكون ﴿وَرَبِّكَ أَغْلَىٰ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي بمن يدوم على الفساد، ويعلم من يتوب.



قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد ولم يصدقوك، وردوا عليك قولك ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لِي عَمَلِي﴾ فإن كنت كاذباً فوباله علي. ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: ولكم جزاء عملكم ﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ نظيره قوله: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة، وهذا وعيد لهم من الله تعالى، كقوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾ ونحوه. وقيل: إن هذه الآية منسوخة بآية القتال. وقيل: إنه لا تنافي بين هذه الآية وآية القتال، لأنها براءة ووعد، وذلك لا ينافي الجهاد.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ معناه: ومن جملة هؤلاء الكفار من يستمع إليك يا محمد، والاستماع طلب السمع، فهم كانوا يطلبون السمع للرد لا للفهم، فلذلك لزمهم الدم، فإنهم إذا سمعوه على هذا الوجه، كأنهم صم لم يستمعوه، حيث لم ينتفعوا به ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، بأنه لا يقدر على إسماع الصم ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال الزجاج معناه: ولو كانوا جهالاً، وهذا مثل قول الشاعر:

«أَصَمُّ عَمَّا سَاءَ سَمِيعٌ»

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: ومن جملتهم من ينظر إليك يا محمد، فلم يخبر بلفظ الجمع هنا لأنه حملة على اللفظ، وقال: ﴿مَّنْ يَسْتَمِعُونَ﴾ فأخبر بلفظ الجمع حملاً على المعنى، أي: ينظر إلى أفعالك وأقوالك، لا نظر الحقيقة والعبرة بل نظر العادة، فلا ينتفع بنظره ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: فكما أنك لا تقدر أن تبصر العمي فتنتفعهم به، كذلك لا تقدر أن تنفع بما تأتي به من الأدلة من ينظر إليها، ولا يطلب الانتفاع بها، وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ اسْتَفْهَمَ يَرَادُ بِهِ النَّفْيُ، وَقِيلَ: إِنَّ مَعْنَى الْآيَتَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَىٰ كَلَامِكَ اسْتِمَاعَ الطَّعْنِ وَالتَّعَنُّتِ، وَيَنْظُرُ إِلَىٰ أَدْلَتِكَ نَظَرَ الطَّاعِنِ الْقَادِحِ فِيهَا، الْمَكْذَبَ بِهَا، الرَّادَ عَلَيْهَا، فَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَنْتَفِعَ بِمِثْلِ هَذَا الْاسْتِمَاعِ وَالنَّظَرِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قد تمدح سبحانه في هذه الآية، بأنه لا يظلم أحداً من الناس شيئاً، بأن ينقص من حسناتهم وجزاء طاعاتهم، ولكنهم ينقصون

أنفسهم ويظلمونها، بارتكاب ما نهى الله عنه من القبائح، والمعنى هنا: أن الله تعالى لا يمنع أحدا الانتفاع بما كلفهم الانتفاع به من القرآن والأدلة، ولكنهم يظلمون أنفسهم بترك النظر فيه، والاستدلال به، وتفويتهم أنفسهم الثواب، وإدخالهم عليها العقاب، ففي الآية دلالة على أنه سبحانه لا يفعل الظلم، فبطل قول المجبرة في إضافة كل ظلم إلى خلقه وإرادته.

● **النظم:** قيل في اتصال الآية الأولى بما قبلها: إنه سبحانه لما بيّن دلائل التوحيد والنبوت، فعاندوا وكذبوا، أمر فيما بعد بقطع العصمة عنهم والوعيد لهم. وأما الآية الأخيرة، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا﴾ فالوجه في اتصالها بما قبلها، أنها تتصل بقوله: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني أنهم استحقوا ذلك الهلاك والعذاب بأفعالهم، وما ظلمناهم. وقيل: إنها اتصلت بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ فكأنه قال: إن الله لا يمنهم الانتفاع بما كلفهم، بل مكّهم ويبيّن لهم هداهم، وأزاح علتهم، ولكن ظلموا هم أنفسهم، بترك الانتفاع به، عن الجبائي، وأبي مسلم. وقيل: إنه لما تقدم ذكر الوعد والوعيد، بيّن سبحانه أنه لا يظلمهم، أي: لا ينقص من حسناتهم، ولا يزيد في سيئاتهم.



قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُنْفِقُ فَنَآلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص، عن عاصم ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ بالياء، والباقون بالنون.

الحجة والإعراب: قال أبو علي: يحتمل قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون صفة ليوم.

والآخر: أن يكون صفة للمصدر المحذوف.

والثالث: أن يكون حالا من الضمير في نحشروهم.

فإذا جعلته صفة ليوم، احتمل ضربين من التأويل:

أحدهما: أن يكون التقدير: كأن لم يلبسوا قبله إلا ساعة، فحذفت الكلمة لدلالة المعنى عليها، ومثل ذلك في حذف هذا النحو منه، قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْ مَمَرِهِمْ فَأَسْكُوهُمْ﴾ أي: أسكوهن قبله، وكذلك قوله: ﴿يَرَبِّصَنَّ أَفَأَسْفِهَنَ﴾ أي: يتربصن بعدهم.

ويجوز أن يكون المعنى: كأن لم يلبسوا قبله، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، ثم حذفت الهاء من الصفة، كقولك: الناس رجلاّن: رجل أهنتم، ورجل أكرمتم. ومثل هذا في حذف المضاف وإقامة الصفة المضاف إليه مقامه، قوله: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ التقدير: وجزاؤه واقع بهم، فحذف المضاف.

وإن جعلته صفة للمصدر، كان على هذا التقدير الذي وصفناه وبمثله.

وإن جعلته حالاً من الضمير المنصوب لم يحتج إلى حذف شيء من اللفظ، لأن الذكر من الحال قد عاد إلى ذي الحال، والمعنى: نحشرهم مشابهة أحوالهم أحوال من لم يلبث إلا ساعة.

وأما ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ فإنه يصلح أن يكون معمولاً لأحد شيئين:

أحدهما: أن يكون معمول ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾.

والآخر: أن يكون ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ لما دل عليه قوله: ﴿كَانَ لَوْ يَلْبَثُوا﴾ فإذا جعلته معمولاً لقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ انتصب يوم على وجهين:

أحدهما: أن يكون ظرفاً معناه: يتعارفون في هذا اليوم.

والآخر: أن يكون مفعولاً على السعة على قوله:

يَا سَارِقَ اللَّيْلَةِ أَهْلَ الدَّارِ

ومعنى يتعارفون يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون المعنى: مدة إمامتهم، التي وقع حشرهم بعدها، وحذف المفعول للدلالة عليه، كما حذف في مواضع كثيرة، وعدى تفاعل كما يعدي في قوله:

تَخَاطَأَتِ النَّجَلُ أَحْشَاءَهُ

أو يكون أعمل الفعل الذي دل عليه ﴿يتعارفون﴾. ألا ترى أنه قد دل على يستعملون ويتعارفون، وتعرفوا مدة اللبث هاهنا كما تعرفوها في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

والآخر: في التعارف ما جاء من قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيْ أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ﴾ فتعارفهم يكون على أحد هذين الوجهين. فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ معمول ﴿يتعارفون﴾.

والآخر: أن يكون ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ معمول ما دل عليه قوله: ﴿كَانَ لَوْ يَلْبَثُوا﴾ ألا ترى أن المعنى: تُشابه أحوالهم أحوال من لم يلبث، فيعمل في الظرف هذا المعنى، ولا يمتنع المعنى من أن يعمل في الظرف، وإن تقدم الظرف عليه، كقولهم: أكل يوم لك ثوب

وإذا حملته على هذا لم يجز أن يكون صفة للمصدر، لأن الموصوف الذي هو المصدر موضعه بعد الفعل، تقديره: يوم نحشرهم حشراً كأن لم يلبثوه، أو لم يلبثوا قبله، والصفة لا يتقدم عليها ما تعمل فيه.

ولا يجوز أيضاً أن تجعله صفة ليوم على هذا، لأن الصفة لا تعمل في الموصوف، ألا ترى أن الصفة شرح للموصوف، كما أن الصلة لا تعمل في الموصول لذلك.

فإن قلت: فإذا قدرت ﴿كَانَ لَوْ يَلْبَثُوا﴾ على تقدير الحال من الضمير، هل يجوز أن يكون

يوم معمولاً له؟ فإن ذلك لا يجوز، لأن العامل في الحال يحشر، أو نحشر، وقد أضيف اليوم إليه، ولا يجوز أن يعمل في المضاف المضاف إليه، ولا ما يتعلق بالمضاف إليه، لأن ذلك يوجب تقديمه على المضاف، ألا ترى أنه لم يجز القتال زيداً حين يأتي.

وإذا جعلت يتعارفون العامل في ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ لم يجز أن يكون صفة ليوم، على أنك كأنك وصفت اليوم بقوله: ﴿كَانَ لَوْ يَلْبَثُوا﴾ و ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ فوصفت يوم نحشرهم بجملتين لم يجز أن يكون معمولاً لقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ لأن الصفة لا تعمل في الموصوف، وجاز وصف اليوم بالجمل وإن أضيف، لأن الإضافة ليست بمحضة فلم تعرفه.

ويدل على النون في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ قوله سبحانه: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾، و﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ويدل على الياء قوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ وكل واحد منهما يجري مجرى الآخر.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه حالهم يوم الجمع، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: يجمعهم من كل مكان إلى الموقف ﴿كَانَ لَوْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ أي: كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار، ومعناه: أنهم استقلوا أيام الدنيا، فإن المكث في الدنيا وإن طال، كان بمنزلة مكث ساعة في جنب الآخرة، عن الضحك، وجماعة. وقيل: استقلوا أيام مقامهم في الدنيا، لقلة انتفاعهم بأعمارهم فيها، فكأنهم لم يلبثوا إلا يوماً فيها، لقلة فائدتها. وقيل إنهم استقلوا مدة لبثهم في القبور، عن ابن عباس. وقد دل الله سبحانه بذلك، على أنه لا ينبغي لأحد أن يغتر بطول ما يأمله من البقاء في الدنيا، إذا كان عاقبته إلى الزوال. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ معناه: أن الخلق يعرف بعضهم بعضاً في ذلك الوقت، كما كانوا في الدنيا كذلك. وقيل معناه: يُعرَف بعضهم بعضاً، ما كانوا عليه من الخطأ والكفر. قال الكلبي: يتعارفون إذا خرجوا من قبورهم، ثم تنقطع المعرفة إذا عابوا العذاب، ويتبرأ بعضهم من بعض. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي: بقاء جزاء الله ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ للحق. قال الحسن معناه: خسروا أنفسهم، لأنهم لم يكونوا مهتدين في الدنيا، ولو كانوا مهتدين في الدنيا لم يخسروا أنفسهم. ومعناه: أنهم خسروا الدنيا حين صرفوها إلى المعاصي، وخسروا الآخرة حين فوتوها على أنفسهم بمعاصيهم.

﴿وَلِإِنَّا لَرْؤُوسُكُ﴾ يا محمد في حياتك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ﴾ أي: نعد هؤلاء الكفار من العقوبة في الدنيا، قالوا: ومنها وقعة بدر ﴿أَوْ نَوَفِّئُكَ﴾ أي: نमितك، قبل أن ينزل ذلك بهم، وينزل ذلك بهم بعد موتك ﴿وَلِإِنَّا لَمَرْجِعُهُمْ﴾ أي: إلى حكمنا مصيرهم في الآخرة، فلا يفوتونا. وقيل: إن الله سبحانه وعد نبيه ﷺ أن ينتقم له منهم، إما في حياته أو بعد وفاته، ولم يحده بوقت، فقال: إن ما وعدناه حق لا محالة ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عليم بأفعالهم، حافظ لها، فهو يوفيه عقاب معاصيهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ أي: لكل جماعة على طريقة واحدة، ودين واحد، كأمة محمد، وأمة موسى وعيسى ﷺ، رسول بعثه الله إليهم وحمله الرسالة التي يؤديها إليهم ﴿فَإِذَا جَاءَ رُسُلَهُمْ﴾ ههنا حذف، وإضمار، والتقدير: فإذا جاء رسولهم وبلغ الرسالة، فكذبهم قوم، وصدقه

آخرون ﴿فُتِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فيهلك المكذبون، ويُنجي المؤمنون. وقيل: معناه فإذا جاء رسولهم يشهد عليهم يوم القيامة، عن مجاهد. وقيل: في الدنيا بما أذن الله له من الدعاء عليهم، قضى بينهم، أي: فصل بينهم الأمر على الختم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُلْطَوْنَ﴾ أي: لا ينقصون عن ثواب طاعتهم، ولا يزدادون في عقاب سيئاتهم.



قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَتَنْتَرُونَ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ مِنْهُمْ بِهِ ءَأَلْتُمْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢).

● **اللغة:** الوعد: خبر بما يعطى من الخير، والوعيد: خبر بما يعطى من الشر، هذا إذا فصل، فإن أجمل وقع الوعد على الجميع، والنفع: هو اللذة والسرور، وما أدى إليهما، أو إلى واحد منهما. والضرر: الألم والغم، وما أدى إليهما، أو إلى واحد منهما. والأجل: هو الوقت المضروب لوقوع أمر، كأجل الدين، وأجل الإنسان.

● **الإعراب:** ﴿مَتَى﴾ سؤال عن الزمان، وأين: سؤال عن المكان ﴿بَيْنَنَا﴾ منصوب على الظرف، وقوله: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾ يجوز أن يكون ﴿مَا﴾ في موضع رفع، وذلك إذا كان ﴿ذَا﴾ بمعنى الذي، والمعنى: ما الذي يستعجل منه المجرمون؟ فيكون ما مبتدأ، والذي خبره، ويجوز أن يكون في موضع نصب، وذلك إذا جعلت ﴿مَا﴾ و ﴿ذَا﴾ اسماً واحداً، والمعنى: أي: شيء يستعجل منه المجرمون من العذاب أو من الله؟ فيكون مفعول ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾، ويكون جواب ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ محذوفاً، وتقدير الكلام: أرايتم ماذا يستعجل من العذاب المجرمون إن أناكم عذابه بيانا أو نهاراً؟ أو وقع ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ في وسط الكلام موقع الاعتراض، ومعنى، ماذا يستعجل ههنا: الإنكار، أي: ليس في العذاب شيء يستعجل به، وجاء في صيغة الاستفهام، لأنه لا جواب لصاحبه يصح له، وقوله: ﴿أَتَنْتَرُونَ﴾ دخلت ألف الاستفهام على ثم التي للعطف، لتدل على أن معنى الجملة الثانية بعد الأولى، مع أن للألف صدر الكلام، والعامل في ﴿إِذَا﴾ قوله: ﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِ﴾ وقوله: ﴿ءَأَلْتُمْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تقديره: الآن به تؤمنون.

● **المعنى:** لما وعد سبحانه المكذبين، بين عقبيه أنهم استعجلوا ذلك على سبيل التكذيب والرد، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: ويقول هؤلاء المشركون ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا به، من البعث، وقيام الساعة. وقيل: من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك ﴿قُلْ﴾ يا محمد جواباً لهم ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدر لنفسي على ضرر أو نفع ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يملكني أو يقدرني عليه، فكيف أقدر لكم؟ لأنني إذا لم أقدر على ذلك كنت عن إنزال العذاب وعن معرفة وقته أعجز، أو يكون معناه: إذا لم أملك لنفسي شيئاً من ذلك إلا ما ملكني

إِيَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى، فكيف أملك تقديم القيامة، وتعجيل العقوبة قبل الوقت المقدر له؟! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي لكل أمة في عذابها على تكذيب الرسل وقت معلوم ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ فلا يتأخرون عن ذلك الوقت، ولا يتقدمون عليه، بل يهلكهم في ذلك الوقت بعينه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المستعجلين بالعذاب ﴿أَوْ يَشَاءُ﴾ أي: أعلمتم ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ أي: عذاب الله ﴿يَبْتَئُونَ﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهذا استفهام، معناه: التفضيع والتهويل، كما يقول الإنسان لمن هو في أمر يستوخم عاقبته: ماذا تجني على نفسك؟ وهذا جواب لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾.

وقال أبو جعفر الباقر (عليه السلام): يريد بذلك عذاباً ينزل من السماء، على فسقة أهل القبلة، في آخر الزمان، ونعوذ بالله منه ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنُكُمْ بِهِ﴾ هذا استفهام معناه الإنكار، وتقديره: أحين وقع بكم العذاب المقدر الموقت آمنتم به، أي: بالله في وقت اليأس. وقيل: بالقرآن. وقيل: بالعذاب الذي كنتم تنكرونه، فيقال لكم: ﴿أَلَنْتُمْ﴾ تؤمنون وقد اضطررتم لحلوله ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالعذاب ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من قبل مكذبين مستهزئين. وقال الحسن معناه: ثم أنكم ستؤمنون به، عند وقوع العذاب، فلا ينفعكم إيمانكم، ونظيره: ﴿أَلَنْتُمْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: ثم يقال يوم القيامة للذين ظلموا أنفسهم: ذوقوا عذاب الدوام في الآخرة بعد عذاب الدنيا ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ معناه: أنكم قد دعيتم وهديتم وبين لكم الأدلة، وأزيحت عنكم العلة، فأبيتُم إلا التماسي في الكفر، والانهماك في الغي، فذوقوا جزاء أعمالكم، وإنما شبهوا بالذائق: وهو الذي يطلب الطعم بالفم، لأنه أشد إحساساً. وقيل: لأنهم يتجرعون العذاب، بدخوله أجوافهم.



قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٢) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٤) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٥)

● **اللغة:** الاستنباء: طلب النبا الذي هو الخبر. والافتداء: إيقاع الشيء بدل غيره، لدفع المكروه به، يقال: فداه يفديه فدية وفداء، وافتداه افتداء، وفاداه مفادة.

● **الإعراب:** ﴿أَلَا﴾: كلمة تستعمل في التنبيه، وأصلها ﴿لَا﴾ دخل عليها حرف الاستفهام تقريراً وتذكيراً، فصارت تنبيهاً، وكسرت إن بعد ﴿أَلَا﴾، لأن ﴿أَلَا﴾ يستأنف ما بعدها، لينبه بها على معنى الابتداء، ولذلك وقع بعدها الأمر، والدعاء، كقول امرئ القيس: «ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالي».

● **المعنى:** ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يا محمد، أي: يطلبون منك أن تخبرهم ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أي: أحق

ما جئت به من القرآن، والنبوة، والشرعية؟ وقيل: أحق ما تعدنا من البعث والقيامة والعذاب؟، عن الجبائي. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي وَرَيْتُ﴾ أي نعم، وحق الله ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ لا شك فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بسابقين فائتين، وهذا الاستخبار، ويحتمل أن يكون إنما وقع منهم على وجه التعريف والاستفهام، ويحتمل أن يكون وقع على وجه الاستهزاء. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أي: أشركت بالله، عن ابن عباس. وقيل: ظلمت بكل ما يسمى ظلماً ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من الأموال ﴿لَافْتَدَتْ بِهٖ﴾ من هول ما يلحقها من العذاب ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: أخفوا الندامة، أي: أسر الندامة رؤساء الضلالة، من الاتباع والسفلة. وقيل: أسروا الندامة، أي: أخلصوها، والندامة: الحسرة على ما كان يتمنى أنه لم يكن. وقيل: أسروا، أي: أظهروا، عن أبي عبيدة، والجبائي، وقال الأزهري: وهذا غلط، لأن ما يكون بمعنى الإظهار يكون بالشين المنقطعة من فوق.

﴿وَفُضِّلَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: فصل بينهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيما يفعل بهم من العقاب، لأنهم جنوه على أنفسهم، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إنما أسروا الندامة وهم في النار، كراهية لشماتة الأعداء على أنفسهم ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له ملك السموات والأرض، وما فيهما، فلا يقدر أحد على منعه من إحلال العقاب بمملوكه المستحق له ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بإحلال العقاب بالمجرمين ﴿حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحة ذلك، لجهلهم به تعالى، وبصحة ما أتى به النبي ﷺ ﴿هُوَ بَئِي﴾ أي: يحيي الخلق بعد كونهم أمواتاً ﴿وَيُيَبِّئُ﴾ أي: يميتهم بعد أن كانوا أحياء ﴿وَالَّذِينَ يُرْجَمُونَ﴾ يوم القيامة فيجازيهم على أعمالهم. قال الجبائي: وفي هذه الآية دلالة على أنه لا يقدر على الحياة إلا الله تعالى، لأنه تعالى تمدح بكونه قادراً على الإحياء والإماتة.

● النظم: وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها، أن قوله: ﴿يَسْتَعِظُونَكَ﴾ عطف على ﴿يَسْتَعِظُونَكَ﴾ المعنى: أنهم يستعجلونك ويقولون: متى تكون القيامة والعذاب؟ أو يستخبرونك: أحق ما تقول من كونه؟ ووجه اتصال قوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بما قبله، اتصال الإثبات بالنفي، وتقديره: ليس للظالم ما يفتدي به، بل جميع الملك له تعالى، وقيل: إنه يتصل بما قبله، بمعنى: أن من يملك السماوات والأرض يقدر على إيقاع ما توعد به، ووجه اتصال قوله: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بما قبله أنه إذا خلق السماوات والأرض لا للعبث، بل لمنافع الخلق، فلا يجوز عليه خلف الوعد. وأيضاً: فإن من صفة الخالق أن يكون عالماً لذاته، غنياً، غير محتاج، والخلف كذب قبيح، ولا بد للفعل من داع، والداعي إلى القبيح إما الجهل بقبحه، أو الحاجة إليه، فإذا لا يجوز الخلف عليه، إذ لا داعي له إليه.



قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ .

سورة يونس

ونعمة لمن تمسك به، وعمل بما فيه، وخص المؤمنين بالذكر وإن كان القرآن موعظة ورحمة لجميع الخلق، لأنهم الذين انتفعوا به. وصف الله سبحانه القرآن في هذه الآية بأربع صفات: بالموعظة، والشفاء لما في الصدور، وبالهدى، والرحمة. ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ﴾ معناه: قل يا محمد بإفضال الله وبنعمته، فإنه يجوز إطلاق الفاضل على الله تعالى، فوضع الفضل في موضع الإفضال، كما وضع النبات في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ في موضع الإنبات، وقيل: إن إضافة الفضل إلى الله بمعنى الملك، كما يضاف العبد إليه، بأنه مالك له ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ لَفِي فَرْحٍ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قال الزجاج: قوله: ﴿بِذَلِكَ﴾ بدل من قوله: ﴿يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ﴾ وهو يدل على أنه يعني به القرآن، أي: فبذلك فليفرح الناس، لأنه خير لكم يا أصحاب محمد مما يجمعه هؤلاء الكفار، من الأموال، ومعنى الآية: قل لهؤلاء الفرحين بالدنيا، المعتدين بها الجامعين لها، إذا فرحتهم بشيء فافرحوا بفضل الله عليكم، ورحمته لكم، بإنزال هذا القرآن، وإرسال محمد إليكم، فإنكم تحصلون بهما نعيماً دائماً مقيماً، هو خير لكم من هذه الدنيا الفانية. وقيل: فضل الله هو القرآن، ورحمته الإسلام، عن أبي سعيد الخدري، والحسن. وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: من هداه الله للإسلام، وعلمه القرآن، ثم شكا الفاقة، كتب الله عز وجل الفقر بين عينيه إلى يوم القيامة، ثم تلا: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ﴾ الآية. وقيل: فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن، عن قتادة، ومجاهد، وغيرهما. قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: فضل الله رسول الله ﷺ، ورحمته علي بن أبي طالب عليه السلام، ورواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.



قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٦١﴾.

● **القراءة:** قرأ الكسائي: ﴿وما يعزب﴾ بكسر الزاي هنا، وفي سبأ، وهو قراءة الأعمش، ويحيى بن وثاب. وقرأ الباقون بضم الزاي. وقرأ حمزة، وخلف، ويعقوب، وسهل: ﴿ولا أصغر ولا أكبر﴾ بالرفع، والباقون بفتحها.

● **الحجة:** يَعْزُبُ وَيَعْزُبُ لغتان صحيحتان، ومن فتح الراء من أصغر وأكبر، فلان أفعل في الموضعين في موضع جر، على تقدير: ما يعزب عن ربك من مثقال ذرة، ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر، وإنما فتح لأنه غير منصرف، وإنما منع الصرف لأن أفعل إذا اتصل به مِنْ كان صفة، وإذا كان صفة لم ينصرف في النكرة. ومن رفع حملة على موضع الجار والمجرور،

الذي هو من مثقال ذرة، فإنه في موضع رفع، كما كانا في قوله: ﴿وَكُنَّا بِاللَّهِ﴾ ويجوز رفعه من جهة أخرى على الابتداء، ويكون الخبر قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

● **اللغة:** الشأن: اسم يقع على الأمر والحال، تقول: ما شأنك؟ وما بالك؟ وما حالك؟ والإفاضة: الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه، مأخوذ من فيض الإناء إذا انصب الماء من جوانبه، ومنه قوله: ﴿أَفَقَضْتُمْ مِنْ عَرْفَتَيْ﴾ أي: تفرقتم كتفرق الماء الذي ينصب من الإناء. والعزوب: الذهاب عن المعلوم، وضده: حضور المعنى للنفس. وتَعَزَّب: إذا انفرد عن أهله.

● **الإعراب:** ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في موضع نصب بأنزل، ويكون بمعنى أي في الاستفهام، ويحتمل أن يكون ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، فيكون نصباً برأيتم.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يخاطب كفار مكة، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ فجعله حلالاً ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي: جعلتم بعضه حراماً، وبعضه حلالاً، يعني: ما حَرَّمُوا من السائبة، والبحيرة، والوصيلة، ونحوها، مما حَرَّمُوا من زروعهم، وإنما قال: ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾ لأن أرزاق العباد من المطر الذي ينزله الله. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا﴾ ومعناه: أنه لم يأذن لكم في شيء من ذلك، بل أنتم تكذبون في ذلك على الله سبحانه ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ معناه: أي شيء يظن الذين يكذبون على الله أنه يصيبهم يوم القيامة على افتراءهم على الله؟ أي: لا ينبغي أن يظنوا أن يصيبهم على ذلك إلا العذاب الشديد، والعقاب الأليم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بما فعل بهم من ضروب الإنعام ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمه ويجحدونها، وهذا الكلام خرج مخرج التقرير على افتراء الكذب، وإن كان في صورة الاستفهام، وتقديره: أيؤديهم افتراؤهم الكذب إلى خير أم شر وقيل: إن معنى قوله: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أنه لم يضيق عليهم بالتحريم، كما ادعيتم ذلك عليه. وقيل: معناه إنه لذو فضل على خلقه بترك معاملة من افترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا، وإمهاله إياهم إلى يوم القيامة.

ثم بين سبحانه أن إمهاله إياهم ليس لجهل بحالهم، فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي ما تكون أنت يا محمد في حال من الأحوال، وفي أمر من أمور الدين، من تبليغ الرسالة، وتعليم الشريعة، وغير ذلك ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي: وما تقرأ من الله من قرآن. وقيل: من الكتاب من قرآن، والقرآن يقع على القليل والكثير منه. وقيل: إن الهاء تعود إلى الشأن، أي: وما تتلوا من الشأن من قرآن ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُوَبْدًا﴾ أي: ولا تعمل أنت وأمتك من عمل إلا كنا عالمين به، شاهدين عليكم به ﴿إِذْ تُفَيْضُونَ فِيهِ﴾ أي: تدخلون فيه، وتخوضون فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أي: وما يبعد وما يغيب عن علم ربك، ورؤيته وقدرته ﴿مِنْ شَيْءٍ دَرَوْا﴾ أي: وزن نملة صغيرة ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصَغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ من وزن نملة ﴿وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: في كتاب بينه الله فيه قبل أن خلقه، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: أراد

به كتاب الحفظه الذي كتبه الملائكة السفرة وحفظوه، وقال الصادق عليه السلام: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديداً.

● **النظم:** قيل في اتصال الآية الأولى بما قبلها: إنها اتصلت بقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فإذا قرأوا أنه الرزاق، قيل لهم: أجمعتم ما رزقكم بعضه حراماً وبعضه حلالاً، عن أبي مسلم. وقيل: لما وصف القرآن بأنه هدى ورحمة، وأمرهم بالتمسك بما فيه، عقبه بذكر مخالفتهم لما جاء في القرآن، وتحريمهم ما أحل الله.



قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾.

● **اللغة:** الخوف، والفرع، والجزع، نظائر، وهو انزعاج القلب لما يتوقع من المكروه، والأمن ضده. والحزن: غلظ لهم، مأخوذ من الحزن، وهي الأرض الغليظة، والسرور ضده. والبشرى: الخبر مما يظهر سروره في بشرة الوجه، والبشارة مثلها. والعزة: شدة الغلبة، من عزه يُعزّه إذا غلبه، ومنه قولهم:

إذا عـزّ أخـوك فـهـُـنـ

يعني إذا غلبك ولم تقاومه فلن له. وعز الشيء يعز، بفتح العين، إذا اشتد، ويعزها، بكسرها، إذا صار عزيزاً لا يوجد، فكأنه اشتد وجوده.

● **الإعراب:** ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يحتمل موضعه ثلاثة أوجه من الإعراب:

الأول: النصب على أنه صفة ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾.

والثاني: الرفع على المدح.

والثالث: الرفع على الابتداء، وخبره ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾.

فإن جعلت الذين آمنوا صفة لم تقف على ﴿يَحْزَنُونَ﴾ بل تقف على ﴿يَتَّقُونَ﴾ وإن جعلته مبتدأ وقفت على ﴿يَحْزَنُونَ﴾ دون ﴿يَتَّقُونَ﴾ لأن ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ خبر عنهم، و ﴿الْبُشْرَى﴾ ترتفع بالظرف على الأقوال الثلاثة.

﴿وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ كسرت إن للاستئناف بالتذكير لما ينفي الحزن، ولا يجوز أن يكون كسرت لأنها وقعت بعد القول، لأنه يصير حكاية عنهم، وأن النبي ﷺ يحزن لذلك، وهذا كفر.

ويجوز فتحها على تقدير اللام، كأنه قال: ولا يحزنك قولهم لأن العزة لله جميعاً. وقد غلط القتيبي في هذا، فزعم أن فتحها يكون كفراً، وليس الأمر كما ظنه، فإنها إذا كانت معمولة

للقول لم يجبر، وإذا تعلقت بغير القول جاز، سواء فتحت أو كسرت، ومثل الفتح قول ذي الرمة:

فما هجرتك النفس يا مَيَّ أنها قلثك، ولكن قلَّ منك نصيبها
ولكنهم يا أملح الناس أولعوا بقول إذا ما جئت هذا جنيبها^(١)

وقال القتيبي عند ذكر هذه المسألة: إذا قلت: هذا قاتل أخى بالتنوين، دلَّ على أنه لم يقتل، وإذا قلت: هذا قاتل أخى بحذف التنوين، دلَّ على أنه قتل، وهذا غلط بإجماع من النحويين، لأن التنوين قد يحذف وأنت تريد الحال والاستقبال، قال الله تعالى: ﴿هَذَا بَلَغَ أَلْكَمَبَةُ﴾ يريد: بالغاً الكعبة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: ستذوق.

● المعنى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلَىٰكَ اللَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ بيّن سبحانه أن المطيعين لله، الذين تولوا القيام بأمره، وتولاهم سبحانه بحفظه وحياطته، لا خوف عليهم يوم القيامة من العقاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يخافون، واختلف في أولياء الله، فقيل: هم قوم ذكرهم الله بما هم عليه من سيماء الخير، والإخبات، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير. وقيل: هم المتحابون في الله، ذكر ذلك في خبر مرفوع. وقيل: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، وقد بينهم في الآية التي بعدها، عن ابن زيد. وقيل: إنهم الذين أدوا فرائض الله، وأخذوا بسنن رسول الله، وتورعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل هذه الدنيا، ورغبوا فيما عند الله، واكتسبوا الطيب من رزق الله لمعاشهم، لا يريدون به التفاخر والتكاثر، ثم أنفقوه فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فأولئك الذين يبارك الله لهم فيما اكتسبوا، ويثابون على ما قدموا منه لآخرتهم، وهو المروي عن علي بن الحسن عليه السلام. وقيل: هم الذين توالى أفعالهم على موافقة الحق.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدقوا بالله واعترفوا بوحدانيته ﴿رَكَاعًا يُتَّقُونَ﴾ مع ذلك معاصيه ﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إن البشري في الحياة الدنيا، هي ما بشرهم الله تعالى به في القرآن، على الأعمال الصالحة، ونظيره قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ الآية، عن الزجاج، والفراء.

وثانيها: إن البشارة في الحياة الدنيا بشارة الملائكة عليهم السلام للمؤمنين عند موتهم، بألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة، عن قتادة، والزهري، والضحاك، والجبائي.

وثالثها: أنها في الدنيا الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن لنفسه، أو ترى له، وفي الآخرة بالجنة، وهي ما يبشرهم الملائكة عند خروجهم من القبور، وفي القيامة إلى أن دخلوا الجنة، يبشرونهم بها حالاً بعد حال، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. وروي ذلك في حديث مرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم. وروى عقبة بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: يا عقبة، لا يقبل الله من

(١) مي ومية: اسم امرأة. والقلى: البغض. والجنيب: بمعنى القرين.

العباد يوم القيامة إلا هذا الدين الذي أنتم عليه، وما بين أحدكم وبين أن يرى ما تقر به عينه إلا أن يبلغ نفسه إلى هذه، وأوماً بيده إلى الوريد، الخبر بطوله. ثم قال: إن هذا في كتاب الله، وقرأ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الآية. وقيل: إن المؤمن يفتح له باب إلى الجنة في قبره، فيشاهد ما أعد له في الجنة قبل دخولها.

﴿لَا بُدَّيْلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا خلف لما وعد الله تعالى به من الثواب، ولا خلاف في قوله، بوضع كلمة أخرى مكانها بدلاً منها لأنها حق، والحق لا خلاف فيه بوجه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك الذي سبق ذكره، من البشارة في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، هي النجاة العظيمة، التي يصغر في جنبها كل شيء.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ ظاهره النهي، والمراد به التسلية للنبي ﷺ، عن أقوالهم المؤذية، وهو مثل قولهم: لا رأيتك ههنا، أي: لا تكن ههنا، فمن كان ههنا رأيته، وكذلك المراد بالآية: لا تعباً بأذاهم فمن عبأ به آذاهم. ﴿إِنَّ الْفِرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فيمنعهم منك بعزته، ويدفع أذاهم عنك بقدرته. وقيل: معناه لا يحزنك قولهم: إنك ساحر أو مجنون، فسينصرك الله عليهم، وسيدلهم وينتقم منهم لك، فإنه عزيز قادر عليه ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع أقوالهم، ويعلم ضمائرهم، فيجازيهم عليها، ويدفع عنك شرهم، ويرد كيدهم وضرهم.

● **النظم:** وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها: أنه لما تقدم ذكر المؤمن والكافر، بين عقبيه أن أولياءه لا خوف عليهم. وقيل: لما ذكر أنه يحصي أعمال خلقه، بشر من تولاه، وذكر ما أعد لهم. ووجه اتصال قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ بما تقدم، أنه يتصل بقوله: ﴿وَلَا كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ وقيل: إنه يتصل بما قبله، فكانه قال: إذا كنت من أولياء الله، ومن أهل البشارة، فلا ينبغي أن تحزن بطعن من يطعن عليك. ووجه اتصال قوله: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بما قبله، أنه يسمع قولهم، ويجازيهم، فلا يحزنك ذلك.



قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٧).

● **اللغة:** الفرق بين الجعل والفعل: أن جعل الشيء يكون بإحداث غيره، كجعل الطين خزفاً، ولا يكون فعله إلا بإحداثه. والفرق بين الجعل والتغيير: أن تغيير الشيء لا يكون إلا بتغييره على خلاف ما كان، وجعله يكون بتغييره على مثل ما كان، كجعل الإنسان نفسه ساكناً على استدامة الحال. وإنما قال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وإنما ينصر فيه تشبيهاً ومجازاً واستعارة في صفة الشيء بسببه، على وجه المبالغة، كما يقال: سرُّ كاتم، وليل نائم. ومثله قول جرير:

لقد لُمتنا يا أم غيلان في السرى ونِمت وما ليل المطي بنائم
وقال رؤبة:

«قد نام ليلي، وتجلّى همي»

● **المعنى:** لما سلى الله سبحانه نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ فإنهم لا يفوتونني، بين بعد ذلك ما يدل على صحته، فقال: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني العقلاء، وإذا كان له ملك العقلاء فما عداهم تابع لهم، وإنما خصّ العقلاء تفخيماً ﴿وَمَا يَسْجُدُ لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يحتمل ﴿مَا﴾ ههنا وجهين:

أحدهما: أن يكون بمعنى: أي شيء، فكأنه قال: وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، تفخيماً لفعلهم.

والآخر: أن تكون نافية، أي: وما يتبعون شركاء في الحقيقة.

ويحتمل وجهاً ثالثاً: وهو أن يكون ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، ويكون منصوباً بالعطف على من، ويكون التقدير: والذي يتبع الأصنام الذين يدعونهم من دون الله شركاء، فحذف العائد من الصلة، وشركاء حال من ذلك المحذوف.

وإن جعلت ما نفياً، فقوله: ﴿شُرَكَاءَ﴾ ينتصب بيدعونه، والعائد إلى ﴿الَّذِينَ﴾، الواو في ﴿يَدْعُونَ﴾، ويكون قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ مكرراً لطول الكلام، وتقف في هذا القول على قوله: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ وفي ذلك القول، على قوله: ﴿شُرَكَاءَ﴾.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ليس يتبعون في اتخاذهم مع الله شركاء إلا الظن، لتقليدهم أسلافهم في ذلك، أو لشبهة دخلت عليهم، بأنهم يتقربون بذلك إلى الله تعالى. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: وليسوا إلا كاذبين بهذا الاعتقاد والقول. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ معناه: أن الذي يملك من في السماوات ومن في الأرض، هو الذي خلق لكم الليل لسكونكم، ولأن يزول التعب والكلال عنكم بالسكون فيه ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ أي: وجعل النهار مبصراً مضيقاً، تبصرون فيه، وتهتدون به في حوائجكم بالإبصار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: لحجج ودلالات على توحيد الله سبحانه، من حيث لا يقدر على ذلك غيره ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الحجج سماع تدبر وتفهم وتعقل.



قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْلِحُونَ (٦٩) مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠).

● **الإعراب:** ﴿مَتَّعَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، وتقديره ذاك، أو هو متاع، وقوله: ﴿لَا يَقْلِحُونَ﴾ وقف تام، ويجوز أن يكون متاع مبتدأ محذوف الخبر، وتقديره: لهم متاع.

● **المعنى:** ثم حكى الله سبحانه عن صنف من الكفار أنهم أضافوا إليه اتخاذ الولد، وهم طائفتان:

إحدهما: كفار قريش والعرب، فإنهم قالوا: الملائكة بنات الله.

والأخرى: النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، فقال سبحانه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وإنما قال: ﴿قَالُوا﴾ وإن لم يكن سبق ذكرهم، لأنهم كانوا يحضرة النبي ﷺ، وكان يعرفهم. وتصح الكناية عن المعلوم كما تصح عن المذكور ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عما قالوا ﴿هُوَ الْفَعْلُ﴾ عن اتخاذ الولد، ثم بين سبحانه الوجه فيه فقال: ﴿لَمْ يَأْمُرْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومعناه: إذا كان له ما في السماوات وما في الأرض، ملكاً وملكاً وخلقاً، فهو الغني عن اتخاذ الولد، لأن الإنسان إنما يتخذ الولد ليتقوى به من ضعف، أو ليستغني به من فقر، والله سبحانه منزّه عن ذلك، وإذا استحال اتخاذ الولد حقيقة عليه سبحانه، استحال عليه اتخاذ الولد على وجه التبني ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا﴾ أي: ما عندكم من حجة وبرهان بهذا ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا توبيخ من الله سبحانه لهم على قولهم ذلك.

ثم بين سبحانه الوعيد لهم على ذلك فقال: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي يكذبون ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ باتخاذ الولد وغير ذلك ﴿لَا يُلَاحِظُونَ﴾ أي: لا يفوزون بشيء من الثواب، وأصل الافتراء من القطع، من فَرِيتَ الأديم، أي: قطعته، فمعناه: يقطعون الكذب الذي يكذبون به على الله تعالى، وقوله: ﴿مَتَّعُ فِي الدُّنْيَا﴾ معناه: لهم متاع في الدنيا يتمتعون به أياماً قلائل ثم تنقضي، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: ثم إلى حكمنا مصيرهم ﴿ثُمَّ نَذِيرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ وهو عذاب النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفرهم.



قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْعَلُونَ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْنَا مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٧١) ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِنِ اجْتَرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٢) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَفًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذْذَرِينَ﴾ (٧٣).

● **القراءة:** قرأ يعقوب وحده: ﴿شُرَكَاءُكُمْ﴾ بالرفع، وهو قراءة الحسن، وابن أبي إسحاق، وأبي عبد الرحمن السلمي، وعيسى الثقفي. وقرأ الباقون: ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ بالنصب، وفي الشواذ قراءة الأعرج وعاصم والجحدري والزهري: ﴿فاجمعوا﴾ مفتوحة الميم موصولة الهمزة، من جَمَعَ.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿فاجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ بالرفع، رفعه على العطف على الضمير في أجمعوا، وساغ عطفه على الضمير من غير تأكيد، من أجل طول الكلام بقوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾ وإذا جاز في قوله سبحانه: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ أن نكتفي من طول الكلام بـ ﴿لَا﴾ وإن كانت

بعد حرف العطف، كان الاكتفاء من التوكيد بما هو أطول من لا، وهو أيضاً قبل الواو، كما أن التوكيد لو ظهر لكان قبلها أخرى، فلو قال قائل: قم وزيد، كان أقبح من أن يقول: قمت وزيد، وذلك لأن المعطوف عليه في: قم وزيد، ضمير مستكن لا لفظ له، فهو أضعف من ضمير المخاطب أو المتكلم في قمت، لأن له لفظاً وهو التاء، وقمت وزيد، أضعف من قمنا وزيد، لأن ﴿نا﴾ من قمنا أتم لفظاً من التاء في قمت.

وأما ﴿شركاءكم﴾ بالنصب، فقد قيل فيه: إنه منصوب على إضمار فعل، كأنه قيل: وادعوا شركاءكم، قالوا: وكذا هو في مصحف أبي، وقيل تقديره: فاجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم، لأن أجمعوا يدل عليه، وذهب المحققون إلى أنه مفعول معه، وتقديره: مع شركائكم، كما أنشد سيويه:

فكونوا أنثم، وبني أبيكم، مكان الكليتين من الطحال^(١)

ويقال: أجمعت الأمر، وجمعت الأمر، وأجمعت على الأمر، أي: عزمت عليه. قال المؤرج: أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه. قال أبو الهيثم: أجمع أمره، إذا جعله جمعاً بعدما كان متفرقاً، قال:

«هل أغدوَن يوماً وأمري مُجمع»^(٢)

● **اللغة: «الغمة»:** ضيق الأمر الذي يوجب الحزن، والغمة، والكربة، والضغطة، والشدة، نظائر، ونقيضه الفرجة. وقيل: غمة: مُعطى تغطية خبره، مأخوذ من غم الهلال، إذا حال دون رؤيته غيم.

● **المعنى:** ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقرأ عليهم أخبار نوح عليه السلام، فقال: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبره ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ الذين بعث إليهم ﴿يَقُولُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ أي: شق وعظم عليكم إقامتي بين أظهركم ﴿وَتَذَكَّرِي﴾ أي: وعظي وتنبيهي إياكم ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ﴾ أي: بحججه وبياناته على صحة التوحيد، والعدل والنبوة والمعاد، وبطلان ما تدبسون به، وفي الكلام حذف، هو قوله: وعزمت على قتلي وطردتي من بين أظهركم ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ جعله جواب الشرط، مع أنه متوكل عليه في جميع أحواله. ليبين لهم أنه متوكل في هذا التفصيل، لما في إعلامه ذلك من زجرهم عنه، لأن الله تعالى يكفيه أمرهم، ومعناه: فإلى الله فوّضت أمري، وبه وثقت أن يكفيني أمركم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ معناه: فاعزموا على أمركم مع شركائكم، واتفقوا على أمر واحد من قتلي وطردتي، ولا تضطربوا فيه فتختلف أحوالكم فيما تلقوني به، وهذا تهديد في صورة الأمر. وقيل: معناه اعزموا على أمركم وادعوا شركاءكم، فبين ﷺ أنه لا يرتدع عن دعائهم، وعيب آلهتهم مستعيناً بالله عليهم، واثقاً بأنه سبحانه يعصمه منهم. وقيل:

(١) والشاهد في قوله «وبني» فإنه منصوب على أنه مفعول معه، والواو بمعنى مع.

(٢) وقيل: «يا ليت شعري والمنى لا تنفع».

أراد بالشركاء الأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله، وقيل: أراد من شاركهم في دينهم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَتْرُكُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةٌ﴾ أي: لا يكن أترككم عليكم غماً وحزناً، بأن تردّدوا فيه. وقيل: معناه ليكن أترككم ظاهراً مكشوفاً، ولا يكون مغطى مبهماً مستوراً، من غممت الشيء إذا سترته. وقيل: معناه لا تأتوه من غير أن تتشاوروا، ومن غير أن يجتمع رأيكم عليه، لأن من حاول أمراً من غير أن يعلم كيف يتأتى ذلك، كان أمره غمة عليه ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي: انهضوا إليّ فاقتلوني إن وجدتم إليه سبيلاً، ولا تؤخروني، ولا تمهلوني، عن ابن عباس. وقيل: معنى اقضوا إليّ افعّلوا ما تريدون، وادخلوا إليّ، لأنه بمعنى: افرغوا من جميع حيلكم، كما يقال: خرجت إليك من العهدة. وقيل: معناه توجهوا إليّ. وروي عن بعضهم أنه قرأ: ثم أقضوا إليّ، أي: أسرعوا إلي من الفضاء، لأنه إذا صار إلى الفضاء تمكن من الإسراع، وهذا كان من معجزات نوح عليه السلام، لأنه كان وحيداً مع نفر يسير، وقد أخبر بأنهم لا يقدرّون على قتله، وعلى أن ينزلوا به سوءاً، لأن الله تعالى ناصره، وحافظه عنهم.

﴿فَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آيٌ: ذَهَبْتُمْ عَنْ الْحَقِّ وَاتَّبَاعَهُ، وَلَمْ تَقْبَلُوهُ، وَلَمْ تَنْظُرُوا فِيهِ.﴾ ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لا أطلب منكم أجراً، على ما أؤديه إليكم من الله، فيثقل ذلك عليكم. وقيل: معناه إن أعرضتم عن قبول قولي لم يضرنني، لأنني لم أطمع في مالكم، فيفوتني ذلك بتوليكم عني، وإنما يعود الضرر عليكم ﴿إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ما أجري إلا على الله، في القيام بأداء الرسالة ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أمرني الله بأن أكون من المستسلمين لأمر الله بطاعته ثقة بأنها خير ما يكتسبه العباد. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: أنهم كذبوا نوحاً عليه السلام، أي: نسبوه إلى الكذب فيما يذكره، من أنه نبي الله، وأن الله بعثه إليهم ليدعوهم إلى طاعته ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ أي: في السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ أي: جعلنا الذين نجوا مع نوح خلفاء لمن هلك بالغرق. وقيل: إنهم كانوا ثمانين نفساً. وقال البلخي: يجوز أن يكون أراد جعلناهم رؤساء في الأرض ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: أهلكتنا باقي أهل الأرض أجمع، لتكذيبهم لنوح عليه السلام ﴿فَانْظُرْ﴾ أيها السامع ﴿كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذَرِّينَ﴾ أي: المخوفين بالله وعذابه، أي: كيف أهلكهم الله.



قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٦) ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (٧٧) ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨).

● **القراءة:** روى حماد، ويحيى، عن أبي بكر، وزيد، عن يعقوب: ﴿وَيَكُونُ لَكُمَْا الْكِبْرِيَاءُ﴾ بالياء، والباقون: بالتاء.

● **الحجة:** الوجه في الياء، أن تأنيث الكبرياء غير حقيقي، وقد فصل أيضاً بينه وبين الفعل، ومن قرأ بالتاء فلأن لفظه لفظ التأنيث.

● **اللغة:** الإجماع: اكتساب السيئة، وأصله القطع. واللفت: الصرف عن الأمر، يقال: لَفَتَهُ يَلْفِتُهُ لَفْتًا، وامرأة لفوت: ذات زوج لها ولد من غيره، لأنها تلفت إلى ولدها عنقها.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه قصة من بعثه بعد نوح عليه السلام، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد نوح وإهلاك قومه ﴿رُسُلًا﴾ يريد: إبراهيم، وهوداً، وصالحاً، ولوطاً، وشعيباً. ﴿إِلَى قَوْمِهِمُ﴾ الذين كانوا فيهم، بعد أن تناسلوا وكثروا ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: فأتوهم بالبراهين والمعجزات الدالة على صدقهم، الشاهدة بنبوتهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهٖ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: لم يكونوا ليصدقوا، يعني: أولئك الأقوام الذين بعث إليهم الرسل، بما كذبت به أوائلهم، الذين هم قوم نوح عليه السلام، أي: كانوا مثلهم في الكفر والعتو. وقيل: معناه لم يكن منهم من يؤمن من بعد هذه الآيات، بما كذبوا به من قبلها، بل كانت الحالان سواء عندهم، قبل البيّنات وبعدها، عن أبي مسلم، والبلخي. ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: نجعل على قلوب الظالمين لنفوسهم، الذين تعدوا حدود الله سمة وعلمة على كفرهم، يلزمهم الذم بها، ويعرفهم بها الملائكة، كما فعلنا ذلك بقلوب هؤلاء الكفار، وقد مر معاني الطبع والختم فيما تقدم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ﴾ أي: من بعد الرسل، أو من بعد الأمم ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ عليه السلام، نبیین مرسلين ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: ورؤساء قومه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ أي: بأدلتنا ومعجزاتنا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد لها، والإيمان بها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾ عاصين لربهم، مستحقين للعقاب الدائم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: جاء قوم فرعون ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني ما أتى به موسى من المعجزات والبراهين ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لِسِحْرٌ مِّثْنٌ﴾ أي: ظاهر ﴿قَالَ مُوسَى﴾ لهم ﴿أَقْتُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ أي: أقولون لمعجزاته: سحر، والسحر باطل، والمعجزة حق، وهما متضادان ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ الشِّجْرُونَ﴾ أي: لا يظفرون بحجة، ولا يأتون على ما يدعونه بيينة، وإنما هو تمويه على الضعفة ﴿قَالُوا﴾ يعني قال فرعون وقومه لموسى ﴿أَجِئْتَنَا لَتَلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: لتصرفنا عن ذلك ﴿وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: الملك، عن مجاهد. وقيل: العظمة، والسلطان. والأصل: أن الكبرياء صفة الكبر في أعلى المراتب ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أرض مصر. وقيل: أراد اسم الجنس، والمراد به الإنكار، وإن كان اللفظ لفظ الاستفهام، تعلقوا بالشبهة في أنهم على رأي آبائهم، وأن من دعاهم إلى خلافه، فظاهر أمره أنه يريد التأثر عليهم فلم يطيعوه ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين فيما تدعيانه من النبوة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ۖ﴾ (٧٦) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، غير عاصم: ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾ بالتشديد. والباقون: ﴿سَاحِرٍ﴾ على وزن فاعل. وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو: ﴿السِّحْرُ﴾ بقطع الألف ومدها على الاستفهام، والباقون: ﴿السِّحْرُ﴾ موصولة على الخبر.

● **الحجة:** قد بينا الوجه في سحر وساحر في سورة الأعراف، وأما قوله: ﴿السِّحْرُ﴾ فإن ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ في موضع رفع بالابتداء، و ﴿جِئْتُمْ﴾ في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ، والكلام استفهام، و ﴿السِّحْرُ﴾ بدل من ﴿مَّا﴾ المبتدأ. ولزم أن يلحق السحر الاستفهام، ليساوي المبدل منه في أنه استفهام، ألا ترى أنه ليس في قولك: السحر، استفهام، وعلى هذا قالوا: كم مالك أعشرون أم ثلاثون؟ فجعلت العشرون والثلاثون بدلاً من كم، وألحقت أم لأنك في قولك: كم درهماً مالك؟ مُدْع أن له مالا، كما أنك في قولك: أعشرون أم ثلاثون مالك؟ مُدْع أحد الشئين، ولا يلزم أن تضمر للسحر خبراً على هذا، لأنك إذا أبدلت من المبتدأ صار في موضعه، وصار ما كان خبراً - لما أبدلت منه - في موضع خبر البدل.

ومن قرأ: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ كان ﴿مَّا﴾ في قوله موصولاً، و ﴿جِئْتُمْ بِهِ﴾ الصلة، والهاء المجرورة عائدة على الموصول، وخبر المبتدأ الذي هو الموصول السحر. ومما يقوي هذا الوجه، ما زعموا أنه في حرف عبد الله: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ فعلى هذا يكون تقديره: الذي جئتم به السحر، وعلى الوجه الأول وهو أن يكون ما استفهاماً، فتقديره: أي شيء جئتم السحر.

وأما وجه الاستفهام مع علم موسى أنه سحر، فإنه مثل قوله: ﴿مَا أَنْتَ قُلْتِ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في أنه للتقرير.

● **المعنى:** ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ حكى الله سبحانه، عن فرعون، أنه حين أعجزه المعجزات التي ظهرت لموسى عليه السلام، ولم يكن له في دفعها حيلة، قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بالسحر، بليغ في عمله، وإنما طلب فرعون كل ساحر ليتعاونوا على دفع ما أتى به موسى، وحتى لا يفوته شيء من السحر بتأخر بعضهم، وإنما فعل ذلك للجهل بأن ما أتى به موسى من عند الله، وليس بسحر، ويعد ذلك علم أنه ليس بسحر، فعاند كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ وقيل: إنه علم أنه ليس بسحر، ولكنه ظن أن السحر يقاربه مقارنة تشبيه ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ الذين طلبهم فرعون، وأمر بإحضارهم، وموسى حاضر ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ وفي الكلام حذف يدل عليه الظاهر، وتقديره: فلما أتوه بالسحرة وبالحبال والعصي، قال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ أي اطرحوا ما جئتم به. وقيل: معناه افعلوا ما أنتم فاعلون، وهذا ليس بأمر بالسحر، ولكنه قال ذلك على وجه التحدي والإلزام، أي: من كان عنده ما يقاوم المعجزات فليلقه. وقيل: إنه أمر على الحقيقة

بالإلقاء ليظهر بطلانه، وإنما لم يقتصر على قوله: ﴿أَلْقُوا﴾ لأنه أراد: ألقوا جميع ما أنتم ملقون في المستأنف، فلو اقتصر على ألقوا ما أفاد هذا المعنى، والإلقاء: إخراج الشيء عن اليد إلى جهة الأرض، ويشبه بذلك قولهم: ألق عليه مسألة، وألق عليه رداءه ﴿فَلَمَّا أَلْقَا﴾ أي: فلما ألقى السحرة سحرهم ﴿قَالَ مُوسَى﴾ لهم ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ أي: الذي جئتم به من الحبال والعصي السحر، أدخل عليه الألف واللام للعهد، لأنهم لما قالوا لِمَا أتى به موسى: إنه سحر، قال ﷺ: ما جئتم به هو السحر، عن الفراء. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ﴾ أي: سيبطل هذا السحر الذي فعلتموه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ معناه: أن الله لا يهتئ عمل من قصد إفساد الدين ولا يمضيه، ويبطله حتى يظهر الحق من الباطل، والمحق من المبطل ﴿وَيُخَيِّطُ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ أي: يظهر الله الحق ويحققه، ويثبت وينصر أهله ﴿يَكَلِّمُهُ﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: إن معناه: بوعد موسى ﷺ، وكان وعده النصر فأنجز وعده، عن الحسن.

وثانيها: إن معناه: بكلامه الذي يتبين به معاني الآيات، التي أتاها نبيه، عن الجبائي.

وثالثها: بما سبق من حكمه في اللوح المحفوظ، بأن ذلك سيكون.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ظهور الحق، وإبطال الباطل. وفي هذه الآية دلالة على أنه تعالى ينصر المحقين كلهم في حقهم، وذلك على وجهين:

أحدهما: بالحجة، فهذه النصرة مستمرة على كل حال.

والثاني: بالغلبة والقهر، وهذا يختلف بحسب المصلحة، لأن المصلحة قد تكون بالتخيلة تارة، وبالحيلة أخرى.



قوله تعالى: ﴿فَمَّا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٢) وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦).

● **اللغة:** الذرية: الجماعة من نسل القبيلة، وقد تقدم القول في أصلها ووزنها، والفتنة: أصلها البلية، وهي معاملة تظهر الأمور الباطنة، يقال: فتنت الذهب إذا أحرقت بالنار، ليظهر الخلاص، وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُ عَلَى النَّارِ يَفْتَنُونَ﴾ أي: يحرقون، لما فيه من إظهار حالهم في الضلال، وقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ معناه: التعذيب للرد عن الدين، لما فيه من إظهار النصرة أشد.

● **الإعراب:** ﴿يَقَوْمِ﴾: حذفت منه ياء الإضافة اجتزاء بالكسرة منها، وهو في النداء أحسن من إثباتها، لقوة النداء على التغيير، والفاء في قوله: ﴿فَقَالُوا﴾ فاء العطف وجواب الأمر، كما تقول: قال السائل: كذا، فقال المجيب: كذا، وإنما جازت الفاء في الجواب ولم

تجز الواو، لأن الفاء تترتب من غير مهلة، فهي موافقة لمعنى وجوب الثاني بالأول، وليس كذلك الواو.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه من آمن من قوم موسى عليه السلام، فقال: ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى﴾ أي: لم يصدق موسى فيما ادعى من النبوة، مع ما أظهره من المعجزات الظاهرة ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةً مِن قَوْمِهِ﴾ أي: أولاد من قوم فرعون. وقيل: أراد من قوم موسى عليه السلام، وهم بنو إسرائيل الذين كانوا بمصر.

واختلف من قال بالأول، فقيل: إنهم قوم كانت أمهاتهم من بني إسرائيل، وآباؤهم من القبط، فاتبعوا أمهاتهم وأخوالهم، عن ابن عباس. وقيل: إنهم أناس يسير من قوم فرعون، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وجاريتها، وامرأة هي مشاطة امرأة فرعون، عن عطية، عن ابن عباس. وقيل: إنهم بعض أولاد القبط، لم يستجب آباؤهم لموسى.

واختلف من قال بالثاني، فقيل: هم جماعة من بني إسرائيل أخذهم فرعون لتعلم السحر، وجعلهم من أصحابه، فأمنوا بموسى، عن الجبائي. وقيل: أراد مؤمني بني إسرائيل وكانوا ستمائة ألف، وكان يعقوب دخل مصر منهم باثنين وسبعين إنساناً، فتوالدوا حتى بلغوا ستمائة ألف. وإنما سماهم ذرية على وجه التصغير لضعفهم، عن ابن عباس في رواية أخرى. وقال مجاهد: أراد بهم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل، لطول الزمان هلك الآباء، وبقي الأبناء.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ﴾ يعني آمنوا وهم خائفون من معرة فرعون ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ ومن أشرفهم ورؤوسهم. قال الزجاج: وإنما جاز أن يقال: ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾، لأن فرعون ذو أصحاب يأترون له، وقيل: إن الضمير في ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ راجع إلى الذرية، لأن آباءهم كانوا من القبط، وكانوا يخافون قومهم من القبط أن يصرفوهم عن دينهم ويعذبوهم. ﴿أَن يَفْتَنَهُمْ﴾ أي: يصرفهم عن الدين، يعني أن يمتحنهم بمحنة لا يمكنهم الصبر عليها، فيصرفون عن الدين، وكان جنود فرعون يعذبون بني إسرائيل، فكان خوفهم منه ومنهم. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَكَاِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مستكبر باغ طاغ في أرض مصر، ونواحيها ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِرِينَ﴾ أي: من المجاوزين الحد في العصيان، لأنه ادعى الربوبية، وأسرف في القتل والظلم. والإسراف: التجاوز عن الحد في كل شيء.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لقومه الذين آمنوا به ﴿يَقُولُوا إِن كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ﴾ كما تظهرون ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ إن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ أي: فأسندوا أموركم إليه إن كنتم مسلمين على الحقيقة، وإنما أعاد قوله: ﴿إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ليتبين المعنى باجتماع الصفتين: التصديق والانقياد، أي: إن كنتم آمنتم بالله فاستسلموا لأمره. وفائدة الآية: بيان وجوب التوكل على الله عند نزول الشدة، والتسليم لأمره ثقة بحسن تدبيره، وانقطاعاً إليه.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أخبر سبحانه عن حسن طاعتهم له، وأنهم قالوا: أسندنا أمورنا إلى الله واثقين ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تمكن الظالمين من ظلمنا بما يحملنا على إظهار الانصراف عن ديننا، عن مجاهد. وقيل: معناه ربنا لا تظهر علينا فرعون وقومه،

فيفتتن بنا الكفار، ويقولوا: لو كانوا على الحق لما ظفروا عليهم، عن الحسن، وأبي مجاز. وروى زرارة ومحمد بن مسلم، عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليه السلام، أن معناه: لا تسلطهم علينا، فتفتنهم بنا ﴿وَنَجِّنَا﴾ وخلصنا ﴿رَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوَرِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: من قوم فرعون، واستعبادهم إيانا، وأخذهم جماعتنا بالأعمال الشاقة، والمهن الخسيسة.



قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: ﴿ولا تتبعان﴾ خفيفة النون، والباقون: بالتشديد.

● **الحجة:** من قرأ بالنون الشديدة، كسرهما لوقوعها بعد ألف التثنية، فأشبهت نون الاثنين في رجлан، ولم يعتد بالنون الساكنة قبلها لسكونها وخفتها، فصارت المكسورة كأنها وليت الألف، ومن قرأ بالتخفيف، فإنه يمكن أن يكون خفف الثقيلة للتضعيف، كما خففوا (رُب وإن) ونحوهما، إلا إنه حذف الأولى من المثليين، كما أبدلوا الأولى من المثليين، في نحو: قيراط ودينار، ولزم ذلك في هذا الموضع، لأن الحذف لو لحق الثانية للزم التقاء الساكنين، والتقاء الساكنين على هذا الحد غير مأخوذ به عند العامة.

وإن شئت كان على لفظ الخبر، والمعنى الأمر، كقوله ﴿يَرْبِضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، و﴿لَا تُضَاكِرْ إِلَٰهَةً وَلَا إِلَٰهًا﴾ أي: لا ينبغي ذلك.

وإن شئت جعلته حالاً من استقيما، والتقدير: استقيما غير متبعين، ويدل على ذلك قول

الشاعر:

فلا أَسْقِي، ولا يَسْقِي شَرِيبِي، وَيُرْوِيهِ إِذَا أُرِدْتُ مَائِي^(١)

وكقول الفرزدق:

بأَيْدِي رِجَالٍ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ تَكْثُرِ الْقَتْلَىٰ بِهَا حِينَ سُلْتُ^(٢)

(١) والشاهد في قوله «يرويه» حيث أنه وقع حالاً مع استغناء الحال عن الواو إذا كان فعلاً مضارعاً.

(٢) شام السيف شيماً: أغمدته، والشاهد في قوله: «ولم تكثر القتلى» ووقوعه حالاً أي: لم يغمدها، والقتلى بها لم تكثر، وإنما يغمدها بعد أن تكثر القتلى بها.

● **اللغة:** ﴿تَبَوَّأَ﴾ أي: اتخذها، يقال: تبوأ لنفسه بيتاً، أي اتخذها، وبوأ له بيتاً، أي: اتخذته له، ويقال: إن تبوأ وبؤا بمعنى: أي اتخذ بيتاً، مثل: بَدَّلَ وتَبَدَّلَ، وخَلَّصَ وتَخَلَّصَ. قال أبو علي: تبوأ فعل يتعدى إلى مفعولين. واللام في قوله: ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ كالتي في قوله: ﴿رَدِّقْ لَكُمْ﴾ ويقوي ذلك قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ فدخلت اللام على غير المطاوع، كما دخلت على المطاوع في قوله: ﴿تَبَوَّأَ لِقَوْمِكُمَا﴾. والطمس: محو الأثر، يقال: طُمِسَتْ عينه أَطْمَسَهَا طَمْساً وَطُمُوساً، وطُمِسَتِ الرِّيحُ آثارَ الدِّيارِ، والطَّمْسُ تغيير إلى الدثور والدروس، قال كعب بن زهير:

مِنْ كُلِّ نَضَاخَةِ الذُّفْرِى إِذَا عَرِقَتْ عُرِضَتْهَا طَامَسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولٌ^(١)

● **الإعراب:** ﴿يَمْضَرُ﴾ غير منصرف لأنه مؤنث معرفة، ولو صرفت لخفتها كما تصرف هند لكان جائزاً، وترك الصرف أقيس. وقوله: ﴿يُؤْتَا﴾ مفعول به، وليس بظرف مكان لاختصاصه، والبيوت هنا كالغرف في قوله تعالى: ﴿لَنَبْنِيَنَّ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ عُقُراً﴾. ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ يحتمل وجهين من الإعراب النصب والجزم، فأما النصب ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون على جواب صيغة الأمر بالفاء.

والآخر: أن يكون عطفاً على ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ أي: ليضلوا فلا يؤمنوا، وهذا قول المبرد، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدِّدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ﴾ اعتراضاً.

وأما الجزم: فيكون على وجه الدعاء عليهم، وتقديره: فلا آمنوا، ومثله قول الأعشى: فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ولا تُلْقِنِي إِلَّا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

● **المعنى:** ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ أي: أمرناهما ﴿تَبَوَّأَ لِقَوْمِكُمَا يَمْضَرُ يُّؤْتَا﴾ أي: اتخذوا لمن آمن بكما بمصر يعني البلدة المعروفة ببوتاً تسكنونها، وتأوون إليها ﴿وَجَعَلُوا يُّؤْتَكُمْ قِتْلَةً﴾ اختلف في ذلك:

ف قيل: لما دخل موسى مصر بعدما أهلك الله فرعون، أمروا باتخاذ مساجد يذكر فيها اسم الله تعالى، وأن يجعلوا مساجدهم نحو القبلة، أي: الكعبة، وكانت قبلتهم إلى الكعبة، عن الحسن. ونظيره: ﴿فِي يُّؤْتِي أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ الآية.

وقيل: إن فرعون أمر بتخريب مساجد بني إسرائيل، ومنعهم من الصلاة، فأمرؤا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم يصلون فيها خوفاً من فرعون، وذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا يُّؤْتَكُمْ قِتْلَةً﴾ أي: صلوا في بيوتكم، لتأمنوا من خوف، عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وغيرهم.

وقيل: معناه اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً، عن سعيد بن جبير. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أديموها: وواظبوا على فعلها ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالجنة وما وعد الله تعالى من الثواب، وأنواع

(١) النضخ: شدة فور الماء والعرق. والذفرى: خلف الأذن، أراد أن ذفرى الناقة كثير النضخ بالعرق. والعرضة: المسافة التي تعرضت الناقة لقطعها. وطامس الأعلام أي: ليس فيها علامة يهتدى بها.

النعيم، والخطاب لموسى عليه السلام، عن أبي مسلم. وقيل: الخطاب لمحمد ﷺ. **﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ أَي: أعطيت فرعون وقومه ﴿زِينَةً﴾ يتزينون بها من الحلي والثياب. وقيل: الزينة الجمال، وصحة البدن، وطول القامة، وحسن الصورة ﴿وَأَمْوَالًا﴾ يتعظمون بها في الحياة الدنيا، وإنما أعطاهم الله تعالى ذلك، للإنعام عليهم مع تعريه من وجود الاستفساد.**

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ اللام للعاقبة، والمعنى: وعاقبة أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك، ولا يجوز أن يكون لام الغرض، لأننا قد علمنا بالأدلة الواضحة، أن الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال وكذلك لا يؤتيهم المال ليضلوا، وقيل: معناه لئلا يضلوا عن سبيلك، فحذفت **﴿لَا﴾** كقوله: **﴿شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾** أي: لئلا تقولوا، وحذف ذلك لدلالة العقل عليه. وقيل: إنه لام الدعاء، والمعنى: ابتلهم بالبقاء على ما هم عليه من الضلال، وإنما قال ذلك، لعلمه بأنهم لا يؤمنون من طريق الوحي، وفائدته: إظهار التبرؤ منهم، كما يلعن إبليس، ويدل عليه أنه أعاد قوله: **﴿رَبَّنَا أَطِيسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾** فدل ذلك على أنه أراد به الدعاء عليهم، والمراد بالطمس على الأموال تغييرها عن جہتها، إلى جهة لا ينتفع بها. قال مجاهد، وقناة، وعامة أهل التفسير: صارت جميع أموالهم حجارة، حتى السكر والفانيذ^(١). **﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾** معناه: ثبتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك أموالهم، فيكون ذلك أشد عليهم. وقيل: معناه أمثهم بعد سلب أموالهم وأهلكهم. وقيل: إنه عبارة عن الخذلان والطبع **﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾** قد ذكرنا وجوهه. وقيل: معناه أنهم لا يؤمنون إيمان إلجاء حتى يروا العذاب، وهم مع ذلك لا يؤمنون إيمان اختيار أصلاً.

ثم أخبر سبحانه أنه أجاب لهما الدعوة، فقال: **﴿قَالَ﴾** أي: قال الله تعالى لموسى وهارون **﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾** والداعي كان موسى عليه السلام، لأنه كان يدعو، وكان هارون يؤمن على دعائه، فسماهما داعيين، عن عكرمة، والربيع، وأبي العالية، وأكثر المفسرين، ولأن معنى التأمين: اللهم استجب هذا الدعاء **﴿فَأَسْتَقِيمَا﴾** أي: فائتبا على ما أمرتما من دعاء الناس إلى الإيمان بالله تعالى والإنذار والوعظ. قال ابن جريج: مكث فرعون بعد هذا الدعاء أربعين سنة، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام **﴿وَلَا نُنَبِّئُكَ سَبِيلَ الذِّبْرِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** نهاهما سبحانه عن أن يتبعنا طريقة من لا يؤمن بالله، ولا يعرفه ولا يعرف أنبياءه عليه السلام.



قوله تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكُهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنفِي لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) ءَأَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (٩٢).

(١) الفانيذ: ضرب من الحلواء، فارسي معرب.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿ءَامَنْتُ إِنَّهُ﴾ بكسر الألف، والباقون: ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح. وروي ﴿نَنْجِيكَ﴾ خفيفة، قتيبة، ويعقوب، وسهل، والباقون: ﴿نُنْجِيكَ﴾ بالتشديد، وفي الشواذ، قراءة أبي بن كعب، ومحمد بن السميع: ﴿نَنْحِيكَ﴾ بالحاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ﴾ بالفتح، فلأن هذا الفعل يصل بحرف الجر، في نحو: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ فلما حذف حرف الجر، وصل الفعل إلى أن، فصار في موضع نصب، أو جر، على الخلاف في ذلك.

ومن قرأ: ﴿ءَامَنْتُ إِنَّهُ﴾ بالكسر، حمله على القول المضمر، كأنه قال: آمنت، وقلت: إنه، وإضمار القول في هذا النحو كثير. وقال علي بن عيسى: من كسر ﴿إِنَّهُ﴾ جعله بدلاً من آمنت، ومن فتح جعله معمول آمنت.

وأما ﴿الآن﴾: فإن لام المعرفة، إذا دخلت على كلمة أولها همزة، فخففت الهمزة، كان في تخفيفها وجهان:

أحدهما: أن تلقي حركتها على اللام. وتقر همزة الوصل، فيقال: الحَمَرُ^(١)، وقد حكى ذلك سيويه.

ثانيهما: وحكى أبو الحسن أن أناساً يقولون: لَحَمَرٌ، فيحذفون الهمزة التي للوصل، قال: فقد كنت تُخفي حُبَّ سمراء حِقْبَةً قَبُحٌ لَأَنَ منها بالذي أنت بائع^(٢) فأسكن الحاء لما كانت اللام متحركة، ولو لم يعتد بالحركة، كما لم يعتد بها في الوجه الأول، لحرك الحاء بالكسر، كما يحرك في: بح اليوم. ونُنْجِيكَ ونَنْجِيكَ: في معنى واحد، أي: نلقيك على نجوة من الأرض، قال أوس بن حجر:

فَمَنْ يَنْجُوْتَهُ كَمَنْ يَعْقُوْتَهُ وَالْمُسْتَكْنُ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاحٍ
وَالْقِرْوَاحُ: حيث لا ماء ولا شجر، ومن قرأ: ﴿نَنْحِيكَ﴾ بالحاء، فإنه تُفعلك من الناحية، أي: نجعلك في ناحية، ومنه: نَحَيْتُ الشيءَ فتنحى، أي: باعدته فتباعد، فصار في ناحية، قال الحطيئة:

تَنَحَّيْ فَاجْلِسِي مَنِّي بَعِيداً أَرَاكَ اللهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَا

● **اللغة:** المجاوزة: الخروج عن الحد من إحدى الجهات الأربع. والاتباع: طلب اللحاق بالأول، أتبعه أتباعاً وتبعه بمعنى. وحكى أبو عبيدة، عن الكسائي، أنه قال: إذا أريد أنه أتبعهم

(١) يعني في الأحمر.

(٢) قائله عترة: الحقبة في الاصل يطلق على مدة معينة من الزمن والمراد منه هنا مجرد الزمن الطويل و«لان» أصله

«الآن» و«بح» أمر من باح ييوح.

خيراً أو شراً، قالوا: بقطع الهمزة، وإذا أريد به أنه اقتدى بهم، واتبع أثرهم، قالوا: بتشديد التاء ووصل الهمزة. والبغي: طلب الاستعلاء بغير حق. والعدو والعدوان: الظلم. والنجوة: الأرض التي لا يعلوها السيل، وأصلها من الارتفاع.

● **الإعراب:** ﴿بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ مفعول له، وقيل: إنهما مصدران في موضع الحال، أي: في حال البغي والعدوان. ﴿الَّذِينَ﴾ فصل بين الزمان الماضي والمستقبل، مع أنه إشارة إلى الحاضر، ولهذا بُني كما بُني ذا، وعُرف ﴿الَّذِينَ﴾ بالألف واللام ﴿وَأَمْسَ﴾ يتضمن حرف التعريف، لأن ما مضى بمنزلة المضممر في المعنى في أنه ليس له صورة، والحاضر في معنى المصرح في صحة الصورة، والعامل في قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ محذوف، وتقديره: الآن آمنت.

● **المعنى:** ثم بيّن سبحانه مآل آل فرعون وقومه، فقال: ﴿وَجَوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: عبرنا بهم البحر حتى جاوزوه سالمين، بأن يئسنا لهم البحر، وفرقنا لهم الماء اثني عشر فرقاً ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ أي: لبيغوا عليهم وظلموهم، وذلك أن الله سبحانه لما أجاب دعاء موسى، أمره بإخراج بني إسرائيل من مصر ليلاً، فخرج وتبعهم فرعون وجنوده مشرقين حتى انتهوا إلى البحر، وأمر الله سبحانه موسى ﷺ فضرب البحر بعصاه، فانفلق اثني عشر فرقاً، وصار لكل سبط طريق يابس، فارتفع بين كل طريقين الماء كالجبل، وصار في الماء شبه الخروق، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض، فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر، رأوا البحر بتلك الهيئة، فهابوا دخول البحر، وكان فرعون على حصان أدهم، فجاء جبرائيل ﷺ على فرس وديق، وخاض البحر، وميكائيل يسوقهم، فلما شم أدهم فرعون ريح فرس جبريل ﷺ، انسئل خلفه في الماء، واقتحمت الخيول خلفه، فلما دخل آخرهم البحر، وهم أولهم أن يخرج، انطبق الماء عليهم ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَاكَهُ الْغَرَقُ﴾ أي: وصل إليه الغرق وأيقن بالهلاك ﴿قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وكان ذلك إيمان إلهاء لا يستحق به الثواب، فلم ينفعه إيمانه ﴿ءَأَلْفَنُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ﴾ فيه إضمار، أي: قيل له: الآن آمنت حين لا ينفع الإيمان ولا يقبل، لأنه حال الإلهاء ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ بترك الإيمان في حال ما ينفعك الإيمان فهلا آمنت ﴿قَبْلَ﴾ ذلك ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بقتل المؤمنين، وادعاء الإلهية وأنواع الكفر، واختلف في قائل هذا القول:

فقيل: قاله جبريل ﷺ.

وقيل: ذلك كلام الله تعالى، قاله له على وجه الإهانة والتوبيخ، وكان ذلك معجزة لموسى ﷺ، وروى علي بن إبراهيم بن هاشم بإسناده عن الصادق ﷺ، قال: ما أتى جبريل رسول الله ﷺ إلا كتيباً حزيناً، ولم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون، فلما أمر الله سبحانه بنزول هذه الآية، نزل وهو ضاحك مستبشر، فقال له: حبيبي جبريل، ما أتيتني إلا وبينت الحزن في وجهك حتى الساعة، قال: نعم، يا محمد، لما أغرق الله فرعون ﴿قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ فأخذت حمأة فوضعتها في فيه، ثم قلت له ﴿ءَأَلْفَنُ وَقَدْ

عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠﴾ ثم خفت أن تلحقه الرحمة من عند الله، فيعذبني على ما فعلت، فلما كان الآن، وأمرني أن أؤدي إليك ما قلت، أنا لفرعون، آمنت وعلمت أن ذلك كان الله رضا. ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ اختلف في معناه، فقال أكثر المفسرين معناه: لما أغرق الله فرعون وقومه، أنكر بعض بني إسرائيل غرق فرعون، وقالوا: هو أعظم شأنًا من أن يغرق، فأخرجه الله حتى رآوه، فذلك قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نلقيك على نجوة من الأرض، وهي المكان المرتفع ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أي: بجسدك من غير روح، وذلك أنه طفا عرياناً.

وقيل: معناه نخلصك من البحر وأنت ميت. والبدن: الدرع. قال ابن عباس: كانت عليه درع من ذهب يعرف بها، فالمعنى: نرفعك فوق الماء بدرعك المشهورة ليعرفوك بها ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً﴾ أي: لتكون نكالا لمن خلفك، فلا يقولوا مثل مقالتك، عن الكلبي.

وقيل: إنه كان يدعي أنه رب، فبين الله أمره وأنه عبد، وفيه من الآية أنه غرق مع القوم، وأخرج هو من بينهم، وكان ذلك آية، عن الزجاج ﴿وَإِنَّ كَيْدًا مِنَ النَّاسِ عَنَّا لَلْغِيْلُوتِ﴾ يعني أن كثيراً من الناس عن التفكير في دلاتنا والتدبر لحججنا وبيئاتنا غافلون، أي: ذاهبون.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٣).

● **الإعراب: ﴿المبْوَأَ﴾:** يجوز أن يكون مصدرًا، ويجوز أن يكون مكانًا، ويكون المفعول الثاني من بَوَّأَتِ على هذا محذوفًا، كما حذف من قوله: ﴿وَبَوَّأَكُمُ فِي الْأَرْضِ﴾ ويجوز أن ينتصب ﴿المبْوَأَ﴾ نصب المفعول به على الاتساع، وإن كان مصدرًا، فقد أجاز ذلك سيبويه في قوله: أما الضرب فأنْتَ ضارب.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه حال بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ﴾ أخبر سبحانه عن نعمه عليهم بعد أن أنجاهم، وأهلك عدوهم، يقول: مَكْنَاهُمْ مكانًا محمودًا، وهو بيت المقدس والشام. وإنما قال: ﴿مَبْوَأَ صِدْقٍ﴾ لأن فضل ذلك المنزل على غيره من المنازل، كفضل الصدق على الكذب. وقيل: معناه أنزلناهم في موضع خصب وأمن، يصدق فيما يدل عليه من جلاله النعمة. وقال الحسن: يريد به مصر، وذلك أن موسى عبر ببني إسرائيل البحر ثانيًا، ورجع إلى مصر، وتبَوَّأَ مساكن آل فرعون. وقال الضحاك: هو الشام ومصر ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: مَكْنَاهُمْ الأشياء اللذيذة، وهذا يدل على سعة أرزاق بني إسرائيل ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ معناه: فما اختلفوا في تصديق محمد ﷺ، يعني اليهود كانوا مقرِّين به قبل مبعثه، حتى جاءهم العلم وهو القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، عن ابن عباس. وقال الفراء: العلم محمد ﷺ، لأنه كان معلومًا عندهم بنعته، فلما جاءهم اختلفوا في تصديقه، فكفر به أكثرهم. وقيل: إن معناه، فما اختلف بنو إسرائيل، إلا من بعد ما جاءهم العلم بالحق، على يد موسى وهارون، فإنهم كانوا مطبقين على

الكفر قبل مجيء موسى، فلما جاءهم آمن به بعضهم، وثبت على الكفر بعضهم، فصاروا مختلفين ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذا إخبار منه تعالى، بأنه الذي يتولى الحكم بينهم يوم القيامة، في الأمور التي يختلفون فيها، فإن مع بقاء التكليف لا يرتفع الخلاف.



قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

- **القراءة:** قد تقدم اختلاف القراء، في (كلمة وكلمات)، والوجه في ذلك.
- **اللغة:** الإمتراء: طلب الشك مع ظهور الدليل، وهو من مزي الضرع، وهو مسحه ليدر، فلا معنى لمسحه بعد دروره بالحليب.
- **الإعراب:** (النون) في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ نون التأكيد، وهي لا تدخل في غير الواجب، لأنك لا تقول: أنت تكونن، ودخلت في القسم على هذا الوجه، لأنه يطلب بالقسم التصديق، وإنما بني الفعل مع نون التأكيد، لأنها ركبت مع الفعل على تقدير كلمتين، كل واحدة مركبة مع الأخرى، مع أن الأولى ساكنة واقتضت حركة بناء لالتقاء الساكنين ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ قال الأخفش: أثَّ ﴿كُلُّ﴾ لأنها مضافة إلى مؤنث، ولفظة كل للمذكر والمؤنث سواء. والرؤية في الآية رؤية العين، لأنها تعدت إلى مفعول واحد، والعذاب وإن كان أليماً وهو لا يصح أن يرى، فإنه تُرى أسبابه، فهو بمنزلة ما يرى.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه صحة نبوة محمد ﷺ، فقال: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ اختلف المفسرون في معناه على أقوال:

أولها: قال الزجاج: إن هذه الآية قد كثر سؤال الناس عنها وخوضهم فيها، وفي السورة ما يدل على بيانها، فإن الله سبحانه يخاطب النبي ﷺ، وذلك الخطاب شامل للخلق، فالمعنى: فإن كنتم في شك فاسألوا، والدليل عليه قوله في آخر السورة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شكٍ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ يَقْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا﴾ الآية، فأعلم الله سبحانه أن نبيه ﷺ ليس في شك، ومثل هذا قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِذَا طَلَعَتِ النِّسَاءُ﴾ فقال: ﴿طَلَعَتْ﴾ والخطاب للنبي ﷺ وحده، وهذا مذهب الحسن، وابن عباس، وأكثر أهل التأويل. وروي عن الحسن، وقتادة، وسعيد بن جبير، أنهم قالوا: إن النبي ﷺ لم يشك، ولم يسأل، وهو المروي أيضاً عن أبي عبد الله ﷺ.

وثانيها: إِنَّ الْخُطَابَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنْ لَمْ يَشْكُ وَعِلْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ غَيْرُ شَاكٍ، وَلَكِنَّ الْكَلَامَ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّقْرِيرِ وَالْإِفْحَامِ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ لِعَبْدِهِ: إِنْ كُنْتَ عَبْدِي فَأَطْعِمْنِي، وَلَأَبِيهِ: إِنْ كُنْتَ وَالِدِي فَتُعْطِفْ عَلَيَّ، وَلَوْلَدِهِ: إِنْ كُنْتَ ابْنِي فَبِرِّئْنِي، يَرِيدُ بِذَلِكَ الْمَبَالِغَةَ. وَرَبِّمَا خَرَجُوا فِي الْمَبَالِغَةِ إِلَى مَا يَسْتَحِيلُ، كَقَوْلِهِمْ: بَكَتِ السَّمَاءُ لَمَوْتَ فُلَانٍ، أَيْ: لَوْ كَانَتْ تَبْكِي سَمَاءً عَلَى مَيِّتٍ، لَبَكَتْ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ هَهُنَا يَكُونُ الْمَعْنَى: لَوْ كُنْتَ مِمَّنْ يَشْكُ فَشَكَّكَتَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، عَنِ الْفَرَاءِ، وَغَيْرِهِ.

وثالثها: إِنْ الْمَعْنَى: فَإِنْ كُنْتَ أَهْلُ الْمَخَاطَبِ، أَوْ أَهْلُ السَّمْعِ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَكُونُ الْخُطَابُ لَغَيْرِهِ.

ورابعها: مَا ذَكَرَهُ الزَّجَاجُ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿إِنَّ﴾ فِي مَعْنَى: مَا، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: مَا كُنْتُ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ، أَيْ: لِسَانًا نَرِيدُ بِأَمْرِكَ، أَنْ تَسْأَلَ لِأَنَّكَ شَاكٍ، وَلَكِنْ لَتَزْدَادَ إِيمَانًا، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ لَهُ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾ فَالزِّيَادَةُ فِي التَّعْرِيفِ لَيْسَتْ مِمَّا يَبْطُلُ صِحَّةُ الْعَقِيدَةِ.

وَإِنَّمَا أَمْرُ سُبْحَانِهِ بِسُؤَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ جُحْدِ أَكْثَرِهِمْ لِنُبُوْتِهِ فِيهِ قَوْلَانِ:

أحدهما: إِنَّهُ أَمْرُهُ بِأَنْ يَسْأَلَ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَكَعَبِ الْأَحْبَارِ، وَتَمِيمِ الدَّارِيِّ، وَأَشْبَاهِهِمْ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالضَّحَّاكِ.

والآخر: إِنَّ الْمُرَادَ سَلَامَهُمْ عَنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُبَشِّرِ بِهِ فِي كِتَابِهِمْ، ثُمَّ انْظُرْ فِيمَا وَافَقَ تِلْكَ الصِّفَةَ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَقْوَى، لِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَابْنُ سَلَامٍ وَغَيْرُهُ إِنَّمَا أَسْلَمُوا بِالْمَدِينَةِ، وَقَالَ الزَّهْرِيُّ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي السَّمَاءِ، فَإِنْ صَحَّ ذَلِكَ فَقَدْ كَفَى الْمُؤْمِنَةَ، وَرَوَاهُ أَصْحَابُنَا أَيْضًا عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام.

وَقِيلَ أَيْضًا: إِنَّ الْمُرَادَ بِالشَّكِّ: الضَّيْقَ وَالشَّدَّةَ لِمَا يَعَانِيهِ مِنْ تَعَنُّتِهِمْ وَأَذَاهُمْ، أَيْ: إِنْ ضُغِتْ ذِرْعًا بِمَا تَلْقَى مِنْ أَذَى قَوْمِكَ، فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، كَيْفَ صَبَرَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَى أَذَى قَوْمِهِمْ؟ فَاصْبِرْ كَذَلِكَ.

﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي بِالْحَقِّ الْقُرْآنَ وَالْإِسْلَامَ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أَيْ: الشَّاكِينَ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَيْ: مِنْ جُمْلَةٍ مِنْ يَجْحَدُ آيَاتَ اللَّهِ، وَلَا يَصْدُقُ بِهَا ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَيْ: فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَلَمْ يَقُلْ مِنَ الْكَافِرِينَ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ عَلِمَ شِدَّةَ تَحْسَرِهِ وَتَأْسَفِهِ عَلَى خَسْرَانِ مَالِهِ، فَكَيْفَ إِذَا خَسَرَ دِينَهُ وَنَفْسَهُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مَعْنَاهُ: إِنَّ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِغَيْرِ شَرْطٍ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَنفَى الْإِيمَانَ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَنْفِ عَنْهُمْ الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ، فَإِنْ نَفَى الْفِعْلَ لَا يَكُونُ نَفْيًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ مَغْفِرَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ نَفْيًا لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَغْفِرَتِهِمْ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ، أَنَّ الَّذِينَ وَجِبَ عَلَيْهِمْ سَخَطُ رَبِّكَ، عَنْ قِتَادَةٍ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَجِبَ عَلَيْهِمْ وَعِيدُ رَبِّكَ ﴿وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ أَيْ: كُلُّ مَعْجَزَةٍ وَدَلَالَةٍ مِمَّا يَقْتَرِحُونَهَا

﴿حَقَّ يَرُوءُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الموجع، فيصيروا ملجئين إلى الإيمان. وفي هذا إعلام بأن هؤلاء الكفار، لا لطف لهم في المعلوم يؤمنون عنده إيمان اختيار.



قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٩١).

● الإعراب: لولا: بمعنى هلا، وهي تستعمل على وجهين:

أحدهما: التحضيض.

والآخر: التأنيب. كقولك في التحضيض: هلا تأتي زيدا لحاجتك. وفي التأنيب: هلا امتنعت من الفساد الذي دعيت إليه، قال الشاعر:

تعدُّون عقر النِّيبِ أفضلَ مجدِّكم بني ضوْطرى لولا الكميِّ المقنَّعا^(١)

أي هلا تعقرون الكميِّ، وكانت قرية، كان هذه هي التامة، لا تحتاج إلى خبر، و﴿ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا﴾ صفة لقرية، فإن الجمل قد تقوم مقام الصفة للنكرة، و﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء متصل واقع على المعنى لا على ظاهر اللفظ، فكأنه قال: هلا آمن أهل قرية، والجميع مشتركون في هذا العتاب، و﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾ مستثنى من الجميع، ومثل هذا الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقال الزجاج: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطع، وتقديره: لكن قوم يونس لما آمنوا، ومثله قول النابغة:

وقفتُ فيها أضيلالاً أسألُها، عيَّت جواباً، وما بالرُّنح من أحد
إلا أوارِي لأياً ما أبيعُها والنُّؤي كالحوضِ بالمظلومةِ الجلدِ^(٢)

وحكى الفراء في البيت: «لا إن ما أبيعُها»، وقال: جمع الشاعر بين ثلاثة أحرف في النفي، (لا) و(إن) و(ما)، وقرأ بعضهم «يونس ويوسف» بكسر النون والسين، أراد أن يجعل الاسمين عربيين مشتقين من آسف وأنس، وهو شاذ.

(١) الشعر في (جامع الشواهد) قد مر أيضاً.

(٢) وفي معلقته: «أصيلالاً كي أسألها» في البيت الأول، ويروى «أصيلالنا» وأصيلال تصغير الأصل - بضمين - جمع الأصل: الوقت بعد العصر، وأصيلال على البدل، أبدلوا من النون لاما يقول: وقفت في هذه الدار عشية أسألها عن أهلها أين ذهبوا، فلم تقدر على الجواب، ولم يكن فيها أحد يحسنه. والأواري: حيث تجلس الدواب وقوله لأياً: أي جهداً، والنؤي: نهر يحفر حول الأخية، يجري فيها الماء، فشبهه بالحوض. وقوله: (بالمظلومة الجلد) أي بالموضع الذي لا يحفر لصلابته، فجعلها مظلومة، لأنها حفرت في غير موضع حفر. والشاهد في قوله: (الا أواري) بالنصب على الاستثناء المنقطع، لأنها من غير جنس الأحد.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه أن إيمان فرعون لم يقبل عند معاينة العذاب، وصل ذلك بذكر إيمان قوم يونس قبل نزول العذاب، فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ قيل: إن معناه، فهلا كان أهل قرية آمنوا في وقت ينفعهم إيمانهم. أعلم الله سبحانه، أن الإيمان لا ينفع عند وقوع العذاب، ولا عند حضور الموت الذي لا يشك فيه، ولكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم العذاب، عن الزجاج، قال وقوم يونس لم يقع بهم العذاب، إنما رأوا الآية التي تدل على العذاب، فمثلهم مثل العليل الذي يتوب في مرضه، وهو يرجو العافية، ويخاف الموت.

وقيل: إن معناه لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قرية بأجمعهم، حتى لا يشذ منهم أحد، إلا قوم يونس، فهلا كانت القرى كلها هكذا، عن الحسن.

وقيل: معناه فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها، يريد بذلك: لم يكن هذا معروفاً لأمة من الأمم، كفرت ثم آمنت عند نزول العذاب، وكشف عنهم، أي: لم أفعل هذا بأمة قط، إلا قوم يونس لما آمنوا عند نزول العذاب، كشف عنهم العذاب بعدما تدلى عليهم، وهو قوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ عن قتادة وابن عباس في رواية عطاء.

وقيل: إنه أراد بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ قوم ثمود، فإنه قد جاءهم العذاب يوماً فيوماً، كما جاء قوم يونس، إلا أن قوم يونس استدركوا ذلك بالتوبة، وأولئك لم يستدركوا، فوصف أهل القرية بأنهم سوى قوم يونس، ليعرفهم به بعض التعريف، إذ كان أخير عنهم على سبيل الإخبار عن النكرة، عن الجبائي، وهذا الذي ذكره، إنما كان يصح لو كان: إلا قوم يونس، مرفوعاً، فكان يكون صفة لقرية، أو بدلاً منه، على معنى: هلا كان قوم قرية آمنوا إلا قوم يونس، ولم يقرأ أحد من القراء بالرفع ﴿وَمَنْعْنَاهُمْ إِنْ جَاءَهُمْ﴾ وهو وقت انقضاء آجالهم.

● **القصة:** وكان من قصة يونس، على ما ذكره سعيد بن جبير، والسدي، وهوب، وغيرهم، إن قوم يونس كانوا بني نوى، من أرض الموصل، وكان يدعوهم إلى الإسلام فأبوا، فأخبرهم أن العذاب مصيبتهم إلى ثلاث إن لم يتوبوا، فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذباً، فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصيبتكم، فلما كان في جوف الليل، خرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا يغشاهم العذاب، قال وهب: أغامت السماء غيماً أسود هائلاً، يدخل دحاناً شديداً، فهبط حتى غشي مدينتهم، واسودت سطوحهم. وقال ابن عباس: كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ثلثي ميل، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا نبيهم فلم يجدوه، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المسوح، وأظهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النية، وفرقوا بين كل والدة وولدها، من الناس والأنعام، فحنَّ بعضها إلى بعض، وعلت أصواتها، واختلطت أصواتها بأصواتهم، وتضرعوا إلى الله عز وجل، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس، فرحمهم ربهم، واستجاب دعاءهم، وكشف عنهم العذاب بعدما أظلمهم.

قال عبد الله بن مسعود: بلغ من توبة أهل نينوى أن يراؤوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل

ليأتي الحجر، وقد وضع عليه أساس بنيانه، فيقتلعه ويرده. وروي عن أبي مخلد أنه قال: لما غشي قوم يونس العذاب، مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم، فقالوا له: لقد نزل بنا العذاب، فما ترى؟ قال: قولوا: «يا حي حين لا حي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت» فقالوها، فانكشف عنهم العذاب.

وروي عن علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: كان فيهم رجل اسمه مَلِيخَا، عابد، وآخر اسمه رُوَيْلُ عالم، وكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم، وكان العالم ينهاه، ويقول له: لا تدع عليهم، فإن الله يستجيب لك، ولا يحب هلاك عباده، فقبل يونس قول العابد، فدعا عليهم، فأوحى الله تعالى إليه: أنه يأتيهم العذاب في شهر كذا، في يوم كذا، فلما قرب الوقت، خرج يونس من بينهم مع العابد، وبقي العالم فيهم، فلما كان اليوم الذي نزل بهم العذاب، قال لهم العالم: افزعوا إلى الله فلعله يرحمكم، ويرد العذاب عنكم، فاخرجوا إلى المفازة، وفرقوا بين النساء والأولاد، وبين سائر الحيوانات وأولادها، ثم إيكوا وادعوا، ففعلوا، فصرف عنهم العذاب، وكان قد نزل بهم، وقرب منهم.

وفرَّ يونس على وجهه مغاضباً، كما حكى الله تعالى عنه، حتى انتهى إلى ساحل البحر، فإذا سفينة قد شحنت^(١)، وأرادوا أن يدفعوها، فسألهم يونس أن يحملوه فحملوه، فلما توسطوا البحر، بعث الله عليهم حوتاً عظيماً، فحبس عليهم السفينة، فتساهموا فوقع السهم على يونس. فأخرجوه فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت ومر به في الماء، وقيل: إن الملاحين قالوا: نقترع فمن أصابته القرعة ألقيناه في الماء، فإن هاهنا عبداً عاصياً أبقاً. فوقعت القرعة سبع مرات على يونس، فقام وقال: أنا العبد الآبق، وألقى نفسه في الماء، فابتلعه الحوت، فأوحى الله إلى ذلك الحوت، لا تؤذ شعرة منه، فإني جعلت بطنك سجنه، ولم أجعله طعامك، فلبث في بطنه ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل: أربعين يوماً.

وقد سأل بعض اليهود أمير المؤمنين علياً عليه السلام، عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه، فقال له: يا يهودي، هو الحوت الذي حبس يونس في بطنه، فدخل في بحر (قلزم)، حتى خرج إلى (بحر مصر)، ثم سار منها إلى بحر (طبرستان)، ثم خرج من (الدجلة).

قال عبد الله بن مسعود: ابتلع الحوت حوت آخر، فأهوى به إلى قرار الأرض، وكان في بطنه أربعين ليلة، فنأدى في الظلمات ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاستجاب الله له، فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر، وهو كالفرخ المتمتع. فأنبث الله عليه شجرة من يقطين، فجعل يستظل تحتها، واكل الله به وعلاً^(٢) يشرب من لبنها، فيست الشجرة فبكى عليها، فأوحى الله تعالى إليه، تبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم. فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: من أنت؟ قال: من قوم

يونس، قال: إذا رجعت إليهم فآخبرهم أنك لقيت يونس، فآخبرهم الغلام، ورد الله عليه بدنه، ورجع إلى قومه، وآمنوا به، وقيل: إنه ﷺ أرسل إلى قوم غير قومه الأولين.



قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ ﴿وَجَعَلَ﴾ بالنون حماد، ويحيى، عن أبي بكر، والباقون بالياء.

● **الحجة:** من قرأ بالنون، فإنه ابتداء بالإخبار عن الله، ومن قرأ بالياء، فلائه تقدم ذكر الله تعالى فكفى عنه.

● **اللغة:** المشيئة والإرادة، والإيثار، والاختيار، نظائر، وإنما يختل عليها الاسم بحسب مواقعها على ما بين في موضعه. قال علي بن عيسى: النفس خاصة الشيء التي لو بطل ما سواها لم يبطل ذلك الشيء، ونفسه وذاته واحد، إلا أنه قد يؤكد بالنفس ولا يؤكد بالذات، والنفس مأخوذة من النفاسة.

● **الإعراب:** ﴿كُلُّهُمْ﴾ تأكيد لمن و﴿جَمِيعاً﴾ نصب على الحال.

● **المعنى:** لما تقدم أن إيمان الملجأ غير نافع، بين سبحانه أن ذلك لو كان ينفع لأكره أهل الأرض عليه، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي لأمن أهل الأرض ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ ومعناه: الإخبار عن قدرة الله تعالى، وأنه يقدر على أن يكره الخلق على الإيمان، كما قال: ﴿إِنْ شَاءَ نَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لِمَا خَضَعِينَ﴾ ولذلك قال بعد ذلك: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ومعناه: إنه لا ينبغي أن تريد إكراههم على الإيمان مع أنك لا تقدر عليه، لأن الله تعالى يقدر عليه ولا يريده، لأنه ينافي التكليف، وأراد بذلك تسلية النبي ﷺ، وتخفيف ما يلحقه من التحسر والحرص على إيمانهم عنه، وفي هذا أيضاً دلالة على بطلان قول المجبرة، أنه تعالى لم يزل كان شائياً، وإنه لا يوصف بالقدرة على أن يشاء، لأنه تعالى أخبر أنه لو شاء لقدّر، لكنه لم يشأ، فلذلك لم يوجد. ولو كانت مشيئته أزلية لم يصح تعليقها بالشرط، فصح أن مشيئته فعلية، ألا ترى أنه لا يصح أن يقال: لو علم سبحانه، ولو قدر، كما صح أن يقال: لو علم سبحانه، ولو قدر، كما صح أن يقال: لو شاء، ولو أراد.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه: أنه لا يمكن أحد أن يؤمن إلا بإطلاق

الله تعالى له في الإيمان، وتمكينه منه، ودعائه إليه، بما خلق فيه من العقل الموجب لذلك. وقيل: إن إذنه هاهنا أمره، كما قال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾، عن الحسن، والجبائي، وحقيقة الإذن إطلاقه في الفعل بالأمر، وقد يكون الإذن بالإطلاق في الفعل برفع التبعة. وقيل: إن إذنه هنا علمه، أي: لا تؤمن نفس إلا بعلم الله، من

قولهم: أذنت لكذا، إذا سمعته وعلمته، وأذنته: أعلمته، فيكون خبراً عن علمه سبحانه لجميع الكائنات. ويجوز أن يكون بمعنى إعلام الله المكلفين بفضل الإيمان، وما يدعوههم إلى فعله، ويبعثهم عليه ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه: ويجعل العذاب على الذين لا يتفكرون حتى يعقلوا، فكانهم لا عقول لهم، عن قتادة، وابن زيد. وقيل: معناه ويجعل الكفر عليهم، أي: يحكم عليهم بالكفر، ويذمهم عليه، عن الحسن. وقيل: الرجس: الغضب والسخط، عن ابن عباس. وقال الكسائي: الرجس، النتن، والرجز والرجس واحد. قال أبو علي: وكان الرجس على ضربين:

أحدهما: أن يكون في معنى العذاب.

والآخر: أن يكون بمعنى القدر والنجس، أي: يحكم بأنهم رجس، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الشِّرْكُوتُ نَجَسٌ﴾.



قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ يَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١) **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ** (١٠٢) **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ** (١٠٣).

● **القراءة:** قرأ الكسائي برواية نصير، ويعقوب برواية روح وزيد: ﴿ثم نُنَجِّي﴾ خفيفة، وروي عن روح التشديد أيضاً فيه. والباقون: ﴿نُنَجِّي﴾ بالتشديد. وقرأ الكسائي، وحفص، عن عاصم، ويعقوب، وسهل: ﴿ننجي المؤمنين﴾ خفيفة، والباقون: ﴿نُنَجِّي﴾ بالتشديد.

● **الحجة:** حجة من قال: ﴿نُنَجِّي﴾ قوله: ﴿فَأُنَجِّهِ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ وحجة من قال: ﴿نُنَجِّي﴾ قوله: ﴿وَنَجِّينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وكلاهما حسن، قال الشاعر:

وَنَجِّنِي ابْنَ هَنْدٍ سَابِحٌ ذُو غِلَالَةٍ^(١) أَجَشُّ هَزِيمٌ، والرماح دَوَانٌ

● **اللغة:** النظر: طلب الشيء من جهة الفكر، كما يطلب إدراكه بالعين. والنذر: جمع نذير، وهو صاحب النذارة. والانتظار: هو الثبات لتوقع ما يكون من الحال، تقول: انتظرنى حتى ألقاك، ولو قلت: توقعني، لم تكن قد أمرته بالثبات. والمثل في الجنس: ما سدَّ أحدهما مسدَّ صاحبه فيما يرجع إلى ذاته، والمثل في غير الجنس: ما كان على معنى يقربه من غيره، كقربه من جنسه، كتشبيه أعمال الكفار بالسراب. والنجاة: مأخوذة من النجوة، وهي الارتفاع عن الهلاك، وكذلك السلامة: مأخوذة من إعطاء الشيء من غير نقيصة، أسلمته إليك: إذا أعطيته سالماً من غير آفة.

(١) الغلالة: شيء يلبسونه الفرس تحت السرج. والأجش: عظيم الصوت. والهزيم: سريع العدو.

● **الإعراب:** وجه التشبيه في ﴿كَذَلِكَ﴾ أن نجاة من بقي من المؤمنين كنجاة من مضى، في أنه حق على الله واجب لهم، ويحتمل أن يكون العامل في ﴿كَذَلِكَ﴾ ﴿نُنَجِّي﴾ الأول، وتقديره: ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك الإنجاء، ويحتمل أن يكون العامل فيه ﴿نُنَجِّي﴾ الثاني، و﴿حَقًّا﴾ نصب على المصدر، أي: يحق حقاً، وقيل: إنه نصب على الحال، وإن كان لفظه لفظ المصدر - عن أبي مسلم، قال جامع العلوم النحوي الضرير: ويجوز أن ينصب ﴿حَقًّا﴾ بدلاً من ﴿كَذَلِكَ﴾ أو وصفاً، ولا يجوز أن ينصب كذلك وحقاً جميعاً بقوله: ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ لأن الفعل الواحد لا يعمل في مصدرين، ولا في حالين، ولا في استثناءين، ولا في مفعولين معاً، وقد بين ذلك في موضعه، فإن جعلت ﴿كَذَلِكَ﴾ من صلة ﴿نُنَجِّي﴾ وجعلت ﴿حَقًّا﴾ من صلة قوله: ﴿نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ننجي المؤمنين حقاً، كان الوقف على ﴿كَذَلِكَ﴾.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه ما يزيد في تنبيه القوم وإرشادهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن يسألك الآيات ﴿أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الدلائل والعبر، من اختلاف الليل والنهار، ومجاري النجوم والأفلاك، وما خلق من الجبال والبحار، وأنبث من الأشجار والثمار، وأخرج من أنواع الحيوانات، فإن النظر في أفرادها وجملتها، يدعو إلى الإيمان، وإلى معرفة الصانع، ووحدانيته وعلمه، وقدرته وحكمته ﴿وَمَا تُفْنِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: وما تغني هذه الدلالات والبراهين الواضحة مع كثرتها وظهورها، ولا الرسل المخوفة عن قوم لا ينظرون في الأدلة تفكيراً وتدبراً، ولا يريدون الإيمان. وقيل: ما تغني معناه: أي شيء تغني عنهم، من اجتلاب نفع، أو دفع ضرر، إذا لم يستدلوا بها؟ فيكون ما للاستفهام، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية هتف بها، وقال: وما تغني الحجج عن قوم لا يقبلونها. وقال أبو عبد الله عليه السلام: لما أسرى برسول الله ﷺ جبرائيل بالبراق، فركبها، فأتى بيت المقدس، فلقي من لقي من الأنبياء، ثم رجع فأصبح يحدث أصحابه، أني أتيت بيت المقدس، ولقيت إخواني من الأنبياء، فقالوا: يا رسول الله! كيف أتيت بيت المقدس الليلة؟ قال: جاءني جبرائيل بالبراق فركبتها، وآية ذلك أني مررت بعر لأبي سفيان، على ماء لبني فلان، وقد أضلوا جملأ لهم أحمر، وهم في طلبه، فقال القوم بعضهم لبعض: إنما جاءه راكب سريع، ولكنكم قد أتيتم الشام وعرفتموها، فاسألوه عن أسواقها، وأبوابها، وتجارها. فسالوه عن ذلك. وكان عليه السلام إذا سئل عن الشيء لا يعرفه، شق ذلك عليه، حتى يرى ذلك في وجهه، قال: فبينما هو كذلك، إذ أتاه جبرائيل عليه السلام، فقال: يا رسول الله! هذه الشام قد رفعت لك، فالتفت رسول الله ﷺ فإذا هو بالشام، فقالوا له: أين بيت فلان ومكان كذا؟ فأجابهم في كل ما سألوه عنه، فلم يؤمن منهم إلا قليل، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا تُفْنِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: فنعوذ بالله ألا نؤمن بالله، آمنا بالله ورسوله.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَارِ الْأَيْتِ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ معناه: فهل ينتظر هؤلاء الذين أمروا بالإيمان فلم يؤمنوا، وبالنظر في الأدلة فلم ينظروا، إلا العذاب والهلاك في مثل الأيام التي هلك من قبلهم من الكفار فيها. قال قتادة: أراد به وقائع الله في عاد، وثمود، وقوم نوح عليه السلام، وعبر عن الهلاك بالأيام، كما يقال: أيام فلان، يراد بها أيام دولته، وأيام محنته،

واللفظ لفظ الاستفهام والمراد به النفي، وتقديره: ليس ينتظرون إلا ذاك ﴿قُلْ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي: قل يا محمد لهم: فانتظروا ما وعدنا الله من العذاب فإني منتظر معكم من جميع المنتظرين لما وعد الله به.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من بينهم، ونخلصهم من العذاب وقت نزوله، وقيل: من شرور أعدائهم ومكرهم ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الحسن: معناه: كنا إذا أهلكنا أمة من الأمم الماضية، نجينا نبيهم، ونجينا الذين آمنوا به أيضاً، كذلك إذا أهلكنا هؤلاء المشركين، نجيناك يا محمد، والذين آمنوا بك. وقيل: معناه كذلك حقاً علينا، أي واجباً علينا، من طريق الحكمة، ننجي المؤمنين من عذاب الآخرة، كما ننجيهم من عذاب الدنيا. وقال أبو عبد الله ﷺ لأصحابه: ما يمنعكم من أن تشهدوا على من مات منكم على هذا الأمر، أنه من أهل الجنة، إن الله تعالى يقول: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.



قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْبَصَرُ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾﴾.

● **اللغة:** الشك: وقوف في المعنى ونقيضه، كمن يشك في كون زيد في الدار، فإنه لا يكون لأحد الصفتين عنده مزية على الأخرى، فيقف، وهو معنى غير الاعتقاد، عند أبي علي الجبائي وأبي هاشم، ثم رجع عنه أبو هاشم، وقال: ليس بمعنى، وهو اختيار القاضي. والتوفي: قبض الشيء على التمام. والإقامة: نصب الشيء، ونقيضه الاضطجاع، وأقام بالمكان استمر فيه كاستمرار القيام في جهة الانتصاب. والمماسه، والمطابقة، والمجامعة، نظائر، وضدها المباينة. والكشف: رفع الساتر المانع من الإدراك، فكأن الضر ههنا ساتر يمنع من إدراك الإنسان.

● **الإعراب:** ﴿إِنْ كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ شرط، وجوابه في قوله: ﴿فَلَا أَعْبُدُ﴾ وإنما صح ذلك، لأن معناه: إن كنتم في شك، فلا تظمعوا في تشكيكي حتى أعبد غير الله كعبادتكم.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بالبراءة عن كل معبود سواه، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أي: قل يا محمد لهم: فانتظروا ما وعدنا الله من العذاب فإني منتظر معكم من جميع المنتظرين لما وعد الله به. ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ﴾ أي: بل أعبد الله الذي يتوفىكم، وهذا يتضمن تهديداً لهم، لأن وفاة المشركين ميعاد عذابهم، ومتى قيل: كيف قال: ﴿إِنْ كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ مع اعتقادهم بطلان دينه؟ فجوابه من وجوه:

أحدها: أن يكون التقدير: من كان شاكاً في أمري فهذا حكمه.

والثاني: إنهم في حكم الشاك، للاضطراب الذي يجدونه في أنفسهم، عند ورود الآيات.

والثالث: إن فيهم من كان شاكاً فغلب ذكرهم.

﴿وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بالتوحيد، وإخلاص العبادة له. ﴿وَأَنْ أَقْبِرَ وَجْهَكَ﴾ هذا عطف على ما قبله، فكأنه قال: وقيل لي: وأقم وجهك للدين. أي: استقم في الدين بإقبالك على ما أمرت به، من القيام بأعباء الرسالة، وتحمل أمر الشريعة بوجهك. وقيل: معناه وأقم وجهك في الصلاة، بالتوجه نحو الكعبة ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مستقيماً في الدين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا نهى عن الإشراك مع الله سبحانه غيره في العبادة ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن أطعته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته وتركته، أي: لا تدعه إلهاً كما يدعو المشركون الأوثان آلهة، وإنما قال: ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ مع أنه لو نفع وضر لم يحسن عبادته أيضاً لأمرين:

أحدهما: إن معناه: ما لا ينفَعُكَ نفع الإله، ولا يضرُّكَ ضرره.

والثاني: إنه إذا كان عبادة غير الله ممن يضر وينفع قبيحة، فعبادة من لا يضر ولا ينفع أقبح.

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ معناه: فإن خالفت ما أمرت به، من عبادة غير الله كنت ظالماً لنفسك، بإدخالك الضرر الذي هو العقاب عليها، وهذا الخطاب وإن كان متوجهاً إلى النبي ﷺ في الظاهر، فالمراد به أمته ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ معناه: وإن أحل الله بك ضرراً من بلاء أو شدة أو مرض ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يقدر أحد على كشفه غيره، كأنه سبحانه لما بين أن غيره لا ينفع ولا يضر، عقبه ببيان كونه قادراً على النفع والضرر ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ من صحة جسم ونعمة وخصب ونحوها ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أي: لا يقدر على منعه أحد، وتقديره: وإن يردك خيراً، ويجوز فيه التقديم والتأخير، يقال: فلان يريدك بالخير، ويريد بك الخير ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالخير ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيعطيه على ما تقتضيه الحكمة، ويعلمه من المصلحة ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده ﴿الَرْحِيمُ﴾ بهم.



قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٨) **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٩).**

● **المعنى:** ثم ختم الله سبحانه السورة بالموعظة الحسنة، تسلياً للنبي ﷺ، والوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين، فقال عز اسمه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد مخاطباً للمكلفين ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن ودين الإسلام، والأدلة الدالة على صحته. وقيل: يريد بالحق النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بذلك بأن نظر فيه وعرفه حقاً وصواباً ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ معناه: فإن منافع ذلك من الثواب وغيره يعود عليه ﴿وَمَنْ ضَلَّٰ﴾ عنه

وعدل عن تأمله، والاستدلال به ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: على نفسه، لأنه يجني عليها ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنا بحفيظ لكم عن الهلاك، إذا لم تنظروا أنتم لأنفسكم، ولم تعملوا ما يخلصها، كما يحفظ الوكيل مال غيره. والمعنى: إنه ليس عليّ إلا البلاغ، ولا يلزمني أن أجعلكم مهتدين، وأن أنجيكم من النار، كما يجب على من وكلّ على متاع أن يحفظه من الضرر ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾ على أذى الكافرين وتكذيبهم ﴿حَتَّىٰ يَخُصِّمَ اللَّهُ﴾ بينك وبينهم بإظهار دينه، وإعلاء أمره ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه لا يحكم إلا بالعدل والصواب.

jabir.abbas@yahoo.com

سُورَةُ هُودٍ

هي مكية كلها في قول الأكثرين. وقال قتادة: إلا آية، وهي قوله: ﴿وَأَقْرِصْ أَلْصُلَّةَ طَرَفِي الْتَّهَارِ﴾ فإنها أنزلت بالمدينة.

● عدد آياتها: هي مائة وثلاث وعشرون آية كوفي، وآيتان شامي والمدني الأول، وآية في الباقيين.

اختلافها: سبع آيات: ﴿بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾ كوفي ﴿فِي قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ غير البصري ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ مكِّي شامي، والمدني الأخير. ﴿كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ حجازي ﴿مَنْصُورٍ﴾ و﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ عراقي، شامي، والمدني الأول. ﴿مُخْلِفينَ﴾ عراقي وشامي.

● فضلها: أبي بن كعب، عن النبي ﷺ، قال: من قرأها أعطني من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بنوح عليه السلام وكذب به، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وإبراهيم، وموسى، وكان يوم القيامة من السعداء. وروى الثعلبي بإسناده، عن أبي إسحاق، عن أبي جحيفة قال: قيل: يا رسول الله! قد أسرع إليك الشيب! قال: شيبني هود، وأخواتها. وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك عن أبي بكر قال: قلت: يا رسول الله! عجل إليك الشيب! قال: شيبني هود وأخواتها: الحاقة، والواقعة، وعم يتساءلون، وهل أذاك حديث الغاشية. وروى العياشي، عن الحسن بن علي الوشا، عن ابن سنان، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة هود في كل جمعة، بعثه الله يوم القيامة في زمرة النبيين، وحوسب حساباً يسيراً، ولم تُعرف له خطيئة عملها يوم القيامة.

● تفسيرها: لما ختم الله سبحانه سورة يونس بذكر الوحي في قوله: ﴿وَأَنبِئَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ افتتح هذه السورة ببيان ذلك الوحي، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنشَأْنَاهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَقْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِيعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

● اللغة: الإحكام: منع الفعل من الفساد. والحكمة: المعرفة بما يمنع الفعل من الفساد والنقص، وبما يميز القبيح من الحسن، والفاسد من الصحيح، والحكيم في صفات الله سبحانه يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون بمعنى مُحَكِّم، فهو فعيل بمعنى مفعول، أي: محكم أفعاله فيكون على هذا من صفات فعله، فلا يوصف به فيما لم يزل.

والثاني: أن يكون بمعنى عليم، فيكون من صفات ذاته، فيوصف بأنه حكيم لم يزل.

● الإعراب: قال الزجاج: ﴿كَتَبَ﴾ مرفوع بإضمار: هذا كتاب، وقال بعضهم: ﴿كَتَبَ﴾ خبر ﴿الرَّ﴾ وهذا غلط، لأن ﴿كَتَبَ أَهْكَمْتَ إِنَّمْ﴾ ليس هو ﴿الرَّ﴾ وحدها، و ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ في موضع نصب، تقديره: فصلت آياته لئلا تعبدوا، ويحتمل أن يكون على تقدير: أمركم ألا تعبدوا، فلما حذفت الباء وصل الفعل فنصبه ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا﴾ معطوف عليه، ومعنى قوله: ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ إيجاب للمذكور بعد ما نفى عن كل ما سواه من العبادة، وهي التي تفرغ عامل الإعراب لما بعدها. ﴿يَتَعَبَّكُمْ﴾ جزم جواباً لقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ ﴿وَأَنِ تَوَلَّوْا﴾ يريد: تتولوا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً، وابن كثير يدغم التاء الأولى في الثانية ويشدد.

● المعنى: قد بينا تفسير ﴿الرَّ﴾ والأقاويل التي فيها في أول البقرة، فلا معنى لإعادته. ﴿كَتَبَ﴾ يعني القرآن، أي: هو كتاب ﴿أَهْكَمْتَ إِنَّمْ تَمَّ فَصَّلَتْ﴾ ذكر فيه وجوه:

أحدها: إن معناه: أحكمت آياته فلم ينسخ منها شيء، كما نسخت الكتب والشرائع، ثم فصلت ببيان الحلال والحرام، وسائر الأحكام، عن ابن عباس.

وثانيها: إن معناه: أحكمت آياته بالأمر والنهي، ثم فصلت بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، عن الحسن، وأبي العالية.

وثالثها: أحكمت آياته جملة، ثم فرقت في الإنزال آية بعد آية، ليكون المكلف أمكن من النظر والتدبر، عن مجاهد.

ورابعها: أحكمت في نظمها، بأن جعلت على أبلغ وجوه الفصاحة، حتى صار معجزاً، ثم فصلت بالشرع والبيان المفروض، فكأنه قيل: محكم النظم، مفصل الآيات، عن أبي مسلم. وخامسها: أتقنت آياته، فليس فيها خلل ولا باطل، لأن الفعل المحكم ما قد أتقنه فاعله، حتى لا يكون فيه خلل، ثم فصلت: بأن جعلت متتابعة بعضها إثر بعض.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ أي: إن هذا الكتاب، أتاكم من عند حكيم، في أحواله وتدبيره ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بأحوال خلقه ومصالحهم. وفي هذه الآية دلالة على أن كلام الله سبحانه محدث، لأنه وصفه بأنه أحكمت آياته ثم فصلت، والإحكام من صفات الأفعال، وكذلك التفصيل، ثم قال: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ وهذه الإضافة لا تصح إلا في المحدث، لأن القديم يستحيل أن يكون صادراً من غيره.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ معناه: أنزل هذا الكتاب ليأمركم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ولكي لا تعبدوا إلا الله، كما يقال: كتبت إليك أن لا تخرج من الدار، وأت لا تخرج، بالنصب والجزم ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْ نَّبِيرٍ وَبَشِيرٍ﴾ هذا إخبار من النبي ﷺ، أنه مُخَوِّفٌ من مخالفة الله وعصيانه، باليم

العقاب، مبشر على طاعة الله، بجزيل الثواب ﴿وَأَنِ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكَ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ﴾ ومعناه: اطلبوا المغفرة، واجعلوها غرضكم، ثم توصلوا إليها بالتوبة.

وقيل معناه: استغفروا ربكم من ذنوبكم، ثم توبوا إليه في المستأنف، متى وقعت منكم المعصية، عن الجبائي.

وقيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ ههنا بمعنى الواو، عن الفراء. وهذا لأن الاستغفار والتوبة واحد، فتكون التوبة تأكيداً للاستغفار.

﴿يُؤَيِّدُكُمْ مَّتَّعًا حَسَنًا إِنَّ أَجَلَ مُسَيِّئٍ﴾ يعني أنكم متى استغفرتموه وتبتم إليه، يمتعكم في الدنيا بالنعم السابغة في الخفض والدعة، والأمن والسعة، إلى الوقت الذي قدر لكم أجل الموت فيه. وقال الزجاج: يريد: يبيقكم ولا يستأصلكم بالعذاب، كما استأصل أهل القرى الذين كفروا ﴿وَوُتِّئَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ﴾ قيل: إن الفضل بمعنى التفضيل والإفضال، أي: ويعطي كل ذي إفضال على غيره بمال، أو كلام، أو عمل بيد أو رجل، جزاء إفضاله، فيكون الهاء في ﴿فَضْلِهِ﴾ عائد إلى ذي الفضل. وقيل: إن معناه: يعطي كل ذي عمل صالح فضله، أي: ثوابه على قدر عمله، فإن من كثرت طاعاته في الدنيا، زادت درجاته في الجنة، وعلى هذا فالأولى أن تكون الهاء في ﴿فَضْلِهِ﴾ عائد إلى اسم الله تعالى. ﴿وَلَنُؤَلِّقَنَّ﴾ أي: أعرضوا عما أمروا به. وقيل معناه: وإن تتولوا أنتم، أي: تعرضوا، فحذف إحدى التاءين، ولذلك شدد بن كثير في رواية البزي عنه ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي: كبير شأنه، وهو يوم القيامة، وهذا الخوف ليس في معنى الشك، بل هو في معنى اليقين، أي: فقل لهم يا محمد: إني أعلم أن لكم عذاباً عظيماً، وإنما وصف اليوم بالكبير، لعظم ما فيه من الأهوال ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: في ذلك اليوم إلى حكم الله مصيركم، لأن حكم غيره يزول فيه. وقيل: معناه إليه مصيركم، بأن يعيدكم للجزاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على الإعادة، والبعث والجزاء، فاحذروا مخالفته.



قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

● **القراءة:** روي عن ابن عباس بخلاف، ومجاهد، ويحيى بن يعمر، وعن علي بن الحسين، وأبي جعفر محمد بن علي، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد عليه السلام: ﴿يَنْتَوْنَ صُدُورَهُمْ﴾ على مثال: يفعلون، وعن ابن عباس أيضاً: ﴿يَنْتَوْنَ﴾ وعن مجاهد: ﴿يَنْتَوْنَ﴾ وروي ذلك أيضاً عن عروة الأعمش.

● **الحجة:** أما ﴿يَنْتَوْنَ﴾ على مثال: يفعلون، فهو من أمثلة المبالغة، تقول: أغشب البلد، فإذا كثر ذلك قلت: اعشوشب، وكذلك احلولى، واخشوشب، واخشوشن. وأما ﴿يَنْتَوْنَ﴾، و﴿يَنْتَوْنَ﴾، فقد قال ابن جني: إنهما من لفظ الثن، وهو ما هش وضعف من الكلاء، وأنشد أبو زيد:

«تَكْفِي الْقُحُوحُ أَكْلَةً مِنْ ثَنٍّ»^(١)

و﴿يَثْنُ﴾ بالهمزة أصله: يَثْنَانُ، فحركت الألف لسكونها، وسكون النون الأولى فانقلبت همزة، وأما ﴿يَثْنُونَ﴾ فأصله: يَثْنُونِ، فلزم الإدغام، لتكرير العين إذا كان غير ملحق، فأسكنت النون الأولى ونقلت كسرتها إلى الواو، وأدغمت النون في النون فصار ﴿يَثْنُونَ﴾.

● **اللغة:** أصل الثني: العطف، تقول: ثنيته عن كذا، أي: عطفته، ومنه: الاثنان، لعطف أحدهما على الآخر في المعنى، ومنه الثناء، لعطف المناقب في المدح، ومنه الاستثناء، لأنه عطف عليه بالإخراج منه. والاستخفاء: طلب خفاء الشيء، يقال: استخفى، وتخفى بمعنى، وكذلك استغشى وتغشى، قالت الخنساء.

أرعى النجومَ وما كُلفت رِغيتها وتارةً أتغشى فضلَ أظماري^(٢)
● **الإعراب:** «ألا» معناها: التنبيه، ولا حظ لها في الإعراب، وما بعدها مبتدأ.

● **النزل:** قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وكان حلو الكلام، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي بقلبه على ما يكره، عن ابن عباس. وروى العياشي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: أخبرني جابر بن عبد الله: أن المشركين إذا مروا برسول الله ﷺ طأطأ أحدهم رأسه وظهره هكذا، وغطى رأسه بثوبه حتى لا يراه رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر القرآن، بيّن سبحانه فعلهم عند سماعه، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ يعني الكفار والمنافقين ﴿يَتَنَوْنَ صُدُورُهُمْ﴾ أي: يطونها على ما هم عليه من الكفر، عن الحسن. وقيل: معناه يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كلام الله سبحانه، وذكره، عن قتادة. وقيل: يثنونها على عداوة النبي ﷺ، عن الفراء، والزجاج. وقيل: إنهم إذا عقدوا مجلساً على معادة النبي ﷺ، والسعي في أمره بالفساد انضم بعضهم إلى بعض، وثنى بعضهم صدره إلى صدر بعض يتناجون ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي: ليخفوا ذلك من الله تعالى على القول الأخير، فإنهم كانوا قد بلغ من شدة جهلهم الله، أن ظنوا أنهم إذا ثنوا صدورهم على سبيل الإخفاء، لم يعلم الله تعالى أسرارهم، وعلى الأقوال الأخر: معناه: ليستروا ذلك عن النبي ﷺ ﴿أَلَا جِنَّ يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ معناه: أنهم يتغطون بثيابهم، ثم يتفاوضون فيما كانوا يدبرونه على النبي ﷺ، وعلى المؤمنين فيكتمونه، عن ابن عباس. فبيّن الله سبحانه أنه ﴿يَعْلَمُ مَا يَرُوتُ وَمَا يَلْمُونَ﴾ وقت ما يتغطون بثيابهم، ويجعلونها غشاء فوقهم، لا بمعنى أنه يتجدد له العلم في حال استغشائهم بالثوب، بل هو عالم بذلك في الأزل ﴿إِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يريد بما في النفوس، عن ابن

(١) قائله أخوص بن عبد الله الرياحي، وبعده: «ولم تكن أثر عندي مني». واللحوق: الناقة الحلوبة. يقول: إذا شرب الأضياف لبنها، علفها الثن فعاد لبنها.

(٢) راعى النجوم وراعاها: راقبها وانتظر مغيبها. وفي الشعر كناية عن السهر.

عباس، وبحقيقة ما في القلوب من المضمرات. وقيل: إنه كنى باستغشاء ثيابهم عن الليل، لأنهم يغطون بظلمته، كما يغطون بثيابهم.



قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١) **وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكانت عرشه على الماء لئلا يبلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلتم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** (٧) **ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسهم إلا يوم يأتهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** (٨).

● **اللغة:** الدابة: الحي الذي من شأنه أن يدب، وقد صار في العرف مختصاً بنوع من الحيوان، وقد ورد القرآن بها على الأصل في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ **والله خلق كل دابة**.

● **الإعراب:** اللام في قوله: ﴿ولئن﴾ لام القسم، ولا يجوز أن تكون لام الابتداء، لأنها دخلت على إن التي للجزاء، ولام الابتداء إنما هي للاسم، أو ما ضارع الاسم، في باب إن، وجواب الجزاء مستغنى عنه بجواب القسم، لأنه إذا جاء في صدر الكلام غلب عليه، كما أنه إذا تأخر وتوسط ألغى و﴿يوم يأتهم﴾ نص على الظرف من ﴿مصروفا﴾ أي: ليس يُصرف العذاب عنهم يوم يأتهم العذاب.

● **المعنى:** ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليس من دابة تدب على وجه الأرض، ويدخل فيه جميع ما خلقه الله تعالى على وجه الأرض، من الجن، والإنس، والطير، والأنعام، والوحوش، والهوام ﴿إلا على الله رزقها﴾ أي: إلا الله سبحانه يتكفل برزقها، ويوصله إليها على ما تقتضيه المصلحة، وتوجيه الحكمة ﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ أي: يعلم موضع قرارها، والموضع الذي أودعها فيه، وهو أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، عن مجاهد.

وقيل: مستقرها حيث تأوي إليه من الأرض، ومستودعها حيث تموت وتبعث منه، عن ابن عباس، والربيع.

وقيل: مستقرها ما يستقر عليه عملها، ومستودعها ما يصير إليه. ﴿كل في كتاب مبين﴾ هنا إخبار منه سبحانه أن جميع ذلك مكتوب في كتاب ظاهر، وهو اللوح المحفوظ، وإنما أثبت سبحانه ذلك، مع أنه عالم لذاته لا يعزب عن علمه شيء من مخلوقاته، لما فيه من اللطف للملائكة، أو لمن يخبر بذلك.

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ هذا إخبار منه سبحانه عن نفسه، بأنه أنشأهما في هذا المقدار من الزمان، مع قدرته على أن يخلقهما في مقدار لمح البصر، والوجه

في ذلك أنه سبحانه أراد أن يبين بذلك أن الأمور جارية في التدبير على منهاج الحكمة، منشأة على ترتيب، لما في ذلك من المصلحة، والمراد بقوله: ﴿سِتَّةَ آيَاتٍ﴾ ما مقداره مقدار ستة أيام، لأنه لم يكن هناك أيام بعد، فإن اليوم عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها ﴿وَكُنَّا عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ في هذا دلالة على أن العرش والماء كانا موجودين قبل خلق السموات والأرض، وكان الماء قائماً بقدرة الله تعالى على غير موضع قرار، بل كان الله يمسكه بكمال قدرته، وفي ذلك أعظم الاعتبار لأهل الإنكار.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿عَرْشُهُ﴾ بناؤه، يدل عليه قوله: ﴿وَمَا يَعْشَوْنَ﴾ أي: يبنون. والمعنى: وكان بناؤه على الماء، فإن البناء على الماء أبعد وأعجب، عن أبي مسلم. ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ معناه: أنه خلق الخلق، ودبر الأمور، ليظهر إحسان المحسن، فإنه الغرض في ذلك، أي: ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر، لثلا يتوهم أنه سبحانه يجازي العباد على حسب ما في معلومه أنه يكون منهم، قبل أن يفعلوه، وفي قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ دلالة على أنه قد يكون فعلٌ حَسَنٌ أَحْسَنُ من حسن آخر، لأن حقيقة لفظة أفعل يقتضي ذلك ﴿وَلَكِنْ قُلْتَ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ للحساب والجزاء ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ليس هذا القول إلا تمويهاً ظاهراً لا حقيقة له، ومن قرأ: ﴿سِحْرٍ﴾ فالمراد: ليس هذا - يعنون النبي ﷺ - إلا ساحر. قال الجبائي: وفي الآية دلالة على أنه كان قبل خلق السموات والأرض الملائكة، لأن خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه إلا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به، فلا بد إذاً من حي مكلف. وقال علي بن عيسى: لا يمتنع أن يكون في الإخبار بذلك مصلحة للمكلفين، فلا يجب ما قاله الجبائي، وهو الذي اختاره المرتضى قدس الله روحه.

﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أَتَى مَعْدُودَةٌ﴾ معناه: ولئن أخرنا عن هؤلاء الكفار عذاب الاستئصال، إلى أجل مسمى، ووقت معلوم، والأمة: الحين، كما قال سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَمْرٍ﴾ وهو قول ابن عباس، ومجاهد.

وقيل: إلى أمة، أي: إلى جماعة يتعاقبون، فيصرون على الكفر، ولا يكون فيهم من يؤمن، كما فعلنا بقوم نوح عليه السلام، عن علي بن عيسى.

وقيل: معناه إلى أمة بعد هؤلاء، نكلفهم فيعصون، فتقتضى الحكمة إهلاكهم، وإقامة القيامة، عن الجبائي.

وقيل: إن الأمة المعدودة هم أصحاب المهدي عليه السلام في آخر الزمان، ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، كعدة أهل بدر، يجتمعون في ساعة واحدة، كما يجتمع قرع الخريف، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليه السلام. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ على وجه الاستهزاء ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾ أي: أي شيء يؤخر هذا العذاب عنا إن كان حقاً؟ ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي: إن هذا العذاب

الذي يستبطنونه، إذا نزل بهم في الوقت المقدور، لا يقدر أحد على صرفه عنهم، إذا أراد الله أن يأتيهم به، ولا يتمكن من إذهابه عنهم، إذا أراد الله أن يأتيهم به ﴿وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ونزل بهم الذي كانوا يسخرون به، من نزول العذاب ويحققونه.

● **النظم:** وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها، أنه لما قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْتَرُونَ وَمَا يُقْلُونَ﴾ قال عقوبة: وكيف يخفى على الله سرُّ هؤلاء وهو يرزقهم؟! وإذا أوصل إلى كل واحد رزقه ولم ينسه، فليعلم أنه يعلم سره، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ يدل على ما ذكرناه، ثم زاده بياناً بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية. فإن أصل الخلق التقدير الذي لا يختل بالنقصان والزيادة، وذلك لا يتم إلا من العالم لذاته.



قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَذِبٌ﴾ (٩) ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (١٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١).

● **اللغة:** الذوق: تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم، وسمى الله سبحانه: إحلال اللذات بالإنسان إذاقة، لسرعة زوالها، تشبيهاً بما يذاق ثم يزول، كما قيل:

«أَخْلَامٌ نُّومٌ أَوْ كَظْلٌ زَائِلٌ»

والنزع: قلع الشيء عن مكانه. واليؤوس: فعول من يش. واليأس: القطع بأن الشيء المتوقع لا يكون، ونقيضه الرجاء. والنعماء: إنعام يظهر أثره على صاحبه. والضراء: مضرة تظهر الحال بها، لأنهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهرة، مثل: حمراء وعيناء، مع ما فيهما من المبالغة. والفرح والسرور: من النظائر، وهو انفتاح القلب بما يلتذ به، وضده: الغم، والصحيح أن الغم والسرور من جنس الاعتقادات، وليسا بجنسين من الأعراض، ومن الناس من قال: إنهما جنسان. والفخور: الذي يكثر فخره، وهو التناول بتعدد المناقب، وهي صفة ذم إذا أطلقت، لما فيها من التكبر على من لا يجوز التكبر عليه.

● **الإعراب:** اللام في ﴿لئن﴾ لتوطئة القسم، وليست للقسم، والتقدير: والله لئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس، فإنه جواب القسم الذي هيأته اللام، إلا أنه مغن عن جواب الشرط، وواقع موقعه، ومثله قول الشاعر:

لئن عادَ لي عبدُ العزيزِ بمثلِها وأمكنني منها إذاً لا أقيلُها

أي: والله لا أقيلها، ولو كانت جواب ﴿إن﴾ لكان لا أقيلها ﴿الذين صبروا﴾ في موضع نصب على الاستثناء من ﴿الإنسان﴾، لأنه اسم الجنس، فهو كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا خَشِيرٌ﴾

الَّذِينَ آمَنُوا. وقال الزجاج، والأخفش: إنه استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن الذين صبروا، والأول قول الفراء.

● **المعنى:** ثم بيّن سبحانه حال الإنسان فيما قابل به نعمه من الكفر، فقال: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: أحللنا به نعمة من الصحة والكفاية، والسعة من المال والولد، وغير ذلك من نعم الدنيا ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي: سلبنا تلك النعمة عنه، إذا رأينا المصلحة فيه ﴿إِنَّهُ لَيْتُوسٌ﴾ أي: قنوط، وهو الذي سنته وعادته اليأس ﴿كَفُورٌ﴾ وهو الذي عادته كفران النعمة، ومعنى الآية مصروف إلى الكفار الذين هذه صفتهم، لجهلهم بالصانع الحكيم، الذي لا يعطي ولا يمنع، إلا لما تقتضيه الحكمة من وجوه المصالح.

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ أي: أحللنا به وأعطيناه ﴿نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبٍ مَسْتَه﴾ أي: بعد بلاء أصابه ﴿لِيَقُولَنَّ﴾ عند نزول النعماء به ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ أي: ذهب الخصال التي تسوء صاحبها من جهة نفور طبعه عنه، وهو هاهنا بمعنى الشدائد، والآلام والأمراض عني، فلا تعود إليّ، ولا يؤذي شكر الله عليها ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيْتُوسٌ كَفُورٌ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ ويفخر به على الناس؛ فلا يصبر في المحنة، ولا يشكر عند النعمة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ معناه: إلا الذين قابلوا الشدة بالصبر، والنعمة بالشكر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: واطبوا على الأعمال الصالحة ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.



قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَاقَ بِكَ يَدَاكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ كَثِيرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢) **أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ فُلٌ فَأَتَوْا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَآدَعُوْا مِّنْ أَسْتَعْطَشْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ (١٣) فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوْا لَكُمْ فَاعْلَمُوْا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ﴾ (١٤).**

● **اللغة:** ضائق، وضيق بمعنى واحد، إلا أن ضائق ههنا أحسن لوجهين:

أحدهما: إنه عارض.

والآخر: إنه أشكل بقوله: ﴿تَارِكٌ﴾. والكنز: المال المدفون، سمي بذلك لاجتماعه، وكل مجتمع من لحم وغيره مكتنز، وصار في الشرع اسم ذم لكل مال لا يخرج منه حق الله تعالى، من الزكاة وغيره، وإن لم يكن مدفوناً. وافتري، واختلق، واخترق، وخلق، وخرص، وخرق: إذا كذب. والاستجابة في الآية: طلب الإجابة بالقصد إلى فعلها، ويقال: استجاب، وأجاب بمعنى واحد، والفرق بين الإجابة والطاعة: أن الطاعة موافقة الإرادة الجاذبة إلى الفعل برغبة أو رهبة، والإجابة: موافقة الداعي إلى الفعل من أجل أنه دعا به.

● **الإعراب:** ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ في موضع نصب، بأنه مفعول له، وتقديره: كراهة أن يقولوا، فحذف المضاف. وقيل: أن يقولوا في موضع جر، بدلاً من الهاء في قوله: ﴿وَضَاقُوا بِصَدْرِكَ﴾. ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْتَهُ﴾ أم هذه منقطعة ليست بالمعادلة، وتقديره: بل أيقولون افتراه، وهو تقرير بصورة الاستفهام.

● **النزول:** روي عن ابن عباس: أن رؤساء مكة من قريش أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد! إن كنت رسولاً، فحول لنا جبال مكة ذهباً، أو ائتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوة، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ الآية. وروى العياشي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: إني سألت ربي أن يؤاخي بيني وبينك ففعل، وسألت ربي أن يجعلك وصيي ففعل، فقال بعض القوم: والله لصاع من تمر في شئٍ بالٍ أحب إلينا مما سأل محمد ربه، فهلا سأله ملكاً يعضده على عدوه، أو كنزاً يستعين به على فاقته! فنزلت الآية.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه رسوله بالثبات على الأمر، وحثه على حجاج القوم بما يقطع العذر، فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي: ولعلك تارك بعض القرآن، وهو ما فيه سب آلهتهم، ولا تبلغهم إياه دفعا لشركهم، وخوفاً منهم ﴿وَضَاقُوا بِصَدْرِكَ﴾ أي: ولعلك يضيق صدرك مما يقولونه، وبما يلحقك من أذاهم وتكذيبهم. وقيل: باقتراحاتهم ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ أي: كراهة أن يقولوا، أو مخافة أن يقولوا ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ كِتَابٌ﴾ من المال ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يشهد له، فليس قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ على وجه الشك، بل المراد به: النهي عن ترك أداء الرسالة، والحث على أدائها، كما يقول أحدنا لغيره، وقد علم من حاله أنه يطيعه ولا يعصيه، ويدعوه غيره إلى عصيانه: لعلك تترك بعض ما أمرك به لقول فلان، وإنما يقول ذلك ليؤثس من يدعوه إلى ترك أمره. فمعناه: لا تترك بعض ما يوحى إليك، ولا يضيق صدرك بسبب مقاتلتهم هذه ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ أي: منذر ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظ، يجلب النفع إليه، ويدفع الضرر عنه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْتَهُ﴾ معناه: بل أيقولون: اختلق القرآن واخترعه، وأتى به من عند نفسه. وقيل: إن ههنا محذوفاً، وتقديره: أيكذبونك فيما أتيتهم به من القرآن أم يقولون افتريته على ربك، وحذف لدلالة ما أبقى على ما ألقى، وعلى هذا فيكون ﴿أَمْ﴾ هذه هي متصلة ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿فَأَنزَلْنَا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلَهُ مُفَرَّقَاتٍ﴾ أي: إن كان هذا مفترى على الله كما زعمتم، فأتوا أتم بعشر سور مثله في النظم والفصاحة، مفتريات على زعمكم، فإن القرآن نزل بلغتكم، وقد نشأت أنا بين أظهركم، فإن لم يمكنكم ذلك فاعلموا أنه من عند الله تعالى. وهذا صريح في التحدي، وفيه دلالة على جهة إعجاز القرآن، وأنها هي البلاغة والفصاحة في هذا النظم المخصوص، لأنه لو كان جهة الإعجاز غير ذلك، لما قنع في المعارضة بالافتراء والاختلاق، لأن البلاغة ثلاث طبقات، فأعلى طبقاتها معجز، وأدناها وأوسطها ممكن، فالتحدي في الآية إنما وقع في الطبقة العليا منها، ولو كان وجه الإعجاز الصرفة لكان الركيك من الكلام أبلغ في باب الإعجاز. والمثل المذكور في الآية، لا يجوز أن يكون المراد به مثله في الجنس، لأن مثله

في الجنس يكون حكايته، فلا يقع بها التحدي، وإنما يرجع ذلك إلى ما هو متعارف بين العرب في تحدي بعضهم بعضاً، كما اشتهر من مناقضات امرئ القيس وعلقمة، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وجريز، والفرزدق، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ معناه: ادعوهم ليعينوكم على معارضة القرآن، إن كنتم صادقين في قولكم: إني افتريته، ويريد بقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ من خالف نبينا محمداً ﷺ من جميع الأمم، وهذا غاية ما يمكن في التحدي والمحاجة، وفيه الدلالة الواضحة على إعجاز القرآن، لأنه إذا ثبت أن النبي ﷺ تحداهم به، وأوعدهم بالقتل والأسر، بعد أن عاب دينهم وألتهتهم، وثبت أنهم كانوا أحرص الناس على إبطال أمره، حتى بذلوا مهجهم وأموالهم في ذلك. فإذا قيل لهم: افترؤا أنتم مثل هذا القرآن، وادحضوا حجته، وذلك أيسر وأهون عليكم من كل ما تكلفتموه، فعدلوا عن ذلك، وصاروا إلى الحرب والقتل، وتكلف الأمور الشاقة، فذلك من أدل الدلائل على عجزهم، إذ لو قدروا على معارضته مع سهولة ذلك عليهم لفعلوه، لأن العاقل لا يعدل عن الأمر السهل إلى الصعب الشاق، مع حصول الغرض بكل واحد منهما، فكيف ولو بلغوا غاية أمانهم في الأمر الشاق، وهو قتله ﷺ، لكان لا يحصل غرضهم من إبطال أمره، فإن المحق قد يقتل.

فإن قيل: لم ذكر التحدي مرة بعشر سور، ومرة بسورة، ومرة بحديث مثله؟ فالجواب: إن التحدي إنما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام، فيجوز أن يتحدى مرة بالأقل، ومرة بالأكثر.

﴿فَإِنَّكُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ قيل: إنه خطاب للمسلمين، والمراد: فإن لم يجيبكم هؤلاء الكفار إلى الإتيان بعشر سور مثله، معارضة لهذا القرآن ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيها المسلمون ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ﴾ القرآن ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾، عن مجاهد، واختاره الجبائي. وقيل: هو خطاب للكفار، وتقديره: فإن لم يستجب لكم من تدعونهم إلى المعاونة، ولم يتهياً لكم المعارضة، فقد قامت عليكم الحجة. وقيل: إن الخطاب للرسول ﷺ، أي: فإن لم يجيبوك، وذكره بلفظ الجمع تفخيماً، والغرض: التنبيه على إعجاز القرآن، وأنه المنزل من عند الله سبحانه على نبيه ﷺ، وذكر في قوله: ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وجوه:

أحدها: إن معناه: أن الله عالم به، وبأنه حق منزل من عنده.

وثانيها: إن معناه: بعلم الله مواقع تأليفه، في علو طبقة، وأنه لا يقدر أحد على معارضته.

وثالثها: إنه أنزله الله على علم بترتيبه ونظمه، ولا يعلم غيره ذلك.

﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو، لأن مثل هذا المعجز لا يقدر عليه إلا الله الواحد، الذي لا إله إلا هو ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: هل أنتم بعد قيام الحجة عليكم، بما ذكرناه من كلام الله، مستسلمون منقادون له معتقدون لتوحيده، وهذا استفهام في معنى الأمر، مثل قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسُونَ﴾ (١٥) **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٦).

● **القراءة:** روي في الشواذ قراءة أبيّ، وابن مسعود: ﴿وباطلاً ما كانوا يعملون﴾.

● **الحجة:** الوجه فيه، أن يكون ﴿بِطُلٌ﴾ منصوباً بـ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، و﴿مَا﴾: مزيدة للتوكيد، فكأنه قال: وباطلاً كانوا يعملون، ومثله قوله: ﴿أَهْوَلَاءَ بِكُنَّكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

● **اللغة:** الزينة: تحسين الشيء بغيره، من لبسة، أو حلية، أو هيئة، يقال: زانه يزيئنه زينةً، وزينته يزيئنه تزييناً. والتوفية: تأدية الحق على تمام. والبخس: نقصان الحق، وكل ظالم باخس، لأنه يظلم غيره بنقصان حقه، وفي المثل: «تحسبها حمقاء وهي باخس».

● **الإعراب:** قال الفراء: ﴿كَانَ﴾ هذه هنا زائدة، وتقديره: من يرد الحياة الدنيا. وقال غيره معناه: إن يصح أنه كان، كقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ قِيسُهُمْ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ ولا يجوز مثل ذلك في غير كان، لأنها أم الأفعال. قال أبو علي: الشرط والجزاء لا يقعان إلا فيما يستقبل، فحرف الجزاء يحيل معنى الماضي إلى الاستقبال لا محالة، ولو جاز وقوع الماضي بعدها على معناه لما جزمت، ألا ترى أنَّ (لو) لم تجزم وإن كان فيها معنى الشرط والجزاء، لوقوع الماضي بعدها على بابه، نحو: لو جئتني أمس لأكرمك.

● **المعنى:** ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: زهرتها وحسن بهجتها، ولا يريد الآخرة ﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا﴾ أي: نوفر عليهم جزاء أعمالهم في الدنيا تماماً ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسُونَ﴾ أي: لا ينقصون شيئاً منه، واختلف في معناه:

ف قيل: إن المراد به المشركون الذين لا يصدقون بالبعث، يعملون أعمال البر، كصلة الرحم، وإعطاء السائل، والكف عن الظلم، وإغاثة المظلوم، والأعمال التي يحسنها العقل، كبناء القناطر ونحوه، فإن الله يعجل لهم جزاء أعمالهم في الدنيا، بتوسيع الرزق، وصحة البدن، والإمتاع بما خولهم، وصرف المكافأة عنهم، عن الضحاك، وقتادة، وابن عباس. ويقال: إن من مات منهم على كفره قبل استيفاء العوض، وضع الله عنه في الآخرة من العذاب بقدره، فأما ثواب الآخرة فلا حظ لهم فيه.

وقيل: المراد به المنافقون، الذين كانوا يغزون مع النبي ﷺ للغنيمة دون نصرة الدين وثواب الآخرة، جازاهم الله تعالى على ذلك، بأن جعل لهم نصيباً في الغنيمة، عن الجبائي.

وقيل: إن المراد به أهل الرياء، فإن من عمل عملاً من أعمال الخير يريد به الرياء، لم يكن لعمله ثواب في الآخرة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ تُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: بشروا أمتي بالسنة والتمكين في الأرض، ومن عمل منهم عملاً للدنيا لم يكن له نصيب في الآخرة. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ ظاهر المراد ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ فلا يستحقون عليه ثواباً، لأنهم أوقعوه

على خلاف الوجه المأمور بإيقاعه عليه ﴿وَيَطِلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بطل أعمالهم التي عملوها لغير الله تعالى، وهذا يحقق ما ذهبنا إليه، من أن الإحباط عبارة عن إبطال نفس العمل، بأن يقع على غير الوجه الذي يستحق به الثواب، وذكر الحسن في تفسيره: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، خرج من عند أهله، فإذا جارية عليها ثياب وهيئة، فجلس عندها. فقامت، فأهوى بيده إلى عارضها، فمضت، فأتبعها بصره ومضى خلفها، فلقى حائط، فخمش وجهه، فعلم أنه أصيب بذنبه. فأتى رسول الله ﷺ، فذكر له ذلك، فقال: أنت رجل عجّل الله عقوبة ذنبك في الدنيا، إن الله تعالى إذا أراد بعبد شراً، أمسك عنه عقوبة ذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة، وإذا أراد به خيراً، عجّل له عقوبة ذنبه في الدنيا.

● **النظم:** وجه اتصال الآية بما قبلها: إنه سبحانه لما قال: ﴿فَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فكان قائلاً قال: إن أظهرنا الإسلام لسلامة المال والنفس يكون ماذا؟ فقال: من أراد الدنيا دون الآخرة، سواء أرادها بإظهار الإسلام، أو أرادها بسائر المساعي، فسييله هذا.



قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْأَنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ أَحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا لَهُمْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

● **اللغة:** اليَتْنَةُ: الحجة الفاصلة بين الحق والباطل. والعرض: إظهار الشيء بحيث يرى، للتوقيف على حاله، يقال: عرضت الكتاب على فلان، وعرضت الجند، ومعنى العرض على الله: أنهم يقفون في المقام الذي يريه العباد، للمطالبة بالأعمال، فهو كالعرض عليه سبحانه. والأشهاد: جمع شاهد، فهو كصاحب وأصحاب، وقيل: جمع شهيد، كشريف وأشراف. والعوج: العدول عن طريق الصواب، يقال في الدين: عوج، بالكسر، وفي العصا: عوج، بالفتح، فرقاً بين ما يرى وما لا يرى، فجعلوا السهل للسهل، والصعب للصعب، أعني الفتح والكسر. والإعجاز: الامتناع عن المراد بما لا يمكن معه إيقاعه. وحقيقة الاستطاعة: القوة التي تنطاع بها الجارحة للفعل، ولذلك لا يقال في الله تعالى: إنه مستطيع. وأصل الجرم القطع، ولا جرم تقديره: لا قطع قاطع عن ذا، إلا أنه كثر حتى صار كالمثل، وهو قول الشاعر:

ولقد طعنْتُ أبا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَرَاةً بَعْدَهَا أَنْ يَغْضِبُوا
أي: قطعتهم إلى الغضب، فرواية الفراء في فزارة النصب. والمعنى: كسبتهم أن يغضبوا.
وروى غيره برفعها، بمعنى أن الفعل لها.

● الإعراب: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَنْتَهٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ خبره محذوف، وتقديره: أفمن كان على
بينة من ربه، وعلى الأوصاف التي ذكرتها، كمن لا بينة له، ومثله حذف جواب له في قوله:
وأقسِمُ لو شيء أتانا رسوله سواك، ولكن لم نجد لك مدفع^(١)

و ﴿كِتَابٌ مُوسَى﴾: عطِفَ على قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي: وكان يتلوه كتاب موسى
من قبله، ونصب ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على الحال، لأن ﴿كتاب موسى﴾ معرفة، وقوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
مُمْكِرُونَ﴾ كَرَّرَ قوله: ﴿هُمْ﴾ مرتين، كما قال: ﴿أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ
تُخْرِجُونَ﴾ كَرَّرَ ﴿أنكم﴾ مرتين، ووجهه: أنه لما طال الكلام كَرَّرَ مرة أخرى للتوكيد ﴿لَا جَرَمَ﴾.
قال سيبويه: جرم فعل ماضٍ، ولا، رد لقولهم، كقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْنَى
لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ قال: لا، أي: ليس لهم الجنة، ثم قال: ﴿جرم﴾، أي: كسبهم قولهم:
أن لهم الحسنى: أن لهم النار، وقيل: جرم بمعنى وجب، أي: وجب أن لهم النار.

● المعنى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَنْتَهٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ استفهام يراد به التقرير، وتقديره: هل الذي
كان على برهان وحجة من الله، والمراد بالبينة هنا القرآن، والمعنى بقوله: أفمن كان على بينة
النبي ﷺ. وقيل: المعنى به كل محق يدين بحجة وبينة، لأن ﴿مِنْ﴾ يتناول العقلاء. وقيل:
هم المؤمنون من أصحاب محمد ﷺ، عن الجبائي ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي: ويتبعه من
يشهد بصحته منه، واختلف في معناه:

ف قيل: الشاهد جبرائيل عليه السلام، يتلو القرآن على النبي ﷺ من الله تعالى، عن ابن عباس،
ومجاهد، والزجاج. وقيل: شاهد من الله تعالى محمد ﷺ، وروي ذلك عن الحسين بن
علي عليه السلام، وابن زيد، واختاره الجبائي. وقيل: شاهد منه لسانه، أي: يتلو القرآن بلسانه، عن
محمد بن علي، أعني ابن الحنفية، والحسن، وقتادة. وقيل: الشاهد منه: علي بن أبي
طالب عليه السلام، يشهد للنبي ﷺ وهو منه، وهو المروي عن أبي جعفر، وعلي بن موسى
الرضا عليه السلام، ورواه الطبري بإسناده عن جابر بن عبد الله، عن علي عليه السلام. وقيل: الشاهد ملك
يحفظه ويسدده، عن مجاهد. وقيل: ﴿يَنْتَهٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ حجة من عقله، وأضاف البينة إليه تعالى
لأنه ينصب الأدلة العقلية والشرعية، ويتلوه شاهد منه يشهد بصحته، وهو القرآن، عن أبي مسلم.
﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: ومن قبل القرآن، لأنه مدلول عليه فيما تقدم من الكلام، وقيل: معناه ومن قبل
محمد ﷺ ﴿كِتَابٌ مُوسَى﴾ يتلوه أيضاً في التصديق، لأن النبي ﷺ بشر به موسى في التوراة
﴿إِمَامًا﴾ يؤتم به في أمور الدين ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: ونعمة من الله تعالى على عباده، وقيل: معناه ذا
رحمة، أي: سبب الرحمة لمن آمن به. ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ معناه: أولئك الذين هم على بينة من

ربهم يؤمنون بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، وتقدير الآية: أؤمن كان على بينة من ربه وبصيرة، كمن ليس على بينة ولا بصيرة؟ إلا أنه اختصر، وقيل تقديره: أؤمن كان على بينة من ربه، ويتلوه شاهد منه على صدقه، ويتقدمه شاهد، فأمن بهذا كله، كمن أراد الحياة الدنيا وزينتها ولم يؤمن. ثم أخبر عنه فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلَنَّا مَوْعِدَهُ﴾ معناه: ومن يكفر بالقرآن أو بمحمد ﷺ من مشركي العرب، وفرق الكفا، كاليهود والنصارى وغيرهم، فالنار موعده ومصيره ومستقره، وفي الحديث: إن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من الأمة، لا يهودي ولا نصراني، ثم لم يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار». ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شك ﴿مِنْهُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد جميع المكلفين، وقيل: إن تقديره: لا تك أيها الإنسان، أو أيها السامع في مرية من ربك، أي: من أمره وإنزاله ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الهاء راجع إلى القرآن، وقيل: إلى محمد ﷺ، وقيل معناه: إن الخبر الذي أخبرتك به حق من عند الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بصحته وصدقه، لجهلهم بالله تعالى، وجحدهم لنبوة نبيه ﷺ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم منه، إلا أنه خرج مخرج الاستفهام، ليكون أبلغ ﴿أُولَٰئِكَ يُعْزَوْنَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة، أي: يوقفون موقفاً يراهم الخلاق للمطالبة بما عملوا، ويسألون عن أعمالهم، ويجازون عليها. ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ يعني الملائكة يشهدون على العباد، وهم الحفظة، عن مجاهد. وقيل: هم الأنبياء، عن الضحاك. وقيل: هم شهداء كل عصر من أئمة المؤمنين ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: كذبوا على رسل ربهم، وأضافوا إلى الله ما لم ينزله ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ هذا ابتداء خطاب من الله تعالى. وقيل: هو من كلام الأشهاد، ومعناه: ألا لعنة الله على الذين ظلموا أنفسهم بإدخال الضرر عليها، وغيرهم بإحلال الآلام عليهم، ولعنة الله إبعاده من رحمته.

ثم وصف سبحانه الظالمين الذين لعنهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يغيثون الخلق، ويصرفونهم عن دين الله، وقد يكون ذلك بإلقاء الشبهة إليهم، وقد يكون أيضاً بالترغيب والترهيب، والإطماع والتهديد وغير ذلك، وإنما جاز تمكين الصاد عن سبيل الله من هذا الفساد، لأنه مكلف بالامتناع منه، وليس في منعه لطف، بأن ينصرف عن الفساد إلى الصلاح، فهو كشهوة القبيح الذي به يصح التكليف ﴿وَيَتَّبِعُونَ عِوَجًا﴾ أي: يطلبون لسبيل الله زيفاً عن الاستقامة، وعدولاً عن الصواب. وقيل: إن بغيهم العوج هي زيادتهم ونقصانهم في الكتاب لتغيير الأدلة، ولا تستقيم صفة النبي ﷺ، كما كان يفعلها اليهود. وقيل: هي إيرادهم الشبه، وكتمانهم المراد، وتحريفهم التأويل ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: بالقيامة، والبعث، والنشور، والثواب، والعقاب ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: جاحدون غير مقرين.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار، الذين وصفهم بأن عليهم لعنة الله، وأنهم الذين يصدون عن سبيل الله، بأنهم لم يكونوا فائتين في الأرض هرباً فيها من الله تعالى. إذا أراد إهلاكهم، كما يهرب الهارب من عدو قد جد في طلبه، وإنما خصّ الأرض بالذكر، وإن كانوا لا يفوتون الله، ولا يخرجون عن قبضته على كل حال، لأن معاقل الأرض هي التي يهرب إليها البشر، ويعتصمون بها عند المخاوف، فكانه سبحانه نفى أن يكون لهؤلاء الكفار عاصم منه، ومانع من عذابه ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ معناه: إنه ليس لهم من ولي ولا ناصر ينصرونهم، ويحمونهم من الله سبحانه مما يريد إيقاعه بهم في الدنيا من المكاره، وفي الآخرة من أنواع العذاب ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ قيل في معناه وجوه:

أحدها: إنه لا يقتصر بهم على عذاب الكفر، بل يعاقبون عليه وعلى سائر المعاصي، كما قال في موضع آخر: ﴿زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

وثانيها: إن معناه: أنه كلما مضى ضرب من العذاب، يعقبه ضرب آخر من العذاب، مثله أو فوقه كذلك، دائماً مؤيداً، وكل ذلك على قدر الاستحقاق.

وثالثها: إنه يضاعف العذاب على رؤسائهم، لكفرهم وظلمهم أنفسهم، ولدعائهم الأتباع إليه، وهو عذاب الضلال، وعذاب الصد عن الدين.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ فيه وجوه:

أحدها: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون، وبما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون، عناداً وذهاباً عن الحق، فأسقطت الباء عن الكلام، كما في قول الشاعر:

نُغَالِي اللَّحْمَ لِلأَضْيَافِ نِيًّا وَنُبْذِلُهُ إِذَا نَضَجَ الْقُدُورُ^(١)

أراد: نغالي باللحم، عن الفراء، والبلخي، وهذا وجه رابع في معنى قوله: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

وثانيها: إنه لاستقلالهم استماع آيات الله، وكراهتهم تذكرها، ونفهمها، جروا مجرى من لا يستطيع السمع، وأن أبصارهم لم تنفعهم مع إعراضهم عن تدبر الآيات، فكانهم لم يبصروا، ومما يجري هذا المجرى قول الأعشى:

وَدَغْ هُرَيْرَةٌ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَجِلٌ وَهَلْ تَطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

وقد علمنا أن الأعشى كان يقدر على الوداع، وإنما نفى الطاقة عن نفسه، من حيث الكراهية والاستقلال.

وثالثها: إنه إنما عني بذلك آلهتهم وأوثانهم، وتقدير الكلام: أولئك الكفار وآلهتهم لم يكونوا معجزين في الأرض، يضاعف لهم العذاب، وقال مخبراً عن الآلهة: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ وروي ذلك عن ابن عباس وفيه أدنى بعد.

ورابعها: **إِنْ ﴿مَا﴾** هنا ليست للنفي، بل تجري مجرى قولهم: لأواصلنك ما لاح نجم، والمعنى: أنهم معذبون ما داموا أحياء.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من حيث فعلوا ما استحقوا به العقاب فهلكوا، فذلك خسران أنفسهم، وخسران النفس أعظم الخسران، لأنه ليس عنها عوض **﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** مضى بيانه مراراً **﴿لَا جَرَمَ﴾** قال الزجاج: **﴿لَا﴾** نفى لما ظنوا أنه ينفعهم، كأن المعنى: لا ينفعهم ذلك **﴿جَرَمَ﴾** **﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ﴾** أي: كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وقال غيرهم: معناه لا بد ولا محالة أنهم. وقيل معناه: حقاً، ويستعمل في أمر يقطع عليه ولا يرتاب فيه، أي: لا شك أن هؤلاء الكفار هم أخسر الناس في الآخرة.

● **النظم:** اتصلت الآية الأولى بقوله: **﴿قُلْ فَأَتُوا بِعِثْرِ سَوْرٍ مِّثْلِهِ﴾** والمراد أنهم إذا لم يأتوا بذلك فقل لهم: أ فمن كان على بينة كمن لا يكون معه بينة. وقيل: اتصلت بقوله: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** أي: من كان مجتهداً في الدين كمن كان همه الحياة الدنيا وزينتها. ووجه اتصال الآية الثانية وهي قوله: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾** أنه سبحانه أراد أن يبين حال العاقل والغافل، فكانهم قالوا: وما يضرنا ألا نعرف ذلك، فأجيبوا بأن من لا يعرف الله لا يأمن أن يكذب على الله، ومن أظلم ممن كذب على الله.



قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ **﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾**.

● **اللغة:** الإخبات: الطمأنينة، وأصله الاستواء من الخَبَتِ، وهو الأرض المستوية الواسعة، فكان الإخبات خشوع مستمر على استواء فيه. والمثل: قول سائر يشبه فيه حال الثاني بحال الأول. والعمى: عبارة عن فساد آلة الرؤية، وليس بمعنى يضاد الإبصار، وكذلك الصمم عبارة عن فساد آلة السمع، لأن الصحيح أن الإدراك أيضاً ليس بمعنى.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الكفار وما أعد الله لهم من العذاب، عقبه سبحانه بذكر المؤمنين، فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾** أي: صدقوا الله ورسوله، واعتقدوا وحدانيته **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** التي أمرهم الله تعالى بها، ورجبهم فيها **﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾** أي: أنابوا وتضرعوا إليه، عن ابن عباس. وقيل: معناه اطمأنوا إلى ذكره، عن مجاهد. وقيل: خضعوا له وخشعوا إليه، عن قتادة. والكل متقارب. وقيل إن معناه: وأخبتوا لربهم، فوضع **﴿إِلَىٰ﴾** موضع اللام، كما قال سبحانه: **﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾** بمعنى: أوحى إليها. وقال: ينادى للإيمان **﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** ظاهر المعنى. ثم ضرب سبحانه مثلاً للمؤمنين والكافرين، فقال: **﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾** أي: مثل فريق المسلمين كالبصير والسميع، ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصم، لأن المؤمن ينتفع بحواسه، لاستعماله إياها في الدين،

سورة هود

والكافر لا ينتفع بها، فصارت حواسه بمنزلة المعدوم، وإنما دخل الواو ليبين أن حال الكافر كحال الأعمى على حدة، وكحال الأصم على حدة، وحال من يكون قد جمع بين الصفتين جميعاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستوي حال الأعمى الأصم، وحال البصير السميع، عند عاقل، فكما لا تستوي هاتان الحالتان عند العقلاء، كذلك لا تستوي حال الكافر والمؤمن ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتفكرون في ذلك فتعلموا صحة ما ذكرناه.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَأَنَا نَذِيرٌ مِنْ عَذَابِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أُنْزِلُكُمْ مَوَاطِنَ هُنَا وَتَوَّارِعَ هُنَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

● **القراءة:** قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمة: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ بكسر الهمزة، والباقون: ﴿أَنِّي﴾ بفتحها. وقرأ أبو عمرو، ونصر، عن الكسائي: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بالهمزة، وقرأ الباقيون: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بالياء غير مهموز. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بضم العين وتشديد الميم، والباقيون: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بفتح العين مخففاً.

● **الحجة:** قال أبو علي: من فتح ﴿أَنِّي﴾ فإنه يحملها على ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أي: أرسلناه بأنني لكم نذير مبين. فإن قيل: لو كان محمولاً عليه لكان أنه، لأن نوحاً اسم للغيبة. قيل: هذا لا يمتنع، لأن الخطاب بعد الغيبة في نحو هذا سائغ، ألا ترى قوله: ﴿وَكُنْتُمْ لَمْ فِي الْأَلْوَاغِ﴾ ثم قال: ﴿فَعَذَابُهَا يَقْوَمُ﴾. ومن كسر فالوجه فيه أنه حملة على الوجه المضمر، لأنه مما قد أضمر كثيراً في القرآن، قال سبحانه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ﴾ أي: يقولون: سلام، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: قالوا: ما نعبدكم. فإن قلت: فهلا رجحت قراءة من قرأ أن على قراءة من كسر، لأن قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ محمول على الإرسال، وإذا فتحت أن كان أشكل بما بعدها، لحملها جميعاً على الإرسال، يقال لك: إنَّ مَنْ كسر قال: يجوز أن يكون قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ وما بعده، محمولاً على الاعتراض بين المفعول وما يتصل به مما بعده، كما كان في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهَدْيَ هُدَى اللَّهِ﴾ إعتراضاً بينهما في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ فكذلك قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ لأن التقدير: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ألا تعبدوا إلا الله.

وأما قوله: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ فقد حكى أبو علي، عن الجبائي، أنه قال: يقال: أنت بادي الرأي، يريد ظاهر الرأي، لا يهزم بادي، وبإدء الرأي مهموز. فمن لم يهزم أراد أنت فيما بدا من الرأي، أي أنت ظاهر الرأي. ومن همز أراد أنت في أول الرأي ومبتدأه. قال أبو علي: المعنى فيمن قال: بادي الرأي بلا همز، فجعله من بدا الشيء إذا ظهر، أي: ما اتبعك إلا

الأراذل فيما ظهر لهم من الرأي، إذ لم يتعقبوه ينظر فيه ولا يبين لهم، ومن همز أراد إتبعوك في أول الأمر من غير أن يتبعوا الرأي بفكر وروية فيه. وهاتان الكلمتان تتقاربان في المعنى، لأن الهمزة في اللام معناه ابتداء الشيء وأوله، واللام إذا كانت واواً كان المعنى الظهور، وابتداء الشيء يكون ظهوراً، وإن كان الظهور قد يكون ابتداء وغير ابتداء، فلذلك يستعمل كل واحد مكان الآخر. وجاز في اسم الفاعل أن يكون ظرفاً كما جاز في فاعل، نحو قريب ومليء، لأن فاعلاً وفعيلاً يتعاقبان على المعنى، نحو عالم وعليم، وشاهد وشهيد، وحسن ذلك إضافته إلى الرأي، وقد أجروا المصدر أيضاً في إضافته إليه في قولهم: أما جهد رأي فأني منطلق، فهذا لا يكون إلا ظرفاً، وفعل إذا كان مصدراً وفاعل قد يتفقان في أشياء، وقد يجوز في قول من همز فقال: بادي الرأي إذا خفف الهمز أن يقول: بادي الرأي، فيقلب الهمزة ياء لانكسار ما قبلها، فيكون كقولهم: مير في جمع ميرة، وذئب في جمع ذية.

والعامل في هذا الظرف هو قولك: اتبعك، التقدير: ما اتبعك في أول رأيهم أو فيما ظهر من رأيهم إلا أراذلنا، فأخر الظرف وأوقع بعد إلا: الظرف، ولو كان يدل الظرف غيره لم يجز، ألا ترى أنك لو قلت: ما أعطيت أحداً إلا زيدا درهماً، فأوقعت بعد (إلا) اسمين لم يجز، لأن الفعل أو معنى الفعل في الاستثناء يصل إلى ما انتصب به بتوسط الحرف، ولا يصل الفعل بتوسط الحرف إلى أكثر من مفعول، ألا ترى أنك إذا قلت: استوى الماء والخشبة، فنصبت الخشبة، لم يجز أن تتبعه اسماً آخر تنصبه، فكذلك المستثنى إذا ألحقته (إلا) وأوقعت بعدها اسماً مفرداً لم يجز أن تتبعه آخر، ولو قلت: ما ضرب القوم إلا بعضهم بعضاً، لم يجز، وتصحيحها: ما ضرب القوم أحداً إلا بعضهم بعضاً، تبدل الاسمين بعد (إلا) من الاسمين قبلها.

قال جامع العلوم البصير النحوي: إن أبا علي حمل ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ هنا على أنه ظرف لما قبله، ثم رجع عن مثله في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ فحملة على فعل آخر دل عليه ﴿يُكَلِّمُهُ﴾، على تقدير: أو يكلمه الله من وراء حجاب. قال: والظرف في الآيتين عندنا محمول على الفعل قبل ﴿إِلَّا﴾ لأن الظرف قد يكتفي فيه برائحة الفعل. (انتهى كلامه).

وأقول: إن ما قاله فيه نظر، لأن أبا علي قال في تلك الآية: لا يعمل ما قبل الاستثناء إذا كان كلاماً تاماً فيما بعده، وليس ما قبل ﴿إِلَّا﴾ في هذه الآية كلاماً تاماً، فإن قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَكَ﴾ فاعل لقوله: ﴿اتَّبَعَكَ﴾ فلذلك فرق بين الموضعين. راجع كلام أبي علي، وأما تحقيق الهمزة وتخفيفها في الرأي، فأهل تحقيق الهمزة يحققونها، وأهل التخفيف يبدلون منها الألف، وكذلك ما أشبهه من نحو الباس، والراس، والفاس. ومن قرأ: «فَعِمَّتْ» بالتخفيف، يقوي قوله اجتماعهم على التخفيف في قوله سبحانه: ﴿فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ وهذه مثلها، ويجوز في قوله: ﴿فَعِمَّتْ﴾ أمران:

أحدهما: أن يكون عموم عنها الآن، لأن الرحمة لا تعمى، وإنما تعمى عنها، فيكون

سورة هود

كقولهم: أدخلت القلنسوة في رأسي، ونحو ذلك مما يقلب إذا لم يكن فيه إشكال، وفي التنزيل: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رَسُولَهُ﴾ وقال الشاعر:

تري الثورَ فيها مُدخلُ الظلِّ رأسه وسائرُهُ بادٍ إلى الشمس أجمع^(١)

والآخر: أن يكون بمعنى خفيت، كقول الشاعر:

مَهْمَه أَطرافه في مَهْمَه أغمى الهدى بالحائرين العُمَه^(٢)

أي: خفي الهدى، لأن الهدى ليس بذئ جارحة تلحقها هذه الآفة، ومن هذا يقال للسحاب: العماء، لإخفائه ما يخفيه، كما قيل له: الغمام، ومن هذا قول الشاعر:

«ولكنني عَنْ عِلْمٍ ما في غِدِّ عَمٍ»^(٣)

قال: وقولهم: أتاني صَكَّةٌ عُمِيٌّ، إذا أتى في الهاجرة وشدة الحر، يحتمل عندنا تأويلين: أحدهما: أن يكون المصدر أضيف إلى العمى، كما قالوا: ضرب التلف، أي الضرب الذي يحدث عنه التلف.

والآخر: أن يكون عُمِيٌّ تصغير أعمى على وجه الترخيم، وأضيف المصدر إلى المفعول به، كقولك: من دعاء الخير، والتقدير: صكة الحر الأعمى، والمعنى: أن الحر من شدته كأنه يعمي من أصابه^(٤)، والمصدر في الوجهين ظرف، نحو: مقدم الحاج، وخفوق النجم، ومن قرأ: ﴿عميت﴾ اعتبر قراءة أبي والأعمش «فَعَمَاهَا عَلَيْكُمْ» وإسناد الفعل إلى المفعول به ﴿عميت﴾ قريب من عمى هنا في المعنى.

● **اللغة:** الرذل: الخسيس الحقير من كل شيء، والجمع: أرذل، ثم يجمع على أرذل، كقولك: كلب وأكلب وأكالب، ويجوز أن يكون جمع الأرذل، فيكون مثل أكابر جمع الأكبر. والرأي: الرؤية من قوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ وَيَلْتَمِسُ رَأْيَ الْغَيْنِ﴾ أي رؤية العين، والرأي أيضاً ما يراه الإنسان في الأمر، وجمعه آراء.

● **الإعراب:** ﴿أَلَّا تَبْذُرُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون موضع ﴿تَبْذُرُوا﴾ من الإعراب نصباً بأن، ويحتمل أن يكون جزماً بالنهي. وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ يجوز أن يكون تقديره: يوم أليم عذابه، فحذف المضاف الذي هو عذاب، وأقيم المضاف إليه الذي هو الضمير مقامه فاستكن في أليم. ويجوز أن يكون وصف اليوم بالألم، لأن الألم فيه يقع. ويجوز في غير القراءة أليماً، فيكون صفة لعذاب. وقوله: ﴿اتَّبَعَكَ﴾ وفاعله الذي هو ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ في موضع نصب بأنه مفعول ثانٍ لنريك، إن كان بمعنى نعلمك، وفي موضع الحال إن كان من

(١) أي: فدخل الثور رأسه في الظل، فقلب في الكلام.

(٢) قائله رؤية بن العجاج. والمهمة: المفاضة لا ماء فيها.

(٣) قائله زهير في (المعلقة) وقبلة: «وأعلم علم اليوم والأمس قبله».

(٤) وفي هذا المثل أقوال أخر ذكرها في اللسان في مادة «عم» فراجع.

رؤية العين. وقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ مَكْمُومًا﴾ فيه ثلاثة ضمائر: ضمير المتكلم، وضمير المخاطب، وضمير الغائب، فجاءت على أحسن ترتيب، بدأ بالمتكلم لأنه أخص بالفعل، ثم بالمخاطب، ثم بالغائب، ولو أتى بالمنفصل لجاز، لتباعده من العامل بما فرق بينه وبينه، فأشبه: ما ضربت إلا إياك، وما ضربني إلا أنت، وأجاز الفراء: ﴿أَنْزَلْنَاهُ مَكْمُومًا﴾ بتسكين الميم، جعله بمنزلة عضد وعضد، وكبد وكبد، ولا يجوز ذلك عند البصريين، وإنما يجيزون ذلك في ضرورة الشعر، كقول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مُسْتَحْقِبٍ إثمًا من الله ولا واغلي^(١)

وكقول الآخر:

وَنَاعٍ يُخْبِرُنَا بِمَهْلِكِ سَيِّدٍ تَقْطَعُ مِنْ وَجْدٍ عَلَيْهِ الْأَنَامِلُ

وقول الآخر:

«إِذَا عَوَجَّجْنِ قَلْتُ: صَاحِبُ قَوْمٍ»

يريد: يا صاحب قوم.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، عقب سبحانه بذكر أخبار الأنبياء، تأكيداً لذلك، وتخويفاً للقوم، وتسلياً للنبي ﷺ، وبدأ بقصة نوح عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقد مرَّ بيانه ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: أنذركم ألا تعبدوا إلا الله، عن الزجاج، يريد: لأن توحّدوا الله، وتركوا عبادة غيره. وبدأ بالدعاء إلى الإخلاص في العبادة. وقيل: إنه دعاهم إلى التوحيد، لأنه من أهم الأمور، إذ لا يصح شيء من العبادات إلا بعد التوحيد.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إنما قال: ﴿أَخَافُ﴾ مع أن عقاب الكفار مقطوع عليه، لأنه لم يعلم ما يؤول إليه عاقبة أمرهم، من إيمان أو كفر، وهذا لطف في الاستدعاء، وأقرب إلى الإجابة في الغالب. ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: من قوم نوح لنوح عليه السلام ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ ظناً منهم أن الرسول إنما يكون من غير جنس المرسل إليه، ولم يعلموا أن البعثة من الجنس قد تكون أصلح، ومن الشبهة أبعد ﴿وَمَا نَزَّلَكَ أَبْطَعُ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا نَكَاحَ﴾ أي لم يتبعك الملأ والأشراف والرؤساء منا، وإنما اتبعك أخسائنا الذين لا مال لهم ولا جاه ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: في ظاهر الأمر والرأي، لم يتدبروا ما قلت، ولم يتفكروا فيه. وقال الزجاج: معناه: اتبعوك في الظاهر، وباطنهم على خلاف ذلك. ومن قرأ بالهمز، فالمعنى أنهم اتبعوك ابتداء الرأي، أي: حين ابتدأوا ينظرون، ولو فكروا لم يتبعوك. وقيل: معناه أن في مبتدأ وقوع الرؤية عليهم، يُعلم أنهم أرادوا أن نكحوا وأسافلنا. ﴿وَمَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أي: وما نرى لك ولقومك علينا من فضل، فإن الفضل إنما يكون في كثرة المال،

(١) وفي ديوانه «فاليوم أسقى ا. هـ».

سورة هود

والمنزلة في الدنيا، والشرف في النسب، وإنما قالوا ذلك، لأنهم جهلوا طريقة الاستدلال، ولو استدلو بالمعجزات الدالة على نبوته، لعلموا أنه نبي، وأن من آمن به مؤمن، ومن خالفه كافر، وعرفوا حقيقة الفضل، وهكذا عادة أرباب الدنيا، يستحقرون أرباب الدين، إذا كانوا فقراء، ويستزدلونهم وإن كانوا هم الأكرمين الأفضلين عند الله سبحانه. ﴿بَلْ نَقُذِّرُ كَذِبَكُمْ﴾ هذا تمام الحكاية عن كفار قوم نوح عليه السلام، قالوه، لنوح ومن آمن به.

﴿قَالَ﴾ نوح لقومه ﴿يَقُولُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على برهان وحجة، يشهد بصحة النبوة، وهي المعجزة. وقال ابن عباس: على بينة: أي: على يقين وبصيرة، ومعرفة من ربوبية ربي وعظمته. واختلف في قول نوح عليه السلام هذا، إنه جواب عن ماذا: فقيل: إنه جواب عن قولهم: ﴿بَلْ نَقُذِّرُ كَذِبَكُمْ﴾ فكأنه قال: إن تظنونني كاذباً، فما تقولون لو كنت على خلافه، وعلى حجة من ربي واضحة؟ ألا تصدقونني؟.

وقيل: بل هو جواب عن قولهم: ﴿مَا زِلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: وإن كنت بشراً، فماذا تقولون إذا أتيتكم بحجة دالة على صدقي؟ ألا تصدقونني؟ وفيه بيان أن الرسالة، إنما تظهر بالمعجزة، فلا معنى لاعتبار البشرية.

وقيل: هو جواب عن قولهم: ﴿وَمَا زِلْنَا إِلَّا لَذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يَكُونُوا﴾ فكأنه قال: إنهم اعتصموا بالله، وبما آتاهم من البينة والرحمة، فنالوا بذلك الرفعة والفضل، وأنتم قنعتم بالدنيا الدنية الفانية، فأنتم في الحقيقة الأراذل لا هم.

وقيل: هو جواب عن قولهم: ﴿وَمَا زِلْنَا إِلَّا لَكُمْ مِّن فَضْلٍ﴾ فكأنه قال: لا تتبعوا المال والجاه، فإن الواجب اتباع الحجة والدلالة. ويجوز أن يكون جواباً عن جميع ذلك.

﴿وَأَلْنِي رَحْمَةً مِّن عِندِي﴾ ردّ عليهم بهذا جميع ما ادعوه. والرحمة والنعمة هي ههنا النبوة، أي: وأعطاني نبوة من عنده ﴿فَقَمِيتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: خفيت عليكم، لقلّة تدبركم فيها ﴿أَنزَلْنَاهُمْ مِّنْ سَمَوَاتٍ مِّن دُونِهَا﴾ أي: أنزلناهم من فوقهم على المعرفة، وألجئناهم إليها على كره منكم؟ هذا غير مقدور لي. والهاء: كناية عن الرحمة، فدخل فيها النبوة والدين، وسائر النعم. وقيل: معناه أنزلناهم قبولها؟ فحذف المضاف. ويجوز أن يكون «الهاء» كناية عن البينة، ويكون المراد: إن عليّ أن أدلكم بالبينة، وليس عليّ أن اضطرركم إلى معرفتها.



قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لَا آسَأُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِن آجَرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ ﴿٢١﴾ وَيَقُولُوا مَن يُنصِّرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا نَذْكُرُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّيِّنٌ لِّلظَالِمِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

● اللغة: الطرد: الإبعاد على جهة الهوان. وتطارد الأقوال: حمل بعضها على بعض.

والازدراء: الاحتقار، افتعال من الزراية، يقال: زريتُ عليه، إذا عبته، وأزريت به: إذا قَصُرَتْ به. قال الشاعر:

رَأَوْهُ فَازْدَرَوْهُ، وَهُوَ خِرْزُقٌ^(١) وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ الرَّجُلُ الْقَبِيحُ
وَلَمْ يَخْشَوْا مَقَالَتهِ عَلَيْهِمْ، وَتَحْتَ الرُّغْوَةِ اللَّبْنُ الصَّرِيحُ

● **المعنى:** ثم أنكر نوح استئفالهم التكليف، والعاقلي إنما يستثقل الأمر، إذا ألزمته مؤنة ثقله، فقطع هذا العذر بقوله: ﴿وَيَقْوَرُ لَا أَشْتَكُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا﴾ أي لا أطلب منكم على دعائكم إلى الله أجراً، فممتنعون من إجابتي، خوفاً من أخذ المال ﴿إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ما ثوابي، وما أجري في ذلك، إلا على الله ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: لست أطرد المؤمنين من عندي، ولا أبعدهم على وجه الإهانة. وقيل: إنهم كانوا سألوه طردهم ليؤمنوا له، أنفةً من أن يكونوا معهم على سواء، عن ابن جريج، والزجاج ﴿إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ وهذا يدل على أنهم سألوه طردهم، فأعلمهم أنه لا يطردهم، إنهم ملاقوا ربهم، فيجازي من ظلمهم وطردهم، بجزائه من العذاب، عن الزجاج. وقيل: معناه أنهم ملاقوا ثواب ربهم، فكيف يكونون أراذل؟ وكيف يجوز طردهم وهم لا يستحقون ذلك؟، عن الجبائي.

﴿وَلَيْكِفَ أَرْكَكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ الحق وأهله. وقيل: معناه تجعلون أن الناس إنما يتفاضلون بالدين لا بالدنيا. وقيل: تجهلون فيما تسألون من طرد المؤمنين. ﴿وَيَقْوَرُ مَنْ يَصْرُفِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ﴾ معناه: من يمنعني من عذاب الله إن أنا طردت المؤمنين، فكانوا خصمائي عند الله في الآخرة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتفكرون فتعلمون أن الأمر على ما قلته؟. وفَرَّقَ علي بن عيسى بين التفكير والتذكر، بأن التذكر: طلب معنى قد كان حاضراً للنفس. والتفكر: طلب معرفة الشيء بالقلب، وإن لم يكن حاضراً للنفس. وليست النصرة المذكورة في الآية من الشفاعة في شيء، لأن النصرة هي المنع على وجه المغالبة والقهر، والشفاعة هي المسألة على وجه الخضوع، فلا دلالة في الآية على نفي الشفاعة للمذنبين، على ما قاله بعضهم. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ هذا تمام الحكاية عما قاله نوح لقومه، ومعناه: إني لا أرفع نفسي فوق قدرها، فأدعي أن عندي مقدورات الله تعالى، فأفعل ما أشاء، وأعطي ما أشاء، وأمنع من أشاء، عن الجبائي، وأبي مسلم. وقيل: خزائن الله: مفاتيح الله في الرزق، وهذا جواب لقولهم: ﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أو قولهم: ﴿وَمَا زَيْلُكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ أي: ولا أدعي علم الغيب، حتى أدلكم على منافعكم ومضاركم. وقيل: لا أعلم الغيب، فأعلم ما تسرونه في نفوسكم، فيكون جواباً لقولهم: إن هؤلاء الذين آمنوا بك، اتبعوك في ظاهر ما ترى منهم، أي: فسيلي قبول إيمانهم الذي ظهر لي، ولا يعلم ما يضمرونه إلا الله تعالى.

﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فأخبركم بخبر السماء من قبل نفسي، وإنما أنا بشر لا أعلم الأشياء

(١) الخرق - بالكسر - : الكريم السخي. والرغوة من اللبن: ما عليه من الزبد. يعني رأوا ظاهره القبيح، وغفلوا عن باطنه فاحتقروه.

من غير تعليم الله تعالى. وقيل: معناه لا أقول إني روحاني، غير مخلوق من ذكر وأنثى، بل أنا بشر مثلكم، خصني الله بالرسالة ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِ عَيْنُكُمْ﴾ أي: لا أقول لهؤلاء المؤمنين، الذين تستقلونهم وتستخفونهم وتحقرهم أعينكم، لما ترون عليهم من زي الفقراء ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي: لا يعطيهم الله في المستقبل خيراً على أعمالهم، ولا يثيبهم عليها، بل أعطاهم الله كل خير في الدنيا، من التوفيق، ويعطيهم كل خير في الآخرة، من الثواب ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: بما في قلوبهم من الإخلاص وغيره ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن طردتهم، تكذيباً لظاهر إيمانهم، أو قلت فيهم غير ما أعلم.



قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا قَدَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْحَرُونَ ﴿٣٥﴾.

● **اللغة:** الجدل والمجادلة: المقابلة بما يفتل الخصم من مذهبه بحجة أو شبهة، وهو من الجدَل وهو شدة الفتل، ويقال للصرق: أجدل، لأنه من أشد الجوارح، والجدال والمرء بمعنى، غير أن المرء مذموم، لأنه مخاصمة في الحق بعد ظهوره، كمزي الضرع بعد دروره، وليس كذلك الجدال، والفرق بين الحجاج والجدال: أن المطلوب بالحجاج ظهور الحجة، والمطلوب بالجدال الرجوع عن المذهب. والإعجاز: هو الفوت بالهرب. والفرق بين افتراء الكذب وقول الكذب: أن قول الكذب قد يكون على وجه تقليد الإنسان فيه لغيره، وأما افتراء الكذب فهو افتعاله من قبل نفسه. وأجرم وجَرَم بمعنى، قال:

طريدٌ عشيرة، ورهينُ ذنبٍ بما جَرَمْتُ يدي، وجنى لساني

● **المعنى:** ثم حكى الله سبحانه جواب قوم نوح عليه السلام عما قاله لهم، فقال: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا﴾ أي: خاصمتنا، وحاججتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ أي: زدت في مجادلتنا على مقدار الكفاية، وفي بعض الروايات عن ابن عباس: فأكثر جِدْلَنَا، والمعنى واحد، ﴿فَأَيْنَا بِمَا قَدَدْنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أن الله تعالى يعذبنا على الكفر، أي: فلسنا نؤمن بك، ولا نقبل منك ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ أي: لا يأتي بالعذاب إلا الله سبحانه متى شاء، ولا يقدر عليه غيره، فإن شاء عجل، وإن شاء أخر ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا تفوتونه بالهرب ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ ذكر في تأويله وجوه:

أحدها: إن كان الله يريد أن يخيبكم من رحمته، بأن يحرمكم ثوابه، ويعاقبكم لكفركم

به، فلا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم، وقد سمي الله سبحانه العقاب غياً بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ويشهد بصحة ما قلناه، قول الشاعر:

فمن يلقَ خيراً، يَحْمَدُ الناسُ أمره ومن يَغْوِ لا يَعْدَمُ على الغيِّ لائماً

ولما خيب الله سبحانه قوم نوح عليه السلام من رحمته وثوابه، وأعلم الله نوحاً عليه السلام بذلك في قوله: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ قال لهم: لا ينفعكم نصحي، مع إيثاركهم ما يوجب خيبتكم، والعذاب الذي جره إليكم قبيح أفعالكم، وإذا طرأ شرط على شرط، كان الثاني مقدماً على الأول في المعنى، وإن كان مؤخراً في اللفظ، والتقدير: ولا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم، إن أردت أن أنصح لكم.

وثانيها: إنَّ المعنى: إنَّ كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق، وإضلالكم إياهم، أي: يريد عقوبتكم على ذلك، ومن عادة العرب، أن تسمى العقوبة، باسم الشيء المعاقب عليه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ﴾. ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وقد مرَّ فيما مضى أمثال ذلك.

وثالثها: إنَّ معناه: إنَّ كان الله يريد أن يهلككم، فلا ينفعكم نصحي عند نزول العذاب بكم، وإن قبلتم قولي وآمنت، لأن الله تعالى حكم بالألّا يقبل الإيمان عند نزول العذاب، عن الحسن. وقد حكى عن العرب أنهم قالوا: أغويت فلاناً، بمعنى أهلكته، ويقال: غوي الفصيل: إذا فسد من كثرة شرب اللبن.

ورابعها: إنَّ قوم نوح عليه السلام كانوا يعتقدون أن الله تعالى يضل عباده عن الدين، وأن ما هم عليه بإرادة الله، ولولا ذلك لغيره، وأجبرهم على خلافه، فقال لهم نوح عليه السلام على وجه التعجب من قولهم، والإنكار لذلك: إن نصحي لا ينفعكم، إن كان القول كما تقولون. وهذا هو المحكي عن جعفر بن حرب.

وإنما شرط النصح بالإرادة في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ مع وقوع هذا النصح، استظهاراً في الحجة عليهم، لأنهم ذهبوا إلى أنه ليس بنصح، فقال: لو كان نصحاً ما نفع من لا يقبله. ولا يجوز أن يكون المراد بالإغواء في الآية فعل الكفر، أو الدعاء إلى الكفر والحمل عليه، على ما يعتقده المجبرة، لقيام الأدلة على أن خلق الكفر وإرادته من أقبح القبائح، كالأمر به، وكما لم يجز أن يأمر به، فكذلك لا يجوز أن يفعله ويريده، ولأنه لو جاز منه الإضلال، لجاز منه أن يبعث من يدعو إلى الضلال، ويظهر المعجزات على يده، وفي هذا ما فيه. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو خالقكم ورازقكم، وإلى حكمه وتدبيره تصيرون، فيجازيكم على أعمالكم ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرُّهُ﴾ قيل: إنه يعني بذلك محمداً عليه السلام، والمراد: أيؤمن كفار محمد عليه السلام بما أخبرهم به محمد عليه السلام من نبأ قوم نوح عليه السلام؟ أم يقولون افتراه محمد عليه السلام من تلقاء نفسه فـ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد عليه السلام ﴿إِنْ أَفَرَّتْكُمْ﴾ واختلقته كما تزعمون ﴿فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عقوبة جرمي لا تؤخذون به ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: لا أؤخذ بجرمكم، عن مقاتل. وقيل: يعني به نوحاً عليه السلام، وأنه يقول على الله الكذب، عن ابن عباس.

● **النظم:** ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها على الوجه الأول، أنها تتصل بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ يَمُوتُ سُلَيْمَانُ﴾.



قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦) وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَىٰهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨) فَسَوْفَ نَعْلَمُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٩).

● **اللغة:** الابتاس: حزن في استكانة، وأنشد أبو عبيدة:

مَا يَفْقِسِمُ اللَّهُ أَقْبَلَ غَيْرَ مُبْتَسِسٍ مِنْهُ، وَأَقْعُذَ كَرِيماً نَاعِمَ الْبَالِ
وهو افتعال من البؤس، وقد يكون البؤس بمعنى الفقر أيضاً. والصُّنْع: جعل الشيء موجوداً بعد أن كان معدوماً، ومثله الفعل، وينفصلان من الحدوث، من حيث إن الصنعة تقتضي صناعاً، والفعل يقتضي فاعلاً من حيث اللفظ، وليس كذلك الحدوث، لأنه يفيد تجدد الوجود لا غير، والصناعة: الحرفة التي يكتسب بها. والفلَك: السفينة، ويكون واحداً وجمعاً. والسخرية: إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل، ومنه التسخير: التذليل، يكون استضعافاً بالقهر، والفرق بين السخرية واللعب: أن في السخرية خديعة واستنصافاً، ولا يكون إلا بحيوان، وقد يكون اللعب بجماد. والحلول: النزول للمقام، وهو من الجَلّ خلاف الارتحال، وحلول العرض وجوده في الجوهر من غير شغل حيز. والمصْحَح للحلول: التحيز.

● **الإعراب:** ﴿فَسَوْفَ﴾ ينقل الفعل من الحال إلى الاستقبال مثل السين سواء، إلا أن فيه معنى التسويف، وهو تعليق النفس بما يكون من الأمور. ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ قيل في ﴿مَنْ﴾ هذه قولان: أحدهما: أن يكون بمعنى أي، فكأنه قال: أئنا يأتيه عذاب يخزيه.

والآخر: أن يكون بمعنى الذي، والمعنى واحد. و﴿مَنْ﴾ إذا كانت للاستفهام استغنت عن الصلة، كما استغنت «كيف» و «كم» عن الصلة، وإذا كانت بمعنى الذي فلا بد لها من الصلة، لأن البيان مطلوب من المسؤول دون السائل.

● **المعنى:** ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ أعلم الله سبحانه نوحاً عليه السلام أنه لن يؤمن به أحد من قومه في المستقبل ﴿فَلَا يَتَّبِعِ﴾ أي: لا تغتم ولا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ والعقل لا يدل على أن قوماً لا يؤمنون في المستقبل، وإنما طريق ذلك السمع، فلما علم أن أحداً منهم لا يؤمن فيما بعد، ولا من نسلهم دعا عليهم، فقال: «رب

لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» فلما أراد الله سبحانه إهلاكهم أمر نبيه باتخاذ السفينة له ولقومه، فقال: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾ أي: اعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن بك ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى منا، عن ابن عباس. والتأويل: بحفظنا إياك حفظ الرائي لغيره إذا كان يدفع الضرر عنه، وذكر الأعين لتأكيد الحفظ. وقيل: أراد بالأعين الملائكة الموكلين بك، وبحضرتهم وهم ينظرون بأعينهم إليك، وإنما أضاف ذلك إلى نفسه إكراماً وتعظيماً لهم. وقوله: ﴿وَوَحَيْنَا﴾ معناه: وعلى ما أوحينا إليك من صفتها وحالها، عن أبي مسلم، وقيل: المراد بوحينا إليك: أن أصنعها، وذلك أنه ﷺ لم يُعَلِّمُ صنعة الفلك، فعَلَّمَهُ اللهُ تعالى، عن ابن عباس. أي: فإنا نوحى إليك بما تحتاج إليه، من طوله وعرضه وهيئته ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي: لا تسألني العفو عن هؤلاء الذين كفروا من قومك، ولا تشفع لهم، فإنهم مغرقون عن قريب، وهذا غاية في الوعيد، كما يقول الملك لوزيره: لا تذكر حديث فلان بين يدي. وقيل: إنه عني به امرأته وابنه، وإنما نهاه عن ذلك ليصونه عن سؤال ما لا يجاب إليه، ويصرف عنه مآثم الممالة للطغاة.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾ أي: وجعل نوح ﷺ يصنع الفلك كما أمره الله تعالى. وقيل: وأخذ نوح في صنعة السفينة بيده، فجعل ينحتها ويسويها، وأعرض عن قومه: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: كلما اجتاز به جماعة من أشراف قومه ورؤسائهم وهو يعمل السفينة هزئوا من فعله. وقيل: إنهم كانوا يقولون له: يا نوح، صرت نجاراً بعد النبوة، على طريق الاستهزاء. وقيل: إنما كانوا يسخرون من عمل السفينة، لأنه كان يعملها في البر على صفة من الطول والعرض، ولا ماء هناك يحمل مثلها، فكانوا يتضحكون ويتعجبون من عمله ﴿قَالَ﴾ أي: كان يقول لهم: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ المراد: إن تستجهلونا في هذا الفعل فإننا نستجهلكم عند نزول العذاب بكم كما تستجهلونا، عن الزجاج. وقيل: معناه فإننا نجازيكم على سخريتكم عند الغرق والهلاك، وأراد به تعذيب الله إياهم، فسمي الجزء باسم المجزي به، ويحتمل أن يريد: فإننا نسخر منكم بعد الغرق على وجه الشماتة لا على وجه السفه. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أينا أحق بالسخرية، أو تعلمون عاقبة سخريتكم ﴿مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ هذا ابتداء كلام من نوح ﷺ، والأظهر أن يكون متصلاً بما قبله، أي: فسوف تعلمون: أي: يأتيه عذاب يهينه ويفضحه في الدنيا، ويكون ﴿يُخْزِيهِ﴾ صفة العذاب ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: وينزل عليه عذاب دائم في الآخرة.

● **القصة:** قال الحسن: كان طول السفينة ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعاً، وارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وبابها في عرضها. وقال ابن عباس: كانت ثلاث طبقات: طبقة للناس، وطبقة للأنعام والدواب، وطبقة للهوام والوحش، وجعل أسفلها للوحوش والسباع والهوام، وأوسطها للدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وكانت من خشب الساج.

وروت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: مكث نوح ﷺ في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى، حتى إذا كان آخر زمانهم، غرس شجرة عظمت وذهبت كل مذهب، فقطعها وجعل يعمل على البر سفينته، وقومه يَمرون عليه فيسألونه فيقول: أعمل سفينة! فيسخرون منه، ويقولون: تعمل سفينة على البر، فكيف تجري؟! فيقول: سوف تعلمون. فلما فرغ منها، وفار التنور، وكثر الماء في السكك، خشيت أم صبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها حتى ذهب بها الماء. فلو رحم الله منهم أحداً، لرحم أم الصبي.

وروى علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن صفوان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله ﷺ قال: لما أراد الله إهلاك قوم نوح ﷺ أعقم أرحام النساء أربعين سنة، فلم يولد لهم مولود، ولما فرغ نوح ﷺ من اتخاذ السفينة، أمره الله تعالى أن ينادي بالسريانية، أن يجمع إليه جميع الحيوانات، فلم يبق حيوان إلا وقد حضر، فأدخل من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين ما خلا الفأر والسنور، وإنهم لما شكوا إليه سرقين الدواب، والقذر، دعا بالخنزير فمسح جبينه، فعطس فسقط من أنفه زوج فأرة، فتناسل. فلما كثروا وشكوا إليه منهم، دعا بالأسد ومسح جبينه، فعطس فسقط من أنفه زوج سنور. وكان الذين آمنوا به من جميع الدنيا ثمانين رجلاً. وفي حديث آخر: أنهم شكوا إليه العذرة، فأمر الله الفيل فعطس فسقط الخنزير. وروى الشيخ أبو جعفر في كتاب النبوة بإسناده، عن حنان بن سدير، عن أبي عبد الله ﷺ قال: آمن مع نوح من قومه ثمانية نفر.



قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحِّدْهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿وَهُى تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿قَالَ سَآوَيْتَ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِي مِن أَمْرِ الْمَاءِ قَالَا لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ﴿٤٤﴾.

● القراءة: قرأ حفص عن عاصم: ﴿مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ منونا، وفي المؤمنين كذلك. وقرأ الباقون: ﴿مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ مضافاً. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر ﴿جَحِّدْهَا﴾ بفتح الميم، والباقون: بضم الميم. واتفقوا على ضم الميم في ﴿وَمُرْسَهَا﴾ إلا ما يروى في الشواذ عن ابن محيصن، أنه فتح الميم فيهما. وقرأ عاصم: ﴿يَبْنَىٰ أَرَكَبَ مَعَنَا﴾ بفتح الياء، والباقون: بالكسر. وروى عن علي بن أبي طالب ﷺ، وأبي جعفر محمد بن علي، وجعفر بن

محمد ﷺ، وعروة بن الزبير: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾^(١) وروي عن عكرمة: «ابنُها» وعن السدي: «ابنُها» وعن ابن عباس: «ابنه» على الوقف.

● **الحجة:** الوجه في قراءة حفص، ما قاله أبو الحسن: إن الاثنين زوجان، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ والمرأة زوج الرجل، والرجل زوجها، قال: وقد يقال للاثنين: هما زوج، قال لييد:

من كلِّ مخفوفٍ يُظِلُّ عَصِيَّهُ زوجٌ عليه كِلَّةٌ وقرائها^(٢)
قال أبو علي: من قرأ: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ كان قوله: اثنين مفعول «الحمل» والمعنى: أحمل من الأزواج إذا كانت اثنين اثنين زوجين، فالزوجان في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ يراد بهما الشياخ، وليس يراد بهما الناقص عن الثلاثة، ومثل ذلك قول الشاعر:

فاغْمُذْ لِمَا يَعْلُو فَمَا لَكَ بِالَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْأُمُورِ يَدَانِ
إنما يريد تشديد انتفاء قوته عنه، وتكثيره. ويبين هذا المعنى قول الفرزدق:

وكلُّ رَفِيقِي كُلِّ رَحْلٍ، وَإِنْ هُمَا تَعَاطَى الْقَنَا قَوْمًا هُمَا أَخَوَانِ^(٣)

فرفيقان اثنان لا يكونان رفيقي كل رحل، وإنما يريد الرفقاء إذا كانوا رفيقين.
ومن نَوْنٍ فقال: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾، فحذف المضاف إليه من كل ونون، فالمعنى: من كل شيء ومن كل زوج، زوجين اثنين، فيكون انتصاب اثنين على أنه صفة لزوجين.

فإن قلت: فالزوجان قد فهم أنهما اثنان، فكيف جاز وصفهما بقوله: ﴿أَتَيْنِ﴾ فإنما جاز ذلك للتأكيد والتشديد، كما قال: ﴿لَا نَخْذُوا إِلَهَيْنِ أَتَيْنِ﴾ وقد جاء في غير هذا من الصفات، ما مَضْرَفُهُ إلى التأكيد، كقولهم: أمس الدابر، ونفخة واحدة، ونعجة واحدة قال: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾.

قال أبو علي: ويجوز في قوله: ﴿يَسِّرَ اللَّهُ بَجْرَتَهَا وَمَرْسَهَا﴾ أن يكون حالاً من شيئين: من الضمير الذي في قوله: ﴿أَرْكَبُوا﴾ ومن الضمير الذي في ﴿فِيهَا﴾ فإن جعلت قوله: ﴿يَسِّرَ اللَّهُ﴾ خبر مبتدأ مقدماً، في قول من لم يرفع بالظرف، أو جعلت قوله: ﴿بَجْرَتَهَا﴾ مرتفعاً بالظرف، لم يكن قوله: ﴿يَسِّرَ اللَّهُ بَجْرَتَهَا﴾ إلا جملة في موضع الحال من الضمير الذي في ﴿فِيهَا﴾. ولا يجوز أن يكون من الضمير الذي في قوله: ﴿أَرْكَبُوا﴾ لأنه لا ذكر فيها يرجع إلى الضمير، ألا ترى أن الظرف في قول من رفع بالظرف، قد ارتفع به الظاهر، وفي قول من رفع في هذا النحو بالابتداء، قد جعل في الظرف ضمير المبتدأ، فإذا كان كذلك خلت الجملة من ذكر

(١) يعني مخفف ابنها.

(٢) حف الهودج وغيره بالثياب: إذا غطي. والعصي ههنا: عيدان الهودج. والزوج: النمط من الثياب. والكلة: الستر

الرفيق. والقرام: الستر. يعني الهودج محفوفة بالثياب، فعيدانها تحت ظلال ثيابها.

(٣) الشعر في (جامع الشواهد).

يعود إلى ذي الحال من الحال، وإذا خلا من ذلك لم يكن إلا حالاً من الضمير الذي في ﴿فِيهَا﴾.

ويجوز أن يكون ﴿يَسِّرَ اللَّهُ﴾ حالاً من الضمير الذي في قوله: ﴿أَرْكَبُوا﴾ على ألا يكون الظرف خبراً عن الاسم الذي هو ﴿تَجَرَّبَهَا﴾ على ما كان في الوجه الأول، ويكون حالاً من الضمير، على حد قولك: خرج بشيابه، وركب في سلاحه، والمعنى: ركب مستعداً بسلاحه، ومتلبساً بشيابه، وفي التنزيل: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فكان المعنى: اركبوا متبركين باسم الله، و متمسكين بذكر اسم الله، ويكون في ﴿باسم الله﴾ ذكر يعود إلى المأمورين. فإن قلت: فكيف يكون اتصال المصدر الذي هو ﴿تَجَرَّبَهَا﴾ بالكلام على هذا، فإنه يكون متعلقاً بما في ﴿باسم الله﴾ من معنى الفعل، وجاز تعلقه به، لأنه يكون ظرفاً على نحو: مقدم الحاج، وخفوق النجم، كأنهم كانوا متبركين بهذا الاسم، أو متمسكين به في وقت الجري أو الإجراء، والرسو أو الإرساء، على حسب الخلاف بين القراء فيه.

ولا يكون الظرف متعلقاً بـاركبوا، لأن المعنى ليس عليه، ألا ترى أن المعنى لا يراد اركبوا فيها في وقت الجري والثبات، إنما المعنى: اركبوا الآن متبركين باسم الله، في الوقتين اللذين لا ينفك الراكبون فيهما من الإجراء والإرساء، ليس يراد اركبوا وقت الجري والرسو. فموضع ﴿تَجَرَّبَهَا﴾ نصب على هذا الوجه، بأنه ظرف عمل فيه المعنى، وفي الوجه الأول رفع بالابتداء، أو بالظرف، ويدل على أنه في الوجه الأول رفع، وإن كان ذلك الفعل الذي كان يتعلق به لا يعتبر به الآن، قول الشاعر، أنشد الأصمعي:

وابأبي أنت، وفوك الأشنبُ كأنما دُرَّ عليه الزُّنْبُ^(١)

وحجة من فتح ﴿تَجَرَّبَهَا﴾ قوله: ﴿وَهُوَ يَجْرِي بِهِمْ﴾ ولو كان مجراها لكان وهي تجريهم. وحجة من ضمَّ أن جرت بهم، وأجرتهم، يتقاربان في المعنى، يقال: جرى الشيء، وأجريته، وجريت به.

وأما قوله: ﴿يا بني﴾، فقد قال أبو علي: الكسر في الياء الوجه في ﴿يا بني﴾، وذلك أن اللام من ابن ياء، أو واو، حذفت في ابن، كما حذفت في اسم واثنين، فإذا حقرت ألحقت ياء التحقير، فلزم أن ترد اللام التي حذفت، لأنك لو لم تردها، لوجب أن تحرك ياء التحقير بحركات الإعراب، وتعاقبها عليها، وهي لا تحرك أبداً بحركة الإعراب ولا غيرها، ألا ترى أن من حذف الهمزة الساكن ما قبلها في نحو الخبء، لم يفعل ذلك في الهمز، نحو أَقْيَاسُ^(٢)، إنما يبدل من الهمزة ياء، ويدغم فيها ياء التحقير، فيقول: أَقْيَسْ، كما يفعل ذلك مع ياء خطية، وواو مقروءة، ونحو ذلك من حروف المد التي لا تتحرك، فإذا تبين أن ياء التحقير أجريت هذا

(١) وفي اللسان «وابأبي ثغرك ذاك الأشنب ه». والشنب: طيب نكهة الأسنان. وقيل: البرد والعذوبة.

(٢) تصغير فؤس جمع فاس.

المجرى، علمت أنها لا تتحرك، كما لا تتحرك حروف المد، التي أجريت بالتحقير مجراها. فلو لم ترد اللام مع ياء التحقير، وجعلتها محذوفة في التحقير كما حذفها في التكبير، للزم الياء التي للتحقير الانقلاب، كما لزم سائر حروف الإعراب، فيبطل دلالتها على التحقير، كما أن الألف في التكسير، لو حركتها لبطلت دلالتها على التكسير، ولذلك رددت اللام، فإذا رددت اللام وأضفتها إلى نفسك، اجتمعت ثلاث ياءات: الأولى منها التي للتحقير، والثانية لام الفعل، والثالثة التي للإضافة. تقول: هذا بُنْيٌ، فإذا ناديت جاز فيها وجهان: إثبات الياء وحذفها، فمن قال: يا عبادي، فأثبت، فقياس قوله أن يقول: بُنْيِي. ومن قال: يا عباد، قال: يا بُنْيِي، فحذف الياء التي للإضافة، وأبقى الكسرة دالة عليها، وهذا الوجه هو الجيد عندهم.

ومن قرأ: يا بُنْيِي، بالفتح، فالقول فيه: أنه أراد به الإضافة، كما أرادها في قوله: ﴿يَبْنِي﴾ إذا كسر الياء التي هي لام الفعل، كأنه قال: يا بُنْيِي بإثبات ياء الإضافة، ثم أبدل من الكسرة الفتحة، ومن الياء الألف فصار يا بُنْيَا، كما قال الشاعر:

«يَا بِنْتَ عَمَّا لَا تُلُومِي وَاهْجَعِي»

ثم حذف الألف، كما كان حذف الياء في يا بُنْيِي، وقد حذفت الياء التي للإضافة إذا أبدلت الألف منها، أنشد أبو الحسن:

فَلَسْتُ بِمُدْرِكٍ مَا فَاتَ مَنِّي بِلَهْفٍ وَلَا بِلَيْتٍ وَلَا لَوَانِي
إنما هو بلهفاً. قال أبو عثمان: ووضع الألف مكان الياء في الإضافة مطرد. وأجاز: يا زيدا أقبل، إذا أردت الإضافة، فقال: وعلى هذا قراءة من قرأ: ﴿يَتَأْتِي لِمَ تَبْدُ﴾ و ﴿وَيَنْفَوِرُ لَا أَشْتَأُكُمْ﴾ وأنشد:

«وَهَلْ جَزَعُ إِنْ قُلْتُ وَابْتَاهُمَا»

وأما من قرأ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ فإنه أراد ابنها؛ كما روي عن عكرمة، والمعنى ابن امرأته، لأنه قد جرى ذكرها في قوله سبحانه ﴿وَأَهْلَكَ﴾ فحذف الألف تخفيفاً كما قلنا في بُنْيِي بالفتح، ويا أَبْتَ. وأما قراءة السدي «ابناه» فإنه يريد به الندبة، وهو على الحكاية، أي قال له: يا ابنه، وواابناه! فأما ابنه بالسكون، فعلى ما جاء في نحو قوله:

«وَمَطَوَايَ مُشْتَاقِينَ لَهُ أَرْقَانِ»

● **اللغة:** الفور: الغليان، وأصله الارتفاع، فار القدر يفور فوراً، وفؤوراً؛ وفوراناً: ارتفع ما فيه بالغليان. ومنه قولهم: فعل ذلك من فوره، أي: من قبل أن يسكن. والإرساء: إمساك السفينة بما تقف عليه، يقال: أرساها الله فرست. قال عنترة:

فَصَبَرْتُ نَفْساً عِنْدَ ذَلِكَ حُرَّةً تَرُسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطْلُعُ

والموج: جمع موجة، وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء الكثير. والعصمة: المنع.

● **الإعراب:** ﴿حَتَّى﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَأَصْنَعَ أَلْفَاكَ يَا عَيْنَا﴾. ﴿لَا عَاصِمَ﴾ ركب ﴿عَاصِمٌ﴾ مع ﴿لَا﴾ فبني، لأنهما بالتركيب صارا كاسم واحد. وقيل: إنه بني لتضمنه معنى من، لأن هذا

سورة هود

جواب: هل من عاصم؟ وحق الجواب أن يكون وفق السؤال، فكان يجب أن يقول: لا من عاصم، إلا أن «من» حذفت، وتضمن الكلام معناه، فبني الاسم لذلك، وهذا وجه حسن. و﴿الْيَوْمَ﴾ خبر والعامل فيه المحذوف، لا قوله: عاصم، لأنه لو عمل فيه عاصم لصار من صلتة، فكان يجب تنوينه، لأنه يشبه المضاف، كما تقول: لا ضارباً زيداً في دارك، ولم يقرأ أحد: لا عاصماً اليوم.

وقيل: أن خبره قوله: ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ والتقدير: لا ذا عصمة كائن من أمر الله في اليوم، واليوم معمول الظرف وإن تقدم عليه، كما جاز: كل يوم لك ثوب، ولا يجوز أن يتعلق اليوم بنفس أمر، لأن أمراً مصدر فلا يتقدم عليه ما في صلتة. و﴿مَنْ رَجِمَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يكون استثناء منقطعاً، لأن التقدير: إلا من رحمه الله، فيكون مَنْ مفعولاً واستثناء مِنْ عاصم، وعاصم فاعل، فكأنه قال: لكن من رحمه الله معصوم.

وثانيها: أن يكون المعنى: لا عاصم إلا من رحمنا، فكأنه قال: لا عاصم إلا الله.

والثالث: أن عاصم ههنا بمعنى معصوم، وتقديره: لا معصوم من أمر الله إلا من رحمه الله، وقد يأتي فاعل بمعنى مفعول، كقوله: ﴿فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية و﴿مَأْوٍ دَافِقٍ﴾ أي: مدفوق، وقال الحطيئة:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِغَيْثِهَا، واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي (١)

أي المكسؤ، وعلى القولين الأخيرين يكون الاستثناء متصلاً.

وقال ابن كيسان: لما قال: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ كان معناه: لا معصوم، لأن في نفي العاصم نفي المعصوم. ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾ فاستثناء على المعنى، فيكون متصلاً.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن إهلاك قوم نوح عليه السلام، فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ والمعنى: فذلك حاله وحالهم، حتى إذا جاء قضاؤنا بنزول العذاب ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ بالماء، أي: ارتفع الماء بشدة اندفاع، وفي التنور أقوال:

أولها: أنه تنور الخابزة، وأنه تنور كان لآدم عليه السلام، فار الماء منه علامة لنوح عليه السلام، إذ نَبَعَ الماء من موضع غير معهود خروجه منه، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد. ثم اختلف في ذلك، فقال قوم: إن التنور كان في دار نوح عليه السلام، بعين وردة من أرض الشام. وقال قوم: بل كان في ناحية الكوفة، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام.

وروى المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل قال: كان التنور في بيت عجز مؤمنة، فيدير قبلة ميمنة مسجد الكوفة، قال: قلت: فكيف كان بدء خروج الماء من ذلك التنور؟ قال نعم، إن الله أحب أن يري قوم نوح آية، ثم إن الله سبحانه أرسل عليهم المطر فيفيض فيضاً، وفاض الفرات فيضاً، وفاضت العيون كلها فيضاً، فأغرقهم الله وأنجى نوحاً عليه السلام.

ومن معه في السفينة، فقلت: فكم لبث نوح في السفينة حتى نضب الماء فخرجوا منها؟ فقال: لبث فيها سبعة أيام بلياليها، فقلت له: إن مسجد الكوفة لقديم! فقال: نعم، هو مصلى الأنبياء، ولقد صلى فيه رسول الله ﷺ حين أسرى به إلى السماء، قال له جبرائيل عليه السلام: يا محمد! هذا مسجد أبيك آدم، ومصلى الأنبياء، فانزل فَصَلْ فيه، فنزل فصلى فيه، ثم إن جبرائيل عليه السلام عرج به إلى السماء، وفي رواية أخرى أن السفينة استقلت بما فيها، فجرت على ظهر الماء مائة وخمسين يوماً بلياليها. وروى أبو عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: مسجد كُوفان وسطه روضة من رياض الجنة، الصلاة فيه بسبعين صلاة، صلى فيه ألف نبي وسبعون نبياً، فيه فار التنور، وجرت السفينة، وهو سره بابل، ومجمع الأنبياء عليه السلام.

وثانيها: إن التنور وجه الأرض، عن ابن عباس، والزهري، وعكرمة، واختاره الزجاج، ويؤيده قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾.

وثالثها: إن معنى قوله: ﴿وَفَارَ النَّتُورُ﴾ طلع الفجر وظهرت إمارات دخول النهار وتقضي الليل، من قولهم: نَوَّرَ الصبح تنويراً، وروي ذلك عن علي عليه السلام.

ورابعها: إن التنور أعلى الأرض وأشرفها، والمعنى: نبع الماء من الأمكنة المرتفعة، فشبّهت بالتناير لعلوها، عن قتادة.

وخامسها: أن فار التنور معناه: اشتد غضب الله عليهم، ووقعت نقمته بهم، كما تقول العرب: حَمِيَ الوطيس: إذا اشتد الحرب، وفارت قَدْرُ القوم: إذا اشتد حريقهم، قال الشاعر:

تَفُورُ عَلَيْنَا قَدْرُهُمْ فَنُذِمْهُمَا وَنَفْسُهَا عَنَّا إِذَا حَمِيَهَا غَلَا^(١)

يريد بالقدر الحرب، ونذيمها نسكنها. وهذا أبعد الأقوال من الأثر، وحمل الكلام على الحقيقة التي تشهد بها الرواية أولى ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: قلنا لنوح لما فار الماء من التنور: احمل في السفينة من كل جنس من الحيوان زوجين؛ أي: ذكر وأنثى؛ وقد ذكرنا المعنى في حجة القراءتين؛ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: واحمل أهلك ولذلك ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: من سبق الوعد بإهلاكه، والإخبار بأنه لا يؤمن، وهي امرأته الخائنة، واسمها واغلة، وابنها كنعان ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي: واحمل فيها من آمن بك من غير أهلك.

ثم أخبر سبحانه فقال: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: إلا نفر قليل، وهم ثمانون إنساناً في قول الأكثرين. وقيل: اثنان وسبعون رجلاً وامراً، وبنوه الثلاثة ونسأؤهم، فهم ثمانية وسبعون نفساً. وحمل معه جسد آدم عليه السلام، عن مقاتل. وقيل: عشرة أنفس، عن ابن إسحاق. وقيل: ثمانية أنفس، عن ابن جريج، وكتادة. وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: سبعة أنفس، عن الأعمش. وكان فيهم بنوه الثلاثة: سام وحام ويافث، وثلاث كنانن لهم، فالعرب، والروم،

(١) نسه في اللسان إلى الجعدي ثم قال: وهذا البيت في التهذيب منسوب إلى الكميت، وفنأ القدر: سكن غليانها بماء بارد.

سورة هود

وفارس، وأصناف، العجم، ولد سام. والسودان من الحبش، والزنج، وغيرهم، ولد حام. والترك، والصين، والصقالبة، ويأجوج، ومأجوج، ولد يافث.

﴿وَقَالَ أَزْكِبُوا فِيهَا﴾ أي: وقال نوح لمن آمن معه: اركبوا في السفينة، وفي الكلام حذف، تقديره: فلما فار التنور، ووقف نوح ﷺ على ما دلّه الله عليه من هلاك الكفار، قال لأهله وقومه: اركبوا فيها ﴿يَسِّرَ اللَّهُ مَجْرَبَهَا وَمُزْنَهَا﴾ أي: متبركين باسم الله، أو قائلين: بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، أي: إثباتها وحبسها. وقيل: معناه بسم الله إجرائها وإرسائها، وقد ذكرنا تفسيره في الحجة. وقال الضحاك: كانوا إذا أرادوا أن تجري السفينة قالوا: بسم الله مجراها فجرت، وإذا أرادوا أن تقف السفينة قالوا: بسم الله مرساها فوقفت.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا حكاية عما قاله نوح ﷺ لقومه، ووجه اتصاله بما قبله أنه لما ذكرت النجاة بالركوب في السفينة، ذكرت النعمة بالمغفرة والرحمة لتجتلبا بالطاعة، كما اجتلبت النجاة بركوب السفينة. ﴿وَهُوَ يَجْرِي فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ معناه: إِنَّ السفينة كانت تجري بنوح ﷺ ومن معه على الماء، في أمواج كالجبال في عظمها وارتفاعها، ودل بتشبيهها بالجبال على أن ذلك لم يكن موجاً واحداً، بل كان كثيراً. وروي عن الحسن أن الماء ارتفع فوق كل شيء، وفوق كل جبل ثلاثين ذراعاً. وقال غيره: خمسة عشر ذراعاً. وقيل: إِنَّ سفينة نوح ﷺ سارت لعشر ماضين من رجب، فسارت ستة أشهر حتى طافت الأرض كلها، لا تستقر في موضع حتى أتت الحرم فطافت بموضع الكعبة أسبوعاً، وكان الله سبحانه رفع البيت إلى السماء، ثم سارت بهم حتى انتهت إلى الجودي، وهو جبل بأرض الموصل، فاستقرت عليه اليوم العاشر من المحرم، وروى أصحابنا عن أبي عبد الله ﷺ أن نوحاً ﷺ ركب السفينة في أول يوم من رجب فصام وأمر من معه أن يصوموا ذلك اليوم، وقال: من صام ذلك اليوم تباعدت عنه النار مسيرة سنة ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان، وقيل: إن اسمه يام ﴿وَكَانَ فِي مَعَزِلٍ﴾ أي: في قطعة من الأرض غير القطعة التي كان نوح فيها حين نأذاه. وقيل: معناه كان في ناحية من دين أبيه، أي: قد اعتزل دينه، وكان نوح ﷺ يظن أنه مسلم فلذلك دعاه. وقيل: كان في معزل من السفينة ﴿يَبْتَغِي أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ دعا ابنه إلى أن يركب معه في السفينة ليسلم من الغرق. قال الحسن: كان يناقض أباه، فلذلك دعاه. وقال أبو مسلم: دعاه بشرط الإيمان، ومعناه: يا بني آمن بالله ثم اركب معنا ولا تكن على دين الكافرين. وعلى القول الأول يكون معناه: لا تتخلف مع الكافرين فتغرق معهم، فأجاب ابنه.

﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ﴾ أي: سأرجع إلى مأوى من جبل ﴿يَقْصِيئُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: يمنعني من آفات الماء. ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي: لا مانع ولا دافع اليوم من عذاب الله إلا من رحمه الله بإيمانه، فأمن بالله يرحمك الله ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ﴾ أي: فصار ﴿مِنَ الْمَغْرُوبِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِشْ أَلْبَعَى مَاءُكَ وَيَسْمَأُ أَقْلَى وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

● **اللغة:** البلع: إجراء الشيء في الحلق إلى الجوف. والإقلاع: إذهاب الشيء من أصله حتى لا يرى له أثر، يقال: أقلعت السماء، إذا ذهب مطرها حتى لا يبقى شيء منه، وأقلع عن الأمر، إذا تركه رأساً.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه الحال بعد انتهاء الطوفان، فقال: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِشْ أَلْبَعَى مَاءُكَ﴾ أي: قال الله سبحانه للأرض: انشي مائك الذي نبعت به العيون، واشربي مائك حتى لا يبقى على وجهك شيء منه، وهذا إخبار عن ذهاب الماء عن وجه الأرض بأوجز مدة، فجرى مجرى أن قيل لها: ابلعي فبلعت ﴿وَيَسْمَأُ أَقْلَى﴾ أي: وقال تعالى للسماء: يا سماء! أمسكي عن المطر. وهذا إخبار عن إقشاع السحاب، وانقطاع المطر في أسرع زمان، فكأنه قال لها: أقلعي فأقلعت ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ أي: ذهب به عن وجه الأرض إلى باطنها، والمعنى: ونشفت الأرض ماءها. ويقال: إن الأرض ابتلعت جميع مائها وماء السماء، لقوله: ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ ويقال: لم تتلع ماء السماء، لقوله: ﴿أَلْبَعَى مَاءُكَ﴾ وإن ماء السماء صار بحاراً وأنهاراً، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: وقع إهلاك الكفار على التمام، وفرغ من الأمر. وقيل: وقضي الأمر بنجاة نوح عليه السلام ومن معه ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي: استقرت السفينة على الجبل المعروف. قال الزجاج: هو بناحية آمد. وقال غيره: بقرب جزيرة الموصل. قال زيد بن عمرو بن نفيل:

سُبْحَانَهُ، ثم سبحاناً يعود له، وقبله سَبَّحَ الجودي والجُمْدُ^(١)

وقال أبو مسلم: الجودي: اسم لكل جبل وأرض صلبة. وفي كتاب النبوة مسنداً إلى أبي بصير، عن أبي الحسن علي بن موسى بن جعفر عليه السلام، قال: كان نوح عليه السلام لبث في السفينة ما شاء الله، وكانت مأمورة، فخلّى سبيلها، فأوحى الله إلى الجبال: إني واضع سفينة نوح عليه السلام على جبل منكن، فتناولت الجبال وشمخت، وتواضع الجودي، وهو جبل بالموصل، فضرب جوجو السفينة الجبل، فقال نوح عند ذلك: يا مريا اتقن، وهو بالعربية: يا رب أصلح. وفي رواية أخرى: يا رهمان اتقن، وتأويله: يا رب أحسن. وقيل: أرسى السفينة على الجودي شهراً.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قال الله تعالى ذلك، ومعناه: أبعد الله الظالمين من رحمته، لإيرادهم أنفسهم مورد الهلاك، وإنما انتصب على المصدر، وفيه معنى الدعاء، ويجوز أن يكون هذا من قول الملائكة، أو من قول نوح عليه السلام والمؤمنين. وفي هذه الآية من بدائع الفصاحة، وعجائب البلاغة، ما لا يقاربه كلام البشر ولا يدانيه. منها: أنه خرج مخرج الأمر، وإن كانت الأرض والسماء من الجماد، ليكون أدل على الاقتدار.

(١) وفي رواية الحموي في (معجم البلدان): «نسج الله تسيحاً نجود به * وقبله. اهـ». والجُمْد - بضمين - جبل بنجد لبني نصر. وقد ينسب هذا الشعر إلى ورقة بن نوفل.

ومنها: حسن تقابل المعنى واثتلاف الألفاظ.

ومنها: حسن البيان في تصوير الحال.

ومنها: الإيجاز من غير إخلال. إلى غير ذلك مما يعلمه من تدبره، وله معرفة بكلام العرب ومحاوراتهم. ويروى أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن، فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً، لتصفو أذهانهم، فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين، وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا.



قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكِيمِينَ﴾ (٥٥) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أُعْطِكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٥٦) قَالَ رَبِّ إِنِّيْ أُعْذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِيْ وَتَرْحَمْنِيْ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥٧) قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْطِ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَمِتُهُمْ فَيَمْسَهُمْ مِنَّا عَذَابُ الْإِلْمِ (٥٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٥٩).

● **القراءة:** قرأ الكسائي ويعقوب وسهل: ﴿أَنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ﴾ على الفعل ونصب ﴿غَيْرٌ﴾. والباقون: ﴿عَمَلٌ﴾ اسم مرفوع منون ﴿غَيْرٌ﴾ بالرفع. وقرأ ابن كثير: ﴿تَسْأَلُنْ﴾ مشددة النون مفتوحة. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وسهل: ﴿فَلَا تَسْأَلُنِيْ﴾ خفيفة النون مثبته الياء. وقرأ أهل الكوفة: خفيفة النون بغير ياء. وقرأ أهل المدينة غير قالون: ﴿فَلَا تَسْأَلُنِيْ﴾ مشددة النون مثبته الياء. وقرأ ابن عامر وقالون: ﴿فَلَا تَسْأَلُنْ﴾ مشددة النون مكسورة بغير ياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ﴾ فنون، فالمراد: إن سؤالك ما ليس لك به علم عمل غير صالح. ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ لما دل عليه قوله: ﴿أَرْكَبُ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ فيكون تقديره: إن كونك مع الكافرين، وانحيازك إليهم، وتركك الركوب معنا والدخول في جملتنا، عمل غير صالح. ويجوز أن يكون الضمير لابن نوح عليه السلام، كأنه جعل عملاً غير صالح، كما يجعل الشيء لكثرة ذلك منه، كقولهم: الشعر زهير، أو يكون المراد: إنه ذو عمل غير صالح، فحذف المضاف.

ومن قرأ: ﴿عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ﴾ فيكون في المعنى كقراءة من قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ﴾ وهو يجعل الضمير لابن نوح عليه السلام، وتكون القراءةان متفقتين في المعنى، وإن اختلفتا في اللفظ، ومن ضعف هذه القراءة بأن العرب لا تقول: هو يعمل غير حسن، حتى يقولوا: عملاً غير حسن، فالقول فيه: أنهم يقيمون الصفة مقام الموصوف عند ظهور المعنى. فيقول القائل:

قد فعلت صواباً، وقلت: حسناً، بمعنى فعلت فعلاً صواباً، وقلت قولاً حسناً، قال عمر بن أبي ربيعة:

أيها القائلُ غيرَ الصُّوابِ آخر النصحِ، وأقللِ عتابي
وقال أيضاً:

وكم من قتيلٍ ما يُبَاء به دمٌ ومن غَلِقِ رهنٍ إذا لَفَّه مني^(١)
وكم مَالٍ عَيْنِيهِ من شيءٍ غيرِه إذا راحَ نحوَ الجمرَةِ البيضِ كالدمي^(٢)
أراد: وكم من إنسان قتل. ونظائره كثيرة.

ومن قرأ: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ﴾ بفتح اللام ولم يكسر النون، عدَّى السؤال إلى مفعول واحد في اللفظ، والمعنى على التعدي إلى مفعول ثان. ومن كسر النون ها هنا فإنه يدل على تعدي السؤال إلى مفعولين:

أحدهما: اسم المتكلم. والآخر: اسم الموصول. وحذفت النون المتصلة بياء المتكلم، لاجتماع النونات، كما حذفت النون من قولهم: إني كذلك، وكما حذفت النون من قوله: يَسُوءُ الْفَالِياتِ إِذَا قَلْنِي^(٣)

وأما إثبات الياء في الوصل فهو الأصل، وحذفها أخف، والكسرة تدل عليها.
● الإعراب: قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يحتمل قوله: ﴿بِهِ﴾ في الآية وجهين:
أحدهما: أن يكون كقوله:

«كان جزائي بالعصا أن أخلدا»

إذ قُدِّمَت بالعصا. وكقوله: ﴿وَكَاثُرًا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، و﴿إِنِّي لَكَا لَيْنَ النَّاصِحِينَ﴾، ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. وزعم أبو الحسن: أن ذلك إنما يجوز في حروف الجر، والتقدير فيه: التعليق بمضمرة يفسره هذا الذي ظهر بعد، وإن كان لا يجوز تسلطه عليه. ومثل ذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ فانتصب ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ بما دل عليه ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ﴾ ولا يجوز لما بعد ﴿لَا﴾ هذه أن يتسلط على ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ وكذلك ﴿إِنِّي لَكَا لَيْنَ النَّاصِحِينَ﴾ متعلق بما دل عليه النصيح المظهر، والتقدير: إني ناصح لكما لمن الناصحين وكذلك ﴿بِهِ﴾ في قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يتعلق بما يدل عليه قوله: ﴿عِلْمٌ﴾ الظاهر، وإن لم يجز أن يعمل فيه.

(١) وفي بعض النسخ «ومن غلق رهنا إذا ضمه» وما يباء به دم أي: ليس من يكافئه فيقتل به. وغلق الرهن: إذا صار لا سبيل إلى فكاهه.

(٢) الدمى جمع الدمية: الصنم.

(٣) قائله عمرو بن معد يكرب، وقبلة: «تراه كالثغام يعل مسكاً» وقر مر. والشاهد في «فليني» فإن أصله فلينيني.

والوجه الآخر: أن يكون متعلقاً بالمستقر، وهو العامل فيه، كتعلق الظرف بالمعاني، كما تقول: ليس لك فيه رضا، فيكون ﴿يَهْءُ﴾ في الآية بمنزلة فيه. والعلم: يراد به العلم المتيقن الذي يعلم به الشيء على الحقيقة، ليس العلم الذي يعلم به الشيء على ظاهره، كالذي في قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ ونحو ما يعلمه الحاكم بشهادة الشاهدين، وإقرار المقر بما يدعى، ونحو ذلك مما يعلم به العلم الظاهر، الذي يسع الحاكم الحكم بالشيء معه.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ تلك: مبتدأ، و ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ الخبر، و ﴿تُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ خبر ثان، وإن شئت كان في موضع الحال، أي: تلك كائنة من أنباء الغيب موحاة إليك، وإن شئت كانت تلك مبتدأ، ونوحيتها الخبر، والجار من صلة ﴿تُوحِيهَا﴾ أي: تلك نوحيتها إليك من أنباء الغيب، ولا يجوز أن يكون ﴿مِنْ﴾ زيادة على تقدير: تلك أنباء الغيب، لأنها لا تزداد في الموجب، ويجوز على قول الأخفش.

● المعنى: ثم حكى سبحانه تمام قصة نوح عليه السلام، فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ نداء تعظيم ودعاء ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ معناه: يا مالكي وخالقي ورازقي، وعدتني بتنجية أهلي، وإن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق لا خلف فيه، فنجّه إن كان ممن وعدتني بنجاته ﴿وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ في قولك وفعلك ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿يَنْتُحِ إِنْهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾. وقد قيل في معناه أقوال:

أحدها: إنه كان ابنه لصلبه، والمعنى: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم معك، لأن الله سبحانه قد استثنى من أهله الذين وعده أن ينجيهم من أراد إهلاكهم بالغرق، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، عن ابن عباس، وسعيد ابن جبير والضحاك وعكرمة، واختاره الجبائي.

وثانيها: إن المراد بقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إنه ليس على دينك، فكان كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله، عن جماعة من المفسرين. وهذا كما قال النبي ﷺ: سلمان منا أهل البيت. وإنما أراد على ديننا. وروى علي بن مهزيار عن الحسن بن علي الوشاء، عن الرضا عليه السلام قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله تعالى قال لنوح عليه السلام: إنه ليس من أهلك، لأنه كان مخالفاً له، وجعل من اتبعه من أهله، ويؤيد هذا التأويل أن الله سبحانه قال على طريق التعليل: ﴿إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ مَبْلُغٍ﴾ فيبين أنه إنما خرج عن أحكام أهله، لكفره وسوء عمله. وروي عن عكرمة أنه قال: كان ابنه، ولكنه كان مخالفاً له في العمل والنية، فمن ثم قيل: إنه ليس من أهلك.

وثالثها: إنه لم يكن ابنه على الحقيقة، وإنما ولد على فراشه، فقال عليه السلام: إنه ابني على ظاهر الأمر. فأعلمه الله تعالى أن الأمر بخلاف الظاهر، ونُبّه على خيانة امرأته، عن الحسن، ومجاهد. وهذا الوجه بعيد، من حيث إن فيه منافاة للقرآن، لأنه تعالى قال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ ولأن الأنبياء يجب أن ينزهوا عن مثل هذه الحال، لأنها تعير وتشين، وقد نزه الله أنبياءه عما دون ذلك، توقيراً لهم وتعظيماً عما ينفر من القبول منهم. وروي عن ابن عباس أنه قال: ما

زنت امرأة نبي قط، وكانت الخيانة من امرأة نوح عليه السلام، أنها كانت تنسبه إلى الجنون، والخيانة من امرأة لوط، أنها كانت تدل على أضيافه.

ورابعها: إنه كان ابن امرأته، وكان ربيبه، ويعضده قراءة من قرأ: ﴿إِبْنَهُ﴾ بفتح الهاء، و «ابنها» والمعتمد المعمول عليه في تأويل الآية القولان الأولان. ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قد ذكرنا الوجه في القراءتين، واختار المرتضى رضي الله عنه في تأويله، أن التقدير: إن ابنك ذو عمل غير صالح، واستشهد على ذلك بقول الخنساء:

ما أُمُّ سَقْبٍ عَلَى بَوِّ تُطِيفُ بِهِ قَدْ سَاعَدَتْهَا عَلَى التَّحْنَانِ أَظْثَارُ^(١)
ترتع ما رتعت حتى إذا أذكرت فإنما هي إقبال وإدبار^(٢)

أرادت: فإنما هي ذات إقبال وإدبار. قال: ومن قال إن المعنى: إن سؤالك إياي ما ليس لك به علم عمل غير صالح، فإن من امتنع من أن يقع على الأنبياء شيء من القبائح يدفع ذلك.

فإذا قيل له: فلم قال: ﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وكيف قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْثَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ قال: لا يمتنع أن يكون نهى عن سؤال ما ليس له به علم وإن لم يقع منه، وأن يكون تعوذ من ذلك، وإن لم يوقعه، كما نهى الله سبحانه نبيه عن الشرك في قوله: ﴿لَنْ أَتْرَكَ لِيَجْطُنَّ عَمَّا﴾ وإن لم يجز وقوع ذلك منه. وإنما سأل نوح عليه السلام نجا ابنه بشرط المصلحة لا على سبيل القطع، فلما بين الله تعالى أن المصلحة في غير نجاته، لم يكن ذلك خارجاً عما تضمنه السؤال.

وقوله: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ﴾ أي: أحذرك، والوعظ: الدعاء إلى الحسن، والزجر عن القبيح، على وجه الترغيب والترهيب ﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ معناه: لا تكن منهم. قال الجبائي يعني: إني أعظك لئلا تكون من الجاهلين، ولا شك أن وعظه سبحانه يصرف عن الجهل وينزه عن القبيح. ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام عند ذلك ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْثَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي اعتصم بك أن أسألك ما لا أعلم أنه صواب وأنت تفعله، ومعنى العياذ بالله: الاعتصام به طلباً للنجاة، ومعناه ههنا: الخضوع والتذلل لله سبحانه، ليوافقه ولا يكله إلى نفسه. وإنما حذف «يا» من قوله: ﴿رَبِّ﴾ وأثبتته في قوله: ﴿يَنْتُحُ﴾ لأن ذلك نداء تعظيم، وهذا نداء تنبيه. فوجب أن يأتي بحرف التنبيه ﴿وَلَا تَفْخِرْ لِي وَتَرَحَّوْا أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ إنما قال ذلك على سبيل التخشع والاستكانة لله تعالى، وإن لم يسبق منه ذنب. ثم حكى الله سبحانه ما أمر به نوحاً، حين استقرت السفينة على الجبل، بعد خراب الدنيا بالطوفان، فقال: ﴿قِيلَ يَنْتُحُ أَهَيْطُ﴾ أي: انزل من الجبل أو من السفينة ﴿يَسْكُنْ يَتَا﴾ أي: بسلامة منا ونجاة. وقيل: بتحية وتسليم منا

(١) السقب: الذكر من ولد الناقة. والبو: أن ينحر ولد الناقة، ويؤخذ جلده فيحشى، ويدنى من أمه لتسلى به. التحنان: الحنين. والأظثار جمع الظئر: وهي التي تعطف على ولد غيرها.

(٢) يقول: إن هذه الناقة ترعى ما دامت ناسية ولها الذي ذبح، فإذا تذكرته أخذتها رعدة واضطراب، فصارت تقبل وتدير. وشبهت نفسها بها.

عليك ﴿وَزَكَّيْتَ عَلَيْكَ﴾ أي: ونعم دائمة وخيرات نامية، ثابتة حالاً بعد حال عليك ﴿وَعَلَى أُمِّرٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ يعني الأمم الذين كانوا معه في السفينة من المؤمنين. والأمة: الجماعة الكثيرة المتفقة على ملة واحدة. وقيل: معناه وعلى أمم من ذرية من معك. وقيل: يعني بالأمم سائر الحيوان الذين كانوا معه، لأن الله تعالى جعل فيها البركة.

﴿وَأُمِّمٌ سَتَمِعَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معناه: أنه يكون من نسلهم أمم سنمتعهم في الدنيا بضروب من النعم، فيكفرون ونهلكهم، ثم يمسهم بعد الهلاك عذاب مؤلم. وإنما ارتفع ﴿أُمِّمٌ﴾ لأنه استأنف الإخبار عنهم. وروي عن الحسن أنه قال: هلك المتمتعون في الدنيا، لأن الجهل يغلب عليهم والغفلة، فلا يتفكرون إلا في الدنيا وعمارتها وملاذها. ثم أشار سبحانه إلى ما تقدم ذكره من أخبار قوم نوح عليه السلام، فقال: ﴿تِلْكَ﴾ أي تلك الأنبياء ﴿مِنْ أَتْبَاءِ الْقَتِيبِ﴾ أي: من أخبار ما غاب عنك معرفته ولو قال: ذلك، كان جائزاً، لأن المصادر قد يكتفى عنها بالتذكير، كما يكتفى بالتأنيث، يقولون: قدم فلان ففرحت بها، أي بقدمته، وفرحت به، أي: بقدموه.

﴿ثَوِجِبَا إِلَىٰكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: إن هذه الأخبار التي أعلمناكمها لم تكن تعلمها أنت، ولا قومك من العرب يعرفونها من قبل إيحائنا إليك، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب وسير. وقيل: من قبل هذا القرآن وبيان القصص فيه ﴿فَاصْبِرْ﴾ أي: فاصبر على القيام بأمر الله، وعلى أذى قومك يا محمد، كما صبر نوح على أذى قومه، وهذا أحد الوجوه التي لأجلها كرر الله قصص الأنبياء عليه السلام، ليصبر النبي ﷺ على ما كان يقاسيه من أمور الكفار الجهال حالاً بعد حال ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: إن العاقبة المحمودة، وخاتمة الخير والنصرة للمتقين، كما كانت لنوح عليه السلام.



قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُورُ لَا أَسْأَلُكَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقُورُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوكَ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

حَفِظُ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَعَلُوا بَنَاتِنَ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْآخِرَةِ أَلَّا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَّا بُعْدًا لِّءَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ .

● **اللغة:** الفطر: الشق عن أمر الله، كما ينفطر الورق عن الشجر، ومنه: فطر الله الخلق، لأنه بمنزلة ما شق عنه فظهر. المدرار: الدار الكثیر المتتابع على قدر الحاجة إليه دون الزائد المفسد المضر، ومفعول للمبالغة كقولهم: معطار ومقدام. واعتراك: من قولهم عراه يعروه إذا أصابه، قال الشاعر:

مِنَ الْقَوْمِ يَعْرُوهُ اجْتِرَاءً وَمَائِمٌ

والفرق بين الإنظار والتأخير: إن الإنظار إمهال لينظر صاحبه في أمره، والتأخير خلاف التقديم. والناصية: قصاص الشعر، وأصله الاتصال، من قولهم: مفازة تناصي مفازة، إذا كانت الأخيرة متصلة بالأولى، قال:

فِيء تَنَاصِيهَا بِلَادٌ فِيء

وقال أبو النجم:

إِنْ يُنْسِرَ رَأْسِي أَشْمَطَ الْعَنَاصِي (١) كَأَنَّمَا فَرَّقَهُ الْمُنَاصِي

أي: يجاذب ليتصل به في مرة. العيند: العاني الطاعي، عِنْدُ يَغْنِدُ عُنُودًا: إذا تجبر. وعند عن الأمر: إذا حاد عنه، فهو عاند وعنود.

● **الإعراب:** ﴿لَأَنَّهُمْ﴾ نصب بتقدير أرسلنا، كأنه قال: وأرسلنا إلى عاد أخاهم، و﴿هُودًا﴾ عطف بيان، وعاد مصروف، لأن المراد به الحي، وقد يقصد به القبيلة فلا يصرف، قال:

لَوْ شَهِدَ عَادٌ فِي زَمَانٍ عَادٍ لَا بُتْرَها مُبَارَكُ الْجِلَادِ (٢)

﴿غَيْرُهُ﴾ من ضمِّ الراء حمل الصفة على الموضع، ومن جره حمله على اللفظ، قوله: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَرْنَاكَ بِبَعْضِ ءَلِهَتِنَا يُسُوْهُ﴾ قال صاحب كتاب (كشف الجامع) النحوي: إن حرف نفي لحقت ﴿نَقُولُ﴾ فنفت جميع القول إلا قولاً واحداً، وهو قولهم: اعتراك بعض آلهتنا بسوء، والتقدير: ما نقول قولاً إلا هذه المقالة، والفعل يدل على المصدر، وعلى الظرف، وعلى

(١) الأشمط: الأبيض. والعناصي جمع عنصوة: الخصلة من الشعر. والمناصية: مد الناصية من قولهم: نصوت الرجل: إذا مددت ناصيته.

(٢) مبارك الإبل: الموضع الذي تترك أي: تنيخ فيه. والجلاد من النوق: التي لا أولاد لها فتصير على الحر والبرد. أو الكبار التي لا صغار فيها واللفظ كناية.

الحال، ويجوز أن يذكر الفعل ثم يستثنى من مدلوله ما دل عليه من المصادر والظروف والأحوال، فتقول: اعتراك مستثنى من المصدر الذي دل عليه نقول، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى﴾ فنصب موتنا على الاستثناء، لأنه مستثنى من ضروب الموت الذي دل عليه قوله: ﴿بِمَبِيتِينَ﴾، ومما جاء من ذلك في الظرف قوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرُّ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ فساعة استثناء مما دل عليه يلبثوا من الأوقات، ومما جاء من ذلك في الحال قوله: ﴿صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا يَحْبِلُ مِّنَ اللَّهِ﴾ التقدير: ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال أينما تفقوا إلا متمسكين بحبل، أي: بعهد من الله. انتهى كلامه.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ تقديره: فإن تولوا، فحذف إحدى التائين لدلالة الكلام عليه. وقوله: ﴿بَعْدًا لِّعَادِ﴾ منصوب على المصدر، أي: أبعدهم الله بعداً، فوقع بعداً موقع إبعاداً، كما وقع نباتاً موقع إنباتاً في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه قصة هود على قصة نوح، فقال: ﴿وَلِإِنِّ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أراد أخاهم في النسب دون الدين ﴿قَالَ يَنْفَوِرُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده وأطيعوه دون الأصنام ﴿مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ دخول من يفيد التعميم، نفى أن يكون لهم مبعود يستحق العبادة غير الله عز اسمه ﴿إِن أَنتُمْ إِلَّا كَاذِبُونَ﴾ أي: ما أنتم إلا كاذبون في قولكم: إن الأصنام آلهة ﴿يَنْفَوِرُ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لست أطلب منكم على دعائي لكم إلى عبادة الله جزاء ﴿إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: ليس جزائي إلا على الله الذي خلقني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عني ما أقول لكم، فتعلمون أن الأمر على ما أقوله ﴿وَيَنْفَوِرُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ قد بينا وجه تقديم الاستغفار على التوبة في أول هذه السورة. ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي: يرسل المطر عليكم متتابعاً متواتراً داراً. وقيل: إنهم كانوا قد أجذبوا، فوعدهم هود أنهم إن تابوا أخصبت بلادهم، وأمرعت وهادهم^(١)، وأثمرت أشجارهم، وزكت ثمارهم، بنزول الغيث الذي يعيشون به، وهذا مثل قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. ﴿وَنَرْزُقْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ فسرت القوة هنا بالمال، والولد والشدة، وكل ذلك مما يتقوى به الإنسان. قال علي بن عيسى: يريد عزاً إلى عزكم بكثرة عددكم وأموالكم. وقيل: قوة في إيمانكم إلى قوة أبدانكم ﴿وَلَا تُنَوَّلُوا﴾ عما أدعوكم إليه ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ أي: مشركين كافرين.

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجة ومعجزة تبين صدقك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: لسنا بتاركي عبادة الأصنام لأجل قولك. وقيل: إن ﴿عَن﴾ جعلت مكان «الباء» فمعناه: بقولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدقين، وإنما حملهم على دفع البينة مع ظهورها أشياء:

منها: تقليد الآباء والرؤساء.

ومنها: اتهامهم لمن جاء بها حيث لم ينظروا فيها.

(١) مرع المكان: أخصب. ووهاد جمع وهذ: المطمئن من الأرض، والمكان المنخفض كأنه حفرة.

ومنها: إنه دخلت عليهم الشبهة في صحتها.

ومنها: اعتقادهم لأصول فاسدة دعتهم إلى جحدها.

وإنما حملهم على عبادة الأوثان أشياء:

منها: اعتقادهم أن عبادتها تقربهم إلى الله زلفى.

ومنها: إن الشيطان ربما ألقى إليهم أن عبادتها تحظيهم في الدنيا.

ومنها: أنهم ربما اعتقدوا مذهب المشبهة، فاتخذوا الأوثان على صورته عندهم فعبدوها.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ هذا تمام الحكاية عن قوم هود جواباً لهود.

والمعنى: لسنا نقول فيك إلا أنه أصابك بعض آلهتنا بسوء فخبيل عقلك، لستمك لها وسبك إياها، ذهب إليه ابن عباس، ومجاهد.

﴿قَالَ﴾ أي: قال هود لقومه ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكُمْ﴾ أي: وأشهدكم أيضاً بعد إشهد الله ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: إن كنتم تزعمون أن آلهتكم عاقبتني لطعني عليها، فإنني على بصيرة في البراءة مما تشركونه مع الله من آلهتكم التي تزعمون أنها أصابتني بسوء، وإنما أشهدهم على ذلك وإن لم يكونوا أهل شهادة، من حيث كانوا كفاراً فساقاً، إقامة للحجة عليهم، لا لتقوم الحجة بهم، فقال هذا القول إغذاراً وإنذاراً. وقيل: إنه أراد بقوله: ﴿وَأَشْهَدُكُمْ﴾ واعلموا، كما قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ أي: علم الله ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ أي: فاحتالوا واجتهدوا أنتم وآلهتكم في إنزال مكروه بي ثم لا تمهلوني. قال الزجاج: وهذا من أعظم آيات الأنبياء، أن يكون الرسول وحده، وأمه متعانة عليه، فيقول لهم: كيدوني، فلا يستطيع واحد منهم ضره، وكذلك قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّجِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية. وقال نبينا ﷺ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ ومثل هذا القول لا يصدر إلا عمن هو واثق بنصر الله، وبأنه يحفظه عنهم ويعصمه منهم. ثم ذكر هود عليه السلام هذا القول فقال: ﴿إِنِّي قَوَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: فوُضت أمري إلى الله سبحانه، متمسكاً بطاعته تاركاً لمعصيته، وهذا هو حقيقة التوكل على الله سبحانه ﴿مَّا مِنْ دَاخِلِهِ إِلَّا هُوَ أَخِذْ يُنَاصِصِبْهَا﴾ أي: ما من حيوان يدب على وجه الأرض إلا وهو مالك لها، يصرفها كيف يشاء ويقهرها، وجعل الأخذ بالناصية كناية عن القهر والقدرة، لأن من أخذ بناصرية غيره فقد قهره وأذله. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إنه سبحانه مع كونه قاهراً على عدل فيما يعامل به عباده، والمعنى: إنه يعدل ولا يجور. وقيل: معناه أن ربي في تدبير عباده على طريق مستقيم، لا عوج فيه ولا اضطراب، فهو يجري على سبيل الصواب، ويفعل ما تقتضيه الحكمة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ هذه حكاية عما قاله هود عليه السلام لقومه، والمعنى: فإن تتولوا، ويجوز أن يكون حكاية عما قاله سبحانه لهود، والمعنى: فإن تولوا هم ﴿فَقُلْ لَهُمْ﴾ قل لهم ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: ليس ذلك لتقصير مني في إبلاغكم، وإنما هو لسوء اختياركم في إعراضكم عن نصحي، فقد أبلغتكم جميع ما أحي إلي.

﴿وَسَنَخْلَفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي ويهلككم ربي بكفركم ويستبدل بكم قوماً غيركم يوحدونه ويعبدونه ﴿وَلَا تَصْرُوفُ شَيْئًا﴾ يعني إذا استخلف غيركم فجعلهم بدلاً منكم لا تقدرون له على

سورة هود

ضر. وقيل: معناه لا تضرونه بتوليكم وإعراضكم شيئاً، ولا ضرر عليه في إهلاككم، لأنه لم يخلقكم لحاجة منه إليكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ يحفظه من الهلاك إن شاء، ويهلكه إذا شاء. وقيل: معناه إن ربي يحفظني عنكم وعن أذاكم. وقيل: معناه إن ربي على كل شيء من أعمال عباده حفيظ حتى يجازيهم عليها ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بهلاك عاد ﴿بَجَيْنًا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ من الهلاك. وقيل: إنهم كانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي: بما أريناهم من الهدى والبيان، عن ابن عباس. وقيل: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي: بنعمة منا وهي النجاة، أي: أنجيناهم برحمة ليعلم أنه عذاب أريد به الكفار، لا اتفاق وقع ﴿وَبَجَيْنَتْنِمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: كما نجيناهم من عذاب الدنيا، نجيناهم من عذاب الآخرة، والغليظ: الثقل العظيم، ويحتمل أن يكون هذا صفة للعذاب الذي عذب به قوم هود. ثم ذكر سبحانه كفر عاد، فقال: ﴿وَتِلْكَ الْقَبِيلَةُ﴾ ﴿عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ﴾ يعني معجزات هود الدالة على صحة نبوته ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ إنما جمع الرسل وكان قد بُعث إليهم هود، لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل، ولأن هوداً كان يدعوهم إلى الإيمان به، وبمن تقدمه من الرسل، وبما أنزل عليهم من الكتب، فكذبوا بهم جميعاً، فلذلك عَصَوْهُمْ..

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: واتبع السفلة والسقاط الرؤساء. وقيل: إن الجبار من يقتل ويضرب على غضبه، والعنيد: الكثير العناد الذي لا يقبل الحق ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وأتبع عاداً بعد إهلاكهم في الدنيا بالإبعاد عن الرحمة، فإن الله تعالى أبعدهم عن رحمته. وتعبّد المؤمنين بالدعاء عليهم باللعن ﴿وَيَوْمَ الْفَيْصَةِ﴾ أي: وفي يوم القيامة يُبعدون عن رحمة الله، كما بعدوا في الدنيا عنها، ويُلعنون بأن يدخلوا النار، فإن اللعنة الدعاء بالإبعاد، من قولك: لعنة، إذا قال: عليه لعنة الله، وأصله الإبعاد من الخير. ﴿أَلَا﴾ ابتداء وتنبيه ﴿إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أراد بربهم، فحذف الباء، كما قالوا: أمرتك الخير، أي: بالخير ﴿أَلَا بَعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي: أبعدهم الله من رحمته، فبعدوا بعداً.



قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَفِرُّوه ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (٦١) ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٦٢) ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَهَلْ يَقْنَطُ مِنِّي أَن يَنْصُرَنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (٦٣) ﴿وَيَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٦٤) ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (٦٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَيْنًا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمًا ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة غير إسماعيل، والكسائي، والبرجمي، والشموني، عن أبي بكر، عن عاصم: ﴿ومن خزي يومئذ﴾ بفتح الميم ههنا ﴿عذاب يومئذ﴾ في المعارج، والباقون: بكسر الميم على الإضافة. وقرأ حمزة، وحفص، عن عاصم ويعقوب: ﴿ألا إن ثمود﴾ غير منون في جميع القرآن. وقرأ الباقر: ﴿ثموداً﴾ بالتونين ههنا، وفي الفرقان، والعنكبوت، والنجم، لأنه مكتوب بالألف في هذه المواضع. وأبو بكر عن عاصم يقرأ ﴿وَتَمُودَ﴾ في والنجم بغير تنوين، ويثون الباقي. وروى عنه البرجمي، ومحمد بن غالب، عن الأعشى، في والنجم بالتونين أيضاً. وقرأ الكسائي وحده: ﴿ألا بعداً لثمود﴾ بالجهر والتونين، والباقون: ﴿لِثَمُودَ﴾ بفتح الدال.

● **الحجة:** قال أبو علي: قوله: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يوم في قوله ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ ظرف، فتحت أو كسرت، في المعنى، إلا أنه اتسع فيه فجعل اسماً كما اتسع في قوله: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ﴾ فأضيف المكر إليهما، وإنما هو فيهما، فكَذلك العذاب والخزي والفرع في قوله: ﴿مِنْ فَرَجٍ يَوْمِئِذٍ﴾ أضيف إلى اليوم، والمعنى: على أن ذلك كله في اليوم، كما أن المكر في الليل والنهار، يدلك على ذلك قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ وقوله: ﴿لَا يَخْزُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ وقوله: ﴿فَفَرَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾.

وأما من كسر الميم من ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ فلأن يوماً اسم معرب، فأضيف إليه ما أضيف من العذاب والخزي والفرع، فأنجر بالإضافة. ولم يفتح ﴿يَوْمَ﴾ فتنبية لإضافته إلى المبنى، لأن المضاف منفصل من المضاف إليه ولا يلزمه الإضافة، فلما لم يلزم الإضافة المضاف لم يلزم فيه البناء، يدلك على ذلك، أنك تقول: ثوب خز، ودار زيد. فلا يجوز فيه إلا الإعراب، وإن كان الاسمان جعلا بمعنى الحرف فلم يلزمهما البناء، كما يلزم ما لا ينفك منه معنى الحرف، نحو: أين وكيف ومتى. فلما لم يبين المضاف للإضافة، وإن كان قد عمل عمل الحرف، من حيث كان غير لازم، كذلك لم يبين يوم للإضافة إلى إذ، لأن إضافته لم تلزم. كما لم يبين المضاف، وإن كان قد عمل في المضاف إليه بمعنى اللام أو بمعنى من، لما لم تلزم الإضافة.

وأما من فتح فقال: ﴿من عذاب يومئذٍ﴾، ﴿ومن خزي يومئذٍ﴾ فتح مع أنه في موضع جر، فلأن المضاف يكتسى من المضاف إليه التعريف، والتذكير، ومعنى الاستفهام، والجزاء، في نحو: غلام من تضرب؟، وغلام من تضرب أضربه، والنفي في نحو قولهم: ما أخذت باب دار أحد، فلما كان يكتسى من المضاف إليه هذه الأشياء، اكتسى منه الإعراب والبناء أيضاً إذا كان المضاف من الأسماء الشائعة، نحو: يوم وحين ومثل. ويشبه بهذا الشياخ الأسماء الشائعة المبنية، نحو: أين وكيف. ولو كان المضاف مخصوصاً، نحو: رجل وغلام، لم يكتس منه

البناء، كما اكتسب منه الأسماء الشائعة، فمما جاء من ذلك قوله:

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصُّبَا وَقُلْتُ: أَلَمْ أَضَحِ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ؟^(١)
ومن ذلك قوله: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَّا أَنتُمْ نَاطِقُونَ﴾ فمثل في موضع رفع في قول سيبويه،
وقد جرى وصفاً على النكرة، إلا أنه فتح للإضافة إلى ﴿مَّا﴾ ومن ذلك قول الشاعر:

وَتَدَاعَى مَذْخَرَاهُ بِلَدِّمِ مِثْلَ مَا أَثْمَرَ حُمَاضُ الْجَبَلِ^(٢)
لما أضاف مثل إلى المبني، وكان اسماً شائعاً، بناء ولم يعربه. وذهب أبو عثمان إلى أنه
جعل «مثلاً» مع «ما» بمنزلة اسم واحد، فبني «مثلاً» على الفتح، ولا دلالة قاطعة على هذا
القول في هذا البيت، وإن كان ما ذهب إليه مستقيماً.

فأما الكسرة في ﴿إِذْ﴾ فلالتقاء الساكنين، وذلك أن «إِذْ» من حكمها أن تضاف إلى الجملة
من الابتداء والخبر، فلما اقتطعت عنها الإضافة نُوتَتْ، ليدل التنوين على أن المضاف إليه قد
حذف، فكسرت الذال لسكونها وسكون التنوين.

وقال في صرف ﴿ثَمُودَ﴾ وترك صرفه: إن هذه الأسماء التي تجري على القبائل والأحياء
على ضروب:

أحدها: أن يكون اسماً للحي والأب.

والآخر: أن يكون اسماً للقبيلة.

والثالث: أن يكون الغالب عليه الأب أو الحي أو القبيلة.

والرابع: أن يستوي ذلك في الاسم فيجري على الوجهين، ولا يكون لأحد الوجهين مزية
على الآخر في الكثرة. فمما جاء على أنه اسم الحي قولهم: ثقيف وقريش. وكل ما لا يقال
فيه: بنو فلان.

وأما ما جاء اسماً للقبيلة فنحو تميم، قالوا: تميم بنت مر. قال سيبويه: سمعناهم
يقولون: قيس ابنة غيلان، وتميم صاحبة ذلك. وقالوا: تغلب ابنة وائل، قال:

لَوْلَا فَوَارِسُ تَغْلِبَ ابْنَةِ وَائِلٍ نَزَلَ الْعَدُوَّ عَلَيْكَ كُلِّ مَكَانٍ

وأما ما غلب عليه اسم الحي أو القبيلة، فقد قالوا: باهلة بن أعصر، وقالوا: أعصر وباهلة
اسم امرأة. قال سيبويه: ولكنه جعل اسم الحي. ومجوس، لم يجعل إلا اسم القبيلة. وتميم،
أكثرهم يجعله اسم القبيلة، ومنهم من يجعله اسم الأب.

فأما ما استوى فيه أن يكون اسماً للقبيلة، وأن يكون اسماً للحي، فقال سيبويه: هو،
ثمود وسبأ، فهما مرة للقبيلتين، ومرة للحيين، وكثرتهما سواء، قال: وعاداً وثموداً، وقال:
﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ وقال: ﴿وَعَائِنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ فإذا استوى في ثمود أن يكون مرة

(١) قائله النابغة الذبياني وذكره في (جامع الشواهد).

(٢) الحماض: نبت جبلي زهره أحمر شبه به الدم.

للقبيلة، ومرة للحى، فلم يكن لحمله على أحد الوجهين مزية في الكثرة، فمن صرف في جميع المواضع كان حسناً، ومن لم يصرف في جميع المواضع كان حسناً، وكذلك إن صرف في موضع ولم يصرف في موضع آخر، إلا أنه لا ينبغي أن يخرج عما قرأت به القراء، فإن القراءة سنة متبعة، ومن ذلك قول الشاعر:

كسا الله حيَّ تغلب ابنة وائل من اللؤم أظفاراً بطيئاً نُصولها

فقال: حيّ، ثم قال: ابنة وائل، فجمع بين الحي والقبيلة، وأما قوله:

أولئك أولى من يهود لمذحة إذا أنت يوماً قُلتها لم تُؤنب

فقد قامت الدلالة على أن يهود استعملت على أنها للقبيلة وليس للحى، في قوله: أولئك أولى من يهود، لأن يهود لو كان للحى لصرف، وأنشد أبو الحسن:

فَرَّتْ يَهُودُ وَأَسْلَمَتْ جِيرَانُهَا صَمِي، لَمَّا فَعَلَتْ يَهُودُ، صَمَام^(١)

وكذلك جاء في الحديث: «تُقسم يهود» ومثل يهود في هذا مجوس في قول الشاعر:

كنار مجوس تستعير استيعاراً^(٢)

ألا ترى أنه لو كان للحى دون القبيلة لانصرف.

● **اللغة: الإنشاء:** إيجاز ابتداء من غير استعانة بشيء من الأسباب، وأنشأ فلان حديثاً أو شعراً. والاستعمار: جعل القادر يعمر الأرض، كعمارة الدار، ومنه العُمري في الفقه، وهو أن يقول: أعطيتك هذه الدار عمري، أو عمرك. واللمس واللمس بمعنى، وفرق علي بن عيسى بينهما، بأن المس قد يكون بين جمادين، واللمس لا يكون إلا بين حيين، لما فيه من الإدراك. والجثوم: السقوط على الوجه. وقيل: هو القعود على الركبة. وغني بالمكان: إذا أقام به، والمغنى: المنزل، قال النابغة:

غَنِيْتُ بِذَلِكَ إِذْ هُمْ لَكَ جِيرَةٌ مِنْهَا بَعُظْفٍ رَسَالَةٍ، وَتَوَدُّ

وأصل الغنى: الاكتفاء، ومنه الغنى بالمال. والغناء بالمد: الصوت الذي يكتفى به، والغناء الاكتفاء بحال الشيء، ومنه: غني بالمكان لاكتفائه بالإقامة فيه.

● **الإعراب:** «أَرَيْتُمْ» لا مفعول له ههنا، لأنه معلق كما يعلق إذا دخل الجملة لأم الابتداء في مثل قوله: قد رأيت لزيد خير منك، فكذلك الجزء. وجواب «إن» الأولى الفاء، وجواب «إن» الثانية محذوف، وتقديره: إن عصيته فمن ينصروني، إلا أنه استغنى بالأول فلم

(١) قاله أسود بن يعفر، أحد شعراء العرب في الجاهلية، وكان من ندماء النعمان بن المنذر. وصمي صمام أي: أخرسي، ولا تستمعي لمن يطلب إليك الذهب والإنصراف. وهم يريدون: زيدي واشتدي.

(٢) وقيل «أحار أريك برقاً هب وهناً» وصدر البيت لامرئ القيس، وعجزه للتوأم اليشكري قاله حين نازعه امرؤ القيس في الشعر. وتفصيل القصة، وشرح لغات البيت في (اللسان) في مادة «مجلس» فراجع.

سورة هود

يظهر. و﴿مَنْ يَصُرِّي﴾ صورته صورة الاستفهام ومعناه النفي، فكأنه قال: فلا ناصر لي من الله إن عصيته، وإنما جاز إلغاء رأيت هنا، لأنها دخلت على جملة قائمة بنفسها، من جهة أنها تفيد لو انفردت عن غيرها، وهو يتعلق بمعناها دون تفصيل لفظها. وقوله: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ جواب النهي بالفاء، ولذلك نصبه، وتقديره: لا يقع منكم مسها بسوء فإن يأخذكم عذاب قريب، أي: فأخذ عذاب عاجل إياكم، و﴿أَنْتَ أَوَّلُ﴾ أصله: أيوم، قلبت الواو ياء وأدغمت الياء الأولى فيها.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ذلك قصة صالح، فقال: ﴿وَلِإِيَّائِكَ تَتَوَدَّ أَخَاهُمُ صَالِحًا﴾ وكان ثمود بوادي القرى، بين المدينة والشام، وكان عاد باليمن، عن الجبائي. ﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ صالح ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ مضى تفسيره. ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: ابتداء خلقكم من الأرض، لأنه خلق آدم من الأرض، ومرجع نسبكم إليه ﴿وَأَسْتَعِزَّزُ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عمار الأرض، بأن مكنتكم من عمارتها، وأحوجكم إلى السكنى فيها. وقيل: معناه وأعمارها لكم مدة إعماركم، من العمرى، عن مجاهد.

وقيل: معناه وأطال فيها أعماركم، عن الضحاك قال: وكانت أعمارهم من ألف سنة إلى ثلاثمائة سنة.

وقيل: معناه أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، من المساكن والزراعات وغرس الأشجار، وفي هذا دلالة على فساد قول من حرم المكاسب، لأنه سبحانه امتنَّ على عباده بأن مكَّنه من عمارة الأرض، ولو كان ذلك محرماً لم يكن لذلك وجه.

﴿فَأَسْتَغْفِرُهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: فاستغفروه من الشرك والذنوب، ثم دوموا على التوبة ﴿إِنَّ رَحْمَتِي قَرِيبٌ﴾ برحمته لمن وحده ﴿مُحِبٌّ﴾ لمن دعاه ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي: كنا نرجو منك الخير، لما كنت عليه من الأحوال الجميلة قبل هذا القول، فالآن يشنا منك ومن خيرك، بإبداعك ما أبدعت. وقيل معناه: كنا نرجوك ونظنك عوناً لنا على ديننا ﴿أَتَنْهَنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ استفهام معناه الإنكار، كأنهم أنكروا أن ينهي الإنسان عن عبادة ما عبده آبؤه ﴿وَلَنَا لَكَ شَكٌّ يَمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من الدين ﴿مُرِيبٌ﴾ موجب للريبة والتهمة، إذ لم يكن آبؤنا في جهالة وضلالة.

﴿قَالَ﴾ صالح لهم ﴿يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَرٍ مِنْ رَبِّي﴾ مرَّ بيانه فيما قبل، ﴿وَأَتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: وأعطاني الله منه نعمة، وهي النبوة ﴿فَمَنْ يَصُرِّي مِنْكَ اللَّهُ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ أي: فمن يمنع عذاب الله عني إن عصيته مع نعمته عليّ ﴿فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: ما تزيدوني بقولكم: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ غير نسبتي إياكم إلى الخسارة، والتخسير مثل التفسيق والتفجير. قال ابن الأعرابي: يريد غير تخسير لكم، لا لي. وقال ابن عباس: ما تزيدوني إلا بصيرة في خسارتكم. وقيل: معناه إن أجبتكم إلى ما تدعونني إليه كنت بمنزلة من يزداد الخسران. ﴿وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أشار إلى ناقته التي جعلها الله معجزته، لأنه سبحانه أخرجها لهم من جوف صخرة يشاهدونها على تلك الصفة، وخرجت كما طلبوها وهي حامل، وكانت تشرب يوماً جميع الماء فتنفرد به، ولا ترد الماء معها دابة، فإذا كان يوم ترد

فيه، وردت الواردة كلها الماء، وهذا أعظم آية ومعجزة، وانتصب ﴿ءَايَةً﴾ على الحال من ﴿تَأَنَّهُ اللَّهُ﴾ فكانه قال: انتبهوا إليها في هذه الحال. والمعنى: إن شككتكم في نبوتي فهذه الناقة معجزة لي، وأضافها إلى الله تشريفاً لها، كما يقال: بيت الله ﴿تَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي: فاتركوها في حال أكلها، فتكون ﴿تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال، ويجوز أن يكون مرفوعاً على الاستئناف، والمعنى: فإنها تأكل في أرض الله من العشب والنبات. ﴿وَلَا تَمْسُوها﴾ أي: لا تصيبوها ﴿يَسُوها﴾ قتل أو جرح أو غيره ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل فيهلككم ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: عقرها بعضهم، ورضي به البعض، وإنما عقرها أحمر ثمود، وضربت به العرب المثل في الشؤم، ﴿فَقَالَ﴾ صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: تلهذوا بما تريدون من المدركات الحسنة من المناظر والأصوات وغيرها، مما يدرك بالحواس في بلادكم، ثلاثة أيام ثم يحل بكم العذاب بعد ذلك. ويقال للبلاد: دار، لأنها تجمع أهلها كما تجمع الدار أهلها، ومنه قولهم: ديار ربيعة، وديار مضر. وقيل: في داركم يعني دار الدنيا، وقيل: معنى قوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ عيشوا في بلدكم. وعبر عن الحياة بالتمتع، لأن الحي يكون متمتعاً بالحواس. قالوا: لما عقرت الناقة صعد فصيلها الجبل، ورغاً ثلاث مرات، فقال صالح: لكل رغبة أجل يوم. فاصفرت ألوانهم أول يوم، ثم احمرت في الغد، ثم اسودت لليوم الثالث، فهو قوله: ﴿ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: إن ما وعدتكم به من العذاب ونزوله بعد ثلاثة أيام وعد صدق لا كذب فيه.

وروى جابر بن عبد الله الأنصاري: أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك، قام فخطب الناس وقال: يا أيها الناس! لا تسألوا نبيكم الآيات، فهؤلاء قوم صالح سألوها نبيهم أن يبعث لهم الناقة، وكانت ترد من هذا الفج، فتشرب ماءهم يوم ورودها، ويحلبون من لبنها مثل الذي كانوا يشربون من مائها يوم غبها^(١). فعتوا عن أمر ربهم، فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾، وكان وعداً من الله غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة، فأهلك الله من كان في مشارق الأرض ومغاربها منهم، إلا رجلاً كان في حرم الله، فمنعه حرم الله من عذاب الله تعالى، يقال له: أبو رغال، قيل له: يا رسول الله! من أبو رغال؟ قال: أبو ثقيف.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَلَاحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ مرّ تفسيره في قصة عاد. ﴿وَمِنْ جَزَائِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: من الخزي الذي لزمهم ذلك اليوم، والخزي: العيب الذي تظهر فضيخته، ويستحي من مثله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ﴾ أي: القادر على ما يشاء ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنع عليه شيء، ولا يُمنع عما أَراده ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ قيل: إن الله سبحانه أمر جبرائيل فصاح بهم صيحة ماتوا عندها، ويجوز أن يكون الله تعالى خلق تلك الصيحة التي ماتوا عندها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ أي: منازلهم ﴿جَثِيئِينَ﴾ أي: ميتين واقعين على وجوههم، يقال: جاثمين: أي قاعدين على ركبهم، وإنما قال: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ لأن العذاب أخذهم عند الصباح.

(١) الغب - بالكسر - من أورد الإبل أن ترد الماء يوماً، وتدعه يوماً، ثم تعود.

وقيل: أنتهم الصيحة ليلاً فأصبحوا على هذه الصفة، والعرب تقول عند الأمر العظيم: وأسوء صباحاه! ﴿كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا﴾ أي: كأن لم يكونوا في منازلهم قط، لانقطاع آثارهم بالهلاك، إلا ما بقي من أجسادهم الدالة على الخزي الذي نزل بهم ﴿أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُدَا لَتَمُودَ﴾ قد سبق تفسيره.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ يَعْجَلُ خَبِيرٌ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَابِئَةُ فَضَحِكَتْ فَلَبِثَتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُولىءُ أَيْدِيَّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُونَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَذَكَّرُ لَهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَالِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة، والكسائي: ﴿سلم﴾ بكسر السين وسكون اللام هنا وفي الذاريات. وقرأ الباقون: ﴿قَالَ سَلَمٌ﴾. وقرأ: ﴿يَعْقُوبُ﴾ بالنصب ابن عامر، وحمزة، وحفص، عن عاصم. وقرأ الباقون: ﴿يعقوب﴾ بالرفع. وفي الشواذ قراءة الأعمش: ﴿وهذا بعلي شيخ﴾ بالرفع.

● **الحجة:** قال أبو علي: أخبر أبو إسحاق، عن محمد بن يزيد قال: السلام أربعة أشياء، منها مصدر سَلِمْتُ، والسلام شجر، قال:

«إِلَاسْلَامٌ وَحَرْمَلٌ»^(١)

والسلام: جمع سلامة. والسلام: اسم من أسماء الله تعالى. وقوله: ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ يحتمل أن تكون مضافة إلى الله تعظيماً لها، ويحتمل أن يكون دار السلامة من العقاب، فمن حصل فيها كان على خلاف من وصف بقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾.

وأما انتصاب قوله: ﴿سَلَمًا﴾ فلأنه لم يحك شيئاً تكلموا به، فيحكي كما يحكي الجمل، ولكن هو معنى ما تكلمت به الرسل. كما أن القائل إذا قال: لا إله إلا الله، فقلت: حقاً، أو قلت: إخلاصاً، أعملت القول في المصدرين، لأنك ذكرت معنى ما قال، ولم تحك نفس الكلام الذي هو جملة تُحكى. فكذلك نصب سلاماً في قوله: ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾ لما كان في معنى ما قيل، ولم يكن نفس المقول بعينه، فأما قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ قال

(١) هذا جزء من بيت الأخطل وقد مر.

سيبويه: زعم أبو الخطاب أن مثله، يريد مثل قولك: سبحان الله، الذي تفسيره براءة الله من السوء، قولك للرجل: سلاماً، تريد: مسلماً منك، لا أبتلي بشيء من أمرك، فعلى هذا المعنى وجه ما في الآية، قال: وزعم أن قول أمية:

سَلامَكَ رِيْناً في كُلِّ فَجْرِ بَريئاً ما يُعَيِّبُكَ الذُّمُّومُ^(١)

على قوله: براءتك ربنا من كل سوء. وأما قوله: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ فسلام مرفوع، لأنه من جملة الجملة المحكية، والتقدير فيه: سلام عليكم، فحذف الخبر كما حذف من قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: صبر جميل أمثل. أو يكون المعنى: أمري سلام، وشأني سلام، كما أن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يصلح أن يكون المحذوف منه المبتدأ، ومثل ذلك قوله: ﴿فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ على حذف المبتدأ الذي ﴿سَلَامٌ﴾ خبره.

وأكثر ما يستعمل ﴿سَلَامٌ﴾ بغير ألف ولام، وذلك لأنه في معنى الدعاء، فهو مثل قولهم: خَيْرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، ولما كان في معنى المنصوب استجيز فيه الابتداء بالنكرة، فمن ذلك قوله: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَحْمَةً﴾ وقال: ﴿وَالْمَلَكُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْمَلَكَيْنِ﴾، ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وقد جاء بالألف واللام قال سبحانه: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْمُدَّثِّرِ﴾، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ﴾ وزعم أبو الحسن أن في العرب من يقول: سلام عليكم، ومنهم من يقول: السلام عليكم، فالذين ألحقوا الألف واللام حملوه على المعهود، والذين لم يلحقوه حملوه على غير المعهود، وزعم أن منهم من يقول: سلامٌ عليكم، فلا ينون، وحمل ذلك على وجهين:

أحدهما: إنه حذف الزيادة من الكلمة، كما يحذف الأصل من نحو قولك: لم يك، ولا أدر، ويوم يأت.

والآخر: إنه لما كثر استعمال هذه الكلمة وفيه الألف واللام، حذفها منه لكثرة الاستعمال، كما حذفها من اللهم، فقالوا:

لَا هُمْ إِنْ عَامَرَ الْفُجُورِ قَدْ حَبَسَ الْخَيْلَ عَلَى يَعمُورٍ^(٢)

وأما من قال: سلّم، فإن سلماً يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون بمعنى سلام. فيكون المعنى: أمرنا سلّم، أو سلّم عليكم. ويكون سلّم في الآية بمعنى سلام، كقولهم: حلّ وحلال، وحزم وحرام، فيكون على هذا قراءة من قرأ «سلام وسلّم» بمعنى واحد وإن اختلف اللفظان.

والآخر: أن يكون سلّم خلاف العدو والحرب، لأنهم لما كفوا عن تناول ما قدمه إليهم

(١) وفي اللسان «تعتك» مكان «بعيك» والذموم العيوب.

(٢) اليعمور: الجدوى.

فَنَكْرَهُمْ، وَأَوْجَسَ الْخِيفَةَ مِنْهُمْ، قَالَ: أَنَا سَلِمَ وَلَسْتُ بِحَرْبٍ وَلَا عَدُوٍّ، فَلَا تَمْتَنِعُوا مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامِي، كَمَا يُمْتَنَعُ مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامِ الْعَدُوِّ.

وَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ بِالرَّفْعِ، كَانَ رَفْعُهُ بِالْإِبْتِدَاءِ، أَوْ بِالظَّرْفِ فِي قَوْلِ مَنْ رَفَعَ بِهِ.

وَمَنْ فَتَحَ فَقَالَ: ﴿يَعْقُوبُ﴾، احْتَمَلَ ثَلَاثَةَ أَضْرَبٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ ﴿يَعْقُوبُ﴾ فِي مَوْضِعِ جَرٍّ، أَيِ: فَبَشَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. قَالَ أَبُو الْحَسَنِ: وَهَذَا أَقْوَى لِأَنَّهَا بَشَرَتْ بِهِمَا، قَالَ، وَفِي إِعْمَالِهَا ضَعْفٌ، لِأَنَّكَ فَصَلْتَ بَيْنَ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ بِالظَّرْفِ.

وَالْآخَرُ: أَنْ تَحْمِلَهُ عَلَى مَوْضِعِ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ، كَقَوْلِهِ:

«إِذَا مَا تَلَّاقَيْنَا مِنَ الْيَوْمِ أَوْ غَدًا»

وَكَقِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: «وَحُورًا عَيْنًا» بَعْدَ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ بِكَذَا. وَمِثْلُهُ:

وَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ

وَالثَّلَاثُ: أَنْ يَحْمَلَ عَلَى فِعْلِ مَضْمُورٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَبَشَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَعْقُوبَ. فَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَقَدْ نَصَّ سَيِّبُوهُ عَلَى فَتْحِ مِثْلِهِ، نَحْوُ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ أَوَّلَ مَنْ أَمْسَ، وَأَمْسَ عَمْرُو. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ: لَوْ قُلْتُ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ الْيَوْمَ، وَأَمْسَ عَمْرُو، لَمْ يَحْسَنَ.

وَأَمَّا الْحَمْلُ عَلَى الْمَوْضِعِ، عَلَى حَدِّ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ وَعَمْرُو، فَالْفَصْلُ فِيهِ أَيْضًا قَبِيحٌ، كَمَا قَبِحَ الْحَمْلُ عَلَى الْجَرِّ، وَذَلِكَ أَنَّ الْفِعْلَ يَصِلُ بِحَرْفِ الْعَطْفِ، وَحَرْفِ الْعَطْفِ هُوَ الَّذِي يَشْرِكُ فِي الْفِعْلِ، وَبِهِ يَصِلُ الْفِعْلُ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، كَمَا يَصِلُ بِحَرْفِ الْجَرِّ. وَلَوْ قَالَ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ قَائِمًا، بِجَعْلِ الْحَالِ مِنَ الْمَجْرُورِ لَمْ يَجْزِ التَّقْدِيمُ عِنْدَ سَيِّبُوهُ، لِأَنَّ الْجَارَ هُوَ الْمَوْصِلُ لِلْفِعْلِ. فَكَمَا قَبِحَ التَّقْدِيمُ عِنْدَهُ لَضَعْفِ الْجَارِ الْعَامِلِ، كَذَلِكَ الْحَرْفُ الْعَاطِفُ مِثْلُ الْجَارِ، فِي أَنَّهُ يَشْرِكُ فِي الْفِعْلِ، كَمَا يَوْصِلُ الْجَارُ الْفِعْلَ، وَلَيْسَ نَفْسُ الْفِعْلِ الْعَامِلُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ جَمِيعًا، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، قَبِحَ الْفَصْلُ بِالظَّرْفِ فِي الْعَطْفِ عَلَى الْمَوْضِعِ، وَقَبِحَ أَيْضًا الْفَصْلُ فِي الرَّفْعِ وَالنَّصَبِ، كَمَا قَبِحَ فِي الْجَرِّ، لِأَنَّ الْعَاطِفَ فِيهِمَا مِثْلُهُ فِي الْجَارِ، وَلَيْسَ الْعَامِلُ نَفْسُ الرَّافِعِ وَالنَّاصِبِ، كَمَا أَنَّ الْعَامِلَ فِيهِمَا بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ لَيْسَ الْجَارُ، إِنَّمَا يَشْرِكُهُ فِيهِ الْعَاطِفُ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي الشَّعْرِ، قَالَ الْأَعَشَى:

يَوْمًا تَرَاهَا كَشِبْنَهُ أَزْدِيَّةَ الْخِمْسِ سِ، وَيَوْمًا أَدِيمُهَا نَفْلًا^(١)

فَفَصْلُ بِالظَّرْفِ بَيْنَ الْمَشْتَرَكِ فِي النَّصَبِ وَمَا أَشْرَكَهُ فِيهِ، فَإِذَا قَبِحَ الْفَصْلُ فِي الْحَمْلِ عَلَى الْمَوْضِعِ، كَمَا قَبِحَ الْفَصْلُ فِي الْحَمْلِ عَلَى الْجَارِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَحْمَلَ قِرَاءَةً مِنْ قَرَأَ: ﴿يَعْقُوبُ﴾

(١) فِي اللِّسَانِ «أَرْدِيَّةُ الْعَصْبِ»، وَالْخَمْسُ وَالْعَصْبُ: ضَرْبَانِ مِنْ بَرُودِ الْيَمَنِ. وَالنَّفْلُ: الْأَدِيمُ الْفَاسِدُ.

بالنصب، على فعل آخر مضمّر، يدل عليه «بشرنا» كما تقدم، ولا يحمل على الوجهين الآخرين.
وأما الرفع في قوله: ﴿شَيْخٌ﴾ ففيه وجوه:

أحدها: أن يكون ﴿بَعْلِي﴾ خبر المبتدأ، و ﴿شَيْخٌ﴾ بدل من ﴿بَعْلِي﴾ فيكون كأنه قال: هذا شيخ.

والآخر: أن يكون ﴿شَيْخٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويكون ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ كلاماً تاماً يحسن الوقف عليه.

والثالث: أن يكون ﴿بَعْلِي﴾ بدلاً من ﴿هَذَا﴾ و ﴿شَيْخٌ﴾ هو الخبر، فيكون تقديره: بعلي شيخ.

والرابع: أن يكون ﴿بَعْلِي﴾ و ﴿شَيْخٌ﴾ جميعاً خبراً عن ﴿هَذَا﴾ كقولك: هذا حلو حامض، أي: قد جمع الحلاوة والحموضة. فكذلك ههنا تقديره: هذا جمع البعولة والشيخوخة.

قال ابن جني: وهنا وجه خامس، لكنه على قياس مذهب الكسائي، وذلك أنه يعتقد في خبر المبتدأ أبدأ، أن فيه ضميراً، وإن لم يكن مشتقاً من الفعل، نحو: زيد أخوك، وهو يريد النسب، فإذا كان كذلك، فقياس مذهبه أن يكون ﴿شَيْخٌ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿بَعْلِي﴾، لأنه خبر عن ﴿هَذَا﴾.

● **اللغة:** العجل: ولد البقرة، والعَجُول لغة فيه، وجمعه: العجاجيل. وسمي بذلك لتعجيل أمره بقرب ميلاده. والحنيد: المشوي، وهو المحتوذ. فعيل بمعنى مفعول، يقال: حَنَدَه يحنّده حنْداً، قال العجاج:

«وَرَهَباً مِنْ حَنْدِهِ أَنْ تَهْرَجَا»^(١)

يعني الحمر الوحشية. قال الزجاج: الحنيد: المشوي بالحجارة. وقيل: الحنيد: المشوي حتى يقطر. والعرب تقول: اخْنَدَ هذا الفرس، أي: اجعل عليه الحبل حتى يقطر عرقاً. وقيل: الحنيد: المشوي فقط. وقيل: هو السميّط. ويقال: نكرته وأنكرته بمعنى واحد، ونكرته أشد مبالغة، وهي لغة هذيل والحجاز، وأنكرته لغة تميم، قال الأعشى: وجمع بين اللغتين:

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتُ مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ، وَالصَّلْعَا

وقال أبو ذؤيب:

فَنَكِرْتَهُ فَنَفَرْنَ فَاثَرَسَتْ بِهِ هَوَجَاءُ هَادِيَةً، وَهَادٍ جُرْشَعٌ^(٢)

(١) وقبلة: «حتى إذا ما الصيف كان أمجا». والرهب من النوق: الضامرة. وهرج البعير: سدر من شدة الحر.

(٢) امترس به أي: احتك به. والهوجاء: الناقة القوية. والهادية: المتقدمة. والجُرْشَع. الطويل من الإبل. يصف

صائداً وإن حمر الوحش قربت منه بمنزلة من يحتك بالشيء.

والإيجاس: الإحساس، وأوجس وتوجَّس، أي: أحس. قال ذو الرمة:

وقد توجَّس ركزاً مُغْفِرٌ نَدَسٌ بِنَبَأِ الصَّوْتِ ما في سَمْعِهِ كَذِبٌ^(١)

ويقال: أوجس خوفاً، أي: أضمر. والبعل: الزوج، وأصله القائم بالأمر، يقولون للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون: بعل، لأنه قائم بالأمر في استغناؤه عن تكلف السقي له، ومنه قيل للرب والصاحب: بعل. والعجب: يجري على المصدر، وعلى المتعجب منه، تقول: هذا أمر عَجَب، ولا يجوز العجب من أمر الله تعالى، لأنه يجب أن يُعلم أنه قادر على كل شيء من الأجناس، لا يعجزه شيء، وما عرف سببه لا يتعجب منه. والمجيد: الكريم، يقال: مَجَّدَ الرجل يَمْجِدُ مجادة إذا كرم، قال الشاعر:

رَفَعْتُ مَجْدَ تَمِيمٍ يا هِلَالَها رَفَعَ الطَّرَافِ على العِلْيَاءِ بِالْعَمِدِ^(٢)

والرُوع: الإفزع، يقال: راعه يروعه، إذا أفزعه، قال عنترة:

ما راعَنِي إلا حَمُولَةُ أَهْلِها وَسَطَ الدِّيارِ تَسْفُ حَبِّ الخِمْمِ^(٣)

وارتاع ارتباعاً إذا خاف، والرُّوع، بضم الراء: النفس، يقال: أُلقي في روعي، أي: في نفسي، وسميت بذلك لأنها موضع الرُّوع. والرد والدفع واحد، ونقيضه الأخذ، والفرق بين الرد والدفع: إن الدفع قد يكون إلى جهة القدم والخلف، والرد لا يكون إلا إلى جهة الخلف.

● الإعراب: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ﴾ أي: ما أقام حتى جاء بعجل، و ﴿أَنْ جَاءَ﴾ في موضع نصب بوقوع ﴿لَيْتَ﴾ عليه. كأنه قال: فما أبطأ عن مجيئه بعجل، فلما حذف حرف الجر وصل الفعل. وقال الفراء: ويحتمل أن يكون موضعه رفعاً، بأن نجعل ﴿أَنْ جَاءَ﴾ فاعل ﴿لَيْتَ﴾ فكأنك قلت: فما لبث مجيئه بعجل. وألف ﴿يَوَلَّيْتُ﴾ يحتمل أن يكون ألف ندبة، ويحتمل أن يكون ياء الإضافة فانقلبت ألفاً، ومعناه: الإيذان بورود الأمر العظيم. كما تقول العرب: يا للدواهي. أي: تعالى، فإنه من أحيانك لحضور ما حضر من أشكالك. ويجوز الوقف عليه بغير هاء، والاختيار في الكلام أن يوقف عليه بالهاء: «يا ويلتاه» قال الزجاج: أما المصحف فلا يخالف ولا يوقف عليه، فإن اضطر واقف إلى أن يقف وقف عليه بغير هاء بالاختيار.

وأما الهمزتان في قوله: ﴿ءَالِدٌ﴾ ففيه ثلاثة أوجه:

إن شئت خففت الأولى وحققت الثانية، فقلت: يا ويلتي ﴿ءَالِدٌ﴾.

وإن شئت حققت الأولى وخففت الثانية وهو الاختيار، فقلت: يا ويلتي ﴿ءَالِدٌ﴾.

وإن شئت حققتهما جميعاً فقلت: ﴿ءَالِدٌ﴾. و ﴿شَيْعًا﴾: منصوب على الحال. قال الزجاج: الحال ههنا نصبها من لطيف النحو، وذلك أنك إذا قلت: هذا زيد قائماً، فإن كنت

(١) الركن: الصوت الخفي. والمغفر: ولد الوعل وهو تيس الجبل. وندس أي: فطن.

(٢) الطراف: بيت من آدم ليس له كفاء.

(٣) الخمخم: نبات تغلف به الإبل.

تقصد أن تخبر من لا يعرف زيداً أنه زيد، لم يجوز أن تقول: هذا زيد قائماً، لأنه يكون زيداً ما دام قائماً، فإذا زال عن القيام فليس بزيد، وإنما تقول للذي يعرف زيداً: هذا زيد قائماً، فيعمل في الحال التنبيه، والمعنى: انتبه لزيد في حال قيامه، أو أشير لك إلى زيد في حال قيامه، لأن هذا إشارة إلى ما حضر.

وقال غيره: إن شئت جعلت العامل فيه معنى التنبيه، وإن شئت جعلت العامل فيه معنى الإشارة، وإن شئت أعملت فيه مجموعهما، وكذا ما جرى مجراه، تقول: هذا زيد مقبلاً، ولا يجوز: مقبلاً هذا زيد، لأن العامل ليس بفعل محض، فإن قلت: ها مقبلاً ذا زيد، وجعلت العامل معنى الإشارة لم يجوز، وإن جعلت العامل معنى التنبيه جاز.

﴿يَجِدُونَا﴾ في موضع نصب، لأنه حكاية حال قد مضت، وإلا فالجيد أن تقول: لمّا قام قمت، ويضعف أن تقول: لمّا قام أقوم، وعلى هذا فيكون جواب لمّا محذوفاً، لدلالة الكلام عليه، ويكون تقديره: قلنا: إن إبراهيم لحليم، أو نادينا به إبراهيم أعرض عن هذا، ويجوز أن يكون تقديره: أخذ يجادلنا، وأقبل يجادلنا، ويجوز أن يكون، لما كان شرطاً للماضي وقع المستقبل فيه، في معنى الماضي، كما أن «إن»، لما كان شرطاً للمستقبل وقع الماضي فيه، في معنى المستقبل.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم ولوط، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ يعني الملائكة، وإنما دخلت اللام لتأكيد الخبر، ومعنى ﴿قَدْ﴾ ههنا أن السامع لقصاص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة، و ﴿قَدْ﴾ للتوقع. فجاءت لتؤذن أن السامع في حال توقع، واختلف في عدد الرسل، ف قيل: كانوا ثلاثة: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، عن ابن عباس. وقيل: كانوا أربعة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: والرابع اسمه كرويل. وقيل: كانوا تسعة، عن الضحاك. وقيل: أحد عشر، عن السدي. وكانوا على صور الغلمان، أتوا ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام ﴿بِالْبَشَرِ﴾ أي بالبشارة بإسحاق ونبوته، وأنه يولد له يعقوب، عن الحسن، والسدي، والجبائي. وروي عن أبي جعفر عليه السلام: أن هذه البشارة كانت بإسماعيل عليه السلام من هاجر. وقيل: البشارة بهلاك قوم لوط.

﴿قَالُوا سَلَامٌ﴾ هذه حكاية ما قال رسول الله تعالى لإبراهيم عليه السلام، أي: سلمنا سلاماً، بمعنى الدعاء له. وقيل: معناه أصبت سلاماً إذا أعطاك الله سلاماً، أي: سلامة، كما يقال: أهلاً ومرحباً، وكان تحية من الملائكة لإبراهيم عليه السلام ﴿فَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام مجيباً لهم ﴿سَلَامٌ﴾ وقد مرّ تفسيره ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ أي: لم يتوقف حتى جاءهم على عادته في إكرام الأضياف، وتقديم الطعام إليهم بعجل مشوي، لأنه توهم أنهم أضياف لكونهم على صورة البشر، وكان إبراهيم يحب الضيفان، فجاءوه على أحسن الوجوه إليه، وصار لذلك من السنة أن يعجل للضيف الطعام. وقيل: إن معنى حنيز: نضيج بالحجارة المحممة في خد من الأرض، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: إن الحنيز ما حفرت له في الأرض ثم غمته، وهو فعل أهل البادية، عن الفراء. وقيل: حنيز: مشوي يقطر ماؤه، عن ابن عطية.

سورة هود

﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ يعني أيدي الملائكة ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى العجل ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضمر منهم خوفاً.

واختلف في سبب الخوف، فقيل: إنه لما رآهم شباناً أقوياء، وكان ينزل طرفاً من البلد، وكانوا يمتنعون عن تناول طعامه، لم يأمن أن يكون ذلك لبلاء، وذلك أن أهل ذلك الزمان، إذا أكل بعضهم طعام بعض آمنه صاحب الطعام على نفسه وماله، ولهذا يقال: تحرم فلان بطعامنا، أي: أثبت الحرمة بيننا بأكله الطعام.

وقيل: إنه ظنهم لصوصاً يريدون به سوءاً. وقيل: إنه ظن أنهم ليسوا من البشر، وأنهم جاؤوا لأمر عظيم.

وقيل: علم أنهم ملائكة، فخاف أن يكون قومه المقصودين بالعذاب حتى ﴿قَالُوا﴾ له ﴿لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْراً لُوطاً﴾ بالعذاب والإهلاك، لا إلى قومك.

وقيل: إنهم دعوا الله فأحيا العجل الذي كان ذبحه إبراهيم وشواه، فطفر ورعى، فعلم حينئذ أنهم رسل الله ﴿وَأَمْرًا تَنْتَهِ﴾ سارة بنت هاران بن ياحور بن ساروع بن ارعوى بن فالغ، وهي ابنة عم إبراهيم ﴿قَائِمَةً﴾ من وراء الستر تسمع كلام الرسل وكلام إبراهيم، عن وهب. وقيل: إنها كانت بنت خالته. وقيل: كانت قائمة تخدم الرسل وإبراهيم جالس معهم، عن مجاهد. وقيل: كانت قائمة تصلي، وكان إبراهيم جالساً، وفي قراءة ابن مسعود: وامرأته قائمة وهو جالس ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قيل: هو الضحك المعروف الذي يعتري الإنسان للفرح، وقد يكون للعجب، فضحكت تعجباً من غفلة قوم لوط مع قرب نزول العذاب بهم، عن قتادة. وقيل: تعجباً من امتناعهم عن الأكل، وخدمتها إياهم بنفسها. ولهذا يقال: وشراً الشدائد ما يضحك. وقالت: عجباً لأضيافنا، نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يتناولون من طعامنا. وقيل: ضحكت لأنها قالت لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أختك إليك، فإني أعلم أنه سينزل بهؤلاء القوم عذاب. فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت، عن الزجاج. وقيل: تعجباً وسروراً من البشارة بإسحاق، لأنها كانت قد هربت وهي ابنة ثمان وتسعين سنة، أو تسع وتسعين سنة، وكان قد شاخ زوجها، وكان ابن تسع وتسعين أو مائة سنة. وقيل: مائة وعشرين سنة، ولم يرزق لهما ولد في حال شبابهما، وعلى هذا فيكون في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: فبشرناها بإسحاق ويعقوب فضحكت بعد البشارة. وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ أي: بابن يسمى إسحاق نبياً ﴿وَيَسَّاءَ﴾ يعني يعقوب ﴿يَعْقُوبَ﴾ يعني ومن عد إسحاق يعقوب. وقيل: الورا ولد الولد، عن ابن عباس، أي: فبشرناها بنبي بين نبين، وهو إسحاق، أبوه نبي وابنه نبي. وقيل: إن ﴿فَضَحِكَتْ﴾ بمعنى حاضت، عن مجاهد. وروي عن الصادق عليه السلام أيضاً، يقال: ضحكت الأرنب، أي: حاضت. والضحك، بفتح الصاد، الحيض. وفي لغة أبي الحرث بن كعب: ضحكت النخلة إذا أخرجت الطلع أو البسر، والضحك الطلع. وأنشد بعضهم في الضحك بمعنى الحيض، قول الشاعر:

وَضَحَكُ الْأَرَانِبِ فَوْقَ الصُّفَا كَمَثَلِ دَمِ الْجَوْفِ يَوْمَ اللَّقَا
قال الفراء: ولم أسمعه من ثقة. والوجه فيه أن يكون على طريق الكناية، قال الكميت:

فَأَضْحَكَ السَّبَاعُ سَيْوْفُ سَعْدٍ لِقَتَلَى مَا دُفِنَ وَلَا وُدَيْنَا^(١)

﴿قَالَتْ﴾ سارة ﴿يَوْنَتَلَيْ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ أي: هذا شيء عجيب، أن ألد وقد شخت من زوج شيخ، ولم تشك في قدرة الله تعالى، ولكن إنما قالت ذلك لكونه خارجاً عن العادة. كما ولى موسى مديراً حين انقلبت عصاه حية، حتى قيل له: «أقبل ولا تخف» وإلا فهي كانت عارفة بأن الله تعالى يقدر على ذلك، ولم ترد بقولها: ﴿يَوْنَتَلَيْ﴾ الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تجري على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يتعجبون منه. وقيل: إنها لم تتعجب من قدرة الله، ولكنها أرادت أن تعرف: هل تتحول شابة أم تلد على تلك الحال؟ وكل ذلك عجيب ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ أي: هذا الذي تعرفونه بعلي وهو شيخ ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي بُشِّرَتْ به ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا﴾ أي: قالت الملائكة لها حين تعجبت من أين تلد بعد الكبر ﴿أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ومعنى الاستفهام ههنا التنبيه والتوقيف، أي: أتعجبين من أن يفعل الله تعالى ذلك بك ولزوجك؟

﴿رَحِمَتْهُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: ليس هذا موضع تعجب، لأن التعجب إنما يكون من الأمر الذي لا يعرف سببه، ونعمة الله تعالى وكثرة خيراته النامية الباقية عليكم، وهذا يحتمل أن يكون إخباراً عن ثبوت ذلك لهم، وتذكيراً بنعمة الله وبركاته عليهم. ويحتمل أن يكون دعاء لهم بالرحمة والبركة من الملائكة، فقالوا: رحمة الله وبركاته عليكم يا أهل البيت، كما يقال: أتعجب من كذا، بارك الله فيك، ويرحمك الله؟ ويعني بأهل البيت: أهل بيت إبراهيم عليه السلام، وإنما جعلت سارة من أهل بيته لأنها كانت ابنة عمه، ولا دلالة في الآية على أن زوجة الرجل من أهل بيته على ما قاله الجبائي.

وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام مرَّ بقوم فسلم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ومغفرته ورضوانه، فقال عليه السلام لهم: لا تتجاوزوا بنا ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ أي: محمود على أفعاله. وقيل: الحميد الذي يحمد عباده على الطاعات ﴿مُجِيدٌ﴾ أي: كريم وهو المبتدئ بالعطية قبل الاستحقاق. وقيل: معناه واسع القدرة والنعمة، عن أبي مسلم. وروي أن سارة قالت لجبرائيل عليه السلام: ما آية ذلك؟ فأخذ بيده عوداً يابساً فلوّاه بين أصابعه فاهتز أخضر، عن السدي ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي: الخوف والفرع الذي دخله من الرسل ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى﴾ بالولد ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: يجادل رسلنا ويسألهم في قوم لوط، وتلك المجادلة أنه قال لهم: إن كان فيها خمسون من المؤمنين، أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، فما زال ينقص ويقولون: لا، حتى قال: فواحد، قالوا: لا، فاحتج عليهم بلوط، وقال: إن فيها لوطاً،

(١) وفي اللسان «واضحكت الضباع اه». وودى القاتل القتيل: أعطى وليه دية. ورد ابن دريد وغيره أن يكون الضحك في هذا الشعر بمعنى الحيز. وقالوا: إنما أراد الشاعر أنها تكشر لأكل اللحوم. أو أنها تستبشر بالقتلى إذا اكلتهم فيهر بعضها على بعض. فجعل السورر ضحكاً كتسمية العنب خمرأ.

سورة هود

قالوا: نحن أعلم بمن فيها لِنُنَجِّيَهُ وَأَهْلَهُ، عن قتادة. وقيل: إنه جادلهم وقال: بأي شيء استحقوا عذاب الاستئصال؟ وهل ذلك واقع لا محالة أم هو تخويف ليرجعوا إلى الطاعة؟ وبأي شيء يهلكون؟ وكيف ينجي الله المؤمنين؟، عن الجبائي. ولما سألهم سؤال مستقص سمي ذلك السؤال جدالاً، لأنه خرج مخرج الكشف عن شيء غامض. ﴿إِنَّ إِلَٰهَهُمْ لَعَلِيمٌ أَوْهٗ﴾ مرّ معناه في سورة البراءة.

﴿مُنِيبٌ﴾ راجع إلى الله تعالى في جميع أموره، متوكل عليه. وفي هذا إشارة إلى أن تلك المجادلة من إبراهيم عليه السلام لم تكن من باب ما يكره، لأنه مدحه بالحلم، وبأن ذلك كان في أمر يتعلق بالرحمة ورقة القلب والرأفة، وذلك لأنه رأى الخلق الكثير في النار فتأوه لهم ﴿يَا بَرَّاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ هو حكاية ما قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام، فإنها نادته بأن قالت: يا إبراهيم أعرض عن هذا القول، وهذا الجدال في قوم لوط وانصرف عنه بالذكر والفكر ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب، فهو نازل بهم لا محالة ﴿وَأَنبَأَهُمُ عَذَابُ عِزِّ رَبِّهِمْ﴾ يعني غير مدفوع عنهم، أي: لا يقدر أحد على رده عنهم.



قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَٔ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يُهَرِّغُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَعِيفِ الْأُنثَىٰ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۖ ۞٧٨﴾ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۖ ۞٧٩﴾ ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي يَدْرِي قُوَّةَ أُو۟ءَاكِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۖ ۞٨٠﴾ ﴿قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُؤُسُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْبُثْ مِنْكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۖ ۞٨١﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ ۖ ۞٨٢﴾ ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۖ ۞٨٣﴾

● القراءة: في الشواذ قراءة سعيد بن جبير، والحسن، بخلاف وعيسى الثقفي، ومحمد بن مروان: ﴿هن أطهر لكم﴾ بالنصب، والقراءة المشهورة ﴿أطهر﴾ بالرفع. وقراءة شيبة: ﴿أو ءاوى﴾ بالنصب، والقراءة العامة بالرفع. وقرأ أهل الحجاز: ﴿فاسر بأهلك﴾ «وأن اسر» موصولة الهمز، والباقون: ﴿فاسر﴾ «وأن اسر» بقطع الهمزة العامة حيث كان. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إلا امرأتك﴾ بالرفع، والباقون: بالنصب.

● الحجة: أما قوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فإن سيبويه ضعف هذه القراءة، وقال فيها: اجتبى ابن مروان في الجنة. قال ابن جني: وإنما قبح ذلك عنده لأنه ذهب إلى أنه جعل ﴿هُنَّ﴾ فصلاً، وليست بين أحد الجزأين اللذين هما مبتدأ وخبر، ونحو ذلك نحو: ظننت زيدا هو خيراً منك، وكان زيد هو العالم، ويجوز أن يكون ﴿بَنَاتِي هُنَّ﴾ جملة من مبتدأ وخبر في موضع

الخبر لـ ﴿هُؤُلَاءِ﴾ كقولك: زيد أخوك هو، وأن يكون ﴿أَطْهَرُ﴾ حالاً من ﴿هُنَّ﴾ أو من ﴿بَنَاتِي﴾ والعامل فيه معنى الإشارة، كقولك: هذا زيد هو قائماً.

ومن قرأ: ﴿أَوْ ءَاوِىَ﴾ بالنصب، فيكون تقديره: لو أن لي بكم قوة أو أويأ إلى ركن شديد، ويكون منتصباً بإضمار أن، وعليه بيت الكتاب:

فَلَوْلَا رِجَالٌ مِّنْ كِرَامِ أَعَزَّةٍ وَأَلْ سُبُعِ أَوْ أَسْوَأَكَ عِلْمًا
والتقدير: أو أن أسوءك، فكأنه قال: أو إياك مساءتي:

ومن قرأ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بإثبات الهمزة في اللفظ، أو بغير الهمزة، فإن سرى وأسرى معناهما سار ليلاً، قال النابغة:

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَازِ سَارِيَّةٌ تُزْجِي الشُّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ^(١)
ويروى: سرت. وقال امرؤ القيس:

سَرِنْتُ بِهِمْ حَتَّى تَكِلَ مَطِيَّهُمْ، وَحَتَّى الْجِيَادُ مَا يُقَدِّنَ بِأَرْسَانِ^(٢)
وقال سبحانه: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾.

ومن قرأ: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ نصباً، فإنه جعل الكلام قبله مستقلاً بنفسه، فنصب مع النفي، كما ينصب مع الإيجاب، والوجه الأقيس الرفع على البدل من ﴿أَحَدٍ﴾ لأن معنى: ما أتاني أحد إلا زيد: ما أتاني إلا زيد، فكما اتفقوا في: ما أتاني إلا زيد، على الرفع، وكان: ما أتاني أحد إلا زيد، بمنزلته وبمعناه اختاروا الرفع مع ذكر أحد، ومما يقوي ذلك أنهم في الكلام وأكثر الاستعمال يقولون: ما جاءني إلا امرأة، فيذكرون حملاً على المعنى، ولا يكادون يؤثنون ذلك إلا في الشعر، كما في قول الشاعر:

فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَّاشِعُ^(٣)

وقول ذي الرمة:

وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا النَحِيرَةُ وَالْأُلُوحُ وَالْعَصْبُ

وزعموا أن في حرف عبد الله أو أبي ﴿فَأَسِيرُ بِأَهْلِكَ بَقِيعٌ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ وليس فيه ﴿وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ وهذا يقوي قول من نصب.

● اللغة: أصل ﴿سَيِّئَةٍ بِهِمْ﴾ سويء بهم من السوء، فأسكنت الواو ونقلت كسرتها إلى السين، ويقال: سُوْئُهُ فِسِيءٌ، كما يقال: شَغَلْتَهُ فَشْغَلٌ، وَسَرَزَتْهُ فَسَرٌّ. والفرق بين السوء

(١) ازجاه: ساقه سوقاً ليناً.

(٢) وفي الديوان وأمالى الشريف: «مطوت بهم»، ومعناه: سرت بهم سيراً سريعاً. وتكل: أي تتعب. والمطية: الدابة التي تركب. والجِيَادُ: الخيل. وقوله «ما يقدن بأرسان» أي: اعيت من شدة الجري، وذللت وانقادت، فلا تحتاج إلى أن تقاد بأرسان.

(٣) قائله ذو الرمة، وقبله: «طوي النخز والاجراز ما في غروضها» والنخز: الدفع والنخس: والاجراز جمع الجرز: الأرض لا نبات فيها. والغروض جمع الغرض: الحزام التي يشد به الرحل. والجراشع جمع الجرشع: المتفتح. يصف ناقته.

سورة هود

والقبيح: أن السوء ما يظهر مكروهه لصاحبه، والقبيح ما ليس للقادر عليه أن يفعله. ويقال: ضاق فلان بأمره ذرعاً، إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً. والعصيب: الشديد في الشر خاصة، وأصله من الشد، يقال: عصبت الشيء، أي: شددته، وعصبت فخذ الناقة لتدر. وناقة عسوب، ويوم عصيب وعصيبص، كأنه التفت على الناس بالشر، أو يكون التفت شره بعضه ببعض. قال الشاعر:

فإنك إن لم تُرضِ بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراقِ عصيب
وقال عدي بن زيد:

وكنْتُ لِزَاذَ خَضَمِكَ لَمْ أُعْرِذْ، وَقَدْ سَلَكَوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبٍ^(١)
وقال الراجز:

يَوْمَ عَصِيبٍ يَعَصِبُ الْأَبْطَالَا عَضَبَ الْقَوِيَّ السَّلَمِ الطُّوَالَا
والإهراع: الإسراع في المشي، قال مهلهل:

فجاؤوا يُهْرَعُونَ، وَهُمْ أَسَارَى تَقُودُهُمْ عَلَى رَغَمِ الْأَنْوِفِ
وقال صاحب (العين): الإهراع: السوق الحثيث. قال أبو مسلم: والقرآن بالسوق أشبه. والركن: معتمد البناء بعد الأساس. وركنا الجبل: جانباه. قال الراجز:

يَأْوِي إِلَى رَكْنٍ مِنَ الْأَرْكَانِ فِي عَدَدِ طَيْسٍ، وَمَجْدِيَانِ^(٢)

والشدة: تجمع يصعب معه التفكك. وقد تكون الشدة تقبضاً يعسر معه التحلل. والقطْع: القطعة العظيمة تمضي من الليل. وقيل: نصف الليل، كأنه قطع نصفين. والالتفات: افتعال من اللفت، وهو اللي، يقال: لفت فلاناً عن رأيه، أي صرفته. وامرأة لفوت: لها ولد من غير زوجها، وكأنها تلفت إلى ولدها، ومنه الحديث في صفة النبي ﷺ: أنه كان إذا التفت التفت معاً، أي: كان لا يلوي عنقه يمنة ويسرة. والسجيل: فارسي معرب، أي: سنك، وكل حجارة وطين، وقال أبو عبيدة: هو الحجارة الشديدة، وأنشد لابن مقبل:

وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْباً تَوَاصِي بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِيناً^(٣)

وسجين وسجيل بمعنى واحد. والعرب تعاقب بين النون واللام، فقلبت النون هاءنا لأمأ. وقيل: إنه مشتق من أسجلته، أي: أعطيته، فتقديره: أنها من مثل العطية في الإدرار. وقيل: إنه من السَّجَل وهو الدلو العظيمة، فتقديره: أنها من مثل السجل في الإرسال. وقيل: إنه من أسجلته إذا أرسلته، وكأنها مرسله عليهم. وقيل: إنه من السَّجَل وهو الكتاب، فكأنها سُجِّلَتْ لهم، والمراد: كتب الله عليهم أن يعذبهم بها. والمنضود: من نضدت الشيء بعضه على بعض.

(١) اللزاز بمعنى الملازم. والتعريد: الفرار. (٢) رجلة جمع راجل. وضرب سجين أي شديد.

(٢) الطيس العدد الكثير.

والمسومة: من السيماء وهي العلامة، ومنه السائمة، وهي المرسلة في المرعى، وذلك أن الإبل السائمة تختلط في المرعى فيجعل عليها السيماء لتمييزها.

● الإعراب: ﴿يُرْعَوْنَ إِلَيْهِ﴾ في موضع نصب على الحال ﴿مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ مبنيان على الضم، فإذا أضيفا أعربا ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾. جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف يدل الكلام عليه، وتقديره: لخلت بينهم وبينكم ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ الهاء في ﴿إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن والحديث و ﴿مُصِيبُهَا﴾ مبتدأ و ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ موصول وصلة في موضع الرفع بكونه فاعل ﴿مُصِيبُهَا﴾، وقد سد مسد خبر المبتدأ ﴿مِنْ سَجَلٍ﴾ في موضع نصب بكونه صفة لحجارة، أي: كائنة من سجيل ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ صفة أخرى لحجارة، ويجوز أن يكون نصباً على الحال من الضمير المستكن في ﴿مَنْظُورٌ﴾.

● المعنى: ثم أخبر سبحانه عن إتيان الملائكة لوطاً بعد خروجهم من عند إبراهيم عليه السلام، وما جرى بينهم وبين قوم لوط، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ أي: لما جاؤوه في صفة الآدميين ﴿سَيِّئِ يَوْمٍ﴾ أي: ساء مجيئهم، لأنه خاف عليهم من قومه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق بمجيئهم ذرعه، أي: ضاق قلبه لما رأى لهم من جمال الصورة وحسن الشارة^(١)، وقد دعوه إلى الضيافة، وقومه كانوا يسارعون إلى أمثالهم بالفاحشة. وقيل: معناه ضاق بحفظهم من قومه ذرعه، حيث لم يجد سبيلاً إلى حفظهم، وكان قد علم عادة قومه من الميل إلى الذكور، وقد أتوه في صورة الغلمان المرد، وأصله أن الشيء إذا ضاق ذرعه لم يتسع له ما اتسع، فاستعار ضيق الذرع عند تعذر الإمكان كما استعار الاتساع.

﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: هائل شديد كثير الشر، التف الشر فيه بالشر، وإنما قال ذلك لأنه لم يعلم أنهم رسل الله، وخاف عليهم من قومه أن يفضحوهم، وقال الصادق عليه السلام: جاءت الملائكة لوطاً وهو في زراعة قرب القرية فسلموا عليه، ورأى هيئة حسنة، عليهم ثياب بيض، وعمائم بيض، فقال لهم: المتزل. فتقدمهم، ومشوا خلفه، فقال في نفسه: أي شيء صنعت آتي بهم قومي وأنا أعرفهم؟ فالتفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله! وكان قد قال الله لجبرائيل: لا تهلكهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات. فقال جبرائيل: هذه واحدة، ثم مشى لوط ثم التفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله، فقال جبرائيل عليه السلام: هذه اثنتان، ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله. فقال جبرائيل: هذه الثالثة، ثم دخل ودخلوا معه حتى دخل منزله، فلما رأته امرأته رأت هيئة حسنة، فصعدت فوق السطح فصفت فلم يسمعوا، فدخنت فلما رأوا الدخان أقبلوا يهرعون، فذلك قوله: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون في المشي لطلب الفاحشة، عن قتادة، ومجاهد، والسدي. وقيل: معناه يساقون وليس هناك سائق غيرهم، فكان بعضهم يسوق بعضاً، عن أبي مسلم. والهاء في ﴿إِلَيْهِ﴾ كناية عن لوط.

(١) الشارة: الحسن والجمال.

سورة هود

﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي: ومن قبل إتيان الملائكة. وقيل: ومن قبل مجيء قوم لوط إلى ضيفانه. وقيل: من قبل مجيئهم إلى داره، عن الجبائي. وقيل: إنه من قبل بعثة لوط إليهم ﴿كَأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ آلْسَيِّئَاتِ﴾ أي: يعملون الفواحش مع الذكور ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿يَقْوَرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ معناه: أن لوطاً لما هموا بأضيافه، وجأهروا بذلك فآلقوا جلباب الحياء فيه، عرض عليهم نكاح بناته وقال: هنّ أحلّ لكم من الرجال، فدعاهم إلى الحلال. واختلف في ذلك فقيل: أراد بناته لصلبه، عن قتادة. وقيل: أراد النساء من أمته، لأنهن كالبنيات له، فإن كل نبي أبو أمته وأزواجه أمهاتهم، عن مجاهد، وسعيد بن جبير.

واختلف أيضاً في كيفية عرضهن. فقيل: بالتزويج، وكان يجوز في شرعه تزويج المؤمنة من الكافر، وكذا كان يجوز أيضاً في مبتدأ الإسلام، وقد زوج النبي ﷺ بنته من أبي العاص بن الربيع قبل أن يسلم، ثم نسخ ذلك. وقيل: أراد التزويج بشرط الإيمان، عن الزجاج. وكانوا يخطبون بناته فلا يزوجهن منهم لكفرهم. وقيل: إنهم كان لهم سيدان مطاعان فيهم فأراد أن يزوجهما بنتيه: زعوراء ورتباء ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فاتقوا عقاب الله في مواجهة الذكور ﴿وَلَا تَخْزَوْنَ فِي ضَيْفَتِي﴾ أي: لا تلزموني عاراً، ولا تلحقوا بي فضيحة، ولا تخجلوني بالهجوم على أضيافي، فإن الضيف إذا نزل به معرة، لحق عارها للمضيف ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي: أليس في جملتكم رجل قد أصاب الرشد، فيعمل بالمعروف وينهي عن المنكر، ويزجر هؤلاء عن قبيح فعلهم، ويجوز أن يكون رشيد بمعنى مرشد، أي: يرشدكم إلى الحق.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ هذا جواب قوم لوط حين عرض عليهم بناته ودعاهم إلى النكاح المباح، أي: ما لنا في بناتك من حاجة، لأن ما لا يكون للإنسان فيه حاجة فإنه يرغب عنه، كما يرغب عما لا حق له فيه، فلذلك قالوا: من حق. وقيل: معناه ما لنا فيهن من حق لأننا لا نتزوجهن، وكانوا يقرون بأن من لم يتزوج بامرأة فإنه لا حق له فيها، عن الجبائي. وابن إسحاق. فالقول الأول محمول على المعنى، والقول الثاني على ظاهر اللفظ ﴿وَأِنَّكَ لَنَافِعٌ مَّا رُئِدُ﴾ أي: تعلم ميلنا إلى الغلمان دون النساء، فلما لم يقبلوا الموعظة تأسف لوط على فقد تمكنه من دفاعهم بأن ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أي: منعة وقدرة وجماعة أتقوى بها عليكم فادفعكم عن أضيافي ﴿أَوْ أَوِيَّ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أو أنضم إلى عشيرة منيعة تنصرني، وشيعة تمنعني لدفعكم، ولكن لا يمكنني أن أفعل ذلك. قال الصادق عليه السلام: فقال جبرائيل: لو يعلم أي: قوة له، قال: فكأبروه حتى دخلوا البيت، فصاح به جبرائيل: أن يا لوط دعهم يدخلوا، فلما دخلوا أهوى جبرائيل بأصبعه نحوهم فذهبت أعينهم. وهو قوله: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد لوط إلا في عز من عشيرته ومنعة من قومه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد، وهو معونة الله تعالى.

ولما رأت الملائكة ما لقيه لوط من قومه ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أرسلنا لهلاكهم فلا تغتم ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي: لا ينالونك بسوء أبداً ﴿فَأَنْتَرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: سر بأهلك ليلاً. وقال السدي: لم يؤمن بلوط إلا ابنته ﴿يَقْطَعُ مِنَ الْيَلِّ﴾ أي: في ظلمة الليل، عن ابن عباس.

وقيل: بعد طائفة من الليل، عن قتادة. وقيل: في نصف من الليل، عن الجبائي ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ قيل في معناه وجوه:

أحدها: لا ينظر أحد منكم وراءه، عن مجاهد. كأنهم تعبدوا بذلك للنجاة بالطاعة في هذه العبادة.

والثاني: لا يلتفت أحد منكم إلى ماله ولا متاعه بالمدينة، وليس معنى يلتفت من الرؤية، عن الجبائي. كأنه أراد أن في النظر إليهم عبرة فلم ينهوا عنها.

والثالث: أن معناه: ولا يتخلف منكم أحد، عن ابن عباس.

والرابع: أنه أمرهم ألا يلتفتوا إذا سمعوا الوجبة والهدية.

﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾ وقيل: إنها التفتت حين سمعت الوجبة فقالت: يا قوماء! فأصابها حجر فقتلها. وقيل: إلا أمرأتك، معناه: لا تسربها ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي: يصيبها من العذاب ما أصابهم، أمروه أن يخلفها في المدينة ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ لما أخبر الملائكة لوطاً بأنهم يهلكون قوم لوط قال لهم: أهلكوهم الساعة لضيق صدره بهم، وشدة غيظه عليهم، فقالوا: إن موعد إهلاكهم الصبح، لم يجعل الصبح ظرفاً وجعله خبر إن، لأن الموعد هو الصبح، وإنما قالوا له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ تسلياً له. وقيل: إنه إنما قال لهم: أهلكوهم الساعة، فقالوا ذلك. وفي هذا دلالة على أن الله سبحانه إنما يهلك من يهلكه عند انقضاء مدته وإن ضاق صدر الغير به. ويجوز أن يكون قد جعل الصبح ميقات إهلاكهم، لأن النفوس فيه أودع، والناس فيه أجمع ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فيه أقوال:

أحدها: جاء أمرنا الملائكة بإهلاك قوم لوط.

والثاني: جاء العذاب، كأنه قيل: كن على التعظيم، على طريق المجاز، كما قال الشاعر:

فَقَالَتْ لَهُ الْعَيْنَانِ: سَمِعَا وَطَاعَةً وَخُدْرَتَا كَالدُّرِّ لَمَّا يُثْقَبُ^(١)

وعلى هذا فالأمر هو نفس العذاب.

والثالث: جاء أمرنا بالعذاب. ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلبنا القرية أسفلها أعلاها، فإن

الله تعالى أمر جبرائيل عليه السلام، فأدخل جناحه تحت الأرض فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها ثم خسف بهم الأرض، فهم يتجرجلون فيها إلى يوم القيامة.

فعلى هذا يكون معنى ﴿جَعَلْنَا﴾ جعل بأمرنا، وإنما أضافه إلى نفسه لأنه أمره به ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ أي: وأمطرنا على القرية، أي: على الغائبين منها حجارة، عن الجبائي. وقيل: أمطرت

الحجارة على تلك القرية حين رفعها جبرائيل. وقيل: إنما أمطرت عليهم الحجارة بعد أن قلبت قريتهم تغليظاً للعقوبة. وقيل: كانت أربع مدائن وهي المؤتفكات: سدوم، وعاموراء، ودوما،

وصبوايم، وأعظمها سدوم، وكان لوط يسكنها. قال أبو عبيدة: يقال: مطر في الرحمة، وأمطر في العذاب.

﴿مَنْ سِجِّيلٍ﴾ أي: سنك كل، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير. بين بذلك صلابتها

(١) حذر الشيء: شقه.

سورة هود

ومباينتها للبرد، وأنها ليست من جنس ما جرت به عادتهم في سقوط البرد من الغيوم. وقيل: إن السجيل الطين، عن قتادة وعكرمة. ويؤيده قوله: ﴿لَتُرِيدَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ﴾ وروي عن عكرمة أيضاً: أنه بحر معلق في الهواء بين الأرض والسماء منه أنزلت الحجارة. وقال الضحاك: هو الآجر. وقال الفراء: هو طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الأرحاء، وقال: كان أصل الحجارة طيناً فشدت، عن الحسن. وقيل: إن السجيل سماء الدنيا، عن ابن زيد. فكانت تلك الحجارة منزلة من السماء الدنيا ﴿مَنْضُورٌ﴾ هو من صفة سجيل، أي: نضد بعضها على بعض حتى صار حجراً، عن الربيع. وقيل: مصفوف في تتابع، أي: كان بعضها في جنب بعض، عن قتادة. وقيل: يتبع بعضها بعضاً، عن ابن عباس ﴿سُوءَةٌ﴾ هي من صفة الحجارة، أي مُعْلَمَةٌ، جعل فيها علامات تدل على أنها معدة للعذاب. وقيل: مُطَوَّقَةٌ بها نضخ من حمرة، عن قتادة، وعكرمة. وقيل: كان مكتوباً على كل حجرة منها اسم صاحبها، عن الربيع. وقيل: عليها سماء لا تشاكل حجارة الأرض، عن ابن جريج. وقيل: مختومة، عن الحسن، والسدي. وقيل: مشهورة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: في علم ربك. وقيل: في خزائن ربك التي لا يملكها غيره، ولا يتصرف فيها أحد إلا بأمره ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ أي: وما تلك الحجارة من الظالمين من أمتك يا محمد ببعيد، أراد بذلك إرهاب قريش. وقال قتادة: ما أجاز الله منها ظالماً بعد قوم لوط، فاتقوا الله وكونوا منه على حذر. وقيل: يعني بذلك قوم لوط، يريد أنها لم تكن تخطئهم. وذكر أن حجراً بقي معلقاً بين السماء والأرض أربعين يوماً يتوقع به رجلاً من قوم لوط كان في الحرم حتى خرج منه فأصابه، قال قتادة: وكانوا أربعة آلاف ألف.



قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِحَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٥﴾ وَيَبْقَوْمُ اقْوُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَبْقَوْمُ ارْعَيْشُوا إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّزْقِي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنَهَلَكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَبْقَوْمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا

ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّهُمْ يَغْنَوًا فِيهَا آلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٥﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر: ﴿أصلاتك﴾ بغير واو على التوحيد، والباقون: ﴿أصلواتك﴾ بالواو على الجمع. وفي الشواذ قراءة السلمي: ﴿بُعَدَتْ ثَمُودُ﴾ بضم العين.

● **الحجة:** أما ﴿بُعَدَ﴾ فيكون في الخير والشر، ومصدره البُعد. و﴿بُعِدَ﴾ في الشر خاصة، ومصدره البُعد. ومنه أبعد الله، فإنه منقول من «بُعد» لأنه دعاء عليه. وقراءة السلمي متفقة الفعل مع مصدره، وإنما السؤال عن قراءة الجماعة: ﴿ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود﴾ وطريق ذلك أن يكون البُعد بمعنى اللعنة، فيكون أبعد الله بمعنى لعنه الله، ومنه قوله:

ذُعِرْتُ بِهِ الْقَطَا، وَنَفِيتُ عَنْهُ مَقَامَ الذَّنْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ^(١)

أي: المبعد، فالإبعاد للشيء نقص له. فقد التقى معنى «بُعِدَ» مع معنى: «بُعد» من هنا.

● **اللغة:** الوزن: تعديل الشيء بغيره في الخفة والثقل بآلة التعديل. وإذا قيل: شعر موزون، فمعناه: مُعَدَّلٌ بالعروض. والتوفيق: من الصواب، إلا أنه اختص بهذا الاسم ما اتفق وقوع الصواب عنده، وليس ذلك جنساً بعينه، وإنما هو بحسب ما يعلم الله تعالى، وإنما لم يكن الموفق للطاعة إلا الله تعالى، لأن أحداً لا يعلم ما يتفق عنده الطاعة من غير تعليم سواه سبحانه. والشقاق والمشاقة: المباعدة بالعداوة إلى جانب المباينة وشقها. والفقه: فهم الكلام على ما تضمنه من المعنى، وقد صار علماً لضرب من علوم الدين، وهو علم بمدلول الدلائل السمعية. وأصول الدين: علم بمدلول الدلائل العقلية. والرهط: عشيرة الرجل وقومه، وأصله الشد. والترهيط: شدة الأكل، ومنه: الراهطاء: جحر اليربوع، لشدته وتوسيعه لينجي فيه ولده. والرجم: الرمي بالحجارة. والأعز: الأقوى الأمنع، والأعز نقیض الأذل. والظَهْرِي: جعل الشيء وراء الظهر حتى ينساه. ويقال لكل من لا يعبأ بأمر: قد جعل فلان هذا الأمر بظهر، قال:

تَمِيمَ بْنَ قَيْسٍ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي بِظَهْرِ فَلَا يَعْيَا عَلَيَّ جَوَابُهَا

(١) قائله شماخ قال في اللسان أراد مقام الذنب اللعين الطريد كالرجل. ويقال أراد مقام الذي هو كالرجل اللعين وهو المنفي، والرجل اللعين لا يزال متبذراً عن الناس شبه الذنب به.

سورة هود

● **الإعراب:** ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ﴾ موضع ﴿أَنْ﴾ نصب، على معنى: أو تأمرك أن نترك، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء، فهو معطوف على ﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ والتقدير: أصلاتك تأمرك أن نترك عبادة آبائنا أو فعل ما نشاء في أموالنا. ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿أَنْ تَفْعَلَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿أَنْ تَنْتَرِكَ﴾ لأن المعنى يصير فاسداً، و ﴿أَوْ﴾ هنا بمنزلتها في قولك: جالس الحسن، أو ابن سيرين. وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ ولم يقل به. وموضع ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ له وجهان من الإعراب:

أحدهما: أن يكون معلقاً بقوله: ﴿تُكَلِّمُونَ﴾ فيكون استفهاماً، وتقديره: فسوف تعلمون مَنْ المخزي وَمَنْ الكاذب. ويجوز أن يكون ﴿مَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ على هذا بمعنى الذي هو كاذب، ويكون معطوفاً على الهاء من ﴿يُخْزِيهِ﴾ أي: ويخزي الذي هو كاذب.

والثاني أن يكون ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ بمعنى الذي، ويكون ﴿مَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ عطفاً عليه، وأدخلوا هو في قوله: ﴿مَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ لأنهم لا يقولون: من قائم ولا من قاعد، وإنما يقولون: من قام ومن يقوم ومن القائم ومن القاعد، وقد ورد ذلك في الشعر، قال الشاعر:

مَنْ شَارِبٌ مُرْبِخٌ بِالْكَاسِ نَادِمُنِي لَا بِالْخَصُورِ، وَلَا فِيهَا بِسَوَارٍ^(١)

﴿كَانَ لَمْ يَنْتَوِ فِيهَا﴾ يحتمل أن يكون ﴿كَانَ﴾ مخففة من الثقيلة على أن يضم فيها كما يضم في «أَنْ» من قوله: ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ أَلْعَلُّوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ويجوز أن يكون أن التي تنصب الفعل، ويكون مع الفعل بمعنى المصدر.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه قصة شعيب على ما تقدمها من قصص الأنبياء ﷺ، فقال: ﴿وَأِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي: وأرسلنا إلى أهل مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ فحذف أهل وأقام مدين مقامه، ومدين اسم القبيلة أو المدينة التي كانوا فيها، فلذلك لم ينصرف، عن الزجاج. وقيل: مدين بن إبراهيم نسيوا إليه ﴿قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ قد سبق تفسيره ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: ولا تنقصوا حقوق الناس بالتطفيف عند الكيل والوزن ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: برخص السعر والخصب، عن ابن عباس، والحسن. والمعنى: أنه حذرهم الغلاء وهو زيادة السعر، وزوال النعمة، وحلول النقمة إن لم يتوبوا. وقيل: أراد بالخير المال وزينة الدنيا، عن قتادة، وابن زيد، والضحاك. والمعنى: إني أراكم في كثرة الأموال وسعة الأرزاق فلا حاجة بكم إلى نقصان الكيل والوزن. ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ وصف اليوم بالإحاطة بمعنى أنه يحيط عذابه بجميع الكفار، ولا يفلت منه أحد منهم، وأراد يوم القيامة، عن الجبائي. وهو من صفة العذاب على الحقيقة، لأن اليوم محيط بعذابه بدلاً من إحاطته بنعمته، وذلك أظهر في الوصف، وأهول في النفس.

﴿وَيَنْقُورِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: أوفوا حقوق الناس في المكيالات، والموزونات، بالمكيال، والميزان بالعدل ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ﴾ أي: ولا تنقصوا الناس

(١) قائله الأخطل. والسوار: المعرب. وفي اللسان «وشارب مريح اه».

﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: أموالهم في معاملاتهم ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تسعوا بالفساد، ولا تضربوا في الأرض ﴿يَقِئْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ البقية بمعنى الباقي، أي: ما أبقي الله تعالى لكم من الحلال بعد إتمام الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف. وشرط الإيمان في كونه خيراً لهم لأنهم إن كانوا مؤمنين بالله عرفوا صحة هذا القول، عن ابن عباس. وقيل: معناه إبقاء الله النعيم عليكم خير لكم مما يحصل من النفع بالتطفيف، عن ابن جبير. وقيل: معناه طاعة الله خير لكم من جميع الدنيا، لأنها يبقى ثوابها أبداً، والدنيا تفتنى، عن الحسن، ومجاهد. ويؤيده قوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الْفَالِغَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ الآية. وقيل: بقية الله: رزق الله، عن الثوري ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: وما أنا بحافظ نعم الله تعالى عليكم أن يزيلها عنكم، وإنما يحفظها الله عليكم، فاطلبوا بقاء نعمه بطاعته. وقيل: معناه وما أنا بحافظ لأعمالكم، وإنما يحفظها الله فيجازيكم عليها. وقيل: معناه وما أنا بحافظ عليكم كيلاكم ووزنكم حتى توفوا الناس حقوقهم ولا تظلموهم، وإنما علي أن أنهاكم عنه.

﴿قَالُوا يَسْخَبُ أَصْلَانَا أَنْ تَأْمُرَنَا أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إنما قالوا ذلك لأن شعيباً عليه السلام كان كثير الصلاة، وكان يقول إذا صلى: إن الصلاة رادعة عن الشر ناهية عن الفحشاء والمنكر. فقالوا: أصلاتك التي تزعم أنها تأمر بالخير، وتنهاي عن الشر أمرتك بهذا، عن ابن عباس. وقيل: معناه أدينك بأمرك بترك دين السلف؟، عن الحسن، وعطاء، وأبي مسلم. قالوا: كثي عن الدين بالصلاة لأنها من أجل أمور الدين، وإنما قالوا ذلك على وجه الاستهزاء. ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ معناه: أصلاتك تأمر بترك عبادة ما يعبد آبائنا أو بترك فعل ما نشاء في أموالنا من البخس والتطفيف؟ ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قيل: إنهم قالوا ذلك على وجه الهزاء والتهمك، وأرادوا به ضد ذلك، أي: السفية الغاوي، عن ابن عباس. وقيل: إنهم قالوا ذلك على التحقيق، أي: إنك أنت الحليم في قومك فلا يليق بك أن تخالفهم، والحليم الذي لا يعاجل بالعقوبة مستحقها. والرشيد: المرشد.

﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنِينٍ مِّن رَّبِّي﴾ مرّ تفسيره. ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: إن الرزق الحسن ههنا النبوة. وقيل: معناه هداني لدينه ووسّع عليّ رزقه، وكان كثير المال، عن الحسن. وقيل: كل نعمة من الله سبحانه فهو رزق حسن، وفي الكلام حذف، أي: أفأعدل مع ذلك عما أنا عليه من عبادته؟ وإنما حذف لدلالة ما أبقاه على ما ألفاه ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ أي: لست أنهاكم عن شيء وأدخل فيه، وإنما أختار لكم ما أختاره لنفسه، ومعنى: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ أي: ما أقصده بخلافكم إلى ارتكابه، عن الزجاج. وهذا في معنى قول الشاعر:

لا تنه عن خلقي، وتأتي مثله، عار عليك، إذا فعلت، عظيم

وقيل: معناه وما أريد اجتراء منفعة إلى نفسي بما أنهاكم عنه، أي: لا آمركم بترك التطفيف في الكيل والوزن لتكون منفعة ما يحصل بالتطفيف لي ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ أي: لست أريد بما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاح أموركم، في دينكم ودنياكم ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما قدرت

سورة هود

عليه وتمكنت منه ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ معناه: وليس توفيقي في امثال ما أمركم به، والانتهاه عما أنهاكم عنه إلا بالله فلا يوفق غيره، أي: وليس ما أفعله بحولي وقوتي، بل بمعونة الله ولطفه وتيسيره ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ والتوكل على الله: الرضا بتدبيره مع تفويض الأمور إليه، والتمسك بطاعته ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: وإليه أرجع في المعاد، عن مجاهد. وقيل: إليه أرجع بعملتي ونيتي، عن الحسن. ومعناه: أنني أعمل أعمالاً كلها لوجه الله ﴿وَنَقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: لا يكسبنكم خلافي ومعاداتي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ عذاب العاجلة، عن الزجاج. وقيل: معناه لا تحملنكم عداوتي على مخالفة ربكم، فيصيبكم من العذاب مثل ما أصاب من قبلكم، عن الحسن. وكان سبب هذه العداوة دعاؤه لكم إلى مخالفة الآباء والأجداد في عبادة الأوثان، وما يثقل عليهم من الإيفاء في الكيل والميزان ﴿مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الهلاك بالغرق. ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ بالريح العقيم ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ بالرجفة ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بِعَبِيدٍ﴾ أي: هم قريبون منكم في الزمان الذي بينه وبينكم، عن قتادة، وقيل: معناه أن دارهم قريبة من داركم، فيجب أن تتعظوا بهم ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: اطلبوا المغفرة من الله ثم توصلوا إليها بالتوبة. وقيل: معناه استغفروا للماضي واعزموا في المستقبل. وقيل: استغفروا ثم دوموا على التوبة. وقيل: استغفروا في العلانية، ثم اضمروا الندامة في القلب عن الماضي. ﴿إِنْ رَجَعْتَ رَبُّكَ لَنَجْعَلَ لَكَ مِنْهُمْ أَفْئِدَةً يَخِيفُونَ﴾ أي: لو أنهم تابوا فليقبل توبتهم، ويعفو عن معاصيهم ﴿وَدَّوْدُ﴾ أي: محب لهم، ومعناه: يريد لمنافعهم. وقيل: معناه متوّد إلى عباده بكثرة إنعامه عليهم. وقيل: ودود بمعنى الواد، أي: يؤدّهم إذا أطاعوه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: كان شعيب خطيب الأنبياء.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال قوم شعيب له حين سمعوا منه الوعظ والتخويف: ﴿يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ﴾ أي: ما نفهم عنك معنى كثير من كلامك. وقيل: معناه لا نقبل كثيراً منه ولا نعمل به، وهذا كقولك إذا أمرك إنسان بشيء لا تريد أن تفعله: لا أعلم ما تقول وأنت تعلم ذلك، أي: لا أفعله، وإنما قالوا ذلك بعد ما ألزمهم الحجة. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِتْنًا ضَعِيفًا﴾ أي: ضعيف البدن، عن الجبائي. وقيل: ضعيف البصر، عن سفيان. وقيل: أعمى، وكان شعيب أعمى عن قتادة، وسعيد بن جبير. قال الزجاج: وجُمِرَ تسمي المكفوف ضعيفاً، وهذا كما قيل: ضرير، أي: قد ضرّ بذهاب بصره، وكذلك قد ضعف بذهاب بصره، وكف عن التصرف، وهذا القول ليس بسديد، لأن قوله: ﴿فِتْنًا﴾ يردّه، ألا ترى أنه لو قيل: إنا لنراك فِتْنًا أعمى لم يكن كلاماً، لأن الأعمى قد يكون أعمى فيهم، وفي غيرهم. وقيل: ضعيفاً، أي: مهيناً، عن الحسن.

واختلف في أن النبي هل يجوز أن يكون أعمى؟ فقيل: لا يجوز، لأن ذلك ينفّر. وقيل: يجوز ألا يكون فيه تنفير، ويكون بمنزلة سائر العلل والأمراض.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي: لولا حرمة عشيرتك وقومك لقتلناك بالحجارة. وقيل: معناه لشتمنناك وسبينناك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لم ندع قتلناك لعزتك علينا، ولكن لأجل قومك. قال الحسن: وكان شعيب في عزّ من قومه، وكان من أشرفهم، وما بُعث نبي بعد لوط إلا في عزّ من قومه.

﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿يَنْقُورِ أَرْطَاحٍ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: أعشيرتي وقومي أعظم حرمة عندكم من الله فتركوا أذاي لأجل عشيرتي ولا تركوه الله الذي بعثني إليكم ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾ أي: اتخذتم الله وراء ظهوركم، يعني نسيتموه، فالهاء عائدة إلى الله، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: الهاء عائدة إلى ما جاء به شعيب، عن مجاهد. والمعنى: ونبتذتم ما أرسلت به وراء ظهوركم. وقيل: الهاء عائدة إلى أمر الله، عن الزجاج، أي: نبتذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه. ﴿إِنَّكَ رَبِّي يَمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: محصٍ لأعمالكم لا يفوته شيء منها. وقيل: معناه خبير بأعمالكم فيجازيكم بها، عن الحسن.

﴿وَيَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ أي: اعملوا على حالتكم هذه. والمكانة: الحالة التي يتمكن بها صاحبها من عمل. وهذا تهديد في صورة الأمر، وتقديره: كأنكم إنما أمرتم بأن تكونوا على هذه الحال من الكفر والطغيان، وفي هذا نهاية الخزي والهوان. وقيل: معناه اعملوا على ما يمكنكم، أي: اعملوا أنتم على ما تقولون وأعمل أنا على ما أقول. وقيل: معناه اعملوا على ما أنتم عليه من دينكم. ونحوه قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾ وفي هذا دلالة على أنه آيس من قومه ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على ما أمرني ربي. وقيل: إني عامل على ما أنا عليه من الإنذار ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أينا المخطيء الجاني على نفسه. وقيل: معناه سوف يتبين لكم وتعلمون في عاقبة الأمر ﴿مَنْ يَأْتِ بِعَذَابٍ يُخْزِيهِ﴾ أي: يهينه ويفضحه، ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِيبٌ﴾ ويظهر الكاذب من الصادق، وتقديره: ومن هو كاذب يخزي بعذاب الله فحذف. ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: انتظروا ما وعدكم ربكم من العذاب، إني معكم منتظر حلول العذاب بكم. وقيل: معناه انتظروا العذاب واللعة، وأنا أنتظر الرحمة والثواب والنصرة، عن ابن عباس. وقيل: معناه انتظروا مواعيد الشيطان، وأنا أنتظر مواعيد الرحمان. وروي عن علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: ما أحسن الصبر وانتظار الفرج، أما سمعت قول العبد الصالح: ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنِيَّانَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ مضي تفسيره. ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ صاح بهم جبرائيل صيحة فماتوا ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ﴾ كأن لثر يفتنوا فيها مضي تفسيره قبل ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَنِينَ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾ ألا بعدوا من رحمة الله بعداً كما بعدت ثمود. وقيل: ألا هلاكاً لهم كما هلكت ثمود، وتقديره: ألا أهلكهم الله فبعدوا بعداً. قال البلخي: يجوز أن تكون الصيحة صيحة على الحقيقة كما روي، ويجوز أن تكون ضرباً من العذاب أهلكهم الله به واصطلمهم. تقول العرب: صاح الزمان بهم: إذا هلكوا. وقال امرؤ القيس:

فدغ عنك نهياً صيح في حُجراته ولكن حديث، ما حديث الرواجل^(١)

ومعنى صيح في حجراته: أذهب وأهلك. قالوا: وإنما شبه حالهم بحال ثمود خاصة، لأنهم أهلكوا بالصيحة، كما أهلكت ثمود بمثل ذلك مع الرجفة.



(١) الشعر المذكور في (جامع الشواهد) وفيه «دع عنك نهياً اه».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَاتَّبَعُوهُ أَمَرَ فِرْعَوْنُ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْزُودُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعَنَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَتَسَّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَىٰ نَفْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهِمُّمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخَذَ الْفَرَىٰ وَهِيَ ظَلَمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ جَمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

● **اللغة:** يقال: قَدِمْتُ القومَ أَقْدَمُهُمْ قَدَمًا، إذا مشيت أمامهم واتبعوك. الأزهرى: قَدَمَ يَقْدُمُ وَتَقْدَمُ وَقَدَّمَ وَأَقْدَمَ واستَقْدَمَ بمعنى. والورد: ورود الماء الذي يورد، والإبل الواردة: والجمع أوراد. والإيراد إيجاب الورد في الماء، أو ما يقوم مقامه. قال الشاعر:

يَرْدُ الْمِيَاءَ حَضِيرَةٌ وَنَفِيزَةٌ وَرَدَ الْقَطَاةُ إِذَا اسْمَأَلَّ التُّبْعُ (١)

وقال ليبد:

فَوَرَدْنَا قَبْلَ فَرَاطٍ الْقَطَاةُ إِنَّ مِنْ وَرْدِي تَغْلِيَسَ النَّهْلِ (٢)

وأصل الورد: الإشراف على الدخول، وليس بالدخول، قال عترة:

فَلَمَّا وَرَدَنَ الْمَاءَ زُرْقًا جَمَاهُ، وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَحَيِّمِ (٣)

والرغد: العون على الأمر، يقال: رَفَدَهُ يَرْفِدُهُ رَفْدًا وَرَفْدًا، بفتح الراء وكسرهما. قال الزجاج: كل شيء جعلته عوناً لشيء، أو أسندت به شيئاً، فقد رَفَدْتَهُ بِهِ، يقال: عمدت الحائط وأسندته وأرَفَدْتَهُ ورَفَدْتَهُ بمعنى واحد. ويقال: رَفَدَهُ وَأَرَفَدَهُ إِذَا أَعْطَاهُ، والاسم الرغد، لأن العطاء عون المعطي. والحصيد: بمعنى المحصود، والحصد: قطع الزرع من الأصل، وهذا زمن الحصاد، بفتح الحاء وكسرهما، ويقال: حصدهم بالسيف إذا قتلهم. وتتنيب: من تَبَّتْ يده، أي: خسرت، قال جرير:

عَرَابَةٌ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمٍ لَوِطٍ أَلَا تَبُّالْمَا فَعَلُوا تَبَابًا

- (١) قائله سعدى الجهنية ترثي أخاها أسعد - والنفيضة والحضيرة كلاهما بمعنى الجماعة، ومنصوبان على الحال. والمعنى أنه يغزو وحده في موضع الحضيرة والنفيضة. وفي المثل «انه لأدل من قطاة» لأنها ترد الماء ليلاً من الغلاة البعيدة. واسمأل الظل: إذا ارتفع. والتبع: الظل.
- (٢) فراط القطا: مقدماتها إلى الوادي والماء. والتغليس: ورود الماء أول ما ينفجر الصبح. والنهل: أول الشرب.
- (٣) جمام الماء: معظمه. معناه لما بلغن الماء أقمن عليه. وقد نسب الشعر في اللسان في «ججم» و«ورد» إلى زهير.

والفرق بين العذاب والألم: أن العذاب استمرار الألم، قال عبيد:

والمرء ما عاش في تكذيبٍ طول الحياة له تعذيبٌ

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه قصة موسى عليه السلام على ما تقدم من قصص الأنبياء، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا ومعجزاتنا الدالة على نبوته ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وحجة ظاهرة مخلصة من تلبيس وتمويه على أتم ما يمكن فيه. والسلطان وإن كان في معنى الآيات، فإنما عطفه عليها، لأن الآيات حجج من وجه الاعتبار العظيم بها، والسلطان حجة من جهة القوة العظيمة على المبطل، وكل عالم له حجة يقهر بها شبهة من نازعه من أهل الباطل فله سلطان. وقد قيل: إن سلطان الحجة أنفذ من سلطان المملكة، والسلطان متى كان محققاً حجةً وجب اتباعه، وإذا كان بخلافه لا يجب اتباعه. قال الزجاج: السلطان إنما سمي سلطاناً لأنه حجة الله في أرضه، واشتقاقه من السليط الذي يستضاء به ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ﴾ أي: قومه. وقيل: أشرف قومه الذين تملأ الصدور هيبتهم ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ وتركوا أمر الله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: مرشد، ومعناه: ما هو بهاد لهم إلى رشد، ولا قائد إلى خير، فأمر فرعون كان على ضد هذه الحال، لأنه داع إلى الشر وصاد عن الخير، وفي هذا دلالة على أن لفظة الأمر مشتركة بين القول والفعل، والمراد هنا: وما فعل فرعون برشيد. ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يعني أن فرعون يمشي بين يدي قومه يوم القيامة على قدميه حتى يهجم بهم على النار، كما كان يقدمهم في الدنيا يدعوهم إلى طريق النار، وإنما قال: ﴿فَأَوْرَدَهُمْ﴾ على لفظ الماضي والمراد به المستقبل، لأن ما عطفه عليه من قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يدل عليه، عن الجبائي. وقيل: إنه معطوف على قوله: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿وَيَسَّسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾، أي: بشس الماء الذي يردونه عطاشاً لإحياء نفوسهم ﴿الَّتَارَ﴾ إنما أطلق سبحانه على النار اسم الورد المورود، ليطابق ما يرد عليه أهل الجنة من الأنهار والعيون. وقيل: معناه بشس المدخل المدخول فيه النار. وقيل: بشس الشيء الذي يرده النار. وقيل: بشس النصيب المقسوم لهم النار، وإنما أطلق لفظ بشس وإن كان عدلاً حسناً لما فيه من البؤس والشدة ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَٰذِهِ﴾ يعني ألحقوا في الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ وهي الغرق ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يعني ولعنة يوم القيامة، وهي عذاب الآخرة. وقيل: معناه أتبعهم الله في الدنيا لعنة بإبعادهم من الرحمة، وأتبعهم الأنبياء والمؤمنون الدعاء عليهم باللعة، ويتبعهم الله اللعة في القيامة حتى لا تفارقهم اللعة حيث كانوا. قال ابن عباس: من ذكرهم لعنهم.

﴿يَسَّسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي: بشس العطاء المعطى النار واللعة، وإنما سماه رفاً، لأنه في مقابلة ما يعطي أهل الجنة من أنواع النعيم. وقال قتادة: ترافدت عليهم لعنتان من الله: لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة، وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله: ﴿يَسَّسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ قال: هو اللعة بعد اللعة. وقال الضحاك: اللعنتان اللتان أصابتهم زفدت إحداهما الأخرى. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك النبأ ﴿مِّنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى﴾ أي: من أخبار البلاد ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: نذكره لك ونخبرك به تذكراً وتسلياً لك يا محمد ﴿مِّنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي: من تلك الديار معمور وخراب، قد أتى عليه الإهلاك ولم يعمر فيما بعد. وقيل: معناه منها قائم على بنائه لم يذهب أصلاً وإن كان خالياً

سورة هود

من أهله، وحصيد قد خرب وذهب واندرس أثره، كالشيء المحصود، عن قتادة، وأبي مسلم. وقيل: منها قائم ينظرون إليها، وحصيد قد هلك وباد أهله، عن ابن عباس ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن كفروا وارتكبوا ما استحقوا به الهلاك، فكان ذلك ظلمهم لأنفسهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أي: أوثانهم ﴿الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَنَا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: عذاب ربك. وقيل: أمر ربك بإهلاكهم. ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا تَتَابَعُتْ﴾ أي: غير تخسير، عن مجاهد، وقاتدة. والمعنى: لم يزيدهم شيئاً غير الهلاك والخسار، وإنما أضاف الإهلاك إلى الأصنام، لأنها السبب في ذلك، ولو لم يعبدوها لم يهلكوا، وإنما قال: ﴿يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لأنهم كانوا يسمونها آلهة ويطلبون الحوائج منها، كما يطلبها الموحدون من الله.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي: وكما ذكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب أخذ ربك. ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي: أخذ أهلها، وهو أن ينقلهم إلى العقوبة والهلاك ﴿وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾ من صفة القرى، وهو في الحقيقة لأهلها وسكانها، ونحوه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله تعالى يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَكْبَرُ شِدِيدٍ﴾ معناه: أن أخذ الله سبحانه الظالم مؤلم شديد الألم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: إن فيما قصصنا عليك من إهلاك من ذكرناه على وجه العقوبة لهم على كفرهم لعبرة وتبصرة وعلامة عظيمة. ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: لمن خشي عقوبة الله يوم القيامة، وخص الخائف بذلك، لأنه هو الذي ينتفع به بالتدبر والتفكير فيه ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ الْنَاسُ﴾ أي: يجمع فيه الناس كلهم، الأولون والآخرين منهم للجزاء والحساب، والهاء في ﴿لَهُ﴾ راجعة إلى اليوم ﴿وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ أي: يشهده الخلاق كلهم، من الجن والإنس، وأهل السماء وأهل الأرض، أي: يحضره، ولا يوصف بهذه الصفة يوم سواه، وفي هذا دلالة على إثبات المعاد وحشر الخلق.



قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ ﴿١٤٤﴾ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٤٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٤٦﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٤٧﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مِّجْدُوفٍ﴾ ﴿١٤٨﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: ﴿وَمَا يُؤَخِّرُهُ﴾ بالياء، والباقون: بالنون. وقرأ: ﴿يَوْمَ يَأْتُ﴾ بغير ياء ابن عامر وأهل الكوفة غير الكسائي. والباقون: ﴿يَأْتِي﴾ بإثبات الياء. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: ﴿سَعِدُوا﴾ بضم السين. والباقون: ﴿سَعِدُوا﴾ بالفتح.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿يُؤَخِّرُهُ﴾ بالياء، فإنه رده إلى قوله: ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾. ومن قرأ بالنون فإنه ابتداء، والياء في المعنى كالنون. وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتُ﴾ قال الزجاج: الذي يختاره النحويون:

﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ وهذيل يحذف هذه الياءات كثيراً. وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول: لا أدر، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. قال أبو علي: من أثبت الياء في الوصل والوقف فهو القياس البين، وأما من حذفها في الوقف إذا قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ فلأنها وإن لم تكن في فاصلة أمكن أن نشبهها بالفاصلة، لأن هذه الياء تشبه الحركات المحذوفة في الوصل، بدلالة أنهم حذفوها كما حذفوا الحركة، فكما أن الحركة تحذف في الوقف، فكذلك ما أشبهها من هذه الحروف كان في حكمها، فأما من حذفها في الوصل والوقف، فلأنه جعلها في الوصل والوقف بمنزلة ما استعمل محذوفاً، مما لم يكن ينبغي في القياس أن يحذف، نحو: لم يكن ولم أدر، ومثله قول الشاعر:

كُفَّاكَ كَفٌّ لَا تُبَقِّي دُزْهَمًا جوداً، وأخرى تُعْطِ بالسيف الدِّمًا

حذف الياء من (تعطي)، وليس هنا ما يوجب حذفها.

وأما قوله: ﴿سُعْدُوا﴾ فقد قال أبو علي: حكى سيبويه: سَعِدَ يَسْعَدُ سعادة فهو سعيد، وينبغي أن يكون غير متعد، كما أن خلافة الذي هو «شقي» كذلك، وإذا كان كذلك كان ضم السين مشكلاً، إلا أن يكون سمع فيه لغة خارجة عن القياس، أو يكون من باب فعل وفعلته، نحو: غاص الماء وغصته، وحزن وحزنته، ولعلمهم استشهدوا على ذلك بقولهم: مسعود، وإنه يدل على سعد، ولا دلالة قاطعة في ذلك، لأنه يجوز أن يكون مثل: أجنه الله فهو مجنون، وأحبه فهو محبوب. فالمفعول جاء في هذا على أنه حذفت الزيادة عنه، كما حذف من اسم الفاعل في نحو قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ يعني ملاقح، فجاء على حذف الزيادة. فعلى هذا يكون أصله أسعد، فحذف الزائد، ومن الحذف قول الشاعر:

يَخْرُجْنَ مِنْ أَجْوَا زِلْسِلٍ غَاضٍ^(١)

يريد مُغْصٍ.

● اللغة: الشقاء والشقاوة والشقوة بمعنى. والياء في ﴿شَقِيٌّ﴾ منقلبة عن واو. والسعادة: ضد الشقاوة. والزفير: أول نهاق الحمار. والشهيق: آخر نهاقه، قال رؤبة:

حَشْرَجَ فِي الْجَوْفِ صَهِيلاً، أَوْ شَهَقَ حَتَّى يَقَالَ: نَاهَقَ وَمَا نَهَقَ^(٢)

والزفير: ترديد النفس مع الصوت من الحزن حتى تنتفخ للضلع، وأصل الزفير الشدة، من قولهم للشديد الخلق: مزفور. والزفر: الحمل على الظهر خاصة لشدته. والزفر: السيد لأنه يطبق

(١) قائله رؤبة وبعده «نضو قداح النابل النواضي كأنما ينضخن بالخضخاض» يصف المطايا بشدة السير. والخضخاض: القطران. يريد أنها عرقت من شدة السير فاسودت جلودها. والأجواز: الأوساط. وليل غاض أي: مظلم.

(٢) حشرجة الحمار: صوته يردده في حلقه. وفي اللسان: «سحياً أو شهق» وهو الأقيس. فإن الصهيل للخيول والفرس.

حمل الشدائد. وزَفَرَت النار إذا سمع لها صوت من شدة توقدها. والشهيق: صوت فظيع يخرج من الجوف بمد النفس، وأصله الطول المفرط من قولهم: جبل شاهق. والخلود: الكون في الأمر أبداً. والدوام: البقاء أبداً، ولهذا يوصف سبحانه بأنه دائم، ولا يوصف بأنه خالد. والجد: القطع، يقال: جَدَّهُ يَجُدُّه وَجْدٌ الله دابرهم. قال النابغة:

تَجُدُّ السُّلُوقِيَّ الْمَضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتَوَقَّدُ بِالْصُّفْحِ نَارَ الْحَبَابِ^(١)

ويقال: جذاها جَدُّ البعير الصليانة^(٢)، وهي نبت.

● الإعراب: ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾: لا يخلو أن يكون فاعل ﴿يَأْتِي﴾ ضمير اليوم المضاف إلى يأتي، واليوم المتقدم ذكره، فلا يجوز أن يكون فاعله ضمير اليوم الذي أضيف إلى يأتي، لأنك لا تقول: جئتكم يوم يسرك سروره إياك، وتكون الهاء عائدة إلى ﴿يَوْمَ﴾، فيصير اليوم مضافاً إلى الفعل المسند إلى ضميره، وإنما تعرّف الفعل فيه بالفاعل، فيكون كأنك إنما عرّفت اليوم بنفسه، ونظير ذلك قولك: هذا يوم حره ويوم برده. والهاء لليوم، وهذا غير جائز، وكذلك لا يجوز أن تضيف الظرف إلى جملة معرفة بضمير، وإن كانت من مبتدأ وخبر، مثل أن تقول: آتيك يوم ضحوته باردة، وليلة أولها مطير، فإن نَوْنْتُ فقلت: آتيك يوماً ضحوته باردة، أو ليلة أولها مطير جاز، لأنه خرج بالتنوين عن حد الإضافة، وهذا قول أبي عثمان المازني. وإذا قد ثبت ذلك فقد ثبت أن في ﴿يَأْتِي﴾ ضمير اليوم المتقدم ذكره في قوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ أي: يوم يأتي هذا اليوم الذي تقدم ذكره لا تكلم نفس، فالיום في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ يراد به الحين والبرهة، وليس على وضوح النهار.

وقوله: ﴿لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِذَنبٍ﴾ يجوز أن يكون هذه الجملة حالاً من الضمير في ﴿يَأْتِي﴾، ويجوز أن يكون صفة ليوم المضاف إلى ﴿يَأْتِي﴾، لأن ﴿يَوْمَ﴾ مضاف إلى يأتي والفعل نكرة، فلا يتعرف ﴿يَوْمَ﴾ بالإضافة إليه، فجاز أن يوصف بالجملة كما توصف النكرات بالجمل، والمعنى: لا تكلم فيه نفس، فحذف فيه، أو حذف الحرف وأوصل الفعل إلى المفعول ثم حذف الضمير من الفعل الذي هو صفة كما يحذف من الصلة، ومثل ذلك قولهم: الناس رجلان: رجل أكرمت، ورجل أهنت. وإذا جعلته حالاً من الضمير في يأت يأت وجب أن تقدر فيه أيضاً ضميراً يعود إلى ذي الحال، وتقديره غير متكلم فيه، هذا كله قول أبي علي.

وأقول: إن الأظهر أن قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ ظرف لقوله: ﴿لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِذَنبٍ﴾ ومعمول له، وهذا الوجه لا يحتاج فيه إلى تقدير محذوف كما في الوجهين اللذين ذكرهما فيكون أولى، وإنما يضاف ﴿يَوْمَ﴾ إلى الفعل لأنه اسم زمان، والفعل يناسب الزمان من حيث إنه

(١) السلوقي: الدرع المنسوبة إلى سلوق - قرية باليمن - والصفاح: الحجر العريض. ونار الحباب: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة. يصف السيوف.

(٢) مثل يضرب لمن يقدم على اليمين الكاذبة.

لا يخلو منه، وإنما يتصرف بتصرفه، وأنه لا يكون حادثاً إلا وقتاً كما أن الزمان لا يبقى، وقوله: ﴿لَا تَكَلِّمْ﴾ أي: لا تتكلم، فحذفت إحدى التاءين، كما في قول الشاعر:

والعين ساكنة على أطلائها عوداً تأجل بالفضاء بهائمها^(١)

أي: تتأجل و﴿عَطَّة﴾ منصوب بما دل الكلام عليه. فكأنه قال: أعطاهم النعيم عطاء.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن اليوم المشهود، وهو يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: وما نؤخر هذا اليوم ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّوْرٍ﴾ وهو أجل قد عده الله تعالى، لعلمه أن صلاح الخلق في إدامة التكليف عليهم إلى ذلك الوقت، وفيه إشارة إلى قربه، لأن ما يدخل تحت العد فكان قد نفذ. وإنما قال: ﴿لِأَجَلٍ﴾ ولم يقل: إلى أجل، لأن اللام يدل على الغرض، وأن الحكمة اقتضت تأخيرها وإلا، لا يدل على ذلك ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي: حين يأتي القيامة والجزاء ﴿لَا تَكَلِّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا يتكلم أحد فيه إلا بإذن الله تعالى وأمره، ومعناه: أنه لا يتكلم فيه إلا بالكلام الحسن المأذون فيه، لأن الخلق ملجأون هناك إلى ترك القبائح، فلا يقع منهم فعل القبيح، وأما ما هو غير قبيح فإنه مأذون فيه، عن الجبائي. والأظهر أن يقال: معناه: أنه لا يتكلم أحد في الآخرة بكلام نافع من شفاعة ووسيلة إلا بإذنه.

فإن قيل: كيف يجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْذِرُونَ﴾ وقوله: ﴿فَيَوْمَذٍ لَا يَنْشَأُ عَنْ ذُلِّهِ إِشٌّ وَلَا جَانٌّ﴾ على أنه سبحانه قال في موضع آخر: ﴿وَقَفُّوْهُمُ إِنَّهُمْ مُّسْتَوْفُونَ﴾ وهل هذا إلا ظاهر التناقض؟

فالجواب: إن يوم القيامة يشتمل على مواقف قد أذن لهم في الكلام في بعض تلك المواقف، ولم يؤذن لهم في الكلام في بعضها، عن الحسن. وقيل: إن معنى قوله: ﴿لَا يَنْطِقُونَ﴾ أنهم لا ينطقون لحجة، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض. وهذا كما يقول القائل لمن تكلم بكلام كثير فارغ من الحجة: ما تكلمت بشيء ولا نطقت بشيء، فسمي من يتكلم بما لا حجة فيه غير متكلم، كما قال سبحانه: ﴿هُمْ بِكُمْ عَمَى﴾ وهم كانوا يسمعون ويتكلمون ويبصرون، إلا أنهم في أنهم لا يقبلون الحق ولا يتأملون، بمنزلة الصم البكم العمي، وكلا الوجهين حسن. وأما قوله: ﴿لَا يَنْشَأُ عَنْ ذُلِّهِ إِشٌّ وَلَا جَانٌّ﴾ فمعناه: أنهم لا يسألون عن ذنوبهم للتعرف، من حيث أن الله سبحانه علم أعمالهم، وإنما يسألون سؤال توبيخ وتقريع وتقرير لإيجاب الحجة عليهم، كما في قوله: ﴿وَقَفُّوْهُمُ إِنَّهُمْ مُّسْتَوْفُونَ﴾ فأثبت سبحانه سؤال التقريع في آية، ونفى سؤال التعرف والاستعلام في أخرى، فلا تناقض.

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ إخبار منه سبحانه بأنهم قسمان: أشقياء وهم المستحقون

(١) قائله ليبد في (المعلقة) قوله «العين» أي: واسعات العين. والطلا: ولد الوحش. والعود: الحديثات النتاج.

والأجل: القطيع من بقر الوحش. والبهام: أولاد الضأن إذا انفردت. يقول: والبقر الواسعات العيون قد سكنت

على أولادها ترضعها لكونها حديثات النتاج، وأولادها تصير قطعاً قطعاً في الصحراء.

للعقاب، وسعداء وهم المستحقون للشواب، والشقاء قوة أسباب البلاء، والسعادة قوة أسباب النعمة، والشقي من شقي بسوء عمله في معصية الله، والسعيد من سعد بحسن عمله في طاعة الله. والضمير في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ يعود إلى الناس في قوله ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ وقيل: إنه يعود إلى نفس في قوله: ﴿لَا تَكَلَّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ لأن النفس اسم للجنس.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ﴾ يعني أن الذين شقوا باستحقاقهم العذاب جزاء على أعمالهم القبيحة داخلون في النار، وإنما وصفوا بالشقاوة قبل دخولهم النار لأنهم على حال تؤديهم إلى دخولها. وأما ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: الشقي من شقي في بطن أمه، فإن المراد بذلك أن المعلوم من حاله أنه سيشقى بارتكاب القبائح التي تؤديه إلى عذاب النار، كما يقال لابن الشيخ الهرم: إنه يتيم، بمعنى أنه سيتم. ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال الزجاج: الزفير والشهيق من أصوات المكروبين المحزونين، والزفير: من شديد الأنين وقبيحه بمنزلة ابتداء صوت الحمار، والشهيق: الأنين الشديد المرتفع جداً بمنزلة آخر صوت الحمار، وعن ابن عباس قال: يريد ندامة ونفساً عالياً وبكاء لا ينقطع ﴿خَلِيلَيْكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَاءَ رُبُّكَ﴾ اختلف العلماء في تأويل هذا في الآيتين، وهما من المواضع المشككة في القرآن، والإشكال فيه من وجهين: أحدهما: تحديد الخلود بمدة دوام السموات والأرض.

والآخر: معنى الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا سَاءَ رُبُّكَ﴾ فالأول فيه أقوال:

أحدها: إن المراد: ما دامت السماوات والأرض مبدلتين، أي: ما دامت سماء الآخرة وأرضها، وهما لا يفنيان إذا أعيدا بعد الإفناء، عن الضحاك، والجبائي.

وثانيها: إن المراد: ما دامت سماوات الجنة والنار وأرضهما، وكل ما علاك فأظلك فهو سماء. وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض، وهذا مثل الأول أو قريب منه.

وثالثها: إن المراد: ما دامت الآخرة وهي دائمة أبداً، كما أن دوام السماء والأرض في الدنيا قدر مدة بقائها، عن الحسن.

ورابعها: إنه لا يراد به السماء والأرض بعينهما، بل المراد التباعد، فإن للعرب ألفاظاً للتباعد في معنى التأييد، يقولون: لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار، وما دامت السماء والأرض، وما نبت النبت، وما أطت الإبل، وما اختلف الجرة والدرة، وما ذرَّ شارق^(١). وفي أشباه ذلك كثرة، ظناً منهم أن هذه الأشياء لا تتغير، ويردون بذلك التأييد لا التوقيت، فخطبهم سبحانه بالمتعارف من كلامهم على قدر عقولهم وما يعرفون، قال عمرو بن معد يكرب:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان^(٢)

(١) الاطيط: صوت الإبل وحينها، أو صوت أجوافها من الكظة إذا شريت. والجرة بالكسر: ما يخرج البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه. والدرة: اللبن إذا كثر وسال. واختلافها أن الدرة تسفل إلى الرجلين. والجرة تعلق إلى الرأس. قاله في (اللسان). وذرت الشمس: طلعت. والشارق: الشمس.

(٢) الشعر المذكور في (جامع الشواهد).

وقال زهير:

ألا لا أرى على الحوادث باقياً، ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا
وإلا السماء، والنجوم، وربنا، وأيامنا معدودة، والليالي
لأنه توهم أن هذه الأشياء لا تفتنى وتخلد.

وأما الكلام في الاستثناء فقد اختلف فيه أقوال العلماء على وجوه:

أحدها: إنه استثناء في الزيادة من العذاب لأهل النار، والزيادة من النعيم لأهل الجنة،
والتقدير: إلا ما شاء ربك من الزيادة على هذا المقدار، كما يقول الرجل لغيره: لي عليك ألف
دينار إلا الألفين اللذين أقرضتكهما وقت كذا، فالألفان زيادة على الألف بغير شك، لأن الكثير
لا يستثنى من القليل، عن الزجاج، والفراء، وعلي بن عيسى وجماعة، وعلى هذا فيكون
﴿إِلَّا﴾ بمعنى سوى، أي: سوى ما شاء ربك، كما يقال: ما كان معنا رجل إلا زيد، أي:
سوى زيد.

وثانيها: إن الاستثناء واقع على مقامهم في المحشر والحساب، لأنهم حينئذ ليسوا في جنة
ولا نار، ومدة كونهم في البرزخ الذي هو ما بين الموت والحياة، لأنه تعالى لو قال: خالدين
فيها أبداً، ولم يستثن، لظن الظان أنهم يكونون في النار والجنة من لدن نزول الآية، أو من بعد
انقطاع التكليف، فحصل للاستثناء فائدة، عن المازني، وغيره، واختاره البلخي. فإن قيل: كيف
يستثنى من الخلود في النار ما قبل الدخول فيها؟ فالجواب: إن ذلك جائز إذا كان الإخبار به
قبل دخولهم فيها.

وثالثها: إن الاستثناء الأول يتصل بقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وتقديره: إلا ما شاء
ربك من أجناس العذاب الخارجة عن هذين الضربين، ولا يتعلق الاستثناء بالخلود، وفي أهل
الجنة يتصل بما دل عليه الكلام. فكأنه قال: لهم فيها نعيم إلا ما شاء ربك من أنواع النعيم،
وإنما دل عليه قوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْدَوْزُ﴾، عن الزجاج.

ورابعها: أن يكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو، أي: وما شاء ربك من الزيادة، عن الفراء.
واستشهد على ذلك بقول الشاعر:

وَأَرَى لَهَا دَاراً بِأَغْرِيرِ السُّ يَدَانِ لَمْ يَدْرُسْ لَهَا رَسْمٌ
إِلَّا رَمَاداً هَامِداً دَفَعَتْ عَنْهُ الرِّيحَ خَوَالِدٌ سُخْمٌ^(١)

قال: والمراد «بالا» الواو ههنا، وإلا كان الكلام متناقضاً، وهذا القول قد ضعفه محققو
النحويين.

(١) قائله المخبل السعدي. وأغدره السيدان: موضع بين البصرة والبحرين. والرماد الهامد: المتلبد بعضه على بعض.
والخوالد: البواقي: عنى بها الأثافي. والسحمة: لون يضرب إلى السواد. والشاهد في أن «إلا» ههنا بمعنى الواو
حيث قال: إن الأثافي دفعت عنه الرياح، فهو داخل في جملة ما لم يدرس، ولم يستثنه.

وخامسها: إن المراد بالذين شقوا: من أدخل النار من أهل التوحيد، الذين ضموا إلى إيمانهم وطاعتهم ارتكاب المعاصي، فقال سبحانه: إنهم معاقبون في النار إلا ما شاء ربك من إخراجهم إلى الجنة، وإيصال ثواب طاعاتهم إليهم، ويجوز أن يريد بالذين شقوا جميع الداخلين إلى جهنم، ثم استثنى بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أهل الطاعات منهم ممن استحق الثواب، ولا بد أن يوصل إليه، وتقديره: إلا ما شاء ربك أن يخرج به بتوحيده من النار ويدخله الجنة.

وقد يكون ﴿مَا﴾ بمعنى مَنْ، قال سبحانه: ﴿سَجَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقالت العرب عند سماع الرعد: سبحان ما سبَّحت له. وأما في أهل الجنة فهو استثناء من خلودهم أيضاً لما ذكرناه، لأن من ينقل إلى الجنة من النار وخلد فيها، لا بد في الإخبار عنه بتأييد خلوده أيضاً من استثناء ما تقدم، فكأنه قال: خالدين فيها إلا ما شاء ربك من الوقت الذي أدخلهم فيه النار قبل أن ينقلهم إلى الجنة، فـ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ها هنا على بابه، والاستثناء من الزمان، والاستثناء في الأول من الأعيان، والذين شقوا على هذا القول هم الذين سعدوا بأعيانهم، وإنما أجري عليهم كل لفظ في الحال الذي تليق به، فإذا أدخلوا النار وعوقبوا فيها، فهم من أهل الشقاء، وإذا نقلوا منها إلى الجنة فهم من أهل السعادة، وهذا قول ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وقتادة، والسدي، والضحاك، وجماعة من المفسرين.

وروى أبو ورق عن الضحاك عن ابن عباس قال: الذين شقوا ليس فيهم كافر وإنما هم قوم من أهل التوحيد يدخلون النار بذنوبهم، ثم يتفضل الله عليهم فيخرجهم من النار إلى الجنة، فيكونون أشقياء في حال، سعداء في حال أخرى، وقال قتادة: الله أعلم بمشيئته، ذكر لنا أن ناساً يصيبهم سفع^(١) من النار بذنوبهم، ثم يدخلهم الله الجنة برحمته، يسمون الجهنميين، وهم الذين أنفذ فيهم الوعيد، ثم أخرجوا بالشفاعة، قال: وحدثنا أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: يخرج قوم من النار، قال: ولا نقول ما يقوله أهل حروزاء، وهذا القول هو المختار المعول عليه.

وسادسها: إن تعليق ذلك بالمشيئة على سبيل التأكيد للخلود والتبديد للخروج، لأن الله تعالى لا يشاء إلا تخليدهم على ما حكم به، فكأنه تعليق لما لا يكون بما لا يكون، لأنه لا يشاء أن يخرجهم منها.

وسابعها: ما قاله الحسن: إن الله سبحانه استثنى، ثم عزم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ إنه أراد أن يخلدهم، وقريب منه ما قاله الزجاج وغيره: إنه استثناء تستثنيه العرب وتفعله، كما تقول: والله لأضربن زيداً إلا أن أرى غير ذلك، وأنت عازم على ضربه، والمعنى في الاستثناء على هذا، أي لو شئت ألا أضربه لفعلت.

وثامنها: قال يحيى بن سلام البصري: إنه يعني بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ما سبقهم به الذين دخلوا قبلهم من الفريقين، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾،

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ قال: إن الزمرة تدخل بعد الزمرة، فلا بد أن يقع بينهما تفاوت في الدخول، والاستثناءات على هذا من الزمان.

وتوسعها: إنَّ المعنى: خالدون في النار دائمون فيها مدة كونهم في القبور ما دامت السماوات والأرض في الدنيا. وإذا فنيّا وعدمنا انقطع عقابهم إلى أن يبعثهم الله للحساب. وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء وقع على ما يكون في الآخرة. أورده الشيخ أبو جعفر قدس الله روحه، وقال: ذكره قوم من أصحابنا في التفسير.

وعاشرها: إنَّ المراد: إلا ما شاء ربك أن يتجاوز عنهم فلا يدخلهم النار، والاستثناء لأهل التوحيد. عن أبي مجلز قال: هي جزاؤهم، وإن شاء سبحانه تجاوز عنهم، والاستثناء يكون على هذا من الأعيان.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُئِلُوا﴾ أي: سعدوا بطاعة الله وانتهاهم عن المعاصي ﴿فَنفى الْجَنَّةِ﴾ يكونون في الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: مدة دوام السماوات والأرض ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يتأتى فيه جميع ما ذكرناه في الاستثناء من الخلود في النار إلا ما مضى ذكره من جواز إخراج بعض الأشقياء من تناول الوعيد لهم، وإخراجهم من النار بعد دخولهم فيها، فإن ذلك يتأتى ههنا، لإجماع الأمة على أن من استحق الثواب فلا بد أن يدخل الجنة، وأنه لا يخرج منها بعد دخوله فيها ﴿عَطَاءً غَيْرَ مُجْدُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع.



قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَبْعُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ نصيبهم غير منقوص (١١٩) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١٢٠) ﴿وَإِنَّ كَلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٢١) ﴿فَأَسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٢٢).

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر، وابن عامر، وحزمة، وحفص: ﴿وَإِنَّ كَلًّا لَّمَّا﴾ بتشديد النون والميم، وقرأ أهل البصرة والكسائي وخلف: ﴿وَإِنَّ كَلًّا﴾ بتشديد النون ﴿لَمَّا﴾ بتخفيف الميم، وقرأ نافع وابن كثير: ﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ خفيفة النون ﴿لَمَّا﴾ خفيفة الميم، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ خفيفة النون ﴿لَمَّا﴾ مشددة الميم، وفي الشواذ قراءة الزهري وسليمان بن أرقم: ﴿لَمَّا﴾ بالتونين، وقراءة ابن مسعود. ﴿وَإِنْ كُلٌّ﴾ بالرفع إلا ﴿ليوفينهم﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا﴾ بتشديد ﴿إِنْ﴾ وتخفيف ﴿لَمَّا﴾ فوجهه بين، وهو أنه نصب كلاً بأن. وأن يقتضى أن يدخل على خبرها أو اسمها لام، فدخلت هذه اللام وهي لام الابتداء على الخبر في قوله: ﴿لَمَّا﴾ وقد دخلت في الخبر لام أخرى، وهي التي تلقي بها القسم، ويختص بالدخول على الفعل، ويلزمها في أكثر الأمر إحدى النونين، فلما اجتمعت اللامان وافقتا في تلقي القسم، وافقتا في اللفظ فصل بينهما «بما» كما فصلوا بين إن واللام فدخلت ﴿مَا﴾

لهذا المعنى وإن كانت زائدة لتفصل، كما جلبت النون وإن كانت زائدة في نحو: ﴿فَأَمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ وكما صارت عوضاً من الفعل في قولهم: ﴿إِمَّا لَا﴾ بالامالة وفي قوله:

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا أَنْتَ ذَا نَفَرٍ فَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَأْكُلْهُمْ الضَّبْعُ^(١)

ويلي هذا الوجه في البيان قول من خفف ﴿إِنْ﴾ ونصب ﴿كُلًّا﴾ وخفف ﴿لَمَّا﴾ قال سيبويه: حدثنا من نثق به أنه سمع من العرب من يقول: إن عمرأ لمنطلق، قال: وأهل المدينة يقرأون: ﴿وإن كلاً لما جميع لدينا محضرون﴾ يخففون وينصبون، كما قالوا:

كَأَنَّ تَذْيِيهِ حَقًّا^(٢)

ووجه النصب بها مع التخفيف من القياس: أن إن مشبهة في نصبها بالفعل، والفعل يعمل محذوفاً كما يعمل غير محذوف، وذلك في نحو: لم يك زيد منطلقاً. ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرْيَتٍ﴾ وكذلك لا أدر.

فأما من خفف ﴿أَنْ﴾ ونصب ﴿كُلًّا﴾ وثقل ﴿لَمَّا﴾ فقراءته مشكلة، وذلك أن إن إذا نصب بها، وإن كانت مخففة، كانت بمنزلة مثقلة، ولما إذا شددت كانت بمنزلة إلا، وكذلك قراءة من شدد ﴿لَمَّا﴾ وثقل ﴿إِنْ﴾ مشكلة، وذلك أن إن إذا ثقلت وإذا خففت ونصب بها فهي في معنى الثقيلة، فكما لا يحسن تثقيب إن زيدا إلا منطلق، كذلك لا يحسن تثقيب ﴿أَنْ﴾ وتثقيب ﴿لَمَّا﴾ فأما مجيء ﴿لَمَّا﴾ في قولهم: نَشُدُّكَ اللهَ لَمَّا فعلت، وإلا فعلت، فقال الخليل: لتفععلن، كما تقول: أقسمت عليك لتفععلن، وأما دخول إلا و﴿لَمَّا﴾ فلأن المعنى الطلب، فكأنه أراد: ما أسألك إلا فعل كذا، ولم يذكر حرف النفي في اللفظ وإن كان مراداً، كما جاء في قولهم: شَرُّ أَهْرَ ذَا نَابٍ، أي: ما أهره إلا شر، وليس في الآية معنى نفي ولا طلب.

فإن قال قائل: لِمَنْ ما، فأدغم النون في الميم، بعد ما قلبها ميماً، فإن ذلك لا يسوغ، ألا ترى أن الحرف المدغم إذا كان قبله ساكن نحو: قوم مالك، لم يقوَ الإدغام فيه على أن يحرك الساكن الذي قبل الحرف المدغم، فإذا لم يجز ذلك فيه وكان التغيير أسهل من الحذف، فالأرجح يجوز الحذف الذي هو أذهب في باب التغيير من تحريك الساكن أجدر، على أن في هذه السورة ميمات اجتمعت في الإدغام أكثر مما كان يجتمع في لِمَنْ ما، ولم يحذف منها شيء، وذلك قوله: ﴿وَعَلَى أُمِّرٍ مِّنْ مَّعْلَكٍ﴾ فإذا لم يحذف شيء من هذا فالأرجح، ثم أجدر.

وقد روي أنه قد قرئ: ﴿وإن كلا لَمَّا﴾ منوناً كما قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمَّا﴾ فوصف بالمصدر، فإن قال: إن ﴿لَمَّا﴾ فيمن ثقل إنما هو ﴿لَمَّا﴾ هذه وقف عليها بالألف، ثم أجري الوصل مجرى الوقف، فذلك مما يجوز في الشعر، ووجه الإشكال فيه أبين من هذا الوجه، وقد حكى عن الكسائي أنه قال: لا أعرف وجه التثقيب في لَمَّا، ولم يُبعد فيما.

(١) قائله: عباس بن مرداس. والشعر المذكور في (جامع الشواهد).

(٢) لم يعرف قائله، وقبله: «وصد مشرق النحر» ويروى بالألف على إهمال كان في اللفظ. ووجه الرواية بالياء ظاهر.

ولو خفف مخفف ﴿أَنْ﴾ ورفع ﴿كَلَّا﴾ بعدها لجاز تثقيل ﴿لَمَّا﴾ مع ذلك، على أن يكون المعنى: ما كلٌّ إلا ليوفينهم، فيكون ذلك كقوله: ﴿وَإِنْ كُنْ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ولكان ذلك أتبين من النصب في ﴿كَلَّا﴾ والتثقيل في ﴿لَمَّا﴾ وينبغي أن يقدر المضاف إليه ﴿كَلَّا﴾ نكرةً ليحسن وصفه بالنكرة، ولا يقدر إضافته إلى معرفة فيمتنع أن يكون ﴿لَمَّا﴾ وصفاً له، ولا يجوز أن يكون حالاً، لأنه لا شيء في الكلام عاملاً في الحال، هذا كله كلام أبي علي.

وقال غيره: في معنى ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد أربعة أوجه:

أحدها: قول الفراء: إنها بمعنى لِمَنْ ما، فحذفت إحدى الميمات الثلاث على ما تقدم ذكره، وأنشد الفراء:

وإني لَمَّا أَضْدَرَ الْأَمْرَ وَجْهَهُ إِذَا هُوَ أَعْيَا بِالسَّبِيلِ مَصَادِرُهُ
والثاني: إنها بمعنى «إلا» كقولهم: سألتك لَمَّا فعلت، بمعنى إلا فعلت، عن الزجاج.
وقال الفراء: هذا لا يجوز إلا في اليمين، كما قال أبو علي.

والثالث: إنها مخففة شددت للتأكيد، عن المازني. قال الزجاج: هذا لا يجوز، لأنه إنما يجوز تخفيف المشدد عند الضرورة، فأما تشديد المخفف فلا يجوز بحال.

والرابع: إنها من لَمَنْتُ الشيء إذا جمعته، إلا أنها بنيت على فَعْلَى، فلم تصرف مثل تَتَرَى. فكأنه قال: وإن كلا جميعاً ليوفينهم. ويدل عليه قراءة الزهري «لَمَّا» بالتثنية. وقال ابن جني: تقدير هذا: وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم لَمَّا، أي توفية جامعة لأعمالهم جميعاً، ومحصلاً لأعمالهم تحصيلاً، فهو كقولك: قياماً لأقوامٍ.

وذكر الشيخ علي بن أبي الطيب، رحمة الله عليه فيه وجهاً آخر فقال: ها هنا محذوف، وتقديره: وإن كلا لما عملوا ليوفينهم ربك أعمالهم، والحذف في الكلام كثير، قال الشاعر:

إِذَا قُلْتُ سِيرُوا إِنَّ لَيْلَى لَعَلَّهَا جَرَى دُونَ لَيْلَى مَائِلُ الْقَرْنِ أَعْضَبُ^(١)

والمراد: لعلها تلقاني أو تصلني أو نحو هذا، فهذا وجه خامس.

فأما إذا خففت ﴿إِنْ﴾ فانتصاب ﴿إِنْ﴾ مع حمل ﴿إِنْ﴾ على النفي مشكل، وقد ذكر فيه أن يكون التقدير: وإن هم إلا ليوفينهم كلاً، أو: وإن هم أعني كلاً إلا ليوفينهم، وهذان الوجهان مرغوب عنهما، وعلى الجملة فإن تشديد الميم من ﴿لَمَّا﴾ مع تشديد ﴿وَإِنْ﴾ وتخفيفه مشكل عند المحققين، إذ لا يتأتى في ﴿لَمَّا﴾ هذه معنى «لم» ولا معنى «الحين» ولا معنى «إلا» ولا يعرف لها معنى سوى هذه.

ومن قرأ: ﴿وَإِنْ كُنْ إِلَّا لِيُوفِيَنَّهُمْ﴾ فمعناه: ما كل إلا والله ليوفينهم، كقولك: ما زيد

(١) الشعر في (جامع الشواهد) والرواية فيه: «إذا قيل سيروا».

سورة هود

إلا لأضربنه، أي: ما زيد إلا مستحق لأن يقال فيه هذا، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة وإلا زائدة، كما في قول الشاعر:

أرى الدهرَ إلا مُنْجِنوناً بأهله وما طالبُ الحاجاتِ إلا مُعَلِّلاً^(١)

أي أرى الدهر منجئوناً بأهله، وعلى ذلك تأولوا بيت ذي الرمة:

حراجيج ما تنفكُ إلا مُناخَةً على الخسفِ أو يَرمي بها بلداً قفراً

أي: ما تنفك مناخة. وإلا: زائدة.

● **اللغة:** المِزِيَّة، بكسر اليم وضمة: الشك مع ظهور الدلالة للتهمة، وهي مأخوذة من مرى ضرع الناقة ليدر بعد دروره. والنصيب: الحظ وهو القِسم المَجْعول له، ومنه: أنصبا الورثة. والاختلاف: ذهب كل واحد إلى جهة غير جهة الآخر، وهو على وجهين: اختلاف النقيضين، وهذا لا يجوز أن يصحاً معاً، فإن أحدهما مبطل لصاحبه. والآخر: اختلاف الجنسين، كاختلاف المجتهدين في جهة القبلة، فهذا يجوز أن يصحاً معاً. والاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة، وألا يعدل يميناً أو شمالاً. والطغيان: تجاوز المقدار في الفساد.

● **الإعراب:** ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ موصول، وصلة في موضع رفع بالعطف على الضمير المستكن في ﴿فَأَسْتَقِمَّ﴾، ويجوز أن يكون معطوفاً على التاء من ﴿أَمَرْتُ﴾. ويكون التقدير في الأول: استقم أنت ومن تاب معك. وفي الثاني: كما أمرت أنت ومن تاب معك. ويجوز أن يكون ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ منصوب الموضع بكونه مفعولاً معه.

● **المعنى:** ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شك ﴿وَمَا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ من دون الله تعالى، إنه باطل وإنهم يصيرون بعبادتهم إلى النار ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ﴾ يعني ما يعبدون غير الله تعالى إلا على جهة التقليد، كما كان آباؤهم كذلك ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ أي: إنا لمعطوهم جزاء أعمالهم وعقاب أعمالهم وافيّاً ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ عن مقدار ما استحقوه. آيسهم سبحانه بهذا القول عن العفو، وقيل: معناه: أنا نعطيهم ما يستحقونه من العقاب بعد أن نوفيهم ما حكمنا لهم به من الخير في الدنيا، عن ابن زيد ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أي: أعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿فَاتَّخِذَ فِيهِ﴾ يريد أن قومه اختلفوا فيه، أي: في صحة الكتاب الذي أنزل عليه، وأراد بذلك تسلية النبي ﷺ عن تكذيب قومه إياه، وجحدهم القرآن المنزل عليه، فبين أن قوم موسى ﷺ كذلك فعلوا بموسى، فلا تحزن لذلك ولا تغتم له.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: لولا خبر الله السابق بأنه يؤخر الجزاء إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من المصلحة ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمُ﴾ أي: لعجل الثواب والعقاب لأهله. وقيل: معناه لفصل الأمر على التمام بين المؤمنين والكافرين، بنجاة هؤلاء، وهلاك أولئك ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ يعني أن الكافرين لفي شك من وعد الله ووعيده مرِيب، والريب

(١) هذا البيت، وكذا البيت الآتي، المذكوران في (جامع الشواهد).

أقوى من الشك. وقيل: معناه أن قوم موسى لفي شك من نبوته ﴿وَإِنَّ كَلَامًا﴾ من الجاحدين والمخالفين. وقيل: إن كلاً من الفريقين المصدق والمكذب جميعاً ﴿لَمَّا لَوَفَّيْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: يعطيهم جزاء أعمالهم وافياً تاماً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿إِنَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ يعني أنه عليم بأعمالكم، وبما استحققتهم من الجزاء عليها لا يخفى عليه شيء من ذلك. ﴿فَاسْتَقِيمْ﴾ يا محمد ﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾ أي: استقم على الوعد والإنذار والتمسك بالطاعة والأمر بها، والدعاء إليها. والاستقامة: هي أداء الأمور به، والانتهاز عن المنهي عنه، كما أمرت في القرآن ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي: وليستقم من تاب معك من الشرك كما أمروا، عن ابن عباس. وقيل: معناه ومن رجع إلى الله وإلى نبيه فليستقم أيضاً، أي: فليستقم المؤمنون. وقيل: استقم أنت على الأداء، وليستقيموا على القبول ﴿وَلَا تَقْفُوا﴾ أي: لا تجاوزوا أمر الله بالزيادة والنقصان فتخرجوا عن حد الاستقامة. وقيل: معناه ولا تطغىكم النعمة فتخرجوا عن حد الاستقامة، عن الجبائي. وقيل: معناه لا تعصوا الله ولا تخالفوه.

﴿إِنَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِخَيْرٍ﴾ أي: عليم بأعمالكم، لا تخفى عليه منها خافية. وروى الواحدي بإسناده عن إبراهيم بن أدهم، عن مالك بن دينار، عن أبي مسلم الخولاني، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتاد، ثم كان الاثنان أحب إليكم من الواحد، لم تبلغوا حد الاستقامة. وقال ابن عباس: ما نزل على رسول الله ﷺ آية كانت أشد عليه ولا أشق من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: أسرع إليك الشيب يا رسول الله! : شيبتي هود والواقعة.

● **النظم:** وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها أنه لما قصَّ نبأ الأمم وإهلاكهم بكفرهم، أخبر عقيب ذلك عن بطلان ما كانوا عليه، وأنه يوفيههم جزاء أعمالهم. وقيل: إنه سبحانه بيّن فيما قبل اختلاف الأمم على أنبيائهم تكديباً لهم، ثم بيّن في هذه الآية أن خلاف هؤلاء كخلاف أولئك، خلاف كفر لا خلاف اجتهاد، عن أبي مسلم. وكذلك اتصال الآية الثانية: فإنه بيّن فيها أن تكذيب هؤلاء الكفار بالذي آتيناك كتكذيب أولئك بالكتاب الذي آتيناه موسى.



قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أٰجَحْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ وَكَانُوا ثٰجِرِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴿

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: ﴿وَرُفُلًا﴾ بضم اللام، والباقون: بفتح اللام.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿وَزُلْفًا﴾ بفتح اللام، فإنه جمع زُلْفَة، وهي المنزلة، قال العجاج:

نَاجِ طَوَاهُ الْأَيْنُ مَمَّا وَجَفَا طِيَّ اللَّيَالِي زُلْفًا فَرُفَا^(١)

ومن قرأ بضم اللام فإنه واحد مثل الحُلم، وجائز أن يكون جمعاً على زليف من الليل، فيكون مثل: قريب وقرب. قال الزجاج: والزُلْفُ بالفتح أجود في الجمع، وما علمت أن زليفاً يستعمل في الليل، وهو منصوب على الظرف.

● **اللغة:** الركون إلى الشيء: هو السكون إليه بالمحبة له والإنصات إليه. ونقيضه النفور عنه.

والصبر: حبس النفس عن الخروج إلى ما لا يجوز من ترك الحق، وضده الجزع، قال:

فَإِنْ تَضْبِرَا فَالصَّبْرُ خَيْرٌ مَغْبَةً، وَإِنْ تَجْزِعَا فَالْأَمْرُ مَا تَرِيَانِ^(٢)

وهو مأخوذ من الصبر المر، لأنه يَجْزَعُ مرارة الحق بحبس النفس عن الخروج إلى

المشتهى، ومما يعين على الصبر شيان:

أحدهما: العلم بما يعقب من الخير في كل وجه، وعادة النفس له.

والثاني: استشعار ما في لزوم الحق من العز والأجر بطاعة الله.

والبقية: ما بقي من الشيء بعد ذهابه، وهو الاسم من الإبقاء، ويقال: فلان في بقية،

أي: فضل مما يمدح به وخير، كأنه قيل: بقية خير من الخير الماضي. وأترفوا: أي: عودوا

الترُّفُ بالنعيم واللذة، وذلك أن الترفُّه عادة: النعمة. قال:

تُهْدَى رُؤُوسُ الْمُتَرْفِينَ الضُّدَّادَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤْتَدِ^(٣)

أي: المسؤول. وإنما قيل للمتنعّم مترف: لأنه مطلق له، لا يمنع من تنعمه.

● **الإعراب:** ﴿فَتَسَكَّمْ﴾ منصوب لأنه جواب النهي بالفاء، وتقديره: لا يكن منكم

ركون إلى الظالمين فتمسّ النار إياكم ﴿ثُمَّ لَا تُصْرُوتْ﴾: ارتفع ﴿تُصْرُوتْ﴾ على الاستئناف

﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ منصوب على الظرف. ﴿وَزُلْفًا﴾ معطوف عليه ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾: استثناء منقطع

بمعنى لكن، عن الزجاج، تقديره: لكن قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد.

● **المعنى:** ثم نهى سبحانه عن المداهنة في الدين، والميل إلى الظالمين، فقال: ﴿وَلَا

تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ولا تميلوا إلى المشركين في شيء من دينكم، عن ابن عباس.

وقيل: لا تداهنا الظلمة عن السدي وابن زيد. وقيل: إن الركون إلى الظالمين المنهي عنه هو

الدخول معهم في ظلمهم، وإظهار الرضا بفعالهم، وإظهار موالاتهم. فأما الدخول عليهم أو

مخالطتهم ومعاشرتهم دفعاً لشهرهم فجائز، عن القاضي. وقريب منه ما روي عنهم عليهم السلام: أن

(١) الناج: البعير السريع. وطواه أي أهزله. الأين: التعب. والوجف: سرعة السير. وبعد هذا البيت قوله: «سماوة

الهلال حتى أحقوقفا» وبه يتم المعنى أي: كما يطوي الليالي الهلال.

(٢) مغبة الأمر: عاقبته.

(٣) قائله رؤية.

الركون: المودة والنصيحة والطاعة. ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي: فيصيبكم عذاب النار ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ آوِيَةٍ﴾ أي: ما لكم سواه من أنصار يدفعون عنكم عذاب الله، وفي هذا بيان أنهم متى خالفوا هذا النهي وسكنوا إلى الظالمين نالتهم النار، ولم يكن لهم ناصر يدفع عنهم عقوبة لهم على ذلك ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تنصرون في الدنيا على أعدائكم، لأن نصر الله نوع من الثواب، فيكون للمطيعين.

﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ﴾ أي: أدها واث بأعمالها عي وجه التمام في ركوعها وسجودها وسائر فروضها. وقيل: معناه اعملها على استواء. وقيل: أدم على فعلها ﴿طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾ قيل: أراد بـ ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾: صلاة الفجر والمغرب، وبـ ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾: صلاة العشاء الآخرة. والزلف: أول ساعات الليل، عن ابن عباس، وابن زيد. قالوا: وترك ذكر الظهر والعصر لأحد أمرين:

إما لظهورهما في أنهما صلاتا النهار، فكأنه قال: وأقم الصلاة طرفي النهار مع المعروفة من صلاة النهار.

وإما لأنهما مذكورتان على التبع للطرف الأخير، لأنهما بعد الزوال فهما أقرب إليه، وقد قال سبحانه: ﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ ودلوك الشمس زوالها، وهذا القول هو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. وقيل: صلاة طرفي النهار: الغداة، والظهر، والعصر، وصلاة زلف الليل: المغرب، والعشاء الآخرة، عن الزجاج، وبه قال مجاهد، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظي، والحسن، قالوا: لأن طرف الشيء من الشيء، وصلاة المغرب ليست من النهار، قال الحسن: قال رسول الله ﷺ: المغرب والعشاء زلفتا الليل. وقيل: أراد بطرفي النهار صلاة الفجر وصلاة العصر ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾ قيل: في معناه إن الصلوات الخمس تكفر ما بينها من الذنوب، لأنه عَرَفَ الحسنات بالآلف واللام، وقد تقدم ذكر الصلاة عن ابن عباس وأكثر المفسرين. وذكر الواحدي بإسناده عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان تحت شجرة، فأخذ غصناً يابساً منها فهزّه حتى تحات ورقه^(١)، ثم قال: يا أبا عثمان! ألا تسألني: لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: هكذا فعله رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزّه حتى تحات ورقه ثم قال: ألا تسألني يا سلمان لم أفعل هذا؟ قلت: ولم فعلته؟ قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحات خطاياه كما يتحات هذا الورق، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها.

وبإسناده عن أبي أمامة قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد ونحن قعود معه، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله! إني أصبت حداً فأقمه عليّ. فقال: هل شهدت الصلاة معنا؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: فإن الله قد غفر لك حدك، أو قال: ذنبك. وبإسناده عن الحرث، عن

(١) أي: تساقط.

سورة هود

علي بن أبي طالب عليه السلام قال: كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد ننتظر الصلاة، فقام رجل فقال: يا رسول الله! إني أصبت ذنباً. فأعرض عنه. فلما قضى النبي ﷺ الصلاة، قام الرجل فأعاد القول، فقال النبي ﷺ: أليس قد صليت معنا هذه الصلاة وأحسنت لها الطهور؟ قال: بلى، قال: فإنها كفارة ذنبك.

وروى أصحابنا، عن ابن محبوب، عن إبراهيم الكرخي قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، إذ دخل عليه رجل من أهل المدينة فقال له: من أين جئت؟ ثم قال له: تقول: جئت من ههنا وههنا لغير معاش تطلبه، ولا لعمل أجر تكسبه، أنظر بماذا تقطع يومك وليلتك، واعلم أن معك ملكاً كريماً موكلاً بك، يحفظ عليك ما تصنع، ويطلع على سرّك الذي تخفيه من الناس، فاستحيي، لا تستحقرن سيئة فإنها ستسوؤك يوماً، ولا تحقرن حسنة وإن صغرت عندك وقلّت في عينك فإنها ستسرك يوماً، واعلم أنه ليس شيء أضّر عاقبة ولا أسرع ندامة من الخطيئة، وأنه ليس شيء أشد طلباً ولا أسرع دركاً للخطيئة من الحسنة، أما إنها لتدرك الذنب العظيم القديم المنسي عند عامله فتجذب به وتسقطه وتذهب به بعد إثباته، وذلك قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾.

وروا عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أحدهما عليه السلام يقول: إن علياً عليه السلام أقبل على الناس فقال: أي آية في كتاب الله أرجى عندكم؟ فقال بعضهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية. فقال: حسنة، وليست إياها، وقال بعضهم: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ قال: حسنة وليست إياها، وقال بعضهم: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ قال: حسنة وليست إياها، وقال بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ الآية. قال: حسنة وليست إياها، قال: ثم أحجم الناس فقال: ما لكم يا معشر المسلمين؟ فقالوا: لا والله ما عندنا شيء، قال: سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ وقرأ الآية كلها. قال: يا علي! والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفلت وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أمه، فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين كان له مثل ذلك حتى عدّ الصلوات الخمس، ثم قال: يا علي! إنما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهجر جار على باب أحدكم، فما يظن أحدكم لو كان في جسده درن ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرات، أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي.

وقيل: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ﴾ معناه: إن الدوام على فعل الحسنات يدعو إلى ترك السيئات، فكأنها يذهب بها. وقيل: إن المراد بالحسنات التوبة، فإنها تذهب السيئات بأن تسقط عقابها، لأنه لا خلاف في أن العقاب يسقط عند التوبة ﴿ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ يعني أن ما ذكره من أن الحسنات تذهب السيئات فيه تذكّار وموعظة لمن تذكّر به وفكّر فيه ﴿وَأَصْبِرْ﴾ قيل: معناه واصبر على الصلاة، كما قال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المصلّين، عن ابن عباس. وقيل: معناه اصبر يا محمد على أذى قومك،

وتكذيبهم إياك، وعلى القيام بما افترضته عليك، وعلى أداء الواجبات والامتناع عن المقبحات، فإن الله لا يهمل جزاء المحسنين على إحسانهم ولا يبطله، بل يكافئهم عليه أكمل الثواب ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً﴾ أي: هلاً كان، وإلا كان، ومعناه النفي، وتقديره: لم يكن من القرون من قبلكم قوم باقون ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كان يجب أن يكون منهم قوم بهذه الصفة مع إنعام الله تعالى عليهم بكمال العقل، وبعثة الرسل إليهم، وإقامة الحجج لهم، وهذا تعجيب وتوبيخ لهؤلاء الذين سلكوا سبيل من قبلهم في الفساد، نحو: عاد وثمود، والقرون التي عدها القرآن وأخبر بهلاكها، أي: إن العجب منهم، كيف لم تكن من جملتهم بقية في الأرض يأمرهم فيها بالمعروف وينهون عن المنكر؟! وكيف اجتمعوا على الكفر حتى استأصلهم الله بالعذاب وأنواع العقوبات لكفرهم بالله ومعاصيهم له؟! وقيل: ﴿أُولُوا بَقِيَّةً﴾ معناه: ذوو دين وخير. وقيل: معناه ذوو بركة. وقيل: ذوو تمييز وطاعة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ المعنى: إن قليلاً منهم كانوا ينهون عن الفساد، وهم الأنبياء والصالحون الذين آمنوا مع الرسل، فأنجيناهم من العذاب الذي نزل بقومهم، وإنما جعلوا هذا الاستثناء منقطعاً، لأنه إيجاب لم يتقدم فيه صيغة النفي، وإنما تقدم تهجين خرج مخرج السؤال، ولو رفع لجاز في الكلام.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: واتبع المشركون ما عودوا من النعم والتنعيم، وإيثار اللذات على أمور الآخرة، واشتغلوا بذلك عن الطاعات ﴿وَكَاثُرًا﴾ أي: وكان هؤلاء المتنعمون البطرون ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرّين على الجرم. وفي الآية دلالة على وجوب النهي عن المنكر، لأنه سبحانه ذمهم بترك النهي عن الفساد، وأخبر بأنه أنجى القليل منهم لنهيهم عن ذلك، ونبه على أنه لو نهى الكثير كما نهى القليل لما هلكوا، ثم أخبر سبحانه أنه لم يهلك إلا بالكفر والفساد، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ وذكر في تأويله وجوه:

أحدها: إن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلم منه لهم، ولكن إنما يهلكهم بظلمهم لأنفسهم، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ الآية.

وثانيها: إن معناه: لا يؤاخذهم بظلم واحد، مع أن أكثرهم مصلحون، ولكن إذا عم الفساد وظلم الأكثرون عذبهم.

وثالثها: إنه لا يهلكهم بشركهم وظلمهم لأنفسهم وهم يتعاطون الحق بينهم، أي: ليس من سبيل الكفار إذا قصدوا الحق في المعاملة أن يهلكهم الله بالعذاب، عن ابن عباس في رواية عطاء، والواو في قوله: ﴿وَأَهْلُهَا﴾ واو الحال، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ينصف بعضهم بعضاً.

● **النظم:** وجه اتصال قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية بما قبلها، أنه تعالى لما ذكر إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية، عقب ذلك بأنهم أتوا في إهلاكهم من قبل نفوسهم، ولو كان فيهم مؤمنون يأمرهم بالصلاح وينهون عن الفساد لما استأصلناهم رحمة منا، ولكنهم لما عمهم الكفر استحقوا عذاب الاستئصال.

سورة هود

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتُ فِيهِ فَوَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ: ﴿يُرْجَعُ الْأَمْرُ﴾ بضم الياء وفتح الجيم وكسرهما نافع وحفص والباقون: ﴿يُرْجَعُ﴾ بفتح الياء. وقرأ: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء هنا، وفي آخر النمل أهل المدينة، والشام، ويعقوب وحفص، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** من ضم الياء من ﴿يُرْجَعُ﴾ فلقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ والمعنى: رد أمرهم إلى الله. ومن فتح الياء فلقوله: ﴿وَالْأَمْرُ يُؤْمَرُ إِلَهُ﴾ والمعنيان متقاربان. ومن قرأ بالتاء في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ جعل الخطاب للنبي ﷺ وأمته، وهو أعم فائدة. ومن قرأ بالياء، وجهه إلى من تقدم ذكره من الكفار، وفيه ضرب من التهديد.

● **اللغة:** القصص: الخبر عن الأمور بما يتلو بعضه بعضاً، لأنه من قصه يقصه إذا اتبع أثره، لأنه يتبع أثر من يخبر عنه. والنبأ: الخبر بما فيه عظيم الشأن، يقولون: لهذا الأمر نبأ. والتثبيت: تمكين إقامة الشيء من الثبوت، ثبته بتسكينه، وثبته بتمكينه، وثبته بالدلالة على ثبوته، وثبته بالخبر عن وجوده. والفؤاد: القلب، مأخوذ من المفتاد وهو المشوي، قال:

كأنه خارجاً مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُودَ شَرْبِ نَسْوِهِ عِنْدَ مُفْتَادٍ^(١)

والمكانة: الطريقة التي يتمكن من العمل عليها. وله مكانة عند السلطان، أي جاء وقدر. والانتظار: طلب الإدراك لما يأتي من الأمر، لأنه من النظر، والفرق بين الانتظار والترجي: أن الترجي للخير خاصة، والانتظار في الخير والشر.

● **الإعراب:** ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ قال الزجاج: هو استثناء على معنى لكن، وتقديره: لكن من رحم ربك، فإنه غير مختلف. وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ جواب القسم، وتقديره: يميناً لأملأن، كما تقول: حلقي لأضربنك، وبدا لي لأضربنك، وكل فعل كان تأويله كتأويل بلغني، أو قيل لي، أو انتهى إلي، فإن اللام وأن يصلحان فيه، فتقول: بدا لي لأضربنك، وبدا لي أن أضربك. ولو قيل: وتمت كلمة ربك أن يملأ جهنم، كان صواباً. ﴿وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نصب على المصدر، وتقديره: وكل القصص نقص عليك. وقيل: إنه نصب على الحال، فقدم الحال قبل العامل، كما تقول: كلا ضربت القوم، ويجوز أن يكون نصباً على أنه مفعول به، وتقديره:

(١) قائله النابعة في (معلقته). الشرب: جمع الشارب. ونسوه أي: تركوه قال في (اللسان): المفتاد: موضع الوقود. ثم أنشد هذا الشعر، ثم قال: والتفؤد: التوقد. والفؤاد: القلب لتفؤده، وتوقده.

وكل الذي يحتاج إليه نقص عليك، ويكون ﴿مَا نُثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدلاً منه، قاله الزجاج. وقوله: ﴿إِنَّا عَمِلُونَا﴾، ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ لو دخلت الفاء فقال: فإننا، لأفاد أن الثاني لأجل الأول، وحيث لم يدخل لم يفد ذلك.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن كمال قدرته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على ملة واحدة ودين واحد، فيكونون مسلمين صالحين، عن قتادة. وذلك بأن يلجنهم إلى الإسلام، بأن يخلق في قلوبهم العلم بأنهم لو راموا غير ذلك لمنعوا منه، لكن ذلك ينافي التكليف، وببطل الغرض بالتكليف، لأن الغرض به استحقاق الثواب، والإلجاء يمنع من استحقاق الثواب، فلذلك لم يشأ الله ذلك، ولكنه شاء أن يؤمنوا باختيارهم ليستحقوا الثواب. وقيل: معناه لو شاء ربك لجعلهم أمة واحدة في الجنة، على سبيل التفضل، لكنه اختار لهم أعلى الدرجتين، فكلفهم ليستحقوا الثواب، عن أبي مسلم. وقيل: معناه لو شاء لرفع الخلاف فيما بينهم ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الأديان بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، وغير ذلك، عن مجاهد، وقاتدة، وعطاء، والأعمش، والحسن، في إحدى الروايتين عنه، وفي الرواية الأخرى عنه: أنهم مختلفون في الأرزاق والأحوال ولتسخير بعضهم لبعض. وقيل: معناه يخلف بعضهم بعضاً في الكفر تقليداً من غير نظر، فإن قولك: خلف بعضهم بعضاً، وقولك: اختلفوا، سواء، كما أن قولك: قتل بعضهم بعضاً، وقولك: اقتتلوا، سواء، عن أبي مسلم ﴿إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ﴾ من المؤمنين، فإنهم لا يختلفون ويجمعون على الحق، عن ابن عباس. والمعنى: لا يزالون مختلفين بالباطل إلا من رحمهم الله، بفعل اللطف لهم، الذي يؤمنون عنده ويستحقون به الثواب، فإن من هذه صورته ناج من الاختلاف بالباطل ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اختلف في معناه فقيل: يرد: وللرحمة خلقهم، عن ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والضحاك، وهذا هو الصحيح، واعترض على ذلك بأن قيل: لو أراد الله ذلك لقال: ولتلك خلقهم، لأن الرحمة مؤنثة، وهذا باطل، لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي، فإذا ذكر فعلى معنى التفضل والإنعام، وقد قال سبحانه: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي﴾ و ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ومثله قول امرئ القيس:

بَرَهْرَهَةً، رُؤْدَةً، رَخْصَةً كَخَزَعَوَةِ الْبَائَةِ الْمُنفَطِرِ^(١)

ولم يقل: المنفطرة، لأنه ذهب إلى الغصن. وقال:

قَامَتْ تُبَكِّيهِ عَلَى قَبْرِهِ مَنْ لِي مِنْ بَغْدِكَ يَا عَامِرُ؟
تَرَكْتَنِي فِي الدَّارِ فِي غُرْبَةٍ قَدْ ذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرُ

ولم يقل: ذات غربة، لأنه أراد شخصاً ذا غربة، وقالت الخنساء:

فَذَلِكَ يَا هِنْدُ الرِّزْيَةُ فَاغْلَمِي وَنِيرَانُ حَرْبٍ حِينَ شَبَّ وَقَوْدُهَا^(٢)

(١) البرهرة: المرأة التي لها بريق من صفاتها. وقيل: هي الرقيقة الجلد. والرؤدة. الشابة الحسنة. وخزعوبة:

القضب الغض. والبائة: شجر. والمنفطر: المنشق.

(٢) والشاهد في قولها: (ذلك)، ولم تقل (تلك) لأنها أرادت الرزء.

أراد: الرزء. وفي أمثال ذلك كثرة، على أن قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ كما يدل على الرحمة يدل أيضاً على أن يرحم، فلا يمتنع أن يكون المراد: لأن يرحموا خلقهم. وقيل: إن المعنى ولاختلاف خلقهم، واللام للعاقبة، يريد أن الله خلقهم وعلم أن عاقبتهم تؤول إلى الاختلاف المذموم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾، عن الحسن، وعطاء، ومالك، ولا يجوز على هذا أن يكون اللام للغرض، لأنه تعالى لا يجوز أن يريد منهم الاختلاف المذموم، إذ لو أراد ذلك منهم لكانوا مطيعين له في ذلك الاختلاف، لأن الطاعة حقيقتها موافقة الإرادة والأمر، ولو كانوا كذلك لما استحقوا عقاباً، وأما إذا حمل معنى الاختلاف على ما قاله أبو مسلم فيجوز أن تكون اللام للغرض. وقيل: إن ذلك إشارة إلى اجتماعهم على الإيمان، وكونهم فيه أمة واحدة، ولا محالة أن الله سبحانه لهذا خلقهم، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقال المرتضى قدس الله روحه: قد قال قوم: إن معنى الآية: ولو شاء ربك أن يدخل الناس بأجمعهم الجنة فيكونوا في وصول جميعهم إلى النعيم أمة واحدة لفعل، وأجروا هذه الآية مجرى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ في أنه أراد هديها إلى طريق الجنة، فعلى هذا التأويل يمكن أن تكون لفظة «ذلك» إشارة إلى إدخالهم أجمعين الجنة، لأنه تعالى إنما خلقهم للمصير إليها والوصول إلى نعيمها ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: وصل وحيه ووعيده الذي لا خلف فيه بتمامه إلى عباده. وقيل: تمت كلمة ربك ﴿صِدْقًا﴾ بأن وقع مخيرها على ما أخبر به، عن الجبائي. وقيل: معناه وجب قول ربك، عن ابن عباس. وقيل: مضى حكم ربك، عن الحسن.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بكفرهم ﴿وَكَلَّا﴾ أي: وكل القصص ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أي: من أخبارهم ﴿مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: ما نقوي به قلبك، ونطيب به نفسك، ونزيدك به ثباتاً على ما أنت عليه، من الإنذار والصبر على أذى قومك الكفار ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد. وقيل: في هذه الدنيا، عن قتادة. وقيل: في هذه الأنباء، عن الجبائي. و ﴿الْحَقُّ﴾ الصدق من الأنباء، والوعد، والوعيد. وقيل: معناه وجاءك في ذكر هذه الآيات التي ذكرت قبل هذا الموضع الحق، في أن الخلق يجازون بأنصباهم في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ ﴿وَأَنَّا كَلَّا لَمَّا يُؤْفِقُهُمْ﴾ وقد جاء في القرآن كله الحق، ولكنه ذكرها هنا تأكيداً، وليس إذا قيل: قد جاءك في هذا الحق وجب أن يكون لم يأتك الحق إلا فيه، ولكن بعض الحق أوكد من بعض، عن الزجاج ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ أي: وجاءك موعظة تعظ الجاهلين بالله وتزجر الناس عن المعاصي ﴿وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تذكرهم الآخرة.

﴿وَقُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ﴾ هذا مثل قوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾. ﴿إِنَّا عَمِلُونَا﴾ على ما أمرنا الله تعالى به، وقد مر تفسير هذه الآية فيما مضى ﴿وَأَنْظِرُوا﴾ أي: توقعوا ما يعدكم ربكم على الكفر من العقاب ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ ما يعدنا على الإيمان من الثواب. وقيل: انتظروا ما يعدكم الشيطان من الغرور إنا منتظرون ما يعدنا ربنا من النصر والعلو، عن ابن

جريح ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه: والله علم ما غاب في السماوات والأرض لا يخفى عليه شيء منه، عن الضحاك. وقيل: معناه والله مالك ما غاب في السماوات والأرض. وقيل: معناه والله خزائن السماوات والأرض، عن ابن عباس.

ووجدت بعض المشايخ ممن يتسم بالعدوان والتشنيع قد ظلم الشيعة الإمامية في هذا الموضوع من تفسيره فقال: هذا يدل على أن الله سبحانه يختص بعلم الغيب خلافاً لما تقول الرافضة: إن الأئمة يعلمون الغيب! ولا شك أنه عني بذلك من يقول: بإمامة الاثني عشر، ويدين بأنهم أفضل الأنام بعد النبي ﷺ، فإن هذا دأبه وديدنه فيهم، يشنع في مواضع كثيرة من كتابه عليهم، وينسب الفضائح والقبائح إليهم، ولا نعلم أحداً منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق، وإنما يستحق الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا بعلم مستفاد، وهذه صفة القديم سبحانه، العالم لذاته، لا يشركه فيها أحد من المخلوقين، ومن اعتقد أن غير الله سبحانه يشركه في هذه الصفة فهو خارج عن ملة الإسلام.

فأما ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام، ورواه عنه الخاص والعام من الإخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها، مثل قوله يومئذ به إلى صاحب الزنج، كأي به يا أحنف وقد سار بالجيش الذي ليس له غبار، ولا لجب، ولا قعقة لجم، ولا صهيل خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم، كأنها أقدام النعام. وقوله يشير إلى مروان: أما إن له إمرة كلعة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن ولده موتاً أحمر، وما نقل من هذا الفن عن أئمة الهدى عليهم السلام من أولاده مثل ما قاله أبو عبد الله عليه السلام، لعبد الله بن الحسن، وقد اجتمع هو وجماعة من العلوية والعباسية ليبيعوا ابنه محمداً: والله ما هي إليك، ولا إلى ابنك، ولكنها لهم، وأشار إلى العباسية، وإن ابنك لمقتولان، ثم نهض وتوكل على يد عبد العزيز بن عمران الزهري، فقال له: رأيت صاحب الرداء الأصفر؟ يعني أبا جعفر المنصور، قال: نعم. فقال: إنا والله نجده يقتله! فكان كما قال. ومثل قول الرضا عليه السلام: بورك قبر بطوس، وقبران ببغداد، فقيل له: قد عرفنا واحداً فما الآخر؟ فقال: ستعرفونه، ثم قال: قبري وقبر هارون هكذا، وضم إصبعيه، وقوله في القصة المشهورة لأبي حبيب النباحي، وقد ناوله قبضة من التمر: لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك، وقوله في حديث علي بن أحمد الوشا حين قدم (مرو) من (الكوفة): معك حلة في السفت الفلاني، دفعتها إليك ابنتك، وقالت: اشتر لي بثمانها فيروز. والحديث مشهور. إلى غير ذلك مما روي عنهم عليه السلام، فإن جميع ذلك متلقى عن النبي ﷺ مما أطلعه الله عليه، فلا معنى لنسبة من روى عنهم هذه الأخبار المشهورة إلى أنه يعتقد كونهم عالمين للغيب، وهل هذا إلا سبب قبيح وتضليل لهم، بل تكفير لا يرتضيه من هو بالمذاهب خبير، والله يحكم بينه وبينهم وإليه المصير.

﴿وَالَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي: إلى حكمه يرجع في المعاد كل الأمور، لأن في الدنيا قد يملك غيره بعض الأمر والنهي، والنفع والضرر. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ يريد أن من له ملك

سورة هود

السموات والأرض وإليه يرجع جميع الأمور، فحقيق أن يعبد ويتذلّل له ويتوكل عليه ويوثق به ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ أي: بساه ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي عن أعمال عباده، بل هو عالم بها، ومجاز كلاً منهم عليها ما يستحقه من ثواب وعقاب، فلا يحزنك يا محمد إعراضهم عنك، وتركهم القبول منك. وروي عن كعب الأحبار أنه قال: خاتمة التوراة خاتمة هود.

jabir.abbas@yahoo.com

سُورَةُ يُوسُفَ

مكية، وقال المعدل عن ابن عباس: غير أربع آيات نزلن بالمدينة، ثلاث من أولها، والرابعة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾.

● عدد آيها: مائة وإحدى عشرة آية بالإجماع.

● فضلها: أبي بن كعب عن النبي ﷺ، قال: علموا أرقامكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها، وعلمها أهله وما ملكت يمينه، هوّن الله تعالى عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة ألا يحسد مسلماً. وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة يوسف في كل يوم، أو في كل ليلة بعثه الله يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف، ولا يصيبه فرع يوم القيامة، وكان من خيار عباد الله الصالحين. وقال فيها: إنها كانت في التوراة مكتوبة. وروى إسماعيل بن أبي زياد عن أبي عبد الله عن أبيه عن آبائه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: لا تنزلوا نساءكم الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، ولا تعلموهن سورة يوسف، وعلموهن الغزل، وسورة النور.

● تفسيرها: لما ختم الله سبحانه سورة هود بذكر قصص أنباء الرسل، افتتح هذه السورة بأن من تلك القصص قصة يوسف عليه السلام وإخوته، وأنها من أحسن القصص، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِيكَ ﴿٣﴾

● الإعراب: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: ﴿قُرْآنًا﴾ انتصب بأنه بدل من الهاء في: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ فكانه قال: إنا أنزلنا قرآنًا.

والثاني: إنه توطئة للحال، لأن ﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وهذا كما تقول: مررت بزيد رجلاً صالحاً، فتنصب صالحاً على الحال، وتجعل رجلاً توطئة للحال. وقوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ القرآن: نصب، وإنه وصف لمعمول ﴿أَوْحَيْنَا﴾ وهو هذا أو بدل أو عطف بيان. قال الزجاج: ويجوز الجر والرفع جميعاً في الكلام وإن لم يقرأ بهما، أما الجر فعلى البدل مما ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بهذا القرآن. وأما الرفع فعلى ترجمة ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، كأن قائلًا قال: ما هو؟ فقيل: هذا القرآن.

● المعنى: ﴿الرَّ﴾ قد سبق الكلام فيه في أول البقرة، وإنما لم يعد آية لأنه على حرفين، ولا يشاكل رؤوس الآي، وعدّ ﴿طه﴾ آية، لأنه يشبه رؤوس الآي ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ قيل في معنى الإشارة بتلك وجوه:

أحدها: إنه إشارة إلى ما سيأتي من ذكرها على وجه التوقع لها.
والثاني: إنه إشارة إلى السورة، أي: سورة يوسف آيات الكتاب المبين.

والثالث: إن معناه: هذه الآيات، تلك الآيات التي وعدتم بها في التوراة، كما قال: ﴿وَلَمَّا دَلَّكَ الْكَنْبُ﴾ عن الزجاج. و ﴿الْمِثْنِ﴾ المظهر لحلال الله وحرامه والمعاني المرادة فيه، عن مجاهد، وقتادة. والمبين والمبين واحد، والبيان هو الدلالة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن، أي: أنزلنا هذا الكتاب. وقيل: أنزلنا خبر يوسف وقصته، عن الزجاج، قال: لأن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً، لم أنتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف عليه السلام؛ فقال: إنا أنزلناه ﴿قَوْلًا عَرَبِيًّا﴾ على مجاري كلام العرب في محاوراتهم. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: أَحِبُّ الْعَرَبَ لثَلَاثَ: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي.

﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ أي: لتعلموا جميع معانيه وتفهموا ما فيه. وقيل: معناه لتعلموا أنه من عند الله إذ كان عربياً وعجزتم عن الإتيان بمثله. وفي هذه الآية دلالة على أن كلام الله سبحانه محدث، وأنه غير الله، لأن وصفه بالإنزال، وبأنه عربي، ولا يوصف بذلك القديم سبحانه. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي نبين لك أحسن البيان، عن الزجاج وهذا كقولهم: صمت أحسن الصيام، وقمت أحسن القيام. مما يكون انتصابه على أنه قائم مقام المصدر، فالمعنى نبين لك أحسن تبين وأحسن إيضاح ﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بوحينا إليك ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ ودخلت الباء لتبيين القصص، إذ القصص تكون قرآناً وغير قرآن، والقصص ههنا بوحى القرآن.

وقيل: إنما سمي القرآن أحسن القصص، لأنه بلغ النهاية في الفصاحة وحسن المعاني، وعذوبة الألفاظ مع التلاؤم المنافي للتنافر، والتشاكل بين المقاطع والفواصل.

وقيل: لأنه ذكر فيه أخبار الأمم الماضية، وأخبار الكائنات الآتية، وجميع ما يحتاج إليه العباد إلى يوم القيامة، بأعذب لفظ وتهذيب، في أحسن نظم وترتيب.

وقيل: أراد بأحسن القصص قصة يوسف وحدها، لأنها تتضمن من الفوائد والنكت والغرائب ما لا يتضمنه غيرها، ولأنها تمتد امتداداً لا يمتد غيرها مثلها، وقوله: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يدل على أن الحسن يتفاضل ويتعاضم، لأن لفظة أفعل حقيقتها ذلك، وإنما يتعاضم بكثرة استحقاق المدح عليه.

ويسأل عن هذا فيقال: هل يجوز أن يسمى الله سبحانه قاصاً؟ فيقال: لا، لأنه في العرف إنما يستعمل فيمن تمسك بطريقة مخصوصة، وهذا كما أنه سبحانه لا يسمى معلماً ولا مفتياً، وإن وصف نفسه بأنه علم القرآن، وبأنه يفتيكم في النساء، وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْقَافِلِينَ﴾ معناه: وما كنت من قبل أن أوحينا إليك هذا القرآن، أو من قبل نزول القرآن عليك إلا من الغافلين عن الحكم التي في القرآن لا تعلم شيئاً منها. وقيل: من الغافلين عن قصة يوسف، وعن الحكم التي فيها.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْعِلُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسَبِّحُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِنزَاهِمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن عامر: ﴿يَا أَبَتِ﴾ بفتح التاء، والباقون: بكسرهما، وابن كثير وقف على الهاء ﴿يَا أَبه﴾ والباقون: بالتاء. وروي في الشواذ عن أبي جعفر، ونافع، وطلحة بن سليمان: ﴿أحد عشر﴾ سكون العين، والقراءة: بفتحها. وقرأ الكسائي إلا أبا الحرث، وقتيبة بإمالة ﴿رُءْيَاكَ﴾ والرؤيا في جميع القرآن، وروى أبو الحرث عنه، وفتح ﴿رُءْيَاكَ﴾ وإمالة الباقي، وقتيبة أمال «للرؤيا تعبرون» فقط. وقرأ خلف في اختياره بإمالة ما فيه ألف ولام. والباقون: بالتفخيم. وخفف الهمزة في جميع ذلك أبو جعفر، وورش، وشجاع، والترمذي، إلا أن أبا جعفر يدغم الواو في الياء فيجعلها ياء مشددة.

● **الحجة:** قال الزجاج: من قرأ: ﴿يَتَأَبَّتِ﴾ بكسر التاء، فعلى الإضافة إلى نفسه، وحذف الياء، لأن ياء الإضافة تحذف في النداء، وأما إدخال تاء التانيث في الأب فإنما دخلت في النداء خاصة، والمذكر قد يسمى باسم فيه علامة التانيث، ويوصف بما فيه تاء التانيث، فالاسم نحو نفس وعين، والصفة نحو غلام يفعه، ورجل ربعة. فلزمت التاء في الأب عوضاً من ياء الإضافة، والوقف عليها يا أبه بالهاء، وإن كانت في المصحف بالتاء. وزعم الفراء أنك إذا كسرت وقفت بالتاء لا غير، وإذا فتحت وقفت بالتاء والهاء، ولا فرق بين الكسر والفتح. وأما ﴿يَا أَبَتِ﴾ بالفتح، فعلى أنه أبدل من ياء الإضافة ألفاً ثم حذفت الألف كما يحذف ياء الإضافة وبقيت الفتحة. قال أبو علي: من فتح فله وجهان:

أحدهما: أن يكون مثل: يا طلحة أقبل، ووجه قول من قال: يا طلحة، أن هذا النحو من الأسماء التي فيها تاء التانيث أكثر ما يُدعى مرخماً، فلما كان كذلك رد التاء المحذوفة في الترخيم إليه، وترك الآخر يجري على ما كان يجري عليه في الترخيم من الفتح، فلم يعتد بالهاء وأفحمها.

والوجه الآخر: أن يكون أراد: يا أبتا، فحذف الألف كما يحذف التاء، فتبقى الفتحة دالة على الألف، كما أن الكسرة تبقى دالة على الياء، والدليل على قوة هذا الوجه كثرة ما جاءت هذه الكلمة على هذا الوجه، كقول الشاعر:

«وهل جزع أن قلت وأبتاهما»

وقول الأعشى:

وَيَا أَبَتَا لَا تَزَلْ عِنْدَنَا فَلِنَا نَخَافُ بِأَنْ تَخْتَرِمَ

وقول رؤية:

يا أبتا عليك أو عساكا

فلما كثرت هذه الكلمة في كلامهم ألزموها القلب والحذف، على أن أبا عثمان قد رأى ذلك مطرداً في جميع هذا الباب.

وأما وقف ابن كثير على الهاء، فلأن التاء التي للتأنيث يبدل منها الهاء في الوقف، فيغير الحرف بذلك في الوقف، كما غير التنوين إذا انفتح ما قبله بأن أبدل منه الألف. ومن قرأ: ﴿أحد عشر﴾ بسكون العين، قال ابن جني: سبب ذلك عندي أن الاسمين لما جعلاً كالاسم الواحد، وبني الأول منهما لأنه كصدر الاسم من عجزه جعل تسكين أول الثاني دليلاً على أنهما قد صارا كالاسم الواحد، وكذلك بقية العدد إلى تسعة عشر، إلا اثني عشر واثنى عشر، فإنه لا يسكن العين لسكون الألف والياء قبلها.

قال الزجاج: الرؤيا فيها أربع لغات: رؤيا بالهمزة، ورويا بالواو من غير همز، ورياً على الإدغام، ورياً بكسر الراء. قال أبو علي: الرؤيا مصدر كالبُشْرى والسُقيا، والبُقياء، والشُورى، إلا أنه لما صار اسماً لهذا التخيل في المنام جرى مجرى الأسماء، كما أن دُرّاً لما كثر في كلامهم في قولهم: لله دُرُّك، جرى مجرى الأسماء، وخرج من حكم الأعمال، فلا يعمل واحد منهما أعمال المصادر، ومما يقوي خروجه عن أحكام المصادر تكسيرهم لها رؤى فصار بمنزلة ظَلَمَ. والمصادر في الأكثر لا تكسر، والرؤيا على تحقيق الهمز، فإن خففت قلبتها في اللفظ واواً، ولم تدغم الواو في الياء، وإن كانت قد تقدمتها ساكنة، كما تقلب في نحو طيٍّ ولي، لأن الواو في تقدير الهمزة، فهي لذلك غير لازمة فلا يقع الاعتداد بها، وقد كسر أولها قوم فقالوا: رِيا، فهؤلاء قلبوا الواو قلباً على غير وجه التخفيف، ومن ثم كسروا الفاء كما كسروا من قولهم: قَرَنَ أَلْوَى وقُرُونٌ لِيٍّ.

● **اللغة:** الرؤيا: تصوّر المعنى في المنام على توهم الإبصار، وذلك أن العقل مغمور بالنوم، فإذا تصور الإنسان المعنى توهم أنه يراه. والكيد: طلب الحيلة، واللام في ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ﴾ لام التعدية، كما تقول: قدمت لك طعاماً، وقدمت إليك طعاماً، وشكرت لك، وشكرتك، يقال: كاده يكيد كيداً، وكاد له. والاجتباء: اختيار معالي الأمور للمجتنبي، وأصله من جبيت الماء في الحوض، إذا جمعته.

● **الإعراب:** تقدير العامل في ﴿إِذْ﴾ يجوز أن يكون اذكر، كأنه قال: اذكر إذ قال يوسف، قال الزجاج: ويجوز أن يكون على نقص عليك إذ قال، وقد غلط في هذا، لأن الله تعالى لم يقص على نبيه ﷺ هذا القصص في وقت قول يوسف ﷺ. و ﴿كُوكِبًا﴾ منصوب على التمييز. وقوله: ﴿رَأَيْنَاهُمْ﴾ كرر الرؤية توكيداً، ولأن الكلام قد طال، والمعنى: رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر لي ساجدين، ولم يقل: ساجدات، لأنه لما وصف هذه الأشياء بالسجود كما يوصف الآدميون بذلك أجرى فعلها مجرى فعل العقلاء، وكما قال: ﴿يَتَأْتِيهَا

الْتَمَلْ اَنْحُلُوا مَسْكِنَكُمْ ﴿١﴾ وموضع الكاف من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ نصب، والمعنى: ومثل ما رأيت يجتبيك ربك ويعلمك.

● **المعنى:** ثم ابتدأ سبحانه بقصة يوسف عليه السلام، فقال: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب عليه السلام، وهو إسرائيل الله، ومعناه: عبد الله الخالص ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ أي: رأيت في منامي. قال ابن عباس: إن يوسف عليه السلام رأى في المنام ليلة الجمعة ليلة القدر أحد عشر كوكباً نزلن من السماء فسجدن له، ورأى الشمس والقمر نزلا من السماء فسجدا له. قال: فالشمس والقمر أبواه، والكواكب إخوته الأحد عشر. وقال السدي: الشمس أبوه، والقمر خالته، وذلك أن أمه راحيل قد ماتت. وقال ابن عباس: الشمس أمه، والقمر أبوه. وقال وهب: كان يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أن أحد عشر عصاً طوالة كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصاً صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال له: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدت له فقصها على أبيه ﴿فَقَالَ﴾ له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ الآية. وقيل: إنه كان بين رؤياه وبين مصير أبيه وإخوته إلى مصر أربعين سنة، عن ابن عباس، وأكثر المفسرين. وقيل: ثمانون سنة، عن الحسن، ولما طال الكلام كرر رؤيتهم وأعادته للتأكيد. وقيل: أراد بالرؤية الأولى: رؤية الأعيان والأشخاص، وبالرؤية الثانية: رؤية سجودهم. واختلف في معنى هذا السجود، فقيل: إنه السجود المعروف على الحقيقة لتكرمه لا لعبادته. وقيل: معناه الخضوع له، عن الجبائي. كما قال الشاعر:

تري الأكم فيه سُجْدًا للحوافر^(١)

وهذا ترك الظاهر، ويقال: إن إخوته لما بلغهم رؤياه قالوا: ما رضي أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه ﴿قَالَ﴾ يعقوب: يا بني ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ أي: لا تخبرهم بذلك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: فيحسدوك أو يقابلوك بما فيه هلاكك، وذلك أن رؤيا الأنبياء وحي، وعلم يعقوب أن إخوة يوسف يعرفون تأويلها، ويخافون علو يوسف عليهم، فيحسدونه ويغفونه الغوائل ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، فيلقي بينهم العداوة ويحملهم على إنزال المكروه بك ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما أراك هذه الرؤيا تكرمة لك، بين أن إخوتك يخضعون لك أو يسجدون لك ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يصطفيك ربك ويختارك للنبوة، عن الحسن. وقيل: الحسن الخلق والخلق ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قيل: معناه ويعلمك من تعبير الرؤيا، لأن فيه أحاديث الناس عن رؤياهم، وسماه تأويلاً، لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في المنام، عن قتادة. وقال ابن زيد: كان أعبر الناس للرؤيا. وقيل: معناه ويعلمك عواقب الأمور بالنبوة والوحي

(١) الأكم جمع الأكمة: التل. والحوافر جمع الحافر: الدابة. وكثيراً ما يراد به الفرس.

سورة يوسف

إليك، فتعلم الأشياء قبل كونها معجزة لك، لأنه أضاف التعليم إلى الله، وذلك لا يكون إلا بالوحي، عن أبي مسلم. وقيل: تأويل أحاديث الأنبياء والأمم، يعني كتب الله ودلائله على توحيده والمشروع من شرائعه وأمور دينه، عن الحسن، والجبائي. والتأويل في الأصل هو المنتهى الذي يؤول إليه المعنى، وتأويل الحديث فقهه الذي هو حكمه، لأنه إظهار ما يؤول إليه أمره مما يعتمد عليه وفائدته ﴿وَبَشِّرْهُ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة لأنها منتهى نعيم الدنيا. وقيل: إتمام النعمة هو أن يحكم بدوامها على تخليصها من شائب بها، فهذه النعمة التامة وخلوصها مما ينقصها، ولا يطلب ذلك إلا من الله تعالى، لأنه لا يقدر عليها سواه. وقيل: معناه ويتم نعمته عليك بأن يحوج إخوتك إليك حتى تنعم عليهم بعد إساءتهم إليك ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي: وعلى إخوتك بأن يثبتهم على الإسلام، ويشرفهم بمكانك، ويجعل فيهم النبوة. وقيل: يتم نعمته عليهم بإنقاذهم من المحن على يديك ﴿كَمَا أَنتَهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي: كما أتم النعمة على إبراهيم بالخلة والنبوة والنجاة من النار، وعلى إسحاق بأن فداه عن الذبح بذبح عظيم، عن عكرمة. وقال: إنه الذبيح. وقيل: بإخراج يعقوب وأولاده من صلبه، عن أكثر المفسرين. قالوا: وليس هو الذبيح، وإنما الذبيح إسماعيل ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح للرسالة ﴿حَكِيمٌ﴾ في اختيار الرسل. وقيل: عليم بأحوال خلقه، حكيم في قضاياه.



قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ﴾ (٧) **إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨) أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ إِيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٠).**

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: ﴿آية للسائلين﴾ والباقون: ﴿آيَاتٍ﴾ وقرأ أهل المدينة: ﴿غيبات الجب﴾ والباقون: ﴿غيبات الجب﴾ وفي الشواذ قراءة الأعرج: ﴿غيبات﴾ مشددة، وقراءة الحسن: ﴿غيبات الجب﴾ وقرأ أهل المدينة والكسائي: ﴿مبين اقتلوا﴾ بضم التنوين، والباقون: بالكسر.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿آية﴾ على الأفراد جعل شأنه كله آية، ويقويه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةً مِّنْهُمُ الْآيَةَ﴾ فكل واحد منهما على انفراده يجوز أن يقال فيه: آية، فأفرد مع ذلك، ومن جمع جعل كل حال من أحواله آية، على أن المفرد المنكر في الإيجاب يقع دالاً على الكثرة، كما يقع كذلك في غير الإيجاب، قال الشاعر:

(١) الثار: المنيم الذي إذا أصابه الطالب، رضي به فنام بعده.

فَقَتَلًا بِتَقْتِيلٍ، وَضَرْبًا بِضَرْبِكُمْ جَزَاءَ الْعِطَاشِ لَا يَنَامُ مِنَ الثَّأْرِ^(١)
وأما الغيبة فكل شيء غيَّب شيئاً، عن أبي عبيدة، وأنشد:

فإن أنا يوماً غيَّبْتَنِي غِيَابَةً، فسيروا بسيري في العشيرة والأهل
والجب: الركية التي لم تطو، فمن أفرد فالوجه فيه أن الجب لا يخلو من أن يكون له غيبة
واحدة، أو غيابات، وغيابة المفرد يجوز أن يعني به الجمع، كما يعني به الواحد، ومن جمع فإنه
يجوز أن يكون له غيبة واحدة، فجعل كل جزء منها غيبة، كقولهم: شابت مفارقة، وبثر ذو
غيابتين، ويجوز أن يكون للبثر عدة غيابات، فجمع لذلك، وأما «غِيَابَاتٌ» بالتشديد، فيكون
اسماً جاء على فعالة، كما جاء التَّيَّار للموج، والفيَّاد للبوم الذكر، والفَخَّار للخزف، وغير ذلك،
وأما غيبته فيجوز أن يكون حدثاً على فعلة من غاب، فيكون بمعنى الظلمة، ويجوز أن يكون
موضِعاً على فعلة.

وأما من ضم التنوين، فلا أنه التقى الساكنان التنوين، والقاف في «أَقْتُلُوا» ولزم تحريك
الأول منهما، فحرَّكه بالضم لِيَتَّبِعَ الضمة الضم، كما قيل: سُرُّ ومُدُّ. ومن كسر التنوين، فإنه لم
يُتَّبِعِ الضم، كما أن من قال: مَدَّ، لم يتبع، وكسر الساكن على ما يجري عليه أمر تحريك الساكن
في الأمر الشائع.

● **اللغة:** الآية، والعلامة، والعبرة، نظائر. والعصبة: الجماعة التي يتعصب بعضها
لبعض، ويقع على جماعة من عشرة إلى خمس عشرة. وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين، ولا
واحد له من لفظه كالقوم والرهط والنفر. والفرق بين المحبة والشهوة: أن الإنسان يحب ولده
ولا يشتهي، بأن يميل طبعه إليه، ويرق عليه، ويريد له الخير. والشهوة منازعة النفس إلى ما فيه
اللذة. وإنما سمي البثر جباً، لأنه قطع عنها ترابها حتى بلغ الماء من غير طي، ومنه الم محبوب.
قال الأعشى:

وإن كنت في جُبِّ ثمانينَ قامَةً وَرَقَّيْتَ أسبابَ السماءِ بسُلَمٍ

وكلُّ ما غيَّب شيئاً عن الحس بكونه فيه فهو غيبة، فغيابة البثر شبه لحف أو طاق فوق ماء
البثر. والسيارة: الجماعة المسافرين، لأنهم يسيرون في البلاد. وقيل: هم مارة الطريق.
والالتقاط: تناول الشيء من الطريق، ومنه: اللقطة واللقيط، ومعناه: أن يجده من غير أن
يحسبه، يقال: وردت الماء التقاطاً، إذا وردته من غير أن تحسبه.

● **الإعراب:** العامل في قوله: «إِذْ قَالُوا» اذكر، وتقديره: اذكر إذ قالوا ليوسف،
ويحتمل أن يكون العامل فيه ما في الآية التي قبله من قوله: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ
لِّلسَّالِّينَ إِذْ قَالُوا» واللام في قوله: «ليوسف» جواب القسم تقديره: والله ليوسف وأخوه أحب
إلى أبينا منا «يَحُلْ لَكُمْ» جواب الأمر، و«وَكُودُوا» جزم، لأنه معطوف عليه، وروي عن
الحسن: «تَلَقَّيْتُمْ بَعْضُ السَّيَّارَةِ» بالتاء، وهذا كما يقال: أذهبت بعض أصابعه، وقال الشاعر:

طَوَّلَ اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي طَوْنِنَ طَوْلِي، وَطَوْنِنَ عَرْضِي

فقال: أسرع وطونين لتأنيث الليالي، ولم يحمله على طول وهو مذكر.

● **المعنى:** ثم أنشأ سبحانه في ذكر قصة يوسف، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْسَائِلِينَ﴾ ومعناه: لقد كان في حديث يوسف وإخوته عِبَرٌ للسائلين أعاجيب.

فمنها: أنهم نالوه بالأذى ودبروا في قتله، واجتمعوا على إلقائه في البئر للحسد، مع أنهم أولاد الأنبياء، فصَفَحَ عنهم ﷺ لما مكنه الله منهم، وأحسن إليهم، ولم يعيرهم بما كان منهم، وهذا خارج عن العادة، وفيه عبرة لمن اعتبر فيها في منافع الدين.

ومنها: الفرج بعد الشدة، والمنحة بعد المحنة.

ومنها: الدلالة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقرأ كتاباً، فعلم أنه لم يأت ذلك إلا من جهة الوحي، فهو بصيرة للذين سألوه أن يخبرهم بذلك، ومعجزة دالة على صدقه.

وإخوته هم أولاد يعقوب، وكان ليعقوب اثنا عشر ولداً لصلبه، وكانوا أولاد علة، عن الجبائي. وقيل: أسماؤهم: روبيل وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، ويشجر، وأمهم ليا بنت ليان، وهي ابنة خالة يعقوب، ثم توفيت ليا، فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين. وقيل: ابن يامين، وولد له من سريتين له: اسم إحداهما زلفة، والأخرى بلهة، أربعة بنين: دان، ونفتالي، وحاد وآشر^(١)، وكانوا اثني عشر.

ثم أخبر سبحانه عما قالت إخوة يوسف حين سمعوا منام يوسف وتأويل يعقوب إياه، فقال: ﴿إِذْ قَالُوا: أَيُّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿يُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ لِأَيِّهِ وَأُمِّهِ بَنِيَامِينَ ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا﴾ يَعْقُوبُ ﴿مِنَّا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ يَعْقُوبَ ﷺ كَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ لِيُوسُفَ، وَكَانَ يُوسُفُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، وَكَانَ يَعْقُوبُ يُؤَثِّرُهُ عَلَى أَوْلَادِهِ فَحَسَدُوهُ، ثُمَّ رَأَى الرُّؤْيَا فَصَارَ حَسَدُهُمْ لَهُ أَشَدَّ. وَقِيلَ: إِنَّهُ ﷺ كَانَ يَرْحِمُهُ وَأَخَاهُ وَيَقْرِبُهُمَا لِصُغُرِهِمَا فَاسْتَقْبَلُوهُ ذَلِكَ، وَرَوَى أَبُو حَمْزَةَ الشَّامِيُّ عَنْ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ﷺ أَنَّ يَعْقُوبَ كَانَ يَذْبَحُ كُلَّ يَوْمٍ كِبْشًا فَيَتَصَدَّقُ بِهِ، وَيَأْكُلُ هُوَ وَعِيَالُهُ مِنْهُ، وَأَنْ سَأَلَهُ مُؤْمِنًا صَوَامًا، إِعْتَرَبَ بَابَهُ عَشِيَّةَ جُمُعَةٍ عِنْدَ أَوَانٍ إِفْطَارُهُ، وَكَانَ مُجْتَازًا غَرِيبًا فَهْتَفَ عَلَى بَابِهِ وَاسْتَطَعَمَهُمْ وَهُمْ يَسْمَعُونَ، فَلَمْ يَصْدُقُوا قَوْلَهُ، فَلَمَّا يَشَسْ أَنْ يَطْعَمُوهُ وَغَشِيَ اللَّيْلَ اسْتَرْجَعَ وَاسْتَعْبَرَ، وَشَكَا جُوعَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَبَاتَ طَاوِيًا، وَأَصْبَحَ صَائِمًا حَامِدًا لِلَّهِ، وَبَاتَ يَعْقُوبُ وَآلُ يَعْقُوبَ بَطَانًا، وَأَصْبَحُوا وَعِنْدَهُمْ فَضْلَةٌ مِنْ طَعَامِهِمْ، فَابْتَلَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِيُوسُفَ ﷺ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ: أَنْ اسْتَعِدْ لِبَلَاثِي، وَارْضَ بِقَضَائِي، وَاصْبِرْ لِلْمَصَائِبِ! فَرَأَى يُوسُفَ الرُّؤْيَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَالحَدِيثُ طَوِيلٌ أَخَذْنَا مِنْهُ مَوْضِعَ الْحَاجَةِ، وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَوْ قَرِيبٍ مِنْهُ. ﴿وَنَحْنُ غُصْبَةٌ﴾ معناه: ونحن جماعة يتعصب بعضها لبعض، ويعين بعضها بعضاً، أي: فنحن أنفع لأبنينا. وقيل: يعني ونحن عصبة لا يعجزنا الاحتيال عليه ﴿إِنَّ أَبَانَا لَنُفَى صَكَلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في ذهاب عن طريق الصواب، الذي هو التعديل بيننا في المحبة. وقيل: معناه إنه في خطأ من الرأي في أمور الأولاد، والتدبير الدنيوي، ونحن أقوم بأمور مواشيه وأمواله وسائر أعماله، ولم

(١) وقد اختلفت كلمات المفسرين والمؤرخين في ضبط أسماء أولاد يعقوب، ولا يخلو الكل عن التصحيف.

يريدوا به الضلال عن الدين، لأنهم لو أرادوا ذلك لكانوا كفاراً، وذلك خلاف الإجماع، ولأنهم بالإنفاق كانوا على دينه، وكانوا يعظمونه غاية التعظيم، ولذلك طلبوا محبته، وأصل الضلال العدول، وكل من ذهب عن شيء وعدل عنه فقد ضلّ. وأكثر المفسرين على أن إخوة يوسف كانوا أنبياء، وقال بعضهم: لم يكونوا أنبياء، لأن الأنبياء لا يقع منهم القبائح.

وقال المرتضى قدس الله روحه: لم يقم لنا الحجة بأن إخوة يوسف الذين فعلوا ما فعلوه كانوا أنبياء، ولا يمتنع أن يكون الأسباط الذين كانوا أنبياء غير هؤلاء الإخوة الذين فعلوا بيوسف ما قصه الله تعالى عنهم، وليس في ظاهر الكتاب أن جميع إخوة يوسف، وسائر الأسباط فعلوا بيوسف ما حكاه الله من الكيد.

وقيل: يجوز أن يكون هؤلاء الإخوة في تلك الحال لم يكونوا بلغوا الحلم، ولا توجه إليهم التكليف، وقد يقع ممن قارب البلوغ من الغلمان مثل هذه الأفعال، ويعتاب على ذلك ويلام ويضرب، وهذا الوجه قول البلخي، والجبائي، ويدل عليه قوله: ﴿يَرْقَعُ وَيَلْعَبُ﴾ وروى أبو جعفر بن بابويه رحمه الله في كتاب النبوة، بإسناده عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن حنان بن سدير قال: قلت لأبي جعفر: أكان أولاد يعقوب أنبياء؟ فقال: لا، ولكنهم كانوا أسباطاً، أولاداً لأنبياء، ولم يفارقوا الدنيا إلا سعداء، تابوا وتذكروا ما صنعوا، وقال الحسن: كانوا رجالاً بالغين، ووقعت ذلك منهم صغيرة.

ثم أخبر سبحانه عنهم أنهم قال بعضهم لبعض: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: اطرحوه في أرض بعيدة عن أبيه فلا يهتدي إليه. وقيل: معناه في أرض تأكله السباع أو يهلك بغير ذلك ﴿يَحُلْ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ عن يوسف وتخلص لكم محبته، والمعنى: أنكم متى قتلتموه، أو طرحتموه في أرض أخرى خلا لكم أبوكم وحنّ عليكم ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي: وتكونوا من بعد قتل يوسف أو غيبته قوماً تائبين، والمعنى: أنكم إذا فعلتم ذلك وبلغتم أغراضكم تبتم مما فعلتموه، وكنتم من جملة الصالحين الذين يعملون الصالحات، وهذا يدل على أنهم رأوا ذلك ذنباً يصح التوبة منه، عن جماعة من المفسرين. وقيل: معناه وتكونوا قوماً صالحين في أمر دنياكم، أي: يعود حالكم مع أبيكم إلى الصلاح، عن الحسن.

ومتى يسأل ههنا على قول من جعلهم غير بالغين؟ فقال: أليس يدل هذا القول منهم على بلوغهم لعلمهم بالوعيد؟ فالجواب: إن المراهق قد يجوز أن يعلم ذلك، خاصة إذا كان مربى في حجر الأنبياء، ومن أولادهم، واختلف فيمن قال ذلك من إخوته، فقال وهب: قاله شمعون، وقال مقاتل: قاله روبين.

ثم أخبر سبحانه عن واحد من جملة القوم بقوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من إخوة يوسف ﴿لَا نَقْتُلُكَ يَوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِكَ الْجَبَرُ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: ألقوه في قعر البئر يتناولوه بعض مارة الطرق والمسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى، والقائل لذلك روبين، وهو ابن خالة يوسف، عن قتادة، وابن إسحاق، وكان أحسنهم رأياً فيه، فنهاهم عن قتله. وقيل: هو يهوذا، وكان أقدمهم في الرأي والفضل وأسْنَهُم، عن الأصم، والزجاج. وقيل: هو لاوي، رواه علي بن إبراهيم في تفسيره.

سورة يوسف

واختلفوا في ذلك الجب، فقيل: هو بئر بيت المقدس، عن قتادة. وقيل: بأرض الأردن، عن وهب. وقيل: بين مدين ومصر، عن كعب. وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، عن مقاتل ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ معناه: إن كنتم فاعلين شيئاً مما تقولون في يوسف فليكن هذا فعلكم، فإنه دون القتل الصريح. وقال ابن عباس: يريد إن أضمرتم ما تريدون. وقيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك حديث بني يعقوب.



قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَابَعَنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ﴾ **أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾** (١٢).

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر، والحلواني، عن قالون: ﴿لا تأمنا﴾ مشددة النون بلا شمة. وقرأ الباقون بالإشمام، وهو الإشارة إلى النون المدغمة بالضممة، وهو اختيار أبي عبيدة. وقرأ أبو جعفر ونافع: ﴿يَرْتَع وَيَلْعَب﴾ بالياء فيهما، وكسر العين من يرتع. وقرأ ابن كثير: ﴿نرتع ونلعب﴾ بالنون فيهما وكسر العين. وقرأ أبو عمرو وابن عامر: ﴿نرتع ونلعب﴾ بالنون فيهما وجزم العين. وقرأ أهل الكوفة ورويس، عن يعقوب: ﴿يَرْتَع وَيَلْعَب﴾ بالياء فيهما وجزم العين. وقرأ روح وزيد، عن يعقوب: ﴿نرتع﴾ بالنون وجزم العين ﴿ويَلْعَب﴾ بالياء، وقد روي ذلك عن أبي عمرو، وهو قراءة الأعرج وإبراهيم النخعي، وفي الشواذ قراءة العلاء بن سبابه: ﴿يرتع﴾ بالياء وكسر العين ﴿ويلعب﴾ رفعا، وقراءة أبي رجا: ﴿يرتع ويلعب﴾.

● **الحجة:** قال الزجاج: يجوز في ﴿تَأْمَنَّا﴾ أربعة أوجه: إشمام النون مع الإدغام والضم، وهو الذي حكاه ابن مجاهد، عن الفراء، والإشعار بالضممة والإدغام من غير إشمام لأن الحرفين من جنس واحد، و «تأمننا» بالإظهار ورفع النون الأولى، لأن النونين من كلمتين، وتضمننا بكسر التاء لأن ماضيه على فَعَل، كما قالوا: تعلم وتعلم، وهي قراءة يحيى ابن وثاب، وهذه القراءة مخالفة للمصحف، وإن كانت في العربية جائزة.

وأما قوله: ﴿نرتع ويلعب﴾ فقد قال أبو علي قراءة من قرأ ﴿نرتع﴾ بالنون وكسر العين ﴿ويَلْعَب﴾ بالياء حسن، لأنه جعل الارتعاء والقيام على المال لمن بلغ وجاوز الصغر، وأسند اللعب إلى يوسف لصغره، ولا لوم على الصغير في اللعب، والدليل على صغر يوسف قول إخوته ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ ولو كان كبيراً لم يحتج إلى حفظهم، ويدل على ذلك قول يعقوب: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وإنما يخاف الذئب على من لا دفاع به، من شيخ كبير، أو من صبي صغير، قال:

أصبح لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نَفَرَا
والذئب أخشاه إن مَرَرْتُ به وخدي، وأخشى الرياح والمطر^(١)

وأما الارتعاء فهو افتعال من رَعَيْت مثل شويت واشتويت، وكل واحد منهما متعد إلى مفعول به، قال الأعشى:

تَرْتَعِي السَّفْحَ فَالْكُثِيبَ، فَذَاقَارِ فَرَوْضَ الْقَطَا فَذَاتَ الرَّمَالِ^(١)
وقال آخر:

رَعَتْ بَارِضَ الْبُهْمَى جَمِيماً، وَبُسْرَةَ، وَصَمْعَاءَ، حَتَّى آتَفَتْهَا نِصَالَهَا^(٢)

وقد يستقيم أن يقال: نرتع، وإنما ترتع إبلهم فيما قال أبو عبيدة. ووجه ذلك: أنه كان الأصل: ترتع إبلنا، ثم حذف المضاف وأُسند الفعل إلى المتكلمين، فصار نرتع. وكذلك نرتعي، على ترتعي إبلنا، ثم حذف المضاف فيكون نرتع. وقال أبو عبيدة: نرتع: نلهو. وقد تكون هذه الكلمة على غير معنى اللهو، ولكن على معنى النيل من الشيء، كقولهم في المثل: (الصيد والرثعة)، وكان هذا النيل والتناول مما يحتاج إليه الحيوان، وقد قال الأعشى:

صَدَرَ النَّهَارُ يُرَاعِي ثِيْرَةً رُتْعَا

وعلى هذا القول قالوا: رأيت مرتع إبلك، لمرادك الذي فيه، فهذا لا يكون على اللهو، لأنه جمع: ثور راتع أو رتوع.

فأما من قرأ: «نرتع ونلعب» بالنون، فيكون «نرتع» على: ترتع إبلنا، أو على: أننا ننال مما نحتاج إليه وينال معنا، وأما «نلعب» فحكى أن أبا عمرو قيل له: كيف يقولون: نلعب وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء، فلو صحت هذه الحكاية عنه، وصح عنده هذا التاريخ، وإلا فقد قال الشاعر:

جَدْتُ جِدَادُ بِلَاعِبٍ، وَتَقَشَّعَتْ غَمْرَاتُ، قَالَتْ: لَيْتَهُ حَيْرَانُ

فكان اللاعب ها هنا الذي لم يتشمر في أهله، فدخله بعض الهرينا. فهذا أسهل من الوجه الذي قبل به الحق. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لجابر: «فهلأ بكراً تلاعبها وتلاعبك» فهذا كأنه يتشاغل بمباح وتنفس وجمام من الجد، وقد روي عن بعض السلف: أنه كان إذا أكثر النظر في مسائل الفقه، قال: أَحْمِضُوا، فليس هذا اللعب كاللعب في قوله: «وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ».

وأما من قرأ بالياء فيهما، فإن كان «يَرْتَعُ» من اللهو، كما فسره أبو عبيدة، فلا يمتنع أن يُخْبِر به عن يوسف لصغره، كما لا يمتنع أن ينسب إليه اللعب لذلك، وإن كان «يَرْتَعُ» من النيل من الشيء، فذلك لا يمتنع عليه أيضاً، فوجههما بيّن، وهذا أبين من قول من قال: «ونلعب» بالنون، لأنهم سألوا إرساله ليتنفس بلعبه، ولم يسألوا إرساله ليلعبوا هم.

(١) مواضع.

(٢) قائله ذو الرمة والبهمي: نبت. والبارض: أول ما يظهر من ذلك النبت. وسائر الألفاظ لمراتبه في النماء.

وأما من قرأ: ﴿وِيلَعِبْ﴾ بالرفع، فإنه جعله استثناءً، أي: هو ممن يلعب، كقولك: زرنني أحسن إليك، أي: أنا ممن يحسن إليك.

وأما من قرأ: ﴿وَبَرَّعْ﴾ فمعناه: يرتع إبله، فحذف المفعول، كما قال الحطية: مُنْعَمَةٌ تَصُونُ إِلَيْكَ مِنْهَا كَصَوْنِكَ مِنْ رِداءِ شَرْعِيَّيْ
أي: تصون الحديث، وقال الشنفرى:
كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نِسِيًّا تَقْصُهُ عَلَى أُمِّهَا، وَإِنْ تُكَلِّمَكَ تَبْلُتُ^(١)
أي: تقطع حديثها خفراً وحياءً.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه أنهم عند اتفاق آرائهم فيما تأمروا فيه من أمر يوسف، كيف سألوا أباهم، ف ﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي: ما لك لا تثق بنا ولا تعتمدنا في أمر يوسف ﴿وَإِنَّا لَلْكَاشِحُونَ﴾ أي: مخلصون في إرادة الخير به، وفي هذا دلالة على أنه ﷺ كان يأبى عليهم أن يرسله معهم ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا﴾ أي: إلى الصحراء «نرتع ونلعب» الجزم على جواب الأمر، والمعنى: إن ترسله معنا نرتع ونلعب، أي: نذهب ونجى وننشط ونلهو، عن الكلبي، والضحاك. وقيل: نتحافظ فيحفظ بعضنا بعضاً ونلهو، عن مجاهد. وقيل: نرعى ونتصرف، والرتع: هو التردد يميناً وشمالاً، عن ابن زيد، وأرادوا به اللعب المباح، مثل الرمي والاستباق بالأقدام. وقد روي أن كل لعب حرام إلا ثلاثة: لعب الرجل بقوسه وفرسه وأهله. ﴿وَإِنَّا لَلْكَاشِحُونَ﴾ أي: ليوسف ﴿لَحَفِظُونَا﴾ أي: نحفظه لنرده إليك. وقيل: نحفظه في حال لعبه. وقال مقاتل: ها هنا تقديم وتأخير: وذلك أن إخوة يوسف قالوا له: أرسله، فقال أبوه: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ الآية، فحينئذ قالوا: ﴿يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَلْكَاشِحُونَ﴾ وإذا صح الكلام من غير تقديم وتأخير فلا معنى لحمله عليه.

قال الحسن: جعل يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان في البلاء إلى أن وصل إليه أبوه ثمانين سنة، ولبث بعد الاجتماع ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقيل: إنه كان ليوسف يوم ألقى في الجب عشر سنين. وقيل: كان له اثنتا عشرة سنة. وقيل: كان ابن سبع سنين أو تسع، وجمع بينه وبين أبيه وهو ابن أربعين سنة، عن ابن عباس، وغيره. وفي الآيات دلالة على ظهور حسدهم ليوسف، لأنه كان يحرسه منهم، ويمنعه عن الخروج معهم، ولا يأمنهم عليه.



قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾

(١) النسي: الشيء المطروح. والأم: الطريق وفي اللسان: «تحدثك - تخاطبك - تبت».

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ .

● **اللغة: الذئب:** أصله الهمز، وإن خفت جاز. وقراءة الكسائي، وخلف، وأبو جعفر، وورش، والأعشى، واليزيدي: بتخفيف الهمزة في المواضع الثلاث. والباقون بالهمز. وجمع الذئب: أذؤب وذئاب وذؤبان. وتذاءبت الريح: أتت من كل جهة. وحزنت وأحزنت لغتان، والحزن: ألم القلب بفراق المحبوب. والشعور: إدراك الشيء بمثل الشعرة في الدقة، ومنه المشاعر في البدن. والمجيء والمصير إلى الشيء واحد، وقد يكون المصير بالانقلاب، كمصير الطين خزفاً، وقد يكون بمعنى الانتقال. والعشاء: آخر النهار، ومنه اشتق الأعشى، لأنه يستضيء ببصر ضعيف، ويقال: العشاء أول ظلام الليل، ويقال: العشي من زوال الشمس إلى الصباح، والعشاء من صلاة المغرب إلى العتمة. والاستباق: افتعال من السبق، واستبقا: تبادرا حتى يظهر الأقوى، ومنه المسابقة، وهو على ثلاثة أوجه: سباق بالرمي، وذلك جائز بالاتفاق.

وسباق على الخيل والإبل، وذلك جائز عندنا. وسباق على الأقدام، وذلك غير جائز بعوض، وبه قال الشافعي. وعند أبي حنيفة يجوز بعوض وبلا عوض، وبه قال قوم من أصحابنا. وكذلك القول في الصراع ودم كذب. أي: مكذوب فيه، وهو مصدر وصف به، وقيل: إن تقديره: بدم ذي كذب. قال الفراء: يجوز أن يقع المصدر موقع المفعول، كما يقع المفعول موقع المصدر في مثل قول الشاعر:

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحماً، ولا لفؤاده مغقولا

ولم يجزه سبيويه، وقال: المفعول لا يكون مصدراً، ويتأول قولهم: خذ ميسورة، ودع معسورة. وقال: يعني به خذ ما يسر له، ودع ما عسر عليه. وكذلك ليس لفؤاده معقول، أي: ما يعقل به، وروي عن عائشة أنها قرأت: «بدم كذب» بالدال، أي: دم طري. والتسويل: تزيين النفس ما ليس بحسن، وقيل: هو تقدير معنى في النفس على الطمع في تمامه.

● **الإعراب:** اللام في قوله: ﴿لَيْنَ﴾ هي اللام التي يتلقى بها القسم، و ﴿إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ جواب القسم ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ جواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف، وتقدير: عظمت فتنتهم، أو كبير ما قصدوا له. والكوفيون يقولون: الواو في ﴿وَاجْمَعُوا﴾ مقحمة، وتقديره: أجمعوا. ولا يجيز البصريون إقحام الواو، وقالوا: لم يثبت ذلك بحجة ولا قياس، ومما أنشده الكوفيون في ذلك قول الشاعر:

حتى إذا قَمِلَتْ بُطُونُكُمْ ورَأَيْتُمْ أَبْنَاءَكُمْ شَبُوهَا
وقَلَبْتُمْ ظَهَرَ الْمِجَنِّ لَنَا إِنَّ اللَّثِيمَ الْعَاجِزُ الْخَبُّ (١)
وقول امرئ القيس:

فلما أَجْزَنَا سَاحَةَ الْحَيِّ، وَانْتَحَى بنا بطنَ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقِلٍ (٢)

قالوا: أراد انتحى. والبصريون يحملون الجميع على حذف الجواب. وقوله: ﴿يَكُونُ﴾ في موضع نصب على الحال. و ﴿عِشَاءً﴾ منصوب على الظرف، وجائز أن يكون ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من صلة قوله: ﴿لَتَنِيَّتُهُمْ﴾ وجائز أن يكون من صلة ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ أي: نبأناه بالوحي وهم لا يشعرون أنه نبي قد أوحى إليه. و ﴿نَسْتَقِي﴾ في موضع نصب على الحال. و ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ مرفوع على أحد وجهين:

الأول: على أنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: فشأنى صبر جميل، أو فصبري صبر جميل، وهو قول قطرب.

الثاني: على أنه مبتدأ محذوف الخبر، والتقدير: فصبر جميل أمثل، وأنشد:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طُورَ السُّرَى يَا جَمَلِي لَيْسَ إِلَيَّ الْمَشْتَكَى
صَبْرٌ جَمِيلٌ فَكَلْنَا مُبْتَلَى (٣)

ويجوز في غير القرآن: فصبراً جميلاً، وروي ذلك عن أبي، ويكون معناه: فاصبري يا نفس صبراً جميلاً، قال ذو الرمة:

أَلَا إِنَّمَا مَيِّ فَصَبْرًا بَلِيَّةً، وَقَدْ يُبْتَلَى الْحَرُّ الْكَرِيمُ فَيُضْبِرُ (٤)
وقال الآخر:

أَبَى اللَّهُ أَنْ يَبْقَى لِحَيٍّ بِشَاشَةً فَصَبْرًا عَلَى مَا شَاءَهُ اللَّهُ لِي صَبْرًا

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه أنهم لما أظهروا النصح والشفقة على يوسف، هم يعقوب أن يبعثه معهم، وحثهم على حفظه، فقال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي﴾ أي: يغمني ﴿أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وتغيّبوه عني. وقيل: معناه يحزنني مفارقتي إياي ﴿وَأَخَافُ﴾ عليه إذا ذهبتم به إلى الصحراء ﴿أَنْ يَأْكُلَهُ الْذَنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ فهذه جملة في موضع الحال، وتقديره: أخاف أن يأكله الذنب في

(١) قملت بطونكم أي: كثرت قبائلكم. والمجن: الترس. وقلب مجنه أي: أسقط الحياء والخب: الخداع المفسد والشاهد في زيادة (الواو) من (وقلبتهم) وهو جواب (إذا).

(٢) ساحة الدار: فناؤه. وانتحى أي: قصده. والخبت: الأرض المطمئنة. والحقف: الرمل المشرف المعوج. والعقنقل: المنعقد من الرمل. والشاهد في زيادة (الواو) في قوله (وانتحى) وهو جواب (لما).

(٣) أي: صبر جميل أمثل: والسرى: سير الليل كله.

(٤) مي: إسم امرأة.

حال كونكم ساهين عنه، مشغولين ببعض أشغالكم، قالوا: وكانت أرضهم مذبذبة، وكانت الذئاب ضارية في ذلك الوقت. وقيل: إن يعقوب رأى في منامه كأن يوسف قد شد عليه عشرة أذؤب ليقتلوه، وإذا ذئب منها يحمي عنه، فكان الأرض انشقت فدخل فيها يوسف، فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام، فمن ثم قال: فلَقْنَهُم العلة، وكانوا لا يدرون. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: لا تلقنوا الكذب فيكذبوا، فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الإنسان حتى لقنهم أبوهم، وهذا يدل على أن الخصم لا ينبغي أن يلقن حجة. وقيل: إنه خاف عليه أن يقتلوه فكثى عنهم بالذئب مسaire لهم. قال ابن عباس: سَمَاهُمْ ذئاباً ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَتَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة متعاضدون متناصرون، نرى الذئب قد قصده، ولا نمنعه منه ﴿إِنَّا إِذَا لَخَّصِيرُونَ﴾ أي: نكون كالذين تذهب عنهم رؤوس أموالهم على رغم منهم. وقيل: معناه إنا إذا عجزه ضعفه. قال الحسن: والله لقد كانوا أخوف عليه من الذئب. وقيل: معناه إنا إذا لمضيعون بلغة قيس عيلان، عن المؤرج. وههنا حذف، والتقدير: أنه أرسله معهم إجابة لما سأله ليؤدي ذلك إلى الألفة والمحبة.

﴿ثُمَّ دَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا﴾ أي: عزموا جميعاً ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْبُئْرِ﴾ أي: قعر البئر، واتفقت دواعيهم عليه، فإن من دعاه داع واحد إلى الشيء لا يقال فيه إنه أجمع عليه، فكانه مأخوذ من اجتماع الدواعي، ويدل ألف واللام على أنها كانت بئراً معروفة معهودة عندهم تجيئها السيارة، وقيل إنهم طلبوا بئراً قليلة الماء تغيبه ولا تغرقه فجعلوه فيها. وقيل: بل جعلوه في جانب منها. وقيل: إن يعقوب ﷺ أرسله معهم فأخرجوه مكرماً، فلما وصلوا إلى الصحراء أظهروا له العداوة، وجعلوا يضربونه وهو يستغيث بواحد منهم فلا يغيثه، وكان يقول: يا أبتاه! فهموا بقتله، فمنعهم يهوذا منه. وقيل: منعهم لاري، رواه بعض أصحابنا عنهم ﷺ.

فانطلقوا به إلى الجب فجعلوا يدلونه في البئر، وهو يتعلق بشفير البئر، ثم نزعوا قميصه عنه، وهو يقول: لا تفعلوا، ردوا عليّ القميص أتواري به! فيقولون: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً يؤنسك. فدلّوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها، وكان يهوذا يأتيه بالطعام، عن السدي. وقيل: إن الجب أضاء له وعذب ماؤه حتى أغناه عن الطعام والشراب. وقيل: كان الماء كدرأ فصفاء وعذب، ووكل الله به ملكاً يحرسه ويطعمه، عن مقاتل. وقيل: إن جبرائيل كان يؤنسه.

وقيل: إن الله تعالى أمر بصخرة حتى ارتفعت من أسفل البئر فوقف يوسف عليها وهو عريان، وكان إبراهيم الخليل ﷺ حين ألقى في النار جرد من ثيابه وقذف في النار عرياناً، فأتاه جبرائيل ﷺ بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، وكان ذلك عند إبراهيم ﷺ. فلما مات ورثه إسحاق ﷺ. فلما مات إسحاق ورثه يعقوب ﷺ. فلما شب يوسف ﷺ جعل يعقوب ﷺ ذلك القميص في تعويذ وعلقه في عنقه، فكان لا يفارقه، فلما ألقى في البئر عرياناً جاءه جبرائيل وكان عليه ذلك التعويذ، فأخرج منه القميص فألبسه إياه، وروي ذلك مفضل بن عمر عن الصادق ﷺ قال: وهو القميص الذي وجد يعقوب ريحه لما فصلت العير من مصر، وكان يعقوب بفلسطين فقال: إني لأجد ريح يوسف.

سورة يوسف

وفي كتاب النبوة، عن الحسن بن محبوب، عن الحسن بن عمار، عن مسمع أبي سيار، عن الصادق عليه السلام قال: لما ألقى إخوة يوسف يوسف في الجب نزل عليه جبرائيل فقال له: يا غلام! من طرحك هنا؟ فقال: إخوتي، لمنزلتي من أبي حسدونني، ولذلك في الجب طرحوني! فقال: أتحب أن تخرج من هذا الجب؟ قال: ذلك إلى إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. فقال له جبرائيل: فإن إله إبراهيم وإسحاق، ويعقوب، يقول لك، قل: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تجعل لي في أمري فرجاً ومخرجاً، وترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب»، فجعل الله له من الجب يومئذ فرجاً ومخرجاً، ومن كيد المرأة مخرجاً، وآتاه ملك مصر من حيث لم يحتسب. وروى علي بن إبراهيم أن يوسف عليه السلام قال في الجب: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارحم ضعفي وقلة حيلتي وصغري وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ يعني إلى يوسف عليه السلام، قال الحسن: أعطاه الله النبوة وهو في الجب والبشارة بالنجاة والملك ﴿لَتَنبِتْهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ أي: لتخبرتهم بقبيح فعلهم بعد هذا الوقت، يريد ما ذكره سبحانه في آخر السورة من قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف، وكان الوحي إليه كالوحي إلى سائر الأنبياء. وقال مجاهد وقتادة: أوحى الله إليه ونبأه وهو في الجب، وكان فيما أوحى إليه: أن أكتم حالك واصبر على ما أصابك فإنك ستخبر إخوتك بما فعلوه بك في وقت لا يعرفونك. وقيل: يريد: وهم لا يشعرون بأنه أوحى إليه. وقيل: إن معنى قوله: ﴿لَتَنبِتْهُمْ﴾ لتجازينهم على فعلهم، تقول العرب للرجل يتوعده بمجازاة سوء فعله: لأنبتك ولأعرفك، أي: لأجازينك. وقيل: أراد بذلك أنهم لما دخلوا مصر عرفهم يوسف وهم له منكرون، فأخذ الصاع ونقره، فطن^(١)، فقال: إن هذا الجام ليخبرني أنه كان لكم أخ من أبيكم ألقىتموه في الجب، ويعتموه بضمن بخس، فهذا معنى قوله: ﴿لَتَنبِتْهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾، عن ابن عباس.

ثم بين سبحانه حالهم حين رجعوا إلى أبيهم، فقال: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ﴾ يعني وانقلب إخوة يوسف إلى أبيهم ﴿عِشَاءً﴾ أي: ليلاً أو في آخر النهار ليليسوا على أبيهم، وليكونوا أجراً على الاعتذار ﴿بِئْكَوت﴾ وإنما أظهروا البكاء ليوهموا أنهم صادقون، وفي هذا دلالة على أن البكاء لا يوجب صدق دعوى الباكي في دعواه. قال السدي: لما سمع بكاءهم فزع، فقال: ما بالكم؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ﴾ أي: نشد ونعدو على الأقدام لننظر أينما أعدى وأسبق لصاحبه، عن الجبائي، والسدي. وقيل: معناه نتصل ونترامى فننظر أي السهام أسبق إلى الغرض، عن الزجاج. وفي قراءة عبد الله: نتصل. ﴿وَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا﴾ أي: تركناه عند الرجل ليحفظه ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: ما أنت بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ جواب لو محذوف، أي: ولو كنا صادقين ما صدقتنا لاتهامك لنا في أمر يوسف، ودل الكلام عليه ولم يصفوه بأنه لا يصدق الصادق، لأن المعنى لا يصدقهم لاتهامهم لهم، وسوء ظنه بهم، لما ظهر له من إمارات حسدهم ليوسف، وشدة محبته ليوسف. ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ بِدَرٍ كَذِبٍ﴾

(١) الصاع: المكيال. ونقره: ضربه ليصوت. وطن: أي صوت.

معناه: أن إخوة يوسف جاؤوا أباهم ومعهم قميص يوسف ملطخاً بدم، فقالوا له: هذا دم يوسف حين أكله الذئب. وقيل: إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميصه، عن ابن عباس، ومجاهد. وقيل: ظلياً، ولم يمزقوا ثوبه، ولم يخطر ببالهم أن الذئب إذا أكل إنساناً فإنه يمزق ثوبه. وقيل: إن يعقوب قال لهم: أروني القميص، فأروه إياه، فقال لهم لما رأى القميص صحيحاً: يا بني! والله ما عهدت كالיום ذنباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق قميصه، عن الحسن. وروي أنه ألقى ثوبه على وجهه وقال: يا يوسف لقد أكلك ذئب رحيم، أكل لحكمك ولم يشق قميصك، ومعنى قوله: ﴿يَدْمِرْ كَذِبٌ﴾ مكذوب عليه، أو فيه، كما يقال: ماء سكب، أي: مسكوب، وشراب صب، أي: مصبوب، قال الشاعر:

تَظَلُّ جِيادُهُمْ نَوْحاً عَلَيْهِمْ مُقْلَدَةً أَعْنَتَهَا صُفُوناً^(١)

أراد: نائحة عليهم. وقيل: إنه كان في قميص يوسف ثلاث آيات: حين قُدَّ من دبر، وحين ألقى على وجه أبيه فارتدَّ بصيراً، وحين جاؤوا عليه بدم كذب فتنبه يعقوب على الذئب لو أكله لمزق قميصه، عن الشعبي. وقيل: إنه لما قال لهم يعقوب ذلك، قالوا: بل قتله اللصوص، فقال ﷺ: فكيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله؟ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي: قال يعقوب لهم إذ اتهمهم في يوسف: لم يأكله الذئب ولم يقتله اللصوص، ولكن زينت لكم أنفسكم أمراً علمتموه، عن قتادة. وقيل: سهل بعضكم لبعض أمراً في يوسف غير الذي فعلتموه حتى سهل عليكم فقتلتموه، عن أبي مسلم، والجبائي. وإنما ردَّ يعقوب عليهم بوحي من الله عزَّ اسمه. وقيل: كان ذلك حدثاً بصائب رأيه وصادق ذهنه ﴿فَصَبَّرْ جَبِيلٌ﴾ أي: فصبري صبر جميل لا جزع فيه ولا شكوى إلى الناس. وقيل: فصبر جميل أحسن وأولى من الجزع الذي لا يغني شيئاً. وقيل: إنما يكون الصبر جميلاً إذا قصد به وجه الله تعالى وفعل للوجه الذي وجب، فلما كان الصبر في هذا الموضع واقعاً على الوجه المحمود صحَّ وصفه بذلك، ذكره المرتضى قدس الله روحه. وقيل: إن البلاء نزل بيعقوب ﷺ على كبره، وبيوسف على صغره، بلا ذنب كان منهما، فأكبَّ يعقوب ﷺ على حزنه، وانطلق يوسف في رقه، وكل ذلك بعين الله يرى ويسمع حتى أتى بالمرج، وكل ذلك امتحان ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: بالله أستعين على دفع ما تصفون، أو به أستعين على تحمُّل مرارة الصبر عليه، ومكث يوسف في الجبِّ ثلاثة أيام.



قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوُهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

(١) قائله عمرو بن كلثوم من (المعلقة). وروايته فيها «تركنا الخيل عاكفة عليه. ا. هـ» صفونا جمع والصفان: الخيل إذا وقف على ثلاث قوائم، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر.

سورة يوسف

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة: ﴿يُبَشِّرِي﴾ بألف بغير ياء، إلا أن حمزة والكسائي وخلف يميلون الراء، وعاصم لا يميل، والباقون: «يا بشراي» بفتح الياء وإثبات الألف. وفي الشواذ قراءة الجحدري، وابن أبي إسحاق، والحسن: «يا بُشْرِي».

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ «يا بشراي» فأضاف إلى الياء التي للمتكلم كان للألف التي هي حرف الإعراب عنده موضعان من وجهين:
أحدهما: إن الألف في موضع نصب من حيث كان نداء مضافاً.

والآخر: أن يكون في موضع كسر، من حيث كان بمنزلة حرف الإعراب الذي في غلامي، والدليل على استحقاقها لهذا الموضع قولهم: كَسَرْتُ فِيَّ، فلولا أن حرف الإعراب الذي ولي ياء الإضافة في موضع كسر ما كسرت الفاء من «فِيَّ» فلما كسرت كما كسرت من قولهم: «بفيك»، وكما فتحت من قولهم: «رأيت فاك»، لما كانت في موضع الفتحة التي في قولك: «رأيت غلامك»، وانضمت في قولك: «هذا فوك»، لاتباعه الضمة المقدرة فيها كالتي في قولك: «هذا غلامك»، كذلك كسرت في قولهم: كسرت «فِيَّ» وهذا يدل على أنه ليس يعرب من مكانين، ألا ترى أنها تبتع حركة غير الإعراب في قولك: «كسرت فيَّ يا هذا»، كما تبتع حركة الإعراب في «رأيت فاك».

ومن قال «يا بشري» احتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون في موضع ضم مثل: «يا رجل»، لاختصاصه بالنداء.

والآخر: أن يكون في موضع نصب، وذلك لأنك أشبعت النداء ولم تختص به كما فعلت في الوجه الأول، فصار كقوله: ﴿يُنَحِّسُهُ عَلَى الْبِأَرِ﴾ إلا أن التنوين لم يلحق ﴿يُبَشِّرِي﴾ لأنها لا تنصرف.

فأما من قرأ «بُشْرِي» فإن تلك لغة هذيل، قال أبو ذؤيب:

سَبَقُوا هَوًى وَاعْنَقُوا لِسَبِيلِهِمْ فَتَخَرَّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَهْجَعٌ^(١)
وقال آخر:

يَطُوفُ بِي عَكَبٌ فِي مَعْدٍ وَيَطْعَنُ بِالصُّمْلَةِ فِي قَفِيَا
فَإِنْ لَمْ تَنَارَا لِي مِنْ عَكَبٍ فَلَا رَوَيْتُمَا أَبَدًا صُدِيَا^(٢)
وأمثاله كثيرة.

(١) وفي رواية (الأماي) للشريف المرتضى (قده) والبيان «مصرع» بدل «مهجع». وأعقوا أي: أسرعوا. وتخرم القوم المنية أي: اقتطعهم واستأصلهم. يرثي بنه لما ماتوا بالطاعون.

(٢) هما للمتخيل الهذلي، ونسبهما في (اللسان) إلى المنخل الشكري. وعكب اللخمي: صاحب سجن النعمان بن المنذر. ومعد: قبيلة. والصملة: الرجل القصير الضخم.

● **اللغة:** الوارد: الذي يتقدم الرفقة إلى الماء ليستقي. وتقول: أدليت الدلو، إذا أرسلتها في البئر لتملأها، ودلوتها، إذا أخرجتها ملاءى. والبضاعة: قطعة من المال تجعل للتجارة، من بضعت الشيء إذا قطعته، ومنه المبضع، لأنه يوضع به العرق. والشرى: البيع، قال الشاعر:

وشريت بُردًا لِيَتَنِي من بعد بُردٍ كُنْتُ هامة^(١)

والثمن: بدل الشيء من العين أو الورق، ويقال في غيرهما أيضاً مجازاً. والبخس: النقص من الحق، يقال: بخسه في الكيل أو الوزن: إذا نقصه من حقه فيهما.

● **الإعراب:** قال الزجاج: معنى النداء في ﴿يَبْشُرِي﴾ وما في معناها مما لا يجيب ولا يعقل، فإنه على تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة، إذا قلت: «يا عجباه»، فكأنك قلت: اعجبوا، يا أيها العجب هذا من حينك. وكذلك إذا قلت: «يا بشرى»، فكأنك قلت: أبشروا، يأتيتها البشري هذا من إبانك. و ﴿يَصْمَةُ﴾ منصوب على الحال، وتقديره: وأسروه جاعليه بضاعة. و ﴿دَرَاهِمُ﴾ في موضع جر بأنه بدل من ﴿ثَمَنٍ﴾ و ﴿مَقْدُودَةٌ﴾ صفة الدراهم ﴿وَكَاثُوا فِيهِ مِنَ الزَّهْدِيَّتِ﴾ ﴿فِيهِ﴾ ليست من صلة ﴿الزَّهْدِيَّتِ﴾ والمعنى: وكانوا من الزاهدين، ثم بين في أي شيء زهدوا، فقال: ﴿فِيهِ﴾ فكأنه قال: زهدوا فيه، وهذا في الظروف جائز، ولا يجوز ذلك في المفعولات، لو قلت: كنت زيداً من الضاريين لم يجز، لأن زيداً من صلة الضاريين، ولا تتقدم الصلة على الموصول.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف بعد إلقائه في الجب، فقال: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: جماعة مارة قالوا: وإنما جاءت من قبل (مدین) يريدون مصر، فأخطأوا الطريق، فانطلقوا يهيمون على غير الطريق حتى نزلوا قريباً من الجب، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران، وإنما هو للرعاة والمجتازة. وكان ماؤه ملحاً فعذب. وقيل: كان الجب بظهر الطريق ﴿فَارْتَسَلُوا وَإِرْدَهُمْ﴾ أي: فبعثوا من يطلب لهم الماء، يقال: بعثوا رجلاً يقال له: مالك بن زعر ليطلب لهم الماء ﴿فَأَدَّلَى دُلُومًا﴾ أي: أرسل دلوه في البئر ليستقي، فتعلق يوسف عليه السلام بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون من الغلمان. قال النبي ﷺ: أعطى يوسف شطر الحسن، والنصف الآخر لسائر الناس. وقال كعب الأحبار: وكان يوسف حسن الوجه، جعد الشعر، ضخم العين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساقين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، وكان إذا تبسم رأيت النور في ضواحه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع النور يلتهب عن ثناياه، ولا يستطيع أحد وصفه، وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله عز وجل وصوره ونفخ فيه من روحه، قبل أن يصيب المعصية. ويقال: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة، وكانت قد أعطيت سدس الحسن. فلما رآه المدلي ﴿قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾، عن قتادة، والسدي. وقيل: إنه نظر في البئر لما ثقل عليه الدلو فرأى يوسف عليه السلام فقال: هذا غلام

(١) قائله يزيد بن مفرغ الحميري. برد: اسم عبد باعه فندم. والهامة: الميت.

فأخرجوه، عن الجبائي. وقيل: إن بشرى رجل من أصحابه ناداه، عن السدي ﴿وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ أَيَّامٍ﴾ وأسرى يوسف الذين وجدوه من رفقاتهم من التجار، مخافة أن يطلبوا منهم الشركة معهم في يوسف، فقالوا: هذا بضاعة لأهل الماء دفعوه إلينا لنبيعه لهم، عن مجاهد، والسدي. وقيل: معناه وأسرى إخوته يكتمون أنه أخوهم، فقالوا: هو عبد لنا قد أبقي واختفى منا في هذا الموضع، وقالوا له بالعبرانية: لئن قلت: أنا أخوهم قتلناك، فتابعهم على ذلك لئلا يقتلوه، عن ابن عباس ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَمْكُرُونَ﴾ أي: بما يعمل إخوة يوسف.

﴿وَسَرَّوْهُ بِشَعْرٍ بَحْسٍ﴾ أي: باعوه بثمن ناقص قليل، عن عكرمة، والشعبي. وقيل: حرام، لأن ثمن الحر حرام، عن الضحاك، ومقاتل، والسدي. وسمي الحرام بخساً لأنه لا بركة فيه، فهو منقوص البركة ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: قليلة، وذكر العدد عبارة عن القلة. وقيل: إنهم كانوا لا يزنون من الدراهم ما دون الأوقية، وكانوا يزنون الأوقية، وهي الأربعون فما زاد عليها، وكانت الدراهم عشرين درهماً، عن ابن عباس، وابن مسعود، والسدي، وهو المروي عن علي بن الحسين (عليه السلام)، قال: وكانوا عشرة فاقسموها درهمين درهمين. وقيل: كانت اثنين وعشرين درهماً، عن مجاهد. وقيل: كانت أربعين درهماً، عن عكرمة. وقيل: ثمانية عشر درهماً، عن أبي عبد الله (عليه السلام).

واختلف فيمن باعه فقيل: إن إخوة يوسف باعوه، وكان يهوذا متنبذاً ينظر إلى يوسف، فلما أخرجوه من البئر، أخبر إخوته فأتوا مالكاً وباعوه منه، عن ابن عباس ومجاهد، وأكثر المفسرين. وقيل: باعه الواجدون بمصر، عن قتادة. وقيل: إن الذين أخرجوه من الجب باعوه من السيارة، عن الأصم. والأصح، الأول. وذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره قال: فلم يزل مالك بن زعر وأصحابه يتعرفون من الله الخير في سفرهم ذلك حتى فارقوا يوسف ففقدوا ذلك، قال: وتحرك قلب مالك ليوسف فأتاه فقال: أخبرني من أنت؟ فانتبه له يوسف، ولم يكن مالك يعرفه، فقال: أنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. فألزمه مالك وبكى. كان مالك رجلاً عاقراً لا ولد له، فقال ليوسف: لو دعوت ربك أن يهب لي ولداً، فدعا يوسف ربه أن يجعل له ولداً، ويجعلهم ذكوراً، فولد له اثنا عشر بطناً في كل بطن غلامان. ﴿وَكَاثُرًا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ قيل: يعني به أن الذين اشتروه كانوا من الزاهدين في شرائه، لأنهم وجدوا علامة الأحرار وأخلاق أهل البر والنبل، فلم يرغبوا فيه مخافة أن يلحقهم تبعة في استعباده. وقيل: معناه وكانوا من الزاهدين في نفس يوسف لم يشروه للفجور، وإنما اشتروه للربح. وقيل: المراد به الذين باعوه من إخوته كانوا غير راغبين في يوسف ولا في ثمنه، ولكنهم باعوه حتى لا يظهر ما فعلوا به، وكان قصدهم تبعيده. وقيل: كانوا من الزاهدين في يوسف، لأنهم لم يعرفوا موضعه من الله سبحانه وكرامته عليه. ولا تنافي بين هذه الأقوال، فيجوز حمل الآية على جميعها. وقيل: إن الذين باعوه بمصر كانوا من الزاهدين في ثمنه، لأنهم علموا أنه لقطة وليست ببضاعة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ .

● **اللغة:** الثواء: الإقامة. والمثوى: موضع الإقامة. والإكرام: إعطاء المراد من جهة الإعظام، وهو يتعاضم فأعلاه منزلة ما يستحق بالنبوة، وأدناه ما يستحق بخصلة من الطاعات. وأشد: جمع لا واحد له، وقيل: هو واحد وإن كان على وزن الجمع، فهو مثل الآنك، وهو الرصاص. وقيل: إنه جمع واحده: شد، كما أن واحد الأشر: شر، قال الشاعر:

هَلْ غَيْرُ أَنْ كَثُرَ الْأَشْرُ وَأَهْلَكَتْ حَرْبُ الْمُلُوكِ أَكْأَثَرُ الْأَمْوَالِ

● **الإعراب:** ﴿مِصْرَ﴾ لا ينصرف لأنه مؤنث معرفة. و ﴿أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في موضع رفع لكونه فاعل ﴿عَسَىٰ﴾ وعسى هذه تامة، لأنها تمت بفاعلها. واللام في قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ محمولة على تقدير: دبرنا ذلك لنمكنه ولنعلمه.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف بعد أن بيع، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ أي: اشترى يوسف ﴿مِنْ مِصْرَ﴾ أي: من أهل مصر ﴿لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي: مقام يوسف، وموضع نزوله، أي: هيئي له موضعاً كريماً شريفاً، وتقدير الآية: فحملوه إلى مصر وباعوه، وحذف ذلك للدلالة عليه، وكان المشتري خازن فرعون مصر وخليفته وصاحب جنوده، واسمه: قطفير، وكان لا يأتي النساء. وقيل: إن اسمه: أظفير، وكان يلقب بالعزیز، ومن كان بمكانه يسمى بالعزیز، ومن يسمى بالعزیز ممن لم يكن بمكانه نزع لسانه، فلما عبر يوسف رؤيا الملك سمي العزیز، وجعل مكان العزیز، وكان باعه مالك بن زعر منه بأربعين ديناراً، وزوج نعل، وثوبين أبيضين، عن ابن عباس. وقيل: إنه عرضه على البيع في سوق مصر، فتزايدوا حتى بلغ ثمنه وزنه ورقاً ومسكاً وحريراً، عن وهب. فاشتراه العزیز بهذا الثمن، وقال ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾ راعيل، ولقبها زليخاً، ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ أي: عسى أن نبيعه فنربح على ثمنه ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فإنه لا ولد لنا، وإنما قال ذلك لما رأى على يوسف من الجمال والعقل والهداية في الأمور، وعلى هذا فالعزیز هو خازن الملك وخليفته، والملك هو الريان بن الوليد: رجل من العماليق. وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن، واتبع يوسف على دينه، ثم مات ويوسف بعده حي، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يقبل. وقال ابن عباس: العزیز ملك مصر، وكذلك هو في حديث علي بن الحسين عليه السلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كما أنعمنا على يوسف بالسلامة والخروج من الحبّ مكناه في الأرض، بأن عطفنا عليه قلب الملك الذي اشتراه، حتى صار بذلك متمكناً من الأمر والنهي في الأرض التي كان يستولي عليها الملك، وهي أرض مصر. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وقد مضى معناه في أول السورة ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أي: على أمر يوسف، يحفظه ويرزقه حتى يبلغه ما قدر له من الملك والنبوة، ولا يكله إلى غيره. وقيل: معناه والله

سورة يوسف

غالب على أمر نفسه، لا يعجزه شيء من تدابيرهِ وأفعاله، فهو الفاعل لما يشاء كيف يشاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن الله غالب على أمر نفسه، أو أمر يوسف. وقيل: معناه لا يعلمون ما يصنع الله بيوسف، وما يؤول إليه حاله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدُّهُ﴾ أي: منتهى شبابه وقوته وكمال عقله، وقيل: الأشد من ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، عن ابن عباس. وقيل: إن أقصى الأشد أربعون سنة. وقيل: ستون سنة، وهو قول الأكثرين، ويؤيده الحديث: من عمره الله ستين سنة فقد أعذر إليه. وقيل: إن ابتداء الأشد من ثلاث وثلاثين سنة، عن مجاهد، وكثير من المفسرين. وقيل: من عشرين سنة، عن الضحاك. ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي: أعطيناه القول الفصل الذي يدعو إلى الحكمة ﴿وَعِلْمًا﴾ وهو تبين الشيء على ما هو به بما يحل في القلب، عن علي بن عيسى. وقيل: الحكم: النبوة، والعلم: الشريعة، عن ابن عباس. وقيل: الحكم: الدعاء إلى دين الله، والعلم: علم الشرع. وقيل: أراد الحكم بين الناس، والعلم بوجوه المصالح، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا على العزيز أمره بأن يحكم بينهم، لما رأى من عقله وإصابته في الرأي. وقيل: هو العلم والعمل به وهو الحكم ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مثل ما جزينا يوسف بصره نجزي كل من أحسن، أي: فعل الأفعال الحسنة من الطاعات. وقيل: إن المحسنين: الصابرون على النوائب، عن الضحاك. وقيل: هم المؤمنون، عن ابن عباس. وقيل: أراد محمداً ﷺ، أي: كما فعلنا بيوسف وأعطيناه الملك بعد مقاساته البلاء والشدة، كذلك نفعل بك يا محمد، عن ابن جريج.



قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والشام: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بكسر الهاء وفتح التاء. وقرأ ابن كثير: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء وضم التاء. وقرأ الباقون: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء والتاء. وروي عن علي بن أبي طالب، وأبي رجاء، وأبي وائل، ويحيى بن وثاب «هَيْتَ لَكَ» بالهمزة وضم التاء، وروي ذلك على خلاف فيه، عن ابن عباس، وعن عكرمة ومجاهد، وقتادة، وروي عن ابن عباس أيضاً: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء وكسر التاء، وروي ذلك عن أبي الأسود، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، وعيسى الثقفي. وروي أيضاً عن ابن عباس: «هَيْتَ لَكَ» أيضاً.

● **الحجة:** قال الزجاج: في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ لغات أجودها ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء والتاء، قال الشاعر:

أُبْلِغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
إِنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ عُثِقَ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا^(١)

(١) قائله رجل من أهل العراق يخاطب علي بن أبي طالب عليه السلام، وجاء القوم عنقاً عنقاً أي: طوائف. أراد أنهم أقبلوا إليك بجماعتهم. وفي بعض الروايات «سلم إليك». مكان «عنى إليك».

أي: فأقبل وتعال. وحكى قطرب: أنه أنشده بعض أهل الحجاز لطرفة:
 لَيْسَ قَوْمِي بِالْأَبْعَدِينَ إِذَا مَا قَالَ دَاعٍ مِنَ الْعَشِيرَةِ: هَيْتَ
 هُمْ يُجِيبُونَ ذَا: هَلُمَّ سِرَاعاً كَالْأَبَابِيلِ لَا تُغَادِرُ بَيْتَا

فهذا شاهد لابن كثير، وكلها أسماء سمي بها الفعل، بمنزلة: صَهْ وَمَهْ وَأَيَهْ، والحركات في
 أواخرها لالتقاء الساكنين، وأما الفتح: فلأن قبل التاء ياء، فهو كما قيل: أين وكيف، والكسر
 لأن الأصل في التقاء الساكنين حركة الكسر، وأما الضم فلأنها في معنى الغايات، كأنها قالت:
 دعائي لك، فلما حذفت الإضافة، وتضمنت هيت معناها، بنيت على الضم، كما بنيت حيث
 ومنذ، وأما هتت بالهمزة وضم التاء ففعل، تقول: هتت أهياً هيتاً، أي: تهيأت، وقالوا أيضاً،
 هتت أهاء، كخفت أخاف. وأما ﴿هَيْتُ لَكَ﴾: ففعل صريح، كقولك: أصلحت لك، واللام
 تتعلق بنفس هيت، وهيت، وهيت، وهتت، كما تتعلق بنفس «هلم» في قولك: هلم لك.

● **اللغة:** المرادة: المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به، ومنه: المروء لأنه يعمل به،
 ولا يقال في المطالبة بدين راوده، وأصله من راد يرود، إذا طلب المرعى، وفي المثل: الرائد لا
 يكذب أهله، وهو في الآية كناية عما تريده النساء من الرجال. والتغليق: إطباق الباب بما يعسر
 فتحه، وإنما شدد ذلك لتكثير الإغلاق، أو للمبالغة في الإيثاق.

● **الإعراب:** ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر، على تقدير: أعوذ بالله معاذاً، تقول:
 عدت بالله عوداً، ومعاذاً، وعياداً، ومعاذة.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن امرأة العزيز وما همت به، فقال: ﴿وَرَزَوْتُهُ أَلَيْ هُوَ فِي
 بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: وطالبت يوسف عليه السلام المرأة التي كان يوسف عليه السلام في بيتها عن نفسه،
 وهي زليخا. والمعنى: طلبت منه أن يواقعها ﴿وَعَلَّقَتْ الْآتُوبَ﴾ على نفسها وعليه باباً بعد
 باب، قالوا: وكانت سبعة أبواب. وقيل: أراد باب الدار وباب البيت ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي:
 هلم لك، عن ابن عباس، والحسن. ومعناه: أقبل ويادر إلى ما هو مهياً لك ﴿قَالَ﴾
 يوسف عليه السلام ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي: اعتصم بالله واستجير به مما دعوتني إليه، وتقديره: عياداً بالله أن
 أجيب إلى هذا، فكان عليه السلام أظهر الإباء، وسأل الله سبحانه أن يعيذه ويعصمه من فعل ما دعت
 إليه ﴿إِنَّهُ رَزَقَ أَحْسَنَ مَثْوًى﴾ الهاء عائدة إلى زوجها عند أكثر المفسرين، ومعناه: إن العزيز
 زوجك مالكي، أحسن تربيتي وإكرامي، ويسط يدي، ورفع منزلي فلا أخونه، وإنما سماه رباً لما
 كان ثبت له عليه من الرق في الظاهر. وقيل: إن الهاء عائدة إلى الله سبحانه، والمعنى: إن الله
 ربي رفع من محلي، وأحسن إليّ وجعلني نبياً، فلا أعصيه أبداً ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ دل بهذا
 على أنه لو فعل ما دعت إليه لكان ظالماً، وفي هذه الآية دلالة على أن يوسف لم يهم بالفاحشة،
 ولم يردها بقبیح، لأن من همّ بالقبيح لا يقول مثل ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤).

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والكوفة: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، والباقون: بكسر اللام في جميع القرآن.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من كسر اللام قوله: ﴿وَأَخْلَصُوا بِنَهْمٍ لِلَّهِ﴾ ومن فتح اللام فيكون بنى الفعل للمفعول به، ويكون معناه، ومعنى من كسر اللام واحد، فإذا أخلصوا دينهم فهم مخلصون، وإذا أخلصوا فهم مخلصون.

● **الإعراب:** الهم في اللغة على وجوه: منها: العزم على الفعل، كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أرادوا ذلك وعزموا عليه، ومنه قول ضابئ البرجمي: هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ، وَكَذْتُ، وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عَثْمَانَ، تَبْكِي حَلَالُهُ وَقَوْل حَاتِم طيء:

وَلِلَّهِ صَعْلُوكُ يُسَاوِرُ هَمُّهُ وَيَمْضِي عَلَى الْآيَامِ، وَالذَّهْرُ مُقَدِّمًا وَقَوْل الْخَنَسَاءِ:

وَفَضَّلَ مِزْدَاسًا عَلَى النَّاسِ جَمْلَةً، وَإِنْ كُلُّ هَمٍّ هَمُّهُ فَهُوَ فَاعِلُهُ

ومنها: خطور الشيء بالبال وإن لم يقع العزم عليه، كقوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَلِيقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَقْسَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يعني أن القشل خطر ببالهم، ولو كان الهم ههنا عزمًا لما كان الله وليهما، لأن العزم على المعصية معصية، ولا يجوز أن يكون الله ولي من عزم على الفرار عن نصرته نبيه ﷺ، ويقوي ذلك قول كعب بن زهير:

فَكُنْ فِيهِمْ مِنْ فَارِسٍ مُتَوَسِّعٍ وَمِنْ فَاعِلٍ لِلْخَيْرِ إِنْ هَمَّ، أَوْ عَزَمَ ففارق بين الهم والعزم.

ومنها: أن يكون بمعنى المقاربة، قالوا: هَمَّ فلان أن يفعل كذا، أي: كاد يفعله. قال ذو الرمة:

أَقُولُ لِمَسْعُودٍ بِجَزَعَاءِ مَالِكٍ وَقَدْ هَمَّ دَمْعِي أَنْ تَلِجَ أَوَائِلُهُ
وَالدَّمْعُ لَا جُوزَ عَلَيْهِ الْعَزْمُ، وَمَعْنَاهُ: كَادَ وَقَارِبَ، وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيُّ:

وَكُنْتُ مَتَى تَهَمُّ يَمِينُكَ مَرَّةً لَتَفْعَلَ خَيْرًا تَقْتَفِيهَا شِمَالُكَا
وعلى هذا جاء قوله: ﴿حِذَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ﴾ أي: يكاد، وقال الحارثي:

يُرِيدُ الرَّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَرْغَبُ عَنْ دَمَاءِ بَنِي عَقِيلٍ
ومنها: الشهوة ونيل الطباع، يقول القائل فيما يشتهي ويميل طبعه إليه: هذا أهم الأشياء

إلي، وفي ضده: ليس هذا من همي، وإذا كانت معاني الهم في اللغة مختلفة يجب أن ننفي عن نبي الله يوسف ﷺ ما لا يليق به، وهو العزم على القبيح، لأن الدليل قد دلّ على أن الأنبياء لا يجوز المعاصي والقبائح عليهم، وأجزنا عليهم ما سواه من معاني الهم، لأن كل واحد من ذلك يليق بحاله.

● **المعنى:** ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْءُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ اختلف العلماء فيه على قولين:

أحدهما: إنه لم يوجد من يوسف ذنب كبير ولا صغير.
والآخر: إنه وجد منه العزم على القبيح ثم انصرف عنه. فأما الأولون فإنهم اختلفوا في تأويل الآية على وجوه:

أحدها: إن الهم في ظاهر الآية قد تعلّق بما لا يصح تعلّق العزم به على الحقيقة، لأنه قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْءُ وَهَمَّ بِهَا﴾ فعلت الهم بهما، وذاتهما لا يجوز أن يرادا ويعزم عليهما، لأن الموجود الباقي لا يصح أن يراد ويعزم عليه، فإذا حملنا الهم في الآية على العزم فلا بد من تقدير أمر محذوف يتعلّق العزم به. وقد أمكن أن نعلّق عزمه ﷺ بغير القبيح، ونجعله متناولاً لضربها، أو دفعها عن نفسه، فكأنه قال: ولقد همت بالفاحشة منه وأرادت ذلك، وهم يوسف ﷺ بضربها ودفعها عن نفسه، كما يقال: هممت بفلان، أي: بضربه وإيقاع مكروه به، وعلى هذا فيكون معنى رؤية البرهان، أن الله سبحانه أراه برهاناً على أنه إن أقدم على ما هم به أهلكه أهلها أو قتلوه، أو ادعت عليه المراودة على القبيح، وقذفته بأنه دعاها إليه وضربها لامتناعها منه، فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء، اللذين هما القتل وظن اقتراف الفاحشة به، ويكون التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لفعل ذلك، ويكون جواب لولا محذوف، كما حذف فيه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ نَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لولا فضل الله لهلكتم، ولو تعلمون علم اليقين لم يهلكم التكاثر، ومثله قول امرئ القيس:

ولو أنّها نفسٌ تموتُ سوئَةً ولكنّها نفسٌ تُساقطُ أنفُساً^(١)

يريد: فلو أنّها نفس تموت سوية لنقضت وفنيت، فحذف الجواب تعويلاً على أن الكلام يقتضيه، وعلى هذا يكون جواب لولا محذوفاً، يدل عليه قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جواباً بلولاً، لأن جواب لولا لا يتقدم عليه.

وثانيها: أن يحمل الكلام على التقديم والتأخير، ويكون التقدير: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها، ولما رأى برهان ربه لم يهم بها، ويجري ذلك مجرى قولهم: قد كنت هلكت لولا أنني تداركتك، وقد كنت قُتلت لولا أنني خلصتك، والمعنى: لولا تداركي لهلكت، ولولا تخليصي إياك لقتلت، وإن كان لم يقع هلاك وقتل، ومثله قول الشاعر:

(١) هذا بيت من سينيته التي قالها عند موته، ومعناه - على ما قيل - : تموت بموتي نفوس كثيرة.

فلا يدْعُنِي قَوْمِي لِيَوْمِ كَرِيهِةٍ لِّئِنْ لَمْ أَعْجَلَ ضَرْبَةً أَوْ أَعْجَلَ
وقال آخر:

فلا يدْعُنِي قَوْمِي صَرِيحاً لِحُرَّةٍ لِّئِنْ كُنْتُ مَقْتُولاً وَيُسَلِّمَ عَامِرٌ^(١)

وفي القرآن: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وهذا الوجه اختاره أبو مسلم، وهو قريب من الأول.

وثالثها: إنَّ معنى قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ اشتهاها ومال طبعه إلى ما دعت إليه، وقد يجوز أن تسمى الشهوة همًّا على سبيل التوسع والمجاز، ولا قبح في الشهوة لأنها من فعل الله تعالى، وإنما يتعلق القبح بالمشتهي، وقد روي هذا التأويل عن الحسن قال: أما همها فكان أخبث الهم، وأما همها فما طبع عليه الرجال من شهوة النساء. وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: همها القصد، وهمها أنه تمنّاها أن تكون زوجة له، وعلى هذا الوجه فيجب أن يكون قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَمَا بُرْهَنَ رَبُّهُمْ﴾ متعلقاً بمحذوف أيضاً، كأنه قال: لولا أن رأى برهان ربه لعزم أو فعل.

سؤال: قالوا إن قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ خرجا مخرجاً واحداً، فلم جعلتم همها به متعلقاً بالقبيح وهمها بها متعلقاً بغير القبيح؟

وجوابه: إنَّ الظاهر لا يدل على ما تعلق به الهم فيهما جميعاً، وإنما أثبتنا همها به متعلقاً بالقبيح لشهادة القرآن والآثار به، ولأنها ممن يجوز عليه فعل القبيح، والشاهد لذلك من الكتاب قوله: ﴿وَرَوَدَتْهُ الْآتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ وقوله: ﴿وَقَالَ يَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْدَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وقوله حكاية عنها: ﴿أَلْقَىٰ حَصَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾.

والشاهد من الآثار: إجماع المفسرين على أنها همت بالمعصية والفاحشة، وأما يوسف عليه السلام فقد دلت الأدلة العقلية، التي لا يتطرق إليها الاحتمال والمجاز على أنه لا يجوز أن يفعل القبيح، ولا يعزم عليه.

فأما الشاهد من القرآن على أنه ما همَّ بالفاحشة فقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ لِيَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ وغير ذلك من قوله: ﴿قُلْنَا حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ والعزم عن الفاحشة من أكبر السوء.

وأما الفرقة الأخرى فإنهم قالوا فيه ما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء، فقال بعضهم: إنه قعد بين رجليها، وحلَّ تكَّة سراويله. وقال بعضهم: حل السراويل حتى بلغ الشنن، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، وقد نزهه الله سبحانه عن ذلك كله بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِيَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ وأمثال ذلك مما عددناه.

فأما البرهان الذي رآه فقد اختلف فيه على وجوه:

أحدها: إنه حجة الله سبحانه في تحريم الزنى، والعلم بالعذاب الذي يستحقه الزاني، عن محمد بن كعب، والجبائي.

وثانيها: إنه ما آتاه الله سبحانه من آداب الأنبياء، وأخلاق الأصفياء في العفاف، وصيانة النفس عن الأدناس، عن أبي مسلم.

وثالثها: إنه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش، والحكمة الصارفة عن القبائح، روي ذلك عن الصادق عليه السلام.

ورابعها: إنه كان في البيت صنم، فألقت المرأة عليه ثوباً، فقال عليه السلام: إن كنت تستحين من الصنم، فأنا أحق أن أستحي من الواحد القهار، عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

وخامسها: إنه اللطف الذي لطف الله تعالى به في تلك الحال أو قبلها، فاختار عنده الامتناع عن المعاصي، وهو ما يقتضي كونه معصوماً، لأن العصمة هي اللطف الذي يختار عنده التنزه عن القبائح، والامتناع من فعلها.

ويجوز أن يكون الرؤية ههنا بمعنى العلم، كما يجوز أن يكون بمعنى الإدراك.

فأما ما ذكر في البرهان من الأشياء البعيدة، بأن قيل: إنه سمع قائلاً يقول: يا ابن يعقوب! لا تكونن كالطير له ريش، فإذا زنى ذهب ريشه! وقيل: إنه رأى صورة يعقوب عاضاً على أنامله. وقيل: إنه رأى كفاً بدت فيما بينهما، مكتوباً عليها النهي عن ذلك، فلم ينته، فأرسل الله سبحانه جبريل عليه السلام، وقال: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فرآه عاضاً على أصبعه، فكل هذا سوء ثناء على الأنبياء، مع أن ذلك ينافي التكليف، ويقتضي ألا يستحق على الامتناع من القبيح مدحاً ولا ثواباً، وهذا من أقبح القول فيه عليه السلام.

﴿كَذَلِكَ نَصْرِفُ عَنْهُ السُّوءَ﴾ أي: كذلك أريناه البرهان لنصرف عنه السوء، أي: الخيانة ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: ركوب الفاحشة. وقيل: السوء: الإثم، والفحشاء: الزنى. ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: المصطفين المختارين للنبوة، وبكسر اللام المخلصين في العبادة والتوحيد، أي: من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله، وأخلصوا أنفسهم له، وهذا يدل على تنزيه يوسف وجلالة قدره من ركوب القبيح والعزم عليه.



قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سِيَدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩).

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن يعمر، وابن أبي إسحاق، ونوح القاري: ﴿مَنْ قُبِلَ﴾ ﴿مَنْ دُبِرَ﴾^(١) بثلاث ضمات من غير تنوين.

● **الحجة:** قال ابن جني: ينبغي أن يكونا غاييتين، كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَسْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ كأنه يريد: وقدت قميصه من دبره، وإن كان قميصه قد من قبله، فلما حذف المضاف إليه، أعني الهاء وهي مرادة، صار المضاف غاية، بعد ما كان المضاف إليه، غاية له.

● **اللغة:** القَدْ شَقَّ الشيء طولاً، مثل: قد الأديم، يقال: قدَّه يقدُّه قدًّا فهو مقدود، إذا كان ذاهباً في الطول على استواء. وفي الحديث: «كانت ضربات علي بن أبي طالب عليه السلام أبكاراً، كان إذا اعتلى قد، وإذا اعترض قط» والقَدْ بكسر القاف: السير المقطوع طولاً. والإلقاء: المصادفة، قال ذو الرمة:

وَمُطْعِمُ الصَّيْدِ هَبَّالٌ لِبَغِيَّتِهِ أَلْفَى أَبَاهُ بِذَاكَ الْكَسْبِ يَكْتَسِبُ^(٢)

أي: وجد أباه. والكيد: طلب الشيء بما يكرهه، كما طلبت المرأة يوسف بما يكرهه ويأباه. والخطيئة: العدول عما تدعو إليه الحكمة إلى ما تزجر عنه، ويقال لصاحبه: خطيء يخطأ خطأ فهو خاطيء، إذا وقع ذلك منه عن قصد، فإذا وقع من غير قصد قيل: أخطأ المقصد فهو مخطيء، فأصل الخطأ: العدول عن الغرض الحكمي بقصد، أو غير قصد، قال أمية:

عِبَادُكَ يَخْطِأُونَ، وَأَنْتَ رَبُّ بِكَفِّكَ الْمَنَايَا، وَالْحُتُومُ

● **الإعراب:** إنما عطف قوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على الفعل، لأن تقديره: إلا السجن أو عذاب، و ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿قَدْ مِنْ دُبِرَ﴾ و ﴿مَنْ قُبِلَ﴾ لابتداء الغاية، لأن ابتداء القدر كان منها، و ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ الْكَذِبِينَ﴾ للتبعض، لأنه بعض الكاذبين، ولم يقل: وشهد شاهد أنه إن كان، لأنه ذهب مذهب القول في الحكاية، كما أن قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ كذلك، والتقدير: يوصيكم الله أن المال للذكر مثل حظ الأنثيين. وقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ﴾ قال أبو العباس المبرد: معناه إن يكن، وجاز ذلك في كان لأنها أم الباب، كما جاز في التعجب: ما كان أحسن زيدا، ولم يجز: ما أصبح أحسنه. وقال أبو بكر السراج: إن يكن بمعنى إن يصبح قد قميصه من دبر، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ الرؤية ههنا تحتمل أمرين:

أحدهما: أن تكون بمعنى رؤية العين، فلا تكون رؤية العين رؤية للقد - ويكون قوله: ﴿قَدْ مِنْ دُبِرَ﴾ في موضع الحال - وإنما تكون رؤية للقميص.

والآخر: أن يكون بمعنى العلم، وتكون رؤية للقد، وإنما قال: ﴿مِنْ الْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل: من الخاطئات، لتغليب المذكر على المؤنث.

● **المعنى:** ﴿وَأَسْتَبَقَا الْآبَاءَ﴾ يعني تبادرا الباب، أي: طلب كل واحد من يوسف وامرأة العزيز سبق إلى الباب، أما يوسف فإنه كان يقصد أن يهرب منها، ومن ركوب الفاحشة، وأما

(١) بالبناء على الضم، والقطع عن الإضافة.

(٢) الهبال: الكاسب المحتال.

هي: فإنما كانت تطلب يوسف لتقضي حاجتها منه، وتقصد أن تغلق الباب، وتمنعه من الخروج، وتراوده ثانياً عن نفسه ﴿وَقَدَّتْ قَيْصُومَ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: لحقت يوسف فجذبت قميصه وشقته طولاً من خلفه، لأن يوسف كان هارباً وهي تعدو من خلفه. وقيل: إن يوسف رأى الأبواب قد انفتحت، فعلم أن الصواب هو الخروج، فخرج هارباً. وقيل: بل أخذ يفتح الأبواب وأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه فشقته.

﴿وَأَلْفَيْ سَيْدَهَا لَذَا آتَابٍ﴾ أي: فلما خرجا وجدا زوجها عند الباب، وسماء سيدها لأنه مالك أمرها ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني أن المرأة سبقت بالكلام لتدرك الذنب على يوسف، فقالت لزوجها: ليس جزاء من أراد بأهلك خيانة إلا أن يسجن، أو أن يضرب بالسياط ضرباً وجيعاً، عن ابن عباس. قالوا: ولو صدق حبها لم تقل ذلك، ولآثرته على نفسها، ولكن حبها إياه كان شهوة. ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ قَيْصُومَ﴾ لما ذكرت المرأة ذلك، لم يجد يوسف ﷺ بداً من تنزيه نفسه بالصدق، ولو كفت عن الكذب عليه لكف ﷺ عن الصدق عليها، فقال: هي التي طالبتني بالسوء الذي نسبتني إليه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير: إنه صبي في المهد. وقيل: كان الصبي ابن أخت زليخا، وهو ابن ثلاثة أشهر، وروي عن ابن عباس أيضاً في رواية أخرى، وعن الحسن، وقتادة، وعكرمة: أنه شهد رجل حكيم من أهلها بتبرئة يوسف، واختاره الجبائي قال: لو كان طفلاً لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه إلى البيان. وقيل: كان الرجل ابن عم زليخا، وكان جالساً مع زوجها عند الباب، عن السدي ﴿إِنْ كَانَتْ قَيْصُومَ قَدْ﴾ أي: شق ﴿مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ﴾ المرأة ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ فيما قال، يعني يوسف، لأنه كان هو القاصد وهي الدافعة ﴿وَأَنَّ كَانَتْ قَيْصُومَ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: من خلف ﴿فَكَذَّبَتْ﴾ المرأة ﴿وَهُوَ﴾ أي: يوسف ﷺ ﴿مِنْ أَصْدِقِينَ﴾ لأنه الهارب وهي الطالبة، وهذا أمر ظاهر واستدلال صحيح. ﴿فَلَمَّا رَأَى قَيْصُومَ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: فلما رأى زوجها قميص يوسف شق من خلف عرف خيانة المرأة ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وقيل: هو من قول الشاهد، وإنما وصف كيدهن بالعظم، لأنها حين فاجأت زوجها عند الباب لم يدخلها دهش، ولم تتحير في أمرها، ووركت الذنب على يوسف ﷺ، ولأن قليل حيل النساء أسبق إلى قلوب الرجال من كثير حيل الرجال ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ يعني إن الشاهد قال ليوسف: يا يوسف، أمسك عن هذا الحديث، أي: عن ذكرها حتى لا يفشو في البلد، عن ابن عباس. وقيل: إنما قاله زوجها. وقيل: معناه لا تلتفت يا يوسف إلى هذا الحديث، ولا تذكره على سبيل طلب البراءة، فقد ظهرت براءتك، عن أبي مسلم والجبائي، ثم أقبل على زليخا فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ﴾ أي: سلي زوجك ألا يعاقبك على ذنبك ﴿إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أي: من المذنبين. وقيل: إنه لم يكن غيوراً، سلبه الله الغيرة لطفاً منه بيوسف حتى كفى شره، ولذلك قال ليوسف: ﴿أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ واقتصر على هذا القدر. وقيل: معناه استغفري الله من ذنبك وتوبيي إليه، فإن الذنب كان منك لا من يوسف، فإنهم كانوا يعبدون الله تعالى مع عبادتهم الأصنام.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَسَّسَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيُسْجَنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) .

● **القراءة:** روي عن علي عليه السلام، وعن علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد عليهم السلام، وعن الحسن بخلاف، ويحيى بن يعمر، وقتادة بخلاف، ومجاهد بخلاف، وابن محيصن: ﴿قد شغفها﴾ بالعين. وروي عن أبي جعفر: ﴿متكأ﴾ بغير همز مشددة التاء، والباقون: ﴿متكئاً﴾ بالهمز والتشديد، وروي في الشواذ قراءة مجاهد: ﴿متكأ﴾ خفيفة ساكنة التاء، وروي ذلك عن ابن عباس. وقرأ أبو عمرو: ﴿وحاش الله﴾ والباقون: ﴿حَشَ لِلَّهِ﴾ وروي عن ابن مسعود، وأبي بن كعب: ﴿وحاش الله﴾ وعن الحسن: ﴿حاش الإله﴾ وفي رواية أخرى عنه: ﴿حَشَ لِلَّهِ﴾ بسكون الشين. وقرأ يعقوب وحده: ﴿السجن أحب إلي﴾ بفتح السين، والباقون: بكسرها.

● **الحجة:** قال الزجاج: معنى ﴿شَغَفَهَا﴾ بالعين: ذهب بها كل مذهب، مشتق من شغفات الجبال، أي: رؤوس الجبال، يقال: فلان مشغوف بكذا، أي: قد ذهب به الحب أقصى المذاهب، وقال ابن جني: معناه: وصل حبه إلى قلبها فكاد يحرقه لحدته، وأصله من البعير يهنا بالقطران فتصل حرارة ذلك إلى قلبه، قال امرؤ القيس:

لَتَفْتُلْنِي وَقَدْ شَعَفْتُ فُؤَادَهَا كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوَّةُ الرَّجُلُ الطَّالِي (١)

وأما القراءة المشهورة: ﴿شَغَفَهَا﴾ بالغين فمعناه: إنه خرق شغاف قلبها، وهو غلافه، فوصل إلى قلبها.

وأما ﴿المتكأ﴾ فهو ما يتكأ عليه لطعام أو شراب أو حديث وأصله مُوتكأ، مفتعل من وكأت، مثل: مؤتزن من الوزن.

وأما من قرأ ﴿مُتَّكًا﴾ فيجوز أن يكون مفتعلاً من قوله:

إِذَا شَرِبَ الْمُرْضَةُ قَالَ: أُوْكِي عَلَى مَا فِي سِقَائِكِ، قد رَوينا (٢)

(١) يقول: حرق فؤادها بحبي كما أحرق الطالي البعير بالهنا أي: القطران، لأنها تجد للهنا لذة مع حرقه.

(٢) قاله ابن الأحمر يذم رجلاً ويصفه بالبخل. والمرضة: اللبن قبل أن يدرك، أو اللبن الحامض الشديد الحموضة.

يقال: أوكيت السقا، إذا شدته.

وأما ﴿مَتَكاً﴾ فإنهم قالوا: المتك: الأترج، واحدته متكة. وقيل: هو الزَّماورد^(١).

وأما حجة أبي عمرو في قوله: ﴿حَشَّ لِلَّهِ﴾ فقول الشاعر:

حاشى أبي ثوبان إن به ضئاً عن الملحاة والشَّتم^(٢)

وقال أبو علي: لا يخلو قولهم: ﴿حَشَّ لِلَّهِ﴾، من أن يكون الحرف الجار في الاستثناء كما ذكرناه في البيت، أو فاعلاً من قولهم: حاشى يُحاشي، ولا يجوز أن يكون حرف الجر، لأن حرف الجر لا يدخل على مثله، ولأن الحرف لا يحذف إذا لم يكن فيها تضعيف، فإذا بطل ذلك ثبت أنها فاعل، مأخوذ من الحشاء الذي هو الناحية، والمعنى: أنه صار في حشاء، أي: في ناحية مما قذف به، وفاعله يوسف. والمعنى: بُعد عن هذا الذي رمي به، لله، أي: لخوفه من الله ومراقبته أمره، ومن حذف الألف، فكما حذف من «لم يك»، «ولا أدر» وإذا أريد به حرف الجر يقال: حاشا وحاش وحشا ثلاث لغات، قال الشاعر:

حشا رهِطَ النَّبِي فَإِنَّ فِيهِمْ بُحوراً لا تقطعها الدلاء

وأما من قرأ: ﴿حاش الله﴾ فعلى أصل اللغة يكون حرف جر، كما جاء في البيت:

حاشى أبي ثوبان

وأما «حاش الإله» فمحذوف من حاشا تخفيفاً، وهو كقولك: حاش المعبود، ومنه قول

الشاعر:

لَعَنَ الإلهُ وزوجَها معها هندَ الهنود طويلاً الثغل^(٣)

وأما ﴿حاش الله﴾ فضعيف، لالتقاء الساكنين فيه، ولإسكان الشين بعد حذف الألف، ولا موجب لذلك.

وأما من فتح السين من ﴿السَّجن﴾ فجعله مصدرأ، ومعناه: أن أسجن أحب إليّ، ومن

كسر فعلى اسم المكان، والمعنى: نزول السجن أحب إلي.

● اللغة: العزيز: المنيع بقدرته عن أن يضام في أمره، وسمي بذلك لأنه كان ملكاً

ممتنعاً بملكه واتساع مقدرته، وقال أبو داود:

دُرَّةٌ غاصَ عليها تاجرٌ جُلِيَتْ عند عزيزٍ يومَ طَلَّ

والفتى: الغلام الشاب، والمرأة فتاة، قال أبو مسلم، والزجاج: وتسمي العرب العبد فتى.

والمكر: الفتل بالحيلة إلى ما يراد من الطلية، وجارية ممكورة الساقين: أي: مفتولة الساقين.

وأعدت: مأخوذة من العتاد، ومثله: أعدت. والمتكأ: الوسادة، وهو النمرق الذي يُتكأ عليه،

(٣) الثغل: الثدي.

(١) طعام من البيض واللحم.

(٢) للملحاة: الدم.

سورة يوسف

وقيل: هو الأترج، وأنكر ذلك أبو عبيدة قال: ولا يمتنع أن يقال: قد كان في ذلك المجلس فواكه وأترج. فأما أن يعرف ذلك من هذا القول، فلا. والإكبار: الإعظام والإجلال. وقال قوم: معنى: ﴿أَكْبَرْتُهُ﴾ أنهم حُضِنَ حين رأينه، وأشدوا قول الشاعر:

يأتي النساء على أطهارهنَّ، ولا تأتي النساء إذا أكبرن إكباراً

وأنكر ذلك أبو عبيدة وقال: لا نعرف ذلك في اللغة، ولكنه يجوز أن يكن قد حُضِنَ من شدة إعظامهن إياه. والبيت مصنوع لا يعرفه العلماء بالشعر. والسجن: المنع عن التصرف بالحبس، سجن يسجن سجنًا. والاعتصام: الامتناع عن طلب المعصية، والاستعصام: طلب العصمة من الله تعالى. والصاغرين: من الصغار صَغُرَ يَصْغُرُ صغاراً، وهو الذل والهوان. والصبأ: رقة القلب، يقال: صَبَا يَصْبُو صَباً فهو صابٍ، قال:

إلى هِنْدٍ صَبَا قَلْبِي وَهِنْدٌ مِثْلَهَا يُصْبِي
وقال:

صَبَا صَبُوءٌ بَلْ لَجَّ وَهُوَ لَجُوجٌ وزالت له بالأتعمين حُدُوجٌ^(١)

● الإعراب: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ إنما حذف فيه حرف التانيث لأنه تانيث جمع، وتانيث الجمع تانيث لفظ يبطل تانيث المعنى، لأنه لا يجتمع في اسم واحد تانيثان، وكذلك يبطل تذكير المعنى في رجال، وإذا صار كذلك جاز فيه الحمل على اللفظ والحمل على المعنى، فيؤنث ويذكر. وقوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ نصب ﴿بَشَرًا﴾ على مذهب أهل الحجاز في إعمال ﴿مَا﴾ عمل ليس، في رفع الاسم ونصب الخبر، فأما بنو تميم فلا يعملونها، قال:

لَشْتَانِ مَا أَتَوِي وَيَتَوِي بَنُو أَبِي جَمِيعاً، فَمَا هَذَانِ مُسْتَوِيَانِ
تَمْنُو لِي الْمَوْتَ الَّذِي يَشْعَبُ الْفَتَى وَكُلُّ فِتَى وَالْمَوْتُ يَلْتَقِيَانِ

وروي عن الحسن أنه قرأ: «ما هذا بشر»، أي: ليس هو بمملوك، وهو شاذ. وذلكن: كن للخطاب لا للضمير، فلا موضع له من الإعراب، والاسم «ذا» وهو في موضع رفع على الابتداء. و﴿الَّذِي لَمُنَنِي فِيهِ﴾ موصول وصلته في موضع خبره. «وليكونن من الصاغرين» هذه النون الخفيفة التي يتلقى بها القسم، وإذا وقفت عليها وقفت بالألف، تقول: «وليكونا» وهي بمنزلة التنوين الذي يوقف عليه بالألف في نحو قولك: رأيت رجلاً. قال الأعشى:

وَصَلَّ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ، وَالضُّحَى وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا

أي: فاعبدن. فأبدل في الوقف من النون ألفاً ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ﴾ فاعله مصدر مضمر، على تقدير: بدا لهم بداء، وقد أظهره الشاعر في قوله:

لَعَلَّكَ، وَالْمَوْعُودُ حَقٌّ لِقَاؤُهُ، بَدَا لَكَ مِنْ تِلْكَ الْقُلُوصِ بَدَاءُ

(١) الأنعمين: اسم موضع. والحدوج جمع الحدج - بالكسر - : من مراكب النساء يشبه المحفة.

ولا يجوز أن يكون «ليسجننه» في موضع الفاعل، لأن الجملة لا تكون فاعلاً.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه شياخ هذه القصة، فقال: ﴿وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِيْنَةِ أَي: جماعة من النساء في مصر، الذي كان فيه الملك وزوجته ويوسف ﴿أَمْرَأْتُ الْعَزِيْزِ تَرْوُدُ فَتَنْهَا عَنْ نَفْسِيْ﴾ أي: امرأة العزيز تدعو مملوكها إلى نفسها ليفجر بها ﴿فَدَّ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: أحبته حباً دخل شغاف قلبها ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خطأ بَيِّن، وذهاب عن طريق الرشd، بدعائها مملوكها إلى الفجور بها. قال الكلبي: هن أربع نسوة: امرأة ساقى الملك، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن. وقال مقاتل: كنَّ خمساً، وزاد امرأة الحاجب.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: لما سمعت المرأة بتعبيهن إياها، وقصدهن إشاعة أمرها، وسماه مكرراً لأن قصدهن من هذا القول كان أن تُريهن يوسف، لما وصف لهن من حسنه، فخالف ظاهر الكلام باطنه، فسمي ذلك مكرراً. وقيل: لأنها أظهرت لهن حبها إياه، واستكتمتهن ذلك فأظهرنه، فسمي ذلك مكرراً ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْنَهُنَّ﴾ فاستضافتهن. قال وهب: اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة منهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ أي: وأعدت لهن وسائل يتكين عليها، عن ابن عباس. والاتكاء: الميل إلى أحد الشقين. وقيل: أراد بقوله: ﴿مُتَّكًا﴾ الطعام، من قول العرب: اتكأنا عند فلان، أي: أطمعنا عنده، وأصله أن من دُعي إلى طعام يُعدُّ له المتكأ، فيسمى الطعام: متكأ، على الاستعارة. وقال الضحاك: كان ذلك الطعام: الزُماوَزَدَ.

وقال عكرمة: هو كل ما يُجْزُ بالسكين، لأنه يؤكل في الغالب على متكأ. وقال سعيد بن جبیر: إنه كل طعام وشراب على عمومه، وبه قال الحسن. وأما المتكأ فقد قيل فيه: إنه الأترج، على ما تقدم بيانه. وقال السدي: بل هو المجلس، وكل شيء يُجْزُ بالسكين يقال له: متكأ.

﴿وَأَنْتَ كُلِّ وَجِدٍ وَنَهْنُ سِكِّينًا﴾ أي: وأعطت كل واحدة من تلك النسوة سكيناً، لتقطع به الفواكه والأترج على ما هو العادة بين الناس ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنِي﴾ أي: وقالت امرأة الملك ليوسف ﷺ، وكانت قد أجلسته غير مجلسهن، فأمرته بالخروج عليهن، في هيئته، إما للخدمة، وإما للسلام، أو ليريئه، ولم يكن يتهيأ له ألا يخرج لأنه بمنزلة العبد لها، عن الزجاج. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: أعظمته وتحيرن في جماله، إذ كان كالقمر ليلة البدر ﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بتلك السكاكين على جهة الخطأ بدل قطع الفواكه، فما أحسنن إلا بالدم، ولم يجدن ألم القطع لاشتغال قلوبهن بيوسف ﷺ، عن مجاهد. والمعنى: جرحن أيديهن، وهذا مستعمل في الكلام، تقول للرجل: قد قطعت يدي، تريد قد خدشتها. وقيل: إنهن أبْنُ أيديهن حتى ألقينها، عن قتادة ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ وحاشى لله، أي: صار يوسف في حشا، أي: ناحية مما قذف به، أي: لم يلابسه. والمعنى: بعد يوسف عن هذا الذي رُمي به الله، أي: لخوفه ومراقبته أمر الله، هذا قول أكثر المفسرين، قالوا: هذا تنزيه ليوسف عما رمته به امرأة العزيز. وقال آخرون: هذا تنزيه له من شبه البشر لفرط جماله، ويدل على هذا سياق الآية ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾

سورة يوسف

إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿١٠١﴾ أي: رفع الله منزلته عن منزلة البشر، فنعوذ بالله أن نقول أنه بشر. ومعناه: أنه منزّه أن يكون بشراً، وليست صورته صورة البشر، ولا خلقته خلقة البشر، ولكنه ملك كريم لحسنه ولطافته. وروي عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يصف يوسف حين رآه في السماء الثانية: رأيت رجلاً صورته صورة القمر ليلة البدر، قلت: يا جبريل! من هذا؟ قال: هذا أخوك يوسف.

وقيل: معناه ليس هذا إلا ملك كريم في عفته. قال الجبائي: وهذا يدل على أن الملك أفضل من بني آدم، لأنهم ذكروا من هو في نهاية الفضل، ولم ينكر الله تعالى ذلك عليهن، وهذا من ركيك الاستدلال، لأنه سبحانه إنما حكى عن النساء إعظامهن ليوسف ﷺ، حين رأين جماله وبعده عن السوء، فشبهه بالملك، ولم يقصدن كثرة الثواب الذي هو حقيقة الفضل، وإنما لم ينكره سبحانه عليهن، لأنه علم أنهن لم يقصدن في كلامهن ما حمّله عليه الجبائي، على أن الظاهر يقتضي أنهن نفين أن يكون يوسف من البشر، وقطعن على أنه ملك، وهذا كذب، ولم ينكره الله سبحانه عليهن، لما علم من أنهن يقصدن بذلك تشبيه حاله بحال الملائكة.

﴿قَالَتْ﴾ امرأة العزيز للنسوة التي عدلنها على محبتها ليوسف ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ أي: هذا هو ذلك الذي لمتني في أمره، وفي حبه وشغفي به، جعلت إعظامهن إياه عذراً لها. والمعنى: هذا الذي أصابكن في رؤيته مرة واحدة ما أصابكن من ذهاب العقل، فكيف عدلتني في حبي إياه وأنا أنظر إليه آناء ليلي ونهاري؟

ثم اعترفت ببراءة يوسف ﷺ، وأقرت على نفسها فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع عنه. وقيل: معناه امتنع بالله وسأله العصمة من فعل القبيح. وفي هذا دلالة على أن يوسف لم يقع منه قبح، ثم توعده بإيقاع المكروه به، إن لم يطعها فيما تدعوه إليه، فقالت: ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمُرُّهُ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَا مِنَ الْفَاصِرِينَ﴾ أي: وإن لم يجبني إلى ما أدعوه إليه ليحبسن في السجن، وليكون من الأذلاء، فلما رأى يوسف إصرارها على ذلك، وتهديدها له، اختار السجن على المعصية.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ معناه: يا رب! إن السجن أحب إليّ وأسهل عليّ مما يدعونني إليه من الفاحشة. وفي هذا دلالة على أن النسوة دعونه إلى مثل ما دعت به امرأة العزيز، وفي حديث أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين ﷺ: أن النسوة لما خرجن من عندها أرسلت كل واحدة منهن إلى يوسف ﷺ سراً من صاحبتة تسأله الزيارة. وقيل: إنهن قلن له: أطع مولاتك واقض حاجتها، فإنها المظلومة وأنت ظالم. وقيل: إنهن، لما رأين يوسف ﷺ، استأذنن امرأة العزيز بأن تخلو كل واحدة منهن به، وتدعوه إلى ما أرادته منه إلى طاعتها، فلما خلون به دعت كل واحدة منهن إلى نفسها، فلذلك قال: ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

ويسأل فيقال: كيف قال يوسف: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ولا يجوز أن يراد السجن الذي هو المكان، وإن عني به السجن الذي هو المصدر فإن السجن معصية، كما أن ما دعونه إليه معصية، فلا يجوز أن يريده؟

فالجواب: أنه لم يرد المحبة التي هي الإرادة، وإنما أراد أن ذلك أخف عليّ وأسهل. ووجه آخر: إن المعنى لو كان مما أريده لكان إرادتي له أشد. وقيل: إن معناه: توطيني النفس على السجن، أحب إليّ من توطيني النفس على الزنى، عن أبي علي الجبائي.

﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ بالطافك، لأن كيدهن قد وقع وحصل ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إليهن، أو إلى قولهن بهواي، والصبوة لطافة الهوى ﴿وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: المستحقين لصفة الذم بالجهل. وقيل: معناه أكن بمنزلة الجاهلين في فعلي.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ﴾ أي: فأجاب له ربه فيما دعاه، فعصمه من مكرهن. فإن قيل: ما معنى سؤال يوسف اللطف من الله وهو عالم بأن الله يفعله لا محالة؟ فالجواب: أنه يجوز أن تتعلق المصلحة بالأنطاف عند الدعاء المجدد. ومتى قيل: كيف علم أنه لولا اللطف لركب الفاحشة، وإذا وجد اللطف امتنع؟ قلنا: لما وجد في نفسه من الشهوة، وعلم أنه لولا لطف الله لارتكب القبيح، وعلم أن الله سبحانه يعصم أنبياءه بالأنطاف، وأن من لا يكون له لطف لا يبعثه الله نبياً.

قال الجبائي: في الآية دلالة على جواز الدعاء بما يعلم الله تعالى أنه يكون، لأن يوسف كان عالماً بأنه إن كان له لطف فلا بد أن يكون الله يفعل ذلك به، ومع هذا سأله ذلك، ولا تدل الآية على ما قاله لما قلناه، من أنه يجوز أن يكون سأله لتجويزه أن يكون له لطف عند الدعاء، ولو لم يدع لم يكن ذلك لطفاً، فما سأل إلا ما جَوَّزَ ألا يكون لو لم يدع ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لدعاء الداعي العليم بإخلاصه في دعائه، وبما يصلحه من الإجابة أو يفسده.

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ﴾ وإنما لم يقل لهم، مع تقدم ذكر النسوة، لأنه أراد به الملك. وقيل: أراد به زليخا وأعوانها، فغلب المذكر، وأراد بالآيات العلامات الدالة على براءة يوسف عليه السلام، وهي قد القميص من دبره، وجز الأيدي، عن قتادة، وغيره. وقيل: يريد بالآيات العلامات الدالة على الأياس منه. وقوله: ﴿بَدَأَ﴾ فاعله مضمّر، وتقديره: ثم بدا لهم بداء ودلّ ﴿لَيْسَ جُنُودُهُ﴾ عليه؛ فإن السجن هو الذي بدا لهم؛ قال السديّ وذلك أن المرأة قالت لزوجها: إن هذا العبد قد فضحني في الناس من حيث إنه يخبرهم أنني راودته عن نفسه، ولست أطيق أن أعذر بعذري، فإما أن تأذن فأخرج وأعتذر؛ وإما أن تحبسه كما حبستني. فحبسه بعد علمه ببراءته، وقيل: إن الغرض من الحبس أن يظهر للناس أن الذنب كان له؛ لأنه إنما يحبس المجرم. وقيل: كان الحبس قريباً منها؛ فأرادت أن يكون بقربها حتى إذا أشرفت عليه، رآته. وقوله ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قيل: إلى سبع سنين، عن عكرمة. وقيل: إلى خمس سنين، عن الكلبي. وقيل: إلى وقت ينسى حديث المرأة معه، وينقطع فيه عن الناس خبره، عن الجبائي.

سورة يوسف

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمْنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْتِزَاهِمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ .

● **اللغة:** قال الزجاج: كانوا يسمون المملوك: فتى، فجازر أن يكون الفتيان حديثين أو شيخين. وقال غيره: يقال للعبد: فتى، وللأمة: فتاة. وفي الحديث: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، ولكن فتاي وفتاتي. والتأويل: الخبر عما حضر بما يؤول إليه أمره فيما غاب، ولذلك قال: ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ تأويل القرآن: ما يؤول إليه من المعنى، أي يرجع إليه. والتعليم: تفهيم الدلالة المؤدية إلى العلم بالمعنى، وقد يكون الإعلام بالمعنى في القلب. والاتباع: اقتفاء الأثر، وهو طلب اللحاق بالأول.

● **الإعراب:** ﴿هُمْ﴾ الثانية دخلت للتوكيد، لأنه لما دخل بينهما قوله: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ صارت الأولى كالملغاة، وصار الاعتماد على الثانية، كما قال: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وكما قال: ﴿يَعِدُّكُمْ أَتُكْرِمُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَتُكْرِمُ تَخْرُجُونَ﴾ .

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف عليه السلام في الحبس، فقال: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ والتقدير: فسجن يوسف ودخل معه السجن فتیان، أي: شابان حدثان. وقيل: إنهما مملوكان لملك مصر الأكبر، واسمه وليد بن ريان، وكان أحدهما صاحب شرايه، والآخر صاحب طعامه، فتمى إليه أن صاحب طعامه يريد أن يسمه، وظن أن الآخر ساعده على ذلك ومالاه عليه، عن قتادة، والسدي ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعْصِرُ خَمْراً﴾ هو من رؤيا المنام، كان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله: إني أعبر الرؤيا، فقال أحد العبدین لصاحبه هلم فلنجره، فسألاه من غير أن يكون رأياً شيئاً، عن ابن مسعود. وقيل: بل رؤياهما على صحة وحقيقة، ولكنهما كذبا في الإنكار، عن مجاهد، والجبائي. وقيل: إن المصلوب منهما كان كاذباً، والآخر صادقاً، عن أبي مجلز، ورواه علي بن إبراهيم أيضاً في تفسيره عنهم عليهم السلام.

والمعنى: قال أحدهما وهو الساقى: رأيت أصلَ حَبْلَةٍ عليها ثلاثة عناقيد من عنب، فجنيتهما وعصرتهما في كأس الملك وسقيته إياها، وتقديره: أعصر عنب خمر، أي: العنب الذي يكون عصيره خمراً، فحذف المضاف. قال الزجاج، وابن الأنباري: العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول إليه إذا وضع المعنى ولم يلتبس، يقولون: فلان يطبخ الآجر، ويطبخ الدُّبْس، وإنما يطبخ اللبن والعصير. وقال قوم: إن بعض العرب يسمون العنب خمراً، حكى الأصمعي عن المعتمر بن سليمان: أنه لقي أعرابياً معه عنب، فقال له: ما معك؟ قال: خمر. وهو قول الضحاك، فيكون

معناه: إني أعصر عبناً. وروي في قراءة عبد الله وأبي جميعاً: إني رأيتني أعصر عبناً.

﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَيْتُ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خِزّاً نَأْكُلُ الطَّيْرَ مِنْهُ﴾ معناه: وقال صاحب الطعام: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز، وألوان الأطعمة، وسباع الطير تنهش منه ﴿نَبْتَنَا﴾ أي: أخبرنا بتعبيره وما يؤول إليه أمره ﴿إِنَّا نَزَلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: تؤثر الإحسان والأفعال الجميلة. قال الضحاك: كان إذا ضاق على رجل مكانه وسع له، وإن احتاج جمع له، وإن مرض قام عليه، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام. وقال الزجاج: جاء في التفسير أنه كان يعين المظلوم، وينصر الضعيف، ويعود العليل. قال: وقيل: ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ممن يحسن تأويل الرؤيا. قال: وهذا دليل على أن أمر الرؤيا صحيح، وأنها لم تزل في الأمم السالفة. وفي الحديث: ﴿أَنَّ الرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ﴾ وتأويله أن الأنبياء يخبرون بما سيكون، والرؤيا تدل على ما سيكون، فيكون المعنى في الآية: إنا نغلمك، أو نظنك ممن يعرف تعبير الرؤيا، ومن ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: قيمة كل امرئ ما يحسنه.

وقال أبو مسلم: نراك من المحسنين إلينا إن فسرنا لنا الرؤيا، وهو قول ابن أبي إسحاق. ثم ذكر لهما يوسف عليه السلام، ما يدل على أنه عالم بتفسير الرؤيا ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْوَیَانِي فِي مَنَامِكُمَا إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ في اليقظة ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ التأويل، وذلك أنه كره أن يخبرهما بالتأويل، لما على أحدهما فيه من البلاء، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره، عن السدي، وابن إسحاق، وقيل: إنه إنما قدم هذا ليعلم ما خصه الله تعالى به من النبوة، وليقبلا عنه، فقال: لا يأتیکما طعام من منزلکما إلا أخبرتکما بصفة ذلك الطعام وكيفيته قبل أن يأتیکما، كما قال عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ عن الحسن، والجبائي. ﴿ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ كأنهما قالوا له: كيف عرفت تأويل الرؤيا ولست بكاهن ولا عراف؟ فأخبرهما أنه رسول الله، وأنه تعالى علمه ذلك، وتعليمه تعالى قد يكون بأن يفعل العلم في قلبه، وقد يكون بالوحي، وقد يكون بنصب الأدلة التي يدرك بها العلم ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ معناه: إنه لا يستحق هذه الرتبة الخطيرة إلا المؤمنون المخلصون، وأنني تركت طريقة قوم لا يؤمنون، فلذلك خصني الله بهذه الكرامة. ﴿وَأَنْبِئْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ أي: شريعة آبائي ﴿إِزْهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا ينبغي لنا ونحن معدن النبوة، وأهل بيت الرسالة، أن ندين بغير التوحيد ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التمسك بالتوحيد والبراءة من الشرك. وقيل: النبوة والعلم ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بأن خصنا بها ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ أيضاً بإرسالنا إليهم، واتباعهم إيانا، واهتدائهم بنا.

﴿وَلَكِنَّ الْكَافِرَ النَّاسَ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله تعالى، وقد كان يوسف عليه السلام فيما بينهم زماناً، ولم يحك الله سبحانه أنه دعا إلى الدين، وكانوا يعبدون الأصنام، لأنه لم يطمع منهم في الاستماع والقبول، فلما رآهم عارفين بإحسانه، مقبلين عليه، رجا منهم القبول منه، فدعاهم إلى التوحيد على ما أمر الله سبحانه له في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وقد

روي أن صاحبي السجن قالاً له: لقد أحبيناك حين رأيناك، فقال: لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد إلا دخل عليّ من حبه بلاء، أحببني عمّتي فنسبت إليّ السرقة، وأحببني أبي فألقيت في الحب، وأحببني امرأة العزيز فألقيت في السجن.



قوله تعالى: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ ۖ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَّا أَسْمَاءُ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الَّذِي الْفَقِمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠ يَصْحَبِي السِّجْنِ ۖ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رَبُّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ فَضَى الْأَمْرُ لِلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۝٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَّ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾.

● **اللغة:** صاحب: الملازم لغيره على وجه الاختصاص، وهو خلاف ملازمة الاتصال، ومنه: أصحاب الشافعي، وأصحاب أبي حنيفة، وأصحاب النبي ﷺ، لملازمتهم له، وكونهم معه في حروبه، وصاحباً السجن هما الملازمان له بالكون فيه. والقيم: المستقيم: وأصله من قام يقوم. والاستفتاء: طلب الفتيا. والبضع: القطعة من الدهر، وأصله من القطع. والبضعة: القطعة من اللحم، ومنه الحديث: «فاطمة بضعة مني يؤديني من آذاها».

● **المعنى:** ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ﴾ هذا حكاية نداء يوسف للمستفتين له عن تأويل رؤياهما، أي: يا ملازمي السجن ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: أأملاك متباينون من حجر وخشب، لا تضر ولا تنفع، خير لمن عبدها، أم الله الواحد القهار، الذي إليه الخير والشر، والنفع والضرر؟ وهذا ظاهره الاستفهام، والمراد به التقرير والزام الحجة. والقاهر: هو القادر الذي لا يمتنع عليه شيء ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَّا أَسْمَاءُ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ابتداء بخطاب اثنين، ثم خاطب بلفظ الجمع، لأنه قصد جميع من هو في مثل حالهما. وقيل: إنه خطاب لجميع من في الحبس. ومعناه: أن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وسميتوها بأسماء، يعني: الأرباب والآلهة، هي أسماء فارغة عن المعاني لا حقيقة لها، ما أنزل الله من حجة بعبادتها ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم والأمر إلا لله، فلا يجوز العبادة والخضوع والتذلل إلا لله. ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: وقد أمركم ألا تعبدوا غيره ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي بينت لكم، من توحيده وعبادته، وترك عبادة غيره ﴿الَّذِينَ الْفَقِمْ﴾ أي: الدين المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس: ما للمطيعين من الثواب، وللعاصين من العقاب. وقيل: لا يعلمون صحة ما أقوله لعدولهم عن النظر والاستدلال.

ثُمَّ عَبَّرَ ٱللَّهُ رُؤْيَاهُمَا فَقَالَ: ﴿يَصْحَبِي ٱلسَّجْنُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَىٰ رَبُّهُ حَمْرًا﴾ بدأ بما هو الأهم، وهو الدعاء إلى توحيد الله وعبادته وإظهار معجزته، ثم بتعبير رؤيا الساقى، فروي أنه قال: أما العناقيد الثلاثة، فإنها ثلاثة أيام تبقى في السجن، ثم يخرجك الملك اليوم الرابع، وتعود إلى ما كنت عليه، وأجرى على ماله صفة الرب لأنه عبده، فأضافه إليه، كما يقال: رب الدار، ورب الضيعة ﴿وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ يريد بالآخر: صاحب الطعام، روي أنه قال: بشس ما رأيت، أما السلال الثلاث فإنها ثلاثة أيام تبقى في السجن، ثم يخرجك الملك فيصلبك، فتأكل الطير من رأسك، فقال عند ذلك: ما رأيت شيئاً وكنت ألعب، فقال يوسف: ﴿فُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: فرغ من الأمر الذي تسألان وتطلبان معرفته، وما قلته لكما فإنه نازل بكما، وهو كائن لا محالة، وفي هذا دلالة على أنه كان يقول ذلك على جهة الإخبار عن الغيب بما يوحى إليه، لا كما يعبر أحدنا الرؤيا على جهة التأويل.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿ٱلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ معناه: للذي علم من طريق الوحي. أنه ناج، أي: متخلص، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ هذا قول الأكثرين، واختيار الجبائي. وقال قتادة: للذي ظنه ناجياً، لأنه لم يحكم بصدقه فيما قصه من الرؤيا، والأول أصح ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكرني عند سيدك، بأنني محبوس ظلماً ﴿فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ يعني: أنسى الشيطان يوسف ذكر الله تعالى في تلك الحال، حتى استغاث بمخلوق، فالتمس من الناجي منهما أن يذكره عند سيده، وكان من حقه أن يتوكل في ذلك على الله سبحانه. ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسَّجْنِ بضعَ سِنِينَ﴾ أي: سبع سنين، عن ابن عباس، وروي ذلك عن علي بن الحسين عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام. وقيل: معناه فأنسى الشيطان الساقى ذكر يوسف عند الملك، فلم يذكره حتى لبث في السجن، عن الحسن، ومحمد بن إسحاق، والجبائي، وأبي مسلم، وعلى هذا فتقديره: فأنساه الشيطان ذكر يوسف عند ربه، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: عجبت من أخي يوسف عليه السلام كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق! وروي أنه عليه السلام قال: لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث! يعني قوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ثم بكى الحسن وقال: إنا إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء جبرائيل عليه السلام فقال: يا يوسف، من جعلك أحسن الناس؟ قال: ربي، قال: فمن حبيبك إلى أبيك دون إخوتك؟ قال: ربي، قال: فمن ساق إليك السيارة؟ قال: ربي، قال: فمن صرف عنك الحجارة؟ قال: ربي، قال: فمن أنقذك من الجب؟ قال: ربي، قال: فمن صرف عنك كيد النسوة؟ قال: ربي، قال: فإن ربك يقول: ما دعاك إلى أن تُنزل حاجتك بمخلوق دوني؟ البث في السجن بما قلت بضع سنين.

وعنه في رواية أخرى قال: فبكى يوسف عند ذلك، حتى بكى لبيكائه الحيطان، فتأذى ببيكائه أهل السجن، فصالحهم على أن يبكي يوماً ويسكت يوماً، فكان في اليوم الذي يسكت أسوأ حالاً.

والقول في ذلك أن الاستعانة بالعباد في دفع المضار، والتخلص من المكاره جائز غير منكر

سورة يوسف

ولا قبيح، بل ربما يجب ذلك، وكان نبينا ﷺ يستعين فيما ينوبه بالمهاجرين والأنصار وغيرهم، ولو كان قبيحاً لم يفعله، فلو صحت هذه الروايات، فإنما عوتب يوسف ﷺ في ترك عادته الجميلة، في الصبر والتوكل على الله سبحانه، في كل أموره دون غيره، وقتاً ما، ابتلاءً وتشديداً. وإنما كان يكون قبيحاً لو ترك التوكل على الله سبحانه، واقتصر على غيره، وفي هذا ترغيب في الاعتصام بالله تعالى، والاستعانة به دون غيره عند نزول الشدائد، وإن جاز أيضاً أن يستعان بغيره.

واختلف في البضع: فقال بعضهم: البضع ما بين الثلاث إلى الخمس، عن أبي عبيدة: وقيل: إلى السبع، عن قطرب. وقيل: إلى التسع، عن الأصمعي. ذكره الزجاج. وقول قطرب مروي عن مجاهد، وقول الأصمعي مروي عن قتادة.

وقال ابن عباس: هو ما دون العشرة، وأكثر المفسرين على أن البضع في الآية سبع سنين، قال الكلبي: وهذه السبع سوى الخمسة التي كانت قبل ذلك.

وروي عن أبي عبد الله ﷺ قال: علم جبرائيل ﷺ يوسف في حبسه، فقال: قل في دبر كل صلاة فريضة: «اللهم اجعل لي فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث أحتسب، ومن حيث لا أحتسب».

وروي شعيب العقرقوفي عنه ﷺ قال: لما انقضت المدة وأذن له في دعاء الفرج، وضع خده على الأرض ثم قال: اللهم إن كانت ذنوبي قد أخلفت وجهي عندك، فإني أتوجه إليك بوجه آبائي الصالحين: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ففرج الله عنه. قال: فقلت له: جعلت فداك، أندعو نحن بهذا الدعاء؟ فقال: ادعوا بمثله، اللهم إن كانت ذنوبي قد أخلفت عندك وجهي، فإني أتوجه إليك بوجه نبيك نبي الرحمة، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، والأئمة ﷺ.



قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَنَعُ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَنَعٌ عِجَافٌ وَسَنَعٌ سُبُلَاتٍ خُضِرَ وَأَخْرَ يَأْسِتُ يَتَأَيَّاهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمُ لِلرُّءْيَا تَعَرُّونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥) يُوَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَنَعٍ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَنَعٌ عِجَافٌ وَسَنَعٌ سُبُلَاتٍ خُضِرَ وَأَخْرَ يَأْسِتُ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَنَعٌ سِنِينَ دَابَا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَنَعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ (٤٩).

● **القراءة:** قرأ حفص: ﴿دَابَا﴾ بفتح الهمزة، والباقون: بسكونها. وقرأ: ﴿تَغْصِرُونَ﴾ بالناء أهل الكوفة غير عاصم، والباقون: بالياء. وفي الشواذ قراءة ابن عباس، وابن عمر

بخلاف، والضحاك، وقتادة، وزيد بن علي عليه السلام: ﴿وادكر بعد أمه﴾ بالهاء، وقراءة الأشهب العقيلي بعد «إمة» بكسر الهمزة. وقرأ جعفر بن محمد عليه السلام: ﴿وسبع سنابل﴾ وقرأ أيضاً ما قرأتم، وقرأ هو، والأعرج، وعيسى بن عمر: ﴿وفيه يُعَصَّرُونَ﴾ بياء مضمومة وصاد مفتوحة.

● **الحجة:** قال أبو علي: انتصب ﴿دَابَّاً﴾ بما دل عليه ﴿تَزْرَعُونَ﴾ وفيه علاج ودؤوب، فكأنه قال: تدأبون فانتصب ﴿دَابَّاً﴾ به لا بالمضمر، ولعل الفتح لغة فيه، فيكون كشع وشمع، ونهر ونهر. و ﴿يَعَصَّرُونَ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون من العصر الذي يراد به الضغط، الذي يلحق ما فيه دهن أو ماء، نحو الزيتون والسمسم والعنب، ليخرج ذلك منه، وهذا يمكن أن يكون تأويل الآية عليه، لأن من المتأولين من يحكي أنهم لم يعصروا أربع عشرة سنة زيتاً ولا عنباً، فيكون المعنى: تعصرون للخصب الذي أتاكم، كما كنتم تعصرون أيام الخصب من قبل الجذب الذي دُفِعتم إليه.

وثانيهما: أن يكون ﴿يَعَصَّرُونَ﴾ من العَصَر: الذي هو الالتجاء إلى ما يقدر به من النجاة، قال ابن مقبل:

وصاحبي سهوةً مستوهل زعل^(١) يحول بين جمار الوحش، والعصر

أي: يحول بينه وبين الملجأ الذي يقدر به النجاة. وقال أبو زيد الطائي:

صادياً يستغيث غير مغاث، ولقد كان عُصرة المنجود^(٢)

قال أبو عبيدة: يعصرون: ينجون، وأنشد لييد:

فبات وأسرى القوم آخر ليلهم، وما كان وقافاً بدارٍ مُعَصَّرٍ

فأما من قال: ﴿يَعَصَّرُونَ﴾ بالياء، فإنه جعل الفاعلين الناس، لأن ذكرهم قد تقدم. ومن قرأ بالتاء: وجه الخطاب إلى المستفتين، الذين قالوا: افتنا. ويجوز أن يريدهم وغيرهم، إلا أنه غلب الخطاب على الغيبة، كما يغلب التذكير على التأنيث.

وأما الأمة فهو النسيان، يقال: أمة يأمه إذا نسي، أنشد أبو عبيدة:

أمهت وكنت لا أنسى حديثاً، كذاك الدهر يؤذي بالعقول

والأمة: النعمة، فيكون المراد: بعد أن أنعم عليه بالنجاة. وأما ﴿يَعَصَّرُونَ﴾ بضم الياء، فيجوز أن يكون من العصرة والعصر للنجاة، ويجوز أن يكون من: عصرت السحابة ماءها عليهم، وفي كتاب علي بن إبراهيم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قرأ رجل على أمير المؤمنين علي عليه السلام هذه الآية، فقال: ﴿يَعَصَّرُونَ﴾ بالياء وكسر الصاد، فقال: ويحك وأي شيء يعصرون، أيعصرون الخمر؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين! فكيف أقرأها؟ قال: ﴿عام فيه يغاث الناس وفيه

(٢) أي: كان ملجأ المكروب. والصادي: العطشان.

(١) أي: فرس فرع نشيط.

سورة يوسف

يُعَصِّرُونَ ﴿مُضْمُومَةُ الْيَاءِ مَفْتُوحَةُ الصَّادِ، أَي: يَمْطَرُونَ بَعْدَ سِنِي الْمَجَاعَةِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَجَّابًا﴾.

● **اللغة:** الملك: القادر الواسع المقدور، الذي إليه السياسة والتدبير. والرؤيا: ما يراه النائم، ويرجع إلى الاعتقاد، ثم يكون على وجوه:

منها: ما يكون من الله تعالى وملائكته، وهو الذي له تعبير وتأويل.

ومنها: ما يكون من الشيطان، ولا تأويل له.

ومنها: ما يكون من جهة النائم واعتقاداته، أو يكون بقية اعتقاد كان يعتقده.

والعَجَفُ: ذهابُ السَّمَنِ، والذكر: أعجف، والأنثى: عجفاء، وجمعها: عجاف، ولا يجمع أفعل على فعال إلا هذا. والعبر والتعبير: تفسير الرؤيا، وهو من عبور النهر ونحوه. والأضغاث: الأحلام الملتبسة، والضغث: الحزمة من كل شيء، وقال الترمذي: الضغث: ملء اليد من الحشيش، ومنه: ﴿وَحُذِّ يَدُوكَ ضِغْثًا﴾ أي: قبضة، والفعل منه: أضغث، وقيل: الضغث: خلط قش المد^(١) وهو غير متشاكل ولا متلائم، فشبها به تخليط المنام. والأحلام: جمع حلم، وهو الرؤيا في النوم، ويقال: حَلَمَ يحلُمُ حلمًا، واختلم فهو حالم. والحلم، بكسر الحاء: ضد الطيش، وهو الأناءة، وكان أصل حلم النوم من هذا، لأنه حال أناءة وسكون. وتأويل الرؤيا: تفسير ما يؤول إليه معناه، وتأويل كل شيء تفسير ما يؤول إليه معنى الكلام. والاذكار: افتعال من الذكر، وأصله: اذتكار، لكن التاء أبدل منها الدال وأدغمت الذال في الدال، ويجوز: أذكر، بالذال أيضاً، إلا أن الأجود الدال، وهو طلب الذكر، ونظيره: الاستذكار والتذكر. والأمة: الجماعة تؤم أمراً، والأمة: المدة، وهي الجملة من الحين. والصدِّيق: الكثير التصديق للحق. وقيل: هو الكثير الصدق، وفَعِّلَ بناء المبالغة والكثرة. والفتيا: الجواب عن حكم المعنى، وقد يكون الجواب عن نفس المعنى، فلا يكون فتياً. والزرع: إلقاء البذر في الأرض للنبات، ومنه: المزارعة بالثلث أو الربع، وتسمى المخابرة أيضاً، وهي مأخوذة من فعل أهل خيبر. والدأب: العادة، يقال: دأب يدأب دأباً، ويقال: دأب في عمله يدأب دؤوباً: اجتهد، وأدأبته أنا إدأباً، وذر، ودع بمعنى، لم يجيء منهما لفظة الماضي، استغنى عن ذلك بترك. والشدة والصلابة والصعوبة، نظائر، وقيل: الشدة تكون في سبعة أصناف: في العقد والمد والزمان والغضب والألم والشراب والبدن. والإحصان: مثل الإحراز، أحصنه إحصاناً: جعله في حرز. والغوث: هو نفع يأتي على شدة حاجة ينفي المضرة، ومنه: الغيث: المطر الذي يأتي في وقت الحاجة. قال الأزهري: غاث الله البلاد يغيثها، وقد غيثت الأرض فهي مُغِيثَةٌ ومَغِيثَةٌ، والغيث: الكلاً ينبت من ماء السماء، وجمعه: غيوث، والغيث: أصله الواو، ومنه: الغوث، وغوْث تغويثاً إذا قال: واغوْثاه، مَن يَغِيثُنِي، ويُغَاث: يحتمل أن يكون من الواو، ويحتمل أن يكون من الياء.

● **الإعراب:** ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ هذه اللام دخلت للتبيين، المعنى: إن كنتم تعبرون، ثم بين باللام فقال: للرؤيا، عن الزجاج. وهذه اللام تزداد في المفعول به إذا تقدم على الفعل، تقول: عبرت الرؤيا، وللرؤيا عبرت، وقد جاء مثله في قوله: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ وقد جاء فيما ليس بمقدم من المفعول نحو قوله: ﴿رَدِّفْ لَكُمْ﴾ و﴿وَأُخَر﴾ لا ينصرف، لأنه صرف عن جهة صوابها التي جاءت بالألف واللام، وهذه جاءت خاصة بغير ألف ولام، فكانها عدلت عن وجهها، تقول: هذه النسوة الوسط والكبر، ولا تقول: وسط وكبر. وتقول: نسوة آخر، فلما خالفت أخواتها ترك صرفها، وموضعها في الآية الرابعة جر، تقديره: وفي آخر أضغاث أحلام تقديره: هي أضغاث أحلام. ﴿يُؤَسِّفُ﴾ المراد به: يا يوسف! ويجوز حذف حرف النداء في المنادى المفرد العلم، تقول: يا زيد أقبل، وزيد أقبل، قال:

محمد تُفِدْ نَفْسَكَ كُلِّ نَفْسٍ إِذَا مَا خِفْتُ مِنْ أَمْرِ وَبَالًا
ويروى: تبالاً، أراد: يا محمد!

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن سبب نجاة يوسف من السجن، وهو أنه لما قرب الفرج، رأى الملك رؤيا هالته، وأشكل تعبيرها على قومه، حتى عبرها يوسف، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ يعني: وقال ملك مصر، وهو الوليد بن ريان، والعزيز وزيره فيما رواه الأكثرون: إني أرى في منامي سبع بقرات سمان ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ أي: سبع بقرات آخر ﴿عِجَافٌ﴾ أي: مهزلة فدخلت السماء في بطون المهزلة، حتى لم أرَ منهن شيئاً ﴿وَسَبْعٌ سِوَالِكِ خَضِرٍ﴾ أي: وأرى في منامي سبع سنبلات قد انعقد حبها ﴿وَأُخَر﴾ أي: وسبعاً آخر ﴿يَأْسِتُونَ﴾ قد احتصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ﴿يَتَأْتِيَنَّهَا أَلْمَلَأُ﴾ أي: جمع الأشراف، وقيل: جمع السحرة والكهنة، وقص رؤياه عليهم، وقال: يا أيها الأشراف، أو الجماعة ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾، أي: عبروا ما رأيت في منامي، وبيّنوا لي الفتوى فيه، وهو حكم الحادثة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ معناه: إن كنتم عابرين للرؤيا. وقيل: إن اللام تفيد معنى إلى، أي: إن كنتم توجهون العبارة إلى الرؤيا.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي: هذه أباطيل أحلام، عن الكلبي. وقيل: تخاليط أحلام، عن قتادة. والمعنى: هذه منامات كاذبة لا يصح تأويلها ﴿وَمَا تَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ﴾ التي هذه صفتها ﴿بِإِلَيْنَ﴾ وإنا نعلم تأويل ما يصح، وكان جهل الملأ بتأويل رؤيا الملك سبب نجاة يوسف، لأن الساقى تذكر حديث يوسف، فجثا بين يديه وقال: يا أيها الملك. إني قصصت أنا وصاحب الطعام على رجل في السجن منامين، فخبّر بتأويلهما، وصدق في جميع ما وصف، فإن أذنت مضيت إليه وأيتك من قبله بتفسير هذه الرؤيا، فذلك قوله.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾، عن الكلبي. وقوله: ﴿وادكر بعد أمة﴾، معناه: تذكر شأن يوسف وما وصاه به بعد حين من الدهر وزمان طويل، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة. وههنا حذف يدل الكلام عليه، وهو: فأرسلون إلى يوسف، فأرسل، فأتى يوسف في السجن وقال له:

سورة يوسف

﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي: الكثير الصدق فيما تخبر به ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَا سَيِّدُ﴾ فإن الملك رأى هذه الرؤيا واشتبه تأويلها ﴿لَعَلَّيْ أَتَجْعُ إِلَى النَّاسِ﴾ يعني: الملك وأصحابه والعلماء الذين جمعهم لتعبير رؤياه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فضلك وعلمك فيخرجونك من السجن، وقيل: لعلهم يعرفون تأويل رؤيا الملك، قال يوسف في جوابه معبراً ومعلماً: أما البقرات السبع العجاف، والسنابل السبع اليابسات، فالسنون الجدبة، وأما السبع السمان، والسنابل السبع الخضر، فإنهن سبع سنين مخصبات، ذوات نعمة وأنتم تزرعون فيها فذلك قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ أي: فازرعوا سبع سنين متوالية، عن ابن عباس. أي: زراعة متوالية في هذه السنين، على عادتك في الزراعة سائر السنين. وقيل: داباً: أي: بجد واجتهاد في الزراعة، ويجوز أن يكون حالاً، فيكون معناه: تزرعون دائبين ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ من الزرع ﴿فَذَرُوهُ﴾ اتركوه ﴿فِي سُبُلِهِ﴾ لا تذروه ولا تدوسوه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ وإنما أمرهم بذلك ليكون أبقي وأبعد من الفساد، يعني: إن ما أردتم أكله تدوسوه واتركوا الباقي في السنبلة. وقيل: إنما أمرهم بذلك لأن السنبلة لا يقع فيه سوس ولا يهلك وإن بقي مدة من الزمان، وإذا ضفي أسرع إليه الهلاك ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سبع سنين مجدبات صعبات تشد على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ معناه: تأكلن فيها ما قدمتم في السنين المخصبة لتلك السنين، وإنما أضاف الأكل إلى السنين لأنه يقع فيها، كما قال الشاعر:

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ وليلك نومٌ، والرّدى لك لازمٌ
وسعيك فيما سوف تكررُه غيبه^(١) كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وقيل: أراد بالأكل الإفناء والإهلاك، كما يقال: أكل السير لحم الناقة، أي: ذهب به، قال زيد بن أسلم: كان يوسف يصنع طعام اثنين، فيقر به إلى رجل فيأكل نصفه، حتى كان ذات يوم قر به إليه فأكله كله، فقال: هذا أول يوم من السبع الشداد. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ معناه: إلا شيئاً قليلاً مما تحرزون وتذخرون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ معناه: ثم يأتي من بعد هذه السنين الشداد، عام فيه يُمطر الناس من الغيث. وقيل: يغاثون من الغوث والغياث، أي: يُنقذون وينجون من القحط ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ الثمار التي تعصر في الخصب، كالعنب والزيت والسمن، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: معناه ينجون من الجذب من العُصرة والعصر والاعتصار: الالتجاء، قال عدي بن زيد:

لَوْ بَغِيرَ الْمَاءِ حَلَقِي شَرْقً كُنْتُ كَالْعَصَانِ بِالْمَاءِ اغْتِصَارِي^(٢)

وهذا القول من يوسف، إخبار بما لم يسأله منه، ولم يكن في رؤيا الملك، بل هو مما أطلعه الله تعالى عليه من علم الغيب، ليكون من آيات نبوته ﷺ، قال البلخي: وهذا التأويل من

(٢) الشرق: دخول الماء الحلق حتى يفص به.

(١) غب الأمر: عاقبه وآخره.

يوسف، يدل على بطلان قول من يقول: إن الرؤيا على ما عبرت أولاً، لأنهم كانوا قالوا: هي أضغاث أحلام، فلو كان ما قالوه صحيحاً لكان يوسف لا يتأولها.



قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودُتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اأَلْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رُودُتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ: ﴿ما بال النسوة﴾ بضم النون، والأعشى، والبرجمي، عن أبي بكر، عن عاصم، والباقون: بكسر النون، وهما لغتان، وقد تقدم ذكر قراءة أبي عمر، ﴿حاشا لله﴾ بالألف، ومرّ بيانه.

● **اللغة:** الخطب: الأمر الذي يعظم شأنه، فيخاطب الإنسان فيه صاحبه، يقال: هذا خطب جليل. قال الزجاج: حصحص الحق: اشتقاقه من الحصة، أي: بانت حصة الحق وجهته من حصة الباطل. وقال غيره: هو مكرر من قولهم: حصّ شعره إذا استأصل قطعه، وأزاله عن الرأس. فيكون معناه: انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه. ومثله: كُتِبُوا وَكُتِبُوا، وكَفّ الدمع وكَفَفَهُ، فهو زيادة تضعيف دلّ عليه الاشتقاق، قال:

قد حصّت البيضة رأسي فما أطعم يوماً غير تهجّاج^(١)

وحصحص البعير بثفّناته في الأرض: إذا حرك حتى تستبين آثارها فيه، قال حميد:

وحصحص في صمّ الحصا ثفّناته ورامّ القِيام ساعة ثم صمّما

والكيد: الاحتيال سراً لإيصال الضرر إلى الغير.

● **الإعراب:** ﴿ذَلِكَ﴾ مرفوع بالابتداء، وإن شئت على خبر الابتداء، كأنه قال: أمري ذلك. وموضع ﴿مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ نصب على الاستثناء.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن إخراج يوسف من السجن، فقال: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ وفي الكلام حذف يدل ظاهره عليه، وهو فلما رجع صاحب الشراب، وهو رسول الملك إلى الملك، بجواب يوسف وتعبيره رؤياه، قال الملك: ائتنوني به، أي: بيوسف الذي عبر رؤياي ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أي: لما جاء يوسف رسول الملك، فقال له: أجب الملك. أبي

(١) قاله قيس بن الأسلت. وفي رواية اللسان: «اطعم نوماً غير نهجّاج» والتهجّاج: النوم الخفيف.

سورة يوسف

يوسف عليه السلام أن يخرج مع الرسول، حتى تبين براءته مما قذف به و ﴿قَالَ﴾ للرسول ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيدك وهو الملك ﴿فَتَشَلُّهُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ﴾ أي: ما حالهن وما شأنهن؟ والمعنى: فاسأل الملك أن يتعرف حال النسوة ﴿الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ليعلم صحة براءتي، ولم يفرد امرأة العزيز بالذكر حسن عشرة منه، ورعاية أدب، لكونها زوجة الملك، أو زوجة خليفة الملك، فخلطها بالنسوة. وقيل: إنه أرادهن دونها، لأنهن الشاهدات له عليها، ألا ترى أنها قالت: ﴿الْفَنِّ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ وهذا يدل على أن النسوة كن أذعين عليه نحو ما أذعته امرأة العزيز. قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه، ما زالت في نفس العزيز منه حالة، يقول: هذا الذي راود امرأتي. وقيل: أشفق يوسف من أن يراه الملك بعين مشكوك في أمره متهم بفاحشة، فأحب أن يراه بعد أن يزول عن قلبه ما كان فيه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشتري أن يخرجوني من السجن! ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك. ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة، وبادرتهم الباب وما ابتغيت العذر، إنه كان لحليماً ذا أناة».

﴿إِنَّ رَبِّي يَبْكِيهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: إن الله عالم بكيدهن، قادر على إظهار براءتي، وقال: إن سيدي الذي هو العزيز عليم بكيدهن استشهده فيما علم من حاله، عن أبي مسلم، والأول هو الوجه. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَدَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ معناه: إن الرسول رجع إلى الملك وأخبره بما قاله يوسف عليه السلام، فأرسل إلى النسوة ودعاهن، وقال لهن: ما شأنكن وما أمركن إذ طلبتن يوسف عن نفسه ودعوته إلى أنفسكن؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ هذه كلمة تنزيه، أي: نزهة يوسف مما اتهم به، فقلن: معاذ الله، وعياداً بالله من هذا الأمر، وما علمنا عليه من سوء وخيانة، وما فعل شيئاً مما نسب إليه واعترفن ببراءته، وبأنه حبس مظلوماً.

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وتبين، وحصل على أمكن وجوهه، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وكان معناه: انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه ﴿أَنَا رَدَدْتُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله ﴿هُوَ رَدَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ اعترفت بالكذب على نفسها فيما اتهم يوسف به، وإنما حملها على الصدق انقطاع طمعها منه، فجمع الله ليوسف في إظهار براءته، ونزاهته عما قذف به، بين الشهادة والإقرار حتى لا يبقى موضع شك ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ هذا من كلام يوسف، أي: ذلك الذي فعلت من ردِّي رسول الملك إليه في شأن النسوة، ليعلم الملك أو العزيز ﴿إِنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْقِيَابِ﴾ في زوجته، أي: في حال غيبته عني، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وأبي مسلم. واتصل كلام يوسف بكلام امرأة العزيز، لظهور الدلالة على المعنى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذَنًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنَجِّحَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسَخْرِئِهِ﴾ وهو من كلام الملأ، ثم قال: ﴿فَمَادَا تَأْمُرُونَ﴾ وهو حكاية عن

قول فرعون. قال الفراء: وهذا من أغمض ما يأتي في الكلام، أن يحكي عن واحد ثم يعدل إلى شيء آخر من قول آخر لم يجر له ذكر. وقيل: بل هو من كلام امرأة العزيز، أي: ذلك الإقرار ليعلم يوسف أنني لم أخنه في غيبته، بتوريك الذنب عليه، وإن خنته بحضرته وعند مشاهدته، عن الجبائي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْغَالِبِينَ﴾ أي: لا يهديهم في كيدهم ومكرهم.

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ هذا من كلام يوسف، عند أكثر المفسرين. وقيل: بل هو من كلام امرأة العزيز، عن الجبائي. أي: ما أبرئ نفسي عن السوء والخيانة في أمر يوسف ﴿إِنَّ أَنفُسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، أي: كثيرة الأمر بالسوء، والشهوة قد تدعو الإنسان إلى المعصية، والالام للجنس، فيكون المعنى: إن كل النفوس كذلك، ويجوز أن يكون للعهد، فيكون المعنى: إن نفسي بهذه الصفة ﴿إِلَّا مَا رَجَحَ رَبِّي﴾ أي: إلا من رحمه الله تعالى فعصمه، بأن لطف له، بأن لطف له، فيكون ﴿مَا﴾ بمعنى ﴿مِنْ﴾ كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ ويجوز أن يكون معناه: إلا مدة ما عصم ربي، ومن قال: إنه من كلام يوسف قال: إنه أراد الدعاء والمنازعة والشهوة، ولم يرد العزم على المعصية، أي: لا أبرئ نفسي مما لا تعزى منه طباع البشر، وإنما امتنعت عن الفاحشة بحول الله ولطفه وهدايته لا بنفسه. قال الحسن: إنما قال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ لأنه كره أن يكون قد زكى نفسه ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ﴾ بعباده ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.



قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ بالنون، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ بالياء: ف «يشاء» مسند إلى الغائب، كما أن ﴿يَتَّبِعُوا﴾ كذلك، ويقوي ذلك قوله: ﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنْ أَلْحَنَةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ فكما أن قوله: ﴿نَشَاءُ﴾ وفق لفعل المتبوعين، كذلك قوله: ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وفق لقوله: ﴿يَتَّبِعُوا﴾ ومن قرأ بالنون فإنه على أحد وجهين:

إما أن يكون أسند المشيئة إليه، وهو ليوسف في المعنى، لأن مشيئته لما كانت بقوته وإقداره عليها، جاز أن ينسب إلى الله، وإن كانت ليوسف في المعنى، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّكَ اللَّهُ رَمَى﴾ فأضيف الرمي إلى الله لما كان بقوته، وإن كان الرمي للنبي ﷺ.

والآخر: أن يكون الموضع المتبوع موضع نفسك وقرب، فالمكث فيه قرباً إلى الله تعالى، فهو يشاؤه ويريده.

فأما اللام في قوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ فيجوز أن يكون على

سورة يوسف

حد التي في قوله: ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾، و﴿لِلزَّيَا تَعْبُرُونَ﴾ يدل على ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ وقوله: ﴿يَتَّبِعُوا﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: مكَّنَّاه متبوعاً حيث يشاء. وأما قوله: ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ فيحتمل موضعه أمرين: أحدهما: أن يكون في موضع نصب بأنه ظرف.

والآخر: أن يكون في موضع نصب بأنه مفعول به، ويدل على جواز هذا الوجه قول الشماخ:

وَحَلَاءُهَا عَنْ ذِي الْأَرَاكَةِ عَامِرٌ أَخُو الْحَضَرِ يَرْضَى حَيْثُ تَكْبُو النَّوَاجِزُ^(١)

● **اللغة:** الاستخلاص: طلب خلوص الشيء من شائب الاشتراك، كأنه يريد أن يكون خالصاً له، وفي حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه: أنه كاتبه أهله على أربعين أوقية خلاص، أي: ما أخلصته النار من الذهب، وكذلك الخلاصة. والمكين: من المكانة، وأصله التمكن في الأمر، يقال: مكَّن مكانة فهو مكين، إذا كان له قدر وجاه يتمكن بهما مما يروم. والتبوء: اتخاذ منزل يرجع إليه، وأصله: من بَاء يَبُوء إذا رجع.

● **المعنى:** ﴿وَقَالَ أَلَيْكَ أَتُّونِي بِهِ﴾ معناه: إنَّ الملك لما تبين له أمانة يوسف وبراءته من السوء وعلمه، أمر بإحضاره، فقال: اتُّونِي بِهِ ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله خالصاً لنفسي، ارجع إليه في تدبير مملكتي، وأعمل على إشارته في مهمات أموري ﴿فَلَمَّا كَلَّمُوهُ﴾ ههنا حذف معناه: فلما جاء الرسول يوسف ودعاه، خرج من السجن ودخل على الملك وكلمه، وعرف فضله وأمانته وعقله، لأنه استدل بكلامه على عقله، وبعفته على أمانته ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: إنك عندنا ذو مكانة، متمكن في المنزلة والقدر، نافذ القول والأمر، ظاهر الأمانة، مأمون ثقة. قال ابن عباس: يريد مكتك من ملكي، وجعلت سلطانك فيه كسلطاني، واثمنتك فيه. قال الكلبي: إن رسول الملك جاءه فقال له: قم فإن الملك يدعوك، وألق ثياب السجن عنك، وألبس ثياباً جديداً، فأقبل يوسف وتنظف من درن السجن ولبس ثيابه، وأتى الملك وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلما رآه الملك شاباً حدث السن قال: يا غلام، هذا تأويل رؤيائي ولم يعلمه السحرة ولا الكهنة؟ قال: نعم، فأقعداه قدامه وقص عليه رؤياه. وروي أن يوسف عليه السلام لما خرج من السجن دعا لأهله، وقال: اللهم اعطف عليهم بقلوب الأخيار، ولا تعم عليهم الأخبار. فلذلك يكون أصحاب السجن أعرف الناس بالأخبار في كل بلدة، وكتب على باب السجن: هذا قبور الأحياء، وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء.

قال وهب: ولما وقف بباب الملك قال: حسبي ربي من دنيائي، وحسبي ربي من خلقه، عز جاره، وجل ثناؤه، ولا إله غيره، ولما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شره وشر غيره، ولما نظر إليه الملك سلَّم عليه يوسف بالعربية، فقال له

(١) حلا الإبل عن الماء: طردها، أو حبسها عن الورود. والكبوة: السقطة للوجه. والنحاز: داء يأخذ الدواب والإبل في رثاتها، فتسعل سعالاً شديداً.

الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً. فكلما كلم يوسف بلسان أجابه بذلك اللسان، فأعجب الملك ما رأى منه، فقال له: إني أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهاً، فقال يوسف: نعم أيها الملك. رأيت سبع بقرات سمان، شهب، غر حسان، كشف لك عنهن النيل فطلعن عليك من شاطئه، تشخب أخلافهن لبناً، فبينما تنظر إليهن ويعجبك حسنهن، إذ نضب النيل فغار ماؤه، وبدا يبسه، فخرج من حمته ووحله سبع بقرات عجاف، شعث غبر مقلصات البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف، ولهن أنياب وأضراس، وأكف كأف الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع، فاختلطن بالسمان فافترستهن افتراس السبع، فأكلن لحومهن، ومزقن جلودهن، وحطمن عظامهن، وتمششن مخهن. فبينما أنت تنظر وتتعجب، إذا سبع سنابل خضر، وآخر سود في منبت واحد، عروقه في الثرى والماء. فبينما أنت تقول في نفسك: أتى هذا وهؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد وأصولهن في الماء؟ إذ هبت ريح فذرت الأرفاق من اليابسات السود، على الثمرات الخضر فاشتعلت فيهن النار وأحرقتهن، وصرن سوداً متغيرات. فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا، ثم انتبهت من نومك مذعوراً. فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجباً بأعجب مما سمعته منك، فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتبني الأهرام^(١) والخزائن، فتجمع الطعام فيها بقصبه وسنبله، ليكون قصبه وسنبله علفاً للدواب، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس، فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي فيمتارون منك بحكمك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجمع لأحد ذلك، فقال الملك: ومن لي بهذا، ومن يجمعه ويبيعه ويكفي الشغل فيه؟ فعند ذلك:

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ الألف واللام في الأرض للعهد دون الجنس، يعني اجعلني على خزائن أرضك حافظاً والياً، واجعل تدبيرها إليّ ﴿إِنِّي حَفِيزٌ﴾ أي: حافظ لما استودعته لحفظه عن أن تجري فيه خيانة ﴿عَلَيْمٌ﴾ بمن يستحق منها شيئاً ومن لا يستحق، فأضعها مواضعها، عن قتادة، وابن إسحاق، والجبائي. وقيل: ﴿حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ أي: كاتب حاسب، عن وهب. وقيل: ﴿حَفِيزٌ﴾ للتقدير في هذه السنين الجدبة ﴿عَلَيْمٌ﴾ بوقت الجوع حين يقع، عن الكلبي. وقيل: حفيظ للحساب عالم بالألسن، وذلك أن الناس يفدون من كل ناحية، ويتكلمون بلغات مختلفة، عن السدي. وفي هذا دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، فإنه عرّف الملك حاله ليقمه في الأمور التي في إيلتها صلاح العباد والبلاد، ولم يدخل بذلك تحت قوله سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قالوا: فقال الملك: ومن أحق به منك؟ فولاه ذلك. وقيل: إن الملك الأكبر فوض إليه أمر مصر ودخل بيته، وعزل قطفير، وجعل يوسف مكانه.

(١) الأهرام جمع الهرى - بالضم - : بيت كبير يجمع فيه القمح ونحوه.

وقيل: إن قطفير هلك في تلك الليالي، فزوج الملك يوسف راعيل امرأة قطفير العزيز، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء، ولما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريد؟ وولدت له: إفرائيم وميشا. واستوثق ليوسف ملك مصر.

وقيل: إنه لم يتزوجها يوسف، وإنما لما رآته في موكب بكت، وقالت: الحمد لله الذي جعل الملوك بالمعصية عبيداً، والعبيد بالطاعة ملوكاً، فضمها إليه، وكانت من عياله حتى ماتت عنده، ولم يتزوجها. وفي تفسير علي بن إبراهيم بن هاشم قال: لما مات العزيز، وذلك في السنين الجدبة، افتقرت امرأة العزيز واحتاجت حتى سألت الناس، فقالوا لها: ما يضرك لو قعدت للعزيز؟ وكان يوسف يسمى العزيز، وكل ملك كان لهم سموه بهذا الاسم، فقالت: أستحي منه، فلم يزالوا بها حتى قعدت له، فأقبل يوسف في موكبها، فقامت إليه زليخا وقالت: سبحان من جعل الملوك بالمعصية عبيداً، والعبيد بالطاعة ملوكاً، فقال لها يوسف: أنت تيك؟ قالت: نعم، وكان اسمها زليخا، فقال لها: هل لك في؟ قالت: دعني بعد ما ينثت، أتتهزأ بي! قال: لا، قالت: نعم، قال: فأمر بها فحوّلت إلى منزله وكانت هرمة، فقال لها يوسف: ألسنت فعلت بي كذا وكذا؟ قالت: يا نبي الله! لا تلمني، فإني بليت في بلاء لم يبيل به أحد! قال: وما هو؟ قالت: بليت بحبك ولم يخلق الله لك نظيراً في الدنيا، وبليت بأنه لم تكن بمصر امرأة أجمل مني ولا أكثر مالا مني، وبليت بزواج عنين. فقال لها يوسف: فما حاجتك؟ قالت: تسأل الله أن يرد عليّ شبابي، فسأل الله فردّ عليها، فتزوجها وهي بكر.

وروي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لولاه من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة» قال ابن عباس: فأقام في بيت الملك سنة، فلما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة، دعاه الأمير فتوجه ورداه بسيفه، وأمر بأن يوضع له سرير من ذهب مكلل بالدر والياقوت، ويضرب عليه كلة من استبرق، ثم أمره أن يخرج متوجاً لونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه، فانطلق حتى جلس على السرير ودانت له الملوك، فعدل بين الناس، فأحببه الرجال والنساء، وذلك قوله عز اسمه:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا عليه أقدرنا يوسف على ما يريد في الأرض، يعني أرض مصر ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي: يتصرف فيها حيث يشاء، وينزل منها حيث يشاء ﴿فُضِيْبُ رَحْمَتِنَا مِنْ شَاءَ﴾ أي: نخص بنعم الدين والدنيا من نشاء ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المطيعين. وقيل: الصابرين، عن ابن عباس. وقيل: إنه دعا الملك إلى الإسلام فأسلم، عن مجاهد وغيره. قالوا: وأسلم أيضاً كثير من الناس، فهذا في الدنيا ﴿وَلَا تُجْرُ الْآخِرَةُ﴾ أي: ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ لخلوصه عن الشوائب والأقذار. وفي هذه إشارة إلى أنه سبحانه يؤتي يوسف في الآخرة من الثواب والدرجات، ما هو خير مما آتاه الله في الدنيا، من الملك والنعمة.

سؤال: قالوا: كيف جاز ليوسف أن يطلب الولاية من قبل الكفرة الظلمة؟

وجوابه: لأنه علم أنه يتمكن بذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووضع الحقوق مواضعها، وقد جعل الله سبحانه جميع ذلك له من جهة كونه نبياً إماماً، وكان يفعل ذلك من قبل الله تعالى، وإنما سأل الولاية ليتمكن من الأمور التي له أن يفعلها.

وأيضاً: فإنه علم أنه سبب يتوصل به إلى الدعاء إلى الخير، وإلى رؤية والديه وإخوته.

وفي الآية دلالة على أن ذلك التمكين والملك والتدبير كان بلطف الله سبحانه وفضله.

وفيه دلالة أيضاً على جواز تولي القضاء من جهة الباغي والظالم، إذاً يتمكن بذلك من إقامة أحكام الدين.

وفي قوله: ﴿يَتَّبِعُوا مَنَّا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ دلالة على أن تصرفه كان باختياره من غير رجوع إلى الملك، وأنه صار بحيث لا أمر عليه.

وفي كتاب النبوة بالإسناد عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن علي ابن بنت إلياس، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: وأقبل يوسف على جمع الطعام، فجمع في السبع السنين المخصصة فكبسه في الخزان، فلما مضت تلك السنون وأقبلت المجدة، أقبل يوسف على بيع الطعام، فباعهم في السنة الأولى بالدرهم والدنانير، حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم إلا صار في مملكة يوسف، وباعهم في السنة الثانية بالحلوى والجواهر، حتى لم يبق بمصر وما حولها حلوى ولا جوهر إلا صار في مملكته، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي، حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية إلا صارت في مملكته، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى لم يبق بمصر عبد ولا أمة إلا صار في مملكته، وباعهم في السنة الخامسة بالدور والعقار، حتى لم يبق بمصر وما حولها دار ولا عقار إلا صار في مملكته، وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار، حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلا صار في مملكته، وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر إلا صار عبد يوسف، فملك أحرارهم وعبيدهم وأموالهم. وقال الناس: ما رأينا ولا سمعنا بملك أعطاه الله من الملك ما أعطى هذا الملك حكماً وعلماً وتديراً.

ثم قال يوسف للملك: أيها الملك: ما ترى فيما خولني ربي من ملك مصر وأهلها؟ أشر علينا برأيك، فإنني لم أصلحهم لأفسدهم، ولم أنجهم من البلاء لأكون بلاء عليهم، ولكن الله تعالى أنجاهم على يدي.

قال له الملك: الرأي رأيك. قال يوسف عليه السلام: إني أشهد الله وأشهدك، أيها الملك، أنني قد أعتقت أهل مصر كلهم، ورددت عليهم أموالهم وعبيدهم، ورددت عليك، أيها الملك، خاتمك وسريرك وتاجك، على ألا تسير إلا بسيرتي، ولا تحكم إلا بحكمي، قال له الملك: إن ذلك لزييني وفخري ألا أسير إلا بسيرتك، ولا أحكم إلا بحكمك، ولولاك ما قويت عليه ولا اهتديت له، ولقد جعلت سلطاناً عزيزاً لا يرام، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

له وأنتك رسوله، فأقم على ما وليتك، فإنك لدينا مكين أمين. وقيل: إن يوسف عليه السلام كان لا يمتلي شعباً من الطعام في تلك الأيام المجدة! ف قيل له: تجوع ويديك خزائن الأرض؟ فقال عليه السلام: أخاف أن أشبع فأنسى الجيع!



قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨﴾
 وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ
 الْمُنْزِلِينَ ٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ
 أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ٦١﴾ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا بَضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا
 إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: ﴿لِفَتَيْنِهِ﴾ والباقون: «لفتيته».

● **الحجة:** قال أبو علي: «الفتية» جمع فتى في العدد القليل، و «الفتيان» في الكثير، ومثل فتية: إخوة وولدة، في جمع أخ وولد، ونيرة وقيعة: في جمع نار وقاع. ومثل فتیان: برقان وخربان، في جمع برق وخرب، وجيران وتيجان، في جمع جار وتاج، وقد يقوم البناء الذي للقليل مقام الذي للكثير، وكذلك يقوم الكثير مقام القليل، حيث لا قلب ولا إعلال، وذلك نحو: أرجل وأقدام وأرسان، وفي الكثير قولهم: ثلاثة شسوع، فإذا فعل ذلك فيما لا إعلال فيه، فإن يرفض فيما يؤدي إلى الإعلال والقلب، أولى.

● **اللغة:** جهاز البيت: متاعه. وجهاز فلاناً: هيات جهاز سفره، ومنه: جهاز المرأة. والرجال: أراد به الأوعية، واحداها: رحل، وجمعها القليل: أرحل. قال ابن الأنباري: يقال للوعاء: رحل، وللمسكن: رحل، وأصله الشيء المعد للرحيل من وعاء المتاع، ومركب البعير، وجلس ورسن.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه أنه لما تمكن يوسف بمصر، وأصاب الناس ما أصابهم من القحط، وقصدوا مصر، نزل بآل يعقوب ما نزل بالناس، فجمع يعقوب عليه السلام بنيه وقال لهم: بلغني أنه يباع الطعام بمصر، وأن صاحبه رجل صالح، فاذهبوا إليه فإنه سيحسن إليكم إن شاء الله، فتجهزوا وساروا حتى وردوا مصر، فدخلوا على يوسف، فذلك قوله: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي: جاؤوا ليمتاروا من مصر كما امتار غيرهم، ودخلوا عليه وهم عشرة، وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه، فعرفهم يوسف، وأنكره. قال ابن عباس: وكان بين أن قذفوه في الحب وبين أن دخلوا عليه أربعين سنة، فلذلك أنكره، ولأنهم رأوه ملكاً جالساً على السرير، عليه ثياب الملوك، ولم يكن يخطر ببالهم أنه يصير إلى تلك الحالة، وكان يوسف ينتظر قدومهم عليه، فكان أثبت لهم. فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية، قال لهم: من أنتم؟ وما أمركم؟ فإني أنكر شأنكم.

وفي تفسير علي بن إبراهيم: فلما جهزهم وأعطاهم وأحسن إليهم في الكيل، قال لهم:

من أنتم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجتنا نمتار، فقال: لعلكم عيون جئتم تنظرون عورة بلادتي؟ فقالوا: لا، والله ما نحن بجواسيس، وإنما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، ولو تعلم بأبينا لكرمنا عليك، فإنه نبي الله، وابن أنبيائه، وإنه لمحزون! قال: وما الذي أحزنه؟ فلعل حزنه إنما كان من قبل سفهكم وجهلكم؟ قالوا: أيها الملك، لسنا بسفهاء ولا جهال، ولا أتاه الحزن من قبلنا، ولكنه كان له ابن أصغرنا سنأ، وإنه خرج يوماً معنا إلى الصيد فأكله الذئب، فلم يزل بعده حزينا كثيراً باكياً، فقال لهم يوسف: كلكم من أب وأم؟ قالوا: أبونا واحد وأمهاتنا شتى. قال: فما حمل أباكم على أن سرحكم كلكم، ألا حبس واحداً منكم يستأنس به؟ قالوا: قد فعل، حبس منا واحداً وهو أصغرنا سنأ، لأنه أخو الذي هلك من أمه، فأبونا يتسلى به، قال: فمن يعلم أن الذي تقولونه حق؟ قالوا: يا أيها الملك، إنا ببلاد لا يعرفنا أحد. فقال يوسف: فأتوني بأخيك الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، وأنا أرضى بذلك. قالوا: إن أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه. قال: فدعوا عندي رهينة حتى تأتوني بأخيك، فافترعوا بينهم، فأصابته القرعة شمعون. وقيل: إن يوسف اختار شمعون لأنه كان أحسنهم رأياً فيه، فخلقوه عنده. فذلك قوله:

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ يعني حمل لكل رجل منهم بعيراً بعدتهم ﴿قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ يعني بنيامين ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَرْفِي الْأَكْمِلَ﴾ أي: لا أبخس الناس شيئاً وأتم لهم كيلهم ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزِلِّينَ﴾ أي: المضيفين، مأخوذ من التزل، وهو: الطعام. وقيل: خير المنزلين للأموار منازلها، فتدخل فيه الضيافة وغيرها، مأخوذ من المنزل وهو: الدار ﴿فَإِن لَّرَأْتُوْنِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي﴾ أي: ليس لكم عندي طعام أكيله عليكم، والمراد بالكيل المكيل ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: ولا تقربوا داري وبلادتي، خلط عليه السلام الوعد بالوعيد ﴿قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: نطلبه ونسأله أن يرسله معنا. قال ابن عباس: معناه: نستخدعه عنه حتى يخرج به معنا ﴿وَأَنَا لَفَاعِلُونَ﴾ ما أمرتنا به، قال وكان يوسف أمر ترجماناً يعرف العبرانية أن يكلمهم، وكان لا يكلمهم بنفسه ليشبه عليهم، فإنهم لو عرفوه ربما كانوا يهيمون في الأرض حياء من أبيهم فيتركون خدمته، وكان في معرفتهم إياه مفسدة.

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا يَصْنَعُكُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي: قال يوسف: لعبيده وغلماناه الذين يكيلون الطعام، عن قتادة، وغيره. وقيل: لأعوانه اجعلوا ثمن طعامهم وما كانوا جاؤوا به في أوعيتهم. وقيل: كانت بضاعتهم النعال والأدم. وقيل: كانت الورق، عن قتادة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْفِقُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَيْ أَهْلِهِمْ﴾ أي: لعلهم يعرفون متاعهم إذا رجعوا إلى أهلهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بعد ذلك لطلب الميرة مرة أخرى. وإنما فعل ذلك ليعرفوا أن يوسف إنما فعل ذلك إكراماً لهم ليرجعوا إليه. وقيل: إنه خاف ألا يكون عندهم من الورق ما يرجعون به مرة أخرى، عن الكلبي.

وقيل: إنه رأى لو ما أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه، فرده عليهم من حيث لا يعلمون تفضلاً وكرماً.

وقيل: فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد بضاعتهم إذا وجدوها في رحالهم، ولا يعرفون أن الملك أمر بذلك فيرجعون ليردوا ذلك عليه.

ومتى قيل: كيف لم يُعرفهم يوسف نفسه مع علمه بشدة حزن أبيه وقلقه واحتراقه على ألم فراقه؟.

فالجواب: أنه لم يؤذن له في التعريف استتماماً للمحنة عليه وعلى يعقوب عليه السلام، ولما علم الله تعالى من الحكمة والصلاح في تشديد البلية تعريضاً للمنزلة السنية. وقيل: إنما لم يعرفهم بنفسه لأنهم لو عرفوه ربما لم يرجعوا إليه، ولم يحملوا أخاه إليه، والأول هو الوجه الصحيح.



قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْمِهِمْ قَالُوا يَتَابْنَا مُنْعَ مِنَّا الْكَيْدُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَّكَتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَلْعَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابْنَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَلْعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْدٌ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: يدي على النون في ﴿نَكَتَلْ﴾ قوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ ألا ترى أنهم إنما يميرون أهلهم بما يكتالون، فيكون ﴿نَكَتَلْ﴾ مثل ﴿وَنَمِيرُ﴾ وأيضاً: فإذا قالوا: ﴿نَكَتَلْ﴾ جاز أن يكون أخوهم داخلاً معهم. وإذا كان بالياء لم ير خلوهم فيه، وزعموا أن في قراءة عبد الله ﴿نَكَتَلْ﴾ بالنون، وكان النون لقولهم: ﴿مُنْعَ مِنَّا الْكَيْدُ﴾ لغيبة أخينا، فأرسله نكتل ما مُنعناه لغيبته. ووجه الياء: أنه يكتمل حمله كما نكتال نحن أحمالنا.

● **القراءة:** قرأ ﴿يتكل﴾ بالياء أهل الكوفة، غير عاصم. والباقون: بالنون وقرأ ﴿خير حافظاً﴾ بالالف، أهل الكوفة، غير أبي بكر. والباقون: ﴿حفظاً﴾ بغير ألف. وفي الشواذ قراءة علقمة، ويحيى ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ بكسر الراء.

ووجه من قرأ: ﴿خَيْرٌ حَافِظًا﴾ أنه قد ثبت من قوله: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانًا﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أنهم قد أضافوا إلى أنفسهم حفظاً، فالمعنى على الحفظ الذي نسبوه إلى أنفسهم، وإن كان منهم تفريط في حفظهم ليوسف، كما أن قوله: ﴿أَنْ شُرَكَاءَ﴾ لم يثبت لله شريكاً، وإنما المعنى على الشركاء الذين نسبتموهم إليّ، فكذلك المعنى على الحفظ الذي نسبوه إلى أنفسهم، وإن كان منهم تفريط فيه، فإذا كان كذلك، كان المعنى: فالله خير حفظاً من حفظكم الذي نسبتموه إلى أنفسكم، وإن كان منكم فيه تفريط، وإضافة ﴿خَيْرٌ﴾ إلى ﴿حَفَظَ﴾ محال، ولكن نقول: حفظ الله خير من حفظكم. ومن قرأ: ﴿حَفَظًا﴾ فيكون «حافظاً» منتصباً على التمييز دون الحال كما كان حفظاً كذلك، ولا يستحيل الإضافة في ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ و﴿وَخَيْرٌ

الْحَافِظِينَ ﴿١﴾ كما يستحيل في ﴿حَيْثُ حَفِظًا﴾، فإن قلت: فهل كان ثم حافظ كما ثبت أنه كان حفظ لما قدمته؟ فالقول: إنه قد ثبت أنه كان ثم حافظ لقوله: ﴿وَرَأَى لَهُ لَحَفُظُونَ﴾ ولقوله: ﴿يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فتقول: حافظ الله خير من حافظكم، كما كان حفظ الله خير من حفظكم، لأن الله سبحانه حافظه كما أن له حفظاً فحافظه خير من حافظكم، كما كان حفظه خيراً من حفظكم، وتقول: هو أحفظ حافظ، كما تقول: هو أرحم راحم، لأنه سبحانه من الحافظين، كما كان من الراحمين.

وأما قوله: ﴿رُدَّتْ﴾ فإن فعل من المضاعف والمعتل العين، يجيء على ثلاثة أوجه عندهم: لغة فاشية، وأخرى تليها، وثالثة قليلة، فأقوى اللغات في المضاعف: ضم أوله كشُدَّ، وعُدَّ، ورُدَّ، ثم يليه الإشمام: وهو بين ضم الأول وكسره، ثم قولهم: شِدَّ ورِدَّ بإخلاص الكسرة، وهو الأقل. وأقوى اللغات في المعتل العين كسر أوله، نحو: قيل وبيع، ثم يليه الإشمام بين الضمة والكسرة، والثالثة إخلاص الضمة نحو: قُولَ وَبُوعَ، وأنشد لذي الرمة:

دَنَا الْبَيْنُ مِنْ مَيِّ فَرُدَّتْ جِمَالُهَا وَهَاجَ الْهَوَى تَفْوِيضُهَا واحتمالها^(١)

● **اللغة:** يقال: كَلْتُ فلاناً: أي أعطيته الشيء كيلاً، واكتلت عليه: أخذت منه. والأمن: اطمئنان القلب إلى سلامة الأمر، يقال: آمنه يأمنه أمناً. والميرة: الأطعمة التي تحمل من بلد إلى بلد، ويقال: مِرْتُهُمْ أميرهم ميراً، وإذا أتيتهم بالميرة، ومثله: أَمَرْتُهُمْ امْتِثَاراً، قال:

بَعَثْتُكَ مَائِراً فَمَكَنْتَ حَوْلَا مَتَى يَأْتِي غِيَاثُكَ مَنْ تُغِيثُ؟^(٢)

● **الإعراب:** قال الزجاج: «حفظاً» منصوب على التمييز، و «حَفِظًا» على الحال، ويجوز أن يكون «حَفِظًا» على التمييز، و «ما» في قوله: ﴿مَا نَبَغِي﴾ استفهام، موضعه نصب، والمعنى: أي شيء تريد؟ ويكون المراد به الجحد، ويجوز أن يكون «ما» أيضاً نفيًا، كأنهم قالوا: ما نبغي شيئاً، وموضع ﴿أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ نصب، والمعنى: إلا الإحاطة بكم، أي: لا تمتنعوا من الإتيان به إلا لهذا، وهذا يسمى مفعولاً له، قال الزجاج: وإلا هذه بمعنى تحقيق الجزاء، تقول: ما تأتينا إلا لأخذ الدراهم، وإلا أن تأخذ الدراهم.

● **المعنى:** فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكليل قيل إنهم لما دخلوا على يعقوب؛ وسلموا عليه سلاماً ضعيفاً؛ فقال لهم يا بني! ما لكم تسلمون سلاماً ضعيفاً؟ ومالي لا أسمع فيكم صوت شمعون؟ فقالوا: يا أبانا! إنا جئناك من عند أعظم الناس ملكاً، ولم ير الناس مثله حكماً وعلماً وخشوعاً وسكينة ووقاراً، ولئن كان لك شبيه، فإنه يشبهك، ولكننا أهل بيت خلقنا للبلاء. إنه اتهمنا وزعم أنه لا يصدقنا حتى ترسل معنا بنيامين برسالة منك إليه ليخبره من حزنك، وما الذي أحزنك، وعن سرعة الشيب إليك، وذهاب بصرك. وقوله ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ معناه: فيما يستقبل إن لم نأته بأخي، لقوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا﴾ بنيامين ﴿نَكْتَلُ﴾ أي: نأخذ الطعام بالكيل، إن أرسلته اكتلنا، وإلا فمنعنا الكيل، ومن قرأ «يكتل» بالياء، فالمعنى: يأخذ أخونا بنيامين وقرَ بغير يكتال له. ﴿وَرَأَى لَهُ لَحَفُظُونَ﴾ من أن يصيبه

(٢) وفي اللسان «غواثك من يغيث».

(١) تفويض الخيام: قلعه.

سوء ومكروه ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: لا آمنكم على بنيامين في الذهاب به إلا كأمني على يوسف، ضمنتم لي حفظه ثم ضيعتموه، أو أهلكتموه، أو غيبتموه عني. وإنما قرعهم بحديث يوسف، وإلا فقد كان يعلم أنهم في هذه الحال لا يفعلون ما لا يجوز ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ أي: حفظ الله خير من حفظكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يرحم ضعفي، وكبر سني، ويرده عليّ. وورد في الخبر: أن الله سبحانه قال: فبعزتي لأردنهما إليك من بعد ما توكلت عليّ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَخْرَجَهُ﴾ يعني أوعية الطعام ﴿وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَاكَ مَا نَبِغُ﴾ أي: ما نطلب في منع أخينا عنه. وقيل: معناه ما نطلب بما أخبرناك عن ملك مصر الكذب. وقيل: معناه أي شيء نطلب وراء هذا؟ أوفي لنا الكيل ورد علينا الثمن، عن قتادة. وأراد أن تطيب نفس يعقوب عليه السلام فبعث ابنه معهم، وتم الكلام ثم قالوا ابتداء: ﴿هَلْ ذُوهُ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي: فلا ينبغي أن نخاف على أخينا ممن قد أحسن إلينا هذا الإحسان. وقيل المراد: ما نريد منك دراهم تعطيناها نرجع بها إليه، بل تكفينا في الرجوع إليه بضاعتنا هذه، فإن الملك إذا فعلنا ما أمرنا به في أخينا يفي بما وعدنا وأرسله معنا ﴿وَنَبِيْرُ أَهْلِنَا﴾ أي: نجلب إليهم الطعام ﴿وَنَحْفَظُ أَمْوَالَنَا﴾ في السفر حتى نرده إليك ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ﴾ لأجله لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: ذلك كيل سهل، أي: يسهل على الذي يمضي إليه، عن الزجاج. والمعنى: أنه هين على الملك لا يصعب عليه ولا يظهر في ماله. وقيل: معناه أن الذي جئناك به كيل قليل لا يقنعنا، فنحتاج أن نضيف إليه كيل بعير أخينا، عن الجبائي. وقيل: يسير على من يكتاله لا مؤنة فيه ولا مشقة، عن الحسن. وهذا كله تنبيه منهم على وجه الصواب في إرساله معهم.

فلما رأى يعقوب عليه السلام رده البضاعة، وتحقق عنه إكرام الملك إياهم، وعزم على إرسال بنيامين معهم ﴿قَالَ لَن أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنِّي﴾ أي: تعطونني ما يوثق به من يمين أو عهد من الله ﴿لَتَأْتِيََنَّ بِهِ﴾ أي: لتردنه إليّ. قال ابن عباس: يعني حتى تحلفوا إلي بحق محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وسيد المرسلين، أي: لا تغدروا بأخيكم ولتأتني به، اللام فيه لجواب القسم. ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن تهلكوا جميعاً، عن مجاهد. وقيل: إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك، عن قتادة. والمعنى: إلا أن يحال بينكم وبينه حتى لا تقدروا على الإتيان به، عن الزجاج. ﴿فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي: أعطوه عهودهم، وحلفوا له بحق محمد ومنزلته من ربه، عن ابن عباس ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شاهد حافظ إن أخلفتم انتصف لي منكم.

وفي هذا دلالة على وجوب التوكل على الله سبحانه في جميع المهمات، والتفويض إليه في كل الأمور. وفيها دلالة أيضاً على أن يعقوب عليه السلام إنما أرسل بنيامين معهم، لأنه علم أنهم لما كبروا ندموا على ما كان فرط منهم في أمر يوسف عليه السلام، ولم يصروا على ذلك، ولهذا وثق بهم، وإنما عيرهم بحديث يوسف حثاً لهم على حفظ أخيه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَبْنَىٰ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِن أَوْبَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

● **اللغة:** الغنى: الكفاية في المال، لأنه اكتفى به، وربما مد لضرورة الشعر. والغناء، بكسر الغين: المد من الصوت، يقال منه غنى يغني غناء، والغناء: بالفتح والمد: الكفاية. وغني عن كذا فهو غانٍ، وغني القوم في دارهم: أقاموا. والمغاني: المنازل، لأنهم اكتفوا بها. والغانية: المرأة، لأنها تكتفي بزوجها عن غيره، أو بجمالها عن التزين.

● **المعنى:** ﴿٧٧﴾ لما تجهزوا للمسير ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿يَبْنَىٰ لَا تَدْخُلُوا﴾ مصر ﴿وَمِنَ بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِن أَوْبَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ خاف عليهم العين، لأنهم كانوا ذوي جمال وهيئة وكمال، وهم إخوة أولاد رجل واحد، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، وأبي مسلم. وقيل: خاف عليهم حسد الناس إياهم، وأن يبلغ الملك قوتهم وبطشهم، فيحبسهم أو يقتلهم خوفاً على ملكه، عن الجبائي. وأنكر العين وذكر أنه لم يثبت بحجة، وجوزه كثير من المحققين ورووا فيه الخبر عن النبي ﷺ: «إن العين حق، والعين تستنزل الحائق» والحالق: المكان المرتفع من الجبل وغيره، فجعل عليه الصلاة والسلام العين كأنها تحط ذروة الجبل من قوة أخذها وشدة بطشها، وورد في الخبر أنه عليه وآله السلام كان يُعوذُ الحسن والحسين عليهما السلام، بأن يقول: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة. وروي أن إبراهيم عليه السلام عوَّذ ابنه، وأن موسى عوَّذ ابني هارون بهذه العوذة، وروي أن بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلماناً بيضاً، فقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله! إن العين إليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين؟ فقال ﷺ: نعم. وروي أن جبرائيل عليه السلام رقي رسول الله وعلمه الرقية، وهي: «بسم الله أرقيك من كل عين حاسد، الله يشفيك» وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين».

ثم اختلفوا في وجه الإصابة بالعين، فروي عن عمرو بن بحر الجاحظ أنه قال: لا ينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن، أجزاء لطيفة فتتصل به وتؤثر فيه، فيكون هذا المعنى خاصية في بعض الأعين، كالخواص في الأشياء، وقد اعترض على ذلك: بأنه لو كان كذلك لما اختص ذلك ببعض الأشياء دون بعض، ولأن الأجزاء تكون جواهر، والجواهر متماثلة، ولا يؤثر بعضها في بعض، وقال أبو هاشم: إنه فعل الله بالعادة لضرب من المصلحة، وهو قول القاضي.

ورأيت في شرح هذا للشريف الأجل الرضي الموسوي، قدس الله روحه، كلاماً أحببت إيراد في هذا الموضع، قال: إن الله تعالى يفعل المصالح بعباده، على حسب ما يعلمه من الصلاح لهم في تلك الأفعال التي يفعلها، فغير ممتنع أن يكون تغييره نعمة زيد مصلحة لعمرو،

وإذا كان يعلم من حال عمرو أنه لو لم يسلب زيداً نعمته أقبل على الدنيا بوجهه ونأى عن الآخرة بعطفه، وإذا سلب نعمه زيداً لليلة التي ذكرناها عوضه فيها وأعطاه بدلاً منها عاجلاً أو آجلاً، فيمكن أن يتأول قوله ﷺ: «العين حق»، على هذا الوجه. على أنه قد روي عنه ﷺ ما يدل على أن الشيء إذا عظم في صدور العباد وضع الله قدره، وصغر أمره، وإذا كان الأمر على هذا فلا ينكر تغيير حال بعض الأشياء عند نظر بعض الناظرين إليه، واستحسانه له، وعظمه في صدره، وفخامته في عينه، كما روي أنه قال: لما سبقت ناقته العضباء، وكانت إذا سويق بها لم يسبق، ما رفع العباد من شيء إلا وضع الله منه، ويجوز أن يكون ما أمر به المستحسن للشيء عند رؤيته، من تعويذه بالله والصلاة على رسول الله ﷺ، قائماً في المصلحة مقام تغيير حالة الشيء المستحسن فلا يغير عند ذلك، لأن الرائي لذلك قد أظهر الرجوع إلى الله تعالى والإعادة به، فكأنه غير راكن إلى الدنيا، ولا مغتربها. انتهى كلامه رضي الله عنه ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِيرَاثُ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما أدفع من قضاء الله من شيء إن كان قد قضى عليكم الإصابة بالعين أو غير ذلك، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فهو القادر على أن يحفظكم من العين أو من الحسد، ويردكم علي سالمين. ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: وليفوضوا أمورهم إليه وليثقوا به.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ مصر ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: من أبواب متفرقة كما أمرهم يعقوب ﷺ. وقيل: كان لمصر أربعة أبواب فدخلوها من أبوابها الأربعة متفرقين. ﴿لَمَّا كَانَتْ يَغْنَىٰ عَنْهُمْ مِيرَاثُ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أي: لم يكن دخولهم مصر كذلك يغني عنهم أو يدفع عنهم شيئاً أراد الله تعالى إيقاعه بهم، من حسد أو إصابة عين، وهو ﷺ كان عالماً أنه لا ينفع حذر من قدر، ولكن كان ما قاله لابنيه حاجة في قلبه، فقضى يعقوب ﷺ تلك الحاجة، أي: أزال به اضطراب قلبه، لئلا يحال على العين مكروه يصيبهم. وقيل: معناه أن العين لو قدر أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون، كما تصيبهم مجتمعين، عن الزجاج قال: وحاجة استثناء ليس من الأول، بمعنى لكن حاجة ﴿وَاللَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: ذو يقين ومعرفة بالله ﴿لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: لأجل تعليمنا إياه، عن مجاهد. مدحه الله سبحانه بالعلم. والمعنى: أنه حصل له العلم بتعليمنا إياه. وقيل: ﴿وَاللَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: يعلم ما علمناه فيعمل به، لأن من علم شيئاً ولا يعمل به كان كمن لا يعلم، فعلى هذا يكون اللام في قوله: ﴿لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ كاللام في قوله: ﴿لِلزُّبَىٰ تَعَزُّوْنَ﴾. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مرتبة يعقوب ﷺ في العلم، عن الجبائي. وقيل: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أوليائه، عن ابن عباس.



قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿لَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسِرُورُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾

﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِجْلٌ يَعِيرُ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِينَهُ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ .

● **القراءة:** في الشواذ قراءة أبي رجاء: ﴿صُوعَ الْمَلِكِ﴾ بضم الصاد وقراءة أبي عبد الله بن عوف «صوع» بضم الصاد بغير ألف. وقراءة يحيى بن يعمر: «صوغ» بفتح الصاد والغين معجمة. وقراءة أبي هريرة، ومجاهد بخلاف: «صاع الملك» والقراءة المشهورة: ﴿صُوعَ الْمَلِكِ﴾. وقراءة الحسن: ﴿مَنْ وَعَاءُ أَخِيهِ﴾ بضم الواو، وقراءة سعيد بن جبير: «إعاء أخيه» بالهمزة. وقرأ يعقوب وسهل: «يرفع ويشاء» بالياء، والباقون: بالنون. وقرأ أهل الكوفة: ﴿دَرَجَاتٍ﴾ بالتنوين، والباقون: بغير تنوين. وفي الشواذ قراءة ابن مسعود: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

● **الحجة:** الصُّوعُ والصَّاعُ والصُّوعُ واحد: وهو مكيال، وأما الصُّوعُ فمصدر وُضِعَ موضع اسم المفعول، أي: المصوع، وهو مثل: الخلق والصيد، بمعنى المخلوق والمصيد. ومن قرأ: «إعاء» فأصله وعاء، أبدلت الواو المكسورة همزة، كما قالوا في وسادة: إسادة، وفي وجاح للستر: إجاح. ومن قرأ: «وعاء» بالضم، فإنه يكون لغة، والهمزة فيه أقيس، كما قالوا: أعَدَ في وعد، وأجوه في وجوه. ومن قرأ: «درجات» بالتنوين، فإن «من» يكون في موضع نصب، على معنى: نرفع من نشاء درجات، ومن قرأها بغير تنوين، فإن «من» يكون في موضع جر بالإضافة.

وقال ابن جني: إن قراءة من قرأ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون من باب إضافة المسمى إلى الاسم، أي: وفوق كل شخص يسمى عالماً، أو يقال له عالم: عليم، مثل قول الكميت:

إِلَيْكُمْ ذُرِّي آلِ النَّبِيِّ تَطْلَعَتْ نَوَازِعُ مِنْ قَلْبِي ظِمَاءٌ وَالْبُبُ^(١)

أي: إليكم يا آل النبي، أي: يا أصحاب هذا الاسم، الذي هو آل النبي، وعليه قول الأعشى:

فَكَذَّبُوهَا بِمَا قَالَتْ وَصَبَّحَهُمْ دُوَّ آلِ حَسَّانَ يُزْجِي الْمَوْتَ وَالشَّرْعَا^(٢)

(١) الظماء جمع ظمآن. وألب جمع اللب بمعنى العقل. وفي اللسان في «لب» «إليكم بنى آل النبي. ١. هـ».

(٢) أزجى الشيء: ساقه. وفي بعض النسخ: «يرجى» بالمهمله. والشرع جمع الشريعة: الوتر ما دام مشدوداً على القوس. وحباله من العقب تجعل شركاً يصاد به القطا.

أي صبحهم الجيش الذي يقال له: آل حسان.

والوجه الثاني: أن يكون ﴿عَلِمَ﴾ مصدراً، كالباطل وغيره.

والثالث: أن يكون على مذهب من اعتقد زيادة ﴿وَيَ﴾ فكأنه قال: وفوق كل عالم عليم.

● اللغة: يقال: أوى إلى منزله يَأْوِي أَوْيًّا: إذا صار إليه، وأويته أنا إيواء. والابتئاس:

الاجتنام واجتلاب البؤس والحزن. والسقاية: الإناء التي يسقي منها، وهو من السقي. وقيل: السقاية والصواع واحد. والأذان والتأذين واحد، وهو النداء يسمع بالأذن. ويقال: أذنته بالشيء أي: أعلمته، وأذنته أكثر إشعاره. والعرير: القافلة من الحمير. وقيل: هو القافلة التي فيها الأجمال، والأصل للحمير، ثم كثر فسمي كل قافلة عيراً. وقيل: العير: الإبل السائرة المركوبة، والجمع: عيران. والحمل: بالكسر لما انفصل، وبالفتح لما اتصل، وجمعه أحمال وحمول. والزعيم، والكفيل، والضمين، نظائر، والزعيم أيضاً: القائم بأمر القوم وهو الرئيس. قالت ليلي الأخيلية:

حتى إذا رُفِعَ اللواء رأيتُه تحت اللواء على الحَمِيسِ رَعِيماً

● الإعراب: تالله معناه: والله، إلا أن التاء تختص باسم الله، لا يجوز: تالرحمن،

وتربي، وهو بدل من الواو، كما أبدل من الواو في تراث وتجاه وتخمة. ﴿قَالُوا جَزْؤُهُ مَنْ يُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ ذكر في إعرابه وجهان:

أحدهما: أن يكون ﴿جَزْؤُهُ﴾ مبتدأ، و ﴿مَنْ يُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ الخبر، ويكون المعنى: جزاء السرق الإنسان الموجود في رحله السرق، ويكون قوله: ﴿فَهُوَ جَزْؤُهُ﴾ جملة أخرى ذكرت زيادة في الإبانة، كما يقال: جزاء السارق القطع فهو جزاؤه، وفهذا جزاؤه، زيادة في البيان، وعلى هذا تكون ﴿مَنْ﴾ موصولة، ويكون تقديره: استرقاق الذي وجد في رحله السرق، فحذف المضاف.

والآخر: أن يكون ﴿جَزْؤُهُ﴾ مبتدأ، و ﴿مَنْ يُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ جملة شرطية في موضع الخبر، والعائد على المبتدأ الأول من الجملة الأولى جزاؤه من قوله: ﴿فَهُوَ جَزْؤُهُ﴾ فكأنه قال: فهو هو، أي: فهو الجزاء، والإظهار ههنا أحسن لثلا يقع في الكلام لبس. قال الزجاج: إن العرب إذا فحمت أمر الشيء جعلت العائدة إليه إعادة اللفظ بعينه، وأنشد:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نَعَصَ الموت ذا الغنى والفقيرا

وعلى هذا فيكون المعنى: قالوا جزاء السرق إن وجد في رحل رجل منا فالموجود في رحله السرق جزاؤه استرقاق. وقال صاحب الكشف: تقديره: جزاء المسروق من وجد في رحله، أي: إنسان وجد الصاع في رحله، ف ﴿مَنْ﴾ نكرة، و «هو» مبتدأ ثان، وقوله: ﴿وَجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ صفة «لمن» وقوله: ﴿فَهُوَ جَزْؤُهُ﴾ خبر «لمن» والجملة خبر قوله: ﴿جَزْؤُهُ﴾ والتقدير: جزاؤه إنسان وجد في رحله الصاع فهو هو، إلا أنه وضع الظاهر موضع المضمهر. قال: وليس في التنزيل «مَنْ» نكرة إلا في هذا الموضع، وموضع الكاف من ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا﴾ نصب، بأنه صفة مصدر محذوف، وموضع ﴿أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ نصب لما سقطت الباء أفضى الفعل إليها فنصب، والتقدير: إلا بمشيئة الله.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن دخولهم عليه، فقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: لما دخل أولاد يعقوب على يوسف، ضم إليه أخاه من أبيه وأمه بنيامين، وأنزله معه، عن الحسن، وقتادة. وقيل: إنهم لما دخلوا عليه قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فقال: أحسنتم. ثم أنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم، وقال: ليجلس كل بني أم على مائدة، فجلسوا، فبقي بنيامين قائماً فرداً، فقال له يوسف: مالك لا تجلس؟ قال: إنك قلت: ليجلس كل بني أم على مائدة، وليس لي فيهم ابن أم، فقال يوسف: أفما كان لك ابن أم؟ قال: بلى، قال يوسف: فما فعل؟ قال: زعم هؤلاء أن الذئب أكله، قال: فما بلغ من حزنك عليه؟ قال: ولد لي أحد عشر ابناً كلهم اشتقت له اسماً من اسمه، فقال له يوسف: أراك قد عانقت النساء وشممت الولد من بعده، قال بنيامين: إن لي أباً صالحاً وقد قال لي: تزوج لعل الله يخرج منك ذرية تثقل الأرض بالتسييح، فقال له يوسف: تعال فاجلس معي على مائدتي، فقال أخوة يوسف: لقد فضل الله يوسف وأخاه حتى إن الملك قد أجلسه معه على مائدته. روي ذلك عن الصادق عليه السلام. ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ أي: أطلعه على أنه أخوه. وقيل: إنه قال: أنا أخوك مكان أخيك الهالك، ولم يعترف له بالنسبة، ولم يطلعه على أنه أخوه، ولكنه أراد أن يطيب نفسه. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: فلا تسكن ولا تحزن لشيء سلف من إختوك إليك، عن وهب، والشعبي.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: فلما أعطاهم ما جاؤوا لطلبه من الميرة، وكال لهم الطعام الذي جاؤوا لأجله، وجعل لكل منهم حمل بغير، ويسمى حمل التاجر جهازاً ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ معناه: أمر حتى جعل الصاع في متاع أخيه، وإنما أضاف الله تعالى ذلك إليه لوقوعه بأمره. وقيل: إن السقاية هي المشربة التي كان يشرب منها الملك، ثم جعل صاعاً في السنين الشداد القحاط يكال به الطعام. وقيل: كان من ذهب، عن ابن زيد. وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: كان من فضة وذهب، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: كان من فضة مرصعة بالجواهر، عن عكرمة. ثم ارتحلوا وانطلقوا ﴿ثُمَّ أَدْنَى أَعْيُنُهُمْ﴾ أي: نادى مناد مسمعاً معلماً ﴿إِنَّهَا أَلْعَبْرُ﴾ أي: القافلة، والتقدير: يا أهل العير! وقيل: كانت القافلة من الحمير، عن مجاهد ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ قيل: إنما قال ذلك بعض من فقد الصاع من قوم يوسف من غير أمره، ولم يعلم بما أمر به يوسف من جعل الصاع في رحالهم، عن الجبائي. وقيل: إن يوسف أمر المنادي بأن ينادي به، ولم يرد به سرقة الصاع، وإنما عني به أنكم سرقتم يوسف عن أبيه وألقيتموه في الجب، عن أبي مسلم. وقيل: إن الكلام يجوز أن يكون خارجاً مخرج الاستفهام، كأنه قال: أنتم لسارقون؟ فأسقط همزة الاستفهام، كما في قول الشاعر:

كَذَبْتُكَ عَيْنُكَ، أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامُ مِنَ الرَّبَابِ خِيَالاً^(١)

ويؤيده ما روى هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ما سرقوا ولا كذب.

(١) قائله الأخطل. والواسط: بلد بالعراق. والغلس: ظلمة آخر الليل. والرباب كسحاب: اسم امرأة.

سورة يوسف

ومتى قيل: كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يحزن والده وإخوته بهذا الصنيع، ويجعلهم متهمين بالسرقة؟

فالجواب: أن الغرض فيه التسبب إلى احتباس أخيه عنده، ويجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى، وروي أنه أعلم أخاه بذلك ليجعله طريقاً إلى التمسك به، وإذا كان إدخال هذا الحزن سبباً مؤدياً إلى إزالة غموم كثيرة عن الجميع، ولا شك أنه يتعلق به المصلحة، فقد ثبت جوازه، فأما التعريض للتهمة بالسرقة فغير صحيح، لأن وجود السقاية في رحله يحتمل أموراً كثيرة غير السرقة، فعلى هذا من حمله على السرقة مع علمه بأنهم أولاد الأنبياء توجهت اللائمة عليه.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال أصحاب العير ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على أصحاب يوسف ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي: ما الذي فقدتموه من متاعكم؟ ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي: صاعه وسقايته ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حُمِلَ بِهِ﴾ أي: وقال المنادي: من جاء بالصاع فله حمل بعير من الطعام ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل ضامن.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال إخوة يوسف ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أيها القوم ﴿مَا جِئْنَا لِنُقْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ قط، وإنما أضافوا العلم إليهم بذلك مع أنهم لم يعلموه، لأن معنى هذا القول: أنكم قد ظهر لكم من حسن سيرتنا، ومعاملتنا معكم مرة بعد أخرى، ما تعلمون به أنه ليس من شأننا السرقة. وقيل: إنهم قالوا ذلك لأنهم ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم. مخافة أن يكون قد وضع ذلك بغير إذن يوسف، أي: فإذا كنا تخرجنا عن هذا، فقد علمتم أنا لا نسرق، لأن من رد ما وجد لا يكون سارقاً، عن الكلبي. وقيل: إنهم لما دخلوا مصر وجدوهم قد شدوا أفواه دوابهم كي لا تتناول الحرت والزرع، وفي هذا دلالة على أن ما فعله إخوة يوسف به إنما كان في حال الصغر، وعدم كمال العقل، لنفيهم عن أنفسهم الفساد الذي هو ضد الصلاح.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: قال الذين نادوهم: فما جزاء السرقة؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في قولكم إنا لم نسرق وظهرت السرقة؟ وقيل: معناه فما جزاء من سرق؟

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي: قال إخوة يوسف: جزاء السرقة السارق، وهو الإنسان الذي وجد المسروق في رحله، وقد بينا تقديره فيما قبل، ومعناه: أن السنة في بني إسرائيل وعند الملك كان استرقاق السارق، عن الحسن، والسدي، وابن إسحاق، والجبائي. وكان يُسترق سنة. وقيل: كان حكم السارق في آل يعقوب عليه السلام أن يُستخدم ويسترق على قدر سرقة، وفي دين الملك: الضرب والضمان، عن الضحاك. وقيل: إن يوسف سألهم: ما جزاء السارق عندهم؟ فقالوا: أن يؤخذ بسرقة ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: مثل ما ذكرنا من الجزاء نجزي السارقين، يعني: إذا سرق استرق. وقيل: إن ذلك جواب يوسف عليه السلام، لقول إخوته: إن جزاء السارق استرقاقه.

﴿بَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي: بدأ يوسف في التفتيش بأوعيتهم لإزالة التهمة ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ يعني السقاية ﴿مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ وإنما بدأ بأوعيتهم، لأنه لو بدأ بوعاء أخيه لعلوا أنه

هو الذي جعلها فيه، وإنما قال: ﴿أَسْتَخْرِجَهَا﴾ لأنه أراد به السقاية، وحيث قال: ﴿وَلَمَن جَاءَ بِهِ﴾ أراد به الصاع. وقيل: إن الصاع يذكر ويؤنث، قالوا: فأقبلوا على بنيامين وقالوا له: فضحتنا وسودت وجوهنا، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: وضع هذا الصاع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: مثل ذلك الكيد أمرنا يوسف ليكيد بما يتهيأ له أن يحبس أخاه، ليكون ذلك سبباً لوصول خبره إلى أبيه، أي: ألهمنا يوسف هذا الكيد والحيلة، فجازيناهم على كيدهم بيوسف، أي: كما فعلوا في الابتداء فعلنا بهم. وقيل: إن معنى ﴿كَذَبْنَا﴾ صنعنا ليوسف، عن ابن عباس. وقيل: ألهمنا، عن الربيع. وقيل: دبرنا بيوسف، بدلالة قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ على أنه سبحانه علم من صلاح هذا التدبير ما لم يعلمه غيره، عن القتيبي ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ما كان يمكنه أن يأخذ أخاه في حكم الملك وقضائه، وأن يحبسه، إذ لم يكن ذلك من حكم ملك مصر وأهله، عن قتادة. وقيل: ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ في سلطانه، عن ابن عباس. وقيل: في عاداته في جزاء من سرق أن يستعبد. وقيل: إنه كان عادلاً، ولولا هذه الحيلة لما كان يمكنه من أخذ أخيه ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن يجعل ليوسف عذراً فيما فعل. وقيل: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن يأمره بذلك، لأنه كان لا يمكنه أن يقول هذا أخي، وكان لا يمكنه حبسه من غير حيلة، لأنه كان يكون فعله ظلماً، وكان من سنة آل يعقوب عليه السلام أن يسترق، وفي حكم الملك وأهل مصر أن يضرب ويغرم. وحبسه يوسف على قولهم والتزم حكمهم الذي جرى على لسانهم مبالغة في نفي السرقة عن أنفسهم، وكان ذلك مراده، وقد شاء الله لأنه يأمره، عن الحسن.

وإنما سماه كيداً لأنه لولا هذا السبب لم يتهيأ له أخذه، والكيد ما يفعله فاعله ليوصل به إلى غيره ضرراً من حيث لا يعلمه، أو لينال منه شيئاً من غير أن يعلمه ﴿تَرْفَعُ دَرَجَتَيْنِ مَنْ شَاءَ﴾ بالعلم والنبوة، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته. وقيل: بالتقوى، والتوفيق، والعصمة، والألطف الجميلة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يعني: أن كل عالم فإن فوقه عالماً أعلم منه، حتى ينتهي إلى الله تعالى العالم بجميع المعلومات لذاته، فيقف عليه ولا يتعداه، وفي هذا دلالة على بطلان قول من يقول: إن الله سبحانه عالم بعلم قديم، لأنه لو كان كذلك لكان فوقه عليم على ما يقتضيه الظاهر.



قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾
 ﴿قَالُوا يَتَّيْنُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ

عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيَ
أَيُّ أَوْ يَخُكُمُ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ .

● **اللغة:** اليأس: قطع الطمع من الأمر، يقال: يئس يئاس، وأيس يأيس لغة، واستفعل
مثل استيأس واستأيس. وروى أبو ربيعة، عن البزي، عن ابن كثير استيأسوا منه، واستيأس
الرسل، ويئس واستيأس بمعنى، مثل: سخر واستسخر، وعجب واستعجب. والنَّجِي: القوم
يتناجون، الواحد والجمع فيه سواء، قال سبحانه: ﴿وَقَرَّبْتُهُ نَجِيًّا﴾ وإنما جاز ذلك لأنه مصدر
وصف به، والمناجاة: المسارة، وأصله من النَّجْوَة، وهو المرتفع من الأرض، فإنه رفع السر
من كل واحد إلى صاحبه في خفية، والنجوى يكون اسماً ومصدراً، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ هُمْ
بِنَجْوَى﴾ أي: يتناجون، وقال في المصدر: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وجمع النجي أنجبة، قال:
(إنني إذا ما القوم كانوا أنجية)^(١)

وبرح الرجل براحاً: إذا تنحى عن موضعه.

● **الإعراب:** قوله: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ قال الزجاج: هذا إضمار
على شريطة التفسير، لأن قوله تعالى: ﴿أَنْتَ سَرٌّ مَكَانًا﴾ بدل من ﴿ها﴾ في ﴿فَأَسْرَهَا﴾
والمعنى: فأسرها يوسف في نفسه. قوله: ﴿أَنْتَ سَرٌّ مَكَانًا﴾ قال أبو علي: إن الإضمار على
شريطة التفسير يكون على ضربين:
أحدهما: أن يفسر بمفرد نحو: نعم رجلاً زيد، فقولك رجلاً تفسير للرجل الذي هو فاعل
«نعم» وقد أضمر.

والآخر: أن يفسر بجمله، وأصل هذا يقع في الابتداء، كقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ
الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ المعنى: القصة أبصار الذين كفروا شاخصة، والأمر الله
أحد، ثم تدخل عوامل المبتدأ عليه نحو: كان وأخواتها، وإن وأخواتها، فينتقل هذا الضمير من
الابتداء بها كما ينتقل سائر المبتدآت، كقوله: ﴿إِنَّمَا مِنْ يَأْتِ رِيًّا مُجْرِمًا﴾، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ﴾
وقول الشاعر:

وليسَ مِنهَا شِفَاءُ الدَّاءِ مَبْدُولُ

والذي ذهب أبو إسحاق فيه إلى أنه مضمَر على شريطة التفسير ليس بمبتدأ، فيلزمه التفسير
بالجمله، ألا ترى أنها فضلة مذكورة بعد فعل وفاعل، وهو قوله: ﴿أَسْرَ﴾ فإذا كان مبيناً لما
أصله المبتدأ لم يجز أن يفسر تفسيره، وأيضاً فإن المضمَر على شريطة التفسير لا يكون إلا متعلقاً
بالجمله التي يفسرها، ولا يكون منقطعاً عنها، ولا متعلقاً بجمله غيرها، وما ذكره أبو إسحاق
فالتفسير فيه منفصل عن الجمله التي فيها الضمير، الذي زعم أنه إضمار على شريطة التفسير،
فخرج بذلك عما يكون عليه الإضمار قبل التفسير.

(١) قاله سحيم بن وثيل البربوعي، وبعده: «واضطرب القوم اضطراب الأرشية. هناك أوصيني ولا توصي بيه» وقد مر
أيضاً. قيل: إنما ضربه مثلاً لنزول الأمر المهم.

فإن قلت: فعلام تحمل الضمير في ﴿فَأَسْرَهَا﴾؟ قلنا: يحتمل أن يكون إضماراً للإجابة، كأنهم لما قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أسر يوسف إجابته في نفسه ولم يدها لهم في الحال، وجاز إضمار ذلك لأنه دل ما تقدم من مقالاتهم عليه، وجاز أن يكون إضماراً للمقالة، كأنه أسر يوسف مقالاتهم، لأن القول والمقالة واحد، ويكون معنى المقالة المقول، كما أن الخلق عبارة عن المخلوق، أي: أكتفها في نفسه وأوعاها ولم يطرحها إرادة للتوبيخ عليها والمجازاة بها. انتهى تلخيص كلام أبي علي.

وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ صفة الأب. والكبير صفة الشيخ. و﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، والعرب تقول: معاذ الله، ومعاذة الله، وعودنا الله، وعودة الله، وعياذ الله، ويقولون: اللهم عائدأ بك، أي: أدعوك عائذاً بك، و﴿أَنْ نَأْخُذَ﴾ في موضع نصب، والمعنى: أعوذ بالله من أخذ أحد إلا من وجدنا متاعنا عنده. فلما سقطت «من» أفضى الفعل فنصب، عن الزجاج. وقوله: ﴿إِنَّا إِذَا أَطْلَلْنَاهُ﴾ فيه معنى الجزاء، أي: إن أخذنا غيره فنحن ظالمون. و﴿يَمِينًا﴾ نصب على الحال، وما في قوله: ﴿مَا قَرَّرْتُهُ﴾ لغو، أي: ومن قبل فرطتم. ويجوز أن تكون مصدرية في موضع رفع بمعنى: تفريطكم واقع من قبل، فيكون ما فرطتم في يوسف في موضع رفع بالابتداء، ومن قبل خبره، ويجوز أن يكون في موضع نصب عطفاً على «أَنْ» فيكون المعنى: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم ميثاقاً، وتفريطكم في يوسف، و﴿يَحْكُمُ﴾ عطف على ﴿يَأْذَنُ﴾ ويجوز أن يكون بمعنى ﴿إِلَّا أَنْ﴾ أي: لن أبرح الأرض إلا أن يحكم الله لي.

● المعنى: ثم أخبر سبحانه عن إخوة يوسف أنهم ﴿قَالُوا﴾ ليوسف ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ من أمه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فليست سرقة بامر بديع، فإنه اقتدى بأخيه يوسف. واختلف فيما وصفوه به من السرقة على أقوال:

ف قيل: إن عمه يوسف كانت تحضنه بعد وفاة أمه، وتحبه حباً شديداً، فلما ترعرع أراد يعقوب ﷺ أن يسترده منها، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت عندها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فاحتالت وجاءت بالمنطقة وشدتها على وسط يوسف وادعت أنه سرقها، وكان من سنتهم استرقاق السارق فحبسته بذلك السبب عندها، عن ابن عباس، والضحاك، والجبائي. وقد روي ذلك عن أئمتنا ﷺ.

وقيل: إنه سرق صنماً لجده من قبل أمه، فكسره وألقاه على الطريق، عن سعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد.

وقيل: إنه سرق دجاجة كانت في بيت يعقوب ﷺ أو بيضة، فأعطاه سائلاً فعيروه بها، عن سفيان بن عيينة، ومجاهد.

﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ أي: فأخفى يوسف تلك الكلمة التي قالوها ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: لم يظهرها ﴿قَالَ أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا﴾ في السرقة، لأنكم سرقتم أحاكم من أبيكم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: والله أعلم: أسرق أخ له أم لا؟، عن الزجاج. ويكون المعنى: أنتم أسوأ حالاً من يوسف، فإنه لم يكن له صنيع في المنطقة، وكان يتصدق بإذن أبيه، ولم تكونوا براء مما عاملتموه به.

سورة يوسف

وقيل: معناه أنتم شر صنيعاً بما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم، وعقوق أبيكم، فأنتم شر مكاناً عند الله منه، أي: أسر هذه المقالة في نفسه، ثم جهر بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

قال الحسن: لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت، وإنما أعطوا النبوة بعد ذلك، والصحيح عندنا أنهم لم يكونوا أنبياء، لأن النبي عندنا لا يجوز أن يقع منه فعل القبيح أصلاً. وقال البلخي: إنهم كذبوا في هذا القول، ولم يصح أنهم كانوا أنبياء، وجوز أن يكون الأسباب غيرهم، أو أن يكونوا من أولادهم.

﴿قَالُوا يَتَّخِذُ الْغَيْرُ إِنَّا لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أي: بدلاً عنه، إنما قالوا هذا لما علموا أنه استحققه، فسألوه أن يأخذ عنه بدلاً، شفقة على والدهم، ورددوا في القول على وجه الاسترحام، ومعناه: كبيراً في السن. وقيل: كبيراً في القدر لا يحبس ابن مثله. ﴿إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى الناس، وقيل: من المحسنين إلينا في الكيل ورد البضاعة وفي الضيافة، ونحن نأمل هذا منك لإحسانك إلينا. وقيل: إن فعلت هذا فقد أحسنت إلينا. فأجابهم يوسف بأن ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ أي: أعوذ بالله أن أخذ البريء بجرم السقيم، وقال: ﴿مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ ولم يقل: من سرق، تحرزاً من الكذب. ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوكَ﴾ أي: لو فعلنا ذلك لكنا ظالمين. وفي هذا دلالة على أن أخذ البريء بالمجرم ظلم، ومن فعله كان ظالماً، والله يتعالى ويجل عن ذلك علواً كبيراً.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ أي: فلما يئس إخوة يوسف من يوسف ﷺ أن يجيبهم إلى ما سألوه، من تخلية سبيل بنيامين معهم ﴿خَلَصُوا يَحْيَى﴾ أي: انفردوا عن الناس من غير أن يكون معهم من ليس منهم، يتناجون فيما يعملون في ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيه، ويتدبرون في أنهم: يرجعون أم يقيمون؟ وتلخيصه: اعتزلوا عن الناس متناجين، وهذا من ألفاظ القرآن التي هي في الغاية القصوى من الفصاحة والإيجاز في اللفظ مع كثرة المعنى ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو روبين، وكان أسنهم، وهو ابن خالة يوسف، وهو الذي نهى إخوته عن قتله، عن قتادة، والسدي، والضحاك، وكعب. وقيل: شمعون، وهو كبيرهم في العقل والعلم لا في السن، كان رئيسهم، عن مجاهد. وقيل: يهوذا، وكان أعقلهم، عن وهب، والكلبي. وقيل: لاوي، عن محمد بن إسحاق، وعن علي بن إبراهيم بن هاشم ﴿أَلَمْ نَعْلَمْوْا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أراد به الوثيقة التي طلبها منهم يعقوب ﷺ، حين قال: ﴿لَنْ أُرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ﴾ فذكرهم ذلك ﴿وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي: قصرتم في أمره، وكنتم قد عاهدتم أباكم أن تردوه إليه سالماً فنقضتم العهد. ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لا أزال بهذه الأرض، ولا أزل عنها، وهي أرض مصر، ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي﴾ في البراح والرجوع إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالخروج وترك أخي ها هنا. وقيل: بالموت. وقيل: بما يكون عذراً لنا عند أبينا، عن أبي مسلم. وقيل: بالسيف حتى أحارب من حبس أخي، عن الجبائي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لا يحكم إلا بالحق، قالوا: إنه قال لهم: أنا أكون ها هنا واحملوا أنتم الطعام إليهم فأخبروهم بالواقعة.

قوله تعالى: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١) وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يُوسُفَ وَأَيُّضْتُ عَبْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَيٍّ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنَئُ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ زَوْجِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ زَوْجِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ .

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن عباس: «سُرِقَ» بضم السين وتشديد الراء وكسرهما. وقراءة الحسن، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز: «من رُوح الله» بضم الراء.

● **الحجة:** معنى «سُرِقَ» بضم السين: نسب إلى السرقة، فيكون من باب فسَّقه وفجَّره وشجَّعه، إذا نسبه إلى هذه الخلال. وأما «رُوح الله» فيمكن أن يكون من الرُوح الذي هو من عند الله ويلطفه وهدايته ونعمته.

● **اللغة:** القرية: الأرض الجامعة لمساكن كثيرة، وأصله من القرى، وهو الجمع، يقال: قرية الماء في الحوض، ونظيره: البلدة والمدينة. والعير: قد مضى ذكر معناه. والكظم: اجتراح الحزن، وهو أن يمسكه في قلبه، ولا يبيته إلى غيره، ويقال: ما زلت أفعل كذا، وما فتئت أفعله، أفْتَأْتُ. قال أوس بن حجر يصف حرباً:

فَمَا فَتَأْتُ حَيْلُ تَثُوبٍ وَتَدْعِي وَيَلْحَقُ مِنْهَا لَاحِقٌ وَتَقَطُّعُ^(١)

والحرض: المشرف على الهلاك، يقال: رجل حرض وحارض، أي: فاسد في جسمه وعقله، ومنه: حرَّضته على كذا: أمرته به، لأنه إذا خالف الأمر فكأنه هلك، وأحرضه: أي: أفسده، قال العرجي:

إِنِّي امْرَأٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فَأَخْرَضَنِي حَتَّى بَلَيْتُ، وَحَتَّى شَقْنِي السَّقَمُ^(٢)

والحرض: لا يشئ ولا يجمع، لأنه مصدر. والشكوى: صفة ما عنده من البلوى، يقال: شكوته إلى فلان شكوى وشكاية وشكواء فأشكاني، أي: أعتبني من شكواي، وأشكاني أيضاً: أخرجني إلى الشكوى. والبث: الهمُّ الذي لا يقدر صاحبه على كتمانها فيبثه، أي: يفرقه، وكل

(١) ثاب ثوباً. رجع بعد ذهابه. وثاب الناس: اجتمعوا.

(٢) لج به الهم ونحوه: ألح عليه. وبلت: من البلى. وشفه المرض والهم: أوهنه.

سورة يوسف

شيء فرقة فقد بثته، ومنه قوله: ﴿وَبَيَّنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتٍ﴾. والتحسس: طلب الشيء بالحاسة، والتجسس نظيره، وفي الحديث: «لا تحسسوا ولا تجسسوا» وقيل: إن معناهما واحد، ونسق أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظين، كقول الشاعر:

متى أذن منه ينأ عني ويبعد

وقيل: التجسس بالجيم: البحث عن عورات الناس، وبالحاء الاستماع لحديث قوم. وسئل ابن عباس عن الفرق بينهما، قال: لا يبعد أحدهما عن الآخر، التحسس في الخير، والتجسس في الشر. والروح: الراحة، والروح: الرحمة، وأصل الباب: من الريح التي تأتي بالرحمة.

● الإعراب: ﴿وَسَلَّى الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية وأهل العير، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. ﴿يَتَأَسَّفُ﴾ معناه: يا حسرتي، والأصل: يا أسفي، إلا أن ياء الإضافة يجوز أن يبدل ألفاً لخفة الألف والفتحة، ويجوز أن يكون ألف الندبة ويكون معناه: البيان أن الحال حال حزن، فكأنه قال: يا أسف، هذا من أوانك. وقوله: ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ من صلة المصدر. تفتأ: معناه لا تفتأ، حذف حرف النفي لعلم السامع به، كما في قول امرئ القيس:

فقلت: يمين الله، أبرح قاعداً ولو ضربوا رأسي لذيك وأوصالي^(١)

وإنما جاز ذلك، لأنه لا يجوز في القسم: تالله تفعل، حتى تقول: تالله لتفعلن، أو تقول: لا تفعل.

● المعنى: ثم أخبر سبحانه أنه قال لهم كبيرهم في السن أو في العلم: ﴿ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يٰأَبَايَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ في الظاهر ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عندك بهذا ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ أي: بما شهدنا من أن الصاع استخرج من رحله في الظاهر، وبين بهذا أنهم لم يكونوا قاطعين على أنه سرق. وقيل: معناه ما شهدنا عند يوسف أن السارق يُسْتَرَقُّ إلا بما علمنا أن الحكم ذلك، ولم نعلم أن ابنك سرق أم لا، إلا أنه وجد الصاع عنده فتحكم بأنه السارق في الظاهر، وإنما قالوا ذلك، حين قال يعقوب عليه السلام لهم: ما يدري الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة ويسترق؟ وإنما علم ذلك بقولكم. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: إنا لم نعلم الغيب حين سألناك أن تبعث بنيامين معنا، ولم ندر أن أمره يؤول إلى هذا، وإنما قصدنا به الخير، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به، عن مجاهد، وقتادة، والحسن. وقال علي بن عيسى: علم الغيب: هو علم من لو شاهد الشيء لشاهده بنفسه لا بأمر يستفيدة، والعالم بهذا المعنى هو الله وحده جل اسمه. وقيل: معناه ما كنا لسر هذا الأمر حافظين وبه عالمين، فلا ندري: أنه سرق أم كذبوا عليه، وإنما أخبرناك بما شاهدنا، عن عكرمة. وقيل: معناه ما كنا لغيب ابنك حافظين، أي: إنا كنا نحفظه في محضره، وإذا غاب عنا ذهب عن حفظنا، يعنون: أنه سرق ليلاً وهم نيام،

(١) يمين الله: يجوز فيه الرفع والنصب. أما الرفع فعلى أنه مبتدأ حذف خبره وجوباً أي: يمين الله قسمي، أو على يمين الله وأما النصب فعلى أحد وجهين: الأول: إن الأصل يميني الله، فحذف حرف القسم. والثاني: إنه منصوب على المفعولية المطلقة، نحو سبحانه الله. والشاهد في (أبرح) فإن معناه لا أبرح.

والغيب: هو الليل بلغة حمير، عن ابن عباس. قال: أي: إنا لم نعلم ما كان يصنع في ليله ونهاره ومجيئه وذهابه.

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية ﴿الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ والقرية: مصر، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة. ومعناه: سل من شئت من أهل مصر عن هذا الأمر، فإن هذا أمر شائع فيهم يخبرك به من سألته، وإنما قالوا ذلك، لأن بعض أهلها كانوا قد صاروا إلى الناحية التي كان فيها أبوه، والعرب تسمي الأمصار والمدائن قرى. ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: وأسأل أهل القافلة التي قدمنا فيها، وكانوا من أرض كنعان من جيران يعقوب، وإنما حذف المضاف للإيجاز، ولأن المعنى مفهوم. وقيل: إنه ليس في الكلام حذف، لأن يعقوب عليه السلام نبي صاحب معجز، يجوز أن تكلمه القرية والعير على وجه خرق العادة، وإنما قالوا ذلك، لأنهم كانوا أهل تهمة عند يعقوب ﴿وَرِئَا لَصَدِيقُونَ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ههنا حذف كثير يدل الحال عليه، تقديره: فلما رجعوا إلى أبيهم، وقصوا عليه القصة بطولها، قال لهم: ما عندي أن الأمر على ما تقولونه، بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فيما أظن ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمرى صبر جميل لا جزع معه ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي: عسى الله أن يأتيني بيوسف وبنيامين وروبيل أو شمعون أو لاوي أو يهوذا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بعباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ في تدبير الخلق ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: انصرف وأعرض عنهم بشدة الحزن، لما بلغه خبر حبس بنيامين، وهاج ذلك وجده يوسف، لأنه كان يتسلى به ﴿وَقَالَ يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ أي: يا طول حزني على يوسف، عن ابن عباس. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم يُعْطِ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُمْ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ولو أعطيتها الأنبياء لأعطيتها يعقوب عليه السلام، إذ يقول: يا أسفى على يوسف ﴿وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ والبكاء، ولما كان البكاء من أجل الحزن، أضاف بياض البصر إليه. وسئل الصادق عليه السلام: ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف؟ قال: حزن سبعين حَرْى ثكلى. قيل: كيف وقد أخبر أنه يُرَدُّ عليه؟ فقال: أنسى ذلك. وقيل: إنه عمي ست سنين، عن مقاتل. وقيل: إنه أشرف على العمى، فكان لا يرى إلا شيئاً يسيراً ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ والكظيم ههنا: بمعنى الكاظم، وهو المملوء من الهم والحزن، الممسك للغيظ، لا يشكوه لأهل زمانه، ولا يظهره بلسانه، ولذلك لُقِّبَ موسى بن جعفر عليه السلام: الكاظم، لكثرة ما كان يتجرع من الغيظ والغم، طول أيام خلافته لأبيه في ذات الله تعالى. وقال ابن عباس: هو المغموم المكروب.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال ولد يعقوب لأبيهم ﴿تَاللَّهِ تَفَتْنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: ذنفاً فاسد العقل، عن ابن عباس، وابن إسحاق. وقيل: قريباً من الموت، عن مجاهد. وقيل: هراً بالياً، عن قتادة والضحاك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي: الميتين، وإنما قالوا ذلك إشفافاً عليه وتعطفاً ورحمة له. وقيل: إنهم قالوا ذلك تبرماً ببيكائه، إذ تنغص عيشهم بذلك.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام في جوابهم ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ أي: همي، عن ابن عباس. وقيل:

سورة يوسف

حاجتي، عن الحسن ﴿وَحَزَنَ إِلَى اللَّهِ﴾ المعنى: إني أشكو حزني وحاجتي، واختلال حالتي وانتشارها إلى الله في ظلم الليالي وأوقات خلواتي لا إليكم. وقيل: البث: ما أبداه، والحزن: ما أخفاه. وروي عن النبي ﷺ أن جبرائيل أتاه فقال: يا يعقوب! إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر وليفرح قلبك. فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك. اصنع طعاماً للمساكين، فإن أحب عبادي إليّ المساكين. أو تدري: لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك؟ لأنكم ذبحتم شاة، وأتاكم مسكين وهو صائم فلم تطعموه شيئاً. فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغذاء أمر منادياً ينادي: ألا من أراد الغذاء من المساكين فليتغذّ مع يعقوب وإذا كان صائماً أمر منادياً فنادي: ألا من كان صائماً فليفطر مع يعقوب. رواه الحاكم أبو عبد الله الحافظ في صحيحه. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأعلم صدق رؤيا يوسف، وأعلم أنه حي وأنكم ستسجدون له كما اقتضاه رؤياه، عن ابن عباس. وقيل: وأعلم من رحمة الله وقدرته ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، عن عطاء. وفي كتاب النبوة بالإسناد، عن سدير الصيرفي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: إن يعقوب دعا الله سبحانه في أن يهبط عليه ملك الموت، فأجابه، فقال: ما حاجتك؟ قال: أخبرني، هل مرّ بك روح يوسف في الأرواح؟ فقال: لا، فعلم أنه حي، فقال:

﴿يَبْنَئُ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين. وقيل: إنهم لما أخبروه بسيرة الملك، قال: لعله يوسف، عن السدي. فلذلك قال: ﴿يَبْنَئُ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين، أي: استخبروا من شأنهما، واطلبوا خبرهما، وانظروا أن ملك مصر، ما اسمه؟ وعلى أي دين هو؟ فإنه ألقى في روعي أن الذي حبس بنيامين هو يوسف، وإنما طلبه منكم وجعل الصاع في رحله احتيالا في حبس أخيه عند نفسه ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي: لا تقنطوا من رحمته، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وقيل: من الفرج من قبل الله، عن ابن زيد. والمعنى: لا تيأسوا من الروح الذي يأتي به الله ﴿إِنَّكُمْ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال ابن عباس: يريد إن المؤمن من الله على خير: يرجوه في الشدائد والبلاء، ويشكره ويحمده في الرخاء، والكافر ليس كذلك، وفي هذا دلالة على أن الفاسق الملي لا يأس عليه من رحمة الله، بخلاف ما يقوله أهل الوعيد.

سؤال: كيف خفي أخبار يوسف على يعقوب في المدة الطويلة، مع قرب المسافة؟ وكيف لم يعلمه يوسف بخبره لتسكن نفسه ويزول وجده؟.

الجواب: قال الجبائي: العلة في ذلك أنه حمل إلى مصر، فبيع من عزيز، فألزمه داره، ثم لبث في السجن بضع سنين فانقطعت أخبار الناس عنه، فلما تمكن احتال في إيصال خبره بأبيه على الوجه الذي أمكنه، وكان لا يأمن لو بعث رسولا إليه ألا يمكنه إخوته من الوصول إليه. وقال المرتضى، قدس الله روحه، يجوز أن يكون ذلك له ممكناً، وكان عليه قادراً، لكن الله سبحانه أوحى إليه بأن يعدل عن إطلاعه على خبره، تشديداً للمحنة عليه، والله سبحانه أن يصعب التكليف وأن يسهله.



قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَآيَأُ الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَعَنَّا لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر، وابن كثير: ﴿أَوْنَكُ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ بكسر الهمزة. وقرأ نافع، ويعقوب، غير زيد، وسهل: ﴿أَنَّكَ﴾ بفتح الهمزة غير ممدود. وقرأ أبو عمرو، وقالون، عن نافع، وزيد، عن يعقوب: ﴿آنكَ﴾ بالمد. وقرأ الباقون: ﴿آنكَ﴾ بهمزتين. وفي الشواذ قراءة أبي: ﴿إنك أو أنت يوسف﴾. وقرأ ابن كثير وحده: ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ بياء في الوصل والوقف، والباقون بغير ياء فيهما.

● **الحجة:** يدل على الاستفهام قوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ وإنما أجابهم عما استفهموا عنه، قال أبو الحسن في قوله «وتلك نعمة تمنها علي»: إنه على الاستفهام كأنه قال: أو تلك نعمة، فيجوز أن يكون من قرأ «إنك» على هذا، فتكون القراءةان متفقتين، وقلما يحذف حرف الاستفهام، فأما في القراءات فإنه يجري على مذهبهم في اجتماع الهمزتين، وقد تقدم القول في ذلك. وأما قراءة أبي: فيكون على حذف خبر إن، كأنه قال: أنك لغير يوسف أو أنت يوسف؟ قال ابن جني: فكأنه قال: بل أنت يوسف، فلما خرج مخرج التوقف قال: أنا يوسف، وقد جاء عنهم حذف خبر إن، قال الأعشى:

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنْ مُزْتَحَلًّا وَإِنْ فِي السَّفَرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلًا^(١)

أراد: أن لنا محلاً، وإن لنا مرتحلاً.

قال أبو علي: قوله: ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ لا يحمل على نحو قول الشاعر:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تُنْمِي^(٢)

لأن هذا ونحوه إنما يجيء في الشعر، ولكن تجعل ﴿مَنْ﴾ موصولة، فيكون بمنزلة: الذي يتقي. ويحمل المعطوف على المعنى، لأن ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ إذا كان ﴿مَنْ﴾ بمنزلة الذي، بمنزلة الجزء الجازم، بدلالة أن كل واحد منهما يصلح دخول الفاء في جوابه، فإذا اجتمعا في ذلك جاز أن يعطف عليه، كما يعطف على الشرط المجزوم، لكونه بمنزلته فيما ذكرناه، ومثل ذلك قوله:

(١) المهمل: الثاني وعدم العجلة أي: وإن في الذين ماتوا قبلنا إمهالاً لنا.

(٢) قائله قيس بن زهير، وبعده: «بما لاقت لبون بني زياد».

«فَأَصْدَقُّ وَأَكْنَ» حملت «وأكن» على موضع الفاء، ومثله قول من قرأ: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ جزءاً، ويجوز أن تقدر الضمة في قوله: «ويصبر» وتحذفها للاستخفاف، كما يخفف نحو: عضد وسبع، وجاز هذا في حركة الإعراب، كجوازه في حركة البناء، وزعم أبو الحسن: أنه سمع ﴿وَرُسُلَنَا لَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ بإسكان اللام من ﴿وَرُسُلَنَا﴾ ويقوي ذلك قراءة من قرأ ﴿وَيَتَّقُوهُ﴾ ألا ترى أنه جعل تَقَّ بمنزلة كَتَفَ وعَلِمَ فأسكن. فكَذَلِكَ يسكن على هذا ﴿وَيَصْبِرُ﴾.

● **اللغة:** الإجزاء في اللغة: السَّوْقُ والدَّفْعُ قليلاً قليلاً، ومنه قوله: «يزجي سحاباً» قال النابغة:

وهبَّت الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ ذِي أَرْلٍ تَزْجِي مَعَ اللَّيْلِ مِنْ صُرَادِهَا صِرَماً^(١)
وفلان يُزْجِي العيش: أي يدفع بالقليل، ويكتفي به، قال الأعشى:
الواهب المائة الهجانَ وعبدَهَا عوداً يُزْجِي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا^(٢)
أي يدفع. وقال آخر:

وَحَاجَةٌ غَيْرِ مُزْجَاةٍ مِنَ الْحَاجِ

وإنما قيل: ﴿يُضَنَعُوْهُ مُزْنَجَةً﴾ لأنها يسيرة ناقصة، وإنما يجوز ذلك على دفع من أخذها. والمن: النعمة، وأصله القطع، لأنها تقطع المنعم عليه من حال بؤسه. والإيثار: تفضيل أحد الشئتين على الآخر، ونظيره: الاختيار. والاجتناء: ونقيضه: الإيثار عليه، وأصله: من الأثر فإنه يؤثر من له أثر جميل، والأثر: الأخبار، يقال: أثر يَأْثُرُ، والمأثرة: المكزمة، لأنها تؤثر. والخطأ: ضد الثواب، يقال: خَطِئَ الرجل يَخْطِئُ خَطْأً وَخَطْأً فهو خاطيء، وأَخْطَأَ يَخْطِئُ إِخْطَاءً فهو مُخْطِئٌ. قال امرؤ القيس:

يَا لَهْفٍ هَنَدٍ إِذْ خَطِئْتَ كَاهِلَا الْقَاتِلِينَ الْمَلِكَ الْحُلَاحِلَا^(٣)

التثريب: التوبيخ، يقال: ثَرَبَ وأَثْرَبَ وثرَبَ، عن ابن الأعرابي. وقيل: التثريب: اللوم والإفساد والتقير بالذنب، قال أبو عبيدة: وأصله الإفساد، وأنشد:

فَعَفَوْتُ عَنْهُمْ عَفْوً غَيْرَ مُثَرَّبٍ وَتَرَكْتُهُمْ لِعِقَابِ يَوْمِ سَرْمَدٍ

وقال ثعلب: ثَرَبَ وأَثْرَبَ فلان على فلان، أي: عَدَّد عليه ذنوبه. وقال أبو مسلم: هو مأخوذ من التَّرَبُّ: وهو شحم الجوف، فكأنه موضوع للمبالغة في اللوم والتعنيف، والبلوغ بذلك إلى أقصى غاياته.

(١) وفي رواية (معجم البلدان): «تزجي مع الصبح». والصراد جمع الصارد: سحاب بارد ندي، ليس فيه ماء. وصرم جمع الصرمة: القطعة من السحاب.

(٢) البيت في (جامع الشواهد).

(٣) فاعل (خطئ) ضمير يرجع إلى الخيل. وكاهل: بطن من بني أسد شركوا في دم أبيه. والحلاخل: السيد العظيم يريد به أباه وقبل هذا البيت: «والله لا يذهب شيخي باطلاً * حتى أبير مالكا وكاهلا».

● الإعراب: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ استفهام، والمراد به التقرير ﴿مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ﴾ تقديره: أي شيء فعلتم بيوسف، فكان «ما» في موضع نصب، والجملة معلقة بـ ﴿عَلِمْتُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في موضع الجزم بأنه جواب الشرط، وذكر ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ ناب عن الضمير العائد إلى ﴿مَنْ﴾ لأن الالتقاء والصبر في معنى الإحسان، فكانه قال: لا يضيع جزاءه ﴿لَآتَى يُوسُفَ﴾ هذه لام الابتداء و «أنت» مبتدأ، و «يوسف» خبره، والجملة خبر «إن» ويجوز أن يكون «أنت» فصلاً، كما علمت فيما تقدم. وقوله: ﴿لَا تُثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ تثريب: نكرة مفردة مبنية مع «لا» على الفتح، ولا يجوز أن يتعلق ﴿عَلَيْكُمْ﴾ به، إذ لو كان كذلك لكان مشتبهاً بالمضاف، من حيث يكون عاملاً فيما بعده، ويكون ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من تمامه، وكان يجب أن يكون منصوباً منوناً، كما تقول: لا مروراً بزيد عندك، وإذا عرفت هذا فإن ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ههنا فيه وجهان: أحدهما: أن يكون في موضع الخبر، على تقدير: لا تثريب يثبت عليكم، أو ثابت عليكم، ثم حذف ذلك وانتقل الضمير منه إلى عليكم، حيث سد مسده.

والآخر: أن يتعلق بمضمر، ذلك المضمر وصف لتثريب، وعلى هذا فيجوز فيه وجهان: أحدهما: أن يكون في محل رفع، تقديره: لا تثريب ثابت عليكم، كما تقول: لا رجل ظريف.

والآخر: أن يكون في محل نصب، تقديره: لا تثريب ثابتاً عليكم، كما تقول: لا رجل ظريفاً، ثم حذفت الصفة، وقام الظرف مقامه، ويكون ﴿الْيَوْمَ﴾ على هذا الوجه خبر «لا» وعلى الوجه الأول، يجوز أن يكون خبر بعد خبر، ويجوز أن يكون متعلقاً بالضمير الذي في الخبر، ويجوز أن يكون قد تم الكلام عند قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وتعلق ﴿الْيَوْمَ﴾ بما بعده، فيكون تقديره: اليوم يغفر الله لكم، وهذا اختيار الأخفش، وهكذا الكلام في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

● المعنى: ولما قال يعقوب عليه السلام لبنيه اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه خرجوا إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي: أصابنا ومن يختص بنا الجوع والحاجة والشدة، من السنين الشداد القحاط. وقيل: إنهم شكوا ما نالهم من هلاك مواشيهم، والبلاء الذي أصابهم ﴿وَجَحْنَا بِصَنَعِهِ مُزْجَلَةً﴾ أي: ندافع بها الأيام ونتقوتها، وليست مما يتسع به. وقيل: رديئة لا تؤخذ إلا بوكس^(١)، عن ابن عباس، والجبائي. وقيل: قليلة، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وأبي مسلم. واختلف في تلك البضاعة:

فقيل: كانت دراهم رديئة زيوفاً لا تنفق في ثمن الطعام، عن عكرمة، عن ابن عباس.

وقيل: كانت خلق الغرارة والحبل ورث المتاع، عن ابن أبي مليكة عنه.

وقيل: كانت متاع الأعراب الصوف والسمن، عن عبد الله بن الحرث.

وقيل: الصنوبر والحبة الخضراء، عن الكلبي، ومقاتل.

وقيل: دراهم فسول^(١)، عن سعيد بن جبير. وقيل: كانت أقطاً، عن الحسن.

وقيل: النعال والأدم، عن الضحاك. وعنه أيضاً: أنها سوق المقل.

﴿فَأَوْفَىٰ لَنَا الْكَيْلَ﴾ كما كنت توفي في السنين الماضية، ولا تنظر إلى قلة بضاعتنا في هذه السنة ﴿وَوَصَّدَقَ عَلَيْنَا﴾ أي: سامحنا بما بين النقيدين، وسعّر لنا بالردء كما تسعر بالجيد.

وقيل: معناه تصدق علينا برد أخينا، عن ابن جريج، والضحاك. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: يثيبهم على صدقاتهم بأفضل منها، وفي كتاب النبوة بالإسناد، عن الحسن بن محبوب، عن أبي إسماعيل الفراء، عن طربال، عن أبي عبد الله عليه السلام في خبر طويل، أن يعقوب كتب إلى يوسف:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى عزيز مصر، ومظهر العدل، وموفي الكيل، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، صاحب ثمرود الذي جمع له النار ليحرقه بها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً وأنجاه منها، أخبرك، أيها العزيز، إنا أهل بيت لم يزل البلاء إلينا سريعاً من الله، ليلبونا عند السراء والضراء، وأن المصائب تتابعت عليّ عشرين سنة، أولها: أنه كان لي ابن سميت: يوسف، وكان سروري من بين ولدي، وقرة عيني وثمره فؤادي، وأن إخوته من غير أمه سألوني أن أبعثه معهم يرتع ويلعب، فبعثته معهم بكرة، فجاؤوني عشاء يكون، وجاؤوا على قميصه بدم كذب، وزعموا أن الذئب أكله، فاشتد لفقده حزني، وكثر عن فراقه بكائي، حتى ابيضت عينا من الحزن.

وأنه كان له أخ وكنت به معجباً، وكان لي أنيساً، وكنت إذا ذكرت يوسف ضممته إلى صدري، فسكن بعض ما أجد في صدري، وأن إخوته ذكروا لي أنك سألتهم عنه، وأمرتهم أن يأتوك به، فإن لم يأتوك به منعته الميرة، فبعثته معهم ليمتاروا لنا قمحاً، فرجعوا إليّ وليس هو معهم، وذكروا أنه سرق مكيال الملك، ونحن أهل بيت لا نسرق، وقد حبسته عني وفجعني به، وقد اشتد لفراقه حزني حتى تقوس لذلك ظهري، وعظمت به مصيبتني مع مصائب تتابعت عليّ، فمُنّ عليّ بتخليه سبيله وإطلاقه من حبسك، وطيب لنا القمح، واسمح لنا في السعر، وأوف لنا الكيل، وعجل سراح آل إبراهيم.

قال: فمضوا بكتابه حتى دخلوا على يوسف عليه السلام في دار الملك، وقالوا: يا أيها العزيز، ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا أَضْرُ﴾ إلى آخر الآية، وتصدق علينا بأخينا بنيامين، وهذا كتاب أبينا يعقوب إليك في أمره، يسألك تخليه سبيله، فمُنّ به علينا، فأخذ يوسف كتاب يعقوب، وقبّله ووضع على عينيه وبكى وانتحب حتى بلت دموعه القميص الذي عليه، ثم أقبل عليهم و﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يَٰيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ومعناه: أنه قال لهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف من إذلاله وإبعاده عن أبيه، وإلقائه في البئر، والاجتماع على قتله، وبيعه بثمان وكس، وما فعلتم بأخيه من إفراده عن يوسف والتفريق بينهما حتى صار ذليلاً فيما بينكم، لا يكلمكم إلا كما يكلم الذليل العزيز؟

(١) الفسل: كل مسترذل رديء.

وإنما لم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم لفراقه، تعظيماً له ورفعاً من قدره، وعلماً أن ذلك كان بلاء له ليزداد به علو الدرجة، ورفعاً المنزلة عند الله تعالى. قال ابن الأنباري: هذا استفهام يعني به تعظيم القصة، ومعناه: ما أعظم ما ارتكبتم، وما أقبح ما أتيتم من قطيعة الرحم وتضييع حقه، كما يقول الرجل: هل تدري مَنْ عصيت؟ وفي هذه الآية مصداق قوله: ﴿لَتَنَتَنِّهَنَّهُمْ بِاتِّرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقوله: ﴿إِذْ أَنْتَ جَاهِلُونَ﴾ أي: صبيان، عن ابن عباس. وقيل: شبان، عن الحسن، ومعناه: فعلتم ذلك حين كنتم جاهلين جاهلية الصبي في عفوان الشباب، حين يغلب على الإنسان الجهل، ولم ينسبهم إلى الجهل في حال الخطاب، لأنهم كانوا تائبين نادمين في تلك الحال، وكان هذا تلقيناً لهم لما يعتذرون به إليه، وهذا هو الغاية في الكرم، إذ صفح عنهم ولقنهم وجه العذر، و ﴿قَالُوا لَوْ أَنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قيل: إن يوسف لما قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ الآية، تبسم، فلما أبصروا ثنياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف.

و ﴿قَالُوا﴾ له ﴿لَوْ أَنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾، عن ابن عباس. وقيل: رفع التاج عن رأسه فعفره ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ أظهر اسم ولم يقل: أنا هو، تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته، فكأنه قال: أنا المظلوم المستحل منه المحرم، المراد قتله، فكفى ظهور الاسم من هذه المعاني، عن ابن الأنباري. قال ولهذا قال: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ لأن قصده وهذا المظلوم كظلمي ﴿قَدْ مَرَّبَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالاجتماع بعد طول الفارقة. وقيل: من الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّكُمْ مَنْ يَتَّقِ﴾ أي: يتق الله ﴿وَيَصِيرَ﴾ على المصائب، وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أجر من كان هذا حاله، والضيايع: ذهاب الشيء من غير عوض ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ أي: أقسموا بالله سبحانه ﴿لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فضلك واختارك الله علينا، بالحلم والعلم والعقل والحسن والملك ﴿وإن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي: ما كنا إلا مخطئين آثمين فيما فعلنا، وهذا يدل على أنهم ندموا على ما فعلوا ولم يصروا عليه.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿لَا تُزَيِّبْ عَلَيْنَا الْيَوْمَ﴾ أي: لا تعبير، ولا توبيح، ولا تقريع عليكم الآن فيما فعلتم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ذنوبكم فإني أستغفر الله لكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ في عفوه عنكم ما تقدم من ذنبكم. وقيل: في صنيعه بي حتى جعلني ملكاً. وقيل: أراد باليوم الزمان فتدخل فيه الأوقات كلها، كما قال الشاعر:

فاليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نشتب من كانوا لنا تبعاً

وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله: ﴿لَا تُزَيِّبْ عَلَيْنَا﴾ ثم ابتدأ بقوله: ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وهو دعاء لهم.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ قيل: إنه ﷺ لما عرفهم نفسه سألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهب عيناه، فقال: اذهبوا بقميصي هذا واطرحوه على وجهه يعد مبصراً كما كان من قبل. قال ابن عباس: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾: يترد بصيراً، ويذهب البياض الذي على عينيه. ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إذا عاد بصيراً، وهذا

كان معجزاً منه، إذا لا يعرف أنه يعود بصيراً باللقاء القميص على وجهه إلا بالوحي. وقيل: إن يوسف قال: إنما يذهب بقميصي من ذهب به أولاً، فقال يهوذا: أنا ذهبت به وهو ملطخ بالدم فأخبرته أنه أكله الذئب، قال: فاذهب بهذا أيضاً وأخبره أنه حي، وأفرحه كما حزنه، فحمل القميص وخرج حافياً حاسراً حتى أتاه، وكان معه سبعة أرغفة وكانت مسافة بينهما ثمانين فرسخاً، فلم يستوف الأرغفة في الطريق، وقد ذكرنا شأن القميص من قبل.

وروى أيضاً الواحدي بإسناده يرفعه إلى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: إن مُرودَّ الجبار لما ألقى إبراهيم في النار، نزل إليه جبرائيل بقميص من الجنة، وطنفسة من الجنة، فألبسه القميص، وأعدده على الطنفسة^(١)، وقعد معه يحدثه، فكسا إبراهيم ذلك القميص إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكساه يعقوب يوسف، فجعله في قسبة من فضة وعلقها في عنقه، فألقي في الجب والقميص في عنقه، فذلك قوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ وقال ابن عباس: أخرج لهم قسبة من فضة كانت في عنقه، لم يعلم بها إخوته، فيها قميص وهو الذي نزل به جبرائيل على إبراهيم، وذكر القصة. وقال مجاهد: أمره جبرائيل أن أرسل إليه قميصك، فإن فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلي ولا سقيم إلا صح وعوفي.



قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِمْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ۖ﴾ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۖ﴾ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ﴾ (٩٦) قَالُوا يَتَابَنَّا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ۖ﴾ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۖ﴾ (٩٨).

● **اللغة:** الفصل: أصله القطع، ومنه قيل للحاكم: فيصل، لأنه يقطع الأمور. والتفنيذ: تضعيف الرأي، قال:

يا صاحبي دعا لومي، وتفنيدي، فليس ما فات من أمرٍ بمرودٍ

والفند: ضعف الرأي. وقيل: إن أصله الفساد، قال النابغة:

إلا سليمان إذ قال المليك له: قم في البرية، فاخذها عن الفند^(٢)

أي: امنعها عن الفساد.

● **المعنى:** ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِمْرُ﴾ أي: لما خرجت القافلة وانفصلت من مصر متوجهة

(١) الطنفسة: البساط.

(٢) هذا البيت من قصيدة له يعتبرها بعض العلماء إحدى (المعلقات) يمدح فيها النعمان بن المنذر وقوله: «ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه * ولا أحاشي من الأقوام من أحد».

نحو الشام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب لأولاد أولاده الذين كانوا عنده ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: وجد يعقوب ريح قميص يوسف، حين فصلت العير من مصر، وهو بفلسطين، من مسيرة عشر ليال، وقيل: من مسيرة ثمان ليال، عن ابن عباس. وقيل: من ثمانين فرسخاً، عن الحسن. وقيل: مسيرة شهر، عن الأصم. قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت بريح قميص يوسف إلى يعقوب، وذكر في القصة: أن الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف، قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذن لها فأتته بها، ولذلك يستروح كل محزون بريح الصبا. وقد أكثر الشعراء من ذكرها، فمن ذلك قولهم:

فإن الصبا ريح إذا ما تنسّمت على نفسٍ مهموم تجلّت همومها
وقول أبي الصخر الهذلي:

إذا قلت هذا حين أسلو، يهيئني نسيم الصبا من حيث يطلّع الفجر

وقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تَفْنَى﴾ معناه: لولا أن تسفهوني، عن ابن عباس، ومجاهد. وقيل: لولا أن تضعفوني في الرأي، عن ابن إسحاق. وقيل: لولا أن تكذبوني. والفند: الكذب، عن سعيد بن جبير، والسدي، والضحاك، وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس. وقيل: لولا أن تهرومي، عن الحسن، وقتادة، أي: تقولون إنه شيخ قد هرم وخرف وذهب عقله، وتقديره: أني أقطع أنها ريح يوسف لولا أن تفندون ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ عَمٍ﴾ أي: قالوا له إشفاقاً عليه وترحمًا: إنك لفي ذهابك القديم عن الصواب في حب يوسف عليه السلام، وإنه كان عندهم أن يوسف قد مات منذ سنين، ولم يريدوا بذلك الضلال عن الدين، وإنما أرادوا به المبالغة في حب يوسف، والأمانى الفاسدة فيما كان يرجو من صعوده بعد موته، عن قتادة، والحسن.

وقيل: معناه إنك لفي شقائق القديم، عن مقاتل. وفي هذا دلالة على أن لفظ القديم قد يطلق في اللغة على المتقدم في الوجود.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو يهوذا، عن ابن عباس، وفي رواية أخرى عنه أنه مالك بن ذغر ﴿أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا﴾ أي: ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب فعاد بصيراً، قال الضحاك: عاد إليه بصره بعد العمى، وقوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم، وسروره بعد الحزن، فقال للبشير: ما أدري ما أثيبك به؟ هو الله عليك سكرات الموت. ﴿قَالَ﴾ يعقوب لهم ﴿الَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إني كنت أعلم أن الله يصدق رؤيا يوسف، ويكشف الشدائد عن أنبيائه بالصبر، وكنتم لا تعلمون ذلك. قال الحسن: كان الله سبحانه أعلمه بحياته، ولم يعلمه بمكانه.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ فيما فعلنا ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إنما لم يستغفر لهم في الحال، لأنه أخرهم إلى سحر ليلة الجمعة، عن ابن عباس، وطاوس. وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: أخرهم إلى وقت السحر، لأنه أقرب إلى إجابة الدعاء، عن ابن مسعود، وإبراهيم التيمي، وابن جريج.

سورة يوسف

وروي أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام . وقيل: إنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، عن وهب. وقيل: إنه كان يقوم ويصُفُّ أولاده خلفه عشرين سنة، يدعو ويؤمنون على دعائه، واستغفاره لهم حتى نزل قبول توبتهم، وروي أن جبرائيل عليه السلام علم يعقوب عليه السلام هذا الدعاء: يا رجاء المؤمنين! لا تخيب رجائي. ويا غوث المؤمنين! أغثني. ويا عون المؤمنين! أعثني. ويا حبيب التوابين! تب علي، واستجب لهم.



قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْتَئِثَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

● الإعراب: دخول ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ الْمُلْكِ﴾ و ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ جائز أن يكون للتبعض، فيكون المراد: آتيتني بعض الملك، وعلمتني بعض تأويل الأحاديث، وجائز أن يكون لتبيين هذا الجنس من سائر الأجناس، فيكون المعنى: آتيتني الملك، وعلمتني التأويل، عن الزجاج. قال: وقوله: ﴿تَوَفَّنِي الْمُلْكَ مِنْ شَأْنٍ وَنَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ يدل على أن ﴿مِنْ﴾ ههنا لتبيين الجنس، ومثله قوله: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أي: الرجس الذي هو وثن. ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ منصوب على وجهين:

أحدهما: أن يكون على الصفة لقوله: ﴿رَبِّ﴾ لأن المعنى: يا ربي، فهو نداء مضاف في موضع نصب، فيكون ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ﴾ صفة له.

وجائز أن ينتصب على أنه نداء ثان، على تقدير: يا فاطر السماوات. و ﴿ذَلِكَ﴾ في موضع رفع بالابتداء، ويكون خبره ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ ويكون ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبراً ثانياً، وإن شئت جعلت ﴿نُوحِيهِ﴾ هو الخبر، وجعلت ﴿ذَلِكَ﴾ في معنى الذي، وقوله: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ صلته.

● المعنى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ ها هنا حذف تقديره: فلما خرج يعقوب عليه السلام وأهله من أرضهم وأتوا مصر دخلوا على يوسف، وفي حديث ابن محبوب بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام، أن يعقوب قال لولده: تحملوا إلى يوسف من يومكم هذا بأهلكم أجمعين، فساروا إليه ويعقوب معهم، وخالة يوسف أم بنيامين، فحثوا السير فرحاً وسروراً تسعة أيام إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف في دار الملك اعتنق أباه وقبله وبكى، ورفع يديه ورفع خالته على

سرير الملك، ثم دخل منزله واكتحل وأدهن، ولبس ثياب العز والملك، فلما رأوه سجدوا جميعاً إعظاماً له، وشكراً لله عند ذلك، ولم يكن يوسف في تلك العشرين سنة يدهن، ولا يكتحل، ولا يتطيب، حتى جمع الله بينه وبين أبيه وإخوته.

وقيل: إن يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة، مع ما يحتاج إليه في السفر، وسألهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فلما دنا يعقوب عليه السلام من مصر تلقاه يوسف في الجند وأهل مصر، فقال يعقوب: يا يهوذا، هذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ابنك، ثم تلاقيا. قال الكلبي: على يوم من مصر، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه، بدأ يعقوب بالسلام، فقال: السلام عليك يا مذهب الأخزان.

وفي كتاب النبوة بالإسناد عن محمد بن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أقبل يعقوب إلى مصر خرج يوسف ليستقبله، فلما رآه يوسف، همَّ بأن يترجل له، ثم نظر إلى ما هو فيه من الملك فلم يفعل، فلما سلم على يعقوب نزل عليه جبرائيل، فقال له: يا يوسف، إن الله جل جلاله يقول: منعك أن تنزل إلى عبيد الصالح ما أنت فيه، ابسط يدك، فبسطها فخرج من بين أصابعه نور، فقال: ما هذا يا جبرائيل؟ قال: هذا، إنه لا يخرج من صلبك نبي أبداً عقوبة بما صنعت بيعقوب، إذ لم تنزل إليه.

وقوله: ﴿ءَاوَيْتَ إِلَيْهِ أَبُويُوسُفُ﴾ أي: ضمهما إليه وأنزلهما عنده، وقال أكثر المفسرين: أنه يعني بأبويه: أباه وخالته، فسمى الخالة: أمًا، كما سمي العم: أبا، في قوله: ﴿وَاللَّهُ ءَابَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وذلك أن أمه كانت قد ماتت في نفاسها بنيامين فتزوجها أبوه، وقيل: يريد: أباه وأمّه وكانا حيّين، عن ابن إسحاق والجبائي. وقيل: إن راحيل أمه نشرت من قبرها حتى سجدت له تحقيقاً للرؤيا، عن الحسن عليه السلام **﴿وَقَالَ﴾** لهم قبل دخولهم مصر **﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ﴾** إن شاء الله **﴿آمِينَ﴾** والاستثناء يعود إلى الأمن، وإنما قال: **﴿آمِينَ﴾** لأنهم كانوا فيما خلا يخافون ملوك مصر ولا يدخلونها إلا بجوازهم. قال وهب: إنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وسبعون إنساناً، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً **﴿وَرَفَعَ أَبُويُوسُفُ عَلَى الْعَرْشِ﴾** أي: رفعهما على سرير ملكه إعظاماً لهما، والعرش: السرير الرفيع، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة **﴿وَحَرُّوا لِمَنْ سَجَدَ﴾** أي: انحطوا على وجوههم، وكان تحية الناس بعضهم لبعض يومئذ السجود الانحناء والتكفير، عن قتادة. ولم يكونوا نهوا عن السجود لغير الله في شريعتهم، فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام، وهي تحية أهل الجنة عجلها لهم، قال أعشى بن ثعلبة:

فلما أتانا بُعَيْدَ الْكَرَى سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا الْعِمَارَ^(١)

وكان من سنة التعظيم يومئذ أن يُسجد للمعظم، عن الزجاج. وقيل: كان سجودهم كهية

(١) العمار: كل شيء على الرأس من عمامة، أو قلنسوة، أو تاج، أو غير ذلك. يعني: وضعناه من رؤوسنا، إعظاماً له.

سورة يوسف

الركوع، كما يفعل الأعاجم، عن الكلبي. وقيل: إن السجود كان لله تعالى شكراً له كما يفعله الصالحون عند تجدد النعم. والهاء في قوله: ﴿لَهُ﴾ عائدة إلى الله تعالى، أي: سجدوا لله تعالى على هذه النعمة، وتوجهوا في السجود إليه، كما يقال: صُلِّيَ للقبلة، ويراد به استقبالها، عن ابن عباس، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام. قال علي بن إبراهيم وحدثني محمد بن عيسى بن عبيد بن يقطين أن يحيى بن أكثم سأل موسى بن محمد بن علي بن موسى مسائل، فعرضها على أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام، فكان إحداها: أن قال: أخبرني أسجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟

فأجاب أبو الحسن عليه السلام: أما سجد يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف، وإنما كان ذلك منهم طاعة لله وتحية ليوسف، كما أن السجود من الملائكة لآدم كان منهم طاعة لله وتحية لآدم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله تعالى لاجتماع شملهم، ألم تر أنه يقول في شكره في ذلك الوقت: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ الآية. الخبر بتمامه.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿يَتَأْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ أي: هذا تفسير رؤيائي وتصديق رؤيائي التي رأيته ﴿مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: صدقاً في اليقظة. وقيل: كان بين الرؤيا وتأويلها ثمانون سنة، عن الحسن. وقيل: سبعون سنة، عن عبد الله بن شاذب. وقيل: أربعون سنة، عن سلمان الفارسي، وعبد الله بن شداد. وقيل: اثنتان وعشرين سنة، عن الكلبي. وقيل: ثماني عشرة سنة، عن ابن إسحاق. قال ابن إسحاق: وولد ليوسف من امرأة العزيز: أفرايم وميشا ورحمة امرأة أيوب، وكان بين يوسف وبين موسى أربعمائة سنة.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أي: وقد أحسن ربي إليّ حيث أخرجني من السجن وأنعم عليّ به ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي: من البادية، فإنهم كانوا يسكنون البادية، ويرعون أغنامهم فيها، فكانت مواشيه قد هلكت في تلك السنين بالقطع، فأغناهم الله تعالى بمصيرهم إلى يوسف، وإنما بدأ عليه السلام بالسجن في تعداد نعم الله دون إخراجه من الحب كرماء، لئلا يبدأ بصنيع إخوته به. وقيل: لأن نعم الله تعالى في إخراجه من السجن كانت أكثر، ولأن السجن طالت مدته، وكثرت محنته ﴿وَمِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي، وحرش بيني وبينهم، وقال ابن عباس: معناه: دخل بيننا بالحسد ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي: لطيف في تدبير عبادته، يدبر أمرهم على ما يشاء، ويسهل لهم العسير، وبلطفه حصلت هذه النعم علينا، من الاجتماع وغيره. قال الأزهرى: اللطيف، من أسماء الله سبحانه، معناه: الرفيق بعباده، يقال: لَطَفَ فلان بفلان لطفًا: إذا رفق. وقال غيره: اللطيف: الذي يوصل إليك إزبك في رفق. وقيل: اللطيف: العالم بدقائق الأمور ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل التدابير.

وفي كتاب النبوة بالإسناد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال يعقوب ليوسف: يا بني! حدثني كيف صنع بك إخوتك؟ قال: يا أبه! دعني. فقال: أقسمت عليك إلا أخبرتني، فقال له: أخذوني وأعدوني على رأس الحب، ثم قالوا لي: انزع قميصك، فقلت لهم: إني أسألكم بوجه أبي

يعقوب ألا تنزعوا قميصي ولا تبدوا عورتني، فرفع فلان السكين عليّ، وقال: انزع، فصاح يعقوب، فسقط مغشياً عليه ثم أفاق، فقال له: يا بني! كيف صنعوا بك؟ فقال يوسف: إني أسألك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلا أعفيتني، قال: فتركه. وروي أيضاً أن يوسف قال ليعقوب عليه السلام: يا أبه، لا تسألني عن صنع إخوتي بي، وسل عن صنع الله بي، قال أبو حمزة: بلغنا أن يعقوب عاش مائة وسبعاً وأربعين سنة، ودخل مصر على يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة، وكان عند يوسف بمصر سبع عشرة سنة. وقال ابن إسحاق: أقام يعقوب بمصر أربعاً وعشرين سنة، ثم توفي ودفن بالشام. وقال سعيد بن جبیر: نقل يعقوب إلى بيت المقدس في تابوت من ساج، ووافق ذلك يوم مات عيصو، فدفنا في قبر واحد، فمن ثم ينقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس. وولد يعقوب وعيصو في بطن واحد ودُفنا في قبر واحد، وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعاً وأربعين سنة، ثم رجع يوسف إلى مصر بعد أن دفن أباه في بيت المقدس عن وصية منه إليه، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة. وكان أول رسول في بني إسرائيل، ثم مات وأوصى أن يدفن عند قبور آبائه. وقيل: دفن بمصر، ثم أخرج موسى عظامه فحملة حتى دفنه عند أبيه. وقيل: أفضت النبوة بعده إلى روبيل، ثم إلى يهوذا.

وفي كتاب النبوة بالإسناد عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر؟ قال: عاش حولين. قلت: فمن كان الحجة لله في الأرض يعقوب أم يوسف؟ قال: كان يعقوب الحجة وكان الملك ليوسف، فلما مات يعقوب حملة يوسف في تابوت إلى أرض الشام فدفنه في بيت المقدس، فكان يوسف بعد يعقوب الحجة، قلت: وكان يوسف رسولاً نبياً؟ قال: نعم، أما تسمع قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾. وبالإسناد عن أبي خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: دخل يوسف السجن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ومكث فيها ثمانين سنة، وبقي بعد خروجه ثمانين سنة، فذلك مائة سنة وعشر سنين. قالوا: ولما جمع الله سبحانه ليوسف شمله، وأقر له عينه وأتم له رؤياه، ووسّع عليه في ملك الدنيا ونعيمها، علم أن ذلك لا يبقى له ولا يدوم، فطلب من الله سبحانه نعيماً لا يفنى، وتاقت نفسه إلى الجنة، فتمنى الموت ودعا به، ولم يتمن ذلك نبي قبله، ولا بعده تمنى أحد، فقال:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي: أعطيتني ملك النبوة وملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي تأويل الرؤيا ﴿فَاطْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالق السماوات والأرض ومنشئهما لا على مثال سبق ﴿أَنْتَ وَلِيُّ﴾ أي: ناصرني ومدبري وحافظي ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تتولى فيهما إصلاح معاشي ومعادي ﴿تَوْفَنِي مُسْلِماً﴾ قال ابن عباس: ما تمنى نبي تعجيل الممات إلا يوسف، لما انتظمت أسباب مملكته اشتاق إلى ربه. وقيل: معناه ثبتني على الإيمان إلى وقت الممات، وأمتني مسلماً ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ﴾ أي: بأهل الجنة من الأنبياء والأولياء والصديقين. وقيل: لما جمع الله سبحانه بينه وبين أبويه وإخوته، أحب أن يجتمع مع آبائه في الجنة فدعا بهذا الدعاء. والمعنى: ألحقني بهم في ثوابهم ودرجاتهم. قيل: فتوفاه الله تعالى بمصر وهو نبي فدفن في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنه لما مات، تشاح الناس عليه، كل يحب أن يدفن في محلته، لما كانوا يرجون من بركته، فرأوا أن

يدفنه في النيل فيمر الماء عليه، ثم يصل إلى جميع مصر فيكون كلهم فيه شركاء، وفي بركته شرعاً سواء، فكان قبره في النيل إلى أن حمله موسى عليه السلام حين خرج من مصر.

ثم عاد سبحانه بعد تمام القصة إلى خطاب النبي ﷺ فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الذي قصصت عليك من قصة يوسف يا محمد ﴿وَمِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: من جملة أخبار الغيب ﴿تُوجِبُهُ إِلَيْكَ﴾ على السنة الملائكة لتخبر به قومك، يكون دلالة على إثبات نبوتك، ومعجزة دالة على صدقك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: وما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ إذ عزموا على إلقائه في البئر، واجتمعت آراؤهم عليه ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يحتالون في أمر يوسف، حتى ألقوه في الجب، عن الجبائي. وقيل: يمكرون بيوسف، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة.



قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٣) ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٢٤) ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٢٥) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ (١٢٦) ﴿أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٧).

● **القراءة:** في الشواذ قراءة عكرمة، وعمرو بن فائد: ﴿وَالْأَرْضُ يَمْرُونَ عَلَيْهَا﴾ بالرفع، وقراءة السدي: ﴿وَالْأَرْضُ﴾ نصباً، والقراءة المشهورة: بالجر.

● **الحجة:** من رفع أو نصب وقف على السماوات، ثم ابتدأ ﴿وَالْأَرْضُ﴾ فالرفع على الابتداء، والجملة بعدها خبره، والعائد إلى المبتدأ الهاء من ﴿عَلَيْهَا﴾ والضمير في ﴿عَنْهَا﴾ عائد إلى الآية. وأما النصب فبفعل مضمر، تقديره: ويطأون الأرض. ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود: ﴿يَمْشُونَ عَلَيْهَا﴾ فلما أضمر الفعل الناصب فسر به بقوله ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ومن جر ﴿وَالْأَرْضُ﴾ على قراءة القراء، فإن شاء وقف على ﴿وَالْأَرْضُ﴾ وإن شاء وقف آخر الآية.

● **اللغة:** الحرص: طلب الشيء باجتهاد في إصابته. والعالم: الجماعة من الحيوان التي من شأنها أن تعلم، مأخوذ من العلم. وقيل: لما حواه الفلك عالم على سبيل التبع للحيوان الذي ينتفع به وهو مخلوق لأجله. والغاشية: المجللة للشيء بانبساطها عليه، وغشيه يغشاه: إذا غطاه، والغشاء: الغطاء. والبغته: المفجأة، وهو مجيء الشيء من غير توقع:

الإعراب: : ﴿وَكَايْنٍ﴾ في معنى «كم» وأصلها «أي» دخلت عليها الكاف. و ﴿بَغْتَةً﴾ مصدر وضع موضع الحال، تقول: لقيته بغتة، وفجأة.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الآيات والمعجزات التي لو تفكروا فيها عرفوا الحق من جهتها فلم يتفكروا، بين عقيبها أن التقصير من جهتهم، حيث رضوا بالجهل، وليس من جهته سبحانه،

لأنه نصب الأدلة والبيّنات، ولا من جهتك لأنك دعوتهم، فقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وليس أكثر الناس بمصدقين ولو حرصت على إيمانهم وتصديقهم، واجتهدت في دعائهم إليه وإرشادهم إليه، لأن حرص الداعي لا يغني شيئاً إذا كان المدعو لا يجيب. ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ولا تسألهم على تبليغ الرسالة وبيان الشريعة أجراً فيصدهم ذلك عن القبول ويمنعهم من الإيمان، ويثقل عليهم ما يلزمهم من الغرامة فأعذارهم منقطعة ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: ما القرآن إلا موعظة وعبرة وتذكير للخلق أجمعين، فلست بنذير لهؤلاء خاصة ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَاتِهِ﴾ أي: كم من حجة ودلالة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تدل على وحدانية الله تعالى، من الشمس والقمر والنجوم في السماء، ومن الجبال والشجر وألوان النبات وأحوال المتقدمين وآثار الأمم السالفة في الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويصرونها ويشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: هم عن التفكير فيها والاعتبار بها معرضون لا يتفكرون فيها، يعني الكفار.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ اختلف في معناه على أقوال:

أحدها: أنهم مشركو قريش كانوا يقرون بالله خالقاً، ومحياً ومميتاً، ويعبدون الأصنام ويدعونها آلهة مع أنهم كانوا يقولون: الله ربنا وإلهنا يرزقنا، فكانوا مشركين بذلك، عن ابن عباس، والجبائي.

وثانيها: إنها نزلت في مشركي العرب، إذ سألوا من خلق السماوات والأرض وينزل المطر؟ قالوا: الله، ثم هم يشركون، وكانوا يقولون في تليبتهم: لييك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، عن الضحاك.

وثالثها: إنهم أهل الكتاب آمنوا بالله واليوم الآخر والتوراة والإنجيل، ثم أشركوا بإنكار القرآن وإنكار نبوة نبينا محمد ﷺ، عن الحسن. وهذا القول مع ما تقدمه رواه دارم بن قبيصة، عن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جده، عن أبي عبد الله عليه السلام.

ورابعها: إنهم المنافقون يظهرون الإيمان ويشركون في السر، عن البلخي.

وخامسها: إنهم المشبهة، آمنوا في الجملة، وأشركوا في التفصيل، وروي ذلك عن ابن

عباس.

وسادسها: إن المراد بالإشراك شرك الطاعة لا شرك العبادة، وأطاعوا الشيطان في المعاصي التي يرتكبونها، مما أوجب الله عليها النار، فأشركوا بالله في طاعته ولم يشركوا بالله شرك عبادة فيعبدون معه غيره، عن أبي جعفر عليه السلام. وروي عن أبي عبد الله أنه قول الرجل: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لضاع عيالي، جعل الله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه. فقليل له: لو قال: لولا أن من الله عليّ بفلان لهلكت؟ فقال: لا بأس بهذا.

وفي رواية زرارة، ومحمد بن مسلم، وحمران عنهما عليه السلام: إنه شرك النعم. وروي

محمد بن الفضيل، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: إنه شرك لا يبلغ به الكفر.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: أفأمن هؤلاء الكفار أن يأتيهم عذاب من الله سبحانه، يعمهم، ويحيط بهم، وهي من غاشية السرج لأنها تعمه بالسر، وإنما أتى بلفظة التأنيث على تقدير العقوبة، أي: عقوبة مُجَلَّلَةٌ لجميعهم، عن ابن عباس. وقيل: هو عذاب الاستئصال، عن مجاهد، وأبي مسلم. وقيل: هي الصواعق والقوارع، عن الضحاك ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ يعني القيامة، ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة على غفلة منهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بقيامها، قال ابن عباس: تهجم الصيحة بالناس وهم في أسواقهم.



قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَكُنَّ الْأَخْزَارُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾.

● القراءة: قرأ حفص عن عاصم: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ بالنون حيث كان، وقرأ الباقون: ﴿يُوحِي﴾ بالياء وفتح الحاء. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذكرنا الخلاف فيه في سورة الأنعام.

● الحجة: قال أبو علي: الوجه في النون قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ﴾ والوجه في الياء قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ﴾، وقل ﴿أَوْحَىٰ إِلَيْ﴾.

● اللغة: السبيل: الطريق، وهو المكان المهيأ للسلوك، ودين الإسلام: طريق يؤدي إلى الجنة، والسبيل: يذكر ويؤنث، قال:

فلا تبعد فكل بني أناسٍ سيُصبحُ سالكاً تلك السبيل

والبصيرة: ما يبصر به الشيء، أي: يعرف. والسير: المرور الممتد في جهة، ومنه: السير واحد السيور، لامتداده في جهة.

● المعنى: ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبين للمشركين ما يدعو إليه، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: طريقي، وستي، ومنهاجي، عن ابن زيد. وقيل: معناه هذه الدعوة التي أدعو إليها ديني وطريقي، عن مقاتل، والجبائي. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعو إلى توحيد الله وعدله ودينه على يقين ومعرفة وحجة قاطعة، لا على وجه التقليد ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي: أدعوكم أنا ويدعوكم أيضاً إليه من آمن صبي ويذكر بالقرآن والموعظة، وينهي عن معاصي الله. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ ثم ابتداء وقال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وهذا معنى قول ابن عباس: إنه يعني أصحاب محمد كانوا على أحسن طريقة ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ﴾ معناه: تنزيهاً لله عما أشركوا، وتقديره: قل: هذه سبيلي، وقل: سبحانه الله. وقيل: إنه اعتراض بين الكلامين، والواو فيه مثل قولك:

قال الله، وهو منزّه عن الشركاء، سبحانه الله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين اتخذوا مع الله نداً وكُفّوا وولداً.

وفي هذه الآية دلالة على فضل الدعاء إلى الله سبحانه، وإلى توحيده وعدله، ويعضد ذلك الحديث عنه ﷺ أنه قال: العلماء أمناء الرسل على عباده.

وفيها دلالة أيضاً على أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو إلى الله في كل أوقاته وإن كان يبين الشرائع في أوقات ما.

وفيها دلالة أيضاً على أن الواجب في الداعي أن يكون على ثقة وبصيرة ودلالة قاطعة، وذلك يوجب فساد التقليد.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ بيّن سبحانه أنه إنما أرسل الرسل من أهل الأمصار لأنهم أرجح عقلاً وعلماً من أهل البوادي، لبعد أهل البوادي عن العلم وأهله، عن قتادة. وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً قط من أهل البادية ولا من الجن ولا من النساء، وذلك أن أهل البادية يغلب عليهم القسوة والجفاء، وأهل الأمصار أحد فطناً ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أفلم يسر هؤلاء المشركون المنكرون لنبوتك يا محمد في الأرض ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبين لرسولهم؟ وكيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال؟ فيعتبروا بهم ويحذروا مثل ما أصابهم ﴿وَلَذَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يقول: هذا صنيعنا بأهل الإيمان والطاعة في دار الدنيا، إذ أهلكنا عدوهم ونجيناهم من شرهم، ولدار الآخرة خير لهم من دار الدنيا ونعيمها. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: لشبّر من الجنة خير من الدنيا وما فيها. قال الزجاج: قال الله سبحانه في غير هذا الموضع: ﴿وَلَذَارُ الْأَخِرَةِ﴾ فالآخرة نعت للدار، لأن لجميع الخلق دارين، الدار التي خلقوا فيها وهي الدنيا، والدار الآخرة هي التي يعادون فيها خلقاً جديداً، فإذا قال: ﴿ذَارُ الْأَخِرَةِ﴾ فكأنه قال: دار الحال الآخرة، لأن للناس حالين: حال الدنيا وحال الآخرة. ومثل هذا في الكلام الصلاة الأولى، وصلاة الأولى، فمن قال: الصلاة الأولى جعل الأولى نعتاً للصلاة، ومن قال: صلاة الأولى أراد صلاة الفريضة الأولى والساعة الأولى ﴿أَفَلَا تَقُولُونَ﴾ أي: أفلا يفهمون ما قيل لهم فيعلمون.



قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١١﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر: ﴿كُذِبُوا﴾ بالتخفيف، وهي قراءة علي وزين العابدين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وزيد بن علي، وابن عباس، وابن مسعود،

وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك، والأعمش، وغيرهم. وقرأ الباقون: ﴿كَذَّبُوا﴾ بالتشديد، وهي قراءة عائشة، والحسن، وعطاء، والزهري، وقتادة. وروي عن ابن عباس بخلاف، ومجاهد بخلاف: ﴿كَذَّبُوا﴾ بالتخفيف وفتح الذال والكاف. وقرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب، وسهل: ﴿فَتَجِيَّ مَنْ نَشَأُ﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء، وقرأ الباقون: ﴿فَتَنجِي مَنْ نَشَأُ﴾ بنونين وتخفيف الجيم وسكون الياء. وفي الشواذ عن ابن محيصن: ﴿فَتَجَا﴾ بفتح النون والجيم والتخفيف. وعن عيسى الثقفي: ﴿وَلَا يَكُنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذِي وَرَحْمَةٌ﴾ برفع الأحرف الثلاثة، والقراءة بنصبها.

● **الحجة:** قال أبو علي: الضمير في ﴿ظَنُّوا﴾ في قول من شدد ﴿كَذَّبُوا﴾ للرسول تقديره: ظن الرسول، أي: تيقنوا، أو ظنوا الظن الذي هو حسابان، ومعنى كَذَّبُوا ثَلَّفُوا بالتكذيب، كقولهم: جَبَّئَتْهُ خَطَأَتُهُ، وتكذبيهم إياهم: يكون بأن يلقوا بذلك، كقولهم له: وإن نظنك لمن الكاذبين، أو بما يدل عليه وإن خالفه في اللفظ ومن حجة التثقيل قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ وقوله: ﴿كَذَّبُوا رَسُولٌ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولُ﴾.

وأما من خفف فقال: ﴿كَذَّبُوا﴾ فهو من قولهم: كَذَّبْتَ الحديث، أي: لم أضدِّقْ، وفي التنزيل: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وقياسه، إذا اعتبر بالخلاف، أن يتعدى إلى مفعولين كما تعدى ﴿صَدَّقَ﴾ في قوله: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرَّيًّا بِالْحَقِّ﴾ وقال الأعشى:

فَصَدَّقْتُهُ، وَكَذَّبْتُهُ وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

قال سيويه: كَذَّبَ يَكْذِبُ كَذْبًا، وقالوا: كِذَابًا، فجاءوا به على فعال، وقد خففه الأعشى، وقال ذو الرمة:

وَقَدْ حَلَفْتُ بِاللَّهِ مَيَّةً مَا الَّذِي أَقُولُ لَهَا إِلَّا الَّذِي أَنَا كَاذِبُهُ^(١)

والضمير الذي في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبُوا﴾ للمرسل إليهم، وظنُّ المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من أنهم إن لم يؤمنوا أنزل بهم العذاب، وإنما ظنوا ذلك لما شاهدوه من إمهال الله إياهم وإمهالهم لهم.

فإن قلت: كيف يجوز أن يحمل الضمير في ﴿ظَنُّوا﴾ على أنه للمرسل إليهم الرسل، والذين قد تقدم ذكرهم الرسل دون المرسل إليهم؟

قيل: إن ذلك لا يمتنع، لأن ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم لمقاربة أحد الاسمين الآخر، ولما في لفظ الرسل من الدلالة على المرسل إليهم، وقد قال الشاعر:

أَمِنَكَ الْبَرْقُ أَزْقَبُهُ فَهَاجَا فَبِتُّ أَحَالَهُ دَهْمًا خِلَاجَا

أي: بت أخال الرعد صوت دهم، فأضمر الرعد ولم يجز له ذكر، لدلالة البرق عليه لمقاربة لفظ كل واحد منهما للآخر، وفي التنزيل: ﴿سَرَّيْلٌ تَفِيكُمُ الْحَرَّ﴾ واستغنى عن ذكر

(١) مية: اسم امرأة و«ما» نافية أي: ليس الذي أقول إلا كذبًا.

البرد لدلالة الحر عليه، وإن شئت قلت: إن ذكرهم قد جرى في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيكون الضمير للذين من قبلهم من مكذبي رسل الله. فإن ذهب ذاهب إلى أن المعنى: ظن الرسل أن الذي وعد الله سبحانه أمهم على لسانهم قد كذبوا به، فقد أتى عظيماً لا يجوز أن ينسب مثله إلى الأنبياء، ولا إلى صالحى عباد الله تعالى.

وكذلك من زعم أن ابن عباس ذهب إلى أن الرسل قد ضعفوا فظنوا أنهم قد أخلفوا، لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد. حدثنا أحمد بن محمد قال: حدثنا المؤمل قال: حدثنا إسماعيل بن عليه، عن أبي المعلى، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ قال: إن الرسل يتسوا من قومهم أن يؤمنوا، وإن قومهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما قالوا لهم أنهم نصر الله عند ذلك.

وأما قوله: ﴿فَتَنَجَّىٰ مَن نَّشَاءُ﴾ فإن ننجي حكاية للحال، لأن القصة مما قد مضى، وإنما حكي فعل الحال كما كانت عليه، كما أن قوله: ﴿وَإِنَّ رَيْكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ حكاية للحال الكائنة، وكما أن قوله: ﴿زَيْمًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ جاء على الحكاية للحال الكائنة، ومن ذلك قوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ فلولا حكاية الحال لم يعمل اسم الفاعل، لأنه إذا مضى اختص وصار معهوداً فخرج بذلك من شبه الفعل، ألا ترى أن الفعل لا يكون معهوداً، فكما أن اسم الفاعل إذا وصف أو حقر لم يعمل عمل الفعل لزوال شبه الفعل عنه بالاختصاص الذي يحدثه فيه التحقير والوصف، كذلك إذا كان ماضياً، وأما النون الثانية من ﴿تَنَجَّىٰ﴾ فهي مخفأة مع الجيم، وكذلك النون مع سائر حروف الفم لا تكون إلا مخفأة. قال أبو عثمان: تبينها معها لحن، وللنون مع الحروف ثلاث أحوال: الإدغام، والإخفاء، والبيان، وإنما تدغم إذا كانت مع مقاربها كما يدغم سائر المقاربة فيما يقاربه، والإخفاء فيها مع حروف الفم التي لا تقاربها، والبيان فيها مع حروف الحلق، فأما حذف النون الثانية من الخط فيشبه أن يكون لكراهة اجتماع المثليين فيه. ألا ترى أنهم كتبوا مثل: العليا والدنيا ويحيا ونحو ذلك بالألف، فلولا اجتماعها مع الياء لكتبت بالياء، كما كتبت حبلى ويخشى، وما لم يكن فيه ياء من هذا النحو بالياء، فكأنهم لما كرهوا اجتماع المثليين في الخط حذفوا النون، وقوى ذلك أنه لا يجوز فيها إلا الإخفاء، ولا يجوز فيها البيان، فأشبه بذلك الإدغام، لأن الإخفاء لا يبين فيه الحرف المخفي، كما أن الإدغام لا يبين فيه الحرف المدغم بيانه في غير الإدغام، فلما وافق النون المدغم في هذا الوجه استجيز حذفه من الخط.

ومن ذهب إلى أن النون الثانية مدغمة في الجيم فقد غلط، لأنها ليست مثل الجيم ولا مقاربة لها، وإذا خلا الحرف من هذين الوجهين لم يدغم فيما اجتمع معه.

ومن قرأ: ﴿فَتَنَجَّىٰ﴾ فإنه أتى على لفظ الماضي، لأن القصة ماضية، ويقوي ذلك أنه عطف

عليه فعل مسند إلى المفعول به، وهو قوله: ﴿وَلَا يَرْدُّ بِأُسْنًا عَنِ الْقَوَرِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولو كان ننجي مسنداً إلى الفاعل كقول من خالفه لكان ﴿وَلَا يَرْدُّ بِأُسْنًا﴾ أشبه، ليكون مثل المعطوف عليه. ومن قرأ: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما بعده بالرفع، فيكون التقدير: لكن هو تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء، فحذف المبتدأ وبقي الخبر.

● **اللغة:** ﴿أَسْتَيْسَسَ﴾ بمعنى يشس، كأنه طلب اليأس لعلمه بامتناع الأمر. والبأس: الشدة، وهو شدة الأمر على النفس، ومنه: البؤس الفقر، ومنه: لا بأس عليك. والقصص: الخبر يتلو بعضه بعضاً من أخبار من تقدم. والعبرة: الدلالة التي تعبر إلى البغية. والألباب: العقول، واحداً لب، وإنما سمي بذلك لأنه أنفس شيء في الإنسان، ولب كل شيء خياره.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه وتعالى عن حال الرسل مع أممهم، تسلياً للنبي ﷺ، فقال: ﴿حَقَّ إِذَا أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ وها هنا حذف يدل الكلام عليه، وتقديره: إنا أخرنا العقاب عن الأمم السالفة المكذبة لرسلنا، كما أخرناه عن أمتك، يا محمد، حتى إذا بلغوا إلى حالة يأس الرسل عن إيمانهم، وتحقق يأسهم بإخبار الله تعالى إياهم ﴿وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ أي: تيقن الرسل أن قومهم كذبوهم تكذيباً عاماً، حتى إنه لا يصلح واحد منهم، عن عائشة، والحسن، وقتادة، وأبي علي الجبائي. ومن خفف فمعناه: ظن الأمم أن الرسل كذبوهم فيما أخبروهم من نصر الله إياهم وإهلاك أعدائهم، عن ابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن جبیر، ومجاهد، وابن زيد، والضحاك، وأبي مسلم. وقيل: يجوز أن يكون الضمير في ﴿طَنُوا﴾ راجعاً إلى الرسل أيضاً، ويكون معناه: وعلم الرسل أن الذين وعدوهم الإيمان من قومهم أخلفوهم، أو كذبوا فيما أظهره من الإيمان، وروي أن سعيد بن جبیر والضحاك اجتماعاً في دعوة، فسنل سعيد بن جبیر في هذه الآية، كيف يقرؤها؟ فقال: وطنوا أنهم قد كذبوا، بالتخفيف بمعنى: وظن المرسل إليهم أن الرسل كذبوهم، فقال الضحاك: ما رأيت كالיום قط؟ لو رحلت في هذه إلى اليمن لكان قليلاً. وروي ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: كانوا بشراً فضعفوا ويشسوا وظنوا أنهم قد أخلفوا، ثم تلا قوله تعالى: ﴿حَقَّ يَقُولُ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ الآية، وهذا بعيد وقد بينا ما فيه ﴿جَاءَهُمْ﴾ أي: جاء الرسل ﴿نَصْرًا﴾ حين يشسوا بإرسال العذاب على الكفار ﴿فَنُجِيَ مَن نَّشَاءُ﴾ أي: نخلص من نشاء من العذاب عند نزوله، وهم المؤمنون ﴿وَلَا يَرْدُّ بِأُسْنًا﴾ أي: عذابنا ﴿عَنِ الْقَوَرِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: في قصص يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي: فكرة وبصيرة من الجهل وموعظة، وهو ما أصابه ﷺ، من ملك مصر والجمع بينه وبين أبويه وإخوته، بعد إلقائه في الجب وبيعه وحبسه.

وقيل: ﴿فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ لأن نبينا ﷺ لم يقرأ كتاباً ولا سمع حديثاً ولا خالط أهله، ثم حدثهم به في حسن معانيه، وبراعة ألفاظه ومبانيه بحيث لم يرد عليه أحد من ذلك شيئاً، فهذا من أدل الدلائل على صدقه وصحة نبوته، ﴿لَا تُؤْتِي الْأَلْبَابُ﴾ أي: لذوي العقول ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ أي: ما كان ما أداه محمد أو أنزل عليه حديثاً يختلق كذباً ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ

يَذِيُوْا۟ أَي: ولكن كان تصديق الكتب الذي بين يديه، لأنه جاء كما بشر به في الكتب، عن الحسن، وقتادة ﴿وَتَقْصِيْلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: وبيان كل شيء يحتاج إليه من الحلال والحرام وشرائع الإسلام ﴿وَهَدًى﴾ أي: ودلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: ونعمة ينتفع بها المؤمنون علماً وعملاً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ﴾ إنما خصهم بذلك لأنهم المتفعلون به دون غيرهم. وبالله التوفيق والعصمة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تَمَّ الجزء الخامس من كتاب مجمع البيان في علوم القرآن

jabir.abbas@yahoo.com

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	سورة التوبة
١١٥	سورة يونس
١٨٤	سورة هود
٢٧٥	سورة يوسف
٣٦٥	الفهرس

